الدكتور اشتيفان بنديك

الانسان... والجنون

مذكرات طبيب أمراض عقلية

ترجمة :

الدكتور قدري حفني
دكتوراه في علم النفس

لطفي فطيم
ماجستير في علم النفس

مراجعة وتقديم :
الدكتور أحمد عكاشة
أستاذ الطب النفسي المساعد بكلية الطب بجامعة عين شمس

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

هذه هي الترجمة العربية لكتاب

Benedek, Istvan The Gilded Cage,
Corvina Press, Budapest, 1965



تصـــدير

ان اختيار هذا الكتاب لترجمته الى اللغة العربية كان اختيارا موفقا حقا لان المكتبة العربية ينقصها هذا النوع من الدراسات التي تجمع بين العلم والانسانية في موضوع شائق يتعلق بتفكير وعواطف وسلوك الانسان . لقد كان سلوك الانسان ـ ولا يزال ـ مجالا للبحث بين رجال الدين ، والفلسفة ، والاجتماع ، واخيرا علماء النفس ، وما زالت الابحاث جارية في كيفية معالجة نفس الانسان ، هل تعالج بطرق موضوعية وبمعادلات حسابية كباقي الامراض العضوية أم هي شيء غيبي يحتاج للفراسة والمتاهات المختلفة لدراساتها ، وما زالت مدارس الطب النفسي مختلفة في سببية الامراض النفسية والعقلية ، هل هي ضعف وراثي في الجهاز العصبي ؟ هل هي تغيرات فسيولوجية وكيميائية في مراكز المخ المختلفة ؟ هل هي آثار صدمات نفسية في الطفولة ؟ هل تنشأ من علاقة الطفل بأبويه ؟ هل هي عدم تكيف بين قدرات الفرد وتطلعاته . ولكن يتفق الجميع في ان اسباب واستمرار مرض النفس والعقل له علاقة واضحة ومباشرة بعلاقة الفرد والمجتمع او كما سماه المؤلف علاقة الفرد بالعالم وإحساسه بذاتيته المفقودة ، وصراعاته المختلفة لكي يحصل على ما يصبو اليه .

لقد مر الطب النفسي بعدة مراحل من شعوذة ، ودجل ، ونظريات شبه علمية ، وتفسيرات اجتهادية حتى دخل حظيرة التجربة العلمية في هذا القرن ، ولقد شرح المؤلف حالة مرضى النفس والعقل وكيفية تعذيبهم ورجمهم في القرون السابقة ، والدور الذي قام به مع الآخرين من رواد الطب النفسي في اقتلاع الظلم ، وتخفيف القيود ، واعتبار هؤلاء المرضى على درجة عالية من الحساسية والفهم والاستعداد للتوافق مع المجتمع في حالة قبولهم كأفراد ومواطنين في هذا المجتمع .

ان نجاح المؤلف في سرد تاريخ الطب النفسي والعقلي بهذه الطريقة المبسطة وبإعطاء الامثلة من مرضاه تعكس شفافية هذا الطبيب ، وقدراته الانسانية الفائقة، لان تعمق الانسان في فهم اخيه الانسان لهو اسمى أنواع الدراسات ، ويستحق اعطائه كل طاقات الفرد .

وهكذا نرى اثناء قراءتنا الكتاب تطور العلاج من التعذيب والضرب وحمامات الماء البارد والساخن ، ومطاردة المرضى الى صدمات الأنسولين الى صدمات الكهرباء المباشرة ثم الى جلسات الكهرباء تحت التخدير ، واخيرا العقاقير الكيمائية المضادة للفصام والاكتئاب والهوس والقلق والادمان ... الخ وكذلك العلاج النفسي الانساني للمرضى ، القائم على تفهم مشاكل المريض وصراعاته في حياته مع المجتمع الخاص والعام .

يتعجب الكثير من المرضى عندما يسمعون عن علاج الامراض النفسية والعقلية بالعقاقير الكيمائية ظنا منهم ان النفس شيء غير مرئي لا يمكن معالجته بالادوية . ولكن اذا نظرنا للموضوع نظرة مادية فسنجد أن النفس ما هي الا الوظائف العليا للجهاز العصبي وما هي الا مجموعة من الوظائف التي تشمل العاطفة والتفكير والسلوك والشخصية ومركز هذه الوظائف في المخ الذي يعمل من خلال موجات كهربائية دقيقة ، وتفاعلات كيمائية في غاية التعقيد . وأن اي اضطراب في هذه الكيمائية سيؤدي بالتالي الى خلل في الوظائف الخاصة به ، وهنا ينشأ المرض النفسي والعقلي ، وهذا لا يعني اهمال الجانب الانساني لان العوامل البيئية والاجتماعية والصدمات النفسية لها تأثيرها الفسيولوجي الواضح على الجهاز العصبي وهذا بالتالي له تأثيره على تعامل الفرد مع المجتمع ومن هنا تنشأ الدائرة المفرغة ، هل نعالج اولا الاضطرابات الكيمائية لكي تستقيم وظائف الجهاز العصبي وبعدها تتكيف الشخصية مع الظروف الخارجية ؟ أم نعالج اولا الشخصية بحيث يترتب على تقويمها احداث التغيرات الكيمائية الصالحة أم نعالج الاثنين في نفس الوقت ؟ وهذا هو الرأي الشائع الان . لقد وضح في الاحصائيات العالمية أن اكثر من ثلث المرضى المترددين على الاطباء في كافة تخصصاتهم يشكون من أعراض عضوية سببها الرئيسي عوامل نفسية . وأن عشرين من كل مائة يولدون سيصابون في فترة ما اثناء حياتهم بمرض نفسي او عقلي . ان هذه الاحصائيات تعكس اهمية الطب النفسي في خدمة البشرية وسعادة العالم .

ولعله قد اتضح للقارىء أهمية ان يعيش الطبيب النفسي ــ على الاقل في بدء تمرينه ــ مع مرضاه في مستشفى واحد حتى يلم بكل انفعالاتهم وخلجاتهم ويستطيع ان يكون معهم ليل نهار ، واعتقد انه يجب على الطبيب النفسي أن يعمل كطبيب مقيم في احدى المصحات النفسية فترة لا تقل عن ثلاث سنوات حتى يستطيع أن يتابع مرضاه ويكوّن فكره الخاص ونظريته في العلاج على اساس عملي ، وخبرة واضحة بالمرضى ، فالطب النفسي من الفروع التي يحتاج فيها الطبيب الى الخبرة والحياة مع المرضى ، ولا يمكن تعلم ذلك من المراجع والكتب

المختلفة ، ان الطبيب النفسي يكتسب ويصقل انسانيته من مرضاه ، ويتعلم ان مريض النفس والعقل لديه المقدرة على تبادل العاطفة والسلوك السوي ان اعطاه الطبيب القدر الكافي من الفهم والتقدير .

ان ترجمة هذا الكتاب عمل انساني يخدم قضية كانت مهملة حتى وقت قريب وهي العناية بعلاج مرضى النفوس والعقول ، وكيفية تأهيلهم للعودة للحياة العامة وممارسة حقوقهم كمواطنين لهم حقوق وعليهم واجبات .

واخيرا فانني أهنىء المترجمَين على دقتهما في ترجمة هذا الكتاب بهـــذا الاسلوب العلمي الرصين ، الذي يجذب القارىء للحياة بعض الوقت مع مرضى النفس والعقل .

دكتـــور
احمد عكاشة



مقدمة المؤلف

لقد شرعت في كتابة هذا الكتاب كمذكرات يومية ، ولعل ذلك هو السبب في انه لم يتخذ «نمطاً محدداً» . فهو ليس رواية ، رغم ان أجزاء كثيرة منه تبدو كما لو كانت كذلك . وهو ليس مؤلفا علميا صرفا ، رغم ان بعض الاستطرادات المتخصصة التي قد تثير امتعاض القارىء العادي قد وجدت طريقها اليه ، ورغم ان بعض الزملاء من الاطباء قد يدهشهم نشري مهرطقاتي المهنية في صورة ادبية. وهو ليس من الكتب العلمية المبسطة ايضا ، فمثل تلك الكتب انما تقوم بتعليم ما هو مقبول رسميا بلغة ميسورة وهو في النهاية لا يمكن اعتباره مذكرات يومية ، لان تاريخنا الشخصي قد تضاءل الى جانب تاريخ المرضى بحيث شكل تاريخهم الجانب الاكبر منه .

وتعد الكتابة عن مرضى العقول او عن الاختلال العقلي من الامور الحساسة دائما . فالقراء يتناولونها برهبة ، أو يتوقعون منها اكتشافات مفاجئة فالموضوع مثير للتشويق والفزع معا فضلا عن انه محاط بسرية غير طبيعية . ويعتقد من لا يعرفون المختل عقليا اعتقادا جازما بأن «الشخص المجنون» **ليس بإنسان** . والهدف الرئيسي من هذا الكتاب هو الكشف عن مدى **انسانيته** . وبالتالي حاجته الى معالجة انسانية . لقد كان المجتمع بالغ القسوة بالنسبة لهم لعدة آلاف من السنين واني اعتبر مهمتي هي أن اوضح للناس انه ليس من حقهم نبذ الشخص المختل عقليا ، فاختلال العقل كارثة يمكن ان تحلّ بأي منا . وواجبنا المشترك هو ان نحاربها ، وأن نخفف بالعلاج الانساني من عبء أولئك الذين حلّت بهم الكارثة . ومنطق المجتمع عموما هو اننا ينبغي أن نلقي بهؤلاء الافراد سيئي الحظ بعيدا في اي مكان حتى لا يمزقوا نياط قلوبنا ... وليست هناك انسانية اكثر زيفا من هذه. ان الخوف والكراهية لا يمكن ان يؤديا الى تحسين الموقف بأي حال .

وأتعشم ان أوضح انه ليس هناك ثمة سبب للخوف او الكراهية . ان الشفقة

والشغف بالمعرفة او الرغبة في المساعدة او النظرة الواقعية البسيطة ، كل ذلك يعد اسهاما اكثر انسانية من الخوف . وطالما ان أفراد المجتمع يجاهدون من اجل الحصول على المزيد من المعرفة ، فان عليهم مواجهة حقيقة الاختلال العقلي والإلمام بحياة المختل عقليا . كما يجب عليهم اطلاق سراح المختل عقليا وتحريره عما بنفسه من فزع خرافي . وسوف يدهش الجميع عند اكتشاف ان نزلاء المصحات العقلية هم من البشر ايضا وانهم اناس محتقرون ومنبوذون ، ولكنهم يودون ان يحيوا الحياة التي تلائم الكائنات الانسانية .

ويتناول كتاب «قفص من ذهب» تلك السنوات الثلاث التي قضيناها في صراع مع نزلاء احدى المصحات العقلية ومن اجلهم . كان علينا أن نحارب على كافة انواع الجبهات ، في الداخل وفي الخارج معا ، ضد الرياء الاجتماعي ، وضد الصعوبات البيروقراطية والاقتصادية ، وضد الجهل والقسوة لدى القائمين بالتمريض ، وضد المرضى انفسهم ، وضد التحيزات العلمية ، والمخاوف الخرافية لدى العامة ، وضد غيرة الزملاء .

ومثل ذلك الصراع ليس بالامر السهل ولست أدّعي اننا حققنا نجاحا كاملا ، ولا أحاول أن اجعل القارىء يظن انني قاتلت دون ان تخور قواي ابدا ، فلقد كانت هناك سلسلة من التقدم والتقهقر المتبادل ، وكثيرا ما كنت أشعر بالخذلان وبالرغبة في التسليم ، ثم اعاود الهجوم متقدما بعد ان أستجمع قواي من جديد . لقد حققنا الشيء الكثير بلا شك في تلك السنوات الثلاث . ومن المؤكد ايضا أن ما ابدعناه قد اتينا به من الناحية العملية ـ من لا شيء ، ولم يكن نقص المادة اساسا هو الامر الذي يصعب التغلب عليه بل كانت الروح السلبية .

هل تستحيل الكتابة عن هذا الموضوع الحساس دون إثارة تحيزات اجتماعية؟ ليست لديّ إجابة على هذا السؤال سوى الإقدام على المحاولة فحسب . لقد تحاشيت الاغراق في الاصطلاحات الفنية ولكنني لم أستطع المضي دون بعض الشرح العلمي . ويتطلب ذلك بالطبع استخدام بعض المصطلحات الفنية . ان كل من يحصل على قدر متوسط من التعليم في حضارتنا تكون لديه الى حد ما لمحة عن النسبية ، والنواة الذرية ، وأصول الانواع ، والبنسلين ، وعن الكثير مما يشبه ذلك . أفلا يجب ان نتوقع منه ايضا ان يعرف شيئا ما عن الفصام ، وعن الصرع، وعن مرضى العقول كيف يعيشون وكيف يعالجون ، وعن المشكلات المتعلقة برد اعتبارهم ؟ ان ذلك امر مرغوب فيه بالتأكيد .

وهناك من ناحية اخرى خطر يحيط بهذا «الموضوع الحساس» ، وهو ان ما به احيانا من عدم لياقة قد يغري المؤلف باصطناع النتائج . ولقد حاولت تحاشي هذا المنزلق ، ولم يكن ذلك بمجرد تغيير كافة الاسماء ـ وهو ما التزمت به ـ ولكن أساسا بعدم ذكر اي شيء سوى الحقيقة . فلم ازوّق او اشوّه اي شيء ولم أخف النجاح ولا الفشل ، ولم ازيّف اية احصاءات ، ولم اشر بأية مناهج «معصومة» ولم أبع سمكا في ماء . هذا هو ما لاحظته ، واكتشفته ، وتعلمته : اقدمه ليستطيع الآخرين ان يتعلموا منه ايضا .

كثيرا ما اسأل عما اذا كانت طريقة «قفص من ذهب» يمكن ان تطبق ايضا على «الشخص المجنون حقا» .... وما زلت أؤكد اننا قد طبقناها على أناس مختلي العقل بالفعل ، وانه يمكن القيام بذلك ايضا في المستقبل .

ان بيت القصيد هو اننا قد حاولنا في مصحة عقلية «تجريبية» أن نشفي وندرب المختل عقليا بالعمل وبالحرية وبالمعاملة الطيبة وبالبيئة الانسانية . وقد نجحت التجربة . وأجد من الضروري الاشارة الى هذا الان لان تلك الطريقة قد تساعد على جعل حياة الكثيرين من المرضى الآخرين في المستشفيات حياة جديرة بالآدميين مما يعيد اليهم اعتبارهم الانساني ، وسلامة فكرهم ، ولذة حياتهم . وقد نساعد ايضا على تحرير المجتمع من ذلك الدَين المخجل . فالفائدة المعنوية لعملنا تفوق اي فوائد مادية تتحقق بالتحديد من كون بعض المرضى يصبحون منتجين . وليس العلاج البيئي والعلاج بالعمل دواء لكل داء ، فهما لا يشفيا كل مريض عقلي ، ولكنهما يخلقان بالفعل ـ حتى لأولئك الذين لا يشفون ـ حياة جديرة بالآدميين . وهذا هدف يستحق الصراع من اجله .

مقدمة للطبعة الانجليزية

اود ان أقدم للقارىء بالانجليزية تفسيرا موجزا للسبب الذي جعلني كطبيب اكتب وصفا روائيا لمستشفى حقيقي . ان الحقيقة أغرب من الخيال فعلا . فالصورة او الرسم الذي لا يلتزم الواقعية الصارمة قد يجعل الغروب ــ مثلا ــ يبدو مبهرجا ومثيرا للعواطف ، ولذلك فعلى الكاتب أن يقيد قلمه بالواقع الواضح خوفا من ان تبدو الحقيقة زائفة . وذلك هو الجهد الوحيد الذي كان على القيام به، حيث ان القصة نفسها كانت مدعمة بالواقع الحي . ولقد كتبت بالفعل ــ شأني شأن غيري من المؤلفين ــ الكثير من القصص المخترعة التي أحسست بصدقها بمجرد أن كتبتها . وكنت اشعر حينذاك بإغراء فكرة وصف الحياة الواقعية بطريقة تجعل الحديث الواقعي فريسة لعمليات الخلق الفني .

كانت تلك هي الصورة التي يبدو عليها عملي للمؤلف في داخلي ، أما بالنسبة للطبيب فان الصورة تتخذ شكلا مختلفا تماما . ففي تلك المصحة العقلية الغريبة التي دفعتني الى كتابة هذا الكتاب ، اكتشفت شيئا ينبغي ان يكون صرخة في آذان الراي العام وليس في آذان ابناء المهن الطبية ــ فهم بالتأكيد ليس لديهم اذان لمثل تلك الاشياء ــ اي في اذان العامة ، وآذان المجتمع ، وآذان العالم ، ويمكن للمجتمع بالتالي أن يدفع ابناء المهن الطبية الى فتح آذانهم . ان الخبرة التي جمعتها في تلك المستشفى للامراض العقلية ــ والتي أوشك ان اقدمها للآخرين ــ خبرة بالغة البساطة . وهي تجيب على مشكلة كيف أعامل اخواني من البشر حين يتعرضون لفقدان عقولهم . كيف ؟ برفق . أعرف انه لا توجد خطابة يمكن ان يكون لها جدواها بالنسبة لتلك المبادىء الاولية ، ولذلك فقد اخترت الواقع باعتباره وسيلتي لعرض الحقيقة . وحين استعرضت الكتب التي وصفت ككتابي هذا ، حياة مثل تلك المصحة من الداخل ــ سواء من زاوية الطبيب ، كما في كتاب ماريو توبينو Mario Tobino الايطالي ، او من زاوية المريض كما ورد في التقرير

المفزع للامريكية ماري جان وارد Mary Jane Ward فانـــي لم استطع أن امنع نفسي من استخلاص : ١ ـ ان الموقف في أجزاء اخـــرى من العالم ليس بأفضل منه هنا ؛ ٢ ـ ان تقرير الكاتب اكثر صحة من تقرير المريض المحزون او الطبيب المحايد او المريض المحايد او الطبيب المحزون . ففي القرن الماضي بلغ التأثر حدا دفعهم الى الكتابة عن حياة الملونين ، ونحن نثير الان قضية المرضى العقليين الذين لا يمكن ان يكون مصيرهم اليوم أفضل من مصير ضحايا تجار الرقيق منذ مائة عام .

لقد توصل الطبيب والكاتب في داخلي الى اتفاق فيما بينهما ، ولكن ماذا عن الطرف الثالث ، اي القارىء ؟ ماذا عليه ان يفعل حيال هذا الكتاب الغريب ؟ هل ينظر اليه كأدب خالص وبسيط ؟ هل يقرأ فيه صورة للعصر؟ ام لعله سوف يتناوله كنداء للضمير الانساني . اما بالنسبة لي فليست لديّ ثمة نصيحـــة أقدمها ، وليفسره كل قارىء وفقا لرغباته الخاصة ونصيحتي الوحيدة هي الا يخاف منه .

١٩٦٥

الجـــزء الاول

الفصل الاول

انتصار

كنا نتوقع العربة في السادسة صباحا ، ولكن الساعة قد تجاوزت السابعة، والثامنة ، والتاسعة الا الربع ولم يظهر لها اثر بعد . حاولنا مرارا ان نطلبها تليفونيا ، ولكن كان اليوم الاحد فذهبت محاولاتنا سدى . وانتظرنا متعجبين ، واخيرا ، في العاشرة ، اندفع الصبية صائحين : ها هي العربة . واتجهنا بالعربة الى جبال بورزوني لنأتي بحاجياتنا . ونظر السائق الى الكتب في فزع قائلا كلهم ؟... لا ، لا ، حوالي الالف مجلد فقط . وهز راسه قائلا ، ما جدوى كل تلك النفاية ؟. انه لا يهتم بمثل ذلك ... واكدنا له انه بالرغم من كثرة الكتب لا يوجد الكثير من الاثاث .

واخيرا أصبح كل شيء تحت غطاء العربة ، وفي استطاعتنا أن نبدأ .

وداعا ايها المنزل الصغير القابع في الغابة ! وتبادل كبير الاطباء ـ باعتبار ما سيكون ـ نظرة مع السيدة الاولى ـ باعتبار ما سيكون ايضا ـ ... أسنترك كل هذا حقا ؟ موطن الخلوة ، والسلام ، والهدوء ... وموطن استقلالنا ....

ليس ثمة عودة . من عزلة الغابة الى بوشتا Puszta . آه حسنا ، حظ طيب . ولكن الحظ الطيب تركنا ننتظر حتى الان . المطر ينهمر بشدة ، فنحن في الخريف في سبتمبر . واخذت العربة تنزلق متأرجحة عبر الطريق الموحِل . ان الظلام يحل مبكرا الان . والطريق الى «جرانج» Grange المباركة هذه بالغ الطول حقا .

ليس لدينا خريطة لجرانج وليس أمامنا سوى أن نحس وجودها ، وأن

نتحسس طريقنا في الظلام الحالك . قد انتصف الليل وينبغي أن تكون غايتنا قد اقتربت . وعرجنا على حافة مفتوحة في احدى القرى واستفسرنا من القرويين عن البلدة اثناء تناول الجعة معهم . اجل ، انهم يعرفون جرانسج ، انها ليست بعيدة . وتطوعوا بإعطائنا الاتجاهات الصحيحة ، ورسماً لخريطة ، وبيانا بأسماء قرى لم اسمع بها قط ... اتجهوا يمينا هنا ، وشمالا هناك ، وسوف تصلون خلال ساعة او ساعتين .

ورغم ذلك لم نصل ... لقد دارت العربة الى اليمين ، ثم الى اليسار ، ثم توقفت . وانحنى السائق على عجلة القيادة .

«ماذا حدث» .

«البنزين ... لقد نفد ما لدينا من البنزين» .

«آه ، عليه اللعنة ، ألم تطلب منك السيدة الاولى عند كل محطة بنزين ان تملأه ؟

«ماذا ، الا توجد قطرة واحدة ؟»

«اجل ، ولا قطرة واحدة .»

اختلسنا النظر في الليل ، اننا محصورون بين قرى صغيرة في الريف . ليس ثمة منزل ولا حتى شعاع من الضوء يمكن رؤيته .

وزحفنا الى الخارج في المطر ، وفككنا الاغطية ، وتسلقنا قمة كوم الاثاث . ومن حسن الحظ ان كان السرير على قمة المنقولات ! لقد انسللنا تحت الاغطية وإضجعنا في سريرنا كما لو كنا في منزلنا . كنا على ارتفاع ثلاثة ياردات ، فوق ألف كتاب ، في مكان ما على الطريق بين قريتين مجهولتين . واتخذ السائق من عجلة القيادة سريرا له قائلا انه معتاد على ذلك ، يبدو ان البنزين كثيرا ما نفد منه.

وقال كبير الاطباء للسيدة الاولى ـ باعتبار ما سيكون ـ «يا لها من بداية !» واستمر المطر يهطل بشدة فوق الاغطية .

***

بزغ الفجر ، وكانت الامطار قد توقفت ، وما زال السائق يغط في النوم . وتسلقنا خارجين من تحت الاغطية .

«هل لي أن اقدم لك لمحة من المنظر الخلوي ...؟» اشجار حور منهكة على طول جانبي الطريق ، وغربان عجوزة على الارض القاحلة ، وبعض المزارع ، والقرى الصغيرة على مسافة ليست بالبعيدة . وعلى مرمى البصر عدد قليل من التلال المنخفضة . وسحب داكنة تتدلى من السماء المبتلة وعلى سبيل المصاحبة الموسيقية لكل ذلك ، كان يرتفع شخير السائق .

«لم نجرؤ على إقلاق نعاسه اللذيذ . ومن حسن الحظ اقبلت عربة من بعيد وتوقفت» .

«هل لديك مشكلة ايها الاخ ؟»

واستيقظ الاخ ، وعرف انه يستطيع ان يحصل على البنزين من مزرعة الدولة القريبة . وبذلك اصبح كل شيء رائعا . وبعد ساعة اخرى اتخذنا طريقنا من جديد . قرى صغيرة ، ثم مزرعة فقيرة ، وبعدها ، قصر مخيف بين الاشجار، انها جرانج .

***

وبمجرد ان زحفت العربة الى الداخل فوق الممر الموصل المتفرع من الطريق ، احاط بها المرضي بين مستثار وفاغر فاه وفضولي ولا مبال . كبير الاطباء هنا ! انه قد وصل ! وانتشرت الاخبار المثيرة . وبرز المزيد من الرؤوس المستطلعة من المطبخ ومن القصر . ووصل الطبيب المقيم على عجل . كان رجلا جليلا كهلا ذو شعرات بيضاء متناثرة وذو مشية رياضية . وبعد ان تم التعارف ، بزغ السؤال الاول :

«اين المسكن ؟»

نظرة مضطربة ، وهمهمة ... المسكن ، اجل ، حسنا ، المسكن . ان المسكن يا عزيزي لم نحصل عليه بعد . ولكنا سوف نستولي على حجرتين من حجرات المرضى ونخليهما لكم في الطابق الاعلى ...

لك الله ايها المنزل الصغير في جبال بورزوني ! لم نكن أوفياء لك . وتركناك الى اعماق الغابة . اننا الان في بوشتا ، في قصر مليء بالمجاذيب ، وبألف كتاب ، وليس به مسكن .

لم اكن اتوقع ان يتم الانتقال دون مفاجآت ـ حسنا ، لقد كانت هذه هي المفاجأة الاولى .

«كيف يمكن حدوث ذلك؟ لقد اخبروني في الوزارة انه توجد هناك شقة فاخرة مزودة بكل وسائل الراحة الحديثة ...»

«أجل ، انني اعرف ، لقد كانت في الخطة ولكنها لم تبن . النقود لم تكن كافية ، وكان ينبغي التضحية بشيء ما ، وعلى ذلك فقد ضحوا بشقة الطبيب» .

هذا شيء طبيعي ، فما الذي يمكن التضحية به في المستشفى سواها ؟

«لقد وعدونا بتحقيق ذلك في ميزانية العام القادم .»

هذا ما وعدوا به . وما جدوى ان يعدوا بشيء ما ؟ ماذا الى ان يتحقق ذلك؟

«الا تود تفقد الغرفتين اللتين اعددناهما ؟» وذهبت لأتفقدهما .

وجلست السيدة الاولى متخشبة الى جوار السائق المذعور ، يراقبون ـ في فزع ـ المجاذيب الذين كانوا بدورهم يراقبون الهرج في سرور ظاهر . لقد وصل كبير الاطباء ... ليست لديه شقة ... اليس ذلك شيئا عظيما !

وينبغي أن يكون ملحوظا ان السيدة الاولى لم تكن قد رات طوال حياتها سوى

عدد قليل من مختلي العقل . وقد كانت تراقبهم كما يفعل العامة . مجانين ... مطلقي السراح ... ترى متى سوف يقدم احدهم على مهاجمتي ؟

ولم يهاجمها اي منهم ، ولكن اقترب منها احدهم متجهما وفأسه في يده قائلا :

«اخبريني ، هل حضر كبير الاطباء الجديد ؟ اننا لم نعد نستطيع انتظاره . انه هو الذي سوف يدعني أذهب الى منزلي . لقد أخبرني الطبيب العجوز ان كبير الاطباء الجديد سوف يدعني أذهب الى منزلي . انني لست مخبولا . انني لم آتِ الى هنا سوى لاني قد رفعت المطواة على والدتي .»

«فعلت ماذا ؟»

«لقد طلبت مني ان أقطع خشبا، فاجتثثت شجرة الكمثرى التي في الحديقة وكسّرتها ، فأخذت تؤنبني . فماذا أفعل ؟ لقد قطعت الخشب للتدفئة ، بالضبط كما أخبرتني . وجن جنوني ورفعت المطواة . ولكن كبير الاطباء سوف يدعني الان اذهب الى منزلي ، أليس كذلك ؟ انه سوف يدع الجميع يذهبون . ان لديّ معملا لتكرير السكر ، أنا مديره .»

وأجابت السيدة الاولى في فزع «أجل ، اجل ، سوف يدعك كبير الاطباء تذهب ...

هل لك في سيجارة ؟» وتحركت مقتربة من السائق .

وفي تلك الاثناء كان تفقدي للحجرات قد تم ، وعدت بادي الحزن .

«ليس هناك ثمة شقة . سوف نعود ادراجنا .»

وهزت السيدة الاولى رأسها مناجية نفسها بشكر السماء . وأمرت السائق ان يستدير بالعربة ، ورغم دهشته فقد ادار الموتور ، ودارت العربة حول نفسها ببطء ، واتسعت دائرة المرضى من الفزعين او من ذوي الوجوه الخالية من التعبير. ولم تكن الممرضة إيما قد تمكنت بعد حتى من التعرف على القادم الجديد الذي يغادر المكان ولكن الدموع تجمعت في عينيها ، بينما وقف الطبيب المقيم مشدوها وصامتا .

«العودة ؟ الى اين ؟»

أجل الى اين ؟ الى المنزل الصغير في بورزوني ... ولكن ما الذي سوف نعتمد عليه في معيشتنا ؟

ان الوظيفة السابقة قد تم شغلها بالفعل . وكيف سنتحمل تكاليف رحلة العربة ؟

كل هذا لا يهم على اي حال . هل ينبغي ان نحيا في حجرتين ضيقتين ، بدون حمّام ، محشورين في ممر المرضى ، محاطين بالصيحات ، والجري ، وصفق الابواب ، ولنا دورة مياه مشتركة ... لا ، اذا كان لا بد من بوشتا فلا أقل من ان يكون ذلك في سلام وهدوء وليس هكذا .

«إنتظر ... أعد التفكير في الامر ... ربما في المستشفى ... فلنتحدث

الى المدير .»

انها فكرة ، يجب ان اتحدث الى المدير على اي حال . ان العقد هنا في جيبي، ولا استطيع أن القي بكل شيء دون اعتبار للرسميات .

المدير يعيش في المدينة ، في مستشفى المنطقة . اذن فقسم الامراض العقلية في بوشتا ـ كما ترى ـ ليس مؤسسة مستقلة ولكنه ملحق لمستشفى المنطقة. الى الامام اذن نحو المستشفى .

ودارت العربة حول نفسها . وحينئذ فحسب تحقق المرضى من ان كبير الاطباء الجديد ، الذي انتظروه كما لو كان معجزة او كما لو كان المسيح ، يغادرهم. لماذا ؟ لقد كانت الاجابة التي يتلقونها دائما على اي شيء يطلبونه هي : «حين يصل كبير الاطباء الجديد سوف يهتم بذلك ...» وهو لم يكد يصل حتى رحل .

وبدا المرضى في الصياح فزعين : «لا تتركنا يا دكتور ! هل تسمعني ؟ ابق !» وفجأة ظهرت وجوه مألوفة . هذه هي السيدة سلوث التي اعتدت معالجتها وهذا ايضا هنا ، ترى ما اسمه ؟ أحاط بنا المعارف وايضا الغرباء الذين اعتقدوا فجأة انهم تذكروني .

«لا تذهب ! لا تتركنا !»

كان الشخص المتجهم هناك ايضا ومعه فاسه .

«من الذي سوف يدعني أعود الى منزلي اذا تركتنا .»

واندفعت امراة عجوز بالفة الدمامة قائلة وهي تنشج بالبكاء :

«لقد انتظرناك طويلا ! وانتظرنا السيدة الاولى ايضا ...»

وكانت هذه هي المرة الاولى التي يطلق عليها فيها السيدة الاولى ، وكان للاسم وقعا لديها .

وغمغمت في ضيق «سوف نعود ، سوف نعود فورا» وانتزعت نفسي بصعوبة من قبضة تلك الانفعالات . ما الذي يتوقعه منا هؤلاء الناس ؟ لماذا أولونا ثقتهم على الفور ؟ لقد لوحوا خلف العربة بحماس والدموع في عيونهم كما لو كنا أصدقاء قدامى .

***

كانت ثلاثون دقيقة من الكآبة .

قال السائق «ان ذلك ليس من شأني ، ولكن من رايي ان تبقى هنا . انني لا اعتقد انهم قوم سيئين ، وسوف تبنى الشقة في النهاية ، سوف ترى .»

«أتظن ذلك حقا ؟ انت لا تعرف الوزارة ووعودها .»

«قد لا اعرف ذلك ، ولكني اعرف الطريق الجبلي في بورزوني لقد استطعنا نزوله بصعوبة في ذلك الوحل ، فهل تظن اننا نستطيع ان نتسلقه بعد أمطار اليوم ؟ »

وكان مصيبا في ذلك . فقد تصورنا أنفسنا مغروزين في أوحال بورزونـــي بعد منتصف الليل . وكيف سندفع اجر السائق ؟ وماذا بعد ؟...

كان المدير ودودا جدا . آه ، اجل ، شقة الطبيب لم تبن بعد . ولكنها في ميزانية العام القادم . ذلك امر مسجل ومحسوم. وحتى يتم ذلك نستطيع الانتقال الى اية غرفة . الغرفة لا تناسبك ؟ حسنا ، فلتأخذ شقة الطبيب المقيم . حقا ، انها غرفة واحدة بحمّام ولكنها تؤدي الغرض في الظروف الحالية .

«والطبيب المقيم ؟»

«انه يستطيع الانتقال الى غرفة مريض . ليس من حق الطبيب المقيم سوى غرفة واحدة دون زيادة . انه سوف ينتقل بلا كلام فارغ .»

«الا ينبغي اخطاره مقدما ...»

«انني لا اريد ايذاء ذلك المسن واظن ان الامور سوف تسوى بشكل ما ... وبطريقة انسانية ، اذا كان ذلك ممكنا ...»

وبذلك اتضح لنا اننا لسنا من نفس الراي فيما يتعلق بالانسانية . ولكن ما البديل ؟ وفي خجل وضعت اوراق الاخلاء في جيبي ، وسلحت نفسي بمشورة المدير الطيبة :

«كن صلبا ! فلتنظف اسطبلات أوجياس (١) هذه ! فلتأمر ، ولتنظم ، ولتعمل. وينبغي التحفظ على اي شخص لا يرغب في ذلك . بلا كلام فارغ .»

انحناءة ودودة ، ووداع رسمي ، وخطوات متقدمة ومتراجعة في مجاملة عند الباب ، تفضل انت ، لا انت اولا ... ثم عدنا الى جرانج .

«قد لا يكون ذلك المدير رجلا سيئا على اي حال .»

«كلا ، انه ليس كذلك . انه رجل طيب ، والشيء الاهم هو انه انساني عظيم.»

وهكذا راح كل منا يسرّي عن الآخر في العربة بينما كنا نفكر في ذلك الطبيب المقيم المسن . ترى ماذا سوف يقول حين يطرد ؟.

***

قال الطبيب المقيم حين سلمته اوراق اخلائه «الامر هكذا اذن» وكانت تلك هي آخر كلماته في هذا اليوم . وغادر الحجرة متجهم الوجه ، بعد أن انتزع حتى المسامير من الحائط .

وخطر لنا ونحن نكدّ في نقل الاثاث والكتب ، كيف اننا قد خلقنا عدوا لنا في جرانج . وحوم حولنا عدد قليل من المرضى ، ولكنهم لم يقدموا مساعدة ذات

---

١ ـ الاسطبلات القذرة التي كانت في حوزة اوجياس والتي نظفها هرقل في ليلة واحدة بأن حوّل اليها نهر الفيوس ـ المترجم .

قيمة . وقد قام اكثرهم اجتهادا بجر أثاث الطبيب المقيم . اما العاملون بالمستشفى فقد ظلوا متحفظين ، وربما كان ذلك راجعا الى تعاطفهم مع الطبيب المطرود . وقمنا بجر متاعنا الى الداخل ونحن نتصبب عرقا وكلنا فهم للموقف .

ورغم قلة أثاثنا فقد كان من الصعب حشره في هذه الشقة البالغة الفخامة ، والتي يبلغ اتساع حجرتها الوحيدة ٤×٦ . من حسن الحظ انه ليس لدينا سريرين .. اريكة وبيانو صغير ، وصوان للملابس ، وامتلأت الغرفة . ومائدة صغيرة مستديرة وكرسيان واستحالت الحركة في الغرفة . ونقلنا عددا قليلا من ارفف الكتب الى الردهة ، وفرشنا غرفة المطالعة في الطابق الاعلى ، حيث وضعنا بقية الاثاث والكتب . هنا على الاقل ، منظر جميل للاشجار العجوز والميدان الاخضر في الحديقة . كما انها حجرة منيرة وليست كالشقة التي تحتها ، والتي بلفت الحصافة بأحدهم أن دفنها في الجناح الشمالي بنافذتها المتناهية في الصغر، وحوائطها المتعفنة . كان المرضى الفضوليون يتلصصون من خلال النافذة المنخفضة، ويتابعون الحركة باهتمام .

وعند الظهيرة كان لدينا فسحة من الوقت لتفقد ما حولنا .

كان القصر مملوكا للكونت بانهيانيس . وخطرت لمدير المستشفى السابق فكرة أن يلحق القصر بالمستشفى وان يودع فيه المرضى العقليين . ولم يكن ما يريده علاجا بالعمل ولا مصحة بل زريبة للخنازير ذات أيدي خاملة رخيصة . وهكذا كانت اول مؤسسة في البلاد للعلاج بالعمل تدين بوجودها للخنازير . وتم بناء الحظائر على مسافة عشرين ياردة فحسب من القصر ، مع ما تستلزمه من روائح كريهة ، وذباب ، وبراغيث ، واصوات مزعجة . وكان سكن العاملين حظيرة الخنازير مباشرة .

وكان قد تم هنا خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها معسكر للاسرى . وما زالت الخنادق الضخمة باقية لتذكرنا بالآلاف العديدة من المسجونين الذين شغلوا المكان ، وقد قام البستاني بتفريغ المحتويات الخصبة للمراحيض الضخمة لاعادة الحياة الى التربة المهملة .

وتم قطع الكثير من اشجار الحديقة ، وامتلأت الحديقة الخلفية بالاعشاب . اما حديقة المطبخ التي تبلغ مساحتها ستة افدنة فقد كانت غير مستوية ولا ممهدة، وقام المرضى بتسوية وزراعة جزء منها ، اما بقيتها فما زال فريسة للاهمال . وكانت الممرات مغطاة بالاعشاب والاتربة ، ولكن البستاني احرق تلك الشجيرات بالفعل ، واصبح الطريق الممهد القديم مرئيا من جديد بين ذلك الصف المزدوج من الاشجار التي يبلغ عمرها قرنا ، والتي تحيط بالحديقة . وقد عرض علينا البستاني انواعا نادرة من الاشجار فهذه كويركس بيراميدالس **Quercus Prramidalis** وهذه اكرنيجوندو **Acernegundo** وهي ليست كأي نوع قديم بل انها فوليس فاريجاتا **Foliis Variegata** ، وهذه ليفيودندرون تيوليبيفيرا **Lifiodendron Tulipifera** بكئوسها الكبيرة التي ـ رغم كبرها ـ تشمخ بنفسها في ترفع

ارستقراطي. كان البستاني يعرف الاسم اللاتيني لكل شجرة وشجيرة بلا استثناء، ويحاول ان يجعلنا نتخيل الحديقة قبل ان تدب اليها الشيخوخة ، ولكنه لسوء الحظ لم يستطع سد ثغرات معرفتي بعلم النباتات وذهبت ثرثرته بالاسماء اللاتينية سدى فلم استطع تصور النباتات التي تشير اليها تلك الاسماء .

وكانت بوابة السياج المحيط بالحديقة مهدمة ، وحاول أولد سميث ـ وهو رجل كل المهن ـ حاول جاهدا أن يشرح كيف انه سوف يقيمها ولكني أعرف انه لن يفعل ذلك مطلقا ، بل على العكس ، فان السياج الخلفي على الاقل سوف يزال تماما فلو كان عليّ أن أصبر حاليا على تلك القضبان التي على النوافذ فسوف اتخلص على الاقل من السياج بأسرع ما يمكن . ولقد نسوا من حسن الحظ وضع اقفال محكمة على الباب حيث ان الممرضة إيما تفقد المفاتيح دائما وبمختلف الوسائل، وبالتالي فلست في حاجة للمجازفة بجهد خاص لجعل الابواب مفتوحة على الدوام.

حين وصلت اول دفعة من المرضى في ابريل عام ١٩٥٣ لم يكن هناك اي مستخدمين وكان ينبغي تجميعهم من كل مكان ، طبيب من بودابست على سبيل الاعارة ، وممرضات من كل مكان ومن اي مكان . ووصل رجل عجوز استفزازي تخطى الستين يدعى بوب ، ولكن كل ما كان مهتما به هو الجرد : هل ثمة شيء ناقص ؟ وهو يفضل الا يسلم اي‌شيء مطلقا للمرضى لانك لن تعرف ابدا ايـن سيتركونه . كان ذلك هو كبير المرضين . وكانت هناك ممرضة مدربة ، تعلمت في عملها السابق كيف تجذب المريضات المشاغبات من شعورهن . وكان هذا هو كل ما تعلمته . اما الآخرين فلم يكونوا قط ممرضين ولم يسبق لهم قط رؤية مريض عقلي . شقيقان من الغجر قاما بالعديد من الاعمال الاخرى في حياتهم ، فلماذا لا يقوما بالتمريض العقلي ايضا ؟. وأتى جندي سابق ، كان ذات يوم فلاحا، وكان ماكرا بخيلا ، فقدت الامة فيه تاجرا لا يباري وقد اسميناه هامستر [1] . وهناك اخيرا الممرضة ايما التي كانت فيما سبق مدرّسة لعشرات السنين وأصبحت ممرضة في الصليب الاحمر اثناء الحرب . كانت معلوماتها قليلة جدا ، ولكنها كانت تتميز بصفة واحدة لا تقدر بمال وهي : انها تحب المرضى وذلك يمكن أن يصنع منها ممرضة جيدة .

وكان لدينا بالاضافة الى ذلك طاهية ، واثنتان من المساعدات لها ، وخادما، وحوذي ، وبستاني ، ورجل كل المهن الذي يعد رجل اطفاء ، وميكانيكي ، وصانع أقفال وكل ما عدا ذلك ايضا ، وقد تجمع الكل في شخص واحد . تلك هي هيئة العاملين ولكن لا ، ما زال هناك رجل آخر ، لا تبدو له واجبات محددة تماما . فمستر فيدلر يشار اليه باعتباره عاملا ماهرا واحيانا باعتباره رئيسا للعمال او

---

١ ـ نوع من الحيوانات القارضة التي تعرف بقابليتها لالتهام اي شيء يصادفها وتخزينه في جيوب خاصة داخلها . ـ المترجم ـ

نائبا للمدير . وعمله غالبا هو الاشراف على التموين وان يكون هو الصلــــة بين المستشفى وبين جرانج ، ولكن الحقيقة ان احدا لا يستمع اليه ، هنا او هناك . ولذلك فقد توصل الى انه من الافضل أن يظل بلا عمل .

***

ومضى كل شيء في هدوء ، اي انه لم يقم اي شخص بأي شيء . وكان هذا هو قمة النظام ، فطالما انه ليس لدى جرانج سوى طبيب زائر فما الذي يمكن ان يقوموا به سوى ذلك .

ولكن وجد في شهر مايو شخص يرغب في الذهاب الى مكان موحش ليعمل كطبيب مقيم . وقد حدث ذلك كما يلي وفقا لما رواه لنا الطبيب المقيم .

«وقفت امام منزلنا ذات يوم بعد الغداء سيارة خرج منها رجلان ، احدهما رفيع وطويل والآخر مكتنز وقصير ، وقدموا انفسهم . كان احدهم هو الدكتور بول ماول من الوزارة ، ولا اذكر اسم الآخر . وتوجست شرا الى حد ما لانني لا احب اطلاقا زيارات السادة القادمين من الوزارة . ولكنهم كانوا في منتهى اللطف . لقد سمعوا انني بلا عمل ، افلا أذهب الى جرانج كطبيب مقيم ؟ ولم أكن قد سمعت عن جرانج هذه من قبل . انني بلا عمل بالتأكيد ، ولقد كنت طوال حياتي أعمل بمكتب الصحة المحلي ، ولقد تخطيت الان السن التي قد يبحث فيها المرء عن عمل جديد وقد قمت ببعض أعمال الفلاحة وفلاحة البساتين ، وكنت في ذلك الوقت بالتحديد استنبت نوعا جديدا فاخرا من البطيخ حين أقحم عليّ هؤلاء السادة تلك الجرانج. ترى هل أترك البطيخ ؟ وحين أخبروني انهم يريدون مني العمل في مصحة عقلية، أصابتني رعدة . انا ! طبيب امراض عقلية ؟ انني لم ار اكثر من ثلاثة مرضى عقليين طوال حياتي وحتى هؤلاء لم ارهم الا عن بعد . فحين كنت أدعى لفحص حالــة مريض عقلي لم أكن اجرؤ على الاقتراب منه ، بل كنت اقوم على وجه السرعــة بالانتهاء من استخراج شهادة الجنون ، ومن ثم تحمله عربة المستشفى بعيدا .

«ولقد انهيت الى زواري كل ذلك بأمانة ، ولم يستجيبا سوى بالضحك وماذا يحتاج المرء الى معرفته اكثر من ذلك ؟ على اي حال فان هؤلاء المرضى يعملون ، وكل ما يحتاجونه هو التوجيه . ترى هل لديك معلومات عن الخنازير ؟ عظيم . وفلاحة البساتين ؟ رائع . والزراعة ؟ ممتاز . انت الرجل الذي نطلبه .... وهكذا اصبحت طبيبا مقيما في جرانج . لم نتحدث اكثر من ذلك عن المرضى العقليين . ان لديّ معلومات بالفعل عن الخنازير فضلا عن البطيخ» .

وقبل ان يضطلع بمهام وظيفته في شهر مايو ، أمضى يوما في قسم الامراض العقلية في الولاية من اجل «دراسة» المرضى العقليين وعلاجهم . (ولا اعتقد ان ذلك أضاف الى كلمته جديدا) . ثم أمضى طبيب الامراض العقلية المنتدب ثلاثة ايام معه في جرانج . وقد حاول ان يعتصر من ذلك الطبيب بعض الارشادات الخاصة بالمهنة.

«هل تتفضل بإطلاعي على ما يجب عمله حيال هؤلاء المرضى ؟»

«لا شيء يا زميلي العزيز ، لا شيء بتاتا . انهم يذهبون الى الحديقة ويعملون هناك ، وهذا هو كل شيء .»

«ولكن اذا ما تصرفوا بخبل ... اذا ما اخذوا في الهذيان ...»

«فلتعطهم جرعة قوية من اللومينال Luminal ، فيهدؤن ويستغرقون في النوم . دعك من كل ذلك ، ولنلعب دورا من الشطرنج .»

ولكن الامور لم تمض بتلك البساطة .

لقد اخبرني المدير شخصيا لماذا يعد تنظيف الاسطبلات الأوجاسية بيد من حديد امرا ملحا .

«ان الموقف مفزع . صدقني ، منذ افتتاح القسم في جرانج ، لم اقض ليلة واحدة ولا نهارا واحدا في هدوء ، بل في قلق متصل خوفا من وقوع فضيحة ضخمة ، او انهم سوف يشعلون النار في شيء ما ، او يقتلون شخصا ما ... المشاغبات هي طابع الحياة اليومية . وفي احد الايام أقدم مريض على قطع شرايينه ويظل ينزف حتى الموت وهو في طريقه الى عيادة الجراحة محمولا على عربة يجرها ثور . وهناك بعض المشاغبين الذين يتجولون في المنطقة مسلحين بالعصي ومهددين للقرويين المسالمين . ولسوف يقدمون على كارثة عاجلا او آجلا . وليس للطبيب المقيم أي سلطة حيال الموظفين او المرضى . وليست لديه فكرة عن معالجة مرضى العقول ، فهو اذن عاجز تماما . اما الممرضات فانهن كسالى لا يفعلن شيئا ، والبستاني شخص مختلط تماما ومهووس ، وكل يفعل ما يشاء . وانا المسؤول عن كل هذا ! وينبغي ان يوقف ذلك ! انت المسؤول من اليوم فصاعدا . ينبغي أن تتدخل بيد من حديد ! بلا كلام فارغ !»

ولم أتلق الانباء بسرور . انا ذو يد حديدية ــ فلترحمني السماء .

ولكن كانت هناك امور اشد غرابة في طريقها الى الظهور .

ان المرض الفجري الذي كان خبيرا بصناعة الاحذية ، وكذلك هامستر الذي كان ملما بأمور السوق السوداء لم يكونا يقضيان وقت عملهما في الورشة في تقديم العلاج بالعمل للمرضى ، بل في بيع الاحذية والقيام بغير ذلك من الاعمال الاضافية لمن هم خارج المستشفى . اما وقت فراغهما فكانا يمضيانه في استفزاز المرضى. ان «تمريضهما» عبارة عن اغاظة المرضى المستثارين ثم ضربهم بعد ذلك . فكان هناك طفل يهودي أصيب بالمرض العقلي في احد معسكرات الابادة الالمانية . وكانت بضع تلميحات قليلة معادية للسامية تكفي لاشعال غضبه ، مما يعطي هذين المرضين فرصة لمهاجمته .... وهناك رسام فصامي يتحدث احيانا الى نفسه بالساعات في غرفته ، ويتسلق المرضون القضبان ويلقون عليه فجأة دلوا من الماء (علاج مائي على طريقة جرانج) . ويأخذ التعس المسكين في السباب . لقد عرفنا الان مدى حساسية نفوس أولئك المرضين ! انهم لا يتحملون اي تلطيخ لذكرى امهاتهم ، فيندفعون داخل الحجرة ويضربون المريض حتى يخر على ركبتيه راجيا عفوهم .

او يقومون بجر «القديسة آجنس العذراء» التي تعاني من تعصب ديني الى عيادة الجراحة ، ويضعونها على الاريكة ، ويفحصونها ، ليروا ما اذا كانت عذراء حقا .

لقد استبانت تلك الامور في وقت متأخر كثيرا بالطبع من كلمات تناثرت هنا او هناك . فماذا عن الامور التي لم تظهر قط ! ان الممرضة ايما تحاول حماية المرضى ، ولكن دون جدوى .

كان المكان اشبه بساحة معركة . نوافذ ومصابيح مهشمة فـي كل مكان ، وكهرباء مقطوعة ، واثاث محطم . ليس للاصلاح اي جدوى . كان احد المرضى في غيبوبة لمدة يومين ، لانه قد فتح قفل عيادة الجراحة وشرب زجاجة من البارالديهايد paraldéhide [1] وكان اثنان من المرضى يكتبان بانتظام الى السلطات ـ وربما كان لديهما عذر في ذلك . أما مدمني الكحول فقد كان ذلك هو عصرهم الذهبي : كانوا يترددون على الحانة التي في القرية القريبة. مَن هناك ليوقفهم ـ وكيف؟ انهم يذهبون للشراب مع الممرضين .

اما المشاغبون فقد كانوا مصدر اغلب المتاعب . ان هؤلاء المجرمين الماكرين يعرفون كيف يتملصون من العقاب محتمين بشهادة اختلالهم العقلي . فاذا ما امسك بهم البوليس فانهم يغمغمون بالكلمة السحرية «انني من مصحة الامراض العقلية» ويستدعي رجل البوليس المذعور عربة المستشفى على الفور لتحملهم الى اقرب قسم للامراض العقلية . وبذلك يتخلصون من تهمة السطو او اللصوصية ، ويستقرون لشهور قليلة في مصحة للامراض العقلية ، متنكرين قليلا لشهوات قلوبهم ، ثم يخرجون ليعيدوا الكرة من جديد .

انهم في حاجة الى مؤسسة يتعلمون فيها كيف يعملون ، مؤسسة يمكن ان تصنع منهم رجالا وفقا لمنهج ماكارينكو Makarenko [2] . ولكن لا توجد مثل تلك المؤسسة ، وهم يعيثون فسادا في مصحة عقلية . ومنذ تأسيس قسم العلاج بالعمل لمختلي العقل في جرانج ، لم يفرح أطباء الامراض العقلية الا لانه سوف يمكنهم تحويل مشاغبيهم الى هناك . ولندع «الطـرق الحديثة» تفصح عن سوءاتها ....

وهكذا حدث ان ذهب ستة من المشاغبين الى جرانج بمجرد تأسيسها . لم يكن هناك بالطبع أصعب من السيطرة عليهم . فالمشاغبون هم الذين يفرضون سيطرتهم لقد عرفوا على الفور من اين تؤكل الكتف ـ فاستطاعوا اساءة استغلال عجز الطبيب المسن وتعاطف الممرضين ، وشكلوا عصابة أرهبت الطبيب ، والمدير

---

١ ـ عقار منوم . ـ المترجم ـ

٢ ـ انطون سيميونوفتش مكارينكو ، كاتب وعالم تربوي سوفييتي أوكراني ، وترجع شهرته التي طبقت الآفاق الى نجاح دراسته التربوية لمنهج اعادة تربية الشبان المهملين والمتروكين للضياع.

«بلا كلام فارغ» والمنطقة المجاورة بأكملها .

***

ان ذلك الطبيب المقيم المسكين لا يتمنى سوى أن يولي ظهره لجرانج بأسرع ما يمكنه . لقد كان سيدا مسنا، قوي البنية ، ذو سجل حربي حافل ، خبر كل شيء في الحياة (باستثناء المصحة العقلية) ، ولم يكن يستسلم للخوف بسهولة . ولكنه في جرانج كان خائفـــا . كان يخاف المرضـــــى العقليين ، والمشاغبين ، والمرضين ، والمدير «بلا كلام فارغ» ، وكبير الخدم الوقح ، والحوذي الصفيق ، والميكانيكي الفظ ، والملاحظ الخسيس ، ومسؤول التموين الدنيء . وكان ما يثير فزعه اكثر من كل ذلك ان الوزارة لن تجد اطلاقا احمقا آخر يرضى بالذهاب الى جرانج ككبير للاطباء .

وسرعان ما اكتشف انه ليس هناك مبرر لخوفه من المرضى ، فليس هناك ثمة مشكلة معهم اذا ما تركوا بمفردهم (ولسوء الحظ ، فانهم لا يتركون بمفردهم ابدا) وكان اكثر ما أدركه في حياته غرابة انه ليس هناك مبرر للخوف من «مختلـــي العقل» ، ولكن فليحمه الله من «الأسوياء» ... ولكن الله لم يفعل ذلك . لقد اتى الى جرانج على أمل انه سوف يقضي ايام شيخوخته في هدوء ، يزرع ، ويستنبت البطيخ ، ويسمّن الخنازير ، ويعطي حقنة من وقت لآخر ، ويسجل ملاحظـــات قليلة في سجلات المرضى . كانت تلك بالتقريب هي الصورة التي رسمها بول مادل، الذي لم يذكر شيئا عن ان عليه ان يقاتل الجميع يوميا ابتداء من المدير «بلا كلام فارغ» الى الحوذي . وكان يفكر مكتئبا انه اذا ما استمر الامر هكذا فلسوف اتحول انا نفســي الى مجذوب . ولسوف يستمر الامر لانه لن يوجد كبير لاطباء هذا المكان على الاطلاق .

من الذي يأتي الى ذلك المكان الموحش ، ليجادل المرضى العقليين الى جانب ــ وهذا هو الاكثر صعوبة ــ جدال مع الأسوياء ، ويمون المستشفى بالبطاطس والكرنب تحت ستار العلاج بالعمل ؟ لقد ادرك الطبيب المسن على الفور الفرض من كل ذلك ــ الا وهو تموين المستشفى . اما بالنسبة للمرضى ، فانه لا يمكن تقديم العون لهم بأي حال ....

ولكن الطبيب المسن كان مخطئا في شيء واحد ــ هو اعتقاده بانه لن يمكن العثور على كبير للاطباء . صحيح ان بول مادل قد اجهد فكره طويلا ، ولكنه في النهاية حدد لنفســه اين يمكن أن يجد كبيرا للاطباء ، وانتظر في هدوء أن تفتـــح مصحة جرانج العقلية أبوابها .

وكان عليه ان ينتظر طويلا لانه اتضح ان اعادة اعداد القصر لن تتم ابدا . وكان يمكن الا يكون جاهزا حتى الان لو لم يستدع مدير الادارة في الوزارة بول مادل ويقول له :

«ايها الرجل العجوز ! متى سيفتتح القسم في جرانج ؟»
واجاب بول بسرعة «خلال اسبوعين» وكانت تلك هي إجابته الجاهزة والتي تسعفه على الدوام .
وتساءل المدير متوعدا . «اسبوعان ؟ هل يعني ذلك اربعة عشر يوما ؟»
وتسبب ذلك في انزعاج بول فقال «اجل ... ربما خلال اسبوعين .»
«حسنا ، في اسبوعين اذن . اني احذرك ، اذا لم يتم الافتتاح خلال اسبوعين فسوف تدفع ٢٠٠ فورنت على سبيل الغرامة .»
«وانتهى الحديث الى هنا ، وسجل المدير في مفكرته امام يوم ٩ ابريل» «افتتاح جرانج» تاركا بول مذهولا .
ونظرا لان بول كان حريصا على امواله ، فقد حدث اندفاع ، وسباق في كل اتجاه ، تلغراف هنا ، وخطاب مسجل هناك ، ومناقشات ذات اليمين وذات اليسار . والاسكافي يجب ان يكون ممرضا ، كما ينبغي لمستشفى او لاخرى ان تعيرنا طبيبا «مؤقتا» ، وفي ٩ ابريل وصلت اول دفعة من المرضى ، وتم انقاذ المائتي فورنت .
وينبغي أن نقرر هنا ان بول مادل عرف طبيبا حزينا للامراض العقلية ، وكان مصدر حزن ذلك الطبيب انه قد استدعي للجيش ولم يكن به رغبة للحياة العسكرية . وادرك بول مادل ان هذا هو الرجل الذي يبحث عنه ، وانه سوف يذهب بالتأكيد الى جرانج ككبير للاطباء لمجرد التخلص من الجيش .
وعلى اي حال فلقد تأخر افتتاح المستشفى حتى تم تسريح ذلك الطبيب الحزين من الجيش . بل وانتقل الى جبال بورزوني حيث عاش راضيا تماما مع زوجته في منزل صغير في الغابة ، وشغل وظيفة بالغة الغرابة ، وظيفة ادارية في مكتب صحة . لقد اصبح طبيب الامراض العقلية الحزين موظفا كتابيا سعيدا . كان يسافر الى مقر عمله في بودابست يوميا ، ثم يعود الى بورزوني ليقرأ ويكتب ويرعى حديقته ، ولم يعد حزينا على الاطلاق .
ولم يفقد بول الامل ، بل استدعى الموظف الكتابي السعيد وقال له :
«يا صديقي العزيز ، اني اعرف لك وظيفة رائعة .»
«شكرا جزيلا ... ان لديّ وظيفة رائعة فعلا ، وأنا راض تماما .»
«هنا ؟ في هذا المكتب .»
«هنا في هذا المكتب .»
«يا للسخف . ما الذي يعجبك فيه ؟»
«الاستقلال .»
«آه ، هكذا ! الاستقلال ! يا للهراء ــ اسمح لي . ومن اجل هذا تسافر الى بورزوني كل يوم ؟»
«ثلاث ساعات بالقطار ، وساعة سيرا على الاقدام . وهو ليس ثمنا باهظا في مقابل الاستقلال . اليس كذلك ؟»

كان الموظف الكتابي السعيد رجلا عنيدا . ولكن بول مودل كان عنيدا كذلك وقال متهكما :

«برج عاجي . حساسية بورجوازية . انسحاب .»

«قد يكون ذلك صحيحا ، ولكن لا يوجد من يحاول اختطاف وظيفتي هنا ـ هل لك ان تتصور ذلك ؟ وظيفة لا يحسدني عليها احد .»

وضحك بول قائلا «انها ليست بالوظيفة التي تبعث على الحسد على اي حال». ثم اضاف بلهجة جادة «انها لا تصلح لعالم . هل تريد ممارسة العلم من فوق مكتبك ؟ انك تنعزل عن الحياة وعن الواقع . ثم انك هنا شخص تابع ، لك رئيس. وما اقترحه لك انما هو الاستقلال الحقيقي . سوف تكون رئيس قسم الامراض العقلية في بوشتا التي تبعد اربعة أميال عن اقرب القرى . وتستطيع ان تحيا هناك حياة هادئة ، بل اكثر هدوءا من حياتك في بورزوني ، اذا كان ذلك ما ترجوه . قصر ارستقراطي ، وحديقة جميلة ، ووجبات مجانية ، وطعام ممتاز ، ووسائل راحة رائعة ، ومياه جارية باردة وساخنة ، وتليفون ، وسوف تحصل على عربة ايضا بعد قليل ...... كما ان الاجر ثلاث أضعاف ما تتقاضاه حاليا .»

«شكرا ان ذلك لا يغريني .»

«سوف تكون من جديد كبيرا للاطباء ، لك مجال نشاط مستقل ، ومهمة علمية ضخمة . العلاج بالعمل ! لقد كان رايك دائما انه يجب تشغيل المرضى . حسنا ، هذه فرصتك . مؤسسة علمية تجريبية ، لها مزرعة وورش . فيها ورشة للنجارة الدقيقة ، وورشة ميكانيكا ، ومسبك ، وورشة احذية ، وورشة تطريز .... وكل ما تريد . احتمالات هائلة ! ثورة في العلاج العقلي ! يا له من مستقبل !»

واخذ يدق على هذا الوتر .

وبدأ الموظف الكتابي السعيد يشتعل ويتحول مرة اخرى الى طبيب للامراض العقليـة .

وقال في اكتئاب «اجل ، هذا هو ما يجب ان يكون عليه الامر . أن يخلق عمل ومجتمع لطريدي المجتمع ، وأن تمنح فرصة الحياة للموتى الاحياء . هذا هو ما يجب ان يكون عليه الامر .»

«الم اقل لك ! لقد خلقت هذه المؤسسة من اجلك ! سوف تأتي اذن ؟»

«لا ، يا عزيزي بول ، لا اريد ذلك .»

«ولكن لم لا ؟»

«دعني اشرح لك .... انني لا اصدقك . لا تعتبر تلك اهانة . انني لا استطيع تصديقك لسوء الحظ . انك الان تقدم كافة أنواع الوعود ، ولكن بمجرد ان اصبح هناك ، فسوف تتركني لنفسي ، وتلك مهمة قومية لا يمكن لرجل واحد ان يضطلع بها .»

«ينبغي ان يكون هناك قتال من اجلها !»

«تلك هي المشكلة ... فلست من النمط المقاتل . هل لي ان ابرهن على ذلك؟ لو رغبت في القتال ، لما كنت هنا في المكتب او في هذه الغابة . قد تحتقرني من

اجل ذلك ، ولكن هذا هو ما انا عليه ، اني ارغب في السلام والهدوء .»
وفجأة غيَّر بول تكتيكاته .
«دع القتال لنا . فلتهتم بالجانب العلمي في الموضوع . موضوع التجربة العظيمة . وسوف نتكفل نحن بالباقي . انها مهمة قومية كما قلت بحق .»
وهز الطبيب الحزين رأسه وقال في ايجاز «دعني وحدي» وبدأ يتغنى ، لانه كان محبا للشعر «فلتدعني اختفي هنا في الاعماق ... اذا ما غصنا ، فقد يكون في ذلك غرقي ، واذا ما نجوت ، فلتدعني اذن وحيدا في غابة لاحيا على الجذور والثمار الى ان ينساني الله نفسه في النهاية ...»
واصبح بول مادل سعيدا ومستبشرا . لقد اصبحت السمكة في الشباك !... انك تريد ان تترك وحيدا في غابة ، أليس كذلك ؟ وتريد ان تحيا على البذور والثمار ذلك امر يمكن تدبيره !
وحل اليوم التاسع من ابريل ، وافتتح القسم بدون طبيب الامراض العقلية الحزين . ولم يهتم بول مادل ، وخطر له انه لا ينبغي لاول عقبة ان تبعث في نفسه اليأس . ولكن مرت شهور ، وما زال الموظف الكتابي العنيد يقول لا لكل من يجس نبضه . وبدأت الامور تتخذ صورة خطرة ، وظلت الانباء السيئة تتوالى من جرانج. وذات اسبوع اتصل به تليفونيا المدير «بلا كلام فارغ» : ماذا عن كبير الاطباء الجديد ؟ وفي النهاية ذهب الى الوزارة بنفسه : املئوا تلك الوظيفة . يستحيل الاستمرار هكذا ! بلا كلام فارغ !
حسنا ، قد لا يكون ثمة كلام فارغ ، ولكن ليس ثمة كبير للاطباء ايضا . وفي تلك الاثناء حاول بول مادل محادثة عدة اشخاص آخرين بشأن الوظيفة ، ولكن لم يقبلها احد منهم . الى ذلك المكان الموحش ؟ لست انا . هناك مرشح واحد فقط يبدو انه يرغب في الحياة في مكان موحش ولكنه لا يود التضحية «باستقلاله» . حسنا ! سوف نمنحه الاستقلال .
قال بول في ود «انتبه ايها الصديق العزيز ، هذه الوظيفة لا يمكن ان تنتظر لمدة اطول . يجب عليك ان تتسلم القسم في الاسبوع التالي .»
«يجب عليَّ ؟»
«اقصد ... اننا لا نريد اجبارك ، رغم اننا نستطيع ذلك ... ان لدينا السلطة . ولكني افضل تماما ان تقبلها شخصيا بإرادتك الحرة ...»
كانت تلك لغة واضحة ، ولقد فهمها الطبيب الحزين ، وشد على يد السيد الفاضل .
«حسنا يا بول ، اني اقبل . سوف تذهب في الاسبوع القادم .»
وامتد الاسبوع القادم الى منتصف سبتمبر بتعلة او بأخرى ولكننا ذهبنا في النهاية . ورحلنا في عربة من بورزوني الى جرانج . وها نحن نستقر الان هنا في تلك الشقة ذات الغرفة الواحدة التي طردنا منها الطبيب المقيم ، والتي كنا مشغولين تواً بجر اثاثنا داخلها . وعلقنا على الحائط ساعتنا الدقاقة . وهز الديك راسه في

رزانة معلنا السادسة . بينما كان اثنان او ثلاثة من الوجوه البلهاء والتي اصبحت مألوفة ترقب الطائر المنهمك في عمله من خلال قضبان النافذة مبتسمة في غباء .

وقلت للسيدة الاولى ، والتي انعم عليها بذلك اللقب في التو «حسنا ، ها نحن في منزلنا ، ونستطيع ان نبدأ .»

ولكننا لم نبدأ فالمنظر الخلوي الذي يطل عليه منزلنا ـ اي هذا القصر ـ ما زال غريبا . وخرجنا بين المرضى الذين كانوا قد انتهوا توآ من عشائهم واندفعوا نحونا فيحماس بينما كنا نتجول مبتعدين عنهم، شاعرين بالغربة، المكانالى حد ما.

واقترحت على السيدة الاولى «فلنلق نظرة على المكان .»

وتمشينا امام البوابة ، ها هو ذا فيدلر الذي لا يصنع شيئا يقدم نفسه كنائب للمدير . ولقد كان يقف بالصدفة البحتة امام البوابة لا يصنع شيئا . وكان سعيدا وهو يقودنا الى الخلاء .

وقال فيدلر «هذا الطريق الذي تكتنفه اشجار الحور يؤدي الى المدينة ، وهذا يؤدي الى القرية . وتقع ساج SAG عند ذلك التل ذو الشكل الغريب ، فعلى قمته يوجد محجر للبازلت وعلى سفحه توجد كروم عنب نبيذها اميل للمزازة .

وهناك عند تلك الجبال الضاربة للزرقة والتي تلوح بعيدا تقع كيمينس Kemenes ذات النبيذ الاكثر شهرة .»

وقلت مودعا فيدلر الذي يعرف كل شيء ولا يصنع شيئا ، هذه اذن كيمينسالجا Kemenesalja ، قد يؤدي ذلك الى تيسير اعتيادنا على الخلاء ، فان شاعرنا الاعظم بيتوفي Petofi كان هنا عندما كان في السابعة عشر من عمره حيث أمضى شهورا قلائل لدى عمه . وحيث أحب فتاة تدعى روزا ، وقد خلد اسمها لذلك السبب فحسب .»

لقد بدا لنا الخلاء اكثر الفة بالفعل .

وقد تكون القرية التي قضينا فيها تلك الليلة المضطربة هي محل ميلاد الشاعر برزيني Berzensti . هنا عاش ذلك العملاق الفريد ، ومشى فوق ذلك الطريق ، كما عبر بالذات ذلك المكان الذي نقف فيه الان . وربما عند تلك الاضواء كتب برزيني :

.... ليست الكثرة هي التي تصنع المعجزات
بل العزيمة والانسان الحر

وشردت مفكرا ، اجل ، ربما يستطيع المرء حقا ان يستقر هنا . لم يعد الوسط الغريب المحيط بنا غريبا . ربما في هذا القصر الارستقراطي كتب برزيني :

القصور الرخامية الفاخرة الثمينة تتلاشى في الشفق
انها تمضي الى النسيان ، وتمضي معها
شهرة أصحابها العاطلين .

ولقد تلاشى بالتأكيد هذا القصر في الغسق ، وفي الغسق بدانا عملنا . سوف نزيل القيود التي تكبل ابدان المرضى العقليين وارواحهم ، كما كان يقول دكتور

بينل في عصر الثورة الفرنسية . سوف يكون ذلك امرا صعبـــا ، ليس بسبب «مختلي العقل» ، ولكن بسـبب تعصبات المجتمع غير العاقلة . يا للجحيم ، لا اريد مزيدا من القتال ، ولكن ذلك الخلاء قد أسرني بشكل ما «ان الساكت عن الجريمة شريك فيها» ، هكذا قال شاعر آخر من شعرائنا ، ولا استطيع ان اشارك فــي جريمة هؤلاء الذين قذفوا بهؤلاء المرضى العقليين خارج المجتمع وحكموا عليهــم بالحياة كأموات .

الفصل الثاني

إجماع

في الثامنة صباحا ، عقدت اجتماعا للقسم حيث شرحت اهداف المؤسسة . تحدثت عن مختلّي العقل ، وعن الفصاميين ، وعن مرضى الصرع ، وعن العلاج بالعمل ، ثم رايت فجأة على الوجوه الملولة للمستمعين انهم لم يفهموا كلمة واحدة مما اقوله . كنت اتحدث عن «العلاج الايجابي» و«الهلوسات» و«الهذاءات» ولم يكونوا قد سمعوا قط بتلك المصطلحات . لقد عاشوا هنا ستة اشهر بين مختلّي العقل ، ولكن كل ما لاحظوه كان يثيّر عجبهم . ولم يكن هناك من يساعدهم ، حيث ان الطبيب المسن كان في مستوى العامة بشكل لا يقل عن المرضين وفتيات المطبخ .

لقد سبق لي منذ زمن ليس بالبعيد أن القيت في الجامعة محاضرات بالغة التأثير ، ولكني كنت هنا اتعثر واتلجلج باحثا عن كلمات مفهومة دون ان اجدها .

لم أستطع الوصول الى المستمعين . قلت لهم ـ وانا يائس الى حد ما ـ ان العلاج بالعمل لا يعني جعل المرضى يعملون . فليس في العلاج بالعمل ثمة قهر، ولا تشغيل قسري ، ولا اجبار . بل على العكس فهو فرصة تقدم للمرضى لكي يعملون . ومهمتنا ان نشجعهم . ليست مهمتنا زيادة محصول السبانخ والكرنب بل ان نشفي المرضى او ـ على الاقل ـ ان نتيح لهم ظروفا للحياة تليق بالكائنات الانسانية . انه لمن الامور البالغة الاهمية ضرورة ان تغتني الدولة ، ولا يتحقق ذلك بأي حال من خلال ثمانين مريضا ينتجون هنا دون اجور ، بل انه يتحقق نتيجة

لتحقق شفاء بعض المرضى وانهم لم يعودوا في حاجة لان تعولهم الدولة ولا لان يشغلوا أسرة في المستشفيات ، بل يعودون الى بيوتهم ويشرعون في العمل ـ هل تفهمون ما اعني ؟.

ولا يستطيع احد الجزم بما اذا كانوا فهموا ، او لم يفهموا كان الارتياح يبدو على الوجه القاسي للطبيب المسن ، والتجاعيد القلقة تبدو على جبهة البستاني ، ولم تكن بقية الوجوه تبدي انفعالات على الاطلاق ـ انها محاضرة ، وعليهم ان يستمعوا لها ، وليس لديهم ما يستطيعون فعله بشأنها . يبدو ان كبير الاطباء الجديد يميل الى الثرثرة . ولكنه سوف يكف عن ذلك في وقت ما .

انه لم يتوقف بعد .

ومضيت اتحدث في اصرار . ان مختلّي العقل هم طريدو المجتمع ، وهم انفسهم منسحبون من المجتمع . انهم في صراع مع انفسهم ومع العالم . والعالم حريص على تأكيد انفصالهم ، انه يقذف بسيئي الحظ الى الخارج ، ويضعهم خلف القضبان ، ويخاف منهم ، ويرفضهم . ولكن هل ثمة مبرر للخوف من مختلّي العقل ؟

ولا أقصد بذلك السؤال مجرد البلاغة ، ولكن ما دام لم يجب عليه احد فلأجب عليه بنفسي اذن .

لا ، ليس ثمة مبرر للخوف من مختلّي العقل ، فهم كائنات طيبة المقاصد لا ضرر منها ولا يستطيعون ايذاء ذبابة اذا ما تركوا في سلام .

لا يجب اذن ايذائهم ، ولا السخرية منهم ، ولا مكايدتهم . كما لا يجب وضعهم خلف القضبان ، ولا حجزهم ، ولا تقييدهم بقمصان الكتاف ، ولا ضربهم .

وتدخل احدهم مقاطعا في خبرة «انهم يهاجمون الناس» .

وقلت «انهم يهاجمون الناس ؟» اجل ، انهم احيانا يقدمون على المهاجمة بالفعل . انهم يهاجمون اولئك الذين يسيئون معاملتهم . ارجو ان تتذكروا ان مختل العقل لا يقدم ابدا على المهاجمة دون سبب . (وهو في ذلك يختلف عن الشخص السوي) . انه قد يثأر لاهانة عابرة يعتبرها صاحبها غير ذات أهمية . وقد يحدث ايضا ألا يضرب حيث يجب عليه ذلك ، بحيث لا يأخذ بثأره من الشخص الذي أثاره. ولقد رأينا ايضا حالات جعل فيها المجتمع ـ بفضل قمصان الكتاف والضرب والحبس ـ مريضا يبلغ من التهور الحد الذي يبدأ فيه في الهيجان دون ان يهتم بمن يوجه اليه ضرباته . وصحيح انه يحدث أحيانا في حالات هذيانه أن يخلط الواقع بتصوراته المريضة محاولا الانتقام من زملائه بسبب تصوراته الخاصة شريطة الا يوجد بالقرب منه الخبير الذي يستطيع تهدئته بالكلمات الماهرة او المهدئات . ولكن الشخص المختل العقل الذي يهاجم دون مبرر على الاطلاق ـ غير موجود اصلا . »

وهنا قال صانع الاحذية الذي تحول الى ممرض في خيلاء «ان ليزلي سبيتز قد مزق ملابسي تماما دون سبب على الاطلاق . »

وعرفنا خلال دقيقتين ان صانع الاحذية لم يكن امينا تماما فيما يتعلق بتجريده من ملابسه . لقد كان ليزلي سبيتز هو ذلك الولد اليهودي الذي اعتادوا اثارته بتهديده بمعسكر الإبادة ، والذي اوسعوه ضربا عدة مرات . وعلت الحمرة وجه صانع الاحذية ، ونكس راسه حين كشفه الطبيب المسن ، وفضل ان يلتزم الصمت فيما يتعلق بالمهاجمات .

واستأنفت حديثي وانا اكثر ارتياحا قائلا ان الانسان كائن اجتماعي ، وللمجتمع الذي يعيش فيه قواعده وانماطه ، وتقاليده وعاداته . ونحن نعتبر ان الأسوياء هم الذين يعيشون ممتثلين لقوانين المجتمع المعاصر وعاداته وتقاليده . وكل من يعجز عن التوافق لا يعتبر سويا بل انه يعتبر اما مضطربا او ابلها او مجرما . ان المجتمع يخشى اولئك الذين لا يحترمون قوانينه ، فيحبسهم اما في السجون او في مصحات مختلّي العقل . ونحن ندّعي انه ليس بيدنا حيلة ، وأن علينا ان نضع اولئك المجاذيب التعساء خلف القضبان وإلا فانهم سوف ينسببون بالفعل في ايذائنا او ايذاء انفسهم . نحن نعرف جميعا ان المجتمع يحمي بحماس سلامة وحرية كل فرد ، ولا يجب ان يحرم احد من حريته الا اذا قضى القانون بذلك . حسنا ، ان القانون يقضي بأن اولئك الذين يمثلون خطرا على انفسهم او على الجمهور يجب حصرهم ووضعهم في احدى المؤسسات . وهذا امر واضح فضلا عن انه الامر الصحيح الوحيد أليس كذلك؟ أليس علينا ان ندافع عن انفسنا حيال مختلّي العقل، وأن نحميهم من انفسهم ؟ ولكن من الذي يقرر ما اذا كان المتهم يشكل حقا خطرا على نفسه وعلى الجمهور ؟ وكيف يتحدد ذلك ؟ ان طبيب الامراض العقلية يقرر ذلك بإدانة المرضى الذين يلحظ لديهم اعراضا للاختلال العقلي .

لنفهم بوضوح ان كل المرضى العقليين يعتبرون في نظر القانون ذوي خطورة على انفسهم وعلى الجمهور . وطبيب الامراض العقلية ملزم بإحالتهم لانه يعد مسؤولا عن افعال المريض منذ لحظة فحصه له . وليس طبيب الامراض العقلية عرافا ، ولا ضارب رمل ، ولا ساحر ، وهو لا يستطيع ان يتنبأ بما اذا كان صاحبه المختل عقليا سوف يأتي بشيء بعيد عن السواء . ان **الخطر** قائم على اي حال . وكيف لنا أن نتأكد انه لن يقع ! من الذي يستطيع ان يقرر ما اذا كان شخصا سويا معينا سوف لا يقدم غدا على قتل نفسه او قتل سواه ؟

هل لكم أن تروا الى اين يؤدي كل ذلك ؟ ان ادانة المريض لا تعني في الحقيقة انه يشكل خطرا على نفسه او على المجتمع ، ما دام في الامكان عمليا وضع اي شخص في هذه الفئة ، بل انها تعني : **ان هذا الشخص ليس مسئولا عن اية أفعال قد تعرضه او تعرض الجماعة للخطر لانه مختل العقل** . وهو ما دام ليس مسئولا ، ولا يمكن بالتالي حبسه نتيجة لاقدامه على الفعل ، فان حبسه مقدما هو الامر الاكثر لياقة .

لماذا يذهب اي مريض الى اية مستشفى ؟ لكي يشفى . ولكن ارسال المريض العقلي الى مستشفى الامراض العقلية يستهدف اولا تخليص المجتمع منه ، وثانيا

تخليص اسرته وبيئته منه ، ولا يأتي هدف شفائه الا اخيرا فحسب ، تلك هي الحقيقة التي تعرضت للكتمان . اذا ما اراد الطبيب ان يرسل بشخص مختل العقل الى المستشفى لعلاجه ، فان عليه اولا أن يدينه رسميا حتى ولو كان المريض هو اكثر اهل الارض وداعة . وبذلك فانه يصبح موسوما بالفعل . ولتحل اللعنة على كل من سبق له ان كان في احدى تلك المؤسسات ! لقد طردهم المجتمع .

وحين وصلت في عرضي الى تلك النقطة ، حدث شيء مدهش : قاطعني احدهم . هل يعني ذلك ان احدهم كان منتبها ؟ كانت الممرضة ايما هي التي تقاطع متسائلة :

«ما الذي يجب عمله ؟»

اجل ، ما الذي يجب عمله ؟ اولا يجب ان تتلاشى تلك المؤسسات الشبيهة بالسجون . لا تنزعجوا ! فإني لا اطالب بضرورة ترك هؤلاء الاشخاص غير المسئولين يتجولون كيفما شاءوا . ولكن ما ينبغي أن يختفي هو تلك المصحات التي تجمع بين السجن والقبر . ينبغي ان تتحول كل مؤسسة عقلية الى مستشفى منظم يحيل اليه الاطباء المرضى العقليين **للعلاج** ، كما يحيلون مرضى القلب الى المستشفى الخاص بالامراض الباطنية . لا ينبغي لاحد ان يوصَم وأن ينبذه المجتمع لانه مريض . فشفاء المريض سوف يذهب هباءاً اذا ما كان عليه ان يحمل وصمة بعد مغادرته المؤسسة .

وهنا قال الطبيب المسن «مستشفى للامراض العصبية ......»

اجل ، مستشفى للامراض العصبية . ان كل مستشفى للامراض العقلية به قسم للامراض العصبية ، حيث يتم الاحتفاظ بالمرضى «المسئولين عن افعالهم» . وينبغي ان يكون الامر على عكس ذلك ، بمعنى انه ينبغي ان يكون في المستشفى الكبير الخاص بالامراض العصبية قسما صغيرا مغلقا يعزل فيه مؤقتا اولئك الذين تمثل حريتهم تهديدا بالغا للآخرين . اجل ، ان هناك مثل تلك الحالات ، وينبغي تقييد اصحابها ، ولكن طالما كانت حالتهم تجعل ذلك امرا لا مفر منه . ولتصدقوني اذا ما قلت ان هذه الحالة لا تستمر طويلا . بل انها الان ـ في عصر العلاج الايجابي ـ تمر بأسرع مما كانت عليه في الماضي .

وانهيت اليهم باهتمام ، انه كان لديّ في مصحة ليبوتميزو Lipotmezo لمختلي العقل مريضا ظل محبوسا لاربعين عاما . وظل راقدا على سريره بلا حراك خلال الاربعين عاما . وحينما سألته عن حاله ، فانه هز راسه وقال : «حسنا ، اشكرك» وكان هذا هو كل ما فعله . لقد كان جثة حية طوال اربعين عاما .

لم ينته الاجتماع بعد ، ولكن مستخدمي المطبخ الذين أصابهم الملل عادوا بائسين الى المطبخ . ان الوجبات ينبغي ان يتم إعدادها اليوم ايضا على اي حال . وقد منحني ذلك وقتا لكي أفكر : لماذا كنت اتحدث الى اولئك الاجلاف ؟ فيم كانت تلك التهويمات ؟ لقد كنت اتناول قضايا كبرى في الطب العقلي لم تكن تثير حتى اهتمام أولئك الذين تعنيهم . وقلت لنفسي ، فلنكف عن الاحلام ، ولنعد

ادراجنا الى جرانج .

واستطردت ، بعد ان فكرت مليا ، ان المجتمع ينبذ مختل العقل . ولنسلم بأن المجتمع لا يقدم على ذلك دون سبب ، اي ان المريض العقلي هو الذي يدير ظهره للمجتمع حين يرفض ما يسمى بالطريقة السوية للحياة . انه يدير ظهره له ، ولكن لا ينبغي أن نصدق ولو للحظة واحدة انه ليس في حاجة لمجتمع سوي . ان غالبية مختلي العقل يحتاجون الى حياة اجتماعية بنفس القدر الذي يحتاجها به الاسوياء ، حتى ولو بطريقتهم الغريبة . انهم في حاجة الى العمل ، والتسلية ، والحب ، والتقدير ، والحرية . هذه هي الحقوق الانسانية الاساسية ، أليس كذلك ؟ وتلك بالتحديد هي الحقوق الاساسية التي ينكرها المجتمع على مختلي العقل . انه يحرمهم منها على سبيل الخوف ومن اجل الراحة ، بل وربما على سبيل اللامبالاة وإرضاء الذات . ان رايي في الانسانية ليس بالرأي بالغ السمو ، ولكن اعتقد اننا اذا عرفنا ما نفعله بأولئك التعساء ، فاننا سوف نتراجع عن قسوتنا . اذا ما اتضح لنا الى اي جحيم ندفعهم ، فاننا سوف نفزع ونستشعر الإثم ونحاول ان نعوضهم عن ذلك قدر المستطاع ، اذا لم يكن لشيء آخر ، فمن اجل أننا نحن او امهاتنا او ابناءنا ، او اخواتنا ، او اصدقاءنا ، او احباءنا قد يدخلون يوما ارض أولئك الموتى الاحياء .

اسمحوا لي أن اقول لكم ماذا ينتظر اولئك الذين يرسلون الى مصحة لمختلي العقل . انني لا اروي لكم قصصا ملفقة بل انها أمور تحدث كل يوم في كل انحاء العالم . ولنتناول حالة ولد يبلغ التاسعة عشر من العمر . كان يمضي في دراسته دون متاعب ولم يكن هناك ما يؤخذ عليه . كان طالبا ممتازا ، وموهوبا ، وولدا مثابرا هادئا . ولكنه بدأ يتصرف بشكل غريب أصبح يكثر من الخروج ولا يستطيع ان يقول اين كان . أصبح متعبا ومستفزا ومهملا لدروسه ، كما قلّ نومه في الليل وازداد انطواء على نفسه اكثر فأكثر في النهار . وبدأ في السرحان والتمتمة بينه وبين نفسه ، واصبح يصد ببرود والديه القلقين . واصبح غريبا عن اصدقائه، واخذ يتصرف بشكل غريب الاطوار . وذات يوم ، تجمع حوله زحام في حديقة الحيوان فلقد كان رجلنا الشاب يقف على صخرة واعظا الدببة .

لقد وقع فريسة الاختلال العقلي بلا شك .

وتم استدعاء البوليس وعربة المستشفى ، ونقلوه بالفعل الى اقرب مصحة لمختلي العقل .

ان اضطرار البشر للوقوف امام طبيب والإجابة على مثل تلك الاستفسارات لما يسبب له قدرا من الضيق . ولكنه أجاب في هدوء : ان اسمه كذا ، وانه يقيم في المكان الفلاني ، وانه ملتحق بالمدرسة الفلانية . لقد كان حقا يبشر في حديقة الحيوانات منذ لحظات ، غير ان القديس بطرس هو الذي امره بذلك . وكان هذا كافيا للطبيب المناوب ، فلم يضع وقتا اكثر من ذلك . وتم ارسال المريض الى الملاحظة . وصلصلت المفاتيح في يد شخص متجهم يرتدي بزة زرقاء يقول له :

ـ تفضل من هنا . ويظهر امامه باب كبير داكن اللون ، يفتح له ويصطفق من ورائه ، ويجد المبشر نفسه وحيدا في دهليز غريب . حتى الرجل ذو البزة الزرقاء لم يستمر في صحبته . ويقف هنالك وحيدا تماما في دهليز ينتمي الى عالم غريب.

ويشرع ببطء في التجول في الدهليز الغريب ، دون ان يفهم شيئا . ولا يلبث ان يمتلىء قلبه بشك مرعب ، انها المصحة . لقد أودع في مصحة لمختلي العقل ... لقد أخبروه عند وضعه في العربة انهم يأخذونه الى منزله ، ولكنهم بدلا من ذلك اتوا به الى مصحة لمختلي العقل ، رغم انه عاقل تماما ، ولم يفعل سوى محاولة تنفيذ تعليمات القديس بطرس بوعظ الحيوانات ... النجدة !!... ويستدير مهاجما الباب بقبضتيه ، طارقا اياه ، رافسا له ، منقضا عليه . النجدة!! انني اريد الذهاب الى منزلي ! دعوني اخرج !.

ويأتي جريا ثلاثة او اربعة من الرجال ذوي البزات الزرقاء . دعونني اخرج ! حالا ! اني آمركم ! ويتنبه فجأة فاذا به منطرح ارضا ، وإذا بشخص ما يجثم على صدره ، وهو يدمدم والزبد يغطي شفتيه : ايها القاتل ! سوف يتولاك القديس بطرس .... وأخيرا ، ينهض ، وينسحب الرجال ذوي البزات الزرقاء ، ويحاول ان يحرك ذراعيه فلا يستطيع . لقد وضعوه في جاكتة من نوع غريب ، تقيد ذراعيه على صدره . ويلقي بنفسه ارضا ، ويتدحرج ، ويصرخ ، والزبد يملأ فمه كالكلب ، ولكنه لا يستطيع فكاكا . ويتبين بشكل ضبابي اقتراب شخص ما ذو بزة بيضاء ، يغرس ابرة في ذراعه وبعدها يستغرق في النوم .

ويصحو مترنحا ، لا يعرف اين هو . انه على فراش غريب تحيط به وجوه غريبة . كيف جاء الى هنا ؟ ويحاول ان يتقلب في السرير ـ انه موثوق فيه . لا احد يوليه اي اهتمام . لقد نبذه الجميع، ، حتى امه ، وحتى القديس بطرس. ويتأوه ، ولا ينتبه احد . وتنهمر دموعه ، فلا يلحظها احد ، ولا يكفكفها احد . وتدور به الدنيا ببطء ، كما لو كانت في ضباب . فزع مرعب يأخذ بخناقه فلا يجرؤ على الصراخ . ويظل هكذا ولمدة طويلة راقدا دون حراك .

وأخيرا يخطو نحوه رجل في بزة زرقاء .

«حسنا ، كيف حالك يا ولدي ؟ لعلك لن تسبب لنا مزيدا من المتاعب اليس كذلك ؟ عليك بالهدوء» ـ ويبدأ في حل الوثاق . ويوجه حديثه الى رجل آخر ذو بزة زرقاء . «فلنحل وثاق صاحبنا بسرعة ، فقد يأتي الريس الى هنا في اي دقيقة ! »

ويحاول تحريك اطرافه المخدلة ، ويحملق فيما امامه في ذهول . وينفتح الباب ، ويحضر كبير الاطباء ، (يبدو انه لا يحب أقمصة الكتاف ....) ويتحدث الى المرضى الذين كانوا يستلقون او يقفون في انتباه . ويسأل بطريقة ودودة : حسنا ، كيف حالك ، كيف حالك ؟ ما الجديد يا سيد كيس ؟ كيف كان نومك يا كوفاتشي ؟ ماذا عن الاصوات المزعجة يا صديقي وازركوف ؟ ويصل الطبيب الى المبشر . ويهمس طبيب الامتياز بأن المريض الجديد كان متوترا ، وقد اعطيت له

جرعة من عقار السكوبولامين . ويهز كبير الاطباء رأسه ويراقبه باهتمام . حسنا ايها الشاب كيف حالك ؟ ما اسمك ، يا صديقي ؟ لماذا لا تجيب ؟ هيا ، هيا ، لا داعي لان تخاف من اي شيء هنا ، ليس هناك من سوف يؤذيك . في الحقيقة، ليس لطيفا منك ان تحجم حتى عن اعطائنا اسمك .... وتوجه بحديثه الى طبيب الامتياز ، حالة حادة ، مرحلة سلبية . خذ تاريخ الحالة ، وابدأ العلاج بالصدمات الكهربائية بأسرع ما يمكن . ان كل ذلك انما يعني انه قد تعرض مؤخرا لذهان المراهقة ، وانه الان في حالة انسحاب ورفض . واصبح على طبيب الامتياز أن يسجل التاريخ الاكلينيكي وان يبدأ في العلاج بالصدمات الكهربائية .

وأخيرا ، يأتي الممرض ، ويأخذه من ذراعه ، ويهبط به الدهليز ، وتصلصل المفاتيح ، ويسمع صوت ابواب تفتح ، انه مأخوذ الى عيادة طبيب الامتياز . ويجلس مواجها الطبيب . وكان الطبيب رجلا طويلا نحيفا ، يوجه استفساراته بسرعة ، ويدوّن ملاحظاته بسرعة كذلك . اسمك ، سنك ، المدرسة التي التحقت بها ، هل توجد حالات خلل عقلي في اسرتك ؟. وكان يجيب ببطء ، ويشعر بأنه مترنح الى حد ما ، ربما بسبب الحقن . وتستمر الاسئلة السخيفة : هل يسمع اصواتا غريبة ؟ هل لديه تهيؤات بصرية ؟ هل يتلقى تعليمات او اوامر ؟ الا يشعر بالخوف ؟ الا يشعر بالقلق ؟ هل ينام نوما جيدا ؟ ماذا عن حالة الهضم لديه ؟ ما حاصل ٤×٧ ؟ ١١×١١ ؟ ما هي عاصمة ايطاليا ؟ ما اسم رئيس الجمهورية ؟ ما الفرق بين السلم النقالي والسلم المنزل ؟ وما الى ذلك . ومضى يجيب في حذر، ويشرح كيف ان القديس بطرس قد أصدر اليه تعليمات تقضي بأن عليه أن يعظ الحيوانات ، ولكنه يود الان ان يمضي الى منزله . آها ، القديس بطرس ، هه ؟ حسنا ، إخلع ملابسك . وينظر الطبيب الى عينيه ، ويتسمع قلبه ويختبر منعكساته العصبية . حسنا ، أشكرك ، يمكن اعادته الان .

ومرة اخرى ، المرض ، والدهليز ، والباب ذو اللون الداكن ، وصليل المفاتيح ، وصوت فتح واغلاق الابواب . اصبح الان وحيدا . وحيدا بين كل هؤلاء الناس . احدهم يغني بصوت عال ، والآخر يصلي ، واغلبهم كانوا واقفين او مستلقين دون ان ينبسوا ببنت شفة . كان هناك صمت، بالتأكيد كان هناك صمت.

وبدأت الحياة تدب في العنبر ، وادخلت القزانات ، وصلصلت الاطباق . فلتصطف من اجل العشاء ! ويظهر القديس بطرس في ركن الحجرة ، ويلوح له ، ثم يختفي . وفهم هو الرسالة : لا تتناول اي عشاء ، انه مسموم . ويلقي بالطبق بعيدا ، فيتدحرج تحت الفراش . ماذا حدث ايها الصديق ، الن تأكل ؟ ويتكور هو في فراشه ويجذب الملاءة على رأسه . واخيرا يحضر الطبيب ، ويجلسونه على الكرسي قسرا ، ويمسك به رجلان ، وينصبّ الحساء في فمه من خلال انبوبة من المطاط . بالهناء والشفاء .

ويحل الظلام . ويتغير المرضون وتبدأ دورية الليل . ان المرضين الجدد شبان مرحين شغوفين بلعب الورق . جلسوا الى المائدة واخذوا في اللعب وراح

المرضى يتحدثون الى انفسهم او يستغرقون في النوم . ونشبت مشاحنة بين اثنين من المرضى وشرعا في العراك . واستمر لاعبو الورق في لعبتهم . وحين ازدادت الجلبة عنفا ، وثب الممرضون الى ما بين المتقاتلين ، وأوسعوا الاول ضربا ، ثم الثاني . واخيرا عاد الصمت كما كان .

لقد اصبح في الامكان سماع طرقة غامضة تصدر من ركن الحجرة ـ اشارة من القديس بطرس الذي تمكن بفضل الاشماع من اعلام نبيه بأن أعداءه هم الذين حبسوه هنا ، وأنه يجب ان يتحمل وأن يعاني الى ان تحل ساعة الخلاص .

وفي الصباح ، كتب الممرض في سجل التقارير ان المريض الجديد ركع وصلى طوال الليل . كيف عرف ذلك ؟ ترى هل استيقظ من وقت الى آخر لاي سبب طارىء ؟.

وقبل الظهر ، ارتفع من الممر صوت حاد : العلاج بالصدمات الكهربائية ! هرج، وجري صعودا وهبوطا ، وصياح . المرضى يستدعون بالدور ، بعضهم يذهب في هدوء ، والبعض في تمنع . احد المرضى يلقي بنفسه ارضا ويصرخ ، لا ، لا ! فيتم سحبه من شعره . ويسمع الرسول اسمه ينادي ايضا ، ويمسك به ويؤخذ الى الحجرة الاخرى . وبينما يقومون بخلع حذائه ، يرى مريضا يشخر على احد الاسرّة ، بينما يضغط شخص ما على سرير آخر ، ويمسك به خمسة رجال مقيدين اياه ، وقد وضع جهاز كهربائي على راسه . ويضغط الطبيب على الزر ، ويلقي المريض بنفسه في الهواء مطلقا صرخة حادة ثم يتشنج ، ويمتلىء فمه بالزبد. ولا يستغرق ذلك سوى دقيقة ، ثم يسترخي الجسد المشدود ويرقد بلا حراك ، ويضغط احد الممرضين على صدره ، ويقوم الطبيب بقياس نبضه . ويقول الطبيب «اللي بعده» ويدفع بالرسول الى الامام . ويحاول الاعتراض ، ولكن خمسة من الرجال يشلونه عن الحركة . ويود لو يصرخ . ولكن انبوبة من المطاط توضع قسرا في فمه . ويتوارد على ذهنه : رباه ! امي ! الغوث ! الموت ! ، ثم يحس كما لو كان القي به من الطابق الرابع.

ويعود الى الوعي وهو على سرير غير مألوف . اناس يأتون ويمضون ولا يعيره ايهم ادنى انتباه . ويحضر اليه احد الممرضين حذاءه ، ثم يدفع الى حجرته حيث يمضي الى فراشه ويستغرق في النوم .

ولم يستطع مؤخرا سوى تذكر ان القديس بطرس قد فسر له حلمه ، قائلا له ومشيرا الى الممرض الذي كان مستغرقا في مباراة شطرنج . يجب عليك ان تنتقم . ويختفي القديس بطرس ، ويقف الرسول مترنحا ، ويمضي مباشرة الى الممرض ، ويعض اذنه . وبعد ان ينفذ ما كلف به يوضع قسرا في قميص الكتاف، ويؤخذ الى عنبر «الخطرين» .

انه الان يقف هنا في الركن المظلم من الممر ، متصلبا ، دون حراك ، منكس الراس ، قلبه ممتلىء مرارة وضيقا ، ولكنه غير مبال ومنعزل تماما عن العالم . انه لا يتقبل ما يجري حوله ولا ما يجري له ، ولكنه وطد العزم على تقبله . هل

ترى الفرق ؟ مضت سنوات منذ الموعظة . ولقد زاره القديس بطرس مرات قليلة، ولكنه لم يعد يصدق القديس بطرس . ولم يعد يرغب في وعظ الحيوانات ، ولم يعد يمضي الليالي مصليا ، ولم يعد يعض اذن المرض ، ولم يعد يرفض الطعام (انه يعرف انه مسمم ، ولكنه لا يهتم) ، ولم يعد يعترض حين يوضع تحت الجهاز الكهربائي ويلقى به من الطابق الرابع . لقد أصبح لا مباليا . لم يعد راغبا في العودة الى المنزل . امه تزوره من وقت لآخر ، فيلقاها ببرود . وحين يتلقى ربطة الاغذية ، لا يلاحظ ان نصفها قد فقد حين تسلمه اياها ، وأن النصف الآخر يختفي بعد ذلك . انه لا يوضع في قميص الكتاف حاليا ، لانه لم يعد عدوانيا . واحيانا ما ينشب عراك في العنبر، ولكنه لا يوليه اهتماما . واذا ما أخذ مريض جديد في الصراخ او السباب او تكرار أفكاره الهذائية ، فانه لا يولي ذلك اهتماما. اذا ما كان ثمة شيء يثير اهتمامه ، ترى ما هو ؟ ما الذي يفكر فيه ؟ ليس من طريقة لمعرفة ذلك . حدث ذات مرة ان صحبته والدته في جولة في الحديقة ، كمجرد تجربة ، فاذا به ينظر حوله في ذعر ويعود مسرعا الى ما خلف الباب المغلق.

يقول الاطباء انه قد أصبح فارغا وانه يستنفد ويتبلد . هل هذا صحيح ؟ يبدو بالتأكيد كما لو ان شيئا ما قد مات في داخله . انه ما زال يعيش ولكن دون حياة .

ليس في استطاعة احد ان ينبيء عما اذا كانت الخبرات المدمرة للايام القلائل الاولى قد اضرت به أم انه كان سوف يصبح كذلك على اي حال . ربما ، وربما لا. ربما ، اذا لم يلق به الى تلك الهوة المفزعة بمجرد انفجار اختلاله العقلي ، واذا كان قد تلقى لمسة من شفقة او فهم ، واذا لم يخدع ، ويعامل بعنف ، ويقيد ، ويلقى به من الطابق الرابع ، واذا لم يدس بالاقدام ويعامل معاملة الحيوانات ، واذا لم يناد امه بلا مجيب ، واذا لم يترك لنفسه تماما .... حسنا ، من يعرف ؟ ربما كان سيظل واقفا هنا متصلبا ، صموتا ، غير مبال ، شاعرا بالضيق . ولكن ربما لا ! ان هذه الـ «ربما» هي شغلنا الشاغل . كيف لي ان أوضحها ؟ اذا ما قفز احد الناس من نافذة في الطابق الثالث ، وأوشك أن يتحطم ، ما الذي تستطيع ان تقدمه له ؟ لقد قفز بالفعل وهو آخذ الان في السقوط ، فما الذي تستطيع ان تفعله ؟ فلتدفع تحته بسرعة بحشية لينة حتى لا يسقط على الارض الصلبة . قد يؤدي ذلك الى عدم تحطيمه تحطيما بالغا . ان ما أعنيه هو ان الحشية اللينة هي نحن ـ قسم الامراض العقلية في جرانج.

وعلى العموم ، فان اولئك الذين يأتون الينا ، يكونون قد سقطوا والحقوا بأنفسهم أذى بالغا بالفعل . انها «الحالات المستعصية» كحالة رسول القديس بطرس كما اصبحت عليه الان . وهم ليسوا متشابهين على الاطلاق ، فهم يختلفون عن بعضهم البعض كثيرا : فقد يقف احدهم متصلبا ، ساكتا ، مقطبا ، بينما الثاني كثير الكلام ، متفتحا ، مرحا ، ويتحدث الثالث عن وساوسه ، ويبتسم الرابع في بلاهة وهو غارق في سباته ، ويتحدث الخامس الى اشخاص غير مرئيين ،

بينما لم يعد السادس يرى اية هلوسات . وبعبارة اخرى ، فانهم يختلفون كثيراً ، وكل فرد منهم حالة مستقلة . ولكنهم يتشابهون في ناحية واحدة : انهم قد فقدوا صلتهم بالمجتمع ، ولم يعد لهم انتماء على الاطلاق . انهم عاجزون عن الانصياع والمواءمة ، كذلك فان المجتمع لا يتقبلهم .

وهنا يأتي دور مصحة جرانج ، فبدلا من المجتمع الحقيقي ، ينبغي خلق مجتمع مصنوع من اجلهم . عالم يوائم نفسه لهم ، منزلا لمن لا منزل له يستطيعون فيه ان يحسوا انهم في منازلهم حقا .

ولكن مهلا ! ان المجتمع المصنوع لا يقام من عناصر مصطنعة ! انه ينبغي ان يقام من شيء حقيقي ، ومنزل حقيقي ، وحب حقيقي ، وثرثرات وشجارات حقيقية ، وعمل حقيقي ، واهداف حقيقية ، وتسلية وصداقة حقيقيتين وحرية ونظام حقيقيين . ينبغي ان يعيش مرضانا **حياة حقيقية** ، وينبغي ان يكفوا عن كونهم موميات حية ، فلنتجه الى ذلك مباشرة . ينبغي ان تكون البيئة التي نخلقها مليئة بالحياة . ترى لماذا أدعوه رغم ذلك مجتمعا مصطنعا ؟ ذلك لاننا نختلف عن المجتمع الحقيقي في نقطة وحيدة : نحن لا نتوقع من المرضى ان يتوأموا معنا او على الاقل أن تتم تلك المواءمة في كل شيء . على العكس ، فان علينا نحن ان نوائم انفسنا معهم ، بقدر ما تتطلب أمراضهم ذلك .

ليس صحيحا ان المرضى لا يستطيعون التكيف على الاطلاق ، ولا يمكن تدريبهم وتشكيلهم . ان من يقول ذلك ــ ايا من كان ــ لا يعرف المرضى العقليين. ليس أمامنا سوى شيء واحد علينا ان نفعله : ان نصمم الاحتياجات وفقا لفرديتهم ووفقا لمرضهم . مخطيء من يظن انه يستطيع مجادلة المريض العقلي بحيث يتخلى عن هلوساته . مخطيء من يتخيل انه يستطيع خلال الحجج المنطقية اقناع المريض بسخف هذائه. والخطأ كل الخطأ أن يعتقد المرء انمختل العقل بهلوساته وبهذاءاته، والمريض الابله او المعتوه ، او باختصار ، غالبية المرضى العقليين جميعا ، لا يمكن جعلهم يعيشون حياة حقيقية ، ولا جعلهم يحبون الحياة ، ويحبون منازلهم ، ولا جعلهم يتقبلون موضوعا جديدا أدخل ببراعة في حياتهم ، ولا جعلهم يندمجون في هذه البيئة التي تشكلت من اجلهم .

***

«العلاج بالعمل» تعبير خداع ، ينبغي ان تكون فيه على حذر . فمن الخطأ البين الاعتقاد بأن جعل المرضى يعملون هو ما نعنيه بالعلاج بالعمل .

ان العمل يقدم مساعدة بالغة ، بل انه قد يصنع الاعاجيب . حتى انه قد يؤدي احيانا الى الشفاء ، رغم ان ذلك ليس بالامر المؤكد . ولكنه يستطيع ان يبعث الحياة في الموات . ولكي يتحقق ذلك فانه ينبغي ان يكون عملا حقيقيا وليس سخرة . ينبغي ان يكون ممتعا وليس اجباريا . هل في هذا شيء غير عادي ؟ كلا

على الاطلاق . فنفس الشيء صحيح بالنسبة للأصحاء الأسوياء . ان كلا من البطالة والسخرة على حد سواء امر مدمر للاعصاب . والامر لا يتطلب من المرء أن يكون مختل العقل ليكشف ذلك . ما الذي يدعونا الى الدهشة اذا ما أصبح نزلاء المؤسسات العقلية غير مبالين وهم في تلك الحالة من البطالة التي تستمر لسنوات طويلة ؟ ولماذا نظن ان السخرة يجب ان تساعدهم ؟ فلنعامل مختل العقل ، كما نحب ان يعاملنا الناس .

لم يحدث ان شفي احد بمجرد العزق بالفاس وقطع الاخشاب . ينبغي دفع المريض الى الاستمتاع بعزق الارض ، والى ان يصبح تقطيع الاخشاب امرا ذو معنى لديه . انه اذا ما أحب عمله ، امكننا القول بأن نصف الشفاء قد تحقق بالفعل .

ولكن فلأكرر مرة اخرى : ليس العمل هو الذي يسبب الشفاء ، بل البيئة التي خلقناها للمريض . أن اتاحة فرصة العمل تعد احدى العوامل البالغة الاهمية، ولكن هناك الكثير من العوامل الاخرى . فأولا ، يجب ان **يشعر المريض بالحرية** . وليست الحرية مجرد عدم اغلاق الابواب ، بل انها تعني ان المريض انما هو هنا برغبته ، وانه يجب ان يوجد هنا ، وان يعمل ويشارك في حياة الجماعة . وبعبارة اخرى ، فانه يجب ان يشعر انه في منزله ، وانه ينتمي الى شيء ما . يجب ان يكون جزءا من جماعة ، يستمتع بميزاتها ، ويعترف بنظمها . وبعبارة اخرى ، فان طريد المجتمع يجد مجتمعا من جديد . وينبغي ان نكون على ثقة من انه سوف يلحظ القوانين الاساسية للحياة في هذا المجتمع ، وانه سوف يطالب بتقبل شذوذاته ، وفي نفس الوقت فانه سوف يتقبل شذوذات الآخرين .

استطيع أن ارى على وجوهكم انكم تعتبرون هذا من قبيل التمنيات . واعترف بأن هذا ليس بالعمل السهل ، كما انه لا يمكن انجازه بالنسبة لكل مريض . وهو بالتأكيد امر لا يمكن ان يتحقق الا اذا شاركنا جميعا في خلق البيئة التي يصبح «عمل» المريض بدونها مجرد سخرة وليس علاجا . انها ليست ببساطة مهمة قاصرة على الطبيب او الممرض ، بل هي مهمتنا جميعا على السواء : السائق والبستاني والممرض والطبيب ايضا .

ما الذي يجب علينا ان نفعله ؟ ـ هذا هو ما تودون معرفته ، اليس كذلك ؟ **ان عليكم أن تعتنوا بالمرضى** . تحدثوا اليهم ، واسمعوا لهم ، واهتموا برغباتهم ومسراتهم وغضباتهم ، استدرجوهم الى العمل والترويح . وباختصار فان عليكم أن تحبوا المرضى ، ولسوف يعرفون لكم صنيعكم . ان كلمة ودودة يمكن ان تجعلهم يفعلون اي شيء ، وحتى وهم في قمة استثارتهم فانه يمكن تهدئتهم عادة. ولسنا في حاجة الى القول بأنه يجب الا تساء معاملتهم ، حتى ولو هاجمونا . هناك من الممرضين من لا يستطيع ببساطة أن يتخيل التعامل مع المرضى العقليين دون ضربهم . ولكن هؤلاء سوف يمرون بأوقات عصيبة لان مرضاهم سوف يلجأون الى العنف ـ وسوف يكون لديهم مبرر جيد لذلك . ولكنكم اذا ما لم تؤذوا المرضى ، فإنكم سوف تقضون أوقات طيبة وكذلك المرضى . وسوف لا يكون بالشيء الهين، فان علينا أن نمارس منهجا جديدا لم نصل حتى الى توقع مفاجآته ، ولكنه لن يكون

بالغ الصعوبة على اي حال . لماذا يكون حبنا للمريض اصعب من كراهيتنا له ؟ لماذا يكون اشفاقنا على المريض أصعب من قسوتنا عليه ؟ هذا هو لب الموضوع . ولسوف تتوالى البقية من تلقاء نفسها . اننا لو استطعنا تحمل صحبته بعضنا بعضا لمدة ستة شهور ـ اعني ان تكون انت لي ، وأنا لك ، والمرضى لنا ونحن لهم ـ لشهدنا شيئا بالغ الاهمية : هو بالتحديد ان سيئي الحظ سوف يصبحون محلا للحسد . ان اول انطباع لاي شخص يزور المصحة هو آه ، لهؤلاء التعساء المساكين .... وسوف يكون الامر مختلفا آنذاك . سوف يقول زوارنا يا إلهي ، ما أسعد كل من في هذا المكان ... اليس هؤلاء الناس محظوظون حقا .... انهم يستمتعون بحياتهم ، يا للغرابة .... انهم سوف يقولون ذلك اذا كان هذا ما تريدون . بل ان بعض زوارنا قد يقولون ان الحياة هنا اكثر سلاما عنها في العالم بالخارج ... والله انه لن يسيئني ان اكون مريضا في جرانج . وبالطبع فان ذلك لن يكون من جانبهم الا من قبيل الدعابة ، ولكن الناس لا يقدمون عموما ـ حتى ولو على سبيل الدعابة ـ على التعبير عن رغبتهم في العيش في مصحة عقلية .

وحين يقدم اول زائر على التصريح بتلك الدعابة ، فاننا نكون قد كسبنا معركة جرانج .

***

وفي المساء قالت السيدة الاولى لكبير الاطباء «تلك هي الطريقة التي تتصرف بها حين لا تكون راغبا في القتال . وأني لاتساءل عما تكون عليه طريقته في القتال . »

الفصل الثالث

المتعات الأولى

يقولون ان البداية دائما هي اصعب المراحل . ولكن خبرتي في جرانج كانت على عكس ذلك : لقد كانت البداية سهلة نسبيا ، ولم تأت المصاعب الا مؤخرا . وحينما أعود الان بذاكرتي الى ما حدث من تغيرات مفاجئة في جرانج ، فاني ادهش كثيرا للسهولة التي تمت بها .

في الحقيقة ، لقد ساعدنا الحظ .

لقد دبّرنا منذ زمن ليس بالبعيد التخلص من اكثر المشاغبين خطورة . حقيقة انني كنت معتدا بقدرتي على التعامل مع الاحداث الجانحين ، حتى انني قد الّفت كتابا عنهم ، ولكني كنت مسرورا بألا نتعرض لمضايقاتهم . ان الكتابة عن المشاغبين شيء والحياة معهم شيء آخر .

وعلى اي حال فقد تظاهرت بالاسف لحرماني من تلك المهمة النبيلة . واكد لي الطبيب المسن انهم سوف يعودون . وعلى اي حال فقد كان لدينا ما يكفي من المتاعب بدونهم . والحقيقة انهم قد عادوا بعد ذلك مؤخرا ، عادوا جميعا عدا واحدا منهم شنق لقتله طفلا .

وكانت ضربة الحظ الاخرى هي ان الطاهية ، التي كان صراخها يرعب الجيرة كلها ، اخطرتنا برغبتها في ترك العمل . لم يكن الطبيب المسن يقترب مطلقا من المطبخ دون ان تعتمل في قلبه ثورة ، وكان يبتلع الغضب بدلا من الطعام الجيد كلما راى الطاهية تموّن ضيوفها وخلصائها بأطايب الطعام ، وتلقي للمرضى بالفضلات .

صحيح اننا لم نحرز كسبا كاملا بالطاهية الجديدة ، فمع ان أمانتهـــا كانت موضع شك الا انها على الاقل لم تكن تصرخ . وكانت تقول في صوت رقيق عـــن طهيها الذي لا طعم له «وهل يطمع المجانين في أفضل من ذلك !» وكانت بالطبع تطهي لنفسها طعاما مستقلا .

وسرعان ما حدث الصدام الاول مع الطاهية النهمة . لقد أقدمت ببساطة على فتح الدواليب ، واخرجت خزينها الخاص المخبأ ، وامرت بأن يتلقـــى المرضى وهيئة الادارة جميعا منذ الان نفس الطعام ، على ان يحصل المرضى على افضل اصنافه . وبدت على وجه الطاهية ابتسامة ازدراء . حركة تطهير جديدة .....! ولكن حين أعيد الطعام غير المستساغ للمرة الثانية ، واضطرت الى اعادة طهيه من جديد ، وحين وجدت ان الطبيب العنيد لم يمل ابدا من فتح الدواليب ، حيث كان يجد دائما الكعك الفاخر او القشدة . حين وجدت ذلك أقدمت على مشاجرة هستيرية ، وهددت على اثرها بتقديم اخطار بترك العمل ، وسبت رئيسها سبا عنيفا بقدر ما سمحت به حبالها الصوتية الرقيقة ، وأخيرا ، استسلمت وحسنت الطعام . ولكنها حين تبينت انه حتى بعد مضي شهور لم يعد هناك سبيل للعودة الى طريقة «وهل يطمع المجانين في أفضل من ذلك !» فانها يئست وتركت عملها .

ولم تستغرق المعركة الحاسمة مع المرضين فترة اطول . لقد صعقوا في البداية لدى سماعهم انهم يجب ان يعملوا . ان يعتنوا بالمرضى ! لا بـــد وان الرئيس معتوه . لم يـــعد بالامر الجديد سوى البستاني ، فهو يستطيع الان أن يتحكم في المرضى . (لقد تخيل ان «العناية» تعني ان يدفع المرضون بالمرضى اليه ، حيث يقوم بالاشراف على تسخيرهم) . ولقد مضى بعـــض الوقت قبل أن تصبح «العناية» امرا واقعا ، وأدرك المرضون تدريجيا انه كلما ازداد ما يبذلونه من جهد ، قلّ ما يصادفهم من متاعب .

وكانت نوبة الليل هي التي ادت الى الصدام المباشر . فقد نام نوبتشية الليل. من الذي يظن ان كبير الاطباء قد يتمم على ممرض الليل ؟ وحين فعل ذلك ، كان المرض يغط في نومه . ولكي يتحاشى المفاجأة ، فقد أغلق عليه الباب من الداخل. وذلك يجعل العمل الليلي سهلا ، ويصبح ممكنا للمرء تبعا لذلك أن يمضي مرحـــا للعمل في المتجر في اليوم التالي لزيادة دخله . ان من يكون لديه نوبتشية ليلية ثم لا تبدو عليه الرغبة في النوم اليوم التالي يكون موضع شك . ومن تكون لديه نوبتشية ليلية ثم يذهب لقضاء شئونه الخاصة في اليوم التالي لا بد وانه كان نائما في نوبته .

واخذت افسر الامور في صبر وأنـــاة ، تحدثت عن الخطر والمسئوليـــة واللياقة .... وانصتوا ، وفي الليلة التالية استغرق المرض النوباتشي في النوم مرة اخرى . بالتأكيد لن يعاود الرئيـــس مروره ؟ ولكن الرئيس كان جسورا ولم يستسلم الى أن يتخلى نوبتشية الليل عن عادة النوم . واستطيع ان اقرر فـــي رضى انهم قد تخلوا عنها بالفعل . اذا لم يجدِ الوعظ ، فقد اجدت المراقبـــة

المستمرة ، التي اقتصرت مؤخرا عليّ مرة كل شهرين او ثلاثة .

واخرجت المرض تاتي ، الذي لم يكن مهتما حتى الان سوى بقوائم الجرد، من جحره . واستغرقت وقتا طويلا لاقنعه بتسليم الاشياء الى المرضى . ولقد ظل معتقدا ان بي مسا من الجنون لاصراري على ان التموين انما هو من اجل المرضى وليس العكس . ولقد حاول في البداية ان يمارس الحيلة الشائعة في المصحات العقلية : لقد فقدت بعض الملاءات والملابس الداخلية من القائمة ، وصاح قائلا :

«كيف لي ان اعرف اين هي ؟ لا بد وان المجانين قد القوا بها بعيدا ، او تخلصوا منها بالقائها في دورة المياه ....»

«القوا بها بعيدا ، يا عزيزي تاتي ؟ حسنا ، لا بد وان نكون على ثقة من اننا سوف نجدها سريعا ، طالما انهم لا يستطيعون اخفاءها تحت الارض . واذا ما كانت في دورة المياه فان ذلك افضل ايضا ، انها سوف تسبب آنذاك عطلا وبالتالي فسوف نجدها بكل تأكيد . استمر في البحث عنها ...»

ومضى تاتي غاضبا ، وبعد اسابيع قليلة جاء لاهثا وقد عثر على ضالته :
«فلتحضر وترى بنفسك لو سمحت ! هنالك قميص محشور في دورة المياه !»
وقد كان القميص هنالك بالفعل .

«لقد رأيت يا عزيزي تاتي كيف كان سهلا ان نجده ؟ اذا ما كان احد المرضى قد وضعه حقا في دورة المياه ، فها نحن قد وجدناه .»

ولقد تعجبت كيف لم تجد اية قطعة من الملابس طريقها بعد ذلك الى دورة المياه تحت اية ظروف . لم اكن اصدق ان المرضى يمكن ان يضعوا ملابسا في دورة المياه على اي حال ـ لماذا يفعلون ذلك ؟ لقد كنت اكثر ميلا الى اعتبار ان الممرض قد اخذ القطع الاخرى الى منزله وباعها .

انني لا اعرف ما اذا كان تاتي قد فعل ذلك من قبل ام لا ، ولكنه بالتأكيد لم يفعل ذلك فيما بعد . لم يفقد شيء آخر من قوائمه بعد ذلك ، الا ما قد يهرب به المريض ، وهو لم يكن مسئولا عن ذلك بأي حال .

ولقد كان الاكثر صعوبة الى حد ما ، هو اقتفاء آثار الصابون ، وفرش الاسنان وأوراق التواليت وما الى ذلك ، أما عن السجائر فحدث عنها ولا حرج . من السهل القول هنا انها قد ضاعت من المريض ، او انه قد القي بها بعيدا ، او انها قد سرقت من المسئول عن التموين ، وكثيرا ما يكون ذلك صحيحا . اني لافكر في مقدار ما يمكن ان يخزنه الممرض اذا ما تعمد ان يأخذ ممتلكات المرضى . ان الميزانية هي التي تلام عادة اذا ما تناثر المرضى الواقفين في العنابر قذرين او رثو الثياب او انصاف عرايا . كان يقال لنا انه لم تكن هناك نقود . ولكن ذلك لم يكن صحيحا . فقد كانت هناك نقود كافية في الميزانية لشراء الصابون وفرش الاسنان ومعجون الاسنان ، وأوراق التواليت ، والملابس ، واغطية الاسرّة . واذا ما ترك المريض مهملا ، ومرتديا الخرق ، فان النقود او التموين يكون اذن قد استخدم في غرض آخر .

ولقد استغرقت بعض الوقت قبل ان اتأكد من كل ذلك . كان من السهل وضع نهاية للمتاجرات الصغيرة التي يقوم بها تاتي ، ولكن المرضى ظلوا يرتدون الخرق. ولم البث ان اكتشفت السبب ، فبينما كنت احاول اصطياد بسارية صغيرة ، كانت السمكة الكبيرة تسبح حرة مغتبطة . ان اغلب الاشياء لم تكن تفقد من خلال تاتي ، بل انها ببساطة لم تكن تصل الى القسم على الاطلاق . بصرف النظر عما تقوله الميزانية ، فان قسم الامراض العقلية لم يكن يتلقى سوى القليل من المهمات . اما الجانب الاكبر فتلتهمه اقسام الامراض الباطنية او الجراحة او امراض النساء ــ اي باختصار بقية اقسام المستشفى . ان الخرق «تعد كافية بالنسبة لمختلّي العقل» كما انه من الملائم ان تنشيء المستشفى قسما للامراض العقلية بحيث تستخدم ميزانيته لزيادة رفاهية الاقسام الاخرى .

وينبغي عليّ ان اعترف خجلا انني حينما اكتشفت ذلك كنت اظنه امرا خاصا بجرانج . ولم البث ان وجدت ان الامر كان كذلك في كافة مستشفياتنا التي تضم اقساما للامراض العقلية تكون لها بمثابة البقرة الحلوب . لقد كان الامر كذلك لمئة عام على الاقل . ولقد صدمني ذلك الاكتشاف ولكنه لم يقدم حتى الان مساعدة كبيرة لاقسام الامراض العقلية الاخرى في وطننا بل انه لم يقدم عونا الى جرانج الا بعد قتال استمر سنتين .

وبعد الانتهاء من مستخدمي المطبخ ومن تاتي ومن نوبتشية الليل ، جاء دور هيئة التمريض . وكان ذلك امرا سهلا . اخرجت هامستر من دكان النجارة ، واخرجت الفجر من دكان صنع الاحذية وارسلت بهم بين المرضى . ولم يكن هناك داع لاخراج المرضة ايما . وتركت الفتاة الغجرية العمل على الفور وتلاها بأشهر قليلة صانع الاحذية بعد ان تأكد من انه لن يستطيع الاستمرار فيما كان فيه سابقا. وقال هامستر في اليوم الاول : «لن ابقى هنا دقيقة واحدة» وقال بعد مرور شهر «الف مقابل واحد» ! وكان يعني بتلك العبارة ان الحياة في القسم افضل الف مرة مما كانت عليه فيما سبق . لقد ندم هامستر واصبح ممرضا جيدا . وحضر ممرضون جدد لكي يحلوا محل الفجري وشقيقته . المرضة جولي من بودابست ، وهي «سيدة مثقفة» ، وكانت تبدو للوهلة الاولى منحة عظيمة . اما آني تمت ترقيتها من فتاة مطبخ الى ممرضة فقد كانت بالفعل تستحق اكثر من ذلك بكثير. لقد تزوجت هامستر فيما بعد . ثم وصل بيك الملاكم رقيق القلب . كان كتلة مكتنزة من العضلات ، وكان يحوز احتراما هائلا لدى المرضى ، رغم انه لم يكن ليؤذي بعوضة . ولقد كان يخجل من اعتباره «بعبع» المؤسسة .

وبذلك اكتملت تقريبا قائمة الاسماء .

لقد كان كل شيء يمضي في الحقيقة منتظما كالساعة . تم التخلص من الكسالى ، والاحتفاظ بأصحاب النشاط الجاد . انهم لم يكونوا يعرفون كثيرا عن العلاج ، ولكنهم اخذوا يتحققون ببطء من ان جرانج ليست معسكرا للعمل الاجباري . لقد ادهشهم تبين مدى التأثير الذي احرزته السيدة الاولى على المرضى

خلال خمس دقائق . انها لم تعمل على الاطلاق في قسم للامراض العقلية ، ولكنها عرفت من اللحظة الاولى كيف تعامل المرضى . ترى كيف فعلت ذلك ؟ انها ببساطة قد عاملتهم كما ينبغي ان يعامل اي شخص : بحنان . بحنان ـ وبعاطفة طبعا ـ ولكن بحسم . لم يكن لديها اية دراية بالالاعيب المهنية ، فهي مثلا لم تكن تعرف شيئا عن الجلد بالقماش المبلل ، ولا عن طرح المريض ارضا بجذبه من شعره ، ولكنها ـ وهذا هو الاغرب ـ لم تكن في حاجة الى مثل تلك الالاعيب . لقد نسيت منذ زمن طويل انها قد خافت ذات مرة من جوليوس جريم . خافت منه ؟ لماذا حدث ذلك ؟ ان ذلك لم يخطر لها اطلاقا ببال . واحاطها المرضى بودهم وحبهم ، فتعجب المرضون وبداوا في التعلم منها . ولا انكر انني تعلمت منها بدوري .

وبدأ المرضى في العمل على الفور . لقد كانوا على استعداد للعمل بسرعة اذا ما توافر اي تنظيم . وحاول البستاني ان يرسي نظاما ، ولكنه استبقى افضل العاملين وتخلص من الآخرين حتى يمنعهم من تخريب عمله . ولقد احس بعد ذلك انه وجد معاونا نافعا في شخص كبير الاطباء الجديد الذي اراد ان يقدم له الايدي التي لم تعمل حتى الان . وقد تحقق ذلك بالفعل ، غير انه لم « يحضرهم » بالسوط . وبدلا من ذلك فقد خرجنا كلنا سويا وعملنا مع المرضى ، مشجعين لهم ، مادحين اياهم ، أو موبخين وفقا لما يستحقونه ، الى ان نمي لدى المرضى احساسهم بالمسئولية تجاه مشروعهم **الخاص** ، وحافظوا على نظام المنزل والحديقة من اجل انفسهم ، وفلحوا ارضهم من اجل انفسهم ، اي من اجل الجماعة التي شرعوا في الانتماء اليها .

لقد ولد «مجتمع مصنوع» من عناصر حقيقية .

***

في ذلك العام ، وبعد صيف حار قائظ ، اسهمت نسمات الخريف الرطبة في خلق مزاج ملائم للعمل لدى المرضى . في المزرعة ، يقوم السيد بوزوكي بالاشراف على حصاد الفلفل الاخضر ، وكان القديس جون هو أخلص معاونيه . (ولقد كانت لي خبرة غريبة مع السيد بوزوكي ، ففي اليوم الاول ظننت انه بستاني . لقد كان يبدو ذكيا كما انه ادار العمل بقدر من الثقة الذاتية جعلني اخاطبه بأدب باعتباره السيد البستاني ، وفوجئت حين اخبرني انه مريض) . وكانت روزي ماشيت ، الفصامية بالغة الاضطراب ، هي الاكثر جدا ونشاطا . ولم تكن تستطيع منافستها سوى الزي فلا تفوت المصابة بالصرع . انني لم ار مطلقا اقداما مسطحة بمثل ضخامة قدميها ، لقد كانت تمضي على قوائمها المستديرة التي لم تمنعها من العمل بحماس . ولكنها كما هو المعتاد بالنسبة لمرضى الصرع ـ كانت لا تكف عن السباب اذا ما أثار غضبها شيء ما . وبعد مضي نصف ساعة كانت تبتسم في ود ، متعهدة بالولاء الدائم . وكان محبوبها هو جوليوس جريم الذي كان الاسم

الاكثر ملائمة له حين يكون معها هو جوليوس ميلكسوب (١) فقد كان يكف عن العمل، ولا يفعل شيئا سوى التأوه .

وكان جوزيف ذي اونور (٢) يتولى الاشراف على العمل ذو الطبيعة الفنية . ورغم ان جوزيف كان قد تجاوز السبعين فان الزمن لم يقلل من اقباله المتزايد على العمل . ولم يكن ممكنا النيل من اعتقاده بأنه يمتلك كل شيء ملكية خالصة بما في ذلك الادوات الطبية . لقد كان يقوم بالرسم وبأعمال النجارة طيلة النهار . وكان يدخن الغليون . كذلك فان العم مايك المصاب بالشلل لم يكن يترك غليونه من فمه الا في اوقات الطعام ، ثم حين يقف في البوابة ويصب اللعنة على العشاء لمدة عشر دقائق . ولقد كان يقوم بذلك بلهجة قسيس ، كما لو كان يرتل صلاة وان كانت تتخللها لغة منحطة . ثم يعيد وضع غليونه في فمه ، ويظل يعمل طوال اليوم دون ان يتفوه بكلمة واحدة .

وكانت الزريبة مليئة ــ لسوء الحظ ــ بثمانين خنزيرا لم نكن نملكها . وذلك يعني رائحة كريهة ، وطينا وبراغيثا بشكل مرعب لا يطاق . ولقد كان بيلا ستترر (٣) وبيلا فيولوب هم حراسها الرئيسيين ، وكلاهما من ضعاف العقل . وكانا يمضيان طيلة اليوم في تركيب توليفة من الطعام يمكن بها ان تصل الخنازير الى زنة ثلاثة قناطير . ولم يكن نجاحهما يبدو ميسورا . وكان على سائق مركبتنا القروي الشاب أن يعتني بالحصانين الصغيرين الهزيلين اللذين لدينا . وهو لم يكن مريضا ، وان كان بعض من لدينا من ضعاف العقول اكثر منه ذكاء . لقد كان رعاة الخنازير المضطربين مقبولين لدينا ، رغم ما يفوح منهم من رائحة الخنازير، بينما كان سائق المركبة «السوي» ماكرا مغرورا . ومن حسن الحظ فاننا سرعان ما تخلصنا منه .

لم يبق من كبار المشاغبين سوى تيبي سلاي ، وهو من انماط لامبروزو (٤) الحقيقية . ولأنه كان قويا كالثور ، فقد كان في استطاعته بسهولة أن يحمل الأجولة الملآنة ، اذا ما اراد ذلك وهو امر كان نادر الحدوث . فبعد أن مضت عصابته ، اخذ في تخفيض صوته قليلا ، ولكن لم يكن يكاد يخلو يوم دون أن يسبب فيه اضطرابا . لقد حاول أن يجتذب الى حلقته السحرية مشاغبين صغار ويعيد خلقهم على شاكلته .

---

١ ــ مخنث . ــالمترجمــ

٢ ــ المالك . ــالمترجمــ

٣ ــ المصاب بلعثمة في الكلام . ــالمترجمــ

٤ ــ Lombroso عالم ايطالي وضع نظرية يمكن بها التعرف على اجرام الفرد من سحنته ومقاييس وجهه وراسه وقد يثبت خطؤها بعد ذلك . ــالمترجمــ

لقد كانت سليبنج بيوتي (١) هي روح ورشة الخياطة . كانت تمضي طيلة اليوم ، وعلى وجهها ترتسم دهشة وديعة . ترى هل تتعجب مما تفعله في هذا المكان ؟وكيف جاءت الى هنا ؟ لقد كانت تعمل خادمة في بودابست واثارت المدينة اضطرابها ، وبدات فجأة تشعر بالقلق ، وبالانشغال دون ما سبب ، الى ان ذابت اسى وحزنا ـ وهذا هو كل ما تتذكره . ويبين تاريخها الاكلينيكي انها قد تلقت علاجا بالصدمات الكهربائية في ليبوتميزو ثم ارسلت بعد ذلك الى جرانج . ولقد استيقظت هنا من نعاسها وبدأت تشعر انها تحسنت ، واستمتعت بالعمل في ورشة الخياطة ـ ولكن الا يجب ان تكون في المنزل ؟ ان لديها اربعة اخوة واخوات عليها العناية بهم .

لقد كانت هي اول من يغادر جرانج وقد شفي .

وكان العم تيبس يصلح الاحذية وكان مدمنا مزمنا للكحول ، وتدهور تدهورا متزايدا تماما نتيجة للكميات التي اعتاد تعاطيها . أما العم وندي فلم يكن يصبر على اي مريض آخر معه في المسبك ، اما لانهم يعملون أفضل منه مما يثير غيرته، او لانهم لا يعملون كما يجب . ولا يسببون سوى اضطراب العمل . وكان تلميذه المهني الثابت هو كاب البولندي الدائم الهلوسة والذي كان ـ اثناء هلوسته ـ يولي اهتماما متخصصا لكافة الاصلاحات الكهربائية في المنزل . وظلت ورشة النجارة الدقيقة خالية ، او على الاصح كان يقيم فيها اثنان من البنائين كان عليهما اصلاح الآثار البسيطة التي تخلفت عن الترميم السابق للقصر . وكان ذلك يستغرق ثلاثة اسابيع من العمل ، ولكنهما أقاما هناك لمدة ستة اشهر وكانا يقضيان الجانب الاكبر من الوقت في لعب كرة الطاولة ومطارحة الغرام . لقد غازلوا الطاهية ولعبوا كرة الطاولة على المنضدة التي كانت مقامة في غرفنهم (اي في ورشة النجارة الدقيقة) . وبعد ان غادرتنا الطاهية ، وبعد ان نقلت منضدة كرة الطاولة الى استراحة المرضى ، لم يعد هناك ما يبقيهم لفترة أطول : فرحلوا خلال اسبوع.

لقد استقبلت هيئة الموظفين فكرة جعل لعبة كرة الطاولة من اجل المرضى بالتعجب وهز الرؤوس . ما هذه الافكار التي لدى الرئيس !! وتزايد التعجب عندما اخبرت المرضين بأنهم يجب الا يلعبوا مع بعضهم البعض بل مع المرضى .

وقد ابدى الكثيرون من المرضى سعادة غامرة بتلك الفكرة . واكتشفنا بعض ذوي المواهب البارزة في كرة الطاولة كما اكتشفنا شيئا آخر اكثر اهمية وهو ان اولئك الذين لم يكونوا لاعبين مبرزين في كرة الطاولة بل كانوا من الفصاميين المنسحبين قد استفادوا ايضا من تلك الرياضة .

لم يكن هناك من يعرف حقا قيمة ذلك الغذاء الذي كانت تلهبه الوان الخريف،

---

١ ـ Sleeping Beauty اسم لفتاة جميلة في قصة أسطورية ويعني «الجمال النائم» .
ـ المترجم ـ

اللهم الا اولجا جوسب التي كانت تجمع القسطل بينما تبحث ماري سمبل عن الاعشاب «السامة» ، وهما شخصيتان مسليتان . ان العمة اولجا التي ربما كانت يوما ما زوجة بائع سمك قد تقول دون ان يسألها احد «اجل يا عزيزي ، انك تستطيع الانتقال الى منزلي وانت آمن . انه منزل نظيف خال من البق ، وبه غرفة لك ولأطفالك التسعة ، ينبغي عليك أن تترك ذلك المنزل ذو السمعة السيئة » . وقد اختارت رجلا هستيرياً صرعيا كزوج لها . «آه ، ذلك الرجل السمين ! لقد انجب مني بالفعل ستة واربعين طفلا . ترى ما الذي ينبغي ان أفعله بكل اولئك الاشقياء ؟ لقد كنت استطيع في الايام الخوالي ان ادفع بهم الى الملاجيء الخيرية ...... »

كانت الكلمات تنطلق من أولجا طوال اليوم . ويدور الحديث عادة عن منزلها الذي ترغب في بيعه لنا مقابل سبعة آلاف فورنت ، رغم ان السيدة جروبر كانت تعيش فيه مع أطفالها المصابين بالتيفود ... كانت كافة انواع الاسماء والاحداث تقفز الى ذاكرتها ، نظرا لانها كانت تخلط بين الامس واليوم ، وبين الحقيقة والخيال ، وهو ما يسميه الاطباء «الترابط الخلطي بين الافكار» . والحقيقة ان ما يبدو حديثا مفككا كان ينطوي على قدر من المغزى المبهم .

كانت ماري سمبل امرأة جميلة مولعة بالسموم ، وكأنها احدى شخصيات بعض القصص الشعرية للشاعر المجري العظيم يانوش آراني Janos Arany كانت تجلب شجيرات الحديقة تقدمه لقبور من سلف من الحكام حتى غطت بالزهور حافة البئر العارية . وكانت تمضي طيلة يومها تلتقط الازهار من المروج ومن الفناء ، جامعة للاعشاب الطبية والاعشاب المسممة . لقد كان لديها الكثير لتفعله، لانها كانت ايضا تجمع الادلة ، فتلتقط كل العظام التي تجدها في الحديقة باعتبار انها أدلة على التسمم ، فكل انسان من وجهة نظرها ـ قد حدث له تسمم او هو في طريقه الى ذلك . ولقد اتخذتني قاضيا لها كما أطلقت على السيدة الاولى لقب السيدة حرم القاضي .

«فلتطعمهم قليلا من هذا المشروب يا سيدتي . اصنعي لهم ذلك فانهم يسرقون كل ما لديك . انه يحتوي على سبعة وعشرون نوعا من السموم . انه مميت بكل تأكيد» . كانت تهمس بذلك مسرعة ، لانه كان لديها الكثير لتنجزه ، فان عليها ان تجمع كافة أنواع الاعشاب . ونظرا لانها كانت ترتب وتصنف تلك الاعشاب باستمرار ، فان فراشها وكذلك المنضدة المجاورة له كانت تغطيهما الاعشاب . وكانت ترفض الاكل احيانا لان طعامها قد تسمم ، واذا ما لمس شخص ما ملاءتها كانت تصرخ «لا تلمسها ، لقد حصلت عليها من البابا !» ولكنها كانت رقيقة حيال زميلاتها في الغرفة ، فكانت تعتني بالعجزة منهم ، تطعمهم ، وتخرج بهم لقضاء الحاجة ، وتغسل سرا قمصانهم المتسخة . انني لم ار ابدا أحلى من تلك «السماوية» الصغيرة . لقد كانت تلتقط كل عظمة متآكلة وتهمس لي «هذا هو جسد الطفل المختفي ابن شقيق زوجي .... يا صاحب السعادة !... وكانت تقيم

الدنيا وتقعدها حين تلقي الممرضات بتلك النفايات المكدسة في فراشها . لقد كان شيئا يدعو للرثاء الا ينتبه الى جمال الغناء سوى قلة من المرضى . ان صفرة شجرة الخزاقي كانت تتوهج بجوار اشجار البلوط البنية ، واشجار الصنوبر الخضراء ، ولا استطيع تذكر الاسماء اللاتينية لتلك الشجيرات البديعة ذات اللون الخمري رغم ان البستاني قد كرر ذكرها امامي مرات عديدة ، ولكني اخذت حقا بجمالها الخريفي .

كانت أسناني تصطك قليلا بينما كنت اقف في نافذة غرفتي استمتع بالمنظر من خلف القضبان . انك تستطيع ان تألف حتى القضبان اذا ما كانت مثل تلك المروج تنبسط من خلفها ، واذا ما كانت تعرف انها لا تحول بينك وبين تلك المروج، وانها ليست بالقضبان التي تفصل اناسا عن العالم .

ولكن حين تأتي أمطار الخريف ، يتضح ان احدا لم يفكر في الشتاء . او على الاصح اننا قد فكرنا فيه ولكن في وقت متأخر تماما . ينبغي تدفئة الورش ـ ولقد تدبرنا ذلك الى حد ما وتحملنا في سبيله قدرا عظيما من الدخان . ولكن ما الذي ينبغي صنعه في تلك الورش ؟ ينبغي أن نحصل على الليف، لنسج ممسحات الأقدام ، وعلى اغصان الصفصاف لنسج السلال ، والدخن لصناعة المقشات . وهرش المسئول المالي راسه ، فقد كان صعبا الحصول على مثل تلك الاشياء في ذلك الوقت المتأخر من السنة المالية . ولم نحصل على اي منها. ولم أتبين السبب الا بعد مضي عام ، فلقد كانت المستشفى تعتبر ورشنا بمثابة المنافسين للمزرعة وبالتالي فقد كانت تضع العوائق في طريقها متزرعة بحجج من مثل «نقص المواد» .

لقد كان كل ما يعرفه المرضى هو انه حين يبدأ فصل البرد لا يصبح لديهم ما يقومون به. صحيح انه كان هناك دائما قدرا ضئيلا من العمل المطلوب في الحديقة، ولكن ذلك كان يحتاج الى ملابس للتدفئة ، ولم يكن لدينا تقريبا ما يكاد يكفي اولئك العاملين الذين يشعرون بنداء الواجب . لم يكن ثمة وسيلة لايقاف كل من القديس جون المرتعش ، او روزي ما شيت ، او الزي فلاتفوت او اوجسيت باتر أو العم مايك المدخن الأبدي للغليون . او جوزيف اونر من العمل . ولكن ما الذي يستطيع ان يفعله الآخرون .

ان عليهم أن يفرزوا البازلاء او ان يظلوا بلا عمل .

اني لا اشعر بالخجل عند وصف ذلك الفرز للبازلاء . اننا نفرغ جوالا من البازلاء على المنضدة ، والعملية هي ازالة الاقذار وفصل البازلاء الخضراء عن الصفراء . وحين يتم ذلك يقوم المرضون سرا بخلط الخضراء بالصفراء وإضافة حفنة من القاذورات بحيث يظل المرضى منشغلين .

ولست أرى ثمة حرج في حقيقة انني لم اكن احب هذا العمل . لقد وعد بول مادل اقامة ورشة لصناعة الأقفال ، وأخرى للحياكة ، الى جانب ورشة للنجارة الدقيقة ولصنع الاحذية ، فضلا عن العديد من الورش الاخرى . ولقد كانت الورش لدينا هنا بالتأكيد ، ولكن كانت تنقصنا المواد والمعدات . ولقد فشل

وندي العجوز الذي كان مسئولا عن الورش في فهم السبب الذي من أجله ندخل في الورش أولئك المرضى الذين يبددون المواد القليلة التي نحصل عليها بالكاد .

ولم يكن المرضى متحمسين على اي حال لفرز البازلاء . وكانت تلك هي اللحظة التي بدات فيها أدرك الشيء الذي اصبح واضحا تماما لي بعد ذلك : ان جوهر العلاج بالعمل ليس ابقاء المريض منشغلا بأي نوع من العمل كيفما اتفق ، بل انه يجب ان يعمل عملا منتجا .

انني حين اعود بذاكرتي الى الوراء عبر عدة سنوات الى ذلك الفرز التعس للبازلاء ، وارى ستة او اكثر من المرضى يصنعون اثاثا حقيقيا في ورشة النجارة وورشة الأقفال ، وينتهون توا من تشطيب مخرطة صنعوها كلها بأنفسهم (انهم لم يسمحوا مطلقا لوندي العجوز بالاقتراب منها) ، وحين ننسج السلال وممسحات الأقدام من الليف وأغصان الصفصاف التي زرعناها بأنفسنا ، وحين تكون عجلات عربات النقل المصنوعة لدينا أفضل من تلك المصنوعة لدى تعاونية الحرفيين بالمدينة ، وحين تخرج من ورشة الحياكة اشغال جميلة بالإبرة ، وباختصار فانه مع البداية الخافتة لاتخاذ ورشنا الشكل الذي ينبغي ان تكون عليه ، تأكدت من ان عملية فرز البازلاء «السهلة» كانت سخرة في حين ان عملا شاقا كصناعة الاثاث ، والحدادة ، والفلاحة هو العلاج الشافي لانه ببساطة يكون مصحوبا بزهو الانتاج والعمل الخلاق .

وفي احد ايام ديسمبر المطرة في تلك السنة الاولى ، رشحنا عشرين مريضا ممن أحسنوا العمل ويبدو انهم أكفأ نسبيا للعمل في مزرعة الدولة .

اقيمت في تلك الايام مستعمرات للمرضى في مزارع الدولة لتخفيف الازدحام غير المحتمل في مصحات الامراض العقلية . وكان مما يسعد مزارع الدولة الحصول على المرضى الاكثر كفاءة ، ولكن في الصيف فحسب ، حين يشتد الطلب بشكل كبير على الايدي العاملة في الفلاحة . ونجحت وزارة الصحة (ومن الجائز ان يكون بول مودل) في جعلها تحتفظ بهم خلال الشتاء ايضا ، وذلك في مقابل ان تتكفل وزارة الصحة بأن توفر للمرضى والممرضين الملابس والادوات وأن تهتم باستبدال غير المناسبين للعمل . وكما اتضح فيما بعد ، فقد كان هناك ما يكفي من العمل في الشتاء ايضا ، فهناك على الاقل ما لم يتم انجازه في الخريف اذا لم يجد شيء آخر .

بذلك يتضح كيف تصادف في ذلك الخريف الاول ان اخترنا عشرة رجال وعشر نساء من احسن العاملين لدينا وارسلناهم الى مزرعة فروستي . ويصعب عليّ ان اتذكر دون ان اشعر بوخز الضمير ذلك الهراء الذي تفوهت به لاشجعهم على الذهاب . لقد وعدتهم بسكن جيد ، ومعاملة طيبة ، وطعام ممتاز ، وفضلا عن كل ذلك بأجور مرتفعة . لقد وعدتهم كما لو كنت بول مودل نفسه ، واقدمت على ذلك بحسن نية ، دون ان يساورني الشك البتة في انني لم اكن أخبرهم بالحقيقة . وغادرنا المرضى وكلهم ثقة .

لقد انهمرت دموع بالغة الغزارة عند مغادرتهم لنا . «ولم يكن بالمنزل عين لا تدمع» كما يقال ، ولعله من الامور بالغة الغرابة أن بعض أولئك الذين امتلأت عيونهم

بالدموع ، كانوا من الفصاميين المكتئبين المشهود لهم باللامبالاة المجسدة . لقد كان من الطبيعي حقا ان يبكي بيلا فيولوب ـ مربي الخنازير ـ كالاطفال ، وأن ينشج على كتفي عاجزا عن التفوه بكلمة واحدة . مع انه لم يكن ليتخلى عن الذهاب الى هناك في مقابل اي شيء ، فثمة حب صرعي للمغامرة كان يعتمل في داخله . وكانت السيدة الاولى تولول طيلة الليلة وقد احمرت عيناها «آه ، يا إلهي ، كيف ستمضي بدونهم ؟» لقد احسسنا بالأسف حتى من اجل رادار جندي الرديف الاشعث الذي وجه بالفعل الى المرضى خطاب وداع مرتجف بدلا من خطبة يحثهم فيها على التمرد ، ولقد تأثر الجميع تأثرا عميقا بمرآه اكثر من تأثرهم بعباراته غير المعقولة .

وقاد هامستر المسيرة . وعاد بعد يومين مذهولا وبائسا . لقد مضى كل شيء على ما يرام في القطار ، ولكن لم يكن ثمة من ينتظرهم عند المحطة . واخذوا في سحب مقطورة متوجهين بها الى المزرعة . كان المطر ينهمر مدرارا ، وسرعان ما احاط بهم ليل ديسمبر . وانغرزت المقطورة في الطين ووجدوا صعوبة بالغة في اخراجها منه ثانية . وفي حجرتين باردتين من حجرات منزل مهجور ، وجدوا قملا واثنين من المرضين ، رجلا وزوجته ، لم يقدما لهم اي شيء . لم يكن هناك عشاء ، ولم يكن امامهم سوى ماء المطر لكي يغتسلوا فلا وجود لحوض للغسيل او صابون او منشفة ، كما لم يكن هناك ما يغطي كيس القش الملقى على الارض القذرة سوى بطانتين ، ولا شيء بعد ذلك . وكان مصباحي الكيروسين يلقيا بالضوء الشاحب المدخن على المستقبل الذي لا يقل عنه شحوبا لهؤلاء المرضى الذين كانوا قد اعتادوا الحياة في قصر .

وعاد هامستر ليخبرنا ان احدا من المرضى لا يود البقاء هناك . وهم لم يبقوا هناك بالفعل .

ولو كانت تلك هي المتاعب الوحيدة فحسب ، فقد كان ممكنا ان يتغلبوا عليها . فالمطر لا ينهمر دائما على اي حال ، والوقود يمكن «تدبيره» ، كما يمكن ترتيب أمر التموين . أما فيما يتعلق بالفرق بين القصر والكوخ فان مرضانا لم يعيشوا دائما في قصور . ولكن سرعان ما اتضح ان هناك متاعبا أخرى . فلكي يذهب المرء الى العمل ، كان عليه ان يسير ثلاثة أميال مخوضا في الطين . فيصلون الى هناك منهكين . واذا ما جاءهم طعام الغداء في الظهيرة فانه يكون باردا كالثلج ، ولكنه نادرا ما كان يأتي ، فكانوا يعملون طيلة اليوم دون ان يتناولوا طعاما البتة . ولم يكن هناك من يعرف مقدار أجورهم كما انهم لم يتوصلوا الى ذلك قط ، لان المرض كان يختلس تلك الاجور . (ولقد ابلغت عنه السلطات فيما بعد ، ولكن دون جدوى ، واخلي سبيله دون عقاب) .

وسرعان ما كتب السيد بوزوكي اكثر المرضى ذكاء والذي كنت قد ظننته بستانيا فيما سبق ، سرعان ما كتب خطابا لصديقته في جرانج .

عزيزتي ماريزكا

اغفري لي خطي المشوش ، فأنا الان انحني على فراشي منكس الراس تكاد

اطرافي تتجمد بردا ، لانه لا توجد هنا منضدة ولا كرسي او دكة للجلوس .

انه لمكان قذر منفر حتى ان الزريبة تعد افضل منه . ساحة كئيبة بها أجولة من القش عليها ملاءة (قذرة ايضا لانه لا احد يقوم بغسلها) وبطانتين خشنتين . البئر على مبعدة ۳۰۰ ياردة ، ودورة المياه على مبعدة ۱۳۰ ياردة . ويوجد حوض غسيل ودلو به ماء للشرب ، ولكن الجميع كانوا يغمسون فيه أوانيهم القذرة . انني لن أتعجب اذا ما التهمنا القمل تماما حتى الاسبوع القادم .

ولكن ما أتعجب له هو ان كبير اطبائنا يمكن خداعه الى تلك الدرجة ! لم يكن ينبغي ان يرسل أيا منا الى هنا ! وطالما استطيع الحصول على سترة وقميص فسوف أمضي . ان الطعام الفاخر الذي تحدث عنه كبير الاطباء في جرانج لا يوجد الا على القمر فحسب .

ما زال بنجر السكر باقيا في الارض على مساحة حوالي ۱۸۰ فدان ، كما أن الذرة على مساحة ۲٤۰ فدانا ما زالت دون حصاد نهبا للغربان . (في ديسمبر !)

المصابون بالصرع مرضى دائما ، وخاصة رادار وبيلا فيولوب . لقد زرع بيلا المكان صعودا وهبوطا ، واندفع في سعار كالمجنون الى النافذة مما أدى الى انزعاج المرضى وإبراقه الى ليبو تميزو ، ولسوف يتم ترحيله غدا .

اننا نحن القادمون من جرانج متماسكون ببعض تماما . اننا نحيا كالإخوة . ان كلا منا يحب الآخر كاخوة ونفكر فيكم كثيرا .

وخلال اربعة اشهر تفتتت تلك المجموعة المتآخية تماما ، ولم يكن ذلك لنقص في تماسكها ولكن بسبب ما تلقته من ضربات سريعة على أيدي المرض والمرضة، ولما سببته لهم الفاقة والقمل . ولم تبق سوى قلة من اكثر المرضى الفصاميين جمودا وخواء ظلت غير مبالية اطلاقا او لعلها كانت تتظاهر بذلك ، أما الآخرين فقد تمردوا فسرعان ما اندفع السيد بوزوكي في طريقه . أما ستيف بالكوفيتش، الأبله الذي نشأ في القذارة ، فقد مكث كسائق للعربة حيث ان القمل لم يكن يضايقه . وتم ابعاد ثلاثة من الصرعيين الى ليبوتميزو نظرا لتكرار نوباتهم — وهم الذين كانوا قد شفوا من النوبات في جرانج . اما آن بايدر الفتاة العجوز ذات النظارات والتي تبدو كما كانت حدباء رغم انها ليست كذلك ، فقد هربت الى بودابست حيث تم وضعها في قسم للامراض العقلية في احد المستشفيات هناك وظلت به . وهربت السيدة بولجار ايضا الى بودابست حيث يوجد اقارب لها . وعاد بيلا ستترر ، راعي الخنازير الماهر الى ليتو ميزو ، حيث يتوفر لديه الان قدرا كافيا من العلف ، فشكرا .

وشرع الآخرون في اعمال تخريبية مقصودة . فقاوموا صفعات المرضين الى ان وضعوا جميعا في قطار وعادوا الى جرانج باعتبار الا جدوى منهم . ومنذ ذلك الوقت عملوا جميعا بجد ونشاط .

كانت تلك هي الطريقة التي انهارت بها مستعمرة مزرعة فروستي ، او مزرعة القمل كما أطلق عليها المرضى .

الفصل الرابع

الربيع الأول

اقبل الربيع

بلغ الامر ذروته ، فالمرضى قد بلغ بهم الضيق من ذلك الفرز الدائم للبازلاء حد ذرف الدموع . كان بعضهم يفضل الخروج في الحديقة دون ملابس شتوية في اشد الايام بردا ، وكنت أتجمد من البرودة عند مجرد النظر اليهم ولكنهم هم لم يتجمدوا ولم يصابوا بالبرد . ان احدى الخرافات الواسعة الانتشار في مجال الطب العقلي تلك المتعلقة بانخفاض مقاومة مختل العقل للمرض ، وذلـك امر لا اساس له ، فليس مختل العقل هو الذي تضعف مقاومته ، بل اي شخص يمضي اعواما طوالا حبيسا في مؤسسة ، وليس اختلال العقل اذن هو الذي يضعف الجسم بل أسلوب الحياة غير الصحي . ان اولئك الذين يقضون اعواما فـي المؤسسات المغلقة ذات التهوية السيئة ، محرومين من العمل ، ومن الترفيه ، اي بعبارة اخرى محرومين من الحياة ، يزداد دون شك تعرضهم للامراض . ولقد يجد المرء ايضا ان نزلاء المؤسسات المغلقة تظهـر لديهم الخراريج والدمامـل والجروح المزمنة . ومرة اخرى ، فان ذلك ليس نتيجة لاختلالهم العقلي ، بـل لبيئتهم غير الصحية ولافتقادهم النظافة والرعاية . وحين يأتي الينا من يعانون من مثل تلك المتاعب ، فان جلودهم تشفى خلال اسابيع قليلة . وسرعان مـا يتحول المصاب بالأنيميا المليء بالبثور الى متورد الوجنات .

ولكنني لم أكن أقصد الحديث عن ذلك ، بل عن الربيع ....

حالما تتفتح اكمام الزهر ، فان المرضى ينطلقون ايضا الى الفضاء . بعضهم يعمل في منزل تربية النباتات او على الطرقات . ويندفع الآخرون في أعمال الفلاحة . لقد تم بناء الدفيئة بالفعل خلال الشتاء ، واصبحت الان مكتملة الرونق . صحيح انها لم تكن بعد بالبالغة الجمال ، ولكنه ليس من خصائص الدفيئة ان تكون بالغة الجمال . لقد كان فيها كل ما يلزمها كدفيئة من موقد وانابيب تسخين وأرفف على منضدة حديدية ، ونوافذ متحركة.

كانت هناك نبتات غامضة تختبيء داخل الصناديق الخشبية تحت الرمل او تحت التربة الناعمة المفتتة . ولقد كانت تلك النبتات تبدو لي متشابهة جميعا . ولم يكن البستاني هو الوحيد الذي يستطيع ان يفرّق بينها بل كان ذلك ايضا في استطاعة العديد من الخبراء من بين المرضى الذين يضعون تلك النبتات الصغيرة التي تصعب رؤيتها على الطرف الدقيق لعصاة ويستزرعونها في الصناديق الصغيرة . وكنت دائما ارقب باعجاب ذلك العمل الذي أثبت انه علاج ممتاز حقا لمرضى بعينهم . وهو امر يتطلب صبرا بالغا ودقة شديدة ، حتى انه كان يبدو مؤكدا ان يطير صوابي اذا ما كنت مجبرا على القيام به رغما عني .

كان حارس الدفيئة ، كوجا العجوز رجلا ذا ذقن كبيرة ووجه غاضب يعبر تعبيرا دقيقا عن مزاجه غير العادي . كان يهلوس طيلة الوقت ويتعرف كما لو كان يمسك ذبابا بيديه ثم يفتح قبضته بفخر مستعرضا قائلا :

«ها أنذا أمسك بالدكتور إكس في هذه اليد وزوجته في اليد الاخرى» .

ولقد كنت اشعر بالرثاء من أجل الدكتور إكس المسكين وارجو كوجا العجوز ان يدعه يذهب هو وزوجته . وكان يهز رأسه في سخط ولكنه يستسلم بعد برهة فاتحا قبضته اليسرى ومحملقا في اثر اللاشيء وهو يمضي بعيدا .

«لقد تركت زوجته تذهب ، ولكن الدكتور في مكانه المحدد ولسوف ابقيه هنالك . »

لقد كان كوجا العجوز رجلا يعمل بجد لولا انه كان يصعب التعامل معه لانه لم يكن يحتمل وجود احدا من المحيطين به خاصة النساء . كانت النساء تظل «تطن وتأز من حوله» ولهذا السبب فقد كان يطارد النساء بعصاة الى خارج الدفيئة عدة مرات . ولحسن الحظ فان اقصى ما نتج عن ذلك كان صرخات قليلة .

وفي مواجهة الدفيئة كانت أحواض الاستنبات تنتظر النبتات الاولى وكان العمل على قدم وساق : النجارون يعملون في انجاز البراويز لاحواض الاستنباتات بينما يقوم الآخرون بنقل التراب او السماد . كان المرضى مستغرقون في عملهم وكان يبدو واضحا انهم مستمتعون بذلك .

جاءنا الكثير من المرضى الجدد ، فالمرضى العشرون الذين ارسلوا الى المزرعة الحكومية قد حل محلهم عشرون من المرضى الذين «لا جدوى منهم» والذين ارسلتهم لنا مزرعة حكومية اخرى . وبدأ نصف هؤلاء المرضى الذين لا جدوى منهم العمل فور وصولهم واستمروا يعملون بحماس منذ ذلك الوقت . وتحاشى

الآخرون العمل لبعض الوقت ، ولكنهم سرعان ما تعبوا من البقاء بلا عمل ، وهم حاليا يعملون جميعا فيما عدا واحدا منهم .

والحقيقة الهامة هي انه لم يكن ثمة ما يزعج ذلك المتهرب من العمل على الاطلاق ، الا انه كره العمل وفضل ان يغش ويسرق زملاءه . وارسلته الى منزله على الفور . ولقد استفسرت عنه فيما بعد من المجلس المحلي ، وكان سليما معافا كشأنه دائما ولكنه كان مجرد متعطل وظل كما هو طيلة حياته .

وكان الآخرون من المرضى الحقيقيين يعملون جميعا ، وكان بينهم هم ايضا بعض الحالات الخطيرة . وكان هناك مثلا فرانسيس جامون (١) العجوز والذي كان يعتقد دماؤه ترسبت في فخذه وبدأت في التعفن ، ولحسن الحظ فلقد عالجه الله شخصيا بأن ارسل له ملاكين هبطا على يديه جالبين معهما زيت سمك وعسل نحل وقد شفاه ذلك .

ثم كان هناك اندرو سافوكيتور (٢) الذي ترك ستة آلاف إناء في منزله كانت تمثل صفقة خاسرة لأن زوج شقيقته قد بنى منها منزلا . فقد كان لديه عددا من «الخناقين» يجلسون في حذائه ، ومن «الارواح الشريرة» يدورون من حوله . كان ثلاثة آلاف من تلك الارواح الشريرة تتخذ مكانها على قمة راسه مما يجعل العمل بالنسبة له من الصعوبة بمكان .

أما ستيفين ماجور فقد كانت لديه ثلاثة اختراعات : مركب السلام العالمي الطائر التي تجري على سطح الماء ، والطائرة الحلزونية والدراجة التي بدون فرامل . وقد كان يعمل صانعا للاحذية ، ولكن الالمان رقوه بعد ذلك الى رتبة ميجور ، ولا غرابة اذن في عدم رضائه عن اي شيء في جرانج .

اما فالنتين انديان بعينيه المتقدتين ، وملامحه البارزة ، وانفه الضخم ومتانة بنيانه الخالي من الشحم فقد كان يبدو شبيها تماما بما كنا نتخيله في طفولتنا عن الهندي الاحمر . كان نادرا ما يتكلم وكان من الصعب فهم حديثه . لقد جعل اهل قريته يعيشون في ذعر ، فقد اراد ان يقطع رقبة ابن اخاه وآخرين ، وكان ذلك هو السبب في اخذه الى المصحة ـ رغم انه قال ان كل ذلك كان «ادعاءاً» وربما كان على حق . ولكننا نحن أيضا شعرنا ببعض الخوف حين اقدم على صنع مصرف للمياه بجاروفه الحاد ومعوله . ولما كان يكره ان يحملق فيه احد فقد وجدنا انه من الانسب ان نقصي فالنتين بعيدا عند حضور زائر . ولقد دفع بالفعل بقلة من المتعطلين الى الفرار منه هربا بحياتهم وليست مصادفة ان يكون فيدلر الذي لا يصنع شيئا هو الرجل الوحيد الذي تلقى منه مرة ضربة على رأسه بجاروفه . وعلى اي حال فانه كان يحقق انسجاما مع الذين يعملون بجلد .

---

١ ـ Gammon فخذ الخنزير . ـالمترجمـ
٢ ـ Suffocator الخناق . ـالمترجمـ

اما إليكس بتروت فقد كانت تنتابه نوبات صرعية متكررة على فترات وبتعاقب سريع بحيث لا يكون لديه ثمة وقت بينها . وقد انتابته سبعة عشر نوبة متعاقبة في حضورنا ذات مرة . ولقد كان فتى بالغ القوة ايضا وكان الامساك به خلال تلك النوبات يحتاج الى ثلاثة رجال .

وكانت القديسة اليزابيث تهلوس وتتحدث الى نفسها طوال اليوم فضلا عن انها رغم كونها قديسة ـ او ربما بسبب ذلك فقد كانت بالغة التواضع الى حد انها كانت ترغب دائما في تقبيل ايدي كل الناس . ولقد تظل لساعات تغني لنفسها وترقص لغنائها او تندفع في انفعال لتوبيخ العالم .

وكانت جولي بوسا تهلوس باللغة السلوفاكية وقد بلغ بها العته انها كانت لا تستطيع ان تفهم أبسط الاوامر . لقد اصبح البستاني الذي لدينا على الفة بجماعة البلهاء ولقد شرع في التغلب على عجز جولي بوسا ثم اعلن في غيظ «انها معادية للاصلاح يا سيدي» وطالب بابعادها على الفور . ولم تهتم جولي ، وهرشت راسها كما لو كانت تحس بقملة رغم انها كانت تتلألأ نظافة ، وبعد مضي ستة اشهر كانت تلك «المعادية للاصلاح» تعمل بجد في الحديقة ، ولم يعد البستاني مغتاظا منها .

أما آن دامب فانها لم تكن تكف عن الكلام طيلة اليوم رغم كونها صماء بكماء لقد كانت اكثر البكم ثرثرة في العالم . وكان ما يثير الشفقة هو ان تلك المخلوقة التعسة كانت تصدق حقا انها تتكلم . وكانت تحب الرجال ، واذا ما كانوا من السذاجة بحيث انهم لم يستطيعوا فهم ما تمنيه ، فانها كانت تقوم بتوصيل رغبتها اليهم بإشارات اكثر تعبيرا .

صحيح انه لا يمكن القول بأن هؤلاء جميعا قد شرعوا في العمل مباشرة ، فلقد رفض اكثر من واحد من بينهم مجرد سماع شيء عن العمل لمدة شهور ، وكانوا يقولون بصراحة تامة ان خبرتهم في مستعمرات المرضى بمزارع الدولة جعلتهم ينفرون من العمل . ولا استطيع ادعاء انني قد توصلت من خلال تلك القصص المرعبة الى ما حدث لهم بالفعل في المزارع ، ولكننا نستطيع دون مجازفة ان نقرر انهم لا يمكن ان يكونوا قد لقوا معاملة طيبة . وكان من الواضح ان مجرد الفرق بين نوعي العلاج هو الذي مكنهم من ان يلينوا ـ واحدا بعد آخر ـ ويشرعوا في العمل في جرانج .

ولنأخذ مثلا باتون ، وهو فتى خجول متلعثم يبلغ العشرين ويعاني من ضعف عقلي . كان في وجهه الوسيم ثمة شيء وحشي ينتمي الى عصور ما قبل التاريخ وان كان محبوبا لطيفا في نفس الوقت . وحين سألناه عن اسمه في اليوم الاول، لفت رأسه بعيدا في اعتداد جلف وقال : «انا لن اذكر اس س سمي» ولكنه في اليوم التالي لم يذكر اسمه فحسب بل القى بذراعيه حول رقبة السيدة الاولى قائلا «وانا احبك ايضا !» ولم يحد قط عن ولائه وحبه ، حتى انه بعد ان غادرنا بوقت طويل ظلت كتابته غير المقروءة تنبئنا بمصيره .

ان مجرد المعاملة الطيبة كانت تكفي لحث الاشخاص الاكثر بساطة على العمل ولكن الامر كان يتطلب اكثر من ذلك بالنسبة للفصاميين المكتئبين او المتدهورين تماما . ان جامون الذي يبلغ السبعين عاما والذي ذهب الى امريكا في شبابه ظل لا يفعل شيئا طيلة اشهر ثلاثة . وعلى اي حال فقد كانت تصدر عنه خلال تجواله في الحقول تعليقات تدل على خبرته بحيث تكونت لدى البستاني فكرة ممتازة مؤداها ان يجعله مشرفا . ولقد كانت سعادة الرجل العجوز بذلك بالغة ، فمعرفته المتخصصة قد لقيت تقديرا في النهاية ومن ثم فقد خاط على صدر سترته ثلاث اشرطة زرقاء ومضى يعمل منذ ذلك الوقت . (او بالاحرى ، فانه قد ارسل الى منزله منذ زمن بعيد ، واستمر يشرح معجزة شفائه من الدم الذي ترسب في فخذه) .

اما الميجور ستيفن فقد دفع الى العمل بالحب . فقد وقع الملك المتشكي دائما من آلام البطن في حب الزي فلا تفوت التي كان حبيبها جوليوس جريم قد نبذها آنذاك بالفعل . وكانت الزي من افضل المشتغلين في الحديقة ، وبالتالي فقد كان على الماجور المتذمر أن يعمل وإلا اقدمت حبيبته الحسناء على فقء عينيه. واستمر الماجور في بذل الوعود للساذجة المسكينة بانه سوف يتزوجها ويشتري لها فيلا على بحيرة بالاتون ومعطف من الفراء ، الا ان عجزت إلزي عن مقاومة الاغراء (واي امرأة يمكن لها مقاومة كل تلك الثروة !) . وانتهزا وقتا لا يراقبهما فيه احد ، وفر العاشقان الى مسجل العقود في القرية المجاورة واعلنا انهما يريدان الزواج . والمح بعض اصحاب الدعابات السمجة الى انه قد يكون من المسلي تماما ان يتم تزويجهما وأن يمنحا ورقة تحمل نصا سخيفا وخاتما مزيفا مفادها انهما قد تزوجا .

ونجحت روائح الحقول الربيعية المنعشة في اغراء فالنتين انديان ، واندوسا فوكيتور بالعمل بعد كسل استمر لما يقرب من بضعة شهور ، وامسكا بالفاس ولم يتركاها منذ ذلك الوقت . ودخل العم هوث ، بعد فترة البداية التي قضاها دون نشاط ، الى ورشة النجارة وتحول الى شخص مدهش له سبع صنايع . لم يكن من يوجد من يستطيع ان ينحت صندوقا او منضدة لآلة بالدقة التي يستطيعها ذلك القروي القادم من لولانج . ولسوء الحظ فانه لم يكن اجتماعيا ـ شانه شأن كوجا العجوز ـ ولم يكن يستطيع العمل في الورشة الا اذا سمح له بالعمل على هواه .

لقد حضر الكثير من المرضى الجدد من ليبوتميزر . منهم مثلا ستيف تلجرام (١) المشاكس الناشيء ، والذي استنفذ جهده في العمل كحوذي وكساعي وسرعان ما أصبح هو الشخص المفضل في المنزل ، ولانت عريكته وتخلى عن

---

١ ـ تلغراف . ـ المترجم ـ

مشاكسته . ولقد تضاعف تمسكه باسم تلجرام : فقد كان يكسب رزقه بالعمل كصبي يسلم البرقيات ولقد مضى عليه عام الان وهو حريص على ان يرسل الينا خطاباته وبرقياته التي تحمل تحياته .

وصل العم زيتر (١) في نفس وقت وصول تلجرام . وكان يعمل في تعبيد الطرق ، ولم يكن ذلك ــ على اي حال ــ هو الذي جعل منه ذاك الشخص الهام، بل قانونه الذي كان يعزف عليه الحانا مرحة . وشيئا فشيئا رقص المرضى على قانونه ، وكانت تلك بداية الحياة الاجتماعية المبهجة ، التي اصبحت فيما بعد خاصية رئيسية في طريقة جرانج في العلاج بالعمل . وكان العم زيتر لا يعزف الا الالحان الخمسة التي يعرفها والتي كانت تجعل المرضى «الجامديــــن» يرقصون في مرح .

وكان العم زيتر يعمل طبعا كخبير في تعبيد الطرق كذلك . ان الممـــرات الملتوية حول مثل قصرنا المهجور لتبلغ من الكثرة حدا لا يصدق . لقد اضطررنا ذات مرة الى الخوض في الطين او التعثر في سيرنا على اكوام الاتربة المتكتلة . اما الان فان هناك طرقا مريحة تصل بنا من المدخل الى اقسام الادارة القائمة خلف المبنى ، كما يوجد حول القصر طريق ممهد للسيارات يمتد مسافة نصف ميل ، وهناك بالاضافة الى ذلك ممرات جيدة التخطيط في الحديقة . ولقد أتاح كل ذلك فرصة رائعة للعلاج بالعمل . ومن حسن الحظ ما زال هناك الكثير من الطرق في انتظار الاصلاح ، فضلا عن ان الحديقة واحواض الخضر ما زالت في حاجة كذلك الى شبكة من الممرات .

***

وفي تلك الاثناء اعدنا الشقة الى الطبيب المقيم . ولم يكن ذلك يعني انه تم بناء الشقة التي وعد بها كبير الاطباء . بل على العكس ، فان بول مودل اعترف آسفا بأن الوزارة سحبت وعدها وشطبت موافقتها على انشاء الشقة . ولـــم يدهشنا ذلك اطلاقا ، وعلى اي حال فاننا لم نتخل عن الشقة بدافع من المشاعر الانسانية بل لانها لم تعد تناسبنا . ان شعبيتنا هي التي اجبرتنا على الانتقال . اننا ببساطة لم نكن نخلو لانفسنا لحظة واحدة ، فالمرضى يأتون لعرض ما لديهم طيلة اليوم في تيار لا ينقطع ودون ان يكونوا راغبين في امر بعينه ، بل انهم يودون فحسب تمضية الوقت ، والثرثرة من النافذة ، ومراقبتنا عن كثب ونحن نتناول غداءنا ، والسؤال عن احوالي وعما اذا كنت اعمل ، وطلبهم لشيء من الصابون او لشال او لبعض الخيوط ، او طلبهم لمحادثة سريعة معي حول انفعالاتهم . وكل

---

١ ــ Zither القانون (آلة موسيقية) . ــالمترجمــ

ذلك كان شيئا رائعا في لطفه وإثارته للمشاعر ، ولكنه حين استمر لشهرين يوما بعد يوم فاننا وصلنا الى حافة الانهيار .

ولكي نحول دون المزيد من ذلك ، انتقلنا الى اقسام الادارة خلف حظائر الخنازير والاسطبلات . وقد كان ذلك البناء ذات مرة مأوى للكتاكيت كما كان ورشة للحدادة . كما كان ايضا بمثابة مخزن لمؤن حاجب القصر وهو مبني من خليط غريب من الملاط والدبش وأجزاء من قوالب الطوب . وكانت الحوائط تبدأ من الارض مباشرة دون اي اساس من المواد العازلة . من الواضح ان ذلك المالك المتخلف لم يكن متنبها الى ان الكتاكيت سوف يصيبها الروماتيزم اذا ما استمرت قطرات المياه تتساقط على حوائطها التي يغطيها الان الملح والعفن . ولقد اعتقدنا للوهلة الاولى ان خرافة ان المساكن الرطبة انما تتسبب في المرض لن تنطبق علينا. وتبين لنا خطأنا في النهاية ، ولكن حينئذ كان الوقت قد فات . وعلى اية حال فقد كان علينا ان نختار بين الفوضى والرطوبة ، فاخترنا الرطوبة .

وبالاضافة الينا ، كانت هناك اربع أسر تعيش في أقسام الادارة (عائلات البستاني ، والمرض وزوجته المرضة ، والطباخات ، وعائلة وندي) وتشترك معنا في استخدام دورة المياه والحمّام . وهم لم يستخدموا الحمّام قط الا في غسيل الملابس . وكانت دورة المياه رهن الاستعمال الذي كان يفوق الحد بالتأكيد : كان يمكن سماع المياه تنساب مرات عديدة في اليوم ، واحيانا لعدة اسابيع دون انقطاع وبلا توقف ، حيث ان تدفقها كان في حاجة الى اصلاح منذ زمن بعيد . لقد تحقق اخيرا واحد من احلامي القديمة ، لقد كنت اود دائما ان اعيش في مكان بحيث استطيع ان اسمع فيه صوت خرير المياه .

وأنشأنا حمّاما ودورة مياه منفصلتين وازلنا حائطا كان يفصل بين حجرتين مما خلق شقة مزودة بكل وسائل الراحة. ولقد كانتالوزارة كريمةهذه المرة فقد اجازت ــ بعودة البريد ــ اعادة بناء الشقة على نفقتنا الخاصة . وذلك مما يوضح مدى فائدة أن تكون على صلات طيبة ....

ولكن لم يكن لدينا مبرر للاسف ، فان اعادة البناء لم تكلفنا شيئا . فقد قام عامل بناء يعاني من مركب الاضطهاد بهدم الحائط ، وبناء الحائط الجديد وتركيب الباب . كما ان سباكا تأثرت قواه العقلية تأثرا خفيفا من اصابته بتصلب الشرايين قام بتركيب سخان الحمّام والحوض ، وقام بول الفصامي بتركيب الكهرباء . وقامت مجموعة منوعة من مرضى الصرع وضعاف العقل بالتنافس في البياض ، والكحت ، والتنظيف . وحين اصبحت الحجرتان اخيرا لامعتان من النظافة ، وبعد ان نقل اليهما الاثاث المنقوش ذو اللون البني (وكان من انتاج نجار مصاب بجنون الشراب * ومنجد سيكوباتي) وبعد ان وضعت الكتب على الرفوف ، كما وضعت على الحائط أشغال الابرة الملونة والصور المفضلة للسيدة الاولى وهي لوحة

* depsomania كحال (جنون : وهوس شراب الخمر) . ــالمترجمــ

«الفتاة الصغيرة لروبنز» ، و«الشاب الذي يدخن الغليون» لكورت ، كما وضعت لوحة موزار البرونزية أعلا البيانو ، وفي موازاتها صورة دغرية ** ليانوس آراني وهو جالس بشعره الرمادي وبهدوءه الريفي الحكيم على مقعد قديم غير مريح ، وحين وضعت الوسادات المطرزة على الاريكة ، والازهار في الفازات والنوافذ ، ولفنا الصمت ، الصمت ، الصمت ، حينئذ احسسنا تقريبا اننا قد وجدنا منزلا في جرانج .

** daguèneotpe التصوير الدغري ، طريقة قديمة في التصوير الفوتوغرافي على الواح فضية . المترجم-

الفصل الخامس

مزيد من المتاعب مع مزارع الدولة

وصل في منتصف مايو ملء عربة من المرضى . الجماعة المهزومة العائدة من مزرعة القمل . يا لروح الانتصار التي شوهدوا عليها وهم يغادروننا في ديسمبر ! لقد عاد زهرة مرضانا العاملين بعد ان وصموا بأن لا جدوى منهم .

كانت تيني ليلي اول من قفز من العربة ملقية بنفسها على اعناقنا ، مولولة وضاحكة . «البيت اخيرا .... لن اكررها ثانية !» وعلمنا منها انهم قد تعمدوا التهرب في الاشهر الاخيرة لكي يعادوا . ولم يكن المرضون في المستعمرة يألون جهدا خلال نوبتشيتهم في توجيه الضربات السخية ، ولكن المجذوبين كان لديهم من العقل ما مكنهم من خديعتهم في النهاية .

وقام ثلاثة اشخاص بانزال ماري ويلدر ، كان عليهم ان يحملوها الى الداخل على نقالة . كانت ماري جلد على عظم وعاجزة عن الوقوف عي قدميها فقد كانت مشلولة . ولم تستمر كذلك سوى ثلاثة ايام فحسب ، ثم بدات تسير مترنحة ، ونسيت الترنح بعد ذلك وبدأت في المشي ، وبعد اسبوع كانت تغني بمرح وعهد اليها بتنظيف بلاط الارض .

كانت يولاندا بليند تعاني من قصر شديد في النظر وضعف في السمع . وقد ارسل بشأنها تقرير خاص الى الوزارة مؤداه انه من بين مرضى جرانج الذين لا جدوى منهم توجد واحدة كفيفة وصماء ... حسنا ان يولاند هذه الكفيفة الصماء قد اصبحت من احسن العاملين في جرانج . لقد كانت تستطيع ان ترى بالقدر

اللازم لعملها في الحديقة . كانت على استعداد للقيام بأي شيء فيما عدا مغادرة جرانج مرة اخرى . ورغم ان اسرتها تعيش في القرية المجاورة على مسيرة عشرين دقيقة فانه لم يكن بالمستطاع ارسالها الى منزلها ولو قسرا . (ولقد حاولنا ذلك مرة ، فعادت تترنح مضروبة) .

وعادت إلزي فلاتفوت مع «زوجها» الاول ، جوليوس جريم ، الذي ذهب مؤخرا الى امه (التي كان قد هددها بالسكين) ، ووجدت إلزي زوجا جديدا في شخص ستيفن ماجور . وقد أصبح الاخير «عديم الجدوى» مرة اخرى عندما نقلوه الى مصحة لاجوزفا حيث يقفل على المرضى بالضبة والمفتاح واعلن ستيفن انه «اذا ما كنت في سجن فإني لا أعمل» وحافظ على كلمته ، وفقدت لاجوزفا عاملا ممتازا .

لا داعي للاستمرار في استعراض اسماء القائمة . ان اولئك الذين عادوا من مزرعة القمل باعتبار الا جدوى منهم بدأوا في العمل من اليوم التالي بل وبذلوا جهدا مضاعفا لانهم عرفوا الان انهم في جرانج انما يكونون في منزلهم حقا .

ان ما خلقته مزرعة القمل من آثار كئيبة جعلني احجم لفترة عن ارسال مرضى الى اية مزرعة حكومية . لم يكن من بين مرضانا من يود الذهاب الى اي مكان . وبصرف النظر عن إطراء بول مودل لجودة التنظيم وامتياز المرضين في عدد من المستعمرات الحديثة ، فاني لم أعد اصدقه . وكان صحيحا ايضا انني لم افعل لانه قد تبين ان واحدا من المرضين المتازين يعاني من هذاءات العظمة كما ان الآخر كان مدمنا للكحول . وحتى حيث يكون للمستعمرة مدير جيد ، فان المزرعة كانت تستغل المرضى ، ويتضح في النهاية ان السكن كان اسوا مما كان عليه في مزرعة القمل . وكنت غالبا ما أشعر بالأسى من اجل بول مودل ، وانا ارى مشروعه الجميل وهو على حافة الانهيار . ولكني كنت اكثر اشفاقا على مرضانا ، بحيث لم اكن لاسمح بتعريض تقدمهم لخطر اي من مزارع القمل .

كانت تلك الحقبة مفيدة حقا في تطوير شخصية جرانج المتميزة ، والتي لم تكن سوى برعما حين غادرتنا القافلة الاولى . وسرعان ما الف المرضى حقيقة انه لا يوجد ثمة ضرب ولا مضايقات ، ولكن ذلك لم يحل مشاكل النظام تماما ان النتيجة التي كنا نستهدفها هي ان نجعل المرضى يشعرون بوازع معنوي يدفعهم الى العمل ولكن دون اي اجبار فعلي . وذلك شيء لا يمكن ان يحسه الا اولئك الذين ينتمون لجماعة .

لم يكن كافيا ان نصل بالمرضى الى حد جعلهم يرغبون في البقاء ، بل كان يجب جعلهم يشعرون كذلك بالانتماء ، وبأنهم في منزلهم .

وكان واضحا لي ان التدليل ـ شانه تماما شأن الضرب ـ لا يمكن ان يحقق ذلك الامر . ثمة شيء آخر نحتاجه ـ ربما ان نخلق لديهم شعورا بأن هناك حاجة اليهم ، وان لهم دورا ينبغي ان يقوموا به . لقد عاش اغلب مرضانا عمليا ولفترة طويلة خارج المجتمع . مخطىء كل من يظن ان مختل العقل يفشل في ادراك انه

يعيش على هامش المجتمع .

يبدو اننا الححنا كثيرا في الحديث عن معاملة المرضى بشفقة . حتى بلغ المرضون حدا بالغا من الرقة والعطف والتفهم والتسامح . وكـــان ذلك شيئا جميلا ـ بل واكثر من الجميل ، ولكنه لم يكن كافيا . ولم يكن في مقدوري ان اخبرهم بألا يبالغوا في تلك الطيبة اللعينة .... لقد أقدمت سرا على تغيير شعاري الى «عليك ان تعرف كيف تعامل المريض» اي أن تعرف متى يجب ان تحتضنه ومتى يجب ان تؤنبه ، متى يجب الاطراء ومتى يجب أن يوقف المريض عند حده . وكل تلك الامور ليست سوى السطح ، فينبغي ان يكون التركيز على اختيار المنهج ونبرة الصوت التي يجب اتباعها عند العمل . قد يكون من الواجب ان يترك مريض معين لنفسه ، اي انه يجب تزويده بالاشارات اللازمة ثم الابتعاد عنه . بينما يحسن بالنسبة لمريض آخر ان يوضع في جماعة حيث قد تؤدي روح المنافسة او ببساطة اندفاعة العمل الى التحسين من حاله . ان المرضى من الفصاميين الهيابين يفضلون تمضية اليوم بطوله في الفرس وري الازهار ، اما السذج فانه يسعدهم العمل في ازالة الاعشاب الضارة وهو ما يكرهه المرضى المشوشون غير المستقرين الذيـــن تناسبهم الاعمال الاكثر خشونة ، ففي استطاعتهم اصلاح الطرق ، ودفع عربات اليد والحفر . وبينما يجب اطراء ومدح المصابين بالصرع ، فان ضعاف العقول ينبغي تشجيعهم بحماس ، كما ان البلهاء ينبغي تكرار تدريبهم باستمرار طيلـــة اسابيع ثلاثة ، حتى يمكنهم انجاز ابسط الاعمال ، بينما ينبغي أن يوكل الـــى المشاكسين مهمة ما ليحلوها بطريقتهم الخاصة ، وبنفس تلك الطريقة ينبغي معاملة المرضى الهستيريين ، ولكن بالنسبة لمرضى البارانويا فان الامر يختلف ، فانهم لا يعملون الا اذا أحسوا بميل الى ذلك مهما حاولت معهم .

وبالطبع فان ذلك لا يكون صحيحا تماما في كل الاحوال . والحقيقة ان كل مريض ينبغي ان يعامَل بطريقة فردية . ولا ينبغي للصراع ان يتوقف ، بل يجب على المرء ان يحاول كل شيء . لقد صادفنا من المرضى من يرفضون التحرك قيد انملة طيلة ثلاثة او اربعة اشهر ، وأخيرا أقدموا على العمل في الحديقة كما لـــو كانت ملكا خالصا لهم .

كما لو كانت ملكا خالصا لهم .... كان هذا هو ما حاولنا التوصل اليه خلال عام ، وشعر المرضى الذين ضربت جذورهم في جرانج ان جرانج ملكا خالصا لهم . وكان هذا هو السبب في أن جرانج لم تبد لهم معسكر عمل اجباري ، فهم انمـــا يعملون من اجل انفسهم .

وما ان نمت «روح جرانج» هذه حتى أصبح التعامل مع القادمين الجدد أيسر ايضا . لم نكن نحن الذين نجعلهم يعملون بل المرضى الآخرين ، اي الجماعة . وبعد تردد لا يستمر سوى أيام قليلة يجدون مكانا ويندمجون فيه .

وساعدت مصادفة سعيدة على تطوير «روح جرانج» فلقد وجدت نفســـي ـ دون ان أسعى الى ذلك سعيا مقصودا ـ أب الأسرة الراسخ القدم لكافـــة

المرضى وكذلك ان السيدة الاولى هي أمهم جميعا . كانت المستعمرة بأسرها متعلقة بها . وكانت تمضي كل وقتها بينهم ، وتعرف مشاغل كل منهم ، دون ان تعرف الكلل . ونظرا لانها لم تكن مجرد ممرضة مسئولة عن عنبر بل زوجة لكبير الاطباء فقد كانت تتمتع بشيء من الجاذبية الخاصة مما مكنهم من مناداتها ماما . لم يجبرهم احد على ذلك ، بل ان الاسم قد استخدم تلقائيا واصبح عادة يتعذر استئصالها .

عندما تكونين اما لثمانين طفلا مرة واحدة ، فلسوف يكون عليك الاهتمام بقدر هائل من المشاغل . خاصة اذا ما كان أولئك الاطفال من مختلي العقل . ماما ، صابون من فضلك .... لقد ضاع مني مشطي .... اعطيني شيئا لأخيطه لو سمحتي .... من فضلك اعطيني شيئا لآكله من الطرد الخاص بي .... متى سوف تلاعبينني بنج بونج يا ماما ؟.... جولي سرقت وشاحي ... هل ستبحثين لي عن قميصي المزخرف.... وعلى تلك الوتيرة كانت تمضي الامور طيلة النهار . قامت السيدة الاولى بتسليم الصابون ، والبحث عن المشط ، وإعداد وجبة خفيفة من الطرد الذي وصل من المنزل ، ولعبت البنج بونج واكتشفت الوشاح الضائع ، ووجدت القميص المزخرف ، ومارست العدالة ، واعطت ورتبت ، واستبعدت ، ووبخت ، وهدات ، وفعلت ملايين الاشياء . انها أحبت اطفالها كما تفعل الأم الصارمة رغم طيبتها . ولقد كانت تتمتع بخاصية لا تقدر بثمن : انها تلاحظ كل شيء وتتذكر كل شيء . لا شك في انها كانت افضل الاخصائيين النفسيين في المنزل . ولم تكن ساذجة بالقدر الذي كنته ، بحيث لم يكن ممكنا خداعها . كان حبها للمرضى قويا دون تملق ، وكان هذا الحب القوي بالغ التأثير . كان الجميع يعرفون انه لا يمكن الكذب على ماما كما ان ذلك امر لا جدوى منه . وكان موقفي انا مختلفا . كان بابي مفتوحا دائما لاي مريض، ولكنهم لم يكونوا يأتون اليّ فيما يتعلق بالصابون او بمشاحناتهم الصغيرة ، بل فيما يتعلق بالمشاكل الاكثر خطورة والتي لم يكن في استطاعتي دائما حلها . ان مجرد الانصات اليهم يمكن ان يكون مفيدا ايضا ، ولم يكن المرء ليستطيع الا الانصات ، والتعليق ، وتقديم المشورة ، واحيانا تقديم مساعدة بسيطة .

انني لم اكن أكذب على المرضى مطلقا ، وكانوا يعرفون ذلك . لقد كان كل ذلك امرا بالغ البساطة في الحقيقة . وكنت حين يسالني احد الزملاء عن منهجنا لا اجد لديّ اجابة جاهزة . منهجنا ؟ ربما لم يكن لدينا منهج . لقد عشنا مع المرضى ولم نخدعهم .

وتمت اعادة تربية المرضين ايضا بشكل يكاد يكون آليا . وفي الحقيقة فقد اعطيتهم دروسا في مبادىء الطب العقلي ، وتحدثت اليهم حول اسس التمريض واسس العلاج الصحيح . ولكن لم يكن ذلك هو ما أحدث تأثيرا ، فقد كان ممرضونا بالفعل بالغو البدائية والجهل وعدم التقبل للارشادات النظرية . ورغم ذلك فقد اصبحوا فريقا ممتازا خلال ستة شهور . ولم يكن ما اكتسبوه هو

النظرية بل «الروح» .

كيف فعلنا ذلك ؟ لم يكن لدينا نظام خاص . كنا ودودين ، وأحس المرضون بالخجل وأصبحوا ودودين كذلك . ثم تبين لهم انه كان من الافضل كثيرا اتباع تلك الطريقة .

***

بعد الدرس الذي تعلمته من مزرعة القمل ، اخبرت بول مودل انه يستطيع ان يوفر على نفسه مشقة الحديث ، فهو لن يقنعني بمزارعه الحكومية مهما تحدث. اننا لا يمكن ان نتوقع من مديري المزارع المنهكين تحمل ما يثيره مرضانا من متاعب ذات طابع خاص . انهم قد يوافقون على تحملهم لمدة قصيرة وطالما كان هناك نقص شديد في الايدي العاملة ، ولكن ما أن تقف المزرعة على قدميها ، فانهم يحاولون التخلص منهم بأسرع ما يمكن .

وقال بول مودل «لمدة قصيرة ..... هذا هو ما اعنيه بالضبط» . أننا نكون المستفيدين اذا ما حلت مشكلة الازدحام الفظيع في عنابر الامراض العقلية ولو لمدة قصيرة ، وفي نفس الوقت فاننا قد نحصل على نقود ، وعلى اعتماد في الميزانية، وعلى معدات للقصر ، اي اننا بعبارة اخرى ـ قد نتوسع ان هذه المدة القصيرة ستكون كافية لاخراجنا من الازمة .

ولم أسلم رجلا واحدا ولا امراة واحدة الى اي مزرعة تمل . ولكني اخبرت بول مودل انه اذا كان يريد ايجاد عمل للمرضى ، فان مكان ذلك العمل لا يجب ان يكون نائيا بل لا بد وان يكون قريبا من احدى المستشفيات العقلية لكي تتوافر فرصة المساعدة والرقابة . اي ان عليه مثلا ان ينشيء مستعمرة للمرضى في احدى المزارع الحكومية القريبة منا في جرانج بحيث يمكننا مراقبة سير الامور.

وعندئذ قال بول مودل «انها لفكرة رائعة .... فلننفذها» .

ان مثل تلك الامور يسهل قولها ، ولكن التنفيذ .... حسنا ، ولكن يجب اولا ايجاد المدير الجيد ليتولى المنصب ، فضلا عن الممرض او من يقوم مقامه في تجميع المرضى والعناية بهم ، وعرض مطالبهم .

قال بول مودل «فلتبحث عن رجل مناسب . وسوف اترك لك تحديد مرتبه ان ذلك لمن أيسر الامور : لدينا خمسة وعشرون وظيفة في الميزانية لمثل تلك المستعمرات ، ويمكنك الاستفادة من احداها» .

والقيت بنفسي في العربة القديمة ذات الخيول وذهبت ومعي السيدة الاولى لزيارة المزارع الحكومية المجاورة . كان ذلك في بداية الصيف ، واستقبلت استقبالا حسنا ، فقد كانت اليد العاملة قليلة . وقد ذكرت المرضى بالخير ، ورحب الجميع بالمشروع . وفي اليوم التالي جاء مديرو المزارع (في عربات أفضل من عربتي الى حد ما ، ولها خيول أجمل) واخذوا بما رأوه في جرانج . هل ذلك في

استطاعة المرضى حقيقة ؟ كان مستحيلا الا يصدقوا ، لان المرضى كانوا يعملون بجد وتحت ابصارهم .

وسرعان ما وصلنا الى اتفاق ، تأخذ بمقتضاه كل مزرعة عشرين مريضا على مسئوليتها . وسوف تتحدد أجورهم تبعا للمعدل وللعمل المنجز شأنهم شأن غيرهم من غير المرضى . واذا ما فشل أيهم في الوصول الى ما هو متوقع منه ، فانه ينبغي استبداله . ولنا أن نراجع ما يتلقونه من حيث الطعام والعمل والأجر. حققنا نجاحا سهلا حتى انني لم أصدقه . وفي النهاية مُني كل ذلك بالاخفاق لأن بول مودل لم يفِ ببند الميزانية الخاص بالمسئولين عن التمريض . وقدم كافة انواع التفسيرات ، ولكن الواقع هو انه عندما أخبرته بأن كل شيء اصبح جاهزا وطلبت منه ان يؤكد اننا نستطيع توظيف الممرضين ، لم أحظ سوى بالاعتذارات.

واصبت بخيبة أمل هائلة واخذت اردد فلتذهب الادارة الى الجحيم ، وسببت بول مودل . وهدأتني السيدة الاولى : لا تهتم ، فعلى الاقل سيكون في استطاعتنا الاحتفاظ بمرضانا القدامى الاعزاء ، وعلى الاقل فقد قمنا بعدة جولات جميلة بالعربة . لقد كانت جولاتنا بالعربة ممتعة حقا ، فلقد مشينا الهوينا في الجو الصيفي اللطيف وفي نفس الطريق الذي أوقفنا فيه ذات مرة انهمار المطر. كان الخلاء قد أصبح اكثر الفة آنذاك ، وكانت اشجار الحور الهيفاء تنتصب كالحراس على أطراف المنازل ، والشجيرات الخضراء تغطي المدافن المهجورة ، كما كان أطفال القرى بوجوههم الملطخة بالطين يجرون خلف العربة ، وكان الطريق محاطا بالبرسيم . كل ذلك جميل ولكن لن تقوم هناك اية مستعمرات للمرضى

ولم يكن مقدرا لها في الواقع ان تظهر الى النور او لم يصل المعالج المهني . كان قد كتب لي رسالة ذكر فيها انه سبق له حضور محاضراتي عن الطب العقلي في الجامعة ثم تم تخرجه بعد ذلك كمعالج مهني ، وانه يرغب في الحضور الى (الجرانج) لايمانه بأن العمل يشفي مرضى العقول . فاذا كانت هناك اية صعوبات في (الجرانج) فبوسعي ان اكتب له عنها بصراحة ، وسوف يتولى امرها بالتأكيد .

تمتمت وغمغمت ثم كتبت له «بصراحة» انني لا اعلق آمالا كبارا على النتائج العلاجية للعمل ، ولكنني كنت قانعا بحقيقة مؤداها ان المرضى يتحسنون ، بشكل عام ، ويشفى البعض منهم . وان هناك صعوبات مثل تدخل مستشفى المقاطعة في العمل ، ولكن هذا يمكن أن يتولى هو امره ، ولقد كنت سعيدا على اية حال برغبته في الحضور ولكنني كنت مضطرا الى توجيه عناية سيادته الى اننا نقيم في مزرعة تضم ثمانين مريضا عقليا ، ليس بها فتيات جميلات ، او اي فرصة للتسلية . وأن ناسكا مثلي يمكن ان يشعر بالراحة (خاصة ان زوجتي تبعتني الى هذا المكان الموحش) . ولكنني اشعر بالقلق بالنسبة لشاب في الثانية والعشرين يدفن نفسه هنا .

وكتب لي المعالج المهني برجوع البريد «لا يساورك القلق علي" يا دكتور لانني

لا احضر الى (الجرانج) للمتعة وانما للعمل». اما فيما يتعلق بالفتيات فقد ذكر انه من الرجولة بمكان بحيث تتبعه الفتيات ولو الى اقاصي الارض . وليس لي ان اقلق بشأن مستشفى المقاطعة لانه سوف يكون هنا وسوف يتولى كل شيء .

وانتظرنا هذا الشاب المندفع بشيء من القلق . كانت معنوياتي منخفضة وقتها بصورة ما ، وقد انهكني الصراع المقيم بيني وبين السيد «بلا كلام فارغ» بالاضافة الى الاعيب البستاني ودسائس وندي العجوز وفشل مستعمرات المرضى، ووعود (بول مودل) الجوفاء ومع ذلك ظلت المشكلة الرئيسية هي الشعور بالعبث. وكنا نعرف كيف يمكن ان تحل المشكلات ، لكن احدا من المسئولين لم يعرنا التفاتا. كان في مقدورنا ان نتحدث كما نشاء ، وكان كل ما حصلنا عليه مجرد وعد أجوف من بول مودل) .

ولم يفت شيء من هذا في عضد المعالج المهني . فلقد دنع بنفسه في الصراع متحمسا لاظهار ما يمكنه عمله . ولم يكن خاملا ، فخلال اسابيع قليلة استطاع اقامة مستعمرة للمرضى المتوجهين في مزرعة الجنود المجاورة ، ولم تكن المصاعب لتثنيه ، فقد عاش مع المرضى لمدة اسبوعين ، وعمل معهم ، وجادل المدير وكبير الزراعيين ، وتفحص عمل واجور المرضى . وبعد ذلك اعتاد التوجه بالدراجة الى هناك عدة مرات في الاسبوع ليرعى شئونهم .

وكانت مستعمرة مزرعة الجنود تعمل دون رئيس للممرضين ، كان (بول مودل) قد وعد بتدبير واحد ، ولم يصدق هذا الوعد سوى المعالج المهني .

ولقد راقبت صراع المستعمرة البطولي ، او بعبارة أدق صراع المعالج المهني عن كثب ، وكنت أقف الى جانبه ، لكنني لم أقتنع بانه سوف يوفق .

ومع هذا ، فقد ظلت ريبتي تبدو لا محل لها لمدة طويلة ، وبدا كأننا سوف نكسب معركة مزرعة الجنود . فأرسلنا عشرون آخرين من العمال الاكفاء ، وكنا نستبدل كل من لا يتفق وتوقعاتنا عنه فورا ، لكن اغلبهم عمل بكفاءة ، حتى تكون لدينا في النهاية فريق ناجح مكوّن من عشرين رجلا ، حازوا رضاء مدير المزرعة .

كان (دروبانوفتس) هو قائد الجماعة ، الرجل المفتول العضلات . لم يصدق اي شخص في المزرعة لبعض الوقت انه مجنون ، فلقد كان يتكلم بطريقة ذكية ويعمل جيدا ، ولكنه كان يقول في بعض المناسبات «شوف ، يا سيدي انا مثل رجل البوليس السري تكفيني نظرة واحدة الى الشخص حتى اعرفما بداخله...» وبنظرة مليئة بالمعاني يسترسل في محاضرة حول شرور الاخرين وفضائله الشخصية ، وعن مختلف اعضاء أسرته الذين سعوا سرا لايداعه المستشفى العقلي ليرثوا ثروته . وربما كان كل ذلك صحيحا فيما عدا انه لم يكن يملك اية ثروة .

كان هذا الرجل هو روح الفريق ، يرعى الآخرين ، ويوجه عملهم ، ويهتم بنظافتهم ، ويقوم بالحلاقة لهؤلاء الذين كانوا أكسل من ان يؤدوها بأنفسهم . وفي ايام الآحاد لم يكن يجد الوقت للاستحمام لانه كان يقوم بالغسيل ، فكان يغسل ويجفف كل ملابس زملائه الداخلية بعناية .

وكان (اليكس بارنوت) ايضا من صفوة الجماعة ، على الرغم من ان احدا لم يكن يستطيع ان يصدق من غمغمته ومظهره المتناوم انه قادر على العمل اطلاقا . كان قد نشأ في مصحة ، وشهد العديد من التقلبات . كان ضعيف العقل ولم يذهب الى المدرسة قط ، وكان الان يتعلم القراءة والكتابة ، ويستطيع ان يروي قصصا مرعبة عن الخبرات التي مر بها . وذات يوم وضعه والداه السكيران مع كل اخوته واخواته على قضيب السكة الحديد ، أملا في التخلص منهم . وفعلا تم لهم التخلص منهم ، فلقد تم سجن الاب لا بسبب محاولته التخلص من أسرته وانما بسبب الزنا مع المحارم ، وتم ايداع الابناء في المصحة .

اين يكمن الخيط الرفيع بين الضعف العقلي ونقص التعليم ؟ ان (اليكس بارنوت) لم يكن عبقريا ، ولكن لو قدر له ان ينشأ في أسرة سوية ، وان يدرب على حرفة ، لكان يعمل الان في احد المصانع او المزارع ، شأن اي شخص آخر، ولكان أسوأ ما يمكن ان يقال عنه هو «الحقيقة انه ليس عبقريا تماما» .

وكان هذا ما انتهى اليه . فبعد انفضاض مستعمرة المرضى ظل باقيا يعمل في المزرعة ، ونمي الينا انه أصبح موفقا مع الفتيات وانه يفكر في الزواج ، ورغم هذا فلم يتعلم الحساب وكان على احدى فتيات المكتب ان ترعى شؤونه المالية وتشتري له ثيابه .

وكان (فوشكي) العجوز نموذجا آخر للضعف العقلي في مزرعة الجنود ففي سن الثانية والخمسين كان يبدو عجوزا كمومياء . ولم تكن ثمة مومياء أشد منه قذارة . كان قد سبق له الاشتغال على عربة لنقل الموتى ، ولم يحدث ان كف عن قص القصص الخيالية حول هذه الفترة . في بعض الاحيان كان يحتفل بمراسيم جنازة كاملة بمفرده ، لكنه كان نادرا ما يصنع ذلك لانه كان عاملا مثابرا. كان ينحني ، وبخطوات متعثرة يتجه يسارا ثم ينحرف يمينا ، وبعد عشر خطوات يغير رأيه من جديد . ولم يكن يهرول هنا وهناك بدون سبب ، كان مشغولا جدا. ولم تكن مفرداته اللغوية غنية ، فلم تزد عن مجرد «صباح الخير يا دكتور ... معك سيجارة ؟»

كان ذلك هو كل اهتمامه : السجائر والجثث . وكان يلتقط الاعقاب من اشد الاماكن قذارة ويضعها في فمه الشبيه بفم المومياء ويدخنها .

اما (بوبردنيكس) المشلول فكان لصيقا (بفوشكي) . كان يحيي كل انسان مائة مرة يوميا ، ولحسن الحظ كان يقصر **كل همه** على التحية نظرا لانه مصاب باضطراب النطق Disartvy الذي يعني **تعثر** اللسان خلال النطق بالكلمات . كان يخلط المقاطع فيقول مطعف الشتاء بدلا من معطف الشتاء . طبيخ بدلا من بطيخ . ويختبر الاطباء عادة المرضى بعيوب النطق بأن يدعونهم ينطقون كلمات ومقاطع صعبة لا يحتاج المرء الى ان يكون مصابا بالشلل حتى يتعثر في نطقها . اما (بوبردنكس) فقد كانت لديه قدرة على خلط ابسط المقاطع لدرجة تقنع المرء بأنه يتدرب على ذلك في وقت فراغه .

وكان (فرانك جستر) ، المصاب بالهيبيفرنيا ، واحد من هذه المجموعة الصغيرة من ضعاف العقول . والهيبيفرنيا هي ذلك الضرب من الفصام الذي يحدث في المراهقة والذي يؤدي الى العته الهادىء في سن مبكرة . ولقد كان فرانك جستر في الخامسة والعشرين من عمره ولكنه يبز فوشكي وبوبرونكس مجتمعين في اللغو . وكان يتمتع بنوع من الفكاهة الحالمة التي يفتقدها الآخرون . «هل تعرف من الذي صنع الساعة ؟ الساعاتي . هل تعرف لماذا يقع المطر ؟ لانه لا يستطيع النزول على السلم . هل تريد ان تعرف ما هو الوقت الان ؟ مثل الامس في نفس الوقت» . كان الجانب المحزن في الموضوع انه كان انجب تلاميذ فصله، امل الاسرة ، وفخر القرية . كان لا يزال قادرا على تسمع قصائد الشعر دون خطا وعلى القيام بعمليات الضرب الحسابية بسرعة البرق . لكنه لم يكن يستطيع الاستفادة من اي شيء تعلمه في المدرسة . كان لا يعمل الا اذا وقف الى جواره شخص ما يوجهه طيلة الوقت . فكان عندما يشرع في ربط الحزم مثلا يتوقف بعد كل مرة ، كما لو كان لا يدري ما الذي ينبغي عليه ان يفعله ، وعندئذ يصيح فوشكي العجوز فيه : «الحزمة التالية يا فرانكي» ـ كان يشرع في العمل .

أما حالة (جوستب) فلم تكن تراجيدية على هذا النحو . كان من أولئك الفتوات ذوي السمعة السيئة . وحين كان الطبيب المقيم السابق يناضلهم دون هدف في هذا المكان كان جوهو العدو رقم (١) في (الجرانج) والاماكن المحيطة . كان تحت العشرين ورغم هذا فبطاقة تاريخ حياته تبدأ على هذا النحو المتواضع «حكم عليه للمرة التاسعة ....» كان قد حول الى (الجرانج) . بناء على توصية من (ليبوتميزو) ولكنه سبق ايداعه في عدة مستشفيات عقلية ، ناهيك عن الاصلاحيات ، ومحاكم الاحداث ، والمدارس الخاصة بالاطفال المعوقين ، هذا غير مرات ومرات في قسم الشرطة بالطبع . كان طفلا يتيما من اطفال المؤسسات لأبوين سكيرين متدهورين . يمكن تلخيص تاريخ حياته في جملة واحدة : يحيا حياة اللصوصية والتشرد حين لا يكون مودعا باحدى الاماكن السابقة الذكر .

اذن لماذا أودع مستشفى الامراض العقلية ؟

طبقا لسجله الطبي ، فهو بالاضافة الى كونه متخلفا عقليا يعاني من عدم الاتزان المرضي وحدة الطبع الى جانب نوبات دورية من القلق او العدوان . ويصف السجل الطبي هذا العدوان بالتفصيل باعتباره «نشاط حركي مفلوت» يتمثل في: تحطيم النوافذ ، ركل الابواب ، تكسير المصابيح ، مهاجمة رجال الشرطة والمرضين الرجال (من الطريف ملاحظة ان هذا لا يحدث الا لرجال الشرطة والمرضين الذكور) . اما من ناحية العلاج فقد عولج بالصدمات الكهربائية وصدمات الانسولين . ولكن لم يغن ذلك عن نجاح ملحوظ لانه ظل بعد ذلك يتصرف داخل (الجرانج) كأنه رئيس عصابة . كان يختفي لعدة ايام ، فيثير الذعر في المدينة ، ثم يعود مخمورا ويسفر عن «نشاط حركي مفلوت» .... فيحطم الاشياء ويلقي بروث الخيل في الاماكن المعدة لنوم النساء ، يقذف المصابيح

بالاحجار ... وباختصار كان شيطانا شابا يثير أعصاب اي انسان . وليأس الطبيب السابق منه تماما امر باحتجازه داخل احد حجرات المخازن المظلمة . فكان بدافع الانتقام ، يتبرز فوق الخضر المخزونة ويركل الباب بقدمه. لقد كان جوستب كفيلا بأن يعجل بمشيب الطبيب السابق اذا لم يكن قد شاب فعلا . واخيرا وبعد ان بث جوستب الرعب القاتل في نفس البستاني ، وبعد ان هرع البستاني الى مستشفى المقاطعة وأخبر المدير «لا ــ هذا كلام فارغ» بأن عليه ان يختار بينه وبين جوستب ، تم ارسال ستب اخيرا الى مؤسسة اخرى .

وانقضى عام ، وبغتة اقبلت المرضات يجرين في هلع : «لقد عاد ستب . لا تقبله . دعه يعود لا يمكن ايداعه هنا» .

لقد وصلت دفعة جديدة من المرضى تضم بين ظهرانيها ستب الشرير .

حسنا ، قلت لنفسي ، فلنلق عليه نظرة ، وأسرعت صوب العنبر . ما الذي يتوقعه المرء بعد سماع العديد من هذه القصص المرعبة ؟ كنت قد أعددت نفسي لمواجهة شاب صعب المراس ، مفتول العضلات ، ذو نظرات شريرة وعيون ماكرة وفم يطفح بالكلمات والصخب ، يسفر عن «نشاط حركي مفلوت» . سرعان ما يقلب المائدة كما سبق له ان فعل منذ مدة وجيزة في محكمة الاحداث . لكنني وجدت بدلا من ذلك شابا نحيلا صغيرا اشقر له وجه فتاة وعيون زرقاء حالمة . كان بالغ التأدب لدرجة ادهشتني تماما . هل هذا هو الوجه الذي استدعى تسويد آلاف التقارير الطبية ؟ كنت أتوقع حيوانا مفترسا ، لكنني فوجئت بهذا الطفل الوديع . وهمست المرضات بأنه بدا هكذا في المرة السابقة ، ثم اسفر بعد ذلك عن معدنه الحقيقي . حسنا ، كنت مهتما بتقصي معدنه الحقيقي ولذلك فلم ارفضه .

هل استمر في التفاصيل ؟ لم ار الا نادرا شابا في لطف وجاذبية جوستب . لم يسفر عن «نشاط حركي مفلوت» ولا «سيكوباتية فصامية» .. لم يكن به شيء على الاطلاق . كان هستيرياً الى حد ما ، تقوم الجروح العديدة في ذراعه شاهدا على محاولات انتحار هستيرية . كان «نشاطه الحركي المفلوت» مجرد استجابات هستيرية . لم يكن هناك اي اثر للضعف العقلي ، لكن الافتقار الى التهذيب كان واضحا نتيجة لحياته في المصحات . كان العرض الوحيد الخطير لديه هو سهولة استهوائه . ولكن كان من الممكن ان يسهل استهوائه للخير كما للشر . ولقد استهويناه للخير ، ولمدة ثلاثة شهور كان مثلا حيا للطف . كان يفضل الاعمال التي تتيح له كمية من الحركة ، لكنه كان يمارس الاعمال الرتيبة ايضا دون ان ينبس ببنت شفة . وكان يشعر بسعادة حقيقية اذا ما اتيحت له دراجة ، بعد الانتهاء من العمل ، ليحمل طردا الى المدينة او يشتري السجائر من القرية المجاورة ، او يحضر لاحدهم رسالة . كان الذهاب والاياب احب الاشياء اليه . كان ينتابه الغضب احيانا ، او يلقي بما في يده احيانا اخرى او يصيح ، لكن كان من الممكن تهدئته بكلمتين . كان الحزم الابوي او العطف الأموي كفيلان بتهدئة خاطره . لقد

حاول البستاني ذات مرة ان يترك (الجرانج) بسبب ستب ؛ أما الان فقد أصبح ستب هو ساعده الايمن وأحسن عمال المزرعة .

بعد انقضاء ثلاثة شهور ارسلناه الى مزرعة الجنود . في ستة اسابيع كسب الف فورنتس ، واعتبروه هناك من العمال الذين يعتمد عليهم والقادرين على الكسب نظرا لتفوقه في اعمال تربية الحيوان واي عمل آخر ، الا ان الحياة في مزرعة كانت شديدة الإملال بالنسبة لطبيعته القلقة . فذكر بصراحة انه سيظل باقيا حتى يدبر من المال ما يكفيه لشراء ملابس جديدة ، وهذا ما فعل . ثم قدم طلبا عن طريق اعلانات الجرائد وحصل على وظيفة عامل تعدين . وزودناه بالنصح الابوي، وأعرناه ما يحتاج اليه من ملابس (ولقد ردها بأمانة) وانتزعنا منه وعدا بالكتابة لنا . وظل زمنا محافظا على ان يذكر لنا بأمانة ما يحدث له ؛ وكان كل شيء يسير على ما يرام . ثم كف عن الكتابة . وخمنت انا مكمن الخطأ . ثم تناهى الى سمعنا من شخص آخر انه حصل على جائزتين لسرعته في العمل . ولسوء الحظ، وضع ذلك في يده كمية كبيرة من النقود ، والناس ذوي الثراء يجذبون العديد من الاصدقاء . ما الذي يمكن للمرء ان يصنعه في مدينة تعدين صغيرة كئيبة ومعه كمية من النقود والعديد من الاصدقاء ؟ يشرب بالطبع ، ويتردد على الحانات . ان العمل الرتيب تحت الارض والشراب واصدقاء السوء ليس المناخ الطيب لاصحاب «النشاط الحركي المفلوت». وهكذا اعيد الى مستشفى ليبوتميزو للعلاج. لكن آثار عملنا لم تكن بلا جدوى ، فلقد استعاد رباطة جأشه ، وهو يعمل الان في احدى مزارع الدولة من جديد ، وتسير أموره على ما يرام .

ولكن الى متى ؟

الجانب المحزن في الموضوع ان لديه القدرة على أن يصبح شخصا متفوقا . انه في حاجة الى المساعدة لعام آخر او عامين فحسب حتى يستطيع ان يقف على قدميه ويتزوج ويستقر . كان من الممكن ان يكون ساعي بريد ممتازا (للجرانج) مثلا ، فيما لو كان لدينا مثل هذه الوظيفة . ولكن ذلك لم يكن في وسعنا ، ولا نستطيع أن ننفق السنوات في اصلاح كل فتوة يلقيه سوء حظه في طريقنا .

كان الاربعة عشر مريضا الآخرين الذين تم ارسالهم الى مزرعة الجنود من المصابين بالفصام . كان بعضهم لامعين والبعض الآخر اغبياء . كان احدهم يعتقد منذ خمسة عشر عاما انه كونت وكان الآخرون بالتالي يعاملونه على اساس هذا الزعم . كان في الواقع فلاح بسيط يعمل بجد . كان يخاطبني بلقب «السيد المدير المالي العام» لبعض الاسباب . فلقد دأب على المطالبة بأجوره عن السنوات الخمس والعشرين الماضية والمقدرة بعدة الوف . لم يكن لديه موضوع آخر سوى أن يكرر ذلك عدة مرات يوميا . ويدق كعبيه محاولا اسباغ النبالة الارستقراطية على جسده الريفي المتهدل . كان يكسب من مزرعة الجنود المال الذي يكفيه لشراء بضعة ملابس قليلة ، ولكن من الصعوبة بمكان إثناءه عن شراء المحل بأكمله . فهو بعد يمتلك الملايين ، ولكنه في النهاية يستقر على قميص وسراويل .

وكان آخر عامل طباعة يعاني من المرض العقلي منذ كان في السادسة عشرة. وهو الان في الاربعين ذكي ومستنير . كان يعمل كمن به مس ولكنـــه يتحاشى الآخرين . كان شديد التهذيب والادب . وكان يذرع الممر جيئة وذهابا كل مساء بمفرده ويتنحنح بصوت عال ويصيح قائلا «بوب» . ويخترق الفراغ في الهواء بإصبعه ، ولم يعرف احد ما المقصود بذلك . ولقد نشأت بينه وبين فتاة ضعيفة العقل في العشرين من عمرها علاقة رومانسية غريبة . كانت كريكت فتاة صغيرة خجولة تعلق قلبها به ومضت تطارده لاسابيع بحبها الدؤوب . وقاوم السيـــد بنكنوت ، عامل الطباعة على قدر طاقته ثم استـــلم في النهاية . ولكنه لم يكن مهيئا سوى للحب الافلاطوني . وحتى ذلك رفضه فيما بعد ، فضاق بالفتـــاة وحاول التخلص منها . لكن من الصعوبة التخلص من فتاة تحب . فكانت كريكت تتسلل يوميا الى بنكنوت ، وكان يقبلها يوميا على الطريقة الواقعية تماما وليس بطريقة أفلاطونية . لم أر في حياتي مثيلا لهذه القبلات . وكانت كريكت تتلقى قبلاته دون ان تنبس أو تعترض . وتعود في اليوم التالي ثانية في طلب القبلات وتحصل عليها .

ودام ذلك حتى أرسلنا السيد بنكنوت الى مزرعة الجنود . فانتاب كريكت القنوط لدرجة اعلان العصيان . وكفت عن العمل عدة اسابيع مكتفية بالوقوف عابسة الوجه ثم طالبت بإعادتها الى المستشفى التي سبق ان حولت منها الـــى (الجرانج) . لكن الحب كان اقوى . فبعد ستة شهور هربت وارتحلت مائتي ميلا في طلب بنكنوت . وتجولت على الاثر من مزرعة الى أخرى أملا في العثور عليه في مكان ما . وماذا لو وجدته على سبيل الافتراض ؟ سوف تستمر بالطبع في طلب القبلات وتغدو سعيدة .

اما ستيف ترالاي فقد كان جزارا . خاض اهوال الحرب واسر ، لكن من لم يخضها ؟ لقد عاد الى بيته ووجد زوجته قد تزوجت لرجل آخر نظرا للاعتقـــاد بوفاته . فلم يلم زوجته . كانت المشكلة الوحيدة انه لم يكن متأكدا تماما مما اذا كانت هذه المرأة زوجته او واحدة من اخواتها التوائم . لقد اعتقد ان لزوجته ثلاثة أخوات توائم . وكان هذا هو السبب في ايداعه المستشفى .

وتلقى كل انواع العلاج بل واجريت له عملية استئصال الفص الجبهي . هل شفته العملية او انه شفي بطريقة اخرى ، هذا ما لم نعرفه ابدا . انما الامـــر المؤكد ان ستيف زالاي بدا يتحسن تدريجيا . ولكنه تلكأ في الخروج فلقد كان يشعر بأنه اسعد حالا في ظل المؤســـة عنه في العالم الخارجي .

انه يمارس حياته الان عاملا يكسب اجره بنفسه في المزرعة ، لكنه يحافظ بإخلاص على زيارتنا في (الجرانج) .

حتى هؤلاء الذين لم يتم شفائهم كانوا يعملون جيدا . لقد ظل اندرو الخناق (سافوكاتور) محتفظا بأشباحه فوق راسه والخناقين فـــي اثره وظل القسس مستمرين في مشاغلته من السقف .. لكنه في الوقت نفســه كان يعمل بداب .

واستمر بوب العجوز يشير للملائكة تحت المائدة معلنا ان ملكـــا يجب ان ينتخب قريبا . ولكنه على الرغم من ذلك كان مقامرا ممتازا ، ومهرجا قادرا على اضحاك المزرعة بأكملها . الا انه كان على جانب من الشذوذ . اما الآخرين فكانوا اما شرسون او ميالون للانطواء على انفسهم ، شأن جوزيف تادروس البالغ من العمر ستـــة واربعون عاما الذي كان فلاحا من السهول . لم يكن ينطق بكلمة ، ولكنه كـــان يشعر بالألفة وهو يقوم بعمل المزرعة . كان يدخر نقوده ويرسلها لأخيه ، هـذا الوغد الذي لم يكتف بأن خدعه في الميراث ، بل يحصل الان ايضا على اجره .

باختصار كان المرضى ، على ما يرام . وكان مدير المزرعة لا يجد من الكلمات ما يوفيهم حقهم ، ولكن بالنسبة لدفع اجورهم ...!

لم يكن الامر يتعلق بعدم دفع مستحقاتهم . كان الملاحظ يسجل عملهـــم والصراف بدفع ، والمرضى يقبضون (هنا على الاقل كنت متأكدا انهم يقبضون) كان متوسط الاجر يتراوح بين ١٠٠ ــ ٢٠٠ فورنت كل عشرة ايام . كان البعض يحصل على ما هو اكثر قليلا او اقل قليلا . لكن كان يتم خصم ٧٠ فورنت من حسابهم مقابل الايواء وكانوا ينفقون الباقي ٣٠ ــ ٤٠ فورنت على السجائر فلا يتبقى الا القليل لشراء اطعمة اضافية .

وظل هذا كله بمثابة لغز بالنسبة لي . فاذا كان المرضى يعملون بجد كما يدعي المدير والزراعيين ، فلماذا يكسبون أقل القليل ؟

كان المعالج المهني يتوجه بدراجته الى هناك في ايام الصرف ثم يعود ثانيـة وهو حانق «مرة أخرى يدفعون لهم فقط ٣٠ ــ ٤٠ فورنت . لقد استطعت بالكاد ان أهدئهم » .

ولكن كيف كان ذلك ممكنا ؟

الامر بسيط جدا . كانت هناك اعمال يصعب بمكان تحقيق معدلات الانتاج المقدرة لها وكان العمال الأصحاء الأسوياء يجدون صعوبة في انجازها بنسبـــة ١٠٠ بالمئة ، فكانوا يرفضونها . اما المرضى فلا يسألون عما اذا كانوا يرغبون في تأدية هذه الاعمال ام لا . فكانت ادارة المزرعة تسعد لوجود اغبياء ــ تعبير الاغبياء هنا في محله الصحيح تماما ــ يتولون العمل الذي لا يرغب فيه احد .

وبالطبع كان الامر يستوي بالنسبة للمريض . كان يعمل حيثما وضـع دون سؤال عن معدل الانتاج . ولم يكن ليعمل كشخص يريد ان يبلغ معدل الانتاج فحسب ، وانما كإنسان يريد ان يؤدي عمله جيدا باضطراد ودقة وعناية . كان المدير يفرح بالطبع عندما يرى الحقل قد تم بالشكل المطلوب ، ورغم هذا كـــان الملاحظ يقدر العمل اليومي ويسجل ٢٠ بالمئة . كان يقدر الكم لا الكيف .

ولقد ازعجني هذا ، تشاجرت مع ادارة المزرعة ، وطالبت أن يكون الدفـع بالساعة ــ لكنهم لم يوافقوا . وقدم لنا المدير الوانا شتى من الوعود ، لكـــن الصراف لم يكن له شأن بها . كان يجلس الى مكتبه ويحسب ويحسب بلا نهاية ليصل اخيرا لمبالغ ضئيلة جدا . لدرجة تجعل المرء يشعر ان المبلغ لا يســـاوي

جهده في الحساب .

لكن هذا لم يكن أسوأ ما في الامر . فلو ان مرضانا يكسبون نفقات الإيواء ويتبقى لهم ما بين ١٠٠ ـ ١٥٠ فورنت في الشهر لكان ذلك باعثا على الرضى . لكن الصيف لم يكن يستمر الى مالانهاية وكذلك الخريف . فجأة يجدون انفسهم في الشتاء بدون عمل او دخل . كان العمال النابهين منهم يكلفون برعاية الحيوانات ، اما الباقين فكانوا يتسكعون . ولم يكن هناك ثمة أجر للتسكع . كان العقد ينص على ان تقدم المزرعة فرص العمل للمرضى صيفا وشتاء ، ولكن ما هي قيمة العقد ؟ كانت فرص العمل تقل في الشتاء ، ويكلف به الاسوياء . في صراع البقاء كان المرضى هم الخاسرون . لم يكن لهم ممرض او رئيس عمال يطالب لهم بأعمال في الشتاء . كان المعالج المهني يهرع الى هناك مرة في الاسبوع بالدراجة او القطار او العربة او على الأقدام تبعا لحالة الطقس . وكان يناقش ويصارع ويحصل على الوعود .. ولكن كان كل ذلك عبثا .

لم يكن ثمة جدول ـ وكان علينا ان نعود بمرضانا . واحتفظت المزرعة بقلة من الذين يمكن الاعتماد عليهم في كسب اجورهم الذين اعتبرتهم الادارة أسوياء ـ اثنين من الفصاميين ، وواحد من ضعاف العقول وآخر من مدمني الكحول . وعاد الباقون الى (الجرانج) .

في هذه المرة تطرق اليأس الى المعالج المهني بسبب الفشل ، بينما لم أعد انا ابالي بالامر . كان المرضى في الواقع يعملون جيدا ، ولم يكن الباقي نتيجة خطأهم . ولقد تعلم بول مادل ومعاونيه ايضا من أخطائهم . فلقد وضعوا حدا للمزارع السيئة وفصلوا مديري المستعمرات من السكيرين او الذين ليسوا في مستوى المسئولية ، حتى بدأ الموقف يسفر عن تحسن . وحين طلبت مني دفعة جديدة من المرضى ، ارسلت اربعة وعشرون رجلا وإحدى عشر امراة من العمال المجيدين المنتقين بعناية . وفي حدود علمي عملوا بجد . اما ما سوف يحدث في الشتاء ، فهذا ما لا يمكن التنبؤ به بالطبع .

ولقد اصطحبت الاحدى عشرة امرأة بنفسي الى المزرعة . وكانت رحلة من النوع الطريف . كن جميعا من القدامى المفضلات ومن العضوات المؤسسات في (الجرانج) . وكن يرتدين ملابسهن المتواضعة التي اشترينها من أجورهن . بدت كلارا تيزي بثوبها المنقوش ووجهها الاحمق كدمية ، ماردا نائما لكنها مستيقظة . بعيونها المفتوحة الواسعة . وبدت جولي بوزا بملفحتها الانيقة كامراة سلوفاكية جميلة . وانسجمت عيني ماري سكوانت مع لون شريط شعرها الازرق ، لقد تحولت المدمنة العتيقة الى حسناء لدينا . أما كانت آن دمب ، اعظم خرساء متكلمة في العالم فكانت فخورة بصدارها الاصفر . اما الخرساء الاخرى فكانت كذلك فخورة بصدارها الاحمر ذي النقط البيضاء . وبدت ماري جيارماني كإبنة المدينة بين حسناوات القرية في جونلتها الزرقاء المحبوكة وكانت كريكت جذابة حتى في خلقها المتواضعة لانها كانت صغيرة السن ، لم يكن لديها سوى زوج من الجوارب الحمراء وصندل جديد لانها انفقت كل ما كسبته في شراء السجائر .

كانت ذاهبة الى المستعمرة بأمل العثور على السيد بنكنوت هنـــاك لتحصل على قبلاته .. وكانت القديسة اليزابث تبتسم فخورة بثوبها البني كما لو انها رسمت كاهنة حقا . كانت زوجة الطبيب وماتيو فقط هن اللاتي يرتدين ملابس المؤسسة. كانت زوجة الطبيب تتخيل نفسها قرينة طبيب في الجيش ، ومن لحظة الــى اخرى كانت تصيح بدون سبب على الاطلاق «صفا .. انتباه» . وكان اسم ماثيو الحقيقي هو ماتيليدا ، لكن صوتها كان قويا كالرجـــال ، ومن هنا كان سبب اكتسابها اسم ماثيو .

كانت الجماعة كلها تبدو كأنها في رحلـــة خلوية جميلـــة لا مرضى عقليين «خطرين» ينتقلون من منزلهم «المقفول» . كان الجو العام ممتازا بفضل ماثيـــو البلهاء التي ظلت تروي الطرائف طيلة الوقت بصوتها الأجش الملثوغ . وكلمـــا تصادف دخول احد الغرباء غير المتوقعين للعربة كانت تصيح مرعدة «إثمع هـــذه عربتنا الخاثة .. أخرج فورا وإلا امثكك رئيث الاطباء» .

ونصح المفتش كل من كان على وشك دخول عربتنا قائلا «خذ حذرك .. فربما تنتهي في الداخل» .

واحاطت بنا دائرة سحرية . كان الركاب يراقبوننا في حب استطلاع ودهشة وابتهاج «المجانين في رحلة» في نفس الوقت الذي استمتع المرضى بهذه الخبرة غير العادية . وبلغ سرورهن منتهاه حين طلبت لهن زجاجات المرطبات لدرجـــة دفعت كلارا تيزي التي تدعي الخرس الى ان تبدأ الكلام بأثير الفرح . كانت تستطيع التحدث بطلاقة اذا ارادت ذلك ، لكنها لم تكن تريد . كانت تتكلم فقط حين يحدث شيء يهز انفعالاتها . في العام الماضي على سبيل المثال استؤصلت زائدتها الدودة، وحين عادت الينا اطلق الفرح بغتة لسانها فقالت «أنتم هنا .. اذن فأنتم هنا» . همست بذلك بعيون لامعة ثم همست كأنها راهبة نذرت نفسها للصمت . ولقد سمعت مؤخرا انها بدأت تتكلم في المستعمرة من جديد ، في هذه المرة كان الحب هو الذي أمدها بالكلمات .

كان الليل يرخي سدوله حين وصلنا الى المستعمرة . وتم اعداد احـــــد البيوت المهجورة في المزرعة للمريضات . وتبدو «إعداد» هنا مبالغ فيها ، لم يكن ثمة إعداد معين ولكن على الاقل كان هناك مفتش للمزرعة ، وهو رجل ماهـــر ونشط . قد يكون في مقدوره ان يقف الى جانب المرضى في حربهـم مع ادارة المزرعة التي وعدت بكل شيء وفضلت الا تصنع شيئا فيما يتعلق بمعدلات الانتاج والاجور والمعاملة العادلة . لن يكون الامر سهلا عليه .

وكان الوداع مؤثرا . الاحدى عشر امرأة كن يبكين . وحتى المراة الثانية عشر ، المرضة روزي كانت تنتحب . وصرخت ماثيو بصوتها العميق «دادا .. دادا وانتحت كلارا تيزي جانبا تنعي قلبها الوحيد ، وقبلت القديسة اليزابث يدي ، وارتمت ماري سكوانت الخرساء ذات اللثغة والأخريات على عنقي واغرقتنـــي بقبلاتهم المتطايرة . اما روزي المرضة ذات التسعة عشر ربيعا فقد بكت اكثر منهن جميعا وظلت تلوح بمنديلها المبلل لمدة طويلة .

كنا قد دبرنا ان نضع حدا لسوء استخدام مزرعة فروستي ، لكن مستعمرات المزرعة كانت لا تزال ضعيفة ، ولم يكن من المنتظر ان تتحسن ، لاننا بعد كل شيء لم نكن نتوقع أن تدلل مزارع الدولة مرضى العقول .

وعلى كل حال ، كانت التجربة ذات قيمة . ففي عامين أرسلنا سبعون مريضا الى المستعمرات ، وقام خمسون منهم بأداء عملهم بطريقة تبعث على الرضى (وعمل الباقون رغم كل شيء بشكل جيد في الجرانج) وكان اكثر من نصف المرضى الذين ارسلوا الى المزارع من الفصاميين ، وفشل من التسعة وثلاثون فصاميا تسعة فحسب ، بينما فشل كل الثمانين المصابين بالصرع . وهذا يؤكد ان الفصاميين الذين يعتبرون «منسحبين من العالم» يتصرفون بطريقة لا بأس بها في العالم ، بينما المصابين بالصرع الأدعياء الفشارون بإدعاءاتهم الفارغة ، في حاجة الى المزيد من الرعاية الدقيقة الاعمق مما يمكن ان تقدمه مزارع الدولة . وفيما يتعلق بالفصاميين التسعة لم يكن عملهم هو سبب المتاعب وإنما تدهورهم . فلقد فر بعض المرضى هاربين الى منازلهم واعلنوا ان في وسعهم العمل هناك . وتمرد البعض الآخر على الاجور الضعيفة (الواقع ان اغلب المتمردين كانوا من المرضى بالصرع) . ولقد أعيد بعضهم الى (الجرانج) حيث لا يهتم احد بهلاوسهم ويستطيعون العمل في سعادة . وكانت جولي ، المرأة السلوفاكية الجميلة ، هي الوحيدة التي اسفرت عن عدم صلاحية كاملة ، كانت شديدة الاختلال لدرجة تتطلب صبرا فوق طاقة البشر لحملها على العمل المفيد . ولم يكن الصبر الذي فوق طاقة البشر يمكن توقعه في مزارع الدولة ، فهذه ليست مهمتها .

لقد كانت مستعمرات المرضى داخل مزارع الدولة خطأ في المقام الاول . كانت الاحصائيات تبدو طيبة بالطبع ، فهنا سبعون مريضا ، وهناك خمسون مريضا ، وثمة ثلثمائة وستون مريضا ، ولكنها كانت فشلا ذريعا في الاساس . فما الذي حدث للمرضى الذين تم توزيعهم في طول البلاد وعرضها ؟ هل شعروا بالطمأنينة في هذه المزارع المهجورة حيث لا يعتني بهم احد وانما يهتمون بناتج عملهم فحسب ؟ ربما يبرزون في أعمال العزق والقلع ـ ولكن ما جدوى ذلك ؟ بدلا من النقود التي انفقت على هذه المزارع كان يكفي تخصيص مزرعة دولة واحدة للمرضى . ما أروع العمل الذي كان يمكن للخمسة وعشرين ممرضة أن يؤدينه في ظل هذه الظروف ، بدلا من رعايتهن للمرضى في عرض البلاد ، وقد تشتتت قواهن وافتقدن القيادة والرجوع الى المتخصصين ، ودون فرصة للتطور ! ان مستعمرة كهذه كانت كفيلة بأن تضم خمسمائة مريض عامل لا يستغلهم «الناس الأسوياء» وانما يشعرون بالطمأنينة يعملون ويعيشون لانفسهم ولبعضهم بعضا .

الفصل السادس

طلاء القفص بالذهب

واقبل الخريف وقد مضى عام على وصولنا المحفوف بالمغامرة .

تطلعت من النافذة الى زهور الجرانيوم والفوكاسيا من خلال الستائر التي تغطي النافذة ، والتي حصلنا عليها بعد صراع طويل كوفاء واهٍ من أسراب الذباب التي اتخذت من حظيرة الخنازير مستقرا لتوالدها ، فرأيت (الجرانج) ممتدة امامي، مزرعة تضم حوالي خمسة او ستة أفدنة . لم تعد ثمة صعوبات ، فلقد انتهى المرضى من التغلب عليها . ولقد تطلب هذا عملا شاقا . فتم حفر الارض لعمق يتراوح بين قدمين او ثلاثة ، حتى يمكن دفن الحصى والاحجار في القاع وإخراج التربة الغنية المنتجة الى السطح . ولقد كنت اتصور دائما ان الارض لا ينقصها سوى الحرث ، وان هذا يمكن ان يقوم به حصان او جرّار . لكنني علمت من البستاني انه ينبغي اولا تسويتها ، وان الرجال فقط ـ وليس الحيوان او الآلة ـ هم الذين يستطيعون القيام بذلك العمل .

ولحسن الحظ تم استكمال هذا العمل . وكنت اكرهه ، فلقد كان يذكرني بالسخرة . ومع هذا فقد بدا ان بعض المرضى يفضلونه . كان فالنتين أنديان مثلا يحفر بحماس ، ولم يكن الوحيد في ذلك . في ذلك الوقت لم أكن قد فهمت الا القليل من مبادىء العلاج بالعمل ، حصلت عليه من القراءة المكتبية ، ولكنني شعرت بشكل ما أن هذا العمل الممل لن يؤدي الغرض منه . كنت مقتنعا بأن

الارض يجب أن تقلب ، لكنني تناقشت كثيرا مع البستاني مؤكدا له انه يخلط بين العمل الاجباري وبين العلاج . اما اليوم فقد اكتسبت معرفة افضل ، يمكن للمرضى ان يقوموا بالحفر ايضا ما داموا يشعرون انهم يؤدون العمل لانفسهم .

والآن لم يعد ثمة المزيد من المصاعب . تمتد امامي الان عبر النافذة قطعة من الارض تمت تسويتها بطريقة تبعث على الرضى . وتم احاطة المسكن بغابة صغيرة من اشجار الاكاسيا وخندق ضيق من على الجانبين . وتحت النافذة مباشرة ثمة شريط من الارض البنية يمتد حتى اشجار الجوز . وكان هذا الشريط يحمل في حد ذاته دلالة خاصة . كان بستانينا معادٍ للزهور ، فهو يحب زراعة البطاطس والخضروات في اي مساحة متاحة ، حتى ولو تطلب الامر حرث الحديقة بأكملها. اما الان فتتناثر الزهور في الحديقة هنا وهناك ، وحتى في داخل العنبر قام قسم النجارة بعمل بعض الأصص ثم تثبيتها على جدران المسكن لتضم قلة من زهور الجيرانيوم المختلسة ـ ونقول قلة لان بستانينا كان يتمتع بملكة مدهشة تدفعه للتأكد من عدم تراكم اية زهور في الاحواض . فاذا حدث من قبيل الصدفة ان ظهر برعم كان يبادر بأخذه الى المدينة ليجمّل به المستشفى او ليبيعه .

ولكن على الرغم من هذا كان مسكننا جميلا ، فهو ابيض ناصع يضم نباتات خضراء ، موضوعة في الأصص وزينت هيلين انز جدرانه بالالوان المائية المليئة بالحيوية ـ وكف المرضى عن ضرب بعضهم بعضا فوق الرؤوس بأصص الزرع .

كان الشريط البني من الارض تحت نافذتنا يعني اننا ننوي السماح للعشب والزهر ان ينمو فيه ، لكن البستاني زرعه خسا . وبعد نقاش طويل قرر اخيرا الاستغناء عن الخس ووعدنا بالعشب الاخضر ، لكنه لم يجد الوقت لذلك ابدا . كان يجد الوقت الكافي لكل متر مربع من الافدنة الخمسة الا هذه القطعة . حتى مرض لحسن الحظ عدة ايام قليلة وذهب الى المستشفى ، فانتهز اولد ويندي الفرصة وكلف المرضى بعزق هذا الشريط وبذر بذور النجيل فيه املا في مكسب اضافي وكان اولد ويندي في الحقيقة عدواً للعلاج بالعمل ، لكنه كان أشد عداوة للبستاني ، لذلك اسعده ان يسبب له مضايقة صغيرة خاصة اذا حصل من جرائها على شيء اضافي .

كان شريط الارض بنيا الان لانه لم يعد مزروعا بالخس ، ولأن النجيل لم ينبت بعد كان يستغرق وقتا ، وربما لن ينبت على الاطلاق ، وعندئذ سوف يشعر البستاني بالرضا ايضا .

كانت احواض الخضروات تبدأ من خلف الشريط البني . وانا لسوء الحظ لا استطيع تسمية الخضروات . استطيع بالكاد ان احدد ايهما الكرنب وايهما الخس، لكن لم تكن لديّ ادنى فكرة عن الاشياء الصغيرة الخضراء الاخرى . ومن خلفها كانت تقف صفوف الفلفل الاخضر وقفة عسكرية ، ثم يأتي السبانخ ، ومن المحتمل ان تكون هذه المعلومات قديمة الان ويكون اللفت قد حل محل السبانخ . لا زال على البعد الخشخاش بأوراقه الملونة الظليلة وخلفه الفول ومساحة طويلة من

البطاطس، ثم القرع والشمام والخيار والبصل والطماطم وما لا تدريه ولا يعلمه الا الله من اصناف المزروعات التي ليس لديّ اي فكرة عن اسمائها . لكنني كنت أعرف جيدا كل اصبع انحنت لتزرع احواض الخضروات وتصل بها الى أغراضها .

***

دق الجرس معلنا الخامسة . لقد انتهى العمل . كان يبدأ في الثامنة صباحا وتقطعه فترة راحة من الثانية عشر ظهرا حتى الثانية مساء . كان المرضى يتناولون غذاءهم في الخامسة مساء ، وكانوا يتركون على سجيتهم بعد ذلك يصنعون ما يشاءون حتى موعد النوم .

كانوا لا يتعجلون . اريد ان اؤكد انهم لم يتعجلوا ابدا انتهاء العمل . كان الجرس يقرع منذ زمن طويل ولكنهم يظلون يعملون . كان المرضون يضطرون لاستخدام القوة مع الاكثر مثابرة منهم : هيا هيا .. تناول طعامك .. كف عن العزق . كان من المستحيل بدء توزيع الطعام قبل الخامسة والنصف . بعد ان يذهب المتأخرون لغسل أيديهم .

كان عدم التعجل هذا دليلا له مغزاه . كان يعني انهم لا يعملون تحت القهر وانما بدافع اللذة . لو اضطررت الى العزق او الزراعة فمن النادر أن انتظر حتى تنتهي الساعات السبع . ولم يكن المرضى على هذا النحو : كانو يظلون راغبين في انهاء هذا الكوم او زرع هذا الحوض .

وعندما نظرت من نافذتي بعد الساعة السادسة وجدت قلة من المرضى عادت للعمل في الحديقة . كان سانت جون يزرع شريطا عريضا رغم ان ما يعانيه من مرض باركنسون كان يعوق حركاته كفلاح خبير . وكان السيد اسيستانت يقف بالقرب منه . كان فيما مضى نقاشا موهوبا ، والآن هو مريض بالفصام مختل تماما ، ولكنه فلاح مثابر . استمر في لغوه وثرثرته عن الهند والبرتقال الدموي، ولكنه لم يكن شاذاً بحال اثناء عمله في الحديقة . كان يعرف تماما ما هو ممكن وما هو مستحيل وكيف يجب ان تصنع الاشياء . كان العم مايك ، المشلول العجوز يحصد هناك ايضا . وكانت روزي ماشت تروي الزهور (فالزهور تحتاج رغم كل شيء أن تروى حتى بعد انقضاء ساعات العمل) . كان جون يزرع الشتلات في صمت ، ويحفر العم فادينا ، موظف الجمرك الحزين ، في شرود شاعري ، وتقتلع يولاندا بليند العشب البري ، ويستخدم العم تابيه لغة الاشارة ليؤكد انه يرغب ان يستمر الحصاد (كان قادرا على الكلام لكنه لا يرغب فيه) ، وكان جوتاف يزرع الزهور تحت نافذتنا متوقعا «البقشيش» . وكانت هيلين انز قد شرعت لتوها في العزق بعد ان قضت اليوم كله تكتب على الآلة الكاتبة .

كان المرضون الان في فترة الراحة ما عدا المكلف بالوردية الاخيرة ، وكان مرضى القصر يسلئونه . كان البستاني في المدينة بينما يقوم أولد ويندي باصلاح

الرشاشة ـ لا احد يحرس المرضى ، لا احد يحثهم على العمل ، لا احد يراجعهم. كانوا يعملون فيما هو لهم ، ولانفسهم .

من الواجب ان اعترف انني لم اكن قد تحققت من هذا حين بدات تجربتي في (الجرانج) . لم اكن أعلم ان المرضى يحتاجون الى ما هو اكثر من مجرد «الانشغال» .. اي جعلهم يشغلون وقتهم بطريقة ما ، حتى يقل الوقت المتاح لجنونهم . كلا . **يجب ان نضع العمل بكل جوانبه بين أيديهم** . والمقصود بكل جوانبه هنا : أن نذكر لهم الغاية المقصودة منه . ان غاية العمل هي ان يعود على المجتمع الذي ينتمي اليه الفرد . كان المريض يعمل كأنه في منزله الخاص لنفسه وللاعضاء الآخرين في الجماعة . كان يرى ويفهم الغاية والنتائج (هذا هو السبب في ان محاولات البستاني لبيع المنتجات كانت خاطئة . كان المرضى لا يرون الا سيارة النقل وهي تحمل الفلفل الجميل بعيدا . ذلك الذي انتجوه بعرق الجبين، وتترك لهم النفاية . لم تكن الحقيقة التي مؤداها انه في مكان ما وفي بنك ما يضاف الى حسابنا كمية معينة من النقود تعني شيئا بالنسبة لي ، ناهيك عن المرضى) . ان «فرصة العمل» جملة بالية تماما ، واعتقد انها واحدة من اعظم الاكاذيب المقدسة . لا توجد فرصة بالعمل على هذا النحو . ان العلاج بالعمل يبدأ بغاية العمل ، وتنمية لمشاعر الانتماء ، ويكتمل مع وجود البيت .

كان من السهل نسبيا ان يعمل المرضى ذوي الاصول الفلاحية او البروليتارية. ذلك انهم تعودوا العمل منذ نعومة اظافرهم. ولكن ان يصمم فلاح فصامي شاب على التوجه الى الحديقة ، فيأخذ مجرفة ويعمل حتى حلول المساء فهذا ليس بعد علاجا بالعمل . انه لا يزيد عن كونه مجرد استخدام لجهده . ان هذه مجرد البداية ، فاذا لم نصل الى ما بعدها ، نكون قد قمنا بالقليل . ففي العلاج الناجح بالعمل يجب ان يستمتع المريض بعمله وحياته يبتهج بالعمل والحياة معنا ، ويتطلع ايضا للمتعة والراحة ، ويضع الخطط ، ويستقبل الزوار . فاذا كان يعاني في الوقت نفسه من الهلاوس والهذاءات ، فان هذا يغير من حقيقة نجاح العلاج بالعمل .

كان هذا هو الدرس الاساسي المستمد من العام الاول في (الجرانج) .

***

الاستمتاع بالحياة ـ كان هذا هو الهدف المتواضع الذي بدات أسعى من اجله . وكان في الواقع سهلا ممتنعا . كانت المشكلة ان المرضى يغلقون ابوابهم على انفسهم ويجدون انه من الصعوبة بمكان الاستمتاع بالحياة . **مات الجمال في داخلهم** ، هذا ما تعلمته من فتاة فصامية شابة .

كان درسا أحب ان اعرضه بكل ابعاده على كل من يهمهم الامر .

كانت هلجا في الخامسة والعشرين من عمرها تقريبا عندما التقيت بها ، كانت

نحيفة ، ذات جمال هش ، ووجه في بياض المرمر ، تتبدى عروقها الزرقاء من خلال بشرتها . وكثيرا ما ترفع أصابعها النحيفة الى حاجبيها القوطيين لتغطي في خجل النظرة الرقيقة في عينيها البنيتين . كانت طالبة في الفنون تعشق الادب. وكانت تحفظ أغلب الاشعار الجميلة عن ظهر قلب . واحيانا تكتب هي نفسها الشعر عرَضا . هكذا ، على سبيل المثال :

لم الواحد ؟ اليس الواحد هو الجوهر ...
لا شيء باق مما تراه عيون البشر .
الماضي قد توقف . والمستقبل قد مضى
والسر الآن – تكون او لا تكون .
لِمَ نعيش ؟ ولماذا نعيش ؟ الحياة لا تهتم
هل يهم اذا وقفت او جلست
فتحت او قفلت ؟ من الافضل الا تحلل
وجودك الخاص ، تقول الملحة الشائعة .

لقد قيل الكثير عن التشابه بين الشعراء والفلاسفة والسيكوباتيين خاصة منذ لامبروزو . ولا شك ان هذه الفتاة الشاحبة الجميلة تضم الثلاثة بين جوانحها. ومن خلال قصيدة صغيرة من مقطعين كهذه يمكن أن تستبصر شيئا عن الفصام وكذلك عن الميتافيزيقا . كل شيء كان واحدا – ولكن لماذا كان ؟ كل شيء يمضي ، اذن فالاشياء متشابهة – ولكن لماذا توجد اذن ؟ وهكذا نصل الى ان الفصامي يستغرقه الاحساس باللاشيئية ، لا يفتح ولا يقفل ، لا يجلس ولا يقف، لا يحاول حتى أن يحلل حالته او حالتها العقلية – ولماذا يفعل ؟

كانت اشعار هلجا كلها شديدة البساطة ، جيدة الكتابة . يحمل بعضها من الادلة ما يؤكد ان «فلسفة اللاشيئية» لم تستحوذ عليها كلية ، وأنها تحتفظ بعد برغبات وأحزان .

يا زهرتي المحطمة
يا ظلال ربيعي
يا حبي العذري
هذا ما يتغنى به المجانين المحتجزون خلف هذه الجدران .
استمع اليهم ، فأصرخ ويجلجل صوتي
استرخي ! استرخي ! وحلي عقد عذابك العقلي
وانتظري .
فلننتظر ، وننتظر وننتظر ! الا ترين فراش العرس الجميل
مرتفعا نحو السماء ؟

---

١ – مرض باركنسون Parkinson's disease (الشلل الاهتزازي) .

المصحة المغلقة هي موت الجمال
لأن الجمال يموت ويظل ميتا
حتى نكف عن ان نرويه
بالدموع وبفيض الحب .
دعنا نفك القيود
ونتخفف من الأربطة
ولنصهر بالنار
كل شيء ...
فلا يعود هناك هو
ويظل الغريب فقط .. انا .

ليس هناك ما يدعوني «لتحليل» هذه القصيدة الفصامية ، ما دامت المؤلفة تقرر في تعقل انه «من الافضل الا تحلل» . ان تفسير الشعر والتعليق عليه هو بالتأكيد واحد من أتعس الاشياء في العالم . من له عينان للبصر وأذنان للسمع سوف يفهم . ان جيوردانو برونو (1) الصغير الذي خبر بوضوح فلسفة «الواحد في الكل» يكشف لنا الكثير من سيكولوجية الفصاميين . ان رجل الشارع يعتقد ان المجنون لا يكون واعيا بجنونه . لكن هذا ليس صحيحا ـ كانت هلجا مدركة تماما انها فصامية . وكانت تتبين ان الفصام يعني التعارض القاتل بين أن تصبح متوحدة مع الكل وبين استحالة ذلك التوحد . عبثا يرتفع فراش الحب الجميل نحو السماء على حين يموت الجمال ، ويكف الحب عن ان يروي بالدموع وفيض الحب . ان ما يربطنا يجب ان يحل ، ويجب أن نصهر كل شيء حتى لا يحدث المزيد من التفرق ، المزيد من انا ، انت ، هو ، حتى لا يوجد واحد خارج نفسي ، لا احد غريب ! ولكن يجب أن نصبح جميعا واحدا .

كل كلمة كتبتها لأفسر قصيدة هلجا فارغة ومضيعة .

واليكم القصيدة التي استعرت منها كلمة «القفص الذهبي» :

مني انا الأم اليك يا بني
انا احمل قلبك في راحتي .
انه أحمر ودافيء حين ينقبض ويتمدد ..
يا طفلي أنا العزيز ، العزيز
لماذا علينا أن نفترق

---

1 ـ يشبه المؤلف افكار الفتاة الفصامية هلجا بأفكار الفيلسوف الايطالي جيور دانو برونو (1548 ـ 1600) الذي كان يعتقد ان لكل انسان وجهة نظر الى العالم خاصة به وأن الحق المطلق فوق ادراك الانسان وأن العالم مؤلف من عناصر أولية لا رابط بينها بل تعمل وفق قوانين يحكمها مبدأ كوني شامل أتهم بالزندقة وأحرق في البندقية . ـالمترجمـ

طفلي ، طفلي ـ يا صاحب القلب الأرجواني الجميل !
ذراعاي القويتان ترعيانك :
يا حب أمك ..
أمي ، أمي ... ماما
يا صغيري
هل يمكن أن تسمع صرخاتي ؟
أمك ترقص وتغني وتصرخ
بينما **القفص الذهبي** والبحر صامتان
أمك والمعاناة ـ كلانا الاثنين ـ
وضعونا في القفص الذهبي
والقوا بنا في الدوامة ..
وقلبك الأرجواني يا طفلي
يمكن أن يرقب ذلك من الخارج ، وتصرخ انت
انت ايضا تصرخ ، لكن عبثا تذهب صرخاتك
فأنت لا يمكن أن تدخل
فالقفص الذهبي بلا ابواب او نوافذ
وأيضا يا بني يا بني
بلا عيون او آذان
جامـد .
استحال جامدا .

ويستطيع المرء أن يتفلسف حول الرمزية والتكثيف والتعالي والتشخيصية والتقلص والخلط . كل هذا قد يكون صحيحا ، لكننا نواجه في الاساس بالقفص الذهبي الذي يحتوينا داخله ، بلا أبواب او نوافذ ، لا دخول ولا خروج ، كما كتبت في قصيدة أخرى .. فقط الخدر التدريجي . لقد أصبح القلب الأرجواني الجميل مخدرا ، مات الجمال . هل تفهمون ؟ أظن انني افهم . انها المؤسسة المغلقة . ليس عنبر مرضى العقول فحسب ولكن شيئا ما في خارجها وشيئا ما في داخلها ـ في داخل نفوسنا . ما الذي يمكن ان يتأتى من ذلك سوى فلسفة «لم نعش ؟ لماذا لا نعيش ؟ ان الحياة لا تهتم ....» .

الواقع ان المجانين يعيشون في قفص مزدوج : يقيمون بأنفسهم جزءا منه حول أرواحهم ، ويتكفل المجتمع بالآخر يحاصر به اجسادهم . وتعتبر ازالة قضبان القفص الذي أقاموه بأنفسهم اشد الامور صعوبة ، ان لم تكن مستحيلة. كما انه ليس من السهل ايضا ازالة الجدران التي يقيمها المجتمع ، وان كان الامل ليس مفقودا . فاذا صعب ازالتها فلا اقل من **طلائها بالذهب فهذا أفضل من لا شيء** على كل حال . هل في وسع المرء أن يقدم ما هو افضل من هذا ؟ اننا جميعا بشكل او آخر نعيش في اقفاص . وربما لا يعدو وَهم السعادة عن ان يكون الطلاء

الذهبي للقفص .

وهكذا أصبح طلاء القفص بالذهب هو غاية (الجرانج) .

لم يعد ثمة مجال للشك في أن قضبان القفص المزدوجة تعتمد بعضها على بعض ، فلقد حدث اكثر من مرة أنه حين رغب الفصامي في الحياة في القفص الذهبي ووجد في ذلك متعة ، بدات قضبان القفص الذي بناه بنفسه في الاهتزاز والضعف بل والانهيار أحيانا . كانت القضبان المزدوجة تختفي ، وتحلق الروح المتحررة منتصرة خارج القفص . كان ذلك يحدث نادرا ، ولكنه كان يحدث فعلا.

لم اكن اجرؤ على أن احلم بمثل هذا النجاح مع معظم المرضى . لكنني كنت اشعر بالرضى فيما لو عاشت كل طيوري الصغيرة راضية بقفصها الذهبي .

***

لا يخطر على بال احد ان طلاء القفص بالذهب كان امرا بالغ الصعوبة . ولا استطيع أن ازعم ان هذا يعني مجرد أن تكون شفوقا بالمرضى ، لكن هذا التأكيد هو بداية الامر ونهايته ايضا . وهكذا تبين حتى لهيئة التمريض انه من السهل ان يكونوا شفوقين بالمرضى عن أن يقسوا عليهم . وسرعان ما كان الواحد منهم يتبين انه يبتعد عن اصله اذا ما اخطأ هذه القاعدة الاساسية . وكان هذا من حسن حظنا ذلك اننا ما كنا لنصل الى مثل تلك النتائج السريعة مع هيئة التمريض بالنصح ، كما فعلنا عندما حللنا لهم الاسباب التي دعت احد المرضى الى «مهاجمتهم» . وكنا نصل في الاغلب الأعم الى أن الممرض كان وقحا او عدوانيا او مغرورا ، أزعج المريض او أهانه ، هدده او تجاهله . كان كل ذلك ضروريا حتى يفهم الممرضون انه لا يجب ان يشعروا بأن مكانتهم او كبرياءهم قد مست اذا ما خاطبهم مريض بوقاحة . وسرعان ما تبينوا ان الاهانة التي تصدر عن المريض ليست بإهانة ، وأنه ليس هناك ما يدعو للثورة اذا ما سبهم مريض منحرف المزاج. لقد كانوا يسبونني انا ايضا بين الحين والآخر ، وقد حاول الممرضون في البداية الانتقام لمثل تلك «الوقاحة» و«الإساءة الى السلطة» ، ولكنهم فهموا فيما بعد انه من الافضل للسلطة .. اي انا وهم ، ان نغير من مزاج المريض الثائر بالحيلة وتكسب قلبه بالسلوك العادل والصداقة .

ولم تكن معاملة المرضى كأصدقاء هي الفرشاة الوحيدة التي استخدمت في الطلاء . كان العمل جزءا ايضا وكذلك التسلية المنظمة التي استطعنا بفضلها ان نصل الى نتيجة مؤداها ان مكان العمل اصبح بمثابة المنزل . وكانت اكثر الامثلة دلالة على نجاح عملية «الطلاء» هي «العلاج السري بالصدمات الكهربائية .. احدى مبتكرات مؤسستنا .

كنا ، نحن ايضا ، نمارس «العلاج الايجابي» شأن اي مستشفى آخر للامراض العقلية . ومع هذا كان ثمة فارق . ان اهم انواع العلاج الايجابي ، اي

الصدمة الكهربائية ، التي تعتبر بمثابة الرعب للمرضى في اي مستشفى آخر ، كانت تتم عندنا سرا . كنا نقوم بها بطريقة خفية لا تجعل المريض يفلح ابدا في مجرد ملاحظتها .

ويستخدم العلاج بالصدمات الكهربائية (E.C.T) بنجاح في العالم اجمع منذ عام ١٩٣٨ ، وبشكل اساسي في علاج الفصام . لقد شفت الصدمة الكهربائية العديد من حالات الفصام المستفحلة ، وبعثت الهدوء في المرضى المهتاجين ، وأضفت الصفاء على العقول المختلطة . ولا يستطيع احد ان يماري في تأثيرها المفيد ، فهي تعتبر واحدا من اكثر اسلحة الطبيب العقلي قيمة . الا انها لا تثبت فاعليتها مع كل مريض ، فهناك بعض من لا تؤثر فيهم . وكانت مجموعة مرضانا تتكون من مثل هذه الحالات نظرا لان الحالات التي شفيت نتيجة العلاج بالصدمات الكهربائية كانت تستبعد . كان من يأتون الينا قد مروا بكافة وسائل العلاج الايجابي واخذوا كفايتهم من الصدمات الكهربائية . لقد سبق ان عذبتهم هذه الاداة المروعة لسنوات في المستشفيات العقلية المختلفة ، فتعلموا معنى الخوف من الموت اذا لم يكونوا قد خبروه من قبل . لذلك لم نكن نتوقع الكثير من استخدامها هنا ما دامت لم تؤت تأثيرها في الاماكن الاخرى . ليكن ، لقد آمنت ان هذه البيئة ، اي ظروف (الجرانج) ، قد تغير حتى نتائج العلاج الكهربائي ، تماما كما حدث بالنسبة لمرضى الصرع الذين قلت نوباتهم هنا ، رغم انهم يتعاطون العلاج الذي يقدم في اي مكان آخر ، بل وأصبحت تكفيهم جرعات أقل . كنت أنتظر معجزة ، ربما تشفي الصدمة الكهربائية نزلاء (الجرانج) بعد ان كانت عديمة التأثير فيهم من قبل .

لكنني اشفقت أن يعيش مرضاي في الرعب الذي يسببه الوعي بالصدمة الكهربائية . انه ليس العلاج في حد ذاته ، فهو لا يؤلم وليس حتى متعبا . ذلك ان المريض يفقد وعيه في نفس اللحظة التي يسري فيها التيار . ولكن حتى يتم ذلك ! كان الخوف والذعر يتبديان في عيني الضحية حالما تعان المرضة في الصباح اسماء الذين يتعين عليهم الامتناع عن الافطار لانهم سيتلقون علاجا كهربائيا . ولربما تنقضي الساعات ، وقد لا يتم العلاج الا عند الظهيرة حتى يتضور المرضى ببطون خاوية مشحونين بالقلق . اخيرا يتردد النداء المرعب : الى العلاج الكهربي. سريعا . ويدفع المرضى من هنا وهناك ، ويسحبون من أسرتهم ويقتادون كالاسرى الى المراحيض ، وتخلع احذيتهم ، ويمددون على المحفة ويمضي البعض بلا مبالاة ، ويقاوم البعض الآخر . وتحدث مناظر عنيفة وبائسة ، لكن ذلك كله عبثا فعدد الممرضين يفوق عدد المرضى وهم أقوى . ويصرخ بعض المرضى، ويصلي بعضهم بصوت مرتفع ، والبعض يودعون العالم الوداع الاخير . اتذكر امرأة كانوا يسحبونها من شعرها على طول الممر في كل مرة ، واخرى لا يمكن حملها الى الجهاز الا بواسطة اربعة من الممرضين . كان الذين يظلون صامتين وتبدو عليهم اللامبالاة ، يخافون شأنهم شأن الذين يحتجون بصوت مرتفع . وفي حجرة العلاج بالصدمة يشاهدون مريضا آخر يدفع به الى الجهاز ، ثم يوثق عن يمين وعن

شمال ثم يتشنج في صمت او يصرخ بصوت عال في تشنج صرعي . وعلى الاسرّة الاخرى يشاهدون المرضى الذين يشخرون وهم في غيبوبة . ثم يأتي دورهم : يتم وضع انبوبة من المطاط بين اسنانهم . وبعد ثواني الانتظار المرعبة ، يصـــل التيار ، وفيما بعد يستيقظون مترنحين من أثر التيار .

لقد قررت أن اخلّص (الجرانج) من هذا الرعب .

كانت الطريقة في منتهى البساطة كما أنها لم تكن من ابتكاري . ان **تمارس الصدمة الكهربية تحت تأثير التخدير** . ننوم المريض ولا نخبره بأنه سيتلقى الصدمة بعد ذلك .

كانت المشكلة الوحيدة أن مرضانا سبق لهم ان خبروا العديد من التجارب ولم يعد من السهل أن يمروا بخبرة اخرى . كان تنويم المريض من السهولة بمكان ولكنك سوف تثير شكوكه . يكفي أن تطالبه بالامتناع عن تناول الافطار كي تثير ريبته فيما ينتظره ، خاصة اذا ارسلته اولا الى دورة المياه ، وفككت له حزامه وبللت له صدغيه . ان مرأى العديد من المرضين يجعله يشك ، وكذلك خلع حذائه ، او ما شابه .

ولكن كان من الممكن الاستغناء عن كل هذا .

يتناول المريض افطاره ويتوجه للعمل دون أن يشك في شيء . في حوالـــي الساعة العاشرة يستدعيه الممرض الى العيادة ليأخذ حقنة . ويحضر المريض في حالة من الشك لكنه لا يجد شيئا مريبا ، لا يوجد ثمة جهاز كهربي ولا ممرضين مفتولي العضلات يحيطونه ، وليس عليه ان يخلع ملابسه او يتجرد من اية أشياء معدنية قد تكون في جيوبه ، او يضع الانبوبة المطاطية في فمه . كل ما كان يراه هو انني أمسك بالمحقن في يدي . بينما تطلب منه السيدة الاولى أن يستلقي ويمسك بذراعه . ويحقن بجرعة من الأفيبان Evipan . ان الأفيبان شيء مدهش . فبعد ثلاثة او اربعة سنتيمترات مكعبة يخلد الى النوم ، وفي الخامس يغط في نوم عميق . كان من النادر أن تزداد الجرعة . الان في وسعك أن تصنع ما تشاء ، يحضر المرضون ، ويزاح الغطاء عن الجهاز الكهربي المختفي ، وتكون هناك فسحة من الوقت لفك سترته وانتزاع الصناديق المعدنيـــة من الجيوب او الدبابيس من الشعر ، بينما أضع قطبي الجهاز فوق صدغيه ، ويحيط المرضون بالمريض ثم اضغط الزرار ويفتح المريض فمه على الفور ، فأدس انبوبة المطاط بين أسنانه في سرعة البرق ، ثم تبدأ التشنجات الصرعية .

كان ذلك بالطبع يتطلب وقتا وصبرا وما هو اكثر من ذلك . فعندما يبـــدأ المريض في الاستيقاظ بعد برهة من نومته المريحة ، في سرير بالحجرة المجاورة ، كان يجب أن يكون بجواره احد (الممرضة ايما اذ كانت إصلح من تقوم بالمهمة) ليباشره في لحظة الميلاد الجديد هذه . شخص تتوفر فيه الطيبة والرفق بالمريض ليسترده ثانية للحياة .

كانت تلك هي طريقتنا التي لم نحد عنها . ولم يتبين اي مريض بالجرانج ان

لدينا جهازا كهربائيا .

وحين كان زملائي يرون او يسمعون عن الطريقة التي تتبع في الجرانج ، كانوا يغمغمون ويقولون ان حدوث ذلك في الجرانج امر سهل لان لدينا فسحة من الوقت له ....

نعم ، كانت لدينا فسحة من الوقت لمثل هذه الاشياء ، كانت لدينا فسحة من الوقت ، فهذه مهمتنا . ما الذي يمكن ان يقوله الناس اذا استأصل الجرّاح في حجرة العمليات الزائدة الدودية بدون تخدير ، تحت دعوى انه لم يجد فسحة من الوقت ؟

ان هؤلاء الذين لا يجدون الوقت للتخدير لا يجب أن يصبحوا أطباء .

***

اجرينا تجربتنا الاولى على لويس جمبر . كان الفصام قد تمكن منه اثناء الحرب ، او اثناء اسره . ويشيع الاعتقاد بأن هؤلاء الناس «يجنون بتأثير المعاناة ومن الاسئلة التي لا تزال بلا اجابة هل يمكن أن يجن المرء من اي شيء ، وحتى الان فان النظرة الطبية تميل الى عدم الموافقة على ذلك . لقد قاسى ملايين البشر الآخرين من نفس هذه الويلات في الحرب ، فلماذا كان يجب ان يجن هؤلاء الاشخاص فحسب ؟ من الواضح أن هناك بعض الميل او الاستعداد متوفر فيهم . من الذي يستطيع ان يضمن انهم كانوا سيظلون اسوياء اذا لم يمروا بخبرة الحرب؟

يكفي أن نقول ان لويس جمبر عاد من الأسر في حالة اضطراب كامل . كان مشاغبا مشهورا في القسم الطبي الذي حوّل منه الينا . كان يتمتع بقوة مخيفة، يستطيع ثمانية اشخاص أن يتغلبوا عليه بصعوبة . (ان القول بأن قوة المجانين تزيد بمقدار عشر مرات خرافة عارية تماما من الصحة ، فقوتهم لا تعتمد على حالتهم العقلية) . لم تكن هناك ثمة ضرورة لامتحان قوة جمبر عندنا . كان يمضي يتسكع قلقا ، وقد ارتسم على وجهه تعبير غريب ، كما لو كان دائب التفكير : انني لا افهم . يوجد ثمة مرضى من نوع «انني لا افهم» لا يفهمون العالم ، لا يفهمون ماذا يفعلون فيه ، لا يفهمون انفسهم ، ولا لماذا وجدت الحياة اصلا . ولم يكونوا يتكلمون عن ذلك كثيرا ، لكن نظراتهم الحيرى او هزهم لرؤوسهم ، او مجرد نصف جملة كانت تفضحهم .

كان لويس جمبر من هذه الشاكلة . كان غالبا يجلس القرفصاء ، ثم يقفز بغتة جانبا او يستدير في خطوة جانبية مضحكة . وكان يخيف الناس بهذه القفزات ، وكان هذا بدوره يجعله يزداد خوفا فكان ينتحي جانبا في ارتباك .

كان يحب الممرضة إما كثيرا ويتبعها في اخلاص كلب صغير . وكان مستعدا من أجل خاطرها أن يذهب للعمل ، لكنه كان في الغالب يكتفي بالوقوف خلال ساعات العمل ـ يقف ويقف منحنيا في حزن على يد الجاروف ، محدقا امامه

بنظرة متحيرة متأملة .

ولقد عالجناه بالصدمات الكهربائية ستة مرات . كان قد سبق له تلقي المديد من صدمات العلاج بالكهرباء ، وبالتالي لم أكن أتوقع نتائج من الصدمة ولكنني كنت ارجو ان اقترب منه خلال حالة الغيبوبة التي تلي الصدمة العلاجية . وكان هذا ما حدث بالضبط . لقد كف عن وقفته المترددة ، وربما القلقة ايضا، وكف ايضا عن قفزاته الغريبة واصبح من الممكن الدخول معه في محادثة معقولة. ولقد اعدناه لمنزله تحت المراقبة وهو وضع يثير الكثير من التوتر في نفسه ، فقليلون هم الذين يمكنهم تحمل ضغوط البيئة المنزلية ، او يستطيع المنزل ان يتحملهم . وحدث هذا لصديقنا جمبر ايضا ، لم تستطع قريته ان تتحمل غرائب اطواره ، فذهب ليعمل في احدى مزارع الدولة . وهناك أصبح أقل قلقا ، وكف عن القفز ، وبدا كأنه وجد في الحياة الى حد ما ـ مؤقتا على الاقل .

كان جون تابيه يعمل بجد عدة اشهر ، ويتكلم في مرح ، ويشارك في الترفيه ، ثم يصمت فجأة ويتخلى عن فأسه ، ولا يذوق الطعام عدة أشهر الا بصعوبة . كان يجلس القرفصاء بعناد في احد الاركان ويرفض الكلام ، وكان احيانا يسعى الى الطبيب ويخبره بلغة الاشارة انه يريد تبغا . وكان يحمل كنزه الخفي في جراب سدادة زجاجة ، وبوصلة معطوبة ، وتتدلى من حزامه بعض الطواطم الاخرى .

وبعد اول صدمة علاجية ذهب الى الحديقة وطلب بلغة الاشارة ان يعطى فأسا وبدأ يعمل . وبعد الصدمة الثانية تناول وجبة طيبة دون أن يحثه احد وبعد الصدمة الثالثة بدأ الكلام .

لا يمكن الزعم بأنه شفي على اي حال . لكنه انتشل من اعماق الجنون الى مستوى تصبح الحياة فيه محتملة .

لقد ظل جون تابيه مجنونا ، لكنه خلال النهار كان يعيش شأن بقية اهل قريته . وفي المساء كان يلعب الدومينو بل ويرقص . واستطاع هذا الاخرس السابق أن يرتجل محاضرة في فن ذبح الخنازير . ويمكن الظن بأنه لم يعد يعاني بنفس القدر الذي عاناه حين حكم على نفسه بالبكم والاضراب عن الطعام .

ولقد نجحنا ايضا في تحسين حالة هيلين اينز الرسامة وعاملة الآلة الكاتبة. كانت قد وصلت الى مستشفى الامراض العقلية من أكاديمية الفنون الجميلة ، وقدمت نفسها بفخر باعتبارها طالبة فنون . كان عملها على الآلة الكاتبة لا يقاس بثمن ولا زالت لوحاتها تزين مقرّنا . تمثل مرضها في فكرة متسلطة عليها : ان الرجال «يطاردونها» ويغمزون لها بوقاحة او يدفعنها عن عمد . في مثل هذه المناسبات كانت تهاجم الرجل البريء فتصفعه او تركله . وحين تنشب المعركة الضارية ، تصر بعنف على موقفها ولا تعترف بأنها هي التي بدأتها . كانت قد حوّلت الى مستشفى الامراض العقلية اول مرة عقب أن صفعت احد محصلي الترام ، والركاب الذين تدخلوا ، ورجل الشرطة .

وربما لم يكن نزوعها للشجار واضحا في المستشفيات الاخرى ، لكنها كانت النزيلة العنيفة الوحيدة عندنا . كان يحدث أن يتشاجر الآخرون احيانا ايضا ، لكنهم على الاقل كانوا يتشاجرون قبل أن ينشبوا اظافرهم في اعناق بعضهم البعض . اما هيلين فقد كانت تهاجم بغتة وعلى غير توقع . ونال المرضون ايضا من صفعاتها . كان هذاؤها هو سبب هذه الهجمات ـ أفكارها المرجعية اي ان تعتقد أن النظرات البريئة ، والكلمات والافعال التي لا علاقة لها بها تتضمن تعريضا بها .

كان في مقدورها ايضا ان تبدو جذابة جدا ، ومع هذا تظل متحفظة وغريبة الاطوار ، وصعبة الارضاء ومتكبرة . وبعد ستة اشهر من التعارف على زميلتها في الغرفة كانت تشير اليها بقولها «تلك المرأة» ـ كانت تعتبر أن تذكر اسم اي شخص لا يليق بعظمتها .

وحين بدأ العلاج بالصدمات الكهربائية ، كانت في حالة سيئة للغاية . فالى جانب الشجار كانت عدائية بشكل عام ، تهز راسها كل خمسة عشر ثانية ، لا تلحظ ما حولها الا لماما ، وتنسى كل شيء وتردد كلمات غامضة عن الاشعاع . كانت خمسة جلسات علاج بالصدمة كافية لتحسين حالة هيلين . فعادت عطوفة ومجدة ، فأخذت ترسم ، وتكتب على الآلة الكاتبة ، تفلح الحديقة ، وكفت عن الشجار والإيماء براسها والحديث عن الاشعاع . ولقد علمنا من والدها كيف كانت تخشى في الماضي العلاج بالصدمات الكهربائية . ولقد تحقق لأسلوبنا النصر حين سألتنا ذات صباح وهي مبتهجة عما اذا كانت ستتلقى علاجا اليوم .

ان هيلين عادت الان الى منزلها منذ عامين . وهي ترعى شئون منزل والدها، ولم تتشاجر بعد مع احد .

أما نجاحنا الباهر فقد تم مع ايرنست دوبل . كان هذا الشاب النحيف يعاني الفصام منذ سنوات . وحين وصل الى الجرانج أجاب على اسئلتنا بجمل شاردة خلو من المعنى ، ثم امتنع فيما بعد عن الكلام كلية . كان يتمشى جيئة وذهابا ولا ينقطع عن التدخين . وكان من المستحيل جذبه الى اي نشاط اجتماعي . كان يستمع الى الاسئلة متأدبا ، ثم يكتفي فحسب بقوله «حسنا . .» ويمضي مبتعدا.

وكان هو صاحب القول الذي لا ينسى «العلاج بالصدمات الكهربائية ؟ انها شبيهة بأن يلقي بك من الدور الرابع» .

وقد وفّرت عليه حقنة الأفيبان هذا .

وبعد الصدمة العلاجية الاولى بدأ ينظر الينا نظرات تنم عن الصداقة ، وبعد الثانية بدأ يحيي كل مخلوق ويتخاطب مع المرضين . وبعد الثالثة اصبح من السهل ادارة حديث طويل معه . وتبين انه خلال فترة الصمت الاجباري كان يرقب بدقة كل ما كان يدور حوله .

وبعد الرابعة هرب .

غادرنا في الثامنة من مساء ليلة مطيرة . وبخطواته الطويلة حث السير طيلة الليل وطيلة اليوم التالي . ولقد طالبه رجال الشرطة بإبراز أوراقه ، فتصرف

بطريقة طبيعية لدرجة انهم سمحوا له بالاستمرار في طريقة دون اي ارتياب . كانت تمطر باستمرار . وفي الليلة الثانية وصل في وقت متاخر الى مدينة على مبعدة مائةميل عنا . وهناك تمكن من اقناع احد السائقين أن يحمله الى بودابست. وبعد منتصف الليل كان يقرع نافذة امه . وظل في منزله منذ ذلك الحين . لم يكن قد شفي ، ولكنه يأتي من التصرفات الطبيعية ما يتلاءم وبقائه بالمنزل .

ولقد عاد القيصر بطرس العاشر ايضا الى منزله عقب العلاج الكهربائي واستأنف دراسته بالمدرسة . كان قد اعتاد الزعم بأنه ستالين او القيصر بطرس على التوالي . وهاجم والده أمام أعيننا وفي هذيانه اعتلى نافذة والقى خطبة مشوشة . ولم يقتصر علاجه على الصدمات الكهربية فحسب ولكنها كانت تشكل جانبا هاما من «العلاج البيئي» الشامل . ويصدق هذا على الآخرين الذين تلقوا جميعا عددا كبيرا من العلاجات الكهربائية قبل أن يأتوا الينا . ويبدو انه حتى التيار الكهربائي يصبح اكثر فاعلية اذا استخدم برفق .

ولكن كان على التجربة ان تجد ما يعوقها . فبعد اشهر قليلة فسد الجهاز الكهربائي بغتة ولم يعد قابلا للعمل . وتطلب الامر ستة اشهر من البرقيات والمكالمات التليفونية والخطابات ، وتدخل الآباء الحزانى والمكاتبات الرسمية والمطالبات على يد محامي بتوفير أحد المهندسين لاصلاحه . كان يجب ان نقدم صدمة كهربائية علاجية من اجل هذا التأخير ـ وبدون مخدر .

الفصل السابع

طلاء بلا جدوى

في الشتاء التالي لم يعد المرضى يعذبون بفرز البازلاء ، وحصلنا رغم مؤامرات امين المخزن على قدر كاف من فروع الصفصاف وألياف الرانيا لنبدأ في صناعة السلال .

ولم يكن في مثل هذا النوع من العلاج بالعمل ايضا ما يدعو الى الفخر ؛ لقد ادرك الجميع اننا نزاوله لقطع الوقت فحسب . كان الحماس مفتقدا . ولكنني اصبح لديّ ما يكفيني من الخبرة كي اتحاشى الزعم بأن صناعة السلال لا تناسب العلاج بالعمل . الأهم من ذلك أن نكتشف أسلوبا مناسبا . فلو اننا اديناه باعتباره مجرد عمل جانبي ، فسوف يكتشف كل واحد منا أننا سنظل نرفق النوافذ في تأهب طيلة فترة صناعة السلال ، في انتظار متى نستطيع الاندفاع صوب المزرعة، وعندئذ لن يشعر المرضى بالطبع بأية لذة في عملهم الخلاق .

وفي وحشة الشتاء كانت مشكلة المثقفين تبدو اشد ازعاجا عنها في بقية الفصول حين يكون في وسعهم أن يجدوا عملا ويغيبوا عن الانظار . اما الان فهم يتسكعون في الممرات ، وفجأة تبينا انه ليس في وسعنا أن نساعدهم .

صحيح ، كان بعض من هم اكثر تعقلا يرغبون في تأدية الاعمال الجسمانية. كانت هيلين اينز الرسامة تجد نفس السعادة في الكتابة على الآلة الكاتبة او العمل في الحقول . ولقد حدث في بعض الاحيان أن اقتصر عمل جون على المزرعة شأنه في ذلك شأن اوجست بينتر ، بينما كان لويس صاحب المهن المتعددة سعيدا في

حانوت الحدادة على الرغم من درجته الجامعية . لكن بعضهم ظل ينظر الينا في لوم وكأنهم يقولون : سوف نعمل اذا قدمتم لنا عملا مناسبا . واكتفى البعض الآخر بمجرد التسكع فحسب .

كانت اكثر حالات هؤلاء المتسكعين لفتا للنظر هي حالة الشاعر الذي كان يعتبر نفسه اكثر الرجال انشغالا في المؤسسة رغم انه في الحقيقة لم يكن يعمل.

نعم . لقد كان للجرانج شاعرها الخاص . كنا نفخر به ، ونشجعه، ونخصه بكل انواع الامتيازات . كان شاعرا حقيقيا وليس مجرد ناظم من هؤلاء الذين يوجدون بكثرة في كل مؤسسة ، والذين يصعب التخلص منهم حين يحاصرونك بأشعارهم الهزيلة الطويلة التي تدعو للرثاء . كان لدينا ايضا ثلاثة او اربعة من هؤلاء الناظمين ، لكننا لم نعتبر ذلك شرفا كبيرا . ولكن ان نضم بين ظهرانينا شاعرا حقيقيا فهذا امر مختلف .

كان من عائلة ايجليت . وكان يعزو شهرته وكذلك عقدة النقص لديه الى موهبة والده . ان شهرة الاب لا تؤدي بالضرورة الى الانهيار العقلي ، فبينما نشأ شاعرنا هزيلا وسيكوباتيا في ظل موهبة والده ، اصبح اخاه الاصغر كاتبا ذائع الصيت يحمل نفس الاسم .

وحين زارني الشاعر للمرة الاولى في شقتي بالجرانج ، اخذ يحدق في مكتبتنا بذهن شارد . «هذه هي كتب والدك» اشرت الى الرف حيث تستقر مجلدات والده العشرة ، فلم يقل شيئا وانما اكتفى بالتحديق في الفضاء بارتباك. فلم اترك الامر عند هذا الحد لكنني استخرجت كتابا وعرضت عليه صورة والده. نظر اليها في نصف ابتسامة مغتصبة وظل صامتا . كنا نلتقي كل صباح فنتكلم في الادب وشتى المواضيع الاخرى ــ ولكن ابدا ليس عن والده . مرة وحيدة ، كان ذلك وهو في حالة عقلية شديدة الضعف وكان يعالج بحقنة لتهدئته ، عندما صرخ قائلا رغما عنه «كان والدي رجلا بسيطا يستطيع ان يكتب ولا شيء اكثر من ذلك ، وماذا في ذلك ، الآخرون قادرون على الكتابة ايضا ، اي انسان تقريبا يستطيع ان يكتب ، لقد ظللت اعذب طيلة حياتي لأن والدي عبقري . حسنا ، دعوني أقرر لكم الان ــ انه لم يكن عبقريا» .

حين وصل الشاعر الى الجرانج لاول مرة تجددت بيننا صداقة نشأت منذ حقبتين من الزمن . فقد اشتركنا معا في اصدار مجلة ادبية حين كنا في المدرسة الثانوية . وفتحت الذكرى المشتركة قلب الشاعر بصورة ما فأشركني في اسراره . وفي اليوم التالي روى لي ما يلي «انني مريض .. مريض جدا .. انني عاجز تماما ، فلدي مرض القلب . واشكو من مرض آخر ايضا . ولكن هذا قد انتهى . انني اسميه تقلص الشيطان ، وهو مرض خبيث جدا . هناك امراض طيبة واخرى خبيثة كما تعرف . مرض القلب مرض طيب ، اما تقلص الشيطان فهو مرض خبيث . واعتقد ان في وسع المرء ان يطلق عليه هذا الاسم ، ما دام هناك إله وشيطان ، حين يصيب الشيطان شخصا بالقلق الداخلي فهذا هو

التقلص الشيطان ، ويمكن ان تسمى عقدة بلغة الطب . البعض يشفى من هذه العقد في شبابه ، لكن عقدتي باقية . وطالما يحتل الشيطان روحي فليس في وسعي أن ابدع او احب او اعيش بحرية . من الضروري اذن أن اتحرر من سلطان الشيطان فما دام يستبقي المرء في نطاق سيطرته ، لا يعد في وسع المرء ان يمارس الخير ولا ان يبدع شيئا ذا قيمة . هذا هو السبب في أن كل ما أكتبه يبدو مشوشا وخانعا وسيئا . لقد استمرت هذه العقدة معي ثمانية وثلاثون عاما . انه زمن طويل ، وهي تعذبني . لكنني حر الان ، لقد اختفت العقدة ، وسوف احب الحياة ، وسوف اكتب اشعارا جميلة . انا شاعر عظيم ، استطيع أن اقول دون مبالغة ، انا شاعر عظيم . سوف اكتب الشعر والرواية . ليست اي رواية ، وانما مؤلف حقيقي عظيم عن الحب والحزن والحياة . سوف تكون رواية قوية. قل للناس انا شاعر عظيم يكتب الشعر والرواية . قل لهم انني شاعر عظيم ....»

واستمر يتكلم ويتكلم ، وذرف الدموع على الاعوام الثمانية والثلاثون التي ضيعها في قبضة الشيطان . ولم يكن باعثا على السخرية اطلاقا ، اذا نحينا جانبا انه يعتبر نفسه شاعرا عظيما .. كانت صراحته امرا طيبا ، وفي النهاية مَن من الشعراء لا يعتبر نفسه شاعرا عظيما ؟

ولم أستطع أن ألبي رغبته لانني كنت قد تأكدت من انه ليس في وسعه أن يذهب الى اي مكان . كان الشاعر لا يصلح للعيش في الحياة الطبيعية .

كان ينفق يومه في مجرد الوقوف لا يلوي على شيء . وقد يسمي المرء ذلك تأملا من قبيل التأدب ، ولكنه لم يكن كذلك . كان يقف عددا لا نهاية له من الساعات الى جانب فراشه او في ركن مظلم من الممر ولا يصنع شيئا . ثم يأخذ لفة من ورق التواليت فيستخدمها في مسح فراشه وملابسه وقلمه ، بل حتى الاوراق التي يكتب فيها . كان يظل يغتسل لساعات وهو في كامل ثيابه ، بل وفوقها المعطف اثناء الشتاء . وكان يرش الماء على ملابسه في عناية من يؤدي طقسا كان يستغرق تسعين دقيقة ليرتب سريره قبل ان ينام فيه وكان يتأخر عن موعد الوجبات وكلمة «يتأخر» ليست في الحقيقة التعبير الصحيح . ونظرا لانه كان لا يذهب لتناول الافطار . فقد كان يصله في سريره ، لكنه كان لا يلمسه لساعات . ينزل لتناول الغداء لانه لم يستعد ذهنيا بعد . ولقد كان المرضون يحبونه لحسن الحظ ولذلك كانوا يبعثون الغداء الى حجرته او يستبقونه له في صالة الطعام ، فكان يأكله باردا في وقت متأخر بعد الظهر ، في الوقت الذي ينفق وقته واقفا الى جوار سريره فحسب ، فاذا سألته عما يفعل كان يجيب اجابة دقيقة قائلا «انني مشغول» .

اذن لم يكن قد تخلص من عقدته بعد .

او من تقلص الشيطان ايضا .

ولقد شاهدت تقلص الشيطان عدة مرات . كان ينطلق مهتاجا رافعا يديه في الهواء وقد ثار شعره وكست وجهه تعابير مخيفة ، يقفز هنا وهناك كالعنزة .

وكان ذلك هو النوع غير المؤذي من تقلص الشيطان . لكنه في بعض الاحيان كان يؤذي نفسه ويضرب رأسه في الجدران . وذات مرة أصاب صدغيه اصابة بالغة لدرجة انها ظلت زرقاء عدة اسابيع ..

ورغم انه كان مشغولا جدا ، فقد كان يجد في البداية وقتا لكتابة الشعر . كان ينتج بصعوبة شديدة ، ويظل يدير القصيدة فــي عقله لاسابيع حتى يستكملها في حرص ويعتبرها صالحة بما فيه الكفاية للكتابة . وعندئذ يتعين على كل ايقاع وكل كلمة وكل فصلة ان تكون في مكانها الصحيح .

وكانت هذه قصيدته الاولى :

في الربيع

في اشعة شمس الربيع الساطعة
تسير الهوينا وحيدة خجولة ..
انها الفتاة التي سأحبها بإعزاز
كما تحب الظلمة النور . في السماء
الأكمات والاشجار تصدر حفيفها في الريح الثائرة
والفروع تنحني وتنقضم . ليلة عاصفة في الربيع
الابواب تصطفق والنوافذ تكاد تطير مجنونة
لقد ثارت الرياح بعنف .
انها تمطر الآن وقد تتحول الى سيل
وسيشتد السيل حينما يأتي المساء
ايتها اللانهاية القاسية الشاملة الدائمة
أيتها الموسيقى المتكسرة للأرواح الهائمة .

هذه قصيدة مليئة بالأمل ، على الرغم من أن النهاية ذات نغمة كئيبة الى حد ما بما فيها من قطرات المطر المستمرة التي تذوب التماعة الامل في الحــزن اللانهائي . هل ثمة فتاة سوف يحبها شاعرنا في يوم ما كما يحب الظلام الضياء، ان شيئا ما يحدث في هذه القصيدة . صحيح انه بأسلوب مشتت ومجازي ـ ولكنها تظل تعبر عن ليلة ربيعية عاصفة .

ولقد تلقينا باكورة الانتاج بفرح غامر كما لو ان ريح الربيع قد ازاحت الكآبة عن الجرانج وادخلت الحياة . كان المرضون ينصتون في اعجاب خالص . كانوا قد أحبوا الشاعر من سمعة والده ـ الذي القيت عنه محاضرة ذات مساء حتى يصبح في وسع الذين لا يقبلون على الادب ان يقدروه ـ ووافقوا بسرور على الا يشترك الشاعر في جمع البطاطس حين يكون مشغولا في قرض الشعر . وأصبح لهذا السرور الان اساس واقعي ـ لقد كتب الشاعر قصيدة فعلا «لقد صاغهــا

بمهارة» ، كان هذا هو تعليق الراي العام .

ويجب أن نعترف انها جيدة الصياغة . كانت القصيدة جميلة ، وخالية من الفصام ، فهي خالية من «التكثيف» و«القصور الذاتي» و«الرمزية» او اي شيء من هذا القبيل . كانت سوداوية بلا شك ، لكن هذا رغم كل شيء امر يمكن تبريره بالنسبة لشاعر شرع الان فحسب في التعرف على فتاة شابة بعد أن أعاقه تقلص الشيطان عن الحب حتى الان .

وكانت هذه الفتاة الخجولة شخصية متكررة ومحببة في كل قصائده . كانت شخصية خيالية من القرن التاسع عشر . ذلك النوع من العوانس الصغيرات اللاتي يخفين خلف مظهرهن الرزين مشاعرا عميقة ولقد اتضح ذلك من خلال الرواية . لقد شرع شاعرنا فعلا في كتابة قصة تصور هذا الضرب من الشابات وفرسان القرن التاسع عشر المدهشين . ما هو موضوع الرواية ؟ لم يكن من السهل التيقن من ذلك تماما . لقد قال الشاعر انها عن الحياة ، التي تعني الحب ، الذي يعني الحزن ففي قائمة مفرداته كانت هذه الكلمات الثلاث ذات مدلول واحد .

كانت القصة جميلة . وكانت فصولها القصيرة غير المرتبطة ببعضها او التي يربطها رباط واهٍ مكتوبة بعناية كأنها قصائد . كان يتم وزن كل كلمة كالذهب ، وتختار بدقة وتعبر عن عاطفة عميقة . كان جو الاحداث اغنى من البناء . واللون اغنى من الوقائع . كانت أفكارها من النوع الشائع ولكنه عميق . اما اكثر السمات الملحوظة في هذه الرواية فهي انها مسطحة تماما ، وكان من المدهش أن القصة على الرغم من انها لا تقول شيئا على الاطلاق فانها تمس وترا عند القارىء .

وذات يوم اختفى مخطوط الرواية . واعلن الشاعر عن فقده في يأس . وبحثنا عنه في أشيائه ، وحجرته ، وفي داخل المستشفى . وحتى في الحديقة والحُفر المحيطة ـ لقد اختفى دون ان يترك اثرا . وسرعان ما تقبل الشاعر ضياعه بطريقة تدعو للغرابة ، ولم يفكر قط في اعادة كتابتها . لم يكن ثمة ادنى شك في انه اتلف المخطوط . لقد تدهورت حالته ، ولم يعرف كيف يستمر وبهذه الطريقة تخلص من اعبائه . كنت اشد منه أسفا . كان جو القصة قد استهواني ، وكذلك العبير الطريف الناطق بروح نهاية القرن الذي كان يتخللها .

ولقد حدث ذلك كله في فترة متأخرة . اما في البداية فقد أتبع قصيدة «في الربيع» بقصائد اخرى ـ واحدة كل شهرين : الحزن ، الفقدان ، خيالات الايام الخوالي ، الوهم ، الإهانات المؤلمة ، اغنية حزينة . وربما كان هذا العنوان اكثر العناوين تعبيرا : الارواح القديمة تعبر المنزل المعتم . وحتى قصائده التي كانت تحمل عناوين اقل اسى كانت مليئة بالمواطف الداكنة :

الظباء

إنفراجة في السماء ، حيث السحب الداكنة الغريبة .

تتدلى من السماوات المحمومة
زهور الحزن الدموية الحمراء العملاقة
ترقبها العيون الطافحة بالأسرار
الظباء الصغيرة تعدو في صمت
وقلوبها تغني اغاني مشرقة للنهار
عن احلامها الصغيرة ، بينما الارض الزرقاء
لا تتوعدها الا بالموت والفناء .

وعلى الرغم من أن بعض العبارات يشوبها قدر من التصنع ، الا انها بالتأكيد ليست قصيدة فصامية مثل تلك التي كتبتها هلجا عن القفص المطلي بالذهب . ففي القصيدة الفصامية يرى الشاعر نفسه من الخارج ومن الداخل في آن واحد ، وربما من ارتفاع لا نهائي ايضا . «لقد اندحرت ولكنني لا اجد احدا استسلم له». هذه هي فلسفة الشاعر الفصامي «يختلف الانسان عن الحيوان في انه يحمل العدم في داخله» . وكان شاعرنا يحمل الاحزان في داخله ، او ربما كان غارقا فيها حتى أذنيه ، ولذلك كتب :

الحزن

قطرات المطر المتساقطة تقرع الليلة كطبول زنجية
وفتاة حزينة تختلس النظر عبر المدخل الزجاجي ثم تختفي
في الظلام ... سوف يحل الحزن غدا هنا .
الكلمات البالية لا تستطيع أن تعبر عن هذا الحزن الغريب الجارف .
فالحديقة تبكي . الأكمات والاشجار تبكي
السلم وعتبات الابواب مغطاة بالدموع وتتنهد
محاطة ببحر عميق من الأوحال .. اصيخوا السمع
ما أمر ما يبكيان ... الفتاة والحديقة ...

هنا يستطيع المرء أن يتبين على الاقل فتاة مكتئبة وحديقة مكتئبة مليئة بالدموع والوحل . ولكنه فيما بعد كتب عن نفسه فقط باعتباره امير الحزن واليأس .

في الحداد

هل أنا الصياد العجوز ـ أم ربما البحر ؟
او لعلني سوار قديمة وجدوه في خزانة

مفتاحها قد ضاع ؟ يا للظلام والحلم الغريب !
هل انا حزن كئيب ، كامن ومرعب
يظن انه يرقد في اعماق حمأة الوحل البارد ؟
بئر مهجور في الحديقة .

يوما إثر يوم انا ، امير الحزن المسكين اكتفي بالتمرغ
في النواح القاسي الناعم ، بينما الدقائق الفارغة
تشكل جسرا يعبرني
يا أيها الشفق الاحمر الدموي والفجر العاصف الموحش
لقد جعلتني اعول وائن .. فأنا رهينة
في قبضات اليأس .

كان يبدو كما لو كان الشاعر يستمتع بالتمرغ في «النواح القاسي» لقد عاش في «اعماق حمأة الوحل البارد» كأنه «الحزن الكئيب» مشخصا . ولكن لماذا ؟ هل كان حزينا حقا كان يعيش لا في حمأة الوحل البارد ، بل في قلعة باثياني ، في حجرة خاصة ، محاطا بالخدم الذين افسدوه ، كانوا يعدّون حمّامه ، ويسعون خلفه بطعامه ، ويشذبون اظافره ، ويغسلون ملابسه . لماذا العويل اذن بغض النظر عما يفكر فيه ؟ كان يتلقى معاشا صغيرا من الدولة ، يبدو ضخما بالنسبة لمصروفاته الضئيلة ، وكان في مقدوره ايضا ان يبتاع ملابس جديدة لولا شحه البالغ . ولقد طبعت مؤلفات والده الواحد تلو الآخر ، وكان يتم اضافة عائدها الى حسابه في البنك ، ولكن هذا لم يكن يمس وإلا فما مصير احزان الشاعر ؟

ما الذي كان ينتظره ؟ ما هو ذلك الشيء الذي لم يستطع أن يوفره له القصر او المال ؟

إنشاد اغاني بعض كبار المنشدين العظماء
وسط السيدات الشابات والسادة الشبان
وكتابة الشعر وقت الغروب في الحديقة .

وربما كتب الشعر بطريقة أفضل وسط الاشجار وقت الغروب ، ولكنه بدلا من ذلك كان لا يبارح جانب فراشه ، مزيلا الميكروبات من على بطانيته بأوراق التواليت ، ويحن لبودابست حيث يستطيع أن يعيش منفردا وسعيدا «في حجرة صغيرة هادئة» في عزلة عن العلم ، تلائم شاعرا يحن الى الماضي . وأصبحت الحجرة الصغيرة الهادئة في بودابست بمثابة فكرة متسلطة ، كان من المؤكد انه سوف يتضور جوعا هناك حتى الموت في ظرف اسبوع او ربما تغرقه ضوضاء المدينة في الذهول ولكنه كان يجب أن يلقي اصدقائه الشعراء في المقهى احيانا ، ويتبادل معهم كلمات قلائل ، ثم يخرج للتجول بين مباني المدينة القديمة .

وارسلناه الى بودابست في اجازة بضعة ايام على امل ان يؤدي ذلك الى ان يستعيد اتزانه لكنه لم يستعد اتزانه . لقد اقام مع اخيه منفقا ايامه كما كان يفعل في الجرانج بالضبط . لم يكن يستيقظ في الصباح ولا يظهر على الغذاء لانه

«مشغول» ولم يغادر الشقة لمدة اسبوع . وفي صباح احد الايام خرج ، وحتى الساعة الخامسة كان لا يزال واقفا عند محطة الترام ، وعندئذ رافقه اخوه الى المنزل . لم يذهب الى المقهى ، لم يلتق بأي صديق ـ كان في الحقيقة بلا اصدقاء . ثم عاد الينا واستأنف احلامه حول الحجرة الصغيرة الهادئة في بودابست .

كان غير واقعي بالمرة ، بل وفضلا عن ذلك كان غير اهل للحياة .

ورغم هذا كان في مقدوره ان يكون عدوانيا . قد يظن المرء أن مثل هذا المريض يتوهم المرض المثير للرثاء . مثل هذا المنشد امير الحزن مجرد حالم شاعري مليء بالوداعة والرقة . ولكن لم تكن تلك هي حالته . كان رقيقا هادئا ناعم الحديث ، مؤثرا ، لكنه اذا اراد شيئا حقا ، فلم يكن في وسع اي قوة على الارض أن توقفه . كان لا يصل الى مستوى الرغبة في شيء الا نادرا لانه كان من الصعب عليه أن يتخذ قرارا ، ولكنه اذا حدث واتخذ قرارا فلا يمكن ان ينثني عنه .

«نعم ، يا سيدتي ، انا ذاهب الى القرية . انا ذاهب لشراء قليل من الطعام. ليس كثيرا ، مجرد مئونة قليلة . ربما بعض الجبن وبسكويت ، اربع اوقيات من البسكويت . ما رايك يا سيدتي ، هل اشتري قطعة من الجبن أم قطعتين ؟ هل تعتقدين انهما يجب ان يكونا اثنين على الاقل ؟ ربما تكفي واحدة .. أم هل يجب أن ابتاع اثنين ؟ فعلا ، يجب أن يكون عندي احتياطي بسيط ، انا لا أعرف في الواقع ، ومع ذلك ، قطعة صغيرة من الجبن تكفي يا سيدتي العزيزة ، لا أريد ان انفق الكثير من النقود ....»

«ولكنها تمطر .. هل تريد الذهاب الى القرية الان ؟ والوقت متأخر ايضا ، لقد حل الظلام» .

«أهي تمطر ؟ فعلا ، ارى انها تمطر قليلا . لا يهم اذا ابتللت قليلا . هل تعتقدين يا سيدتي انني لن أرجع الى المنزل قبل الغروب ؟ غدا ؟ كلا ، يجب ان اذهب اليوم . غدا ليس لديّ وقت . انت تعرفين يا سيدتي العزيزة ، انني مشغول جدا ...»

«ما الذي يشغلك ، اذا جاز لي ان اسأل .»

«ريثما اتأهب ، وسريري .. ثم يجب أن أفكر قليلا .. ربما في القصيدة التي أكتبها ، او في شيء آخر ، باختصار سوف أكون مشغولا غدا . وهذه القطرات الضئيلة لا تثير قلقي . سوف اسرع حتى اعود قبل الغروب . لا زلت أعتقد انني سأبتاع قطعة صغيرة من الجبن فحسب ، أظن انها تكفي ..»

وفي خطوات طويلة وقامة منحنية مضى الى القرية وسط المطر المنهمر . لقد قرر اخيرا أن يذهب الى القرية من اجل قطعة جبن واربعة أوقيات من البسكويت، ولقد ذهب ، رغم ان المطر كان ينهمر مدرارا .

حين كان يقرر أن «يستريح» برهة ، فلا اقل من ونش ليستطيع ان يزحزحه عن سريره . كان يرقد بلا حراك بينما يتراكم الغذاء ثم العشاء الى جانب الافطار

على المائدة المجاورة لسريره . ولم يكن يستطيع تناولها كلها الا بعد الفراغ من طقوس النظافة بغض النظر عن مبلغ جوعه ، وحين ينهض من سريره اخيرا يظل يتضور جوعا عدة ساعات اخر .

وعندما كان يقرر أن يخصني بزيارة ودية ولا يجدني في المنزل ، يظل يقرع الباب بقبضته زهاء ربع ساعة . لم يكن يتقبل الفشل . ومع هذا فحين يجدني في منزلي ، لم يكن يمكث اكثر من عشر دقائق ، لقد جاء ليرتب موعدا للزيارة فحسب . ولم يكن ليفي بهذا الموعد ابدا . ولكنه في بعض الاحيان كان يبدو مهيئا ليقضي معنا وقتا اطول ، في مثل هذه المناسبات كان يجلس صامتا زهاء ساعة او يتكلم في الادب بطلاقة ، حينئذ ينطلق من مخزون ذاكرته كنز لا يمكن توقعه . في احدى المناسبات تحدثنا عن قصيدة بودلير المشهورة «البانزوس» . وبدا يقتبس منها ، فاذا وضعنا في الاعتبار ان شاعرنا لم يقرا الا كتيبا خلال ثمانية عشر شهرا ، فقد كان يبدو داعيا للدهشة أن يحفظ قصيدة كهذه عن ظهر قلب . اما الاشد اثارة للدهشة فهو وجود شخص تجشم أشد العناء ليلم بعيون الادب العالمي يرفض القراءة الان . ولو استمر يقرأ بدلا من وقوفه لا يلوي على شيء ، لاصبح الان اكثر الرجال ثقافة في العالم .

لا يوجد ثمة ما هو اكثر بعدا عن المنطق من السلوك القهري .. اي ذلك الوازع الداخلي الذي يجعل ضحيته يكرر عددا لا نهائيا من الطقوس عديمة المعنى وتنأى به عن السعي فيما هو اجدى . ان المريض بالبارانويا يؤمن على الاقل بهذاءاته ، اما العصابي القهري فيعلم جيدا انه يمارس أشياء عديمة المعنى ــ وهذا هو المريع في الموضوع .

ولقد كان شاعرنا يعلم . كان هو نفسه يدرك مبلغ ما يتضمنه طقس ورق التواليت من غباء عديم الجدوى ، وكذا الوقوف بلا طائل ، والاغتسال الوهمي لساعات ، ولكنه لم يكن يملك شيئا ازائه . فالوازع الداخلي كان اقوى . ما جدوى القصر والحديقة ، الكسل المريح والدخل المضمون في الحياة حين تصبح الحياة مجرد عبودية محزنة للقهر الداخلي ؟ ان كل ما يعطي للحياة معناها ــ ايا كان ــ يصبح لا معنى له . ولا يتبقى الا النواح والقهر المحتوم .

ثم وصلت حالته الى نقطة حرجة . حدث ذلك حين كلفت العم ريبورتر ، وهو صحافي ثرثار ، بمصادقته . كنت آمل أن يحرك هذا الرجل الواسع الخيال ويفيقه من سباته العميق . ولكن العكس هو الذي حدث ففي البداية ظل الصحفي يتكلم عن والد الشاعر ، ناكئا بإصبعه أشد جروحه ايلاما ، ثم أعقب ذلك أن اخذ «لاسباب علاجية» يوقعه في مقالب مضحكة طيلة الوقت . ولكن امير الحزن لم يكن في مقدوره تقبل النكتة فداوم على وقوفه القهري ، وانشغاله بجفيف اوراق التواليت لساعات ، بجوار فراشه حتى منتصف الليل ــ «انني اتأهب لدخول الفراش ، نعم ، سوف أدخل الفراش ، انا فقط ارتب أفكاري قليلا» ــ وحاول الصحفي أن يعلمه مبلغ عدم جدوى ذلك . فكانت نتيجة هذا التعليم ان عاد اليه

تقلص الشيطان .

بمجرد ان اتضح لي ما يدور ، فصلت بينهما . تبينت انه لا يمكن الا لشخص مجنون تماما بحيث لا يكترث بتبادل الهذاءات ان يتحمل هذا القدر من السلوك القهري ، ولذلك نقلت لويس لافتر معه ، وهو شخص يعاني من هلاوس مستمرة تدور حول وجوده في نوبتجية الخدمة التليفونية وكذلك جون الذي لا ينطق بحرف اذا احترق سريره .

وكان النقل عملا ناجحا ، ولكنه لم يعد ذا جدوى . فلقد استطاع لويس لافتر حتى وهو وسط هلاوسه وضحكته الشيطانية أن يلحظ ثمة شيء خاطىء فأخبر السيدة الاولى ان الشاعر «يخبط راسه في الجدار ، ويخنق نفسه برباط عنقه ، ويهز سريره ، وينهال بقبضتيه على صدغيه» .

وحين دخلنا الحجرة ، وجدنا الشاعر في حالة يرثى لها فعلا . كان شعره الهائش يتدلى على عينيه ، وكان وجهه متكدرا ، وثمة ورم كبير في صدغه يؤكد انه ضرب رأسه في الحائط بعنف شديد . وحين انفتح الباب حاول أن يتمالك نفسه ، ويغتصب ابتسامة وبذل جهدا لانكار الموقف الواضح .

«لا شيء ، لا شيء حقا . انني مكتئب قليلا . هذا كل ما في الامر» .

ولكن تزايد اكتئابه ، وانقلب جدول مواعيده تماما ، كان يمكث في فراشه صباحا ، ويبدأ في الاستيقاظ في الرابعة بعد الظهر ، وحين ينتهي من الاستعداد تكون الساعة قد بلغت الثامنة مساء ، عندئذ كان عليه أن «ينظم افكاره» وفي العاشرة يتناول افطاره المثلج وغذائه وعشائه ، ثم يبدأ في تأدية طقوس الاستعداد لدخول السرير ، ومع حلول الفجر يكون في سريره فعلا .

وحين بلغ قمة اكتئابه اعترف الشاعر انه يرغب الموت لانه يفضل الموت على هذا النوع من الحياة . وطفق وهمه الخالد عن «الحجرة الصغيرة الهادئة في بودابست» يحوم أمامه ، وكذا الاصدقاء الذين يتطارح معهم الشعر في احد «المقاهي الهادئة» ...

«أشعر انني سأموت هنا ، سوف أرقد على الحشائش وببساطة أموت» .

ليس في هذا ما يبعث على السخرية . انسان يحتج على هذا الضرب من الحياة ، وهكذا يرقد وببساطة يموت ، وينتهي كل شيء . فهي خالية من اية متعة ولو حتى متعة الخوف .

وهذه واحدة من كتابات هذه الفترة :

اغنية حزينة

انا لا أريد الحياة ، فنورها الساطع يعميني
اكره مرور الايام

اكره شروق الشمس وغروبها
والفرح ، والحزن الذي يقض الراحة .
ايتها الحياة ، يا شعلة الدماء والاشواق
والمثل والاحزان واطياف الاحلام
انا ادير لك ظهري ، واغادرك !
فالعذاب ، على ما يبدو ، يقودني للموت .
فعندي مواكب الربيع تعني الحداد
والطيور تجثم حزينة فوق الاشجار
وتمر الساعات البليدة
خلال ثقوب ساعة الحياة الرملية
اواه ما اشد شوقي الى ان اكون بعيدا
يعذبني النحس ، لكنني اكره الاستسلام
انني اعاني سواء جلست او وقفت
انا اتلاشى بعيدا ــ هذه هي النهاية
لقد مضى الأصيل المجهد
وقال الغروب لي وداعا
اواه . نفسي مظلمة موحشة
ارغب في الموت من البؤس .

وقبل ان يتمكن من الرقاد على الحشائش ويتلاشى بعيدا ، قررت أن اتدخل. كنت اعلم انه ليس سهلا اقناع الشاعر بأن يخضع للعلاج . فأرسلت اليه السيدة الاولى تحمل رسالة باستدعائه الى العيادة ليأخذ حقنة . لم يصغ اليها ، فلم يكن ثمة بد ــ دخلت حجرته مع الطبيب المساعد وممرضان ، والحقنة في يدي .

واعقب ذلك مشهد درامي . رمقنا من سريره مجفلا : «ماذا تريدون ؟ انا لا اوافق على العلاج ! انا احتج ! انا ارفض الحقنة ! ليس من حقكم اعطائي حقنة ! » .

وكان من الافضل الانتهاء من ذلك سريعا ، فقام الآخرون بإمساكه ، ودفعت بالإبرة في عرقه . فظل يصرخ «ليس من حقكم ان تصنعوا ذلك ! انا احتج» . وحين وصل السنتيمتر المكعب الخامس من الأفيبان الى عروقه حلت الاحلام الهادئة محل الاحتجاج . وحمل الممرضون الشاعر الى السلم ، وتلقى علاجه بالصدمة الكهربية . ثم ارجعوه ، وهو لا يزال يغط في احلامه الى حجرته . واستيقظ في سريره دون أن يعلم ابدا انه عولج بالصدمة الكهربائية .

وانفق النهار في عزلة موحشة غير مقدر لصنيعنا . اما في اليوم الثاني فقد غدا اكثر تقديرا بصورة ما وحضر لرؤيتي .

«لقد اعطيتني حقنة احتججت عليها ، ولا زلت احتج . لقد استخدمت العنف وكنت في وضع يمكنك من ذلك . يستطيع المرء ان يقول انك اجبرتني كما

يفعل الارهابيون . ولكنني لا اريد اي حقن ، فبنيتي ترفضها ، وبالتالي فهي ضارة وباعتبارك طبيبا كان من الواجب ان تعلم أن الحقنة التي ترفضها بنية المريض قد تكون قاتلة : انا احتج على هذا الارهاب والآثار القاتلة للغاية لهذا العلاج » .

«لقد كنت تشعر مؤخرا انك في حالة سيئة ، اليس كذلك ؟ كنت تمكث في السرير طول اليوم ، ولا تنتهي من ارتداء ملابسك الا في المساء ، وتتناول غذائك اثناء الليل .. وتضرب نفسك .. وتخبط رأسك في الجدار .. فهل يستقيم هذا ؟»

«هذا صحيح ، لقد كنت عصبيا قليلا .. ولكن هذا انتهى ، أعتقد ان قوة شيطانية قد تلبستني .»

«حسنا . هذا ما حدث بالضبط ، كما ترى . القوة الشيطانية . لذلك ارجوك أن تفهم أن الحقنة موجهة لهذه القوة الشيطانية . وبنيانك الجسمي لا يرفض التخلص من الشيطان .»

ولم يكن الامر سريعا وسهلا . ولكننا في النهاية حسمنا الصراع باتفاق «جنتلمان» ، فاذا استيقظ غدا في موعده ، وحضر لتناول الطعام في الموعد وعاد بصورة عامة الى أسلوب اهدأ في معيشته ، فلن نعاود العلاج الارهابي وساوم الشاعر على سلوكه القهري : هل في مقدوره ان يمسح متعلقاته بأوراق التواليت ليس لمدة طويلة ، وانما لمدة نصف ساعة فقط ..

وحافظ على كلمته ، فاستيقظ في الموعد ، وأكل ولم يضرب نفسه . وكان يحضر أحيانا لزيارتي في المساء ، فنناقش فيرلين ورامبو . ويقص أشياء ممتعة عن هوفمان كاتبه المفضل . والحقنة .. حسنا . لقد اعترف انها طردت روح الشيطان ، ولكنه لا يرغب في المزيد ، شكرا لك .

لعل جهودنا في اشاعة الاستمتاع بالحياة لم تلق فشلا قط مثلما لقيت في حالة أمير الحزن ، لا لانه استمر يكتب أشعارا حزينة ، فمن حق الشاعر الغنائي ان تكون لديه مسحة من الحزن ، ولكن مثل هذا البحر من الاحزان ؟ لم يشاهد احد شاعرنا يضحك من الاعماق قط ، ربما يكون قد ابتسم لنكتة ، ولكنه فعلا لم يضحك ابدا ، حسنا ، فلندعه اذن يحيا بلا ضحك : ولكن فلنجعله يشعر بالسعادة على الاقل من آونة الى اخرى . الا آن امير الحزن لم يشعر بالسعادة ابدا . كان تواقا لمبارحة الجرانج حيث كنا لا ندخر وسعا في رعايته وتلبية كل رغباته . كان كل ذلك اسرا وقفصا : وعبثا كان كل باب يفتح من اجله فلقد ظل المكان بمثابة مؤسسة مغلقة مات فيها الجمال .

آلمني هذا الفشل ، خاصة وان الشاعر كان المريض الوحيد الذي استطيع ان اعتبره صديقا . كانت لنا خلفية ثقافية وذكريات مشتركة . ومع هذا ظل الجرانج في نظره هو بالذات مجرد قفص . لقد طليناه ذهبا بأقصى ما نستطيع ولكنه ظل قفصا .

كتب شاعر آخر دخل القفص الخارجي والداخلي مؤخرا يقول «ويظل ينتظر وينتظر أن يطلق سراحه ، لأن **السجين هو السجين ، حتى ولو كان سجانه عطوفا»** ولم تكن نحن الذين جعلنا الشاعر سجينا في الواقع ، وانما هو بذاته . ولو اننا نزعنا الأغلال ، والاقفال ، والقضبان ، فسيعيد دوما بناءها من مادة سلوكه القهري غير المرئية ، ونقف نحن عاجزين ازاء القفص .

قفص مطلي بالذهب ... كان ادراكنا يدهمنا كالكابوس . فلا جدوى مما نصفه لمساعدة مرضانا . انهم يحملون داخل ذواتهم مؤسسة مغلقة ، وليست لدينا القوة للتغلب على هذا .

***

ووصل الى الجرانج صديق آخر من معارف الطفولة . لم أتعرف عليه حين وصل مع مجموعة من ليبوتميزو . رغم اننا قضينا معا في المدرسة الثانوية ثمانية أعوام . (في ذلك الوقت كان قد بدأ يتعلم التركية واليابانية لتزجية الفراغ ـ ولم يتسن لي وقتها أن الحظ أن مثل هذا الاهتمام غير المألوف قد يكون علامة مرَضية) .

«انك تمضغ حرف الراء وحرف السين ، اذن فهو انت» هكذا قال لي مبتهجا الامر الذي جعلني استنتج انه لم يميزني الا من صوتي ، لا ريب انني كبرت مثله منذ تركنا المدرسة .

دعوته الى حجرتي ، ودار بيننا حديث طويل . لم تكن تسنح سوى فرص ضئيلة في (الجرانج) لمثل هذا الحديث . وتحدثنا في البداية عن ذكريات المدرسة . كانت علاقاته بزملاء الدراسة السابقين عابرة مثل علاقاتي . ولم يعد كلانا يعرف عن المدرسين الكثير ايضا ، لقد توفي مدرس الفيزياء ، وغير مدرس الفصل اسمه ، وفقد مدرس الحساب الذي كنا نكرهه من قلوبنا اهميته ...

ولكنه حين شرع في الحديث عن نفسه ، ظهرت الاشياء غير المألوفة . وظيفته ؟ لم تكن له وظيفة في الواقع . كان مهتما بالتاريخ والفلسفة ، ولكن من المستحيل أن يتكسب عيشه منهما . كان ابن احد رجال المصارف الاثرياء ، وبالتالي لم تقابله متاعب مالية في البداية ، فكان يكتفي بالقراءة والسفر . ولم يلتحق بالجامعة لانه كان يهوديا ، ولذلك تلقى تعليمه في المنزل . كان فيلسوفه المفضل هو اسبينوزا ، وكان من المؤمنين بمبدأ وحدة الوجود ، الله ضد للطبيعة كما يقول سبينوزا ، الله يحل في الموجودات ، في كل انسان ، وفينا ايضا . لا يوجد عدم نهائي . الروح من تصورات الجسد ، والفكر من تصورات الروح . اذن فالفكر من تصورات التطور . وفي اعتقاده ان الفرق الوحيد بين الايديولوجيتين المادية والمثالية كامن في الصياغة ، وتؤدي الايديولوجيتين اساسا الى نفس النتيجة . وكان يشبه الانساق الفلسفية بالدوائر ، احدهما اكبر والآخر اصغر،

ولكنها كلها دوائر ، وبالتالي متشابهة في الجوهر . ان الطبيعة البشرية لم تتغير خلال خمسة آلاف سنة . السكون المستمر هو احد جوانب الابدية شأنه شأن التغيير المستمر ـ السكون الابدي لا يوجد الا في المطلق فحسب .

كنا ننفق الساعات في الحديث «يقتبس من جيوردانو برونو ، ثم يتكلم في حماس عن توماس مان ، ثم فيما بعد ، عن ماضيه كرجل اقتصادي : كان يشرف على تحرير مجلة تنشر مقالات عن كل انواع الايديولوجيات بدون تعصب ـ كانت دورية عظيمة الفائدة والطرافة ولكنها صودرت لسوء الحظ .

في حمى المناقشة كنت انسى علاقتنا غالبا ، وانني طبيب عقلي يتحدث الى احد مرضاه . ولقد شعرت ببعض الحرج حين سألته :

«اذن . لـ ... لماذا انت هنا .»

فرمقني بنظرة ملتمعة واجاب في موضوعية :

«بسبب التسميم . أنهم يدسون السم في قهوتي كل صباح .»

منذ سنوات قلائل لاحظ في مبدأ الامر انه يتم تسميمه بانتظام . كان السم يدس في قهوته الصباحية فهذه اضمن الطرق ، ربما لا يتناول اية خضروات او لحوم ، وقد يأكل كثيرا او قليلا ، ولكن كمية القهوة الصباحية لا تتغير ابدا الا يبدو هذا منطقيا ثم غدت الامور اشد سوءا فيما بعد ، فقد تسمم طعامه كله بلا استثناء ، سواء ابتاعه من محل او تناوله في مطعم . كان السم حتى في الطعام الذي تطهيه أمه . ولقد شعر خلال جهازه العصبي السمبثاوي والباراسمبثاوي انهم راغبون في شل تفكيره .

يبدو كل ذلك كما لو كان معقولا ، ولكنه لم يكن كذلك . لقد فهمت الان كيف جاء الى هنا .

لو افترضنا ثمة انسان يتم تسميمه على هذا النحو من الاصرار ، فلا بد من شبكة عملاقة تقوم بمراقبته طيلة الوقت ، ويتحتم على هذا الجهاز الهائل ان يستخدم وسائل خاصة لا يستطيع بدونها القيام بهذه المهمة التي تفوق قدرة البشر (كان يتم تسريب السم حتى في المعلبات سواء اشتراها من محل مزدحم في شارع رئيسي او من مكان غير مطروق في ضاحية منعزلة) . واكتشف أن هناك شبكة تدار مركزيا اصدرت امرا بتسميمه عن طريق موجات قصيرة من الاشعة .

ولكن لماذا يتعقب جهاز كهذا شخصا في مثل عزلته ؟

لقد وجد لذلك تفسيرا غير مألوف . ان القتلة ليسوا اعداء له ، ولا يرغبون في الاضرار به ، ففي مقدورهم التخلص منه بجرعة واحدة من السم . ولكنهم يريدون العكس تماما ، انهم يريدون أن يكسبوه . كان مقر مركز التسميم في موسكو وهو يستهدف ضمه الى صفوف الشيوعيين . وهو في الواقع لا يعترض على هذا لانه يتفق جوهريا مع الفكر الشيوعي . ولكنه راغب عن استنكار فلسفته القائلة باتفاق المادية والمثالية في الجوهر . والغرض من تسميمه هو اجباره على التخلي عن وجهة نظره . ولكنه لن يستسلم ابدا فيما يتعلق بهذه المسألة .

وقال مبتسما :

«انا اعلم انهم يسممونني هنا ايضا . لا تغضب ... فانا اعلم بالطبع انها ليست غلطتك وانما تعليمات رؤسائك . ولكنهم هنا كما في اي مكان آخر يدسون السم في قهوتي . لا يهم ، فلقد تعودت على ذلك» .

وانقضت اسابيع لطيفة . واعتبر مكتبتي ملكا له ، فاستعار اسبينوزا وتوماس مان ، وفلاسفة الصين وغير ذلك . كان يقرأ بحماس . وفي الوقت نفسه يذهب الى الحديقة ويعمل بجد ، بينما نثير في الأمسيات مناقشات فلسفية مثمرة ، لم يقنع فيها كل منا الآخر باي شيء بالطبع . كان يشعر بسعادة غامرة في الجرانج . فثمة اضاءة كهربائية وحمّام ، وابتعاد عن صخب المدينة ، ولديه عمل مناسب في الهواء الطلق ، وكتب ممتازة ، وصحبة طيبة ـ ما الذي ينقصه اذن من مقومات السعادة ؟

ولم اعرف قط ما الذي تسبب في تغييره . غدا عبوسا متشككا ، وحين انقطع التيار ذات مرة نتيجة ماس كهربائي في القصر اعتقد أن المقصود بذلك مضايقته ، فثار لذلك بالامتناع عن العمل لمدة يومين . انكسر خزان المياه ، فكان ذلك ايضا موجها اليه بالطبع . فلم يغادر المؤسسة لمدة اسبوع ، واخذ يتجول وقد بدا عليه الشعور بالإهانة . وكان يرفض الطعام من وقت الى آخر ، لانه يحتوي على السم بوفرة . وتذكر «شاهدا» على التسميم ـ لقد عثر على مسحوق ابيض في بطانة كتف زوجة اخيه ، وكان ذلك بلا ريب السم الذي يوضع في طعامه . ولاحظ مرة ان الناس المحيطين به جميعا يدسون أيديهم في جيوبهم . انهم يراقبون ، وفي جيوبهم اجهزة الارسال .

ودهمه حواز جديد عن الاشعاع من خلال جهاز . ثمة اشعاع موجه اليه بجهاز او بدون جهاز . وكان هو فريسة اشعاع صادر من خلال جهاز . كان لدينا جميعا أجهزة الاشعاع ، حتى انا ، وهو ليس غاضبا مني ، ولكنه يقرر الامور بموضوعية فحسب . واخبرني ان هذا لم يعد محتملا ، وطلب اتخاذ الاحتياطات الفعالة ، ورجا مشددا بوقف الاشعاع لانه «لا يرغب في الاستمرار على هذا المنوال» . لم يكن يعلم بعد ما الذي سوف يفعله ، ولكنه لن يتراجع .

وبدا يرفض القيام بأي نشاط ، ورد الكتب التي استعارها نصف مقروءة . وقال في ادب اننا لا يجب ان نسخره ، وانه حر تماما في الحضور والعودةحسبما يرغب . ورغم هذا كان لا يزال في الأسر . اضحى فريسة للاشعاع الصادر عن جهاز .

واصبح شديد القلق مثيرا للمضايقة . وايقن انه كان موضوعا للاشعاع ، بالاضافة الى التسمم منذ يوم مولده ـ لم يكن يعرف السبب ، كما لا يعرف سبب ايداعه مستشفى للمجانين . لقد اعتبروه مجنونا رغم انه على حق ، ولما كان يتم تسميمه فعلا ، فمن المنطقي الا يكون مجنونا . يجب اذن أن يوضع حد لكل هذا، سريعا ، ويجب اتخاذ الاحتياطات المناسبة .

كان ذلك هو الموقف . وجدتني عاجزا ازاء الاشماع الصادر عن جهاز . وعبثا تركت له مطلق الحرية ، فلقد أوقع صديقي نفسه في أسر الاشعاع الصادر عن جهاز . واغلق على نفسه القفص الذي نجحت في طلائه بشكل مؤقت فحسب .

وخشيت ان ينتحر ، فاعدت ارساله وانا متردد الى (ليبوتميزو) . بعد أشهر قليلة قابلته فوجدته يتمشى في ممر المؤسسة المغلقة لا يلوي على شيء .

«كيف حالك ؟ هل من جديد ؟»

«لا جديد . لقد أسروني بالاشعاع الصادر عن جهاز .»

***

على ذكر الفشل الذي نمنى به ، دعوني اروي لكم قصة الشاعر الذي تفوح منه رائحة الثوم . انها تدل دلالة بالغة على مبلغ العجز الذي نمنى به ازاء المرضى الذين لا يعرفون ماذا يصنعون بحريتهم .

في وقت من الاوقات كان لدينا شاعر حقيقي آخر بالاضافة الى امير الحزن. كانت له عدة مجلدات مطبوعة ، وكانت الجرائد والاذاعة تنشران أشعاره ولقد اهداني مجلدين «مع صادق التقدير» واعترف أنني بدات أتعرف على اسمه وشعره ساعتها فقط .

حين وصل الينا ، كان قد سبق ايداعه عددا من المؤسسات المغلقة عدة سنوات ، لا بسبب الجنون ، وانما لادمانه المزمن على الكحول .

واذا ذكر الشعراء فان إدمان الكحول لا يعتبر امرا سيئا ، اذا وضعنا في الاعتبار بخاصة أن أندريه اداي **Endré Ady** مثلا يشرب ، ناهيك عن فبرلين ويو ، او هوفمان **E.T.A. Hoffman** وجيولا كرودي **Jyula Krudy** من كتاب النثر — ويستطيع المرء ان يكمل القائمة . كان بودلير مثلا مدمنا على الأفيون والحشيش .

ووضعت الشاعرين — صاحب الدموع الماسية . والذي تفوح منه رائحة الثوم (لم تكن رائحة الثوم قد فاحت منه بعد) — في حجرة واحدة معا . وتوقعت لسذاجتي أن تستغرقهما المناقشات الادبية ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث وانما جعل شاعر الثوم يسخر من وقفة امير الحزن القهرية ويدعوه «الشاعر» في استخفاف ، بينما اخذ الآخر يتصرف في تحفظ . كان يجد في عادة زميله الشاعر ملء حجرتهما برائحة الثوم أمرا يدعو للغرابة ، وكان يعاني من ذلك مع محاولة لضبط النفس . ولم يبد احدهما شغفا بشعر الآخر . ولم يناقشا ابدا الموضوعات الشعرية .

ومن الطريف أن نذكر انه بينما كان شاعر الثوم يعتقد ان الموت والانتقال الى حياة أخرى من الامور التي تختص بها التأملات الفلسفية ، كان أمير الحزن يعيش انفعاليا حالة الحداد الابدي . لذلك كان شعره يشبه جزءا من الثانية في حركته،

يتشكل تأثيره في هدوء ، وسرعان ما يغرق في الصمت ، ولكن من خلال الصمت يمكن سماع رجع رنين الوتر الذي مسه . ومن ناحية اخرى كان شاعر الثوم يقيم عبث الحياة تقييما عقليا ، ويخبرنا في أسلوب ساخر اننا سنموت بطريقة أو بأخرى ، وفي النهاية لا شيء يهم .

حين وصل الشاعر الشاب عندنا كان قد قطع طريقا طويلا . طريقا طويلا متعرجا . كان قد شب على تعود الشراب والحياة الطفيلية ، ولمدة طويلة غفرت له موهبته ذلك . وتنقل لسنوات من تعاطي علاج للادمان الى آخر . وامضى معنا تسعة ايام فحسب ، كان اول رجل على وجه الارض يحن الى تركنا والعودة الى ليبوتميزو . لماذا ؟ لم نجد الاجابة ابدا .

كان يمضي مع زميله الشاعر ، فيصف في لغة دفاقة مبلغ ما يجده هنا من جمال ومسرة . ولقد عاملناه في تقدير . وكنا نعالجه بأقراص الأنتابيوس Antabuse وكانت وقتها علاجا مستحدثا ، من الصعب الحصول عليه . وتركنا له حرية العمل من عدمه . فكان يستعير من مكتبتي كتب الرحلات المصورة، ثلاثة كتب في كل مرة (لم يستهوه شيء غيرها) ويستلقي في سريره طيلة اليوم مستغرقا في القراءة . وظل بضعة ايام بمحض اختياره ، بعد ان طلب العمل مع قاطعي الاخشاب ، ولكنه بعد ذلك مل العمل البدني .

كان يمتدح كل شيء امامنا ، ولكننا كنا نعلم مسبقا أن الشاعر يضيق سرا . بماذا ؟ بكل شيء .

وكتب خطابين لامه ، سلم احدهما بإختياره مفتوحا ، وارسل الآخر سرا . كنا لا نطلع بشكل عام على خطابات مرضانا ، الا ان هذا الخطاب السري بدا مثيرا للريب ــ وكان يستحق فعلا أن نفتحه . وعلمنا منه انه مسخر في العمل الشاق يعاني البرد والتضور جوعا ، لا توجد كتب ، ولا علاج ، فقط سجناء يائسين يعملون حتى يسقطوا صرعى .... كان خطابا غريبا ، ويبدو اشد غرابة لصدوره من شاعر لا يفعل شيئا طيلة الوقت الا قراءة كتب الرحلات في حجرة جيدة التدفئة ، وفي نهاية الخطاب طالب بارسال مئة فورنت بدون ابطاء ...

وعجبت لماذا يطلب النقود . ومع الثوم جاءتني الاجابة في اليوم التالي . حين دخلت حجرة الشاعر كادت الرائحة الخبيثة تصرعني . وأكد لي الشاعر ان ذلك لا يبدو غريبا ، نظرا لان الثوم هو طعامه المفضل ، وتمنى الا أعترض على ذلك !

لقد سبق لي الاشراف على عنبر مدمني الكحول في ليبوميزو ستة اشهر ، ومع هذا لم أكتشف السر ، قلت له على رسلك ، واسرعت بالخروج وانا اكتم انفاسي . كانت الرائحة كفيلة بأن تجعلني أغادر العالم .

ولكن السيدة الاولى لم تكن على هذا القدر من السذاجة .

«ان الشاعر يتعاطى الخمر» . قالت على الفور حين اشتمت رائحة الثوم . عندئذ ادركت انا ايضا ، ما يدور . كان يشرب بالطبع . وكان يفوح نفسه بالثوم، كي يخفي رائحة الشراب .

كان يقترض المال من امير الحزن الذي ارهقت الرائحة اعصابه بالتأكيد ، ظنا منه ان مثل هذا الشاعر الذي تفوح منه أشد الروائح خبثا في العالم لا يملك فعلا شروى نقير .

وكان على شاعر الثوم ان يتغلب على اقراص الانتابيوس بطريقة ما . كان من المستحيل تعاطي الشراب بعد هذه الاقراص ، لانها تجعل المريض في حالة من الاعياء الذي لا يحتمل ، اذا ما ابتلعها فعلا . فكان الشاعر يتناول القرص ، ويحتفظ به في فمه ، ثم يبصقه في غفلة عن الجميع .

وانجلى السر ، انه يطلب المال ليبتاع النبيذ .

وعندما واجهنا الشاعر بشكوكنا ، اغتاظ غيظا شديدا ، أن نظن فيه مثل هذه الامور ! لكنه كف عن التظاهر بالاستمتاع بالحياة في وسطنا . فطفق يتجول بين المرضى الذين يعملون في جد ، وقد ارتسمت على وجهه علائم الاشمئزاز ، ويستصغر الطعام الوفير ويتظاهر انه يرتجف من البرد . طالبناه بأن يحاول كتابة قصيدة ما دامت هذه مهنته ، ولكنه تخلص منا . افي مثل هذه الظروف ؟

كان لا يكتب الا شيئا مكررا ـ خطابات سرية . من بينها خطاب كان موجها الى رئيس اتحاد الكتاب واعيد الينا . وكان كما يلي :

... يتم هنا ممارسة العلاج المزعوم بالعمل ، الذي يتضمن حاليا قطع الاخشاب وحمل السباخ . اما أسوأ ما في الامر فهي تلك الكميات المتخيلة من الطعام التي لا تكاد تشعر بها في معدتك الا لثواني ، ثم نقاد ثانية للعمل ... لا اثر للعلاج بالعقاقير . اقراص الصداع وقميص المجانين هما وسيلتي العلاج الوحيدتين المعروفتين هنا . وفي المساء تنبعث الصرخات من عنابر الرجال والنساء . وعبثا تطالب بدواء مسكن ... لا توجد ثمة مكتبة ، قد تأخذ الشفقة احدى الخادمات ، فتعطيني احيانا كتابا قديما . نعم ، هذا شبيه بمعسكرات المهجرين او اللاجئين . الهرب مضطرد ، وحدث ايذاء النفس والانتحار اكثر من مرة ...

أرجو أن يغفر لي رئيس اتحاد الكتاب عدم ارسال الخطاب (الذي ينتهي بالطبع ، برجاء عاجل بإرسال مائة فورنت) . استدعيت المؤلف ، وواجهته بالخطاب وسألته اين شاهد قميص المجانين وإيذاء النفس والانتحار هنا . فهز كتفيه وقال دون ان يختلج صوته أن الامر كله مجرد اكذوبة وانه محتاج للنقود .

وغادرنا . بعد ستة اشهر قابلته في ليبوتميزو ، فطالب بالسماح له بالعودة لكنه لم يحضر في نهاية الامر ، ربما لانه يشعر بالخجل .

***

ومن الغريب أن المرضى القلائل «غير المحبوبين» من نزلاء الجرانج كانوا جميعا في الغالب من المثقفين . لم يكونوا من المجانين الخطرين ، بل كانوا جميعا من

السيكوباتيين لم يكن مكمن الخطأ في رؤوسهم ، وانما في خلقهم .

مارتين كيمست مثلا يكرهه عدد غفير من الناس ، ولهم العذر . كنت شخصيا اميل اليه . كان سيكوباتيا بارانويا (خيلائيا) **Paranoid Psychopath** يتمثل حفازه في أن عليه دائما ان ينتقم . كان يستشيط غضبا عند اي اهانة بسيطة .

«النيابة .. النيابة !!» هكذا كان يصرخ منفعلا في صوت أقرب للبكاء مطالبا بالعقاب الفوري . يبكي في غضب لأن العقاب ليس عادلا . كان دائما على صواب، ولكن من اين المحكمة التي في وسعها فحص مثل تلك الاهانات العديدة ؟ ذات مرة، منذ سنوات خلت ، قال احد المعارف لوالده «حسنا ، يا سيدي العزيز ، لا يحق لك ان تكون فخورا بإبنك» . ولم يصفعه الاب ، ولم يخنقه ، ولم يحطم رأسه ولهذا لم يستطع مارتين ان يغفر لوالده . كان والده وليس العدو هو الذي قال بمنتهى التعقل أن عليهم التغاضي عن اهانات اكبر كثيرا من هذه اذا ما صدرت عن مثل ذلك الصديق واسع النفوذ ، وذلك بغض النظر عن ان ما ذكره الصديق هذه المرة كان صادقا فعلا : لا يحق له ان يكون فخورا بإبنه . لم يكن في وسع مارتين أن يتغاضى عن ذلك . كان يتذكر كل اهانة، فتجمعت في نفسه كتلة من الحقد المريع .

كان حاصلا على دبلوم في الصيدلة ، ولكن لم يكن في وسعه ان يمكث في اي وظيفة بسبب سيكوباتيته غير المحتملة .

وأني لفخور بانني استطعت في ظرف سنة ان اخلق من مارتين كيمست شخصا يمكن التعامل معه . الا انني لم أستطع أن اجعل منه صيدليا نافعا . كانت قذارته المتأصلة وإهماله يجعلانه لا يصلح للعمل كصيدلي . كان يعرف جميع القوانين والقواعد ، وكان من الصعوبة بمكان ان تبزه في الحيلة . ربما كان يغدو ممتازا في ترتيب الاشياء اذا عمل امين مخزن او ضابط امدادات او مراجع في مخزن او ما اشبه ذلك .. ولكنه لم يكن ليستمر في ذلك ايضا . فسوف يفسد سم تفوره كل شيء خلال اسابيع قليلة . سوف يقع مع رؤسائه ، وعندئذ يبدأ في ارسال التقارير للسلطات .

وحاولت أن أجعل منه امين مخزن شرفيا ، نظرا لانه لم يكن لدينا امين مخزن على الاطلاق . كان مارتين على الاقل يعتني بالفعل بكل ما نوكله اليه لكن المدير «بلا كلام فارغ» اعترض عليه في الاسبوع الثاني . وكان لا بد له بالطبع ان يفعل ! لقد استطاع مارتين أن يحيط بكل ثغرات التموين في ثواني ، ورغبة في اشعال النار طالبني بالذهاب فورا الى المجلس ، والنائب العام ، والحزب ، ومجلس المقاطعة. ولم اتحرك نظرا لانني أعلم جيدا انني عاجز ازاء المستشفى . ولكن كان عليّ ان اضع حدا لنشاطات مارتين باعتباره أمينا للمخزن ، ومنذ ذلك الوقت لم اخصص احدا لرعاية شئوننا .

***

اما بالنسبة لبيتر مارتير ، المؤلف الموسيقي ، فقد كان الموقف اكثر تعقيداً ، على الرغم من اننا لم ندخر وسعا مع هذا المصروع الخلو من المواهب ذو الشخصية التعســة .

سبقته سمعته : كتب الينا الطبيب المسئول عن احد اقسام مرضى العقول في مقاطعة اخرى انه يود ارسال احد مرضاه الينا ، وان كان لا يستطيع ترحيله حاليا بالقطار نظرا لانه شديد «الهياج» بحيث لا يستحب مرافقته في السفر .

حسنا ، حسنا ، فكرنا وانتظرنا مكتومي الأنفاس حتى هدأت حدة «الهياج» وقد استغرق ذلك أسبوعين ، ثم وصل لدينا ـ في صحبة ممرض ـ غلام وديع نحيل ازرق العينين وأشقر . هل هو مخيف الى هذا الحد ؟ حاولنا ان ندفعه ليقص علينا بنفسه سبب سمعته السيئة . فاعترف ، وهو خجل ، انه ضرب والده . وكان والده مشلولا من جراء مرض عصبي مستعصي ، وبالتالي لم يكن من الشجاعة في شيء ان يضربه .

ملامحه أقرب للدودة النائمة . ومع هذا لم يكن قبيحا . وكانت الممرضات بالضعف العقلي يعجبن جدا بعينيه الزرقاوين المضيئتين البرئتين ، وشعره الاشقر ذي الملمس الحريري المصفف في شاعرية . كان بيتر ايضا ضعيف العقل بصورة ما ، على الرغم من اعتزازه الشديد بنفسه واحتقاره الجم للمرضى الآخرين ، كان يرسم على وجهه نظرة احتقار مستخفة متكبرة ، لا تخلي طريقها للابتسامــة المتواضعة الا حين يتطلع الى أحدهم بنظرة جانبية طويلة . ويغمغم في صوت لا يكاد يبين «هل لي أن أسألك .. بصورة انسانية ، ولكن بصدق ... بالاشارة الى .. كما سبق أن فعلت .. لكن الامر بصورة انسانية بحتة ..» سوف تحتاج الى صبر بلا حدود في انتظار ان تسمع ما يريده فعلا . وهي النقود في العادة .

كان يعاني من الصرع منذ بلغ السابعة . وكانت نوباته نادرة نسبيا وغــير شديدة القسوة ، كانت مشكلته الحقيقية ان المرض تسلل الى الفصوص الامامية من راسه ودمرت الخلايا التي تتحكم في الخلق . فنمي هذه الشخصية اللزجة الشاكية ، المنافقة ، التي لا يندر وجودها بين المرضى بالصرع ، بالاضافة الى كونه وقحا وقذرا ، ميال الى الانحرافات الدنيئة . كان ضميره قد تضاءل ، ويبس شرفه ، وقل ذكاؤه . كان يرطب راسه بالخمر احيانا . فكان ذلك يزيد مــن غبائه وخموله .

كان والده يعمل مدرسا في قرية ، رجلا ممتازا . لكنه لسوء الحظ سمح لابنه ان يعزف على الأرغن ذي الانابيب ، الامر الذي جعل بيتر يكتشف عبقريته الموسيقية فقرر أن يصبح مؤلفا موسيقيا . صحيح انه لم يستطع اكمال عامه الاول في المدرسة الثانوية ، بيد ان هذا لم يمنعه من اعتبار نفسه عبقريا عالميا ، فكتب شعرا مقززا مليئا بأخطاء الهجاء ، ورسم لوحات غاية في الرداءة ، والــف مقطوعة موسيقية ، كــان يعزفها على البيانو . عنوانهــا أنتيم باراخريــز Anthem - Paraphrase كما لو كان يعرف ما هو (البارافريز) . ولسوء الحظ

لم يكن هذا هو الشيء الوحيد الذي لا يعرفه ، فلم يكن في وسعه المحافظة على التوقيت . كان يعزف مؤلفات باخ او بتهوفن البسيطة بصعوبة مستعينا بنوتى الموسيقة ، ولكن بإيقاع غريب يجعل النغمات تبدو وقد أصابها التشتت .

وظل يتمشى عدة اسابيع على غير هدى وقد ارتسمت على وجهه تعبيرات الاستشهاد . لقد ضللوه منوه بأن في وسعه ان ينمي مواهبه الموسيقية هنا . لكنه بدلا من ذلك تم التحفظ عليه وسط دهماء من المجانين العاديين كان يرمقني في اسى بعيونه الزرقاء النائمة ، ويبعث لأبيه بتقارير شبيهة بتلك التي كان يكتبها شاعر الثوم لرئيس اتحاد الادباء .

وحاولنا ان نفهم اسباب سخطه ونوجه علاجه المهني اتجاها ثقافيا . وتصادف ان كان في مكتبتي عدد من الكتب الموسيقية ، فاستعارها وقرأها فعلا في اغتباط شديد . ولكن نظرا لاضطراب شأنه فقد كان من الصعب تحديد مبلغ هضمه لها. فكنت أعتقد فيما بيني وبين نفسي انه لم يقرأ هذه الكتب ابدا وانما اكتفى بتصفحها . كان جهاز الراديو لدينا سليما تماما ولكنني لم المح بيتر مارتير ابدا ينصت للموسيقى . وحاول المعالج المهني أن يعلمه دروس الصف الاول في المدرسة الثانوية على امل ان يجتاز الامتحان في النهاية . بيد ان هذا لم يكن كل شيء . لقد ارسلناه ايضا الى كونسيرفاتوار المدينة ليتلقى دروسا متقدمة في البيانو . بالاضافة الى اننا اسندنا اليه تنظيم كورال من المرضى ، وسمحنا له بالانضمام لمنظمة الشباب في المدينة ومحاولة تكوين كورال هناك ايضا ـ اذا كان ذلك في وسعه .

وترتبت على الفكرة الجريئة في ارسال مريض عقلي للكونسيرفاتوار على حساب المستشفى ، عدة نتائج واضحة . اولها انه كان عليّ أن اضع معزفي تحت تصرف المريض ، فما دام يذهب الى الكونسيرفاتوار ، فلا بد ايضا من التدريب ، وهذا يبدو صعبا بدون بيانو . ولكن لا يكفي ان نتركه وشأنه مع البيانو ، فهو يحتاج الى رقابة ، لانه اذا ترك وشانه ، فلن ينجح في الامتحان ابدا . وكان قد سبق لي تلقي دروس في البيانو في المدرسة الثانوية ، ولكنني حين تحققت من انني لن انمي اية موهبة ، توقفت ، وان لم امتنع عن العزف على البيانو . وكنت احب ان اعزف لمزاجي الخاص بعض سوناتات موزار وبيتهوفن البسيطة ـ وليس اكثر من ذلك .

ولا ريب ان مدرسة البيانو ، التي اعتادت أن تعنفني عبثا ، سوف تغرق في الضحك اذا قدر لها أن ترى أقل تلاميذها موهبة ، والذي يعمل الان طبيبا في مستشفى الامراض العقلية ، يعطي لبيتر مارتير في الجرانج دروسا في البيانو . فلتساعدنا السماوات ، ما الذي فعله بيتر مارتير بمقطوعات باخ وبارطوك ، ومؤلفات بيرتني وشوبان ، وسوناتات كليمنتي ـ كل الذكريات القديمة التي جشمتني المتاعب الشديدة في شبابي . كان بيتر مارتير يمزقها جميعا في ايقاع غجري ، ولما كان عبقريا (او ربما جاهلا) فقد ضمنها ما في شخصيته من زيف .

وكان على مدرسه ان يعاني مرتين في الاسبوع فحسب ، لكن صوت البيانو كان يتردد في شقتنا كل صباح ، واحيانا كنت اندفع آتيا من الحديقة «بيتر ، نظم الايقاع بحق السماء» !

ولكنه حقق بعض التقدم على مدار العام . تخلى عن الايقاع الفجري ، وبدأ يعزف احيانا انغاما مقبولة تماما على البيانو . وبينما كنت اسير بصحبة احد الزوار في شمس الربيع الساطعة ، تسللت الينا احدى مقطوعات باخ . «احد نزلائنا يتدرب» قلت في تردد . «اجل . نحن نرسل احد مرضانا الى الكونسيرفاتوار . انه ذلك الذي يتدرب . هذا هو عمله ، مثل الزراعة بالنسبة لشخص آخر ـ هذا هو علاجه بالعمل» .

ولقد احببت ان يتم ذلك على هذا النحو ، يجب أن يكون العلاج الفردي بالعمل مناسبا لكل فرد . وهكذا انتدبنا مدرسا للرسم من مجلس المقاطعة ليحاضر هيلين اينز الفتاة الفصامية لتستعد لامتحانها في الكلية . وانشأ لويس المتعدد الحرف ستوديو للتصوير الفوتوغرافي وحول احد المراحيض الزائدة الى حجرة التحميض ، وكان الناس الذين يعيشون في الجوار يستدعون المصور أحيانا ليلتقط لهم صورة تذكارية عائلية . كان هذا هو علاجه بالعمل . وكتب الصحفي كتابا عن مرضى العقول ، كان ذلك هو علاجه المهني . وكتب الشاعر أشعارا ، وصنع النجار دولابا للادوية ، وعزف بيتر مارتير على البيانو ، وباع صانع الاحذية احذيته ـ خلاصة الامر كان كل انسان يعمل في حرفته الخاصة ، وكان هذا هو انسب انواع العلاج بالعمل .

كنت سعيدا بهذا ، ولكن بيتر مارتير لم يكن كذلك . رغم توفر جميع اسباب الرضى لديه . لقد حقق اهم رغباته ، والتحق بالكونسيرفاتوار . وحصل على المعزف الذي كان يفتقده في منزله ، ناهيك عن الاقامة ، والاضاءة الكهربائية والمياه الجارية الساخنة والباردة ، والتدفئة والطعام المجاني ، مما كان يفتقده في المنزل . وكان يبدو جليا من خطابات والده المتواضعة مبلغ افتقاده لهذه الاشياء ، ومبلغ البرودة في المنزل ، وتفاهة الطعام الذي يتحصلون عليه ليسد رمقهم . لكن شيئا من هذا لم يؤثر في بيتر . كل ما كان يراه ان المؤلف الموسيقي العظيم الواعد ، مسجون وسط المجانين ، وواقع في الأسر . فكان ينتهز الفرصة للتردد على القس البروتستانتي ، فيشكو له بالتفصيل سوء أحواله ، ويظهر علائم التدين ويطلب السماح له بالعزف على الأرغن . لكن القس كان من التعقل بحيث لم يسمح له بذلك وان أعطى لبيتر عشرة فورينات . وذهب بيتر عقب ذلك للقس الكاثوليكي حيث أدى نفس المشهد مقابل عشرين فورنتا . وحصل على نقود من منظمة الشباب نظير القائه احدى الخطب المشوشة ثم زار مجلس المقاطعة . وكان يخدع ايضا عشاق الموسيقى السذج ويغرر بزوار المستشفى الطيبين وكذلك آباء زملائه في الدراسة . وكان ينفق المال في ابتياع الخمر او الحلوى او الذهاب للسينما . واستطاع ان يخدعني انا ايضا ، فحصل مني على عشرين فورنتا ثمن

اسطوانات ، ثم ظل يروي قصصا مختلفة عن عدم تمكنه من شرائها ، ودون ان يشير الى النقود بطرف . كان جيبه مكتظا بالحلوى وقلبه مكتظا بالشكاوي الدائمة، وفمه مكتظا بالاكاذيب .

ولم يكن من السهل محبة بيتر . واعترف ان احدا منا في الجرانج لم يفلح في ذلك . وكنت اخفي مشاعري بصورة ما . ولكن كان عليّ ان اناشد المرضين والطبيب العجوز التذرع بالصبر المسيحي طيلة الوقت . كانوا يرغبون في دق عنقه لا لانه كان عديم الامتنان للعالم الذي قدم له مزايا كثيرة لا يستحقها فحسب، وانما لانه كان يحتقر مرضانا ولا يتورع عن اظهار ذلك . ولو انه كان مريضا كالآخرين ، لما تفوهنا بكلمة . لكن نوبات الصرع الخفيف الضئيلة التي كان يعاني منها أحيانا كانت من التفاهة بحيث كنا نعتبره أقرب الى السلامة . فاذا كان مريضا ، فهو مرض في الخلق . انه لا يستحق الجرانج ، والمأوى والكونسيرفاتوار ، وانما يستحق بضعة صفعات ومكان يضطر فيه للعمل . قفص غير مطلي بالذهب ما دام لا يعرف كيف يقدر الحرية .

وكان عليّ أن اطرده ، لو لم اضع والده في اعتباري .

***

كان علاج المثقفين بالعمل مشكلة حقيقية .

في احدى المراحل كان من الصعب أن تجد بين مرضانا شخصا متعلما . كانوا جميعا في الغالب من الفلاحين . في ذلك الوقت كانت المستشفيات تحيل المرضى العمال الى الجرانج . ولكنهم انتهوا من المرضى العمال (او كانوا في حاجة الى القلة الباقية) ، وفي النهاية لم تكن مهمة الجرانج أن تجعل الذين كانوا يعملون من قبل يعملون ، بل أن تشفي بالعمل وأن تعالج أولئك الذين لا يعملون .

حسنا ، لقد اقتنع الكل تدريجيا حتى البستاني بأن هذه هي مهمتنا . لكن عدد المثقفين حاملي خطابات التوصية بدأ يتزايد تدريجيا . ولم يكن هذا امرا مبهجا . ان قلة من الشعراء ، والرسامين ، «ومؤلفي الموسيقى» تبدو لا بأس بها، ولكن بازدهار سمعتنا ، بدأت تنهال علينا خطابات التوصية من كل ارجاء البلاد ، من الاقارب والاطباء على السواء الراغبين في ارسال عملائهم الينا ، وهم غالبا يمثلون عبئا على الاسرة ، وليسوا مرضى بالقدر الذي يودعون به في مستشفى عادية للامراض العقلية وان كان الاحتفاظ بهم في المنازل مثارا للاضطراب الشديد «حالات خاصة» لمؤسستنا «القديرة» .

لا تمثل هذه «الحالات الخاصة» اية مزية من وجهة نظر العلاج بالعمل ان الشاعر ، والرسام ، والمراسل الصحفي لا يحتاجون الى معدات . ولكن لم يكن في وسعنا أن ننشيء صيدلية للكيماوي ، ومكتب ناظر محطة للمشتغل في السكة الحديدية ، ومتحفا للأثري ، وجمركا لضابط الجمارك . كنا في الحقيقة لا تعوزنا المعدات فحسب وانما يعوزنا النهج ايضا . ورغم هذا بلغت نسبة المثقفين

٢٠ بالمئة لكن اغلبيتهم لحسن الحظ كانت ترغب في العمل البدني . وكانـــوا ينقسمون الى مجموعتين على طرفي نقيض شديدي الغباء ، وموفوري الذكاء . كان بوبرونيتش المشلول مثلا يجد لذة في حمل السباخ مع فوكسكي العجوز ، رغم انه كان يجيد ثلاثة لغات . أما الاذكياء من أمثال لويس ذي الحرف المتعددة، هيلين أينز ، وفرانك سيرجري (الجرّاح) فلم يعرضوا عن اي نوع من العمل ولم يكن ذلك يعني اننا قد وجدنا المنهج وانما يعني انهم قد وجدوا عملا يلائمهم فحسب، كانوا يجدون دائما ما يقومون به . كان لويس المتعدد الحرف مثلا يعمل بالحدادة، ملقيا وراء ظهره بدرجاته العلمية ، بالاضافة الى ذلك انشأ ستوديو للتصويـــر الفوتوغرافي . وكانت هيلين اينز تمارس الرسم والكتابة على الآلة والفلاحة ، وكان من السهل ارضاؤها . وكان فرانك الجرّاح يشتغل بجد في الحديقة ، وان كان يرغب في الحقيقة ان يصبح مرة أخرى جرّاحا مساعدا ، فكنا نرشحه للعمـــل كلما احتاجت المستشفى لجرّاح مساعد .

وجاءت فترة كان جون وستيفن ويندبلور يعملان في الحديقة طيلة اليوم ، وان كنا ندرك ان هذا ليس الحل الامثل لهما . وبدا ذلك واضحا من استغراقهما في التفكير العميق والعزلة المؤلمة . كان البعض يتمرد ويكف عن العمل . كانوا يسأمونه ، ولهم الحق . فقد كان من نزلائنا ثلاثة اطباء شبان ، واثنين من طلبة الجامعة ، وثلاثة مدرسين ، لا يجدون العمل المناسب . ما الذي في مقدورنا أن نفعل لنزودهم بالعمل بدلا من العناء ؟

وكنا نحن ايضا نستغرق في التفكير حتى تتحطم رؤوسنا . وحتى ذلك كان بلا جدوى ، لانه حين كنا نعثر على الفكرة ، سرعان ما ننبذها فورا ـ انها تتطلب نقودا وادوات ومواد . لا داعي للتفكير طالما نحن نعتمد على المستشفى فقد كنا نجد صعوبة في الحصول حتى على الاقلام والاوراق والمذكرات من المخازن ـ اذن ما جدوى أن نحلم بالمكتبات ، واستديوهات التصوير ، وخلايا النحل والآلات الكاتبـة ؟

ورغم هذا فقد حققنا بعض النجاح : فمن بين خمسين مريضا مثقفا ، عاد اثني عشر مريضا الى منازلهم معافين ، والتحق ستة بالعمل في مزرعة الدولة ، واتخذ اثني عشر منهم الجرانج بمثابة منزل لهم . وهذا ايضا يعتبر نجاحا .

الفصل الثامن

الاستمتاع بالحياة

السادسة صباحا ، احد ايام السبت الصيفية عام ١٩٥٤ .

كتب المرض الليلي في دفتر الملاحظات ان جولي بانساك ظلت تتشاجر مع جيزيل مول طيلة الليلة الماضية ، وأن الشاعر ظل واقفا الى جوار فراشه حتى منتصف الليل . كان من النادر أن تدعو الضرورة لكتابة اي شيء آخر . كان المرض الليلي يحضر في العاشرة ، فيرسل الذين لم يناموا بعد الى اسرتهم ، ويظل فريسة للملل حتى السادسة صباحا . كان يطوف الدار مرة كل ساعة ليستمع على الابواب ، فاذا تناهى الى سمعه صوت مريب ، كان عليه ان يدخل الحجرة . وكان من واجبه ايضا تفقد دورات المياه ، اذ ربما ينتوي شنق نفسه سرا — وان لم يروعه بعد مثل هذا المنظر . وكان عليّ ان اثير يقظة المرضين بالقصص المرعبة. في احدى مستشفيات الامراض العقلية فقأت احدى المريضات عين المرض بالمقص لانه غفل عنها ، وفي احد العنابر ظل احد المرضى يضرب رأس زميله في الارض الحجرية حتى مات ، وحين تنبه المرض الى الصوت المريب ، كان السيف قد سبق العذل . وفي احدى المؤسسات دخلت احدى المجنونات حمّام البخار الساخن من تلقاء نفسها وظلت به حتى ماتت. وفي نفس المؤسسة وضع المرضون امراة شابة تحت الماء البارد «كنوع من العلاج» ، ونسوها لمدة يومين ، وسرعان ما ماتت بالالتهاب الرئوي . كانت كل هذه القصص المرعبة حقيقية ، فكنت ارويها على المرضين لأوقظ فيهم الحذر الذي يهدد نومهم . لم يعتقدوا قط أن كل هذه الاشياء يمكن ان تحدث في دار للامراض العقلية ، كانوا يعزفون عن التفكير نظرا

لان شيئا من هذه الاحداث ـ لحسن الحظ ـ لم يقع عندنا . ولكنني كنت مدركا ان مرضانا لا يختلفون عن المودعين في المؤسسات المذكورة اعلاه ، وأن علينا بالحذر الدائم (كانت المراة التي فقأت عين المرض مثلا ، موجودة بيننا ، تعمل في ورشة الحياكة وتستخدم المقص استخدامه الصحيح ، وكانت حالتها تتقدم ، وسيتم خروجها قريبا) . لقد كنا محظوظين حتى الان ، ولكن هذا لا يعني اننا سنظل محظوظين على الدوام . (على الرغم من ان المسألة ليست مسألة حظ تماما) . واثناء تصفحي للسجلات الطبية لاحظت ان احد المرضى المصابين بالهذيان منذ شهر او اثنين ، قد غدا عدوانيا ، ويجب أن يتم تقييده بقميص الكتاف او احكام وثاقه ووضعه في السرير محاطا بشبكة ، وان يحقن بمخدر قوي بالاضافة الى صدمات الكهرباء . لا يوجد ضمان بأن يتحول جميع مرضانا دفعة واحدة الى حملان وديعة .

وهم لم يكونوا حملانا وديعة قط . اطلاقا . ولكن عدوانهم هنا يتخذ شكلا مغايرا عنه في اي مكان آخر .

حسنا . لقد كتب المرض الليلي تقريره . وحضر المرضان الصباحيان ، فزارا كل الحجرات وأيقظا المرضى . معظم المرضى في غير حاجة لمن يوقظهم . لقد خرج العم مايك ليكوم الدريس منذ الخامسة صباحا بصحبة فاندي العجوز ، وشاكي ، وسانت جون ، وقلة أخرى من المسنين . كانوا يشعرون بالسعادة حين يتاح لهم الشروع في العمل بالحديقة مع انبثاق النهار . وبكرت عنهم جيزيل مول ، ففتحت المطبخ ، بحيث تنتهي من تنظيفه وإشعال النار مع وصول مساعد المطبخ .

كان يجب دفع بعض المرضى للاغتسال . فلقد اعتاد أغلبهم على الاغتسال بالماء البارد صيفا من الراس الى القدم . كانت هناك بالطبع قلة تحاول تحاشي الماء ، وكانت من المثقفين اساسا . كانت هيلين انكز ، التي تفخر أشد الفخر بكونها طالبة جامعية ، لا تغتسل لاسابيع ، شأنها شأن مارتين كيمست ، ولم يكن في وسع اي قوة أن تجعل شاعر الثوم يغتسل ، وكان ذلك يبدو عليه ، على العكس من امير الحزن الذي كان يبدو دائما نظيفا كالنسيم ، على الرغم من ان كل ما يفعله أن يرش الماء على ثيابه وهو مرتدي كامل ملابسه .

ولكن الامر كان اكثر صعوبة بالنسبة لتنظيف الاسنان ، لم يقتنع الفلاحون المسنون بالتشبه بتقاليع المدينة . وعلى الرغم من هذا كان يتم استخدام كميات من معجون الاسنان ، وكان المرضون المسئولون عن الجماعات يتنافسون على زيادة عدد من ينظفون اسنانهم .

بل ان بعض المرضى كانوا يزاولون الرياضة الصباحية من وقت الى آخر . ولم تكن غلطتهم أن تفشل التمرينات ، وانما كان ذلك يعود الى أن المعالج المهني والمرضون يتحمسون لها عدة اسابيع بل ويشاركون في اداء التمرينات ، ولكنهم سرعان ما يضيقون ويبدأون في تخريبها . وكان ثمة مرضى قادرون على توجيه التمرينات ، ولكنهم لم يكن في وسعهم ان يجمعوا الآخرين وينظمونهم معا .

وفي النصف بعد السابعة يعلن الجرس ان الافطار قد اعد ، عندئذ تحمل قلة من المرضى تراسها المسز ليبزني القهوة في غلايات ضخمة ، ويحضرون الخبز والزبد والعسل فوق الصواني . ويتناول المرضى طعامهم على موائد مغطاة بالمفارش ، وحين كنت أصل الى صالة الطعام في الثامنة الا ربعا ، يكون المرضى قد انتهوا من طبقهم الثاني .

كنا نعقد اجتماعا لمناقشة العمل في الساعة ٧:٤٥ يوميا . ولكن الدكتور المجوز يشارك فيه ، وكذا المعالج المهني الذي كان يحضر نصف نائم اشعث الشعر، يربط حذاءه وهو جالس على كرسيه (لقد استيقظ لتوه منذ دقيقتين) . بالاضافة الى البستاني ، اولد ديندي ، والمستر فيدلر والمرضون المسئولون عن الجماعات (كانت السيدة الاولى تصل متأخرة يوميا لان المرضى كانوا يحاصرونها في الطريق. مامي ، هذا .. ايتها السيدة الاولى ، ذلك .. ولم تكن تستطيع التخلص منهم لحظة) . وكنا نناقش ما الذي سيكون عليه العمل اليوم ، اي المجموعات سوف تتوجه الى الحديقة ، وايها الى اشجار الصفصاف ، من الذي سيعزق ، ومن سيقتلع العشب البري ، ومَن من المرضى يجب ان يعالج ، واين يجب أن تذهب الخيول ، هل سيتم الحرث او اي عمل خاص ـ بعبارة أخرى كنا نعد البرنامج اليومي . في احدى المراحل كان عليّ أن أخوض معركة طويلة بسبب هذه الاجتماعات اليومية ، نظرا لان البستاني واولد ويندي كانا يظنان انه من المهين لكرامتهما ان يقدما تقريرا يوميا لرئيس الاطباء . ولمدة اسبوعين ظلا يحضران الاجتماعات يوميا وقد بدا عليهما الضيق ، ولكنهما ادركا فيما بعد مدى غبائهما. بل وبدا كل منهما يشعر بالإهانة حين لا يدعيان الى «مناقشات القادة» .

وفي الساعة الثامنة يتوجه المرضى للعمل .

كانوا يعملون في ثماني مجموعات . ثمة اربعة ممرضين يتولى كل منهم الاشراف على جماعة من عشرة افراد . أما الخامس فهو لنوبتجية بعد الظهر ، والسادس للنوبتجية الليلية ، ويحل السابع محل المرضى القائم بالإجازة الاسبوعية . ولكن بهذه الطريقة تتم رعاية اربعون مريضا فحسب . وتظل اربعة مجموعات أخرى يجب الاهتمام بها . كان هؤلاء هم الذين يعملون «فرديا» في الحديقة بتوجيه البستاني نفسه . وعادة كان أولد ويندي يشرف على ورشة النجارة الدقيقة وورشة اصلاح الأقفال وورشة اصلاح الاحذية ، ولكنه عمليا لم يكن يوجه احد لانه على الرغم من كونه شخصا مجدا في عمله ، لم يكن يعرف كيف يشغل المرضى . اما مسز ليبزني فقد كانت على العكس تماما، كانت مجموعتها تقوم بالنظافة وأعمال المطبخ تحت ارشادها المقتدر . اما الباقين ، ويشملون الخياطين ، والذين لا يصنعون شيئا (كالشعراء مثلا ، ومارتين كيمست فيما بعد) فقد كانوا ينتمون لفريق السيدة الاولى .

وكما سبق لي القول ، كان المرضى يتفرقون في الساعة الثامنة . كان سانت جون المرتعش ، ومساعده ، الرسام السابق يتوليان امر المطبخ ، ثم يجمعان من

الحديقة طلبات المؤسسة والمستشفى لهذا اليوم . بينما يمضي كل من اولد تاتو واولد انكز واولد فاداناي بفئوسهم . كانوا لا يتبادلون حديثا فيما بينهم ، وانما يكتفون بمخاطبة أنفسهم . كان اولد تاتو يقترب بصورة خطرة من المحول الذي يتلقى منه الاشعاع ، وهاجمه ذات مرة بهراوة محاولا تحطيمه . فرتبت امر ابعاده عنه دون اي اجراء عنيف ، اكتفيت بنزع الهراوة من يده . ولكنــــه اقسم ان يحطمه يوما ما . واخذ يصرخ فيه بالفرنسية زاعما انه واقع في أسر العلاج . كان يتحدث الفرنسية جيدا (عمل صانع أقفال في فرنسا عدة أعوام) واعتاد العم مايك ان يتلو صلاة صباحية قبل ان يبدأ في الحس . كانت الصلاة منغمة كصــــلاة قسيس ، ولكنها كانت ابعد ما تكون عن ذلك ، نظرا لانها تتألف في معظمها من عدة لعنات شديدة القبح موجهة الى الوجبة التي انتهى من تناولها فورا ، والتي يعترض على كميتها او نوعها . اما أولد فيرنو فكان يقوم بالحس بــلا صلوات ، ولكنه حين يقع ناظريه عليّ كان يقول «تفضل يا سيدي اللورد واصنع شيئا من اجل البرسيم» وكنت أعد بأن أصنع شيئا يتلاءم مع كوني لوردا . كان أولد فيريز نزيلا على المصحات العقلية لمدة اثنين وعشرين عاما . وكان فلاحا مجدا ، لا يؤذي احدا . وكانت روزي ماشت ايضا تعمل مع البستاني ، ولكنها شرعت في اثارة العديد من المتاعب ، صارخة بإتهاماتها طيلة اليوم . لم تكن تمتنع عن العمــــل فحسب ، ولكنها لم تكن تسمح لاحد ايضا بالاقتراب من أحواض الاستنبـــــات الدافئة . وكان رجل الجبل ليزلي شديد الاجتهاد ايضا . كان هذا الجبل من الشحم يعاني اضطرابا في الغدد يعيقه عن الانحناء بالقدر الكافي ليعقـــــد رباط حذائه . وكان محبوبا جدا في ليبوتميزو وكثيرا ما كانوا يمزحون معه مستغلين سذاجته ولكن سرعان ما كان صوته العالي واقاصيصه الساذجة تثير اعصــــاب الناس . وكان يعمل عندنا بمثابة سائس وسائق بالتبادل . وجاء وقت اصبح فيه هنا ايضا شديد الثرثرة بشكل لا يحتمل . لم يكن يرضيه شيء . فكان يصب لعناته بصوت جهوري مطالبا بإعادته الى بودابست او الى أخته . وكتبت أخته موضحة بجلاء انها راغبة عن رؤيته . واستطعت ان اتغلب على ليزلي بحيلة طيبة أو ربما شريرة . لقد استكتب ليزلي احدهم بطاقة لرئيسة أطباء ليبوتميزو (كان شخصيا لا يعرف القراءة او الكتابة) يطلب منها اعادته الى هناك . ولم أرســـل البطاقة وانما كتبت الرد بنفسي على لسان المديرة . «عزيزي ليزلي .. لقد اثرت العديد من المتاعب هنا ايضا .. فأنت دائما غير مهذب ولا تقوم بالعمل .. إبق حيث انت ، وحاول ان تهذب نفسك». حين قرئت الاجابة على ليزلي، احمر وجهه ثم ابيض ، ولكن أثر الرسالة كان مذهلا . ليس في وسعي ان أكرر اللعنة التي أطلقها في حق رئيسة الاطباء البريئة ــ فلتغفر لي . لكنه غدا هادئا ، مجتهدا وطموحا ، وحاول ان يبرهن دائما انه ولد طيب .. وكان في الحقيقة ولدا طيبا.

كانت ورشنا تضج بالحياة . كنا في حاجة الــى ورش أزيد واكبر مزودة برؤساء عمال مدربين وفوق كل شيء الى مواد خام ، مواد خام وفيما

عدا هذا فقد تكفلنا بكل ما يمكن القيام به بدون رؤساء الورش والمواد الخام . كان كوشورني العجوز يقوم بكافة الاعمال الميكانيكية التي تتطلبها عادة دار في مثل حجم دارنا . كان يؤدي عمله بأيدي مرتعشة نتيجة ادمان الكحـــــول وتصلب الشرايين ، وكان جوكب البولندي يساعد اساسا في اعمال الكهرباء كما كـــان شغوفا بترميم الجدران المشروخة وتبييضها ، بينما يهلوس في خليط من المجرية والبولنديـــة .

وكانت الحدادة هي مملكة اولد ويندي ، هنا يمارس اشق الاعمال ، وكان العاملون في ورشة صناعة الأقفال يتسللون الى ورشة النجارة تحت دعوى انها اكثر اضاءة واقل جلبة .. ولكنهم في الحقيقة كانوا يحاولون الابتعاد بأكبر مـــا يستطيعون عن ديكتاتورية أولد ويندي . وكان لويس المتعدد الحرف يتولى ورشة الأقفال . كان يفهم كل شيء في العالم . كان قد تم تشخيص مرضه باعتباره «اكتئاب استجابي (تفاعلي) Reactive depression » بمعنى ان اكتئابه يرجع الى أسباب خارجية واضحة . ولم يكن يبدو سوداويا في ورشة الأقفال . ولكنه كان يخرج في اجازة من وقت لآخر فيعود محملا بالقلق وعصاب الهضم ، ويظل لعدة ايام لا يستطيع النوم الا بأقراص اللومنيال ، ولكنه يعود للهدوء . ولقـــد ابتكر بعض الاختراعات ، من ذلك مثلا منفاخ جيد لموقد الطهي الذي كانت أنابيب التهوية فيه ضعيفة . واصلح ذلك فعلا من طريقة عمله ، وفيما بعد عمل مـــع النجار في اعداد مخرطة خشبية من العوادم . كانت تبدو معقدة ، ولكنها قدمت امكانيات ممتازة للعلاج بالعمل ، بالاضافة الى اننا استطعنا ان نصنع بها قطـــع الشطرنج واللعب . اما سبب شهرة لويس المتعدد الحرف الحقيقية فكانت نتيجة انشائه استديو التصوير الفوتغرافي في المرحاض المهجور . واعد فيه ايضا قسما للتكبير ، وكان كل المواطنين في الجوار يترددون عليه ، ليلتقط صورهم ، بالاضافة الى «الصور التسجيلية» التي تصور العمل في الجرانج .

كان المشرف على ورشة النجارة يعاني ايضا من الإكتئاب الاستجابي . وصلنا وهو في حالة من الإكتئاب العقلي الشديد ، قريبا من الانتحار . كان رجلا متزنا وجادا ، وبغض النظر عن اكتئابه ، كان يعمل خلال النهار ، ويلعب الورق في المســاء . وكان نجارا ماهرا صنع أرفف ودواليب المؤسسة . وكانت مساعدته هي اولد مارجيتا ، وهي روسية اقامت بالمجر بعد الحرب العالمية الاولــــى ، تؤدي رقصة القوازق في المساء حين تكون معتدلة المزاج . كان احيانا يستغرقه الهذيان، عندئذ لا يسهل التعامل معه . ولم ار ابدا رجلا في مثل وداعته ، ولكنه حين يغضب ، يستحيل ثائرا الى درجة فقدان الوعي ، ولا ينصح بالاقتراب منه في مثل هذه المناسبات . ولكنه فيما بعد ينشد الغفران باكيا .

وكان ثمة غلامين مصروعين يعملان في ورشة الاحذية في وفاق تام . كان في وسعهما القيام بعمل رائع ، فيما لو توفرت لنا المواد الخام ، ولكنهما كـــان عليهما ان يقنعا باصلاح الاحذية الممزقة ، وحين كانا يتحصلان على ما يكفي لعمل

زوج من الاحذية يبدوان كما لو انهما في يوم عيد .

وكان هامستر يتولى زمام جماعة الذكور الاقوياء . وكانوا اليوم يعملون في هدم الأنقاض . كانت احدى الحظائر القديمة يتهددها الانهيار ، فقررنا هدمها . وطالبنا المسئول عبثا أن يحصل لنا على تصريح بالهدم فكتب مذكرة بذلك ثم لم يصنع شيئا ، كالمعتاد . واخيرا وبعد الانتظار بما فيه الكفاية أمرت بالهدم قبل ان تنقص العروق الخشبية ويدفن البناء المنهار احدا تحته . وكنت سعيدا في سري اننا نقوم بذلك دون موافقة رسمية ، فقد توقعنا ان يفد علينا مختلف الناس الرسميين ليفحصوا المبنى ثم يقررون الا يتولى ذلك سوى عمال البناء المؤهلين ــ لذلك كان من الافضل ان ننتهي من ذلك دون بيروقراطية قبل أن ينهار على رؤوسنا. وسوف تتحصل الورش بذلك على الاقل على بعض العروق الخشبية .

هكذا بدأ الان نزع الجدران . لم تكن مهمة سهلة ، وخاصة هدم السقف . قام احد مدمني الكحول وفصاميان ، ومريض بالهستيريا واحد ضعاف العقول بانتزاع القرميد ودحرجته الى الارض . حيث قام بحمله اثنان من المصابين بالصرع ، واحد الفصامين واحد ضعاف العقول . وأخذ هامستر يلقي بأوامره من أعلى احد العروق الخشبية ، بينما تسلق الغلامان الجدران الجانبية كالقردة وجذبا العرق الخشبي ليسقطاه في مهارة الخبراء . وكنت أخشى بصراحة أن يحدث شيء يشوه سمعة المؤسسة . لشد ما سوف يثير بعض الناس سماعهم خبر سقوط مريض من على سطح مؤسسة العلاج المهني الشهيرة . بيد ان الحذر الذي ابداه هامستر وكذا مهارة الغلامين جنباني هذه التجربة . وابتسمت في سري . كان دينيس القافز في البئر الذي قطع جلد ذراعه في سبع مواضع بالأمس محاولا الانتحار ، يتسلق الان حول العمود ، ولم يحدث ابدا أن فكر في الالقاء بنفسه في محاولة انتحارية .

في البداية اعملوا معاولهم في الجدار ، فبدأالطوب في التساقط . ثم خلخلوا أسفل الجدار بمساعدة كسارة واسقطوه محدثا ضجة كبيرة وسحابة عظيمة من التراب . لقد أحبوا هذا اللون من العمل . ان الاطفال (ومن المحتمل الكبار ايضا) يستهويهم التدمير ، أما المرضى على التحديد فيغرمون به . لم يكن في هذا العمل شيئا يبعث على الملل ، فهو يتضمن قدرا من الذهاب والمجيء ، وكمية من الصياح، ومن الممتع أن تراقبه . بل ان حتى العمال الاقل خبرة وجدوا ثمة ما يقومون به، لذلك ارسلنا جماعة روزي لتحمل الطوب وتقوم بالنظافة .

لم تكن جماعة روزي جماعة لها وزنها في خطة العلاج المهني ، كان لدى روزي المسكينة اقل المرضى نفعا ، ثلاثة ممن يعانون ضعفا عقليا شديدا وستة من المرضى بالهيبفيرنيا الاغبياء . وكان ايجوين السريع سرعة الضوء واحد من ضعاف العقول ، يبلغ طوله ستة أقدام ونصف ، ثم توقف نموه العقلي نتيجة للالتهاب السحائي وهو في سن المراهقة . قضى ثمانية اعوام في المدرسة وقادر على الكتابة بخط جميل وبدون أخطاء ، ولكنه يتصرف تصرفات طفل في الخامسة مليء

بالحركة . كان يذهب ويجيء في خطوات هائلة ، ولا يهدأ للحظة واحدة ، مطوحا بذراعيه ، ويأكل كل الوقت ، وغالبا وهو مستمر في الكلام . وكان شديد التدين ينتمي الى مذهب يبدو الان متخلفا . كان من عبدة الشمس . حين تشرق الشمس كان يهرع الى المروج ، ويرفع ذراعيه ويصرخ بصوت عالٍ : ايتها الشمس ! أسجد تواضعا أمام اشعتك المباركة ! ايتها الشمس ! الشمس ذات الجلال ، نشكرك لانك تدفئينا بأشعتك ! ايتها الشمس ! فلتكن قوتك مباركة»!
ثم يركع على ركبتيه ويهتز جيئة وذهابا امام المصدر القوي للطاقة . وقرر ، دون أن ندرك لماذا ، ان يصيح الجرانج بالصبغة الرومانية . صحيح انه لم يشرع بعد في ذلك ، ولكنه كان يصيح عدة مرات يوميا بأنه بصدد رومنة الجميع . ولكن كل ما فعله في هذا الصدد أن اطلق على زملائه من ضعاف العقول اسماء رومانية. فاطلق على ميكي الاعور اسم توليوس ، وأصبح زولي كارناش يدعى الان تيبليوس. لم يكن له جلد على العمل ، وكذلك كان توليوس وتيبليوس يفضلان اللعب .

ورغم هذا ففي الوسع احتمالهم اذا قورنوا بمرضى الهيبفرانيا . فهؤلاء كانوا من الحالات المحزنة التي عانت من الاصابة والتشنج في مطلع المراهقة . كان بول مودل براون يهز رأسه ويسعل كل ثانية . أما جوني جوبكس فكان مغلقا على نفسه ولا يمر يوم دون أن يتبول او يتبرز في ملابسه . وكان جويزي رونوي يرغب في العودة الى آلاج Alag فورا لأن البريطانيين والامريكيين يقصفون ميدانها الرئيسي بالقنابل . بينما يكتفي شارلي سابستيوت بالوقوف جامدا ، ويجيب على اي سؤال ب «لا» مصحوبة بابتسامة غبية . اما سلف كوندمنج فرانك فلم يكن يتكلم الا نادرا ، وكف لحسن الحظ عن تأديب نفسه كما كان يفعل كثيرا من قبل، فهو يلتقط التفاح من على الارض بعناية ، ولكن لا يمكن حثه على القيام بأي عمل آخر .

ورغم ما يبدو من عدم جدوى هذه المجموعة فان الامل فيها لم يكن معدوما كلية . لقد سبق وتحسنت على أيدينا حالات مشابهة الى الحد الذي أمكن تحويلها الى المجموعة المتوسطة . كما تم تحويل احدى حالات مجموعة روزي الى ورشة النجارة مباشرة ، حيث تقدمت تقدما طيبا . فهذه الارواح ليست على هذه الدرجة من القتامة كما يبدو للوهلة الاولى . فعلى الرغم من ان جوني جوبكس كان يوسخ بنطلونه فقد كان يتمتع بصوت جميل ويحب غناء الاغاني الشعبية وحدث ان هرب ذات مرة ، وعثرنا عليه على مبعدة ثلاثة قرى ، وتخاطب في طريقه مع العديد من الناس ، فأخبرهم في أسلوب متماسك انه قدم حديثا من بودابست للعمل في البناء ، ولكنه شعر انه من الافضل أن يعود الى مدينته ليعمل في مناجم تاتا ، وسألهم اين يجد محطة السكة الحديد التالية .. ودهشنا اشد الدهشة ، كيف يستطيع هذا الغلام العاجز الذي يبدو وكأنه لا يعرف اين يقيم أن يتحدث في ذكاء ويسلك مثل هذا السلوك السوي . وكذلك هرب ايضا شارلي سابستيوت الذي كان يكتفي بالوقوف متخشبا قائلا «لا» مصحوبة بإبتسامة

غبية ، صحيح انه لم يهرب منا ولكنه هرب من أمه التي قد حضرت لزيارته . ولقد هرب مع بول كنسكي ، الذي لم نسمع منه قط جملة مفيدة واحدة ، فغابا اسبوعا بأكمله لان الشرطة التي قبضت عليهم في اليوم الثاني لم تلحظ انهما مجنونين فأرسلتهم الى الجنوب بتهمة التشرد . كيف لم تكتشف الشرطة حالتهم فورا ؟ اليكم نموذجا لما كان يقوله بول كنسكي قبل هروبه : «لقد جرحت هنا ايضا ، رأيت نسوة يقدن سيارات ، لا عذر ، لان كل شيء يمكن مشاهدته هنا ، حين يفتتح المعرض ، فسيتم ذلك عن طريق ماكينة ، يا للسماء ، الزي الموحد لا يمكن اختراعه ، التيار المباشر احرقني ، ما الذي ينبغي ان اطالب به اذن ؟ بالاشارة الى هذا ، ليست لديّ اي حقوق ، ولذلك فسوف يصاب الكثيرون بجراح ، حسنا ، بالطبع سوف يموتون — ثم يَبعثون من الاموات ولكن متى ؟ الشرطة ، البرلمان ، الاجتماع العام ، هذا الرئيس وذلك ، ولكنني ألقيت بخوذتي المطافي على الارض ، ينظرون الى النسوة ، اين الصواب ، اين الواجب ، اين ارض الآباء ، هاو هاو !...» لعل ذلك هو خير نموذج لكلام تسوش . كان الى جانب ذلك يثور ويقفز ويتنقل بطريقة غير معقولة ، ويدخن سيجارته ويلعب بفمه على آلة موسيقية في نفس الوقت . اما شارلي سابستتيوت فكان على النقيض تماما ، كان يقف جامدا في ضحكته المرتبكة ، وبين الفينة والفينة يهز راسه ويئن باذلا جهدا عظيما قائلا «لا» . ما الذي فعلاه في قسم الشرطة . لدهشتنا الكبيرة اكتشفنا ان شارلي الاخرس تقريبا بعد أن تلقى صفعتين تدفق في الحديث كالشلال . ونسي بول كنساس لفوه الفارغ . فاعتبرا متشردين عاديين . كان الدرس المستفاد من هذا هو : ١ — ان الصدمة قد تأتي مع المرضى بنتائج لا يمكن تصديقها في الاحوال العادية .

٢ — انه لا يمكن ان نستخرج من المرضى الا ما في داخلهم . ولما كان الامل غير مفقود تماما بالنسبة لمجموعة روزي فان هؤلاء المرضى الذين يبدون على هذا النحو من القتامة والارواح المحترقة ، لم يحترقوا في الحقيقة وانما لا يجدون المتنفس فحسب . هناك مفتاح لشخصياتهم ، ويجب العثور عليه .

لقد كنا نسير في البداية في طريق خاطيء ، لقد حاولنا اكتسابهم عن طريق العمل الميكانيكي البسيط اعتقادا منا أنهم سوف يعتادون على العمل الممل اذا أدوه يوما بعد يوم . كانوا ينقون التربة من الحصى حيث سيتم انشاء طريق جديد ، وكانوا يحفرون في رتابة في مساحة لا يهم ان تحدث فيها اخطاء . لم يكن في وسعنا أن نقدم لهم اي عمل أبسط من هذا ، لكن النتائج جاءت سيئة بشكل لا يمكن انكاره . لقد مل المرضى المتبلدين العمل البليد . كنا نصدر عن مقدمة خاطئة ترى تعديل العمل بحيث يتلاءم مع النمط الجامد للفصامين ، لرتابتهم وخوائهم الانفعالي ، ولكننا كنا مخطئين . في وسع الذين يتمتعون بحياة داخلية نضرة أن يضفوا على العمل الرتيب مضمونا نضرا ، ولكن ما الذي في وسع الروح القاتمة ان تفعله ازاء هذا الملل ؟ لقد اصبح مرضانا اكثر تبلدا ، وأكثر خمولا

وضيقا بالحياة لقد تحققنا من هذا وغيَّرنا الاسلوب . والآن اصبح برنامج مجموعة روزي اكثر البرامج تنوعا . انهم يحملون الطوب اثناء عمليات الهدم ، الامر الذي يتضمن الذهاب والعودة بالاضافة الى مهام جانبية مدهشة ، فالطوب يجب ان يصنف ، وينظف ويوضع في العربة ، وتسحب بعيدا ، وتفرغ وتعبأ من جديد. وبعد ساعتين او نحو ذلك ثمة استراحة تحت شجرة الكستناء ، حيث تقرأ لهم روزي بصوت مرتفع . ثم يمارسون العزق وتمهيد الممر الـــــذي تتهدده دائما الاعشاب البرية ، وبعد الطعام يخرجون الى بستان الخوخ حيث تحتاج جـــور البطاطس الى عناية . ثم تدير روزي الجرامفون ، وتطلب من المرضى الجامدين الاغبياء مراقصتها ، او يذهبون للسباحة في حوض السباحة . كان هذا هـــو العلاج الجديد بالعمل لهذه الجماعة صعبة المراس ، برنامج جديد يوميا ، مليء بالمتغيرات وبالافكار . فبدا الاسلوب اكثر نجاحا . ان جوني كوبكس الذي كان يوسخ بنطلونه ، يغني الان أحيانا الاغنيات الشعبية بمشاعر عميقـــة وسرور ، ويتطوع شارلي سابستتيوت للقيام بدور الملك في مسرحية تدعى «الاميرة ويندي» ، ويقرأ دوره في صوت خفيض ولكنه دافيء ، وتحسنت حالة بول كنسكس بالقدر الذي سمح بتحويله من الجماعة ليلتحق صبيا في ورشة النجارة .

هكذا ظهرت احدى قواعد منهج الجرانج الى الوجود . لا تتوقع من المرضى ان يتلاءموا مع العمل ، ولكن يجب أن يتلاءم العمل مع المرضى .

اما اعضاء المجموعة المتوسطة فهم اولئك الذين سبق ان خرجوا عن خمولهم الاكتئابي ، وان كان عملهم بعد ليس مقبولا تماما . فلا زالوا يؤدون المهام الموكولة اليهم دون حماس متميز . لم يكونوا يقلون في فصاميتهم أو ضعفهم العقلي عن مجموعة روزي ، كانوا يهلوسون اثناء العمل ، ويأتون بإشارات ، ويحادثـــون انفسهم احاديث طويلة . ولم يتخلوا عن الهذاءات . ولكن نمي في داخلهم شعور اجتماعي وحيد وهو الشعور بالواجب . لقد اصبح العمل بمثابة ضرورة حيـــاة بالنسبة لهم ، انه يعطي لحياتهم مضمونا ، ويعطي معنى للمتعة والراحة التـــي تعقب العمل .

من بين الثلاث جماعات النسائية كانت جماعة واحدة فقط تعمل في الحديقة. كان معظمهن يقتلعن العشب البري ويلتقطن الحبوب وما شابه ذلك . في ركن آخر من الحديقة كانت المسز تاكاشي الثرثارة تثبت شجيرات الطماطم ، وتقــوم بولاندا بالزراعة ، بينما تعزق الزي لوتر وتهلوس على التوالي . ولحسن الحـظ كانت الزي بانوسك تقوم بالعمل وسط هذه المجموعة فتظل تضحك وتثرثر طيلة الوقت ، الامر الذي كان يضفي قليلا من الحيوية على العمل ، ذلك ان الاخريات لم يكن ينبسن بكلمة . كانت السمة المميزة للمريضات انهن كن اما يثرثرن باستمرار او لا يتكلمن على الاطلاق .

في الساعة الثامنة اذن كانت المجموعات المختلفة تتوجه للعمل .وكان فـــي استطاعتي سماع اوامر البستاني عبر نافذتي وأنا منكب على مراسلاتي . كانت

تردنا العديد من الرسائل : آباء يسألون عن حالة أبنائهم ، زوجات يسألن عن ازواجهن ، المرضى السابقين الذين تحسنت حالتهم وتم تخرجهم يكتبون تباعا طالبين سرعة الرد ، وحين كانوا يمتنعون عن الكتابة ، كنا نكتب لهم نستفسر عن حالهم ونتائج العلاج . كنت اعتبر هذا التتبع في منتهى الاهمية ، لان بدونه لا يستطيع احد ان يحكم على انجازات مؤسسة للامراض العقلية . ما الذي يمكن ان نتعلمه . اذا اعتبرنا احدهم قد تحسن ، وربما شفي ، بينما هو ربما تحت العلاج ثانية في مستشفى آخر للامراض العقلية ؟

لم اكن قد فرغت بعد من مراسلاتي ، حينما وصل العم ريبورتر اول الزوار. لقد جاء ثانية واحدة فقط ليعرف اين كانت تعيش جان دارك ، ومن الذي اكتشف التنويم ، متى ، واين ، ولماذا ، وكيف انتقلت خيول سان ماركو البرونزية الى بيزنطة ثم عادت ، هل كان بطل مسرحية «الاشباح» لابن يعاني من الشلل ، اين ظهر تعبير «الفصام» . وما الذي كانت عليه مستشفى بيستير قبل ان تتحول الى مصحة للامراض العقلية ؟ وبعد ان اجبت على اسئلته على قدر استطاعتي ، ظل جالسا بعض الوقت يشرح لي في تطويل أن الدم الذي فقده عقب خلع سنته بالأمس قد يضر به ، نظرا لانه فقد كمية هائلة من الدم ، على الرغم من اننا لم نعترف بذلك . وطلب ان اقيس له الضغط وافحص ساقه ، لأتأكد من انها ليست متورمة . كان العم ريبورتره مريضا بالسكر ويتوهم المرض ، وعنده ارتفاع في ضغط الدم ، بالاضافة الى انه يكتب كتابا في الامراض العقلية . كان يسبب لنا من المتاعب اكثر من السيكوباتيين ، ولكن على الرغم من مضايقاته فقد كنا نحب أن نضم بين ظهرانينا واحدا من هذا النوع .

وعقب ذلك وصل ساعي البريد . كان من بين واجباتي استلام البريد . كان يجب تسجيل كل ما يرد في دفتر رسمي ، ولم يكن في ذلك اي ضمان على ان طرودهم ونقودهم لم يتم سرقتها ، ولكن ليخلي مكتب البريد نفسه من المسئولية على الاقل . وكان عليّ الان أن أتأكد من سلامة كل شيء . وبصراحة ، لم يكن ذلك بالمهمة السهلة . لم يكن من الصواب أن نسلم الطرود للمرضى دفعة واحدة ، لانهم اما سيأكلون كل شيء لاول وهلة ، او ينسونه حتى يتعفن ، او يقوم المرضى الاكثر عملية بسرقته . باختصار ، يجب تقسيمه الى وجبات . كانت السيدة الاولى توكل امر الطرود الى قادة المجموعات ، او تشرف على توزيعها على فترات . وهذا هو السبب في أن من يدخل مخزن الاطعمة عندنا يتهمنا فورا بتخزين ما يفيض عن حاجتنا . ثمة سلامي ، وسجق وقطع ضخمة من لحم الخنزير معلقة على الجدران ، وثمة أطعمة في صناديق من كافة الانواع والاشكال.

كنت قد تأهبت لجولة عملي الصباحية عندما اندفع مارتين كيمست داخلا وروى بالتفصيل كيف تسير الامور في القضية التي رفعها في المحكمة . لقد حدث فعلا الشيء الذي يتفق تماما وحبه البارانوي لاقامة الدعاوي ، فلقد عمل في صيدلية ولكنه طرد منها تعسفيا بعد اسبوع ، وان لم يكن بدون سبب ، ومنذ

ذلك الوقت غرق في قانون عقد العمل ، وكم كان سروره حين اكتشف المزيد والمزيد من الثغرات . واتخذ اجراءاته بالطبع ضد رئيس الكيماويين بالمقاطعة . وكانت لجنة المصالحة قد قررت له خمسمائة فورنت كتعويض عن الفصل دون انذار ، وتم له صرفها ، ولكنه ظل غير راض . فخاطب وزار وكلاء نيابة وقضاة الحي والمقاطعة ، واحدا تلو الآخر . واعلن انه سيسير في الامر حتى يصل الى البابا نفسه ، لا طمعا فيما سوف يكسبه ، وانما طمعا فيما قد يخسره خصمه . ولقد استهواني سؤالين مبدايين اكثر من نتائج القضية المرفوعة في المحكمة . أولهما لماذا لا يستطيع مارتين أن يبذل مثل هذه الطاقة والذكاء في عمل منتج كما يبددها في التقاضي ؟ وثانيهما لماذا يفضل المجتمع الظلم ، والخروج على القانون والمماطلة التي يتسبب فيها ضياع الحقوق ، قبول عودة مريض سابق بمستشفى للامراض العقلية الى عمله ؟ ان المجتمع يلفظ ضحايا المصحات العقلية ويجبرهم على ان يصبحوا طفيليين . ان في وسع مارتين كيمست أن يتوافق مع احتياجات الحياة العادية ، ولكنه لم يكن قادرا على تخطي هذه العقبة الوحيدة ففضّل ان يعيش عيشة الطفيليات . فالحياة ليست سيئة في القفص الذهبي ـ الذي يكلف الدولة بالمناسبة اثني عشر الفا من الفورنتات شهريا ، ـ وهو بذلك يحرم مريضا آخر قد يكون أحوج منه الى الرعاية الطبية .

استطعت اخيرا في العاشرة ان ابدأ جولتي . اصطحبني المعالج المهني ، وكنا في هذا الوقت عادة نبدأ في خوض معاركنا العلمية . ولم يكن وقتا ملائما بالمرة ، نظرا لان المرضى كانوا يعترضون طريقنا باستمرار ، الا ان غاية جولتنا كانت هي تلك الاعتراضات بالتحديد . لكن هذا لم يجعل الشاب المتحمس يكف عن مهاجمة افكاري عن الفصام ، كان اكثر ما يضايقني انني لا ادافع عن وجهة نظري بمزيد من القوة ، وكل ما فعلته لاقناعه أن قلت انني على صواب وأنه على خطأ .

«أن ما ذكرته عن العلاقة بين الفصام والحنين للحرية ليس نظرية بقدر ما هو خبرة بسيطة . فكرة ، خاطر ، شك ، يفسر لي الكثير . ولكن صدقني لا أتوقع من كل انسان أن يفكر بنفس طريقتي» .

«هذا تواضع كبير» .

«نعم يا صديقي ، ان افتقادي الى المعرفة يجعلني متواضعا بعد فترة . انك تطلب حلا ، ولقد سعدت بمحاولتي لاكتشاف احد الحلول . انت دائما تهتم بالشفاء ـ بينما يسعدني انا عادة أن يشعر مرضانا بأنهم على ما يرام . وفي النهاية ربما لا يكون هذا هدفا متواضعا ...» .

حين تلفت حولي في الحديقة المخضرة ، محتميا من حرارة الصيف في ظل أشجار التفاح ، مراقبا هذا المجتمع الصغير النشط ، خامرني احساس خادع بأننا قد حللنا المشكلة ، هؤلاء الناس قد افاقوا ، وبعثوا من جديد ، وشفوا . كنت اعلم ان هذا ليس صحيحا ، يكفي أن يقترب المرء منهم ويستمع الى هذاءاتهم وهلاوسهم ويكفي أن يفكر المرء في الاحصائيات التي تشير بجلاء الى أن ١٨ بالمئة

منهم لا يشعرون حتى بمجرد السعادة هنا ، وأن ٣٨ بالمئة لن يتحسنوا ، ناهيك عن الشفاء .... وبينما كنت ارقب العاملين ، الذين لوحتهم الشمس ، في ضوء الشمس المتلألئة ، بدا لي ان ما أراه حقيقيا . لقد تملكتني افكار المعالج المهني المتفائلة ، فاعتقدت للحظة اننا وضعنا ايدينا على«العلاج العظيم» للجنون. احسست كأنني اصرخ في زملائي الذين انغلقوا على انفسهم ، تماما كمرضاهم ، داخل اربعة جدران قائلا : «تعالوا هنا ! تأملوا المرضى انفسهم هنا ! انظروا حولكم ، ثم عودوا أدراجكم ، وافتحوا اخيرا باب القفص الذهبي ... افتحوا أبواب كلا القفصين ...!» .

كان من الممكن هنا فقط في القفص الذهبي ان تراودنا مثل هذه الافكار فمن المسموح للطبيب هنا ايضا أن يخلو الى افكاره الصغيرة الخاصة «على اي نحو نختلف ، يا اخوتي» كنت أسأل المرضى ، مخاطبا نفسي . اين يكمن الفرق ؟ انظروا ، لدي انا ايضا وساوسي ـ فانا اعتقد أن في مقدورنا حل مشكلة الجنون ، ليس كل المجانين ولكن ربما نصفهم . ربما يصبح في وسعنا ان نضمن حياة لآلاف وآلاف من الاحياء الاموات تليق بالكائنات الانسانية . انظروا ، لدي تصورات ، مثلكم بالضبط . انني ارى (الجرانج) يتسع الى حجم هائل ، مرضى مشغولون في ضيعة ضخمة ، يسعدون بعملهم المنتج ويشعرون انهم على ما يرام: ارى المرضين الذين يمكنهم فهم هذا ، وارى الاطباء الذين يتفهمون هذا ، وارى الموظفين الرسميين الذين يفهمون هذا ...

مسحت العرق والرؤية من فوق حاجبي . كان اليوم شديد الحرارة وربما كان ذلك هو السبب في تلك الاوهام . لقد شعرت بحرارة معطفي الابيض ، ولعلي لم اكن لافكر في مثل هذه الترهات فيما لو ارتديت «شورتا» كما يفعل المرضى وأعاود الغطس في بحيرة السباحة بين الحين والآخر . قلت لنفسي أن تستيقظ وتكف عن الاحلام . انني في (الجرانج) مع تسعين مريضا ممزقا ، ولكنهم يرتدون «الشورتات» ، بحيث لا يرى احد تمزقاتهم . انت في الجرانج ، هكذا قلت لنفسي ، على رأس مستشفى اقليمية صغيرة ، مع المدير (بلا كلام فارغ) وأمين مخازن أشبه بالثعبان ، في الجرانج ، بعيدا عن مجلس المقاطعة العظيم وعن الوزارة ، ولن يصل صوتك الى بعيد ، انك في القفص الذهبي ، وهذه الاكمة من شجيرات الأكاسيا هي حدودك ... فأصح لنفسك .

***

هذا هو الكرنب ، وهذه هي البطاطس ، وثمة فلفل ايضا . لم اكن اعرف الباقي . هذا الجهل بعلم البساتين يسبب لي الخجل . كان المرضى يتجولون خلال الخضروات كالخبراء ويحدقون في حين اسالهم عن شيء يفضح جهلي . وربما كانوا يضحكون في خفية حينما يتذكرون انه سبق لي سؤالهم أسئلة من نوع : ما

هي انهار المجر الرئيسية ؟ من هو شكسبير ؟ ما هو حاصل ٤×٧ ؟ اليك اذن اختبارا للذكاء ، ربما كانوا يقولون ذلك سرا ، على كل حال بدوا مستكينين ، ولسبب لا اعلمه ازالوا السنادات التي ترتفع عليها شجيرات الطماطم .

ان رؤية هؤلاء العمال عن كثب تؤكد انهم ليسوا على هذا القدر من السواء كما يبدو . كان ايوجين ميكانيك قد اعلن وهو يضحك على استحياد انه لا يحق لنا ان نستبقيه هنا ، ما دام قد وهب جسده للسفارة السويسرية بغرض البحث العلمي ، ومع هذا ، فحتى هذه اللحظة ، كان راغبا في المشاركة في العمل . ورفعت آن ايديوت وجهها النحيل الجميل وسألتني ، وهي تغمز ، في صوت يسمع بالكاد عن حالة صحتي ، وكانت الزي لوتر تقاوم «تقبلها المزاجي» بمجرفة مشرعة . وظل فرانك نيميدي يقف متخشبا تماما حتى ساله رئيس الجماعة عما يفعله . وكان جورج تيتشر غير مقبل على العمل اليوم ، فطفق يحوم حول كاميلا بارتوس المختلة تماما ، متشوقا بشكل جلي الى ان يختلي بها بين الشجيرات . وكان ستيفن بسنكس يغمغم بكلمات غير مفهومة ، هازاً كتفيه . لم يكن الامر سيئا تماما ، فالعمل يسير بصورة ما ، كانت هذه هي المجموعة المتوسطة ، ومن العسير ان يتوقع منها المرء المزيد . كانوا يعيشون حياتهم الغريبة الخاصة ، يزاولون القليل من العمل في حالة من الهلوسة ، وربما لا يعانون من ذلك .

واتجهنا صوب اعمال الهدم ، ولم أعد أعير المعالج المهني المزيد من الانتباه ، بالرغم من انه كان لا يزال يشرح الدوافع وعمليات الكف في العقل الفصامي . وربما كان على صواب . وبينما جعلت ارقب ستيف درايفز وهو ينتزع الطوب بمهارة من أعلى الجدار ، فكرت ألا ندع هذا الصبي يرحل ، اذ سوف يغدو قائدا ممتازا للجماعة . ترى ما الذي سيقوله (بلا كلام فارغ) لو حاولت ان أعيد احد المرضى الى الجرانج كموظف ؟

ثمة نشاط هائل في موقع الهدم . حيث يتم تحميل الطوب ، ورصه ، وتنظيفه ، وخلع المسامير من العروق الخشبية ، وتكويم الالواح . وعلى مقربة، كان أولد ويندي قد انتهى من اعداد موقع للمظلة الخشبية ، كنا بصدد بناء مظلة من المواد التي استخلصناها قبل أن تضع احدى اللجان يدها عليها وكنا نأمل الا يجسر احد على الامر بهدمها ، متى انتهينا منها ، بسقفها القرميدي وارضيتها المبلطة . وحتى يحين ذلك الوقت فانها تزودنا بفرصة ممتازة للعمل . كانت مجموعة روزي تعمل هنا بطريقة اكثر حيوية عنها في احواض الخضر .

واخذنا طريقنا الى الورشة حيث كان مريضان بالاكتئاب يعملان في سعادة . كانوا على وشك تجميع المخرطة الخشبية . وقد جعل بول كنسكس من نفسه تلميذا لهما ، منذ عاد من اسبوع التشرد الذي قضاه في الخارج ، وكان يبدو ان عقله آخذ في الصفاء تدريجيا .

القينا نظرة على المطبخ ايضا ، حيث كان اربعة او خمسة من المرضى يساعدون الطاهي وخادمتي المطبخ . كانت جيزيل مول اشدهن نشاطا . وكان في وسعها

منافسة جولي بانساك في القبح . كانت ضعيفة العقل ومصابة بالهوس تحت الحاد Hypomania . فكانت تغني في صوت عميق ، وترقص او تصيح بكلمات مضغومة في غضب (اذا استثيرت ، تخرج عن طورها فورا ، فتصرخ وتسب ، ثم تثوب للهدوء سريعا ، لتعود وتخرج عن طورها من جديد) . كانت مهمتها تنظيف القذارة المتراكمة . وحين يأتي احد الضيوف الى الجرانج تنشق الارض فورا عن جيزيل مول لتستعرض نفسها . في شريطها الازرق الفاتح المثبت في شعرها ، وتقدم احتراماتها في لطافة دب ، وتبتسم ، كاشفة عن سنتها الوحيدة ، وتغني في نغمة (باص) أغنية كوشوت ونشيد الأممية . وتصفق بعد ذلك لنفسها ، وتشرع في الرقص ، وقد بدت راضية تماما . وحين كانت تخاف (وما اسهل إخافتها نظرا لجبنها وسهولة اقناعها) كانت تصرخ كالناعورة .

وكانت تعمل في المطبخ امرأة شابة ذات وجه حزين ، لا يسمع صوتها الا بالكاد . كانت هذه هي المريضة التي اشعر ازائها بأشد الرثاء في الجرانج . كان لديها اطفال ثلاثة ، اصيبت بالجنون عقب ميلاد الثالث . وكان ذلك منذ ثلاث سنوات . وقد أودعت في ليبوتميزو اولا . حيث اثارت الوجبات غير المنتظمة في نفسها الاعتقاد بأن الطاقة الذرية تدمر جسدها ، فكانت تثور وتهذي من وقت الى آخر . كان من الصعوبة بمكان الاقتناع بأن هذه التي تقوم الان بالغسيل وطهي الغذاء بهذه الابتسامة الوديعة . قد سبق لها مهاجمة المرضين بحيث اضطرتهم الى تقييدها . لقد عولجت لمدة طويلة وتحسنت في بطء . كانت امنيتها الوحيدة أن تعود الى منزلها واطفالها . وكان قد سبق وضعها تحت المراقبة ثلاثة مرات ، لا مع اطفالها وانما تحت اشراف والديها المسنين نظرا لان زوجها عندئذ قد اتخذ لنفسه امرأة اخرى يعيش معها . وقام والدها بردها ثانية عقب ايام قلائل في حالة مشوشة فقد عادت اليها ثورتها فحطمت ما حولها ، بحيث لم يكن في الامكان الاحتفاظ بها في المنزل . ما هي المشكلة ؟ لقد ظلت راغبة في الذهاب الى المنزل لزوجها ، وأولادها ...

وقضت بيننا شهورا قلائل وهي حزينة ، صامتة .

«كيف حالك يا آن» .

«على ما يرام .. ولكنني افضل العودة للمنزل ..»

وكنتيجة للعلاج الطويل بالصدمات الكهربائية ، سقطت غشاوة على ذاكرتها. فلم تعد تتذكر الا بالكاد ان لها ثلاثة ابناء في مكان ما من العالم . ولم تدرك ابدا لماذا لا تستطيع ان تكون معهم . كانت تؤدي باجتهاد اي نوع من الاعمال دون أن تنبس بكلمة . وكان الخوف يملأ نفسها . يا إلهي . ما الذي تخافه الان ؟ لقد حاولنا الاقتراب منها ــ ولم يكن ذلك مجديا ، لم يكن في قلبها متسع لاي شيء، سوى اطفالها الثلاثة . كانت تبدي امتنانها لاي كلمة طيبة . وحلت وداعة جادة محل عبوسها المنبعث عن الخوف في الاسابيع الاولى . ربما لم تعد تخافنا ، ولكن ليس في وسعها أن تفتح لنا مغاليق صدرها .

وكتبت لزوجها . فأعيد الخطاب برجوع البريد . كتبت لأختهـــا . فردت تبدي اغتباطها لتحســن آن ، وان كان من غير المستحب ان تعود الان نظرا لان المراة الاخرى قد رزقت لفورها بمولود ... واعطتني عنوان الزوج الجديد . كتبت اليه فلم يرد علينا .

ما الذي اصنعه بآن ؟ كيف يمكنني مواساتها وتشجيعها ؟ لقد شفيت تماما من فصامها ، وان بقيت هيابة وجلة ذات ذاكرة ضبابية . هل يتعين ان تظل نزيلة المستشفى الى الابد ، مبعدة عن اطفالها لمجرد ان زوجها يعيش الان مع امـــراة اخـرى ؟

كانت مســز ليبزتي تتولى الاشراف على النظافة المنزلية في المبنى الرئيسي. فكانت ايرين بوتل تمسـح الارض في صمت ، بينما تدندن ماري دايلدر بصوت جميل حقا وهي تقوم بالتنظيف ، وكانت العمة ايرما العجوز تغسـل النوافذ ، وهي تتعلـق بالقضبان ، متحدثة الى نفسـها بلا انقطاع . ان الجرانج مدين لإيرما المحبة للسلام التي تبلغ الثالثة والسـبعين من عمرها . اذ كانت تعكف دائما على النوافذ تلمعها في شغف . اقول في شغف متعمدا ، لانها تعبر بالضبط عن حمى تنظيف النوافذ التي تجتاح شخصـية العمة ايرما بكاملها . لم يكن حديثها مع نفسها هلاوسا ، فلم تكن تناقش شخصـا متخيلا ، ولكنها كانت ببساطة تحب ان تفكر بصوت عال ـ من يجب أن يمنعها ؟ كانت تـسـتثير ذكريات قديمة ، وتديـــر محاورات طويلـــة ، وتتشاجر او تتملق ، وتحاضر ، وتحزن ، وتحكي ، وتداهـــن ، وتعتذر او تدعي ، ودائما بصوت عال . لم يكن ذلك يحمل اية سمات مرضية ، ولكنه كان خارجا عن المألوف . ولقد فسرت العمة ايرما ذلك بنفسها .

«حدث في مستشفى المقاطعة أن رأيت الطبيب المساعد نازلا السلالم بمفرده، على الاقل كان يظن انه بمفرده ... كان يتكلم بصوت عال ومستخدمـــا يديه . حسنا . اذا كان الطبيب المساعد يصنع ذلك ، فلماذا لا يصنعه المريض ايضا ؟»

من لم يتكلم مع نفسه قط بصوت مرتفع فليلقها بحجر .

الفارق الوحيد أن العمة ايرما كانت قد تخلصت تماما من كل ضوابطهـــا الاجتماعية ، فكان في وسعها الحديث الى نفسها حتى حين لا تكون بمفردها .

كانت قد عاشت في المستشفيات العقلية منذ شبابها ، وشخصت حالتهـــا باعتبارها ضعيفة العقل ، ولكن ، اذا شئنا الصراحة ، كان الكثـــير من النسوة اللواتي في الثالثة والسبعين من عمرهن يحسدنها على ذكائها . كانت تتحـــدث المجرية والالمانية ، والسلوفاكية ولا تقرأ الجرائد اليومية بانتظام فحسب وانمـــا الكتب الجيدة ايضـا . لم يحدث ابدا أن سمعت منها كلمة فارغة المعنى . وكانت من أسرة طيبة ، واعتقد ان سبب ايداعها يعود الى انها تنكبت سواء السبيل في شبابها (كانت أحيانا تتكلم عن السجن الذي قضت فيه زمنا كبيرا) فتخلصت اسرتها منها بإيداعها في مستشفى عقلي . لقد كانت العمة ايرما في غاية السعادة هنا ، تنظف النوافذ في شغف .

يمكن ان تلقى قلة من المرضى السائرين على غير هدي في الطابق الاول . توجد ثمة ايرما اخرى ، ايرما المتعددة الخطاب ، كانت عاكفة على ماكينة الخياطة وهي متعكرة المزاج مؤقتا ربما لنقص **الخطاب** . وكانت الزي ماجيار تقوم برفق الملابس في حجرتها ، وتقوم الزي ويني ببعض الاعمال المختلفة للسيدة الاولى ، بينمـا انتابت كاميلا بارتوس ، احدى الخياطات ، حالة من الاضطراب الشديد لدرجـة تعوق اسناد اي عمل اليها ، فنزلت لتتسكع في الحديقة . اما استر لا بانز التي كانت مضطربة بدورها ، فقد انسحبت الى غرفتهـا واختفت تحت بطانيتها . وجلست هيلين انكز في الاستراحة الى الآلة الكاتبة في مواجهة رسومها الخاصة تكتب في سرعة البرق ولكنها ترمق شخصا ما عرضا بنظرة مخيفـة شاحبة . وانشغلت ميزي التي تعمل بالتطريز في أشغال إبرتها ، وتتطلع الي احيانا فـي امل ، تظن انني قد أدعوها للعب الضامة . وكان مارتين كيمست يسعى متكاسلا ، لا يصنع شيئا ، لانه يدبر خطة للانتقام من رئيس الكيميائيين . وكان امير الحزن يتناول افطاره . لقد عاد للاستيقاظ المتأخر والتلبث في مكانه الى ما لا نهاية في المساء ـ وكانت هذه علامة سيئة ، وكان ينتوي الذهاب الى القرية للحلاقـة ، فكنا نعرف بالتالي انه سيتأخر عن الغداء ايضا .

كانت الساعة الحادية عشر حين عدت الى مكتبي . كنت اريد قضاء الوقت المتبقي قبل الغداء في كتابة ملاحظات جديدة في سجلات المرضى الطبية . كانت هذه مهمة الطبيب المجوز ، بيد انني اكتشفت انني سوف افقد اثر تطور المرضى وسير علاجهم اذا لم ادوّن انا السجلات بنفسي . بهذه الطريقة فحسب كان في استطاعتي أن ابقي على الموضوع بأكمله في متناول يدي متحاشيا تغافل المرضى الاكثر هدوءا الذين لا يسترعون الملاحظة غالبا .

ولكنني لم امض في عملي طويلا هذا اليوم . كنت قد انتهيت من وضـع البطاقة الاولى على آلة الكتابة حين ظهر العم ريبورتر طالبا ان يعرف على وجه السرعة ما الذي تعنيه كلمة سفر الرؤية بالمجرية ، ومتى عاش ليبنتز ، ما هـو مرض ارتعاش الاطراف ، ما الذي اشتهر به ايرازموس روترداموس ، وهل أتكرم بفحص الابيضاض الذي يكسو شفتيه واقيس له ضغط الدم ؟ كان من المتوقع أن يظل مقيما مدة طويلة لو لم تقطع حديثنا صرخة تتجمد لها الدماء .

حتى لا اغمط الممرضين حقهم ، اعترف انني حين وصلت الى عنبر السيدات متقفيا الصوت الى حجرة استر لابانز ، وجدت السيدة الاولى ، والأخت إمـا وروزي وهامستر قد سبقوني الى هناك . كانوا يعلمون جيدا كيف يهرعون الى هنا في ثانية واحدة من شتى ارجاء المكان . وكانوا يستحقون كل المديح لانهـم منعوا أنفسهم من القيام بأي عمل واكتفوا بالمراقبة بينما اخذت استر لابانز تهذي. كنت فخورا بالمنهج الذي علمتهم اياه . ففي اي مكان آخر كانوا بالتأكيد يهاجمون «المجنون الهائج» بأن يطرحوها أرضا ويقيدونها او ما هو اسوأ من ذلك . كانت لا بانز تمر بنوبة هستيرية . وكان ذلك يبدو مستغربا . نظرا لانها لم تكن حالة

هستيرية وانما حالة فصامية . ورغم هذا فليس ثمة مجال للشك في انها تمر بنوبة هستيرية من النوع الشديد الخطورة . كانت استر تتمرغ على فراشها ، وتلقي بنفسها في الهواء ، ثم تسقط ثانية ، وترفع ساقيها عاليا ثم ترفس وهي مستمرة في الصراخ بأقصى طاقتها . ثم تطرح نفسها على الارض مستمرة في حركاتها ، متدحرجة تحت السرير لتعود ثانية ، لتتدحرج عبر الحجرة كلها (دون ان تصطدم فيما يشبه المعجزة بأي شيء) وقد توترت كل عضلاتها . كانت عارية تقريبا ، فلقد انزلق قميصها حتى بلغ عنقها . وكانت تصرخ وقد فتحت فمها على اتساعه ، نصف باكية ، نصف ضاحكة ، لكن دون ان تذرف الدموع . بدأت تتعب اخيرا . وفي حركات سريعة تشبه زحف الثعبان ، عادت الى سريرها ، وانتفضت عدة انتفاضات اخرى ، ثم ارتمت منهكة . بدت عيناها مغلقتان ، لكنها كانت ترى وتسمع كل شيء . وحين علقت الأخت إما تعليقها الاقرب الى الغباء قائلة «حسنا ، أعتقد اننا راينا كل شيء» . اجابت استر في هدوء وبصوت منخفض «لقد رأيتم كل شيء . يمكنكم اذن ان تذهبوا الان» .

وعملا بنصيحتنا نهضت ، وترنحت صوب الحمام ووقفت تحت الدوش البارد.

كانت مثل هذه الاحداث تبدد سكون المؤسسة ، وان لم تبدد سلامها .

كانت استر لا بانز من الحالات الصعبة . ما الذي يجعلها تمر بنوبة هستيرية بينما هي حالة فصامية ؟ صحيح انها كانت منذ اشهر معدودات نزيلة عنبر الحالات المضطربة في ليبوتميزو ، وكانت مقيدة معظم الوقت ، ولكنها لم تقم بإيذاء احد هنا قط . وبينما كنت اراقب هذيانها الهستيري بدأت اعتقد انها كانت «تهذي» على هذا النحو في ليبوتميزو ايضا ، وانها اصبحت عنيفة لانهم كانوا يحاولون منعها خلال النوبات التي تعتريها .

وعلى الرغم من الهستيريا ، فقد كانت هذه حالة فصام تقليدية ، مصحوبة بالهلاوس ، والخلط الكامل ، وهذاءات الاضطهاد ، ورفض العالم . كان العامل الرئيسي في حالتها أن كل تفكيرها المختلط يدور حول حياتها الجنسية . ولقد علمت من سجلها انها تزوجت مرتين — او هذا ما ذكرته على الاقل . وقد أعلن عن فقد الاول خلال الحرب ، ولكنه ظهر حين انجلى الموقف وأقض مضجعها بينما كانت تعيش مع زوجها الثاني . وكان هذاها ، الذي تدور حوله هلاوسها ، ان الزوجين يتداخلان بعضهما في بعض خلال الواقعة الجنسية . وحين جاءتنا استر ، كانت قد كفت عن الحديث في هذه الموضوعات كما عملت في مثابرة . لقد كانت لطيفة جدا . واستمر ذلك الى حين . فبدات بغتة تشكو من اضطرابات هضمية ، وهذه دائما العلامات السيئة ثم كفت عن العمل ، ورفضت ان تأكل ، طالبة اطعمة غير معتادة ، وتكورت في سريرها طيلة النهار . (لم يكن ثمة مرض في معدتها) . ثم هربت فجاة . وأحضرتها عربة الاسعاف ثانية من المدينة المجاورة في اليوم التالي . كانت معنوياتها مرتفعة واعترفت للسيدة الاولى بسر هربها . كانت تحن للرجال ، ولم يكن هنا من يطارحها الغرام ، وقالت انها دبرت

ان تعثر على شخص في القرية المجاورة ، قضت معه يوما وليلة وأرخت نفسها. كان ذلك صحيحا ، لا اعرف بالضبط . على كل حال ، لقد ظلت على ما يرام لمدة ايام قلائل ، ثم بدأ يداخلها الحزن ثانية . ولكنها سرعان ما اشرقت ، فلقد أغوت مريضا شديد الوسامة ـ وهو فصامي مضطرب تماما ـ وظللنا عدة ايام نلمح سعادتهم سويا . وان توقعت أن المتاعب سوف تثور ، لأن الشاب كان عنينا . ويبدو أن استر قد اكتشفت ذلك ، فحدثت لها النوبة الهستيرية . وشرعت الان في المطالبة بصوت ضعيف ولكنه مليء بالعزم بأن نعيدها الى منزلها فورا لانهـا حامل . وكان ذلك حوازا جديدا ذا مضمون مزدوج : الرغبة الجنسية المرتبطة بالحنين الى الحرية .

ومن الطريف انه كان لدينا مريضتين اخريتين بالاضافة الى استر تم تشخيصهما كحالتي فصام ، وكن يبدين أعراضا هستيرية . كانت الاولى هي الثرثارة المتوهمة المرض لوس تاكاش، وكانت الاخرى هي ماري وايلدر التي أعيدت من مزرعة الدولة مصابة بالشلل الهستيري . وكانت شخصيتا هاتين المرأتين تدور كلية حول الجنس . ولم تكونا تشكوان الان من اي اعراض فصامية ، ولكن كان عليهما أن يظلا في المؤسسة بسبب الغباء العقلي والحاجة الى الوازع الاخلاقي فحسب . ومن ناحية أخرى فان الطاقة الجنسية للفصاميين الخلص لم تكن زائدة عن الحد (بعض الشبان كانوا يمرون بهذه المرحلة الانتقالية ، وسرعان ما تنتهي) وانما يعانون بدلا من ذلك من الاكتئاب العميق والانغلاق على الذات . ان نوبة استر لا بانز الهستيرية والحالتين الاخريتين يؤكدان انه حين تتزايد الشحنات الجنسية لدى المريض الفصامي ، فثمة اثر للهستيريا .

***

اعلنت الساعة انتصاف النهار . انتهى العمل الصباحي ، وتجمع المرضى . كان الامر يستغرق نصف ساعة قبل أن يتجمع الحشد كله . لم يكن من السهل التدخل لايقاف العمل . كان هناك ثمة عمال حوازيون يصرون على الانتهاء من الكومة او ملء السلة غير عابئين بالجرس ، على حين ينشغل المرضون بمن تجمعوا فيرسلون المرضى لغسل أيديهم اذا لم يكونوا قد فكروا في ذلك من قبل .

كانت موائد صالة الطعام في الطابق الارضي مغطاة بالمفارش البيضاء والأطباق والملاعق والشوك والسكاكين . ما زال البعض يصرون على الامساك باللحم بأيديهم وابتلاعه بأكمله . وكان من دواعي سروري الا يحدث هذا فلقد كان يحق لي الفخر بأننا لم نكتف بالتخلي عن ذلك النظام اللعين حيث يوضع طعام المريض كله في طبق دفعة واحدة بل قدمنا للمرضى بعقولهم الشوك والسكاكين ايضا . كانت قلة منهم لا تستخدم السكاكين المتاحة لانهم يفضلون استخدام مطاويهم الخاصة .

لم تحدث اية اضطرابات نتيجة استخدام مرضانا العقليين للشوك والسكاكين

في تناول الطعام واحتفاظهم المطاوي ، ولا في حالة أولئك الذين يفضلون الحلاقة بأنفسهم ، ويحملون ايضا الامواس **الشديدة الخطورة** .

كان الطعام يصل الى صالة الطعام في أواني ضخمة . ويقوم المرضون بوضعه في الاطباق ، حيث يحمله اثنان من المرضى على الصواني . وغالبا ما يحدث بعض الشجار عادة ، احدهم يشكو قلة نصيبه ، وآخر يرى ان الطعام رديء ، وقد يشرع واحد في الشجار مع جاره ـ لكن هذا لم يكن في الحقيقة مثار للدهشة اذا ما وضعنا في اعتبارنا تجمع تسعين شخصا . كنا نمر خلالهم، فيوزع الطبيب العجوز السجائر على الرجال ، بينما تقوم السيدة الاولى بنفس المهمة مع النساء ، كما يوزع على المرضى بالصرع علاج منتصف النهار من الاقراص . كان المرور وسط الموائد بمثابة نوع من الترويح بالنسبة لي . كنت اتظاهر بانني اتأكد ان كل شيء على ما يرام ، ولكنني في الحقيقة كنت استمتع ببساطة بهذا الاجتماع الاسري . كان محبي الثرثرة ينتهزون الفرصة ليعرضوا مشاكلهم ، او يطلعوني على انهم خزنوا البطاطس او انتهوا من حفر احدى الحفر ، او يقصون عن بعضهم الحكايات ، وكنت أرغب في سماعهم .

كنا نتوجه في الساعة الواحدة الى تناول غذائنا في قاعة الطعام المخصصة لهيئة المستشفى المجاورة للمطبخ ، والتي تشتهر بخلوها من التدفئة ، بحيث كنا نكاد نتجمد من الصقيع في الشتاء . لحسن الحظ كنا الان في الصيف ، وقد وعدونا بموقد في الشتاء الثالث .

كنت لا أعرف ما يدور فيما بين الواحدة والثالثة الا من الآخرين لانني كنت استغرق في غفوة خلال تلك الساعات . ففي الحرية التي اتيحت لي في القفص الذهبي ، تمكنت في النهاية من التغلب على ما يعتري كياني من خمول يومي اثر تناول الغذاء . لله در هذا القفص الذهبي الذي سمح لي بهذه الاغفاءة البناءة . هل كنت سأجد هذا الوقت في اي مكان آخر لانفاق هاتين الساعتين الفارغتين على هذا النحو الرائع الم أكن مضطرا حتى في ليبوتميزو الى التظاهر بالعمل واتثاءب في غباء خلال الساعات الضائعة التي انفقتها منحنيا على أوراقي .

ومع هذا فقد كنت أعرف ما يدور في (الجرانج) . ففي ايام الاسبوع العادية كان بعض المرضى يستلقون في الممرات او على أسرتهم وبعضهم يستحم في بحيرة السباحة ، وكان الآخرون يذهبون للنزهة او يثرثرون او يقفون متخشبين وقفة انتباه كل وفق ميوله . كان البعض يعود من فوره للعمل عقب الغذاء . ويقرع الجرس في الساعة الثانية ، فيشرع الآخرون في التجمع في جماعاتهم ويتوجهون للعمل .

وكان مساء السبت عطلة . فكان المرضون يغلقون الباب اثناء الغذاء . هل كان هذا يعني انه في بيت الحرية ينقضي مساء السبت خلف الابواب المغلقة ؟ ابدا . انهم فقط يعدون لحمّام السبت ، فهم يغلقون على المرضى حتى لا يختفون في الوقت المناسب . في الساعة الثانية كان يحدث هرج ومرج ، فترسل

التعليمات الى اولد ويندي لكي يفتح تيار الماء الساخن ! الصنبور قد تلف ! المياه لا تنساب ! ولكن كل شيء يسير على ما يرام في النهاية ، فينساب الماء ، ويتزاحم المرضى في الحمام . ولا اجد داعيا لكي اذكر ان من قاموا بإعداد القصر لم يضعوا في اعتبارهم ما الذي يعنيه استحمام تسعين شخصا في تسعين دقيقة. كانت الصنابير الاربعة والأدشاش الاربعة قليلة جدا . فكان ثمة تزاحم ، وصياح، وتدافع . كان البعض يحبون الاستزادة من التمتع بالماء الساخن ، بينما كان البعض الآخر يدفعون تحت الصنبور قسرا .

كانت الساعة تتجاوز الثالثة حين تنتهي السيدة الاولى من الحمام وإلباس كل شخص ملابس نظيفة (كان هذا بمثابة قلق اضافي أسبوعيا . هل ستكون ثمة ملابس نظيفة كافية ؟ فان مخزوننا من الملابس يقل ، وبدلا من امدادات جديدة لم نكن نحصل الا على الوعود) . جعلت أنتظر السيدة الاولى بذهن صاف وبن مطحون لتوه . ان اروع لحظات اليوم كانت تقترب ــ اول فنجان من القهوة . ان جميع مقاهي بودابست لا تساوي شيئا امام القهوة التي تعدها السيدة الاولى في القفص الذهبي .

***

لم تكن رعاية المرضى تنتهي مع جرس المساء . بل على العكس ، ان الجزء الرئيسي على وشك الابتداء . ففي الصيف لم يكونوا يأوون الى اسرتهم قبل التاسعة او العاشرة مساء ، وفي امسيات السبت الطويلة . وكذلك ايام الآحاد الاكثر طولا كان على المرء أن يبتكر البرامج لتسلية المرضى . لم يكن ذلك يلقي الا القليل من الاهتمام ، ولكنني أدركت الان ان مهنة تزجية الفراغ لا تقل اهمية عن العمل في العلاج البيئي .

بعد ان ارتشفت القطرة الاخيرة من قهوتي وذهبت الى العنبر ، وجدت ريبورتر في انتظاري مترقبا ، كان اقرب الى الاستياء لانه منذ نصف دقيقة خلت تصيدني باتيولا هذا الابله حارس المرمى السابق وجعلني انصت لتقريره الروتيني عن أن كل شخص موجود ، ولم يهرب احد ، والامور تسير على وتيرتها حول بركة السباحة .

قال ريبورتر متذمرا «طبعا ، حين أرغب في رؤيتك ، تخبرني انه لا وقت لديك . وانك مشغول . عندك اجتماع . وهكذا ، ولكن حين يفتح باتيولا او مغفل آخر بابك ، تدعوه للدخول ، وتلقي بكل شيء جانبا وتستمع لفخامته ..»

«هذا ما انا هنا من اجله ، الا تعتقد ذلك ؟»

كان يريد أن يعرف على الفور اي الأعراض تنشأ عن التسمم بالهندباء **henban** ما هو عدد انواع السوطيات **Alagellants** الموجودة في المجر ، من هو القديس كيريانوس ، في اي الدول تقع شيلزويج هولشتين ، وما اسم عشيقة السير

تانكريد . كانت لديه عدة اسئلة اخرى لم استطع الاجابة عليها ، فعاد الى آلته الكاتبة ، محملا بثمانية مجلدات .

ونظرا للحرارة الشديدة كان المرضى يقضون معظم وقت فراغهم حول بركة السباحة . كان طولها سبعة وعشرون قدما وعرضها عشرة اقدام . وكان السكان السابقون للمكان قد تركوها لنا في حالة خربة ، وظللنا مدة عام نستجدي الأسمنت والملاط وسائر المواد الاخرى ، نظرا لان الخبراء قرروا انه لا يمكن اصلاحها بدون ذلك . وحصلنا على الوعود بدلا من الاسمنت . واخيرا خطرت لي فكرة خلقت عهدا جديدا . لقد امرت بملء البركة بالماء للتجربة . وبعد بعض المقاومة من جانب الخبراء ، تم ذلك ، فتبين ان مستوى الماء ينخفض بمقدار بوصة واحدة يوميا ، ولكن عن طريق اعادة ملئها بانتظام ، أمكننا استخدامها دون حاجة للملاط او الاسمنت . وشجع ذلك اولد ويندي . ففتش على بعض المواد المهملة في مخازنه ورمم بها الشقوق الواضحة للعيان . فقلّت الان كمية الماء المتسرب . واكتشفنا في مخزن السيدة الاولى كنزا عظيما : ثلاثون ياردة من القماش لم تدوّن في اذون الاضافة المخزنية ، فصنع منها الخياطات أردية للسباحة ، وهكذا بدأت السباحة . او «العلاج بالماء» اذا شئت المصطلح العلمي. تستطيع أن ترى اجسادا سمراء ترش وتشترك في مباريات السباحة ، وتغطس في الماء ــ وبعبارة أخرى يمضون الوقت كما لو انهم ليسوا فصاميين ، ومصابين بالصرع ، وضعاف العقول .

لم يكن في وسع بعضهم بالطبع الاقتراب من الماء اطلاقا . وبخاصة الفلاحون القدماء .. ولكن الفلاحين القدماء لا يقربون بحيرة بالاطون حتى ولو عاشوا بالقرب من شاطئها طيلة حياتهم ، هذا لا علاقة له بالجنون . ومن ناحية اخرى، كان هناك فصاميون شبان لا يمكن انتزاعهم من جمودهم الكتاتوني (التخشبي) Catatonic ، ومع هذا كانوا يبدون سعداء في الماء كما لو كانت الحياة قد بعثت فيهم .

وبينما كنت اتصفح سجلاتي عن المتحمسين واضحك على منظر ليزلي رجل الجبال الذي يزن ستة عشر ستونا وهم يدفعونه الى الماء ، دخل عليّ زائر خارجي هو والد بول كنسكي . كان الزوار يترددون بكثرة وخاصة في نهاية الاسبوع في فصل الصيف . كانوا يصلون عادة بعد ظهر السبت ويمضون المساء ويوم الاحد وتعودنا على ذلك فوضعنا عنبر العزل تحت تصرف الزوار ، ولحسن الحظ اننا لم نكن نستعمل عنبر العزل للعزل .

وكنت اغتبط بالزوار عادة اذ كان في وسعي ان أعرف من استجاباتهم مبلغ تحسن المرضى ، واستمتع بالانطباع الذي تتركه مؤسستنا في نفوس هؤلاء الناس الأسوياء «ذوي الخبرة» . كان أقارب المرضى قد خبروا عددا من المستشفيات العقلية وصعقوا للفارق . كانوا يتطلعون حولهم في ذهول : هل هذه الحرية حقيقية ؟ وهذا المناخ ؟ كانوا ببساطة لا يصدقون أعينهم . ولقد احتفظت ببعض

خطابات «التقدير» من آباء او زوجات وانتوي ان احملها معي الى أبواب السماء لادلل امام القديس بطرس انني ساعدت بعض الناس .

كنت مسرورا بخاصة لرؤية والد كنسكي ، لان ذلك قد هيأ لي الفرصة لتعديل موقف اثقل علينا جميعا . كان والد كنسكي قد جاء منذ أسبوعين مضيا بصحبة زوجته واخت زوجته ، فأخبرتهما بالاخبار المحزنة عن هرب ابنهم في اليوم السابق ، واننا ليست لدينا اية فكرة عن مكانه . لم اعان موقفا اكثر إحراجا من قبل . ثلاثة اقارب قلقين قطعوا ١٥٠ ميلا ، وتكلفوا نقودا وتجشموا كل المشاق ، لرؤية ابنهم ، فلا يجدون له اثرا . والادهى من ذلك ان بول كنسكي لم يهرب بمفرده وانما بصحبة شارلي سبليمنت الذي حضرت أمه ايضا لزيارته ، فهرب الصبي الفصامي المنطوي من بين ايديهما . اربعة آباء بدون اولادهم اكثر مما احتمل . وانشغل كل مستخدمينا بهذا ، كان المرضون يفتشون في المدينة سواء كان ذلك في وقت العمل الرسمي ام لا ، وكان تليفوننا يقرع باستمرار ـ ولكن عبثا . لقد وصفت من قبل كيف أعادت الشرطة الغلامين بعد أسبوع . ولكنني اتكلم الان عن الآباء الحزانى . وربما يعتقد المرء انهم سوف يغادروننا بعد هذا العناء بأسوأ انطباع ممكن ، وقد صدفوا عن هذا النوع من المؤسسات ، ذات النظام الليبرالي الكامل الى الابد ولكن لا ، لقد لاحظ الآباء ، حتى من خلال دموعهم ، ما لم يلحظه مجلس المقاطعة والوزارة ، فطلبوا منا أن نعيد قبول الغلامين اذا تم العثور عليهما لان هذه البيئة هي املهم الوحيد في تعديل ابنائهم .

ولقد تم تحقيق امل والد كنسكي مسبقا . ان بول كنسكي الذي كان مضطربا تماما لا يسهل قياده ، غدا غلاما طيبا يعمل بجد ولا يمكن ان تتقصى فيه اي اثر للمرض العقلي الا بالكاد . ولقد أبقيناه عدة اسابيع قليلة اخرى للتأكد ، ولكن الوالد رجع الى بيته في حالة من الارتياح والفهم الكاملين .

***

في الساعة الخامسة دق الناقوس ، هذه المرة للعشاء . وليس في مقدوري ان أكتب عن هذا بحماس ، فالعشاء غير مناسب بشكل عام . كنا نحاول احيانا ان نضيف اليه من منتجات حديقة الخضروات التي يزرعها المرضى بأنفسهم ، متغاضين عن الميزانية التي توصي ببيع الفواكه والطماطم والفلفل .

وتوقف لويس لافتر عن سيره الرتيب وكلامه مع نفسه بصوت مرتفع في الممر وغمز لي سرا .

«حسنا» اتخذ السمت الذي اكتسبه من عمله الماضي بائعا في محل مقدما نفسه «حسنا ، ها انذا» .

كان هذا يعني أن في وسعنا ان نبدأ مباراتنا التي لا يمكن تحاشيها في الشطرنج . كان قد أعد القطع مسبقا . لم يكن لعبه جيدا ، وكان يستغرقه

الخيال أحيانا فيقول من بين اسنانه : «لا استطيع الامساك بهذه الفتاة الفجرية القذرة .. لا استطيع الامساك بها ، حتى ولو كانت حياتي متوقفة على ذلك ..».
لكنه كان يكسب احيانا ، رغم انني لم اكن استغرق في الخيال .

اثناء ذلك انتهى العشاء السريع . وانشغلت السيدة الاولى بآلاف الاسئلة والمطالب . كان عليها ان توزع الصابون ومعجون الاسنان والادوية وهدايا يوم الاحد والسجائر ، وما لا تدريه الا السماء ، كما وزعت الوجبات السريعة من الطرود الخاصة وأصغت لكل الشكاوي ، والتهديدات ، والادعاءات ، وحتى الحماقات البينة ، ولاطفت هذا ، ووبخت ذاك ، وطيبت خاطر آخر ، وضحكت مع شخص ما ، وراقبت كل شيء ، وتواجدت في كل مكان في وقت واحد . وكتب ممرضو النهار ملاحظاتهم في سجل المتابعة ، لقد انتهت نوبتهم ، وسوف تبدأ نوبتجية بعد الظهر في العمل حتى العاشرة ، ثم تحل النوبتجية الليلية . (كان وجود ممرض واحد للعمل بعد الظهر من اسوأ الامور . كنا في حاجة الى اثنين او ثلاثة ليشغلوا المرضى ، ولكن كان ينقصنا العاملين . فكان على المعالج المهني والطبيب ورئيس الممرضين أن يتواجدوا حتى لا يتركز عبء شغل المرضى على شخص واحد) . بدأت المقاعد تنتقل الى القاعة في الطابق الاول ، وحين أعلنا عن موت الملك في الدور الثالث من مباراتي مع لويس ، كانت الجمعية الادبية قد بدأت اجتماعها .

***

كانت مشاكل ايجاد العلاج بالعمل للمرضى المثقفين الذين يتزايدون باستمرار بمثابة منغص مستمر ، لم يكن لدينا المهنة او التسلية اللائقة ، كانت لدينا مكتبة صغيرة يمكن امدادها بكتبي الخاصة اذا دعا الامر ، ورقعة شطرنج وراديو . لكن كان كل هذا أقل مما ينبغي بكثير .

وذات يوم اقترحت على المعالج المهني ان ننظم نوعا من الامسية الادبية . «يمكن للمرضى أن يتسلوا ويعلموا بعضهم بعضا ـ ما رايك ؟»

لم يجبني بشيء ولكنه دبّر الامر . وناصر المرضى المثقفون الفكرة بحماس ، ووافقوا على الفور أن يلتقوا ثلاث مرات اسبوعيا واستقر رايهم بالاجماع على تاريخ المجر كأول موضوع لهم . ووضعوا ايديهم على مكتبتي ، فاستعاروا المراجع وحددوا موعد اجتماعهم الاول .

ومنذ ذلك الحين تنعقد الامسيات الادبية في (الجرانج) في الساعة السادسة من مساء ايام الثلاثاء والخميس والسبت . (كانت بقية الايام مشغولة ايضا ، لم كانت هيئة التمريض تتلقى تدريبها . وفي يوم الاثنين كان درس الطب العقلي ، ويوم الاربعاء تسميع يتولاه الطبيب العجوز ، ويوم الجمعة مناقشة تاريخ الحالات بإشراف المعالج المهني) . وفاقت النتائج توقعاتنا . لقد تصورنا أن المثقفين سوف

ينفرون من الحضور ، وان الحالات الاكثر صعوبة ينبغي ان تدفع الى الحضور دفعا . ولقد قدرنا اثني عشر مشتركا ، فحضر ما بين ثلاثين وأربعين . وكانت هذه هي المرة الاولى التي تزدحم فيها غرفتي على هذا النحو . ولذلك قررنا بعد ذلك ان نلتقي في القاعة او في الهواء الطلق . وتضمن مستمعونا فصاميون مكتئبون ، وضعاف عقول مبتهجون ، وصرعيون كسالى . ان هذا يؤكد ان الحاجات الروحية ليست قصرا على المثقفين ، ذلك ان بعض المشتركين الاشد اقبالا على الحلقة الادبية لم يفهموا شيئا مما كان يقال ولكنهم استمتعوا باللعبة . ويجب أن اعترف ان هؤلاء الذين لم يفهموا أظهروا اهتماما اكبر من الذين فهموا . ان امير الحزن ، والصحفي العارف بكل شيء ، والرسام . والزي ويني لم يحضروا الا بعد ان دعوناهم مرارا ، ولم يحضر بعض المثقفين الآخرين على الاطلاق . وانما حضر بدلا عنهم غلام الاسطبل الذي لم يتلق تعليما مدرسيا تقريبا، وجوتاف الذي لم يتلق تعليما مدرسيا ، وثمانية من ضعاف العقول الذين لم يفهموا بالتأكيد كلمة واحدة من المحاضرات ، وثمانية من حالات الفصام المتقدمة الذين كان في مقدورهم أن يفهموا كل شيء لو انتبهوا ، ولا نملك وسيلة للتأكد من انهم فعلوا ذلك . ولكنهم كانوا يحضرون بانتظام ومثابرة .

وبدأت الحلقة الادبية بما قبل التاريخ في المجر . وتبادل الحديث محاضر من الخارج وآخر من «الداخل» على التوالي . وحاولنا فيما بعد أن نتغلب على الملالة . فظل التاريخ هو الخط الاساسي ، ولكننا اقتحمنا ميادين اخرى متجنبين الموضوعات الشديدة العمق والموضوعات الشديدة الاسفاف . وتزايد عدد المستمعين . وتخلف بعض المثقفين ، ولكن حل محلهم ضعاف العقول المعتوهين . ولم يثبط ذلك من همة أحد . ويجب ان اعترف ان المحاضرات كانت على جانب من الجفاف والبدائية (من الصعوبة ان نتوقع ان يقدم مرضى الجرانج أبحاثا تاريخية مستقلة) ولكنها كانت قصيرة وتعقبها مناقشة حية . كانت المحاضرات تعتبر امرا طيبا من وجهة النظر العلاجية بالنسبة للمحاضر (فهي تخرجه من تبلده وتجبره على التفكير بشكل منهجي ، وعلى الاعداد ومواجهة الجمهور) . وكانت المناقشة التي تعقب ذلك مفيدة للآخرين .

ولقد نتساءل كيف أمكن أن تتلاءم الحلقة الادبية وأذواق هذه الجماعة المتباينة . كيف أمكن اعداد برنامج يرضي كلا المعتوهين وطلبة الجامعة ؟

الإجابة ببساطة **هي أن يحوز الموضوع رضاء أشد المتحذلقين ، وأن تكون طريقة العرض بالغة البساطة .**

مخطىء من يظن أن البلهاء ليس في مقدورهم الاهتمام بهاملت ، وجياردونو او عصر النهضة . ومخطىء ايضا من يظن ان الحديث البسيط المفهوم في هذه الموضوعات امر غير ممكن . لقد ناقشت حلقتنا الثقافية التاريخ المجري من مرحلة ما قبل التاريخ حتى فرتري راكوزي Rako وكذلك تاريخ العالم في هذه الحقبة وأهم الحركات الروحية المرتبطة بالعصر ، وحركة الاصلاح بالاضافة الى

جاليليو . لم نغفل شيئا جوهريا او شخصا مهما وقرأنا لشكسبير ، وسيرفانتس، ويانوش اراني Jamos Arany ودانتي ـ وانني أؤكـد ان كلا من المرضى الاغبياء والاذكياء استمتعوا بذلك أيما استمتاع . فكرة مضللة تلك التي تزعم ان الثقافة لا تهضمها الا الصفوة الممتازة . وانما على المرء ان يتعلم كيف يقـوم بتوصيلها ، بحيث يتقبلها اي فرد .

كانت هذه هي خبرتنا في الجرانج .

كان المحاضرون فصاميون في غالبيتهم ، بما في ذلك الحالات الخطيرة مثل جون (يحكي أن) الذي لم يشاهد احد عضلات وجهه تتحرك قط . ورغم هذا فقد اعد محاضرة عن لايوش العظيم Lajoo the great بمفرده ، وقدمها دون ان تختلج عضلة من وجهه . وكان القيصر بطرس العاشر قد بدأ في التحسن حين قرا الموضوع الذي اعده عن الملك ماثياس Mathias وكان قد جمع المادة بنفسه ايضا . ولم يلتفت الى احد وقرأ في خشونة ولكن في ذكاء . أما محاضرة بيتر مارتاير المصاب بالصرع الغريب الاطوار فقد تم تعديلها قبل القائها ، بينما ارتجل القافز في البئر المريض بالهستريا محاضرته . كما قدم لويز المتعدد الحـرف محاضرة طريفة عن جيور دانو برونو . أما اقل المحاضرات شأنا فقد قدمها مارتين كيمست الذي تحدث بغطرسة وسطحية عن الملـك الشمس Roi Soleil اذ كنت الاحظ مع كل كلمة انه يحتقر مستمعيه ـ وكان من المستحيل بالطبع تقديم محاضرة جيدة بمثل هذا التعصب ولقد فهم الجميع ان حسن اختيار الموضوع ، وإثارة المستمع لا يتأتى الا بالاعداد .

في ذلك السبت الذي اصفه لكم ، كان المتحدث هو النجـار السوداوي ، فتحدث عن العصر الذهبي في ترانسلفانيا والاحتلال التركي ، وبدون اكتئاب . جلست مواجها المستمعين ارقبهم . لا يمكن الزعم بأنهم كانوا منتبهين تماما . كانت عقولهم غائبة ولكنهم منظمين . وقاطعت استر لاباتر المحاضر مرة وذلك بأن تمشت عبر المنصة وصرخت في هستيرية . ولم يكن عملها هذا يثير انتباها خاصا . وكان ايوجين السريع كالبرق الذي أصيب بالعنة نتيجة للالتهاب السحائي يقاطع في كل مرة يسمع فيها لفظا أجنبيا «ما معنى سيطرة» «ما معنى هيومتزم» فكان الآخرون يسكتونه ، على الرغم من ان اسئلته كانت معقولة . بينما كان ليزلي رجل الجبال ، بوزنه الضخم ، يغط في النوم . وظل بول بروان يهز راسه . وجلس امير الحزن وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة غريبة تائهة . وكانت ديني وجودي ديوك ، وهما حالتي هيستريا ، تتشاحنان كتلميذتين شقيتين . أما ميزي التي تعمل بالتطريز فقد تابعت المحاضرة في انتباه كامل . ووضعت ايرما المحبة للسلام يدها على أذنها حتى لا تفوتها كلمة واحدة. وبدت ويلي المنتظرة كأنها تستمع في اعتناء، ولكنها كانت تفشل من وقت لآخر في الاحتفاظ بعينيها مفتوحتين وظل ستيـف ستابلمان ينتظر حدوث شيء اكثر بهجة . وبدا مارتين كيمست في صورة مفتش المدرسة الذي يترقب وقوع المتحدث في هفوة . وكان في العش الذي يعلو راسه

اربعة عصافير صغيرة تستمع الى المحاضرة ، كانت امهم تحلق كل دقيقة ، وتدور فوقنا ، فتفتح الطيور الصغيرة أفواهها ، وتتلقى كل واحدة نصيبها ، ثم ترحل الأم . لقد غدت عصافيرنا كبيرة جدا على العش ، وسرعـــان ما سوف يطيرون بعيدا . وكنا نرقب في عطف ما اذا كانت الصغار سوف تطير في الوقت المناسب.

كان الصحفي هو اول المعقبين على المحاضرة . وكان في هذا مدعاة للسرور دائما لانه كان يتكلم بطريقة مشوقة . كان مكتظا بالمعلومات الحقيقية والمزيفة وكان يلقيها بطريقة تتسم بالحيوية . ولم يكن المستمعون يأبهون لمبلغ دقة المعلومات ، ولكنهم كانوا يتقبلون اسلوب الصحفي . وفي الحديث عن الاحتلال التركي دارت مناقشتهم حول العادات التركية القديمة والحديثة ، وتبين ان هناك ثمة اثنين من اعضاء الجماعة زارا تركيا . الصحفي والمحاضر شخصيا ، النجار السوداوي. لذلك لم يكن غريبا أن يتم تبادل الملحوظات الهامة ، مبتدئين من الكلاب الكثيرة التي توجد في شوارع استنبول ، مارين بأسرار الحريم ، حتى طريقة صنع القهوة التركية وكيفية استخراج زيت الورد .

***

انصرف اغلب المرضى . حل موعد النشاط الحر . فتشكلت مجموعـــات صغيرة . فهنا لعب الورق ، وكرة القدم هناك . اخرجت ليلي المنتظرة مفتـــاح دولاب المكتبة من حزامها وأعارت الكتب . واستكان كل الى زميله في ركـــن القاعة ، او تمشيا في الحديقة وقد تشابك الذراع في الذراع ، وتولت باتيولا امر الكرة الطائرة ، على حين اخذ الدكتور العجوز يلعب الشطرنج مع كوكسور في . وحول مائدة البينج ـ بونج كانوا يحاولون اللعب الزوجي . لويس لافتر ، أشد الخصوم عنادا ، الذي ينسى حتى تخييلاته احيانا في حمى اللعب ، ومعه زميله دنيس القافز في البئر ، وكان احد خصميهما هو اليكس بول الذي اختبأ متخشبا منذ اسابيع قلائل خلف الباب في وضع كتاتوني ، والذي ظل ستة اشهر كاملة مخفيا في مهارة انه من ابطال اللعبة . ولقد بدأ يتحسن منذ أعلن بغتة انه سيلعب مباراة ... واشتركت أنا كرابعهم ، على الرغم من وجود آخرين كانوا يريدون ان يلعبوا ، مثل مارتين كيمست وجوتاف ، بيد انهم كانوا لاعبين ضعاف ، كما ان تنس الطاولة يصبح بصورة ما اكثر حيوية اذا ما اشترك الطبيب ايضا معهم . وتجمّع المتفرجون أساسا من حولي ، وان كان ذلك بلا جدوى . كانت كرات لويس لافتر لا يمكن ان ترد . بينما كنت امسح عرقي والهث بعد كل هذا المجهود، قال بول كنسكي انه لم ير مباراة مثيرة كهذه حتى في مباريات البطولة . لم يعن هذا اننا لعبنا كالمحترفين ، وانما حدث ذلك ببساطـــة نتيجة للاثارة ، كـــان الفصاميون الخاملون وضعاف العقول يقابلون الكرات الموفقة والقفزات الطائشـــة بعاصفة من الضحك .

لم يكن الجمهور يتزاحم على المكتبة بمعنى الكلمة ، ولكن لم يبق كتاب دون قراءة . ولقد وسعت المكتبة عن طريق اخذ بعض المال من ميزانية الصور ، ولكن الشيء الاكثر اهمية ، انني شرعت انا نفسي وكذلك معارفي في تخليص مكتباتنا من الكتب التي لم نعد في حاجة اليها وإهدائها للمرضى . ولما كان القراء يتراوحون بين البلهاء وطلبة الجامعة والاطباء ، فقد كنا نقبل اي نوع من الكتب شاكرين .

الا انه بقيت لدينا بعد طريقة أخرى ماكرة للحصول على الكتب . كنا ننجح من وقت لآخر في بيع بعض منتوجات ورشنا دون علم مكتب التوريدات (كمقابض البلط والسلال ... الخ) فكنا نبتاع بالمال الذي نتحصل عليه سرا الكتب وكرات البينج ـ بونج واحتياجات الورش وضبطنا ذات مرة . لم يجد صاحب الحانوت احدا يعرض عليه مقابض البلط الا وكيل المستشفى . ولم يكن هذا في حد ذاته مهما لو لم يضف في رعونة : « انها صناعة ممتازة ، قام بها المجانين في الجرانج ..» . واكتشف الوكيل الموضوع ، فخصم المبلغ من دخلنا ، فليغفر له الله .

لم يتفرق المرضى جميعا هذا المساء عقب الحلقة الادبية ، فسوف تجري بروفة بالملابس الكاملة . ذلك ان جماعة الجرانج توشك ان تقدم غدا مسرحية خرافية من فصلين ، بعنوان «الاميرة ويندي» عن قصة من تأليف اليك بنيداك . كان المعالج المهني هو المخرج والملقن والمدرب في نفس الوقت . لم تكن مهمة سهلة تدريب المرضى على ادوارهم ، نظرا لان بعض الممثلين كانوا من الفصاميين الجامدين الذين يقاومون الكلام ، وبعضهم من ضعاف العقول ، ولم يكن في وسع البعض مجرد القراءة . كيف تمكن من تحفيظ الأميين ادوارهم ، ذلك سره الخاص ، وهو معالج مهني في النهاية ، لا تعجزه مثل هذه المهمة .

كان عرضا بدائيا بمناظر شكسبيرية ، ومعرفة ضئيلة بالادوار ، ورغم هذا فقد قضى الممثلون والمتفرجون وقتا طيبا .

وانتهى العرض في الساعة الثامنة . على حين شرعت فرقة المرح بقيادة بيتر مارتير في الغناء ، ناشزة عن اللحن ولكن في اصرار . وانضم ليزلي رجل الجبال للمغنين ، كان احد اعمدة فرقة المرح بالمعنى الحقيقي للكلمة . وشاركت الزي لسبر في الغناء بدافع الحب فقط ، لم تكن صاحبة صوت ولكنها كانت متيمة بلا أمل في حب بيتر الذي لم يعرها التفاتا على الاطلاق . وكنا قد اعتدنا فيما سبق ان نشرع في الرقص في هذا الموعد في القاعة بالطابق الارضي ، ولكن «لسوء الحظ» تحسنت حالة العم زيتر جدا لدرجة انه عاد الى منزله ، فلم تعد لدينا الموسيقى الان ، خاصة وان مرضانا لا يبدو انهم يحبون الموسيقى المسجلة .

وبدأت مباراة في لعب الورق محورها النجار السوداوي ، فكسبوا من بعضهم بعضا نقودا متخيلة في لعبة شعبية لم تكن معروفة لي . ولعب جوتاف ايضا ، ثم أمسك بالمكنسة فيما بعد وجعل يقفز بها كما يفعل المهرج . وساد الضحك . كانت تكفي بضعة تعبيرات قليلة بالوجه او بعض الحركات المضحكة ،

حتى يشرع المرضى في الضحك .

كانت الساعة قد جاوزت الثامنة حين انصرفت والسيدة الاولى . لم يكن الانصراف سهلا . اذ كانوا يلحون بأسئلتهم على السيدة الاولى ، ويطالبونني بمباراة اخرى في تنس الطاولة او الشطرنج ، ولكن حالما اضع قبعتي البنية فوق راسي ، كانوا يتحققون من انني اعتزمت الانصراف حقا ، عندئذ يبداون في توديعنا .

حان وقت الانصراف . ولكن دعوني أولا اقص عليكم قصة القبعة البنية . حدث أن حل بالمدينة سيرك ، سيرك حقيقي بسحرته ، ومهرجيه وحيواناته . فظللنا نساومهم حتى وافقوا على ان يرسلوا الينا عربة محملة من العابهم . وأقيم العرض في الهواء الطلق ، فدقت وعزفت فرقة موسيقية مكونة من ثلاثة رجال في صخب ، وهرع المرضى بمقاعدهم وشاهدوا العرض في شغف . وقام اثنان من لاعبي الأكروبات بحفظ توازنهم فوق كرة فضية ثم جعلوا يصلصلون بخمسة عشر طوقا معدنيا توزعت ما بين اذرعتهم ورؤوسهم واقدامهم وقام احد اللاعبين وقد حجبت عيناه بتثبيت سلم عادي على الارض دون أن يسنده الى شيء وتسلقه حتى آخره . ولم يكتف بالتسلق ، وانما داب على التظاهر بأنه على وشك السقوط . فشرع بعض المرضى من ضعاف العقول في الصراخ رعبا ، ولكن السلم ظل ثابتا . وحمل شاب مفتول العضلات شريكته عاليا بينما وقف لاعب اكروبات ثالث فوق معدتها على يديه . اما اشد الاحداث إبهارا في هذا العرض فقد بدا حين طلب الساحر قبعتي ، فأخرج منها في سرعة البرق زوجا من الحمام الحي، ثم كسر فيها بيضة ، اضاف اليها الدقيق واللبن واوقد من تحتها النار ، ليصنع في النهاية كمية من حلوى البودنج . وضج المرضى بالضحك ، وزاد الطبيب العجوز فكان يمسح الدموع من عينيه ، اما جيزيل مول فقد بدات تقول «يا لطبيبنا المسكين ! لقد اتلف هؤلاء الاوغاد قبعته الثمينة الا تمكنوهم من ذلك !» . ولكنني مكنتهم ، ولم تصب **القبعة** بشيء ولكن هذه الواقعة العظيمة ظلت حديث المرضى عدة اسابيع .

بعد العشاء ـ اقصد عشاؤنا نحن ، فالمرضى قد تناولوا عشاءهم منذ وقت طويل ، وتناسوا كل شيء عنه ، ولن يضيرهم أن يكرروه ـ حل موعد المتعة الثانية لهذا اليوم ـ قهوة المساء . كانت ليلة السبت ، وقد نزل الطبيب العجوز في الوقت المحدد ، وتصحبه زوجته لشرب القهوة ، كما حضر المعالج المهني ايضا. كانت هذه هي حياتنا الاجتماعية في الجرانج . وناقشت مايدور في العالم من احداث مع الطبيب العجوز ، بينما كانت المراتان تتكلمان في شئون الطهي والأزياء، على حين جهد المعالج المهني في تحويل دفة الحديث الى موضوعات اكثر امتاعا ، ونجح في ذلك أحيانا . هل يكفي هذا ؟ نعم كان فيه الكفاية . كنت اقرا عليهم بصوت مرتفع فصلا من احد كتبي ، حين افرغ من استكماله ، فكان المستمعون يعجبون به ، الامر الذي يشبع غروري كمؤلف . كان اصدقائي في بودابست

يصدمون ، اذا التقينا كل ستة شهور ويسالونني «هل يكفي هذا ؟» . أجل ، بكل تاكيد . لست بحاجة الى ضجة وصخب بودابست . كنت اشعر في الجرانج كأنني كادلز الصغير في قصة هاج ويلــز حين كان يرقب الضجيج فــي لندن ، متسائلا : ماذا تصنعون ايها الرجال ؟ ما الذي تصنعونه ولماذا ؟ ما جدوى كل هذا ؟... كنت اذهب أحيانا الى العاصمة ، ولكن سرعان ما أهرب مرتعبا . ففي بودابست يصبح المرء ضحية للمواصلات العامة . «كيف اعتدت على هذا ؟» كان الناس يسألونني ، وهم يشيرون الى الهدوء في الجرانج . وكيف اعتادوا على ذلك ؟ هكذا كنت أسأل نفسي . فعلى الرغم من انني قضيت نصف حياتي في بودابست ، الا انني لم استطع ان افهم كيف يتحملونها . ولكن المسارح ، ودور السينما ، والمجتمع ... حسنا ان المرء قد يعتقد برهة انه من المستحيل الحياة بدونها . ولكنه ليس مستحيلا . فالراديو يزودنا بالموسيقى ويجنبنا التدافع في الزحام . فاذا تصادف ان كان البرنامج سيئا ، ففي وسعي ان استعين بالبيانو. كنا نذهب احيانا الى المدينة لحضور احدى الحفلات ، وكان هذا يحدث لماما . وكانت تحضره كل الشخصيات البارزة ، كان كل انسان لطيف المعشر حقيقة ، ومهذب ، كما ينبغي ... ولكننا كنا عزوفين عن ذلك . ان امسيات ايام السبت تكفي احتياجاتنا للحياة الاجتماعية . وفي وسعي ان أحضرها وانا مرتديا خفي...

اما بالنسبة للثقافة ، فنحن نحمل الثقافة في داخلنا . صحيح اننا بحاجة الى المزيد . لكننا لا يجب ان نغالي . ان ما لدينا في هذا المكان النائي فيــه الكفاية ـ الف وخمسمائة كتاب ، وراديو صغير ، وقلم حبر يكتب ما يريد . وسرعان ما سوف نحصل على جرامفون ومعه ايضا اسطواناتنا المفضلة . نحــن نملك ليالي هادئة وطويلة للاستماع الى الموسيقى والقراءة او الكتابة . وحولنــا السلام والهدوء ، هدوء لا يمكن تخيله في المدينة . وثمة تسعون مجنونا يحبوننا، ونحبهم . وفي هذا الكفاية .

حوالي منتصف الليل ، حين يغادرنا الطبيب العجوز وزوجته ، كنا نتجه مرة اخرى الى العنابر . حيث كنا نتلقى تقرير المرض النوبتجي (الذي يتكون عادة من اربعة كلمات . كل شيء يسير على ما يرام) ، كنا نلقي نظرة على حجرة او حجرتين، حيث يغط مرضانا في نوم هادىء ، ثم نتأبط ذراع بعضنا ونمضي في الحديقة على ضوء القمر ، كأننا الملك والملكة في مملكة الاساطير النائمة . الان يسود هدوء حقيقي ، لا يمكنك ان تتصور مبلغ الهدوء . في مثل هذه الاوقات كنا نشعر غالبا اننا في منزلنا .

الفصل التاسع

كشف الحساب

كانت ايرما المحبة للسلام على صواب . فقد امضينا خريفا طويلا تملؤه المشاعر الاخوية الصادقة . كان الصباح رطبا ، والصقيع يغطي الحقول، واستحالت الاوراق في الحديقة الى اللون الاصفر البني ، واختبأت الاكمات البنية المشوبة بالحمرة خلال اشجار الصنوبر ، واضافت اشجار الفراولة الوردية لونا قرمزيا الى الصورة . فغدت الحديقة جميلة ، يلفها اطار اثيري شفاف . ونسجت العناكب بيوتها الضخمة في عناية بين الاشجار ، التي تسمى بأسماء لاتينية معقدة . وبعيدا في الفضاء التمعت اشعة الشمس البازغة على قطرات الندى المرتعشة ، المتعلقة بخيوط بيوت العناكب معطية للحديقة صبغة اسطورية . بيد ان الشمس المشرقة ومنازل العناكب لم تكن هي التي جعلت من الخريف غاية في الود ، وانما الجو المفعم بالسلام الذي ساد الجرانج .

كان معظم المرضى يعملون في الحقول ، يزرعون البطاطس ، ويجمعون بقية محصول الفلفل ، ويقومون بعديد من الاعمال الاخرى التي كان معناها غير واضح لديّ . كان الشيء الاساسي انهم يفهمونها . لقد حرثوا جزءا من الحقل ، وظهرت في الاجزاء الاخرى بشائر المزروعات الجديدة ، فأشاع ذلك عندي دهشة ملحوظة ، اذ لم اكن أعرف مثلا ان الخص تجب زراعته في الخريف اذا اردت

محصولا ربيعيا مبكرا .

كانت حديقتنا جرداء اكثر مما ينبغي ــ حتى انا لاحظت ذلك . والسبب ان بستانينا ابتاع منزلا في المدينة ، فشغلته اجراءات الشراء عن العناية بأي شيء عدة شهور ، اذ عكف على متابعة تحويل حسابه في البنك في الوقت المناسب وعمل على ان يسمح له المجلس البلدي بإخلاء شقة من مستأجريها ، الذين يقيمون في العقار الذي ابتاعه ، ثم والى بعد ذلك اجلاء المستأجرين والانتقال الى المنزل قبل ان يجد الوقت للعودة للعناية بالحديقة من جديد . وتابعنا قصة الشراء المعقدة بعين العطف ، واحطنا بتفاصيلها بكل دقائقها . وكان من الجلي في ظل هذه الظروف أن تخلو تماما صوبة الزهور التي بذل في بنائها جهدا هائلا في العام الماضي . على كل حال نمت الحشائش في الحديقة بعد ما كانت مزروعة بالبطاطس في العام الماضي .

وانتهى بناء المظلة الخشبية من الطوب وعروق الخشب التي اخذناها من المبنى الذي هدمناه سرا . وباشر اولد ويندي وهامستر العمل . كانا يتنافسان على البناء ، وكلاهما مدفوع للتجسس على خفايا ما أنجزه الآخر من بناء ، لدرجة انه لم يعد لاحدهما فرصة لمتابعة المرضى ــ الذين انشغلوا بهما بدورهم ، وكان حوالي من ثمانية الى عشرة من المرضى بينهم بعض الحالات الشديدة الاضطراب. كان ويند بلاور يناول الطوب ، وهو يؤكد في بسمة غامضة انه رئيس الجمهورية وان المكان بمثابة سيرك ، وجعل احد الشبان المجدين يخلط المونة ، وهو يهلوس بصوت عال ، وتولى الرجل العجوز الذي كان يصر على مناداتي باسم «سعادة الكونت» اعمال النجارة ، وهو يؤكد في اصرار ان المعالج المهني قد سرق جرامافونه ، وتولى رجل في منتصف العمر ، واضح الذكاء (كان يعمل جزارا) بناء السقف بمهارة ، لدرجة لا تجعل احدا يشك في انه استيقظ في ليلة ليست بعيدة ، وحطم حوض الغسيل قطعا صغيرة دون سبب واضح ، والقاها قطعة قطعة من النافذة وكان زميله الذي لا يفارقه في العمل مريض بالصرع اعتاد فيما مضى أن يوالي الصراخ لمدة ثلاثة ايام حين يصاب بالنوبة ، ويستقر فوق النافذة بطريقة تجعل زحزحته مستحيلة ، ويدلي قدميه من بين قضبان النافذة صابا سيلا من البذاءات على المارة .

واوشك العمل في ورشة صنع السلال أن يبدأ فتم دهانها . وكان من الواضح اننا سنحصل على الاغصان اللازمة هذا العام بالرغم من ان الوكيل كان قد بذل قصارى جهده لتحاشي هذا الضرر . وذهب معالجنا المهني الى بودابست ودبّر الحصول على حصة توازي طنا من اغصان الصفصاف من الدرجة الثالثة . وهكذا تقررت لنا الحصة ومدرب صناعة السلال ، وطلينا الورشة ، وبقينا في انتظار الاغصان . في العام القادم يحق لنا أن نشعر بالفخر لاننا سنصنع السلال من أغصان انتجناها بمعرفتنا ، رغم انف البستاني الذي كان يبذل كل ما في وسعه ليفتال زراعة الصفصاف . وسيتوفر لنا خلال بضع سنوات العديد من اشجار

الصفصاف مما سيمكننا من تزويد الآخرين به .

وكان العمل يأخذ مجراه في ورشتي النجارة وصناعة الاقفال . فلدينا نجارين حقيقيين وصانعو اقفال ممتازين يعملون مع لويس المتعدد المهن المريض بالاكتئاب السوداوي . كل ما ينقصهم المواد والادوات الجيدة . ولكنهم عكفوا على العمل لدرجة انه لم يعد لديهم الوقت للاكتئاب .

وسارت الحياة الاجتماعية بعد الظهر سيرا مضطردا . واحصيت ثلاثةوستون مريضا في اجتماع الندوة الادبية ومنذ شرعت المرضة ايما في شراء اسطوانات الموسيقى الراقصة ، اعتاد المرضى الرقص على الجرامافون . وكانت المرضة ايما ترقص معهم ، ايضا ، وكذلك فعلت روزي بالطبع (هاتان المرأتان كانتا يساويان وزنيهما ذهبا . صدق او لا تصدق انهما استطاعا ان يجعلا حتى امير الحزن يرقص) .

كنت اشفق فحسب على المعالج المهني المسكين ، فمنذ غادرنا بيتر مارتر الى مزرعة الدولة ، توفر على قيادة الكورال . ولحسن الحظ لم يكن يتمتع بالصوت ولا الأذن الموسيقية ، ولذلك استطاع أن يتحمل نشاز المرضى المريع في ضيق اقل نسبيا . وكان آخر ما توصلنا اليه من المدهشات ان ندبر الحان جون يحكي ان المتخشب بالكورال ، ناهيك عن جعله يرقص . ولكن هذا ما حدث بفضل العلاج بالصدمات الكهربائية وبفضل المرضة ايما كذلك . كان يتلقى العلاج الكهربائي ثلاث مرات فحسب (اثناء نومه بالطبع) ، وحين يستيقظ تجلس المرضة ايما الى جواره وتلاطفه حتى «إنهار» واعترف انه يشعر كمن ولد من جديد وجعلنا نرقبه لنرى كم ستستمر هذه الولادة من جديد ، والى اين ستؤدي به . لقد عشنا ورأينا من قبل عددا من المعجزات .

وحضر اثنان من المعالجين المهنيين للزيارة . قدما في منتصف الليل وانتويا قضاء النهار بيننا ، على أن يبرحانا ثانية في المساء . وكان ذلك امرا مجهدا ، ولكن الاجهاد لم يعرف طريقه اليهما . كانا يسعيان بحماس وراء تجربة من نوع جديد . بدا كل شيء مبعثا لسعادتهما اذ لم يسبق لهما رؤية مثل هذه الصحة العقلية المرحة من قبل . واعربا عن شكهما باديء الامر ان كل ذلك يتم بواسطة مرضى (تم استئناسهم خصيصا) ، ولكن حين شرع العم تيبور في الصراخ قائلا «اسرعوا» ، وسب اعدائه غير المرئيين بصوت جهوري صدقا أنهم مجانين حقا .

***

خلال هذا الخريف الطويل ـ ثالث خريف امضيناه في الجرانج ـ حدث لي شيء لا يمكن أن اسميه الا «التدشين» لم أدشن في الجرانج ، وانما في مؤتمر الطب العقلي السنوي الذي يعقد في الخريف ، وفي ظل ظروف بالغة الطرافة .

كانت شهرة مؤسستنا قد شاعت في هذه الاثناء . لصالحنا ترى أكان ذلك

لنا ام علينا لقد جذبت هذه الشهرة على كل حال عددا من المرضى من سائر اطراف البلاد ، وكان هذا في غير صالحنا ، لانها جذبت ايضا زوارا واساتذة ومديري مستشفيات وأطباء ومعالجين مهنيين . ولقد ابدى المعالجون المهنيون حماسا خاصا ، سواء الاطباء منهم او اساتذة الكليات . وبذلوا في غمرة حماسهم كافة انواع الوعود وان لم يوفوا بواحد منها . ومع هذا فقد كانوا طيبين ، فقد زاد حماسهم من طموحنا . ولم يكن الاهتمام والحماس الذي ابداه الاطباء متساويا . لقد سر صغارهم ـ الذين زارونا على الاقل باننا نعامل مرضانا دون قيود ، بينما مال كبارهم الى التشكك في هذه «الثورة» وابدوا ملاحظات ساخرة عن هذا العلاج «الترفيهي» . والقيت محاضرة على بعض الاطباء ، على حين قاطعنا معظم أطباء العقول «المرموقين» سواء بدافع المعارضة او لفقدان الاهتمام فحسب .. هذا ما لا اعرفه ، ولكن الذين حضروا أبدوا اهتماما حقيقيا .

فليكن الامر ما يكون ، لقد استمرت شهرة الجرانج في الانتشار . وما اكثر ما اعد «عنبر العزل» الخالي من المرضى منذ فترة طويلة لاستقبال الزوار . لقد ادركوا أن مجرد الزيارة ، والتجول وسط أحواض الخضروات ، والتحديق في العمال لا يكفي ، بل عليهم أن يشاهدوا المرضى اثناء تناول الوجبات ، والرقص ، والشطرنج ، وتنس الطاولة ، وكيف يأوون الى اسرّتهم ، ويغتسلون في الصباح، وكان عليهم أن يفهموا أن «معجزتنا» ليست في العمل الذي يتم وانما في حالة المرضى المزاجية . ولقد حضر العديد من زوارنا ليشاهدوا ذلك .

اعددت الخطاب المألوف الذي يستغرق عشرة دقائق لمؤتمر الطب العقلي المنعقد في الخريف . لم استطع ذكر الكثير ، اذ كيف يمكن تلخيص عامين من الخبرة في عشر دقائق فقدمت جدولين احصائيين ـ يبين احدهما نسبة المرضى الذين خرجوا وشفوا ، ويبين الآخر عدد الباقين في الجرانج . وعرضت بالفانوس السحري بضعة شرائح مثيرة تصور الحياة في القفص الذهبي ، التقطها لويس المتعدد المهن كجزء من علاجه بالعمل .

تنقسم مهنتنا ، كما هو معلوم لديكم ، الى فرعين مختلفين . اطباء الاعصاب واطباء العقول ولا يعرف رجل الشارع الا نادرا مبلغ الخلاف الشاسع بين الفرعين فطبيب الاعصاب يختص بالامراض العضوية . الاورام الخبيثة ، والشلل والرجفة واضطرابات الحواس ، او بعبارة أخرى الامراض التي تنتج عن تغيرات تشريحية محددة تماما بصورة او بأخرى ، ولا يدخل الذهان في تخصصهم . ان هذه هي مهمة الطبيب العقلي الذي يتعامل مع الجنون والسيوباتية والأعصبية ، او بعبارة أخرى الامراض التي لا تزال خلفيتها التشريحية غير واضحة حتى الان ، والتي قد يظهر أن خلفيتها العضوية ليست مورفولوجية ـ اي في بنية الكائن ـ على الاطلاق وانما وظيفية فحسب .

ان الربط بين هاتين المجموعتين من الاختصاصين المختلفين عن بعضهما تماما هو في رايي نوع من التعايش غير الموفق . ولا يعني هذا انه ليس بينهما اية

صلة ـ فهل يوجد فرع من فروع الطب لا يرتبط بالوظائف العضويةللجهاز العصبي.
وحيثما يوجد اخوان ، يكون احدهما مفضلا في العادة عن الآخر وطبيب الاعصاب هو الاخ المفضل في ميداننا ، على حين يعتبر الطبيب العقلي بمثابة الاخ الشقيق . ويحتقر اطباء الاعصاب أطباء العقول ، ويعتبرون مجالهم بمثابة مأوى للدجالين ، نظرا لاحتوائه على كم ضخم من الفكر النظري والقليل من الوقائع المضبوطة (وهم على صواب في هذا) . ولكن اطباء العقول يشعرون فيما بينهم ان علم الاعصاب هو الآخر ليس دقيقا الى هذه الدرجة ، ويفضلون الغوص في شراك النفس الغامضة على تبسيط الطب الى مجرد ردود أفعال فيزيقية وكيميائية .
وتسفر هذه الغيرة عن نفسها بطريقة مضحكة حين يجتمعون معا . فالذي يحدث ان اطباء العقول لا يبدون ادنى اهتمام بتفسيرات أطباء الاعصاب الدقيقة لبعض مشكلاتهم ، ويضيق أطباء الاعصاب حين يعرض أطباء العقول لغوامض النفس ويشرعون في الثرثرة سويا . وتصبح الكافتيريا هي بؤرة الاهتمام اذ يوجد بها على الدوام نصف عدد الحاضرين يلتهمون الشطائر والكعك لانهم لا يجدون ثمة ما يصنعونه افضل من ذلك .
وكان هذا هو الحال حين جاء دوري للكلام . كان نصف الحاضرين يثرثرون في الكافتيريا ـ وكلهم من اطباء العقول اذ سبقتني سلسلة من أطباء الاعصاب لا أعلم من الذي جاءهم بالاخبار ، ولكن حالما شرعت في الكلام بدأ الجميع يتدفقون الى الداخل . لا اطباء العقول فحسب وانما المعالجون المهنيون والاخصائيون النفسيون ايضا ، من تلاميذي القدامى وزملائي الذين نسيتهم . وان هي الا بضع دقائق حتى كانت قاعة الاجتماع ممتلئة .
ما الذي قلته ، شيء عن نتائجنا العلاجية . ان ٢٦ بالمئة من المرضى الذين غادروا المستشفى قد تحسنوا . وشيء عن تشغيلهم . دبَّرنا استيعاب ٧٨ بالمئة من المرضى في العمل ، بكفاءة ، ربما تقل او تزيد . وشيء عن حالة المرضى المزاجية . ٨٢ بالمئة منهم يشعرون بالسعادة في الجرانج . وشيء عن الاسلوب والحرية ، والعمل ، واللهو ، والمشاعر الاسرية والعطف ـ وطرق الرئيس مطرقته لقد انتهت الدقائق العشر . (كان من الطبيعي ان يطرق ، نظرا لان الرئيس كان من غلاة أطباء الاعصاب الذين يعتبرون ان الحديث عن اساليب كالعطف مضيعة للوقت ......)
ونجحت نجاحا منقطع النظير . حتى أطباء الاعصاب الذين تبقوا لسماع خطابي صفقوا ، لقد أعجبوا بما سمعوه . ولم يكن هذا سوى بداية تدشيني . فلقد نهض كبير اساتذة الطب العقلي ، وكان قد سبق له زيارة القفص الذهبي أثناء الصيف ، واعلن وهو يشير الى ما لاحظه في الزيارة اننا نقوم بعمل الحواريين في الجرانج . لقد رأى العديد من مؤسسات العلاج المهني ، ولكنها جميعا بمثابة مؤسسات للسخرة المقنعة . اما الجرانج فهو المكان الوحيد في العالم الذي يعيش فيه المرضى بحق دون «نظام عسكري» ، فلا موجب للدهشة على الاطلاق من

شفائهم بهذا النجاح وقال ان الوزارة تخطىء خطأ كبيرا حين تترك هذا «الزوج من الحواريين» يتعفن في الجرانج .... الى آخره .

ويجب ان أعترف ان هذا الفصل الاول من عملية تدشيننا كان بمثابة بلسم لروحي المجروحة اخيرا . انتزعت صيحة اعجاب من شخص أقدره . لم نكن نعمل عبثا اذن . فها هو اكبر العاملين في ميداننا ، وهو من قد لاحظ وتفهم عملنا . لقد ابتهجت .

واتجه بول مادل الى المنصة ، وكله يبتسم . أجل ، لقد كان هناك ايضا . وبعد اشارة البدء التي اعطاها الاستاذ ، انطلق بول في ملق معسول جعلني أحمر خجلا . هل ذكر الاستاذ شيئا عن عيادة للعلاج بالعمل تضم خمسمائة سرير فليزيدها بول الى واحدة أفضل وبعرض الف وخمسمائة سرير لمؤسستنا ذات الرسالة السماوية ...

وخلال هذا التكريم العاصف بدأت الريبة تساورني . وزاد من تلى من المتكلمين من ريبتي . وبدا انه ما دمنا من الحواريين ، فليس في وسع غيرنا أن يصنع ما صنعناه . وكان هذا يعني الكثير ، ليس من الضروري لعب الشطرنج والبينج بونج فحسب بل ايضا الترفق بالمرضي ... والعيش بينهم طبقا في الجرانج او في الغابة . ولم يكن هذا العلم في مقدور اي شخص ، الا من له ايمان الحواريين .

لم اكن قد حلقت ذقني منذ المؤتمر السنوي الماضي ، وهكذا كنت أحمل الان لحية ضخمة جذبت انتباها كبيرا . وافترض زملائي في البداية انني تركت ذقني لاصبح محطا للانظار ، ولكنهم «فهموا» الان انها جزء من كوني حواريا . ولقد شعروا الان ان في وسعهم أن يسفروا عن حماسهم حقا . انه يقوم بعمل رائع ـ دعوه يستمر في متابعته ، دعوه يبقى في الجرانج بلحيته الرسولية ، وسوف يسعدنا ان نصفق له ...

وخلال الاستراحة صافحني مائة شخص . وظل الجرانج حديث اليوم ، وذروة المؤتمر . ثم عدنا الى الجرانج واستأنفنا الحياة كما يليق بالحواريين . ولم يعد احد الى ذكر مبنى المستشفى التي تضم الف وخمسمائة سرير ثانية .

وقررت أن أقدم كشف حساب ، كشف يوضح بعدالة مبلغ ما انجزناه ، وما ينبغي علينا أن نستمر في العمل من اجل الحصول عليه . قلت لنفسي ، لا تكن شديد الطموح ، وإرض بالقليل . او لا ترضى . وكن طموحا ، ولكن افرح ايضا بالقليل الذي تم انجازه .

افرح ، مثلا ، لانك استطعت خلال عامين تخريج مائتي مريض من عنبرك . الامر الذي يعني ان في وسع العلاج بالعمل ان يشفى العديد من الحالات القديمة المزمنة شأن انواع العلاجات الفعالة . ولم يكن هذا العدد يضم أولئك الذين شفوا او تحسنوا فحسب بل شمل ايضا بعض الذين لم تتبدل حالتهم والذين لم نستطع

شيئا حيالهم . كما كان هناك ايضا الهاربون الذين يقدم رحيلهم الدليل الملموس على انهم لم يكونوا سعداء في القفص الذهبي . لقد بلغ عددهم ستة عشر خلال عامين . لكن اذا وضعنا في الاعتبار استحالة منع ثمانين شخصا متفرقا يسعون لاعمالهم في حرية من الهروب اذا رغبوا فيه ـ فليست هذه بالنسبة الكبيرة . ونسبة ٧٦ ممن لم تتغير احوالهم الى مائتي خريج ليست بالغة السوء ايضا . لم يتحسن ستة وسبعون ، ولكن تحسن ١٢٤ آخرون لقد تحسنوا الى الدرجة التي تسمح بتركهم يعودون الى منازلهم واسرهم او الحاقهم بالعمل في مزارع الدولة ولنكن متواضعين . فلدينا نسبة تحسن تساوي ٦٢ بالمئة وهذا ليس بسيطا لو فهم المدير (بلا كلام فارغ) معنى هذا لانتشرت سمعتنا لدى سلطات الاقليم والمقاطعة جميعا .

او افرح (هكذا قلت لنفسي) لانك دفعت ٧٨ بالمئة من المرضى الى العمل . فمن بين مائتي وخمسون مريضا ، كان مائة وخمسون يعملون جيدا ، ويعمل خمسة واربعون بشكل معقول ، وهذا يشكل نسبة ٧٨ بالمئة . اما الباقون ونسبتهم ٢٢ بالمئة فكانوا عازفين عن العمل ، او ممن لا يساوي عملهم شيئا . ولو استخدمنا القهر لاستطعنا أن نجبر قلة منهم على العمل . لكننا لم نضع هذا ، ولم نأسف على ذلك . فلقد كان لدينا ثلاثة ارباع المرضى يعملون في طموح ، ويحبون ما يعملون ، ويشعرون أن الجرانج بمثابة منزلهم . ولقد كان عدد الذين يشعرون انهم في منزلهم اكثر من عدد الذين يعملون جيدا ، فقد بيّن مقياس (أحبه ـ لا أحبه) ان ١٨ بالمئة فقط لا يحبون الجرانج . ولقد أسفت لهذا العدد الكبير ، وانتوينا أن نصنع ما في وسعنا ، لتقل النسبة ، ولكن بدلا من التأس على الـ ١٨ بالمئة ، فقد ابتهجنا لنسبة ٨٢ بالمئة ، فالحياة في الجرانج تفيد ـ على الاقل من الناحية الذاتية ـ هذا العدد الكبير من المرضى .

وكان لدينا دليل آخر على مبلغ ما يشعرون به من سعادة ـ احصائيات العائدين ليس هؤلاء العائدون من الاجازة ، وانما أولئك الذين قمنا بتخريجهم بعد ان تحسنت حالتهم بصورة او بأخرى ، ولكنهم اثبتوا عجزهم على التعامل مع المجتمع السوي «وعادوا الى منزلهم» . وكذلك ايضا الذين حولناهم الى مؤسسات اخرى بسبب استحالة استيعابهم في العلاج بالعمل . والذين يكتبون او يبعثون بالرسائل الان يطالبون بالعودة . من الواضح انهم احبوا الجرانج على الرغم من عدم استيعابهم فيه تماما .

وكان جوتاف احد هذه الحالات . لقد أقسم ثلاث مرات أن يصبح رجلا مهذبا ، ثم ينخرط في زمرة السوء ، ويلقي القبض عليه ـ ويعود . ووعد أولد سبنسر ، صانع الاحذية ، والذي كان سكيرا في ايامه ، ان يبذل ما في وسعه ليعود لسابق عهده ، ويستعيد سجله التجاري ، لكنه شرع يشرب من جديد وينزلق الى الدرك الاسفل ، وعندئذ خلف كل شيء ببساطة وعاد الى المنزل ومنذ ذلك الحين وهو لا يقرب الكحول ، ويباشر العمل في ورشة أحذيتنا متمتعا

برضى الجميع . وفقدت ماري وايلدر الكثير من وزنها في مزرعة الدولة حتى غدت جلدا على عظم ، واصيبت بالشلل ـ لكي تعود الى منزلها . وحين عادت الـى الجرانج غدت مكتملة الصحة ، مرحة ونشيطة .

واصبح بيلا تاكاس عاملا ماهرا من الطراز الاول في مصنع كبير ، ولكن بدأ يعود اليه شلله ، فكتب مستفسرا عما اذا كان في مقدوره أن يعود . وكان في وسع ستيف ستترر الذي كان يتسكع في ورشة اولد سبنسر أن يعيش في منزله بهذه النوبات الصرعية الخفيفة ، ولكنه كان يشعر بيننا انه اكثر سعادة ... وحين طرد الصيدلي مارتين كيمست ، لم يعد الى والده بل الى الجرانج . وسقط جس ليبنكاي ، الذي ظل صحيحا معافى لمدة عام ، فريسة للمرض من جديد وأودع احدى المصحات العقلية في جزء آخر من البلاد ، ولم يدخر والـــداه وسعا ولا نفقات ، ليعيدانه الينا . ووصلنا مؤخرا خطاب من ستيف دريفر ، ان مدمن تعاطي الكحول الذي هرب من الجرانج يكسب من ١٠٠ الى ١٢٠ فورنتا يوميا فـــي بودابست ، في حمل الفحم ، ينفقها جميعا على الشراب ، ويريد الان العودة . ورحل العم ريبورتر الى بودابست محملا بالآمال العراض ، وفي حقيبته كتابه الذي اتمه ، ولكنه كتب فيما بعد : «امي العزيزة ، ارجـو الا تعطي سريـــري الصغير الطيب لاي مخلوق آخر لان الاحلام قد تنهار كقلاع اسبانيا ، ويعود الهائم في الدنيا الى منزله ....»

وداوم حتى أولئك الذين تقبلهم المجتمع على الزيارات . غدا ستيف تلجرام ساعيا للبرق في بودابست قرابة عام . وله أسرة ، تتقبله ـ ولكنه يمضي عطلات الصيف «بالجرانج» . وتخرج بول كنسكي نهائيا ، ولكنه عاد بعد شهرين للزيارة، ومعه جالون من النبيذ هدية . وكان لدى لويس المتعدد المهن اشتراك في السكك الحديدية ، فكان يأتي بشكل دوري ويقضي بضعة ايام في الورشة . وتعتبر حالة الفصامي الخالص ستيف زالاي اكثر اثارة ، كان يعمل الان في مزرعة مجاورة من مزارع الدولة ، وحين حضر لتقديم الشكر ترك لنا «عرضا» زجاجة مـــن الكونياك . وعاد دنيس القافز في البئر الى المنزل ليبحث عن عروس . ولكنـــه لسوء الحظ سقط في البئر بدلا من ان يتزوج ، ولكنه بعد ابلاله من هـــذا الحادث عاد الى المنزل في زيارة أخرى .

المنزل ـ كانت هذه هي كلمة السر . يبدو ان اعظم درس يمكن استخلاصه من تجربة الجرانج ليس هو الاثر العلاجي للعمل ، ولا الحرية والمعاملة الطيبة بل حقيقة مؤداها انه حتى المجنون يحتاج الى منزل .

لم نضع المرضى الذين عادوا او الذين بقوا في الجرانج في فئة «الذين خرجوا لتحسنهم» وانما اعتبرناهم «مرضى شرف» تحسنوا ولكن ليس في وسعهم بعد مواجهة متاعب العالم الخارجي . ولقد امتلأ الجرانج تدريجيا «بمرضى الشرف» وفقد ديناميته . وجاء وقت أسفت فيه لهذا ، لكنني غيرت رأيي . لا ريب اننا نؤدي نصف المهمة فقط اذا تركنا هؤلاء الناس يخرجون لمواجهة الفشل . يجب أن

نتدبر امر تزويدهم بحلول دائمة على الاقل . وكنا نأمل أن تنمو المؤسسة بمرور الزمن . فلو استطعنا ان نتسع بمقدار ثلاثين سريرا سنويا ، لاصبح ثمة متسع للمرضى العائدين ، وكذلك «مرضى الشرف» الذين وجدوا في الجرانج على ما يبدو مستقرهم الدائم .

***

اذا وضعنا كل العائدين والذين سيعودون في الاعتبار ، يجد المرء نفسه يتساءل : ما هي العلاقة بين الاسرة والمجتمع وبين الجنون . لقد سبق لنا الحديث عن علاقة المرضى بالمجتمع . فاذا فحصنا جانبا آخر من المشكلة لوجدنا ان الامر يبعث على الرضى ، بل ويطلعنا على السبب في حنين المرضى للعودة .

ولا شك ان هناك ثمة استنادات تبعث على الرضى ، لآباء يبذلون اقصى ما في وسعهم من اجل ابنائهم . لقد اعتاد آباء كل من سلف كوند متج فرانك وشارلي سابستيبوت والقيصر بطرس العاشر ، وايوجين السريع كالبرق وهيلين انكز وجو بولجر أن يزورهم ، وكانوا يتلقون طرود الاطعمة بانتظام ، ولم يكف الآباء عن السؤال عنهم . كان مثل هؤلاء الآباء نادرين . لم يديروا ظهورهم لابنائهم بل على العكس ، كانوا يفضلون أن يعودوا بهم لمنازلهم بأسرع ما يمكن . ومن سخرية القدر أن هذا القدر من الولاء لم يتوفر الا لدى آباء أشد الحالات صعوبة، ومع هذا فقد كان في الامكان اعادة هيلين انكز وسلف كوند مننج فرانك والقيصر بطرس العاشر الى آبائهم في حالة طيبة بالرغم من انهم يعتبرون من بين أشد حالاتنا خطورة .

ويشكل الاقارب «التقليديون» جماعة اكثر ضخامة ، انهم يرسلون الطرود والخطابات الضرورية ، ويأتون للزيارة أحيانا ، ويصمون آذانهم عن اعادة ابنائهم الى البيوت حين يشفون . كانوا يرضون ويبتهجون لان اولادهم يتقدمون بصورة مثالية في الجرانج ، ويرغبون في الابقاء عليهم داخله . فاذا اصررنا على عودتهم للمنزل ، لم نكسب شيئا ، فخلال اسابيع قلائل يتم ايداع الخريخين في مؤسسة اخرى . لا يعرف المرء هل يضحك ام يبكي حين يطالع الرسائل التي يؤكد فيها الآباء والاخوة والاخوات أن قلوبهم قد تحطمت ، ولكنهم يستحلفونا بالله الا نعيد لهم قريبهم العزيز لانه .... وتأتي بعد ذلك قائمة طويلة من الاسباب . فمثلا اشاع أقارب روزي الخياطة الطيبين انها لا تنام الا في حظيرة الخنازير وكان من المؤكد انهم هم الذين وضعوها في حظيرة الخنازير ، وهو امر شديد الوقع على هذه المخلوقة الملائكية رفيعة الذوق . فاستمدناها ، اذ ليس هناك ما يدعو لايداعها مؤسسة مغلقة ، وطالبنا مجلس القرية بمراقبة ، لا المريضة بل الاسرة ، بيد انها لم تراقب بما فيه الكفاية . اذ طردت روزي عقب بضعة شهور من المنزل . وعثرت

على وظيفة في بودابست ، وحرصت الاسرة المحبة على تحاشي معرفة اين هـي وكيف حالها .

وخلت الخطابات المليئة بالاسى من اية اشارة الى ان أقارب روزي يستغلون بضعة فدادين قليلة من الارض تمتلكها ، وهذا هو سبب احساسهم بأنها تعترض طريقهـم .

ولقد كانت آني الحزينة على ما يرام ، وان شعرت بالاكتئاب لانها كانت تفضل الحياة مع زوجها وبناتها الثلاث . ولكن لم يكن في وسعها ان تعود الى المنزل اذ اتخذ زوجها لنفسه في ذلك الوقت زوجة اخرى وانجب منها طفلا ـ علـى حين اودع بنات آني الثلاثة في احد الملاجىء . ومع هذا ، ظهر الزوج ذات يوم واصطحب آني الى المنزل . هل عاد الى صوابه؟ كلا على الاطلاق . لقد ضاق ذرعا بزوجته الثانية وكان يأمل ان تفلح آني في اجلائها .

ولم يكن هذا هو نوع المناخ الذي يهدىء النفس المجروحة . واقلقنا ما قد يحدث . وما حدث بالفعل هو ان سلوك آني خلال هذه المشاجرات العائلية العنيفة كان هو الاكثر سواء . لقد كانت المشاجرات مع الزوجة الثانية أهون ما في الامر. وفي النهاية ادمن الزوج على الشراب ولم يطرد زوجته الثانية بل طرد آني وفي غمرة اضطرابها لجأت الى والديها . ثم شرعت تبحث عن عمل . ولحسن الحظ تبين اثناء الفحص الطبي انها مريضة بالسل فتم ايداعها المصحة . وهي لا تزال مقيمة هناك ، هادئة وسوية وعلى ما يرام . ولكن ما الذي سوف يحدث حين تشفى من مرض السل ؟ ان هذا لن يعني شفاءها من زوجها .

كانت عائلة ستيف بارتا في تشيكوسلوفاكيا ، وكان من المتعذر عليه العودة الى منزله ، بالرغم من انه كان دائب الحنين اليـــــه . وأعلن حين جاء لدينا ان الرئيس روزفلت وعددا من الدبلوماسيين الاجانب يتفاوضون مع ممثلة فرنسية فاتنة في احدى غرف المصحة عما ينبغي أن يتم بشأنه . ولقـــد نسي الرئيس والممثلة الفرنسية فيما بعد ، وكف عن لعب الاستغماية حول الاركان في المساء ، وعن اخافة الممرضات ، وشفي . كان فيما سبق يعمل كاتبا . وحاول بعد خروجه أن يعثر على عمل . ولم يقبلوه كاتبا في اي مكان ، فاشتغل بالعمل البدني . بيد انه كان ضعيف البنية ، فخشينا أن ينوء بالعمل آجلا او عاجلا او أن يطردوه . وكانت آخر أخباره انه طرد من فوره من وظيفته الخامسة ، واضحى شريدا ، بلا ملابس تقريبا ولم يذق طعاما منذ ايام . الى متى سوف يصمد كان من الغريب حقا انه لم يلجأ بعد الى احدى المؤســـسات .

وكانت حالة تيني ليلي اكثر طرافة . لقد جاءتنا هذه الفتاة بصحبة اختهـــا في سيارة فخمة ، وبدا انها مريضة «ذات وزن» . وتصرفت باديء الامر وكأنها في مصحة خاصة ، فكانت ذات انفة وتعال .. ولكن منذ انطلقت اختها عائـــدة بالسيارة الفخمة ، اختفت تماما وكفت عن السؤال عن ليلي لمدة أعوام ثلاثة ، وهكذا نسيت ليلي مسلكها السابق وغدت عاملة مجدة . وكان في مقدورها رغم

راسها الفارغة ان تتبين انها هنا في منزلها ، وانه لم يكن لها مكان في منزلها السابق . وحين الحقناها باحدى مزارع الدولة ، تمارضت حتى تمت اعادتها ، وازداد شعورها انها في منزلها بيننا .

والتقيت عرضا ذات مرة بأخت تيني ليلي في القطار . لقد جاءت بالطائرة ، واجبرها الطقس السيء على العودة بالقطار . ولم تفكر في زيارة اختها مجرد زيارة ـ بل على العكس ، كانت تخشى ان تفصح ليلي عن رغبتها في العودة الى المنزل بصحبتها اذا ما وقع بصرها عليها . اعترفت لي بذلك في القطار . واكدنا لها انه لا يوجد ثمة موجب للخوف ، اذ ان ليلي لا ترغب في مبارحة الجرانج . ذلك بالرغم من ان عودة ليلي لن تعود عليها بالنفع ، اذ كان في وسعها ان تتولى الاشراف على منزل اختها كما تفعل الان . لقد كانت أميَل الى البطء والبساطة ، وان لم يمنعها ذلك من ان تكون عاملة نظافة لا تشوبها شائبة .

وهكذا تأثرت اختها واقسمت ان تزور ليلي في الاسبوع القادم . ولكن ذلك لم يحدث مطلقا خلال عام بأكمله .

ولقد كان لدينا المديد من الوقائع الشفاهية والمكتوبة التي توضح كيف كان الوالدان يدينون ابناءهم ، والابناء والديهم ، واخوتهم ، وانسبائهم ، والازواج والزوجات بعضهم البعض ، بمجرد او يصمهم المجتمع «بالجنون» . كان ذلك يرجع احيانا الى دافع مادي ، واحيانا الى الخوف من تضاعف المتاعب ، وأحيانا الى مجرد الخوف . وكانت الجرانج ـ اكثر من اي مؤسسة اخرى ـ بمثابة مشجع للاقارب على التخلص من أعبائهم ، ففيها سيكون «المسكين» على ما يرام ، ولا داعي للندم .

واذا كانت الأسر على هذا النحو ، فما بالك الغرباء ؟ ما الذي يمكن توقعه من مجتمع اقام جدارا من المفاهيم الخاطئة على مر آلاف السنين حول عالم المجانين ، واحاطه بالخزعبلات المروعة ثم انتابه الرعب الحقيقي من الاكذوبة التي خلقها بنفسه؟ لقد كف الناس في القرى المحيطة بالجرانج عن الخوف من المجانين انهم يثرثرون معهم ، ويلتقون بهم في السينما ، ويتسوقون معهم من المحلات ، ويأنسون لبعضهم فيدعونهم ويقدمون لهم شتى الاشياء (بما في ذلك النبيذ لسوء الحظ ويرسلون للمرضى دعوات خاصة للعروض المسرحية في قراهم . لكننا لا نتوقع هذا القدر من الاستنارة من المجتمع بأسره .

وتزودنا حالة ماري وايلدر بصورة نموذجية للعلاقة بين المجنون والمجتمع .

يشير تاريخ حالة ماري وايلدر الى انها فصامية ، وان لم نتبين لديها هذه الأعراض . ربما كانت فصامية فيما سبق ، بيد انها الان فارغة العقل وهستيرية احيانا . كانت هي التي عادت من مزرعة «القملة» هزيلة ومصابة بشلل في الساقين . في صحبة بيتروولف المصاب بالصرع والذي يعيش في داخله ، على حد زعمه ، شخصان ـ الذئب الشرير والقديس بطرس . بيد ان احدا من هاتين الشخصيتين لم يبادل ماري الحب ، ولقد حاولت عبثا اغواء القديس الشرير .

وسئم بيتر من ماري في النهاية وطالب بإعادته الى قريته . وحيث أن نوبات الصرع لم تعد تنتابه الان ، بل أصبح يعمل في اتقان ، ولم يعد شريرا ولا قديسا بشكل مبالغ فيه ، فقد تركناه يعود الى منزله (سارع أقاربه الطيبون بإيداعه مصحة المقاطعة العقلية وانقطعت اخباره عنا لانه «في حالة بالغة السوء لدرجة انه لا يسمح لهم بزيارة المخلوق المسكين») واصبحت ماري وحيدة . داومت على البكاء ثلاثة اسابيع . كان ذلك خالصا حقا ، لانها لم تحظ منه بشيء سوى الضرب المبرح .

ولكن بمرور الزمن التأم جرح ماري وعادت للعمل في مثابرة . واصبحت اغانيها تتردد في ارجاء المنزل بدلا من صرخاتها . كانت ماري تتمتع بصوت رائع ، وحين ينساب ، يغطي على كل الكورال . وعادت معتدلة المزاج لانها وقعت في الحب ثانية ـ مع جوليوس جريم الذي بث الرعب في قلب السيدة الاولى في اول أيامنا بالجرانج بقصة سكينة . وكان جوليوس جريم يحب في الاصل ايلزي فلاتفوت ، لكنه نبذها من اجل ماري . وبعد ان ظلت كسيرة الخاطر لفترة ، تقبلت ايلزي اهتمام ستيفن ماجور ، وهكذا انطلقا الى المجلس القروي ، حيث أعطوا لهم شهادة مزيفة بزواجهما . وكذلك ذهب جوليوس جريم وماري وايلدر للمجلس وحصلا على هذه الوثيقة «المضحكة» (قاتل الله روح الدعابة لدى المجلس ـ لماذا لا يستخرجون الوثائق الاخرى بمثل هذه السرعة) ، وعاشا سعداء بحبهما النقي. ولقد كان حبا نقيا فعلا اذ يعلم الجميع ان جوليوس جريم يفتقد ذكورته . ولم تبال ماري بذلك على ما يبدو .

بيد أن اخلاص الرجل لا يساوي كثيرا . صحيح ، ظل جوليوس يردد أن ماري هي زوجته الصغيرة المحبوبة ، وانه لن يفارقها قط ، وانه سيصحبها الى المنزل في قريته . وهكذا فعل ، فحزما متاعهما ذات يوم ولم يتوقفا حتى بلغا قريته . ومكثا في المنزل ثلاثة ايام ، ثم ملّ الاقارب من الزوجين فأعادوهما الى الجرانج . قلنا لهم في التليفون أن في وسعهم الاحتفاظ بالاثنين دون أدنى خطورة ، فهما ليسا خطرين ، ولا حتى جوليوس الذي هاجم امه ذات مرة بسكين وان ماري عاملة نشطة تتمتع بصحة طيبة ـ لكن العائلة لم تلق بالا لكل ذلك . ولما كان نسيب جوليوس جريم هو رئيس المجلس ، فقد كان من السهولة بمكان أن يضعوا الزوجين في قطار ويرسلونهما الى المدينة ، حيث لم يعد أمامهما العودة الى الجرانج .

لكن جوليوس لم يتقبل الفشل . فحزم امره بعد اسبوع وعاد للمنزل بمفرده هذه المرة . واتضح للاسرة انه لا موجب للخوف منه . فاعطوه فرصة ليعمل . وعادت ماري تعاني من الهجران .

ذرفت دموعها ، وكفت عن التنظيف والغسيل لاسابيع . وظلت تتجول في المنزل ، بأكمله في صوت موسيقي ساعات لا حصر لها . وارسلت الخطاب تلو الآخر الى «زوجها العزيز» ، دون أن تتلقى ردا . لقد تناساها جوليوس .

لكن الزمن يداوي كل الجروح ، فنسيت ماري جوليوس على مر الوقت ، واستعادت روحها المرحة ، وصوتها ، وحماسها للعمل .

وفضلنا في ذلك الوقت اعادة ماري الى المنزل ، فهي لا تسبب اية متاعب ، وتعمل بصورة طيبة ولم تعد تعاني من الوساوس ، والتهيؤات ، والنوبات ـ فلماذا تشغل مكانا هناك من هو أحوج اليه منها في وسعها أن تعمل في المنزل بنفس الصورة الطيبة ، وترعى شئون منزل والدتها ، او تلتحق بمصنع . وهكذا افرج عنها . واستقبلها اهلها في سرور واضح . لقد تبينوا أنها سليمة فعلا ثم اعادوها، زاعمين أنهم لا يستطيعون رعايتها . ما دامت الدولة قد رعتها كل هذا الزمن الطويل ، فلماذا لا تستمر في ذلك .

وسعدت ماري بالعودة ، وشعرت بمزيد من الراحة لدينا عنها في المنزل . وسرعان ما أحبت ستيفن نافخ الريح .

كان سيتفن نافخ الريح فصاميا . وكان يؤكد في لحظات صفوه بهزة من راسه أن ماري لم تبلغ معه شيئا ، ولكننا كنا نعلم ان ماري الوالهة ترضى بالحب الخالص ، لذلك لم ندهش لنجاح الغزو . كان الحديث مع الصبي من الصعوبة بمكان (لم يكن يجيب قط) فكانا يعتنقان ويتبادلان القبل في صمت ، وسعدت ماري بهذا .

لكن السعادة لا تدوم . فنافخ الريح يتعرض باستمرار لاشعة تأتيه من التل المجاور ، وهكذا هرب ليمضي الى هناك مفتشا عن آلة الاشعاع المجرمة . واعتقد زراع العنب أنه جاء في طلب عنبهم ، فهددوه بالضرب اذا عاد مرة اخرى ولم يعر نافخ الريح ذلك اهتماما ، وعاد للتفتيش عن آلة الاشعاع . وأحضرته سيارة الاسعاف الى المنزل مليئا بالكدمات وقد كسرت ذراعه . على حد زعم زراع العنب ، هوى الشاب المسكين من سفح الجبل المنحدر . ولم يقل نافخ الريح شيئا ، ولم أوجه اليه اية اسئلة . فأنا اعرف زراع العنب معرفة جيدة .

لم يعد في وسعنا الابقاء على نافخ الريح بيننا اكثر من ذلك ، وتعين علينا ارجاعه الى بودابست . وغدت ماري وحيدة مرة اخرى .

رأينا فيما سبق جانبا من العلاقة بين «المجنون والمجتمع» ، ولكن يتبقى الكثير مما يمكن ان يقال . لقد هربت ماري في غمرة احزانها . انطلقت معولة على الطريق حتى بلغت المدينة التي تبعد ثمانية أميال في المساء . وهناك التقطها احد رجال الشرطة ، نظرا لانها كانت بمفردها تبكي . وذكرت له ردا على اسئلته اسمها وأنها قدمت من الجرانج . فاقتادها رجل الشرطة الى مستشفى المدينة . وهناك ايضا القوا عليها الاسئلة ، فرددت لهم قصتها . وعندئذ طلبني الطبيب المناوب على التليفون :

«ثمة امرأة هنا تزعم انها جاءت من الجرانج .»

«اجل ، انها بالتأكيد ماري الشاردة .»

«هذا صحيح ، ماذا نصنع معها .»

«احتفظ بها لديك حتى الصباح ، وسوف ارسل لها شخصا . ولا داعي للخوف منها ...»

«بوسعي تبين ذلك ، لقد حادثتها ، وتبدو اقرب للسواء . ولكن ... اخشى الا نستطيع الاحتفاظ بها هنا ، فالمستشفى مزدحمة جدا .»

(ان ما يقصدونه بالفعل هو انهم يدعوا شخصا مجنونا وسط الاسوياء ... كان يجب أن أعرف ذلك .)

«اوصلها الى المحطة ، وضعها في القطار ، وسوف نقابلها في المحطة . انها مجرد محطتين ، وتستطيع ان تحضر بمفردها .»

«لكنها بدون نقود .»

«الا تستطيع اقراضها خمسة فورنيتات ؟ سوف أردها غدا .»

«حسنا ، لكن ... من الذي يتحمل المسئولية .»

«اية مسئولية .»

«اذا حدث شيء في الطريق ... سيقولون ان الطبيب فحصها وتركها تمضي، وهو المسئول عنها ...»

المسئولية ! لم يخطر لي كل هذا .

«ليس أمامك سوى أن تستدعي سيارة اسعاف وتعيدها الينا بالسيارة . انه امر اكثر تكلفة ، ولكن لا محل للقلق بالنسبة للمسئولية .»

وهكذا عادت ماري بسيارة الاسعاف . في صحبة ثلاثة اشخاص ، السائق وممرضة وطبيب شاب ـ لأن «المجنون هو المجنون» ويجب ان يعامل طبقا لذلك. كانت الساعة التاسعة مساء ، ولدينا حفلة . استدعيت من مباراة الشطرنج التي كنت ألعبها ، ولم يمنع ذلك سينسر المجوز من أن يعلن «كش الملك» في نفس اللحظة . وكان الآخرون يلعبون البينج بونج ، ويرقصون ويغنون . وراقبت قلة من المرضى الفضوليين من في عربة الاسعاف ، وحاولت جيزيل ذات الشامة استعراض نفسها . وقدم ليزلي رجل الجبال نفسه ، وثرثرت ايلزي اللثغاء في ابتهاج ، بينما اهمل الباقون الضيوف .

وشعر السائق والممرضة بالسعادة بين المرضى ، بينما انتحى الطبيب جانبا، مرتعبا كمن القي به في الجحيم . طفق يرقب الراقصين في هلع ، وهو يرتجف ويهز رأسه .

سألني لمجرد ان يقول شيئا ، «متى انشئت هذه المؤسسة» «ما اسم هذه المؤسسة .»

لقد افتتحت الجرانج منذ ثلاث سنوات ، وذاع صيتها ، ولكن هذا الطبيب الشاب الذي يبعد عنا ثمانية اميال لم يسمع عنها شيئا . هذا لا يهم ولكن كم كان عصبيا حين رافق الممرضة الى مكتبي لتحصل على بطاقة وعلى توقيعي ، وكم خشي أن يتركوه وحيدا واعزلا بين هؤلاء الرجال المجانين ! لا شك أنه كان سيسعد فيما لو راى المرضى مكبلين وسجناء في زنازين . وعندئذ ربما قال في

رياء «يا للمخلوقات المسكينة ...» ظل يرقبهم في رعب مستتر ونفور شديد حتى انهى اوراقه ، فاندفع خارجا اسرع من أن يودعنا .

لقد اشعره المرضى انه زار من فوره حديقة الحيوانات ، بكل ما تحويه من وحوش مروعة .

***

لقد كان المائة واربعة وعشرون مريضا الذين خرجوا لانهم تحسنوا ولم يعودوا بمثابة دليل على نجاح الاسلوب . كان من الممكن في الحقيقة شفاء الناس بالاعتماد على الحرية ، والعمل والتسلية . لم اكن أعتبر العلاج البيئي معجزة تشفي كل شيء ، ولم أتصور قط انه سيجعل جميع المرضى يتحسنون ولم افكر في انه يمكن ان يلغي اي جانب من العلاج الفعال . ولكنني اومن ان الشفقة والبيئة المناسبة ضرورية لنجاح العلاج الفعال .

ليست الحرية هي ذلك العامل السلبي الذي يتضمن عدم استخدام القوة . ان العامل الايجابي اشد اهمية . ويمكن تلخيصه على هذا النحو . المرضى احرار في ممارسة حياة شبيهة بحياة الأسوياء . من الواضح انها لا يمكن ان تكون كالبيئة السوية تماما ، لانه ليس في وسع المريض المجنون ، كما سبق أن ذكرناه، ان يتلاءم مع البيئة السوية وتصبح مهمة العلاج البيئي هي ملائمة البيئة للمرضى الذين لا يستطيعون ان يطوعوا انفسهم لبيئاتهم . فبيئة الجرانج اذن **بيئة صناعية ولكنها ليست غير طبيعية** . صناعية لانها تضع في الاعتبار حاجات المرضى الخاصة ، وهواياتهم ومخاوفهم ، وعجزهم الدوري عن العمل ، وحساسياتهم . وطبيعية ، رغم هذا ، لان المرضى يعيشون في مجتمع منظم لهم حقوق وواجبات، ويمكنهم العمل ويستطيعون ان ينشدوا الراحة واللهو المنظم بعد العمل . يتجولون في المنزل بحرية ، وكذا في الحديقة والمزرعة غير المسورة . ويذهبون الى السينما اذا ارادوا او للتسوق من القرية المجاورة . يقرأون ويكتبون ، ويلعبون الورق والشطرنج ، يرقصون ويغنون ، يلقون المحاضرات ويستمعون لها ، ويعقدون الصداقات ، ويحبون ، ويتشاجرون ـ بعبارة أخرى ، يجدون انفسهم في بيئة شبيهة من أغلب النواحي بعالم الأسوياء . عملهم منتج ، واغلبهم يشعر تجاهه بالطموح . لديهم هدف في الحياة ، وينتمون لمكان ما .

***

واقمنا حفلة هادئة للمرضى في الكريسماس . لم نزد عن ان زيننا شجرة شربين بقليل من الشموع ، والحلوى والقناديل . وكانوا سعداء كالاطفال . واعتليت كرسيا ، وكلمتهم عن المحافظة على السلام ، فذرفوا الدموع .

ووزعت الهدايا . وكان ثمة جرامافون واثني عشر اسطوانة راقصة ، بالاضافة الى رقع للعبة السلم والثعبان تكفي الجماعة كلها . وحصل كل منهم على شيء شخصي ايضا ـ منديل وزوج من الجوارب لكل رجل ، ومنديل وايشارب لكل امراة . لم تكن غالية الثمن ، ولكنها وصلت الى مبلغ غير قليل بالنسبة لتسعين مريضا ، ولا شأن لكم كيف دبّرت النقود . ورفض تاتو العجوز وجو الفظ هديتهما ، بينما استمتع الآخرون تماما . ولقد راقبت وجوههم ، وبخاصة وجوه المتخشبين ، الجامدين ، وحتى هؤلاء كان يبدو عليهم الارتياح .

وقدمنا في راس السنة هدية اكثر اثارة من الجرامافون . آلة عرض وبضعة افلام صغيرة . ضمت بالاضافة الى الروايات افلاما علمية مبسطة عن حديقة الحيوان ، والطيران ، وزراعة الفاكهة الخ ... واستمتع مرضانا بكل هذا .

انتهى صنع دولاب الادوات ايضا . صنعه النجار الحزين من بقايا العروق المتخلفة عن سقف المبنى المهدوم . واستغرق وقتا ، ولكنه بدا جميلا .

لا زال النجار الحزين يباشر ورشة النجارة ، رغم وجود منافسين . ولسوء الحظ فان ذلك الحزين لم يستطع تحمل المنافسة ، ولذلك كنا مضطرين الى انشاء ورشة أخرى ليعمل فيها فيريس العجوز مع مارجينا المخرف . كان فيريس العجوز يعمل فيما مضى صانعا للعجلات ، بينما كان مارجينا يعمل بالنجارة . وتخلى فيريس العجوز مؤخرا عن عادته في مخاطبتي بسعادة الكونت ، والتي تشعرني بضآلة شأني ، ولكنه ، من ناحية اخرى ، اكمل صناعة مخرطة بنفسه . ولم تكن هذه أولى أعماله الرائعة ، وبفضله ظلت عرباتنا قادرة على الدوران .

وكان بيلا الطائر يعمل معهم بمثابة صبي . وكان يسلي أقرانه بما يرويه من نوادر خيالية ... اي اكاذيب . فقد قدم نفسه باعتباره مراسلا ديبلوماسيا متجولا وخبيرا بالطيران اشرف على انتاج الطائرات في موسكو وانه طار على ارتفاع خمسة وثلاثين الف قدم بسرعة اثني عشر ميل الامر الذي سبب في انهياره العصبي وتعرضت طائرته للقصف خمس مرات ، وأوقفه الالمان قبالة حائط الاعدام ثماني مرات وأصيب في راسه اربعة عشر مرة ... كما ابتكر ايضا اجنحة نفاثة يمكن ان تثبت في ظهر الشخص ، وتساعده على الطيران بسرعة اثني عشر ميلا في الساعة .

ويقوم بطل الفضاء الخيالي الان بصناعة نماذج من الطائرات في الورشة ، في تكاسل وبلادة واكن بمنتهى الرضى . ورغم ماضيه المجيد فقد كان خلوا من العجرفة .

وتراخى العمل في ورشة الحدادة قليلا منذ ذهاب لويس المتعدد المهن الى منزله . وحل محله لفترة ما بيلا صانع الأقفال الطفيلي المريض بالصرع الكاذب ، ولكنني طردت بيلا . طردته لان ليس من حقه ، ما دام طفيليا أن يبدي تعاليه وقحته على المرضى الآخرين . كنت أعلم انه حالما يصل الى بودابست سيشرع فورا بالتظاهر بأنه أصيب بنوبة صرعية ، وسيرسلونه الى ليبوتميزو أو انجيالفولد،

ولكن لم استطع ان امنع ذلك . لقد اعتقد الاطباء الذين شاهدوا نوباته المزعومة انه مريض حقيقي بالصرع . ولقد شاهدت هذه النوبات . كانت لدى بيلا فعلا، وبرغم نوباته المزيفة ، سمات المريض بالصرع . لكن هذا ليس سببا لتبطله على حساب الدولة بينما هو قادر على العمل ، ومضايقته للمرضى الحقيقيين .

وتولى بول الراقص مباشرة ورشة الاقفال بعده ، وتتلمذ عليه اليك الهامس. كان بول الراقص احد معاقد آمالنا . كان يمر بالمراحل الاولى من الفصام كما لو انه تعلمها من احد المراجع الطبية . وسرعان ما تبدل اتجاهه الاجراري الانطوائي، وتفتح كالوردة . ثم كتب له أبوه انه قادم لزيارته ووافقت على حضوره وارسلت بول الى المحطة ليستقبله . وصعق الوالد لحضور ابنه لمقابلته ببساطة عند محطة القرية التالية . لقد استمر يجلس لمدة عامين في احد الاركان ، لا يجيب على الاسئلة الا بصعوبة ، ملقيا اتهاماته او مستغرقا في الصمت .... ومع هذا كان بول في انتظاره على المحطة ، وانطلقا سويا الى الجرانج ، يثرثران ، ثم شاهد بول يشارك في الرقص ويلعب تنس الطاولة ، غاية في البهجة والتلقائية مما أثار دهشة الوالد حقا .

ولما كنا سنقيم لصناعة الأقفال ورشة خاصة خلال الربيع القادم ، فان النجار الحزين سوف يصبح بمفرده مع مساعده . ولقد تم ايضا شفاء النجار الحزين ولم يعد حزينا . لقد أبقيناه فحسب لانه لا يجد مكانا آخر يذهب اليه ، فاذا تركناه ، سيعود لحزنه من جديد . وكان يحاول الان استئجار حجرة في القرية المجاورة ، او في احدى المزارع . وسوف يعيش هناك ، ويحضر للعمل كمشرف على ورشتنا حتى يتوفر له المال الكافي لافتتاح ورشة خاصة .

وتجمع معظم المرضى في ورشة صنع السلال ، هربا من برودة الشتاء . لم يمض على المرضى وقت طويل حين كانوا يرتدون الاسمال البالية ويرتجفون داخل الورشة المعبقة بالدخان حيث يقومون بتنقية البازلاء تمضية للوقت .... لم يعد نفس الموقد يدخن ، وانما يشتعل الان بصورة رائعة مؤكدا أن المواقد انما تدخن حين لا تتناولها يد الرعاية المناسبة . ومنذ حل ويندي العجوز عندنا ، عملت جميع مواقدنا على الوجه الاكمل . واكتسى نفس المرضى بصورة لائقة . كان هذا نتاجا لمعركة الربيع . لم يعد (بلا كلام فارغ) وشركاه يجرؤ على انفاق ميزانية كساء المرضى على اي بند آخر .

لم يكن غريبا اذن ان ينجح العلاج بالعمل هذا الشتاء بصورة افضل عما كان عليه في العام الماضي . كان لدينا قلة من العمال المهرة ، من أمثال جون صانع السلال المصاب بالصرع ، وجون محطم الاحواض ذو النزعة الفلسفية وفرانك الماجن المتخبط . تعلموا مهنتهم على يد المرض باكاتش ، الذي كان صانعا محترفا للسلال ، على الرغم من أنه لم يصنع سلالا جميلة كتلاميذه . واضفى جون محطم الاحواض على سلاله جاذبية خاصة . لم يصنع اثنين متشابهين قط وكانت كل واحدة تعبر عن تهوياته الفصامية الشاعرية (لا يعني هذا ان سلاله كانت

غريبة او مضحكة ، بل كانت تتسم ، على العكس، بالتصميم الفريد ، والاضافات الحلوة الصغيرة التي تخرج بها عن سخافة المألوف) . واشتغل جادلوا الاليـــاف بحماس عن العام الماضي . وصنعوا مساحات جميلة للأقدام ، ومشايات، وشرعوا مؤخرا في صنع الصنادل . كانت هناك قلة تكتفي بالوقوف في احد اركــــان الورشة ، وقد بدا عليها الضجر ، ممن جاءوا في طلب الدفء لا العمل . ولم نجبرهم عليه اذ أن الامر سيصبح بمثابة السخرة بالنسبة اليهم . لقد تعلمنا أن اضفاء المعنى على العمل هو الذي يعطيه قوته العلاجية . ففي الامسيات يصبح هؤلاء الذين كان يبدو عليهم الضجر خلال النهار اكثر اهتماما بالامور . كان فصل الكرنفال ، والرقص في كل ليلة . ودارت آلـــة العرض ايضا . وتزايـــدت اسطوانات الجرامافون . وباشر ليز هالماجي المدرس الكحالي الاشراف على نادي المرح فكان اكثر اقتدارا من بيتر الشهيد او من المعالج المهني ذي الأذن الموسيقية الصماء لدرجة اصبح معها الاستماع الى الكورال متعة . وظهر أبطال جدد لتنس الطاولة الى جانب جاس ليبانكاي ولويس لافتر ، واصبح جوليوس الميكانيكي الان هو اللاعب المفضل ، اما بول الراقص وفرانك الماجن فقد بدا يخمهما في الصعود (كانوا جميعا من حالات الفصام الحادة ، ويبدو أن تنس الطاولة اصبح وقفا على الفصاميين . وحين كانت المخالفة التي يصاب بها ارنست المزدوج تمنعه مـــــن الاجابة على اية اسئلة ، كان يظل كلفا بالبينج بونج ويلعب مباراة ممتازة) . كذلك كان فرانك الماجن خصما لا يستهان به في الشطرنج ولم يكن مهلوسا اثناء اللعب كما يفعل لويس الضاحك وتاتوا العجوز ، ولكن كانت تنقصه براعـــــة التفكير والتصميم المتوفر لدى جاس ليبينكاي . وكانت قمة السهرة حين يرقص مارجيتا العجوز ــ الموجيك السابق ــ رقصة القوازق الروسية ، او حين تتخلى جيزيل ذات الشامة عن غليونها وترقص التشارداس مع اليك فم الضفدعة . منذ ستة اشهر خلت كان اليك فم الضفدعة صامتا كالقبر. بينما يرقص الان كالجمل وترقص جيزيل ذات الشامة كالغوريلا .

كنا نقضي وقتا ممتعا ، وكنا مع هذا نتطلع الى الربيع .

يجب أن يتضمن حسابنا اشياء اخرى عديدة . لقد ابتعنا ملابس للمرضى مثلا بمبلغ ٢٥٫٠٠٠ فورنت من مدخراتهم . وكان هذا بمثابة متعة مزدوجة ــ حين حصلوا على النقود اولا ، وحين تحولت ثانية الى معاطف او سراويل او احذية .

يجب أن اذكر بضعة كلمات عن ارباح المزرعة . لم اكن احاط علما بالارقام المضبوطة اذ ابقاها امين المخازن سرا عني . والواقع ان الارقام لا تستهوينـــــي كثيرا . اهتممت بشيء واحد ، اننا لا نخسر . على الرغم من ان الورش لم تكن مستغلة تماما بسبب عدم توفر المواد الخام . ولقد ناضلت من اجل توفيرها بعض الوقت ، ثم استسلمت . الا يكفي ان يكون المرء حواريا وحارسا في نفس الوقت، ليكون امينا للمخازن ايضا . كان يجب ان اتولى ذلك ، لكنني لم اكن موهوبا في هذه الامور . على كل حال لم يصب مرضانا شيء من هذا الربح المتزايد . امـــا

بالنسبة لمكاسب المستشفى ، فقد كانت كافية لبث القلق في نفس امين المخازن، وان لم تقلقه كثيرا ، اذ كان اكسل من ان يقلق ، ولكن اذا سارت الامور معه على ما يرام ، فستصبح على ما يرام بالنسبة لي ايضا . اشد ما يستهويني هو هذه ال (اذا) .. ففي وسعي ان اتبين انه **اذا** استقلينا عن المستشفى ، واذا توفر لنا امين مخازن قادر يدبر عمله بذكاء ، **واذا** استطعنا تطوير المزرعة ، لامكن عندئذ ان تكتفي المؤسسة ذاتيا .

ويقتضي الامر ان اقول المزيد عن معاونيَّ من الممرضات . كان لدينا ذات يوم سبعة ممرضات (بما فيهن المنوطات بالعنابر) واصبح لدينا تسعة الان . ولقد استطعنا المطالبة بالتاسعة بعد أن زدنا عدد المرضى من ثمانين الى تسعين ، وحوّلنا المخزن الى عنبر للنوم . وظل العدد رغم هذا قليلا جدا .

ولم يكن من الصعب كسبهن . لم يبق من الفريق الذي بدأنا به الا تاتي وهامستر وإيما . بينما انسلخ الآخرون . اما الجدد فلم يكنّ ممرضات من قبل ، فلم يعرفن بالتالي أن الامور يمكن أن تختلف . او سرعان ما ادركن ان العطف يجعل الامور اكثر يسرا بالنسبة لهن . لم يستطعن بلوغ مستوى ايما وروزي والسيدة الاولى ، ومع هذا فقد استطاعت هؤلاء الفتيات الفلاحات الصغيرات الأميات أن يفهمن ما لا يفهمه الاطباء في المصحات الاخرى غالبا الا بشكل نظري .

كان لدى الممرضات فرصة ميسرة حقا ، ما عليهن الا ان يكن ودودات مع المرضى وما عدا ذلك سوف يسير على ما يرام . وحين كانت الممرضة ايما في بودابست تتلقى تدريبا ، ذهلت للفارق بين اساليبهم واساليبنا . وخجلت من الاعتراف بأنها لا تعرف كيف تضع مريضا في قميص الكتاف نظرا لان هذا ليس من الامور الشائعة في الجرانج . وكان لديهم مريضا مقيدا لا تجرؤ الممرضات على مجرد الاقتراب منه ودون ان تعرف ذلك ، مضت ايما اليه ومشطت شعره ، واطعمته ، وجلست تجاذبه الحديث . ومر الطبيب المنوط ، فتدلى فكه من الدهشة ، ثم قال لبقية الممرضات :

«هل رأيتن ، تلك هي مشكلتكن ... انكن لا تحببن المرضى» .

وحاولوا استبقاء ايما لديهم . ولكنها لم تكن لتتخلى عن الجرانج .

ومع هذا لم يكن من السهل حل مشكلة التمريض في الجرانج . لقد كنا محظوظين مع ايما التي كانت تعمل كموظفة بريد في رومانيا ، والتي كانت تشعر أن في عملها كممرضة بالجرانج حل لمشاكلها . ولكن كان هناك ايضا بيكاتشي على سبيل المثال ، الذي كان يعمل في صناعة السلال . وطالما كانت هناك صعوبة في الحصول على المواد الخام ، فمن الانسب ان يكون ممرضا ــ ولكن ماذا لو عادت صناعة السلال واثبتت انها اكثر ربحا . ثم كان هناك ايضا بيك الهادىء الوديع الذي يشبه المصارعين ، والذي سيعود لتجارة الفراء حالما يصبح ذلك في امكانه. وهم محقون لان أجورهم كانت ضئيلة جدا . ماذا عن الشابات ــ ما الذي ينتظرهن اما آن فقد اقتنصت هامستر ، الشاب الوحيد الذي في سن الزواج ــ ولكن اي

مستقبل ينتظر الأخريات . كانت روزي جوهرة لا تجد من يقتنيها ــ ولا ريب انها سترغب في الزواج ان آجلا او عاجلا ، ولكن من الذي سيتزوجها هنا ؟ لقد شجعت الفتيات على مغادرة الجرانج والبحث عن مكان جديد قد لا تتوفر فيه مثل هذه الظروف الطيبة ولكن يمكنهن فيه الالتقاء بالشبان . وإلا فسوف يصبحن ان آجلا او عاجلا عانسات مسنات قبيحات ــ ليحفظ الرب المرضى منهن . لا ريب أن الامر كان يصبح غاية في البساطة ، لو ان الجرانج كان اكبر قليلا ، ولدينا خمسين ممرضا بدلا من تسعة ، اذن لوجد كل شخص رفيقه ، ولما عاد الجرانج مجرد محطة انتظار بالنسبة لهم .

ولقد كان المعالج المهني في نفس القارب ايضا . وشاب متحمس كهذا مطلوب بيد ان هؤلاء الشبان المتحمسين يطالبون بأشياء ليس في وسع الجرانج أن يوفرها . ومن بين الدفعة الجديدة من المعالجين المهنيين ، كانت لدى القلة موهبة ملحوظة . كانوا يهتمون بالمرضى ، ويهتمون بمهنتهم . اذ لم يختاروها بمحض الصدفة . وأعتقد انهم في بعض الاحيان اشد اهتماما بالمجنون من الاطباء. صحيح انهم يفقدون طريقهم بسهولة في قصر التيه الذي يبنونه من الخيال الفج ، ولكنهم اصحاب خيال على الاقل ، يريدون شيئا ، حتى ولو كانوا سذجا في بعض الاحيان . وكان في وسعهم بكل تأكيد التعامل مع المرضى بصورة أفضل من الاطباء . فلديهم الصبر ، ولا يرون في الامور مساسا بكرامتهم .

قال لي طبيب عجوز ذات مرة : حسنا لا يمكن استبدال المعالج المهني بالطبيب . فكانت إجابتي : انت على صواب ، ولكن لا يمكن احلال الطبيب محل المعالج المهني ايضا . كلاهما مطلوب ، بل ومطلوب منهما ما هو اكثر بكثير مما يتوفر الان . فنحن مثلا بحاجة الى اثنين من المعالجين المهنيين على الاقل لمرضى الجرانج التسعين ليباشروهم خلال العمل ، واللهو ، والتعلم لا يمكن لرجل واحد أن يدرب من السابعة في الصباح حتى العاشرة في المساء . ويتواجد في أماكن عدة في وقت واحد ، مهما بلغ طموحه . وللشباب رغباته ايضا ، فهم بعد يرسبون في القراءة والدرس ، وعقد الصداقات والرقص والخروج مع الفتيات ، والا يكونوا على قدر الامكان على مبعدة مائة وخمسون ميلا من الحضارة .

كان هذا ضروريا اذ لا تعتمد «الروح الجديدة» في المصحات العقلية على ما اذا كنا نستخدم قميص الكتاف أم لا ، وانما على ما اذا كنا في حاجة اليه . ويقرر هذا مسلك الاطباء ، والمرضين والمعالجين المهنيين .

***

ولقد كان ثمة نوعين من المرضى في القفص الذهبي . المجانين الحقيقيين ، والسيكوباتيين وضعاف العقول . وكان معظم المجانين الحقيقيين من الفصاميين. بينما يتضمن السيكوباتيون المرضى بالصرع . والهستيريون ، ومدمني الكحول

والمشاغبين . وتشتمل المجموعة الاخيرة على ستة وخمسون من ثلثمائة مريض قضوا ثلاث سنوات بالجرانج (سبعة وعشرون مصابا بالصرع) وستة هستيريون وثلاثة عشر مدمن كحول ، وعشرة من المشاغبين) . وبالاضافة الى الستة واربعون من ضعاف العقول يكون المجموع مائة واثنين . وهكذا كنا ، من أجل الفصاميين، نعامل ثلث مجموع المرضى كأنهم فصاميون . وبعبارة اخرى كنا نعد احتياجاتنا بحيث يتلاءم مع الفصاميين ، فيما يتعلق بالعمل واقرار النظام ، ولم يكن هذا كافيا بالنسبة للسيكوباتيين .

كانت هذه خبرة هامة . ما دمنا نتعامل مع أنواع شتى من المرضى سويا ، فمن الطبيعي ان يتلاءم التعامل مع اولئك الذين اشد مرضا . ولكن هذا ليس سليما تماما بالنسبة للحالات الاقل صعوبة او بالنسبة لسير العمل بالمؤسسة .

لقد تحدثت عن المتطلبات لا عن انجازات العمل الفعلي . ان الفصاميين يعملون أحيانا بكفاءة اكبر ، وينجزون اكثر من السيكوباتيين ، وان لم نطلب هذا منهم قط . وادرك السيكوباتيون وضعاف العقول اننا نشجع ولا نجبر ، فكانوا يستفيدون من ذلك احيانا . وقد يفيد الحبس احيانا مع المشاغبين . وقد يكون من المفيد حرمان الطفيليين من الطعام او ما شابه ذلك من ضروب العقاب الفعال ، لكن لم تكن روح الجرانج تسمح بذلك .

يجب شفاء الفصاميين اولا ثم تعليم الطفيليين .

ولقد قال ماكارنكو انه لا يستطيع أن يتصور كيف يكون التعلم ممكنا دون عقاب . وانا ايضا لا أستطيع أن اتصور ذلك . ان التضييق على المشاغبين لم يكن يكفي دائما . ولكن لم يكن في وسعنا أن نلجأ الى عقاب اكثر شدة وثلثي مرضانا من الفصاميين اذ يصبح ما هو عقاب بالنسبة للمشاغبين مدعاة لاضطراب الفصاميين .

ومن ناحية أخرى ، لم يبال الفصاميون بمقدار ما يتحصلون عليه من نقود نظير عملهم . كانوا يريدون أن يقبضوا ، وان لم يتضح لهم مبلغ ضآلة (٣٠ – ٤٠) فورنتا التي يقبضونها في الشهر ، على حين كان ينعدم الحافز للعمل لدى السيكوباتيين ما لم يحصلوا على اجرهم . وكان للطفيليين العذر في تبطلهم ، فهم لا يعملون مقابل قروش زهيدة .

خلاصة القول ، احتاج ثلث المرضى الى أسلوب مغاير ، نظام اشد صرامة واجور اكثر انصافا . في نفس الوقت الذي يصعب فيه التضييق على المجانين الحقيقيين . وهكذا لم تحل مشكلة تعليم هاتين المجموعتين في عناصر مختلطة اذ كانوا يشوشون على بعضهم بعضا .

من الخطأ أن نفترض انني احبذ ضربا من العلاج بالجلد للسيكوباتيين وضعاف العقول . فهذا أبعد شيء عن الصواب . اذ يعتبر استخدام القوة لاقرار النظام وسيلة غير عملية في اي مجتمع . كل ما اقصده ان الطفيليين بحاجة الى ضرب مخالف من اقرار النظام من الفصاميين . اذ يجب ان نوفر لهم عالما مرحا بهيجا

بدورهم ، ويجب أن يتنوع عملهم . ويجب اعداد الممرضات لاخذهم بالشفقة كما لو كانوا فصاميين . ولكن يجب مطالبتهم في مقابل ذلك بالنظام والتنظيم والعمل بصورة طيبة . فاذا لم يستجيبوا ، وجب ان تسحب كل حقوقهم منهم تدريجيا الى درجة الطرد الكامل . ومن الواضح أن الفصاميين لن يدركوا ان الطرد يعتبر عقابا ، ولكن يمكن استمالة الطفيليين بلا استثناء عن طريق الابقاء عليهم في المؤسسة . اما القلة التي ترفض الاذعان فيجب طردها من الجماعة قبل أن تشيع الفساد في الباقين . يجب ان تكون القاعدة الاساسية في علاج الطفيليين هي ان توفر لهم اقصى ما في الامكان وأن تطالبهم مقابل ذلك بأقصى ما في وسعهم . يجب ان يعالجوا من طفيليتهم ، هذا ما يجب ان يركز عليه الطبيب والمعالج المهني والمرض . ومن الواضح أننا لا نتوقع هذا من الفصاميين المهلوسين او مرضى البارانويا الذين يصارعون حوازهم . ويكون من المستحيل اذن ايداعهم سويا مؤسسة واحدة ، او على الاقل فانه يجب فصل المجموعتين بوعي ــ من وجهة نظر النظام وانجاز العمل . وليس ثمة ضرورة لتطبيق هذا الفصل بصورة صارمة ، فربما يطالب ضرب من الفصاميين بالاقامة بين السيكوباتيين منساقين وراء امكانية المزيد من الكسب ، ويصبح في وسعهم الصمود ازاء النظام الاشد صرامة . ومن ناحية اخرى ، فقد يقيم ضرب من السيكوباتيين مؤقتا بين المجانين ، ثم تستيقظ فيهم الرغبة في العودة للاقامة بين المرضى «الأسوياء» . ويخلق هذا ايضا درجات بين المرضى ويثير طموحهم للاقامة وسط جماعة ذات قوانين تحملهم المسئولية ، او بعبارة أخرى تتشابه الى حد كبير وقوانين المجتمع السوي .

* * *

لم تزل أعشاش الطيور في المبنى خالية ، وان عادت احدى البجعات الى المدخنة . وتباطأت الاشجار ذات الاسماء اللاتينية في ارتداء ملابس الربيع ، ولم تظهر بعد اية علامة على ان شجيرات الكستناء سوف تقدم اشجار عيد الميلاد القرمزية الصغيرة هذا العام ايضا .

انه الربيع كعادته ، وان تأخر في المجيء . وانطلق المرضى يغادرون ورشة صناعة السلال التي تبعث على السأم ودبت الحياة في الحديقة .

لدينا العديد من المشروعات ، ما يكفي لخطة خمسية . وورشة جديدة لصناعة الأقفال وركن للاحذية من الانقاض . وحجرات للممرضات مكان حجرة المخزن المعتمة، بعد ان تفتح بها نافذة . ونحتاج الى مطبخ لأسرة هامستر المتزايدة. ومغسل لهيئة المستشفى . وممرات الحديقة التيلم يتوفر لنا قط وقت لاعدادها. وسور حول الفناء الذي نزمع انشاءه . وحاجز لكسر حدة الرياح خلف خلايا النحل التي نزمع انشاءها . وكنا محظوظين لان علاقتنا بويندي العجوز كانت على ما يرام الان ، فكان يعمل بحماس وبلا كلل . لم يدبر بعد كيف يتواجد في كل مكان في

نفس الوقت ، ولكنه تقبل تدريجيا حقيقة انه ليس هو الذي يعمل فحسب بل المرضى ايضا . ولقد عملوا فعلا . كان امير الحزن هو الوحيد الذي لم يكلف بعمل ، اما كل من عداه فكان يصنع شيئا . لم يزاولوا جميعا اعمالا ذات قيمة . فكان فرانك اللائم نفسه مثلا لا يعمل الا اذا وقف شخص الى جانبه . ويصدق نفس الشيء على شارلي الملحق ومع هذا لم يكن عمله يساوي مليما . وعادت حالة ماري البلهاء لتبدأ من الصفر . وكان ستيف تفاحة يعزق دائما حيث لا ينبغي له ان يعزق ، واحيانا كانت كاميلا الشاطىء او تيبور العجوز يتجولان لايام وهما يسبان ويهلوسان ، ولا يصنعان شيئا ، ويلعب ايفان الكسول المساكة مع ليس العجلاتي حين لا يجدان احدا يراقبهما ، أما الاغلبية فاستمتعت بالعمل .

* * *

سبق ان رايت بول المشوش منذ ستة شهور مضت في المؤتمر التذكاري حين حاول ذر الرمال في عيون الجميع بمشروع عن المؤسسة ذات الالف وخمسمائة سرير ولكنه لم يخدعني . فأرسلت اليه تعليقا مضحكا اشبه بقصة الامنيات الثلاثة المدون اصلها في مجموعة القصص الشعبية المجرية . يدور على النحو التالي :

يحكى انه قديما ، عاش في احراش غابات بورتسوني ، رجل فقير وزوجته. وفي احدى الليالي ارادت المراة أن توقد نارا ، لتطهو الطعام ، فلم تجد وقودا .

وحين عاد الفلاح الى المنزل ، قال مبتهجا :

«حسنا يا امراة ، ليس في وسعك تخمين ما حدث . لقد انتهى فقرنا ، وسوف نحصل على كل ما في مقدورك ان تتمنيه» .

«رويدك ، لا تمضي في الهذر ، هل وجدت كنزا ، أم ماذا ؟»

«بل ما هو اكثر من ذلك . بينما كنت أجتاز الغابة ، خمني ماذا رايت في منتصف الطريق ابصرت عربة ذهبية صغيرة يجرها سنجابان ، مفروشة هناك في الوحل الكثيف ، بداخلها أجمل جنية في العالم . مضت تستحث السنجابين بسوطها الذهبي». اجذبها ، ايها القائد الصغير ! اعطها دفعة ايها القائد العظيم ! وكان كل ذلك عبثا ، اذ لم تتزحزح العربة .»

لقد هوت في أوحال بروتسوني ....

« قالت الجنية ، ايها الرجل الطيب ، هلا ساعدتني على الخروج من الوحل فساعدتها طبعا. امسكت بالعربة الذهبية ورفعتها من الطين بالجنية والسنجابين».

«أنت دائما ذو قلب طيب ساذج» .

«قالت الجنية ، حسنا يا بني ، العمل الطيب يجزي تمبله . اذهب الى منزلك واجعل زوجتك تتمنى ثلاث امنيات ، اي شيء تريد . ولن اكون بول المشوش اذا لم تتحقق الامنيات الثلاثة فورا» .

قالت المراة : «اسمع ، لا تفيظني ، وأنا غير مهيأة لذلك» .
«لا توبخيني ، ودعينا نحاول ، تمني شيئا» .
«حسنا ، لن اكسب ولن اخسر . ولكن ما الذي اتمناه . اتمنى أن تصبح رئيس الاطباء في الجرانج» فليحفظني الله ، يا للغرابة . ففي نفس اللحظة تحول الرجل الفقير واصبح رئيس اطباء الجرانج . وهكذا تم ذلك .
«والآن تمني شيئا اكثر حكمة» هكذا قال الرجل الفقير الذي تحول الى رئيس للاطباء لزوجته . وحكا راسيهما يفكران فيما يتمنياه ــ شقة للطبيب ، ورش ، معدات ، خامات ، مباني جديدة ، امين مخازن .... وبينما يتفكران ، اخذ رئيس الاطباء المسكين يشعل غليونه ، لكن الكوخ الرطب افسد تبفه ، فلم يشتعل بالنار . وبينما يلعب في غليونه بصورة خرقاء ، غضبت المرأة وصاحت فيه : «ايها الاخرق ، اتمنى ان ينمو فوق انفك المدير (لا ــ بلا كلام فارغ) !»
وحدث ذلك بأسرع مما قالت . نمى المدير (لا ــ بلا كلام فارغ) فوق انف الطبيب المسكين .
حسنا ، ايتها السماوات الطيبة ، لقد حزن الرجل المسكين وزوجته . ماذا ينبغي أن يفعلا الان ، والى اين يتجهان . وقال الرجل المسكين :
«يجب ان اتخلص من هذا الرجل يا امراة . انتزعيه .»
وحاولت المرأة فلم تستطع أن تنزعه .
«يجب بتره بكل تأكيد ، وسيكلفك هذا جزءا من أنفك ايضا ، لكن هذا لا يهم . »
«لا . لا يمكنني أن اتحمل ذلك !»
«حسنا ، ما دمت لا تريد ، فإمض اذن بالمدير (لا ــ بلا كلام فارغ) فوق أنفك . »
«وهل اظل مشوها بقية عمري .»
احتارا ماذا يفعلان .
«اسمعي يا امراة» هكذا قال الرجل المسكين ، «اطلبي من الجنية الطيبة أن تبتر (لا . بلا كلام فارغ) من فوق انفي .»
«يا لها من فكرة . ستكون هذه هي الامنية الثالثة . واين ستذهب كل الاشياء الحبيبة التي اردت ان اتمناها ــ من أجلنا ، ومن اجل رجالنا ، ومرضانا ومرضانا ... »
«لا فائدة يا امراة ، لا استطيع أن امضي بمثل هذه الحلية ، اسرعي ، وتمنى أن يسقط عن انفي» . ولم يكن ثمة بد من ذلك ، فتنهدت المرأة وقالت :
«أيتها الجنية الطيبة ، اسقطي المدير (لا ــ بلا كلام فارغ) عن انف زوجي العزيز .... »
كانت هذه نهاية القصة . لكن الرجل المسكين لا يزال جالسا في الجرانج (لا ــ بلا كلام فارغ) فوق انفه . لقد نسيت الجنية الطيبة كل شيء عنهما . ولم

تتحقق امنيتهما الثالثة .

وتخيلت ان بول المشوش سوف يفكر كيف ينتزع (لا . بلا كلام فارغ) من فوق انوفنا . ولكن حينما التقينا ، وجدت في رأسه شيئا مختلفا تماما .

«كانت قصة رائعة عن الامنيات الثلاثة ، فعلا . لقد اضحكت القسم كله عدة ايام .»

«هذا حسن .»

«ومنذ ذلك اليوم ونحن نشحذ رؤوسنا ونناقش ....»

«اجل .»

«كيف نسجل رسالتك في السجلات . لانني اصررت على تسجيلها .»

وهكذا عرفت على الاقل ما الذي يشحذون رؤوسهم من أجله في القسم . واتمنى ان يكونوا قد حلوا هذه المضلة الصعبة الان وضمنوا خطابي في السجلات.

وافق يوم التاسع من ابريل عيد مؤسستنا الثالث . وكانت فرصة طيبة لعرض النتائج ، النجاحات والفشل . ترى هل حققنا أيا من المهام التي ألقيت على عاتقنا . اعتقد اننا فعلنا ، وبصورة لا بأس بها . ولكن اذا تعين عليّ أن أذكر على وجه السرعة ما هو جوهر ما أنجزناه ، لوجدتني شدوها . ربما يتعين عليّ أن اقول باديء ذي بدء اننا وضعنا يدنا على المنهج . ولكن بعد تعمق دراسة تراث الطب العقلي ، ارى ان هذا امر مبالغ فيه . اترانا اكتشفنا ما لم يسبقنا اليه احد.

استطيع ان ازعم اننا اكتشفنا ما افتقده سابقونا . ربما استعنا بالحرية بطريقة اكثر ليبرالية عن سابقينا . ويبدو اننا بذلنا المزيد من الاهتمام لشغل المرضى عقليا وفيزيقيا عما هو مألوف في المؤسسات المشابهة . لقد قرنّا شيئين يصعب فصلهما بأية حال ـ المشاعر الفردية الطيبة والشعور بالانتماء لمجتمع . لقد أنمينا الشعور بالمسئولية لدى من اعتادوا الا يكونوا مسئولين عن افعالهم ، حتى ولو ارادوا . ولقد تعلمت ان الاعتقاد بأن المجنون ليس مسئولا عن افعاله خطأ فاحش . توجد بالطبع ثمة حالات كهذه ، ولكنها قليلة جدا . ولا تخلق المصحات العقلية العادية نوعا من عته المصحات (نتيجة لنوع المعاملة عادة) لدى المرضى فحسب ، لكنها تنتزع منهم كذلك احساسهم بالمسئولية . والوقوف في وجه هذا من صالح المجتمع كما هو من صالح الافراد ، وبالنسبة للطبيب العقلي ، فليس هذا من قبيل الاهتمام بقدر ما هو من قبيل الواجب المنهج ... لم اشعر اننا مستعدون لان نضع منهجا . اذ تنقصنا العديد من مناهج العمل التي تتلاءم مع الأنماط الكثيرة من مرضى العقول . ولم يكن نوع العمل الذي يؤديه المرضى هو الجوهر وانما الاتجاه الانساني . فيجب تدريب المرضين على معاملة المرضى بعطف . اذ يتوقف على ذلك كل ما عداه . ليس من الضروري مناقشة الاسوار وقمصان الكتاف ومبدأ «اللاقيود» او «نظام الباب المفتوح» مع أولئك الذين يدركون هذه القاعدة الاساسية . في وسع الناس البسطاء عديمي الخبرة المسبقة أن يتعلموا ذلك ، هذا هو الدرس الاساسي المستفاد من اعوام الجرانج الثلاثة . ولم يكن ذلك صعبا ، لانهم كانوا يخبرون مميزاته العملية كل يوم .

وخرجنا على مر السنوات بشعارات قلائل تلخص روح الجرانج : «حياة حافلة» ـ «بيئة صناعية ولكنها ليست غير طبيعية» ـ «متعة العمل الخلاق» . وكانت هذه الشعارات صحيحة بالتأكيد ، وان لم تعبر تماما عما قدمه الجرانج لنزلائه لم يتضح بعد مفهوم **المنزل** . يعتبر هذا الضرب من العجز عن الانتماء لمجتمع جوهر الجنون ، ولا يمكن التغلب على هذا الا اذا اشعرت المريض بالانتماء الى مكان ما ، انه ينتمي الينا ، الى هذا المجتمع الخاص الصغير ، هذه الاسرة الكبيرة ـ ومن خلالنا ، ينتمي الى العالم . بيد أن الانتماء الينا يتضمن خطرا آخر . فهؤلاء المرضى قوم مجروحون نبذهم المجتمع . وحاولنا الان ببالغ المشقة مساعدتهم ليجدوا مكانا في مجتمع صناعي ـ ولكن ما الذي سيحدث لهم فيما لو القيناهم في العالم الحقيقي ـ العالم الذي امرضهم؟ كان هذا سببا في عديد من الانتكاسات . ليس في وسع اولئك الذين كانوا أصحاء نسبيا اثناء اقامتهم بيننا ، واستطاعوا العمل بنجاح، وشعروا بأنهم على ما يرام ، ان يعملوا بالضرورة دون بعض المساندة . هل في ذلك اية غرابة ؟ انه لو بترت ساق انسان ، فزودته إحدى المؤسسات بساق صناعية تعلم السير بها ، واذا سحبت منه الساق الصناعية واطلقوه وطالبوه بأن يسير ، فلن يدهش احد اذا عجز عن الحركة . ان التأهيل الاجتماعي للمرضى الذين يغادرون المستشفى مشكلة لا تزال تنتظر الحل . ـ ولكن الى متى ! وحتى يتم حلها سيظل العمل المبذول في جميع الاقفاص الذهبية نصف ما يجب أن يتم .

الجزء الثاني

الفصــل الاولـــ

تاريخ العلاج بالعمل

اري لزاما عليّ ان اقرر منذ البداية انني حين حضرت الى الجرانج لم اكن اعلم شيئا عن الكتابات التي تتناول العلاج بالعمل . كنت اعرف ــ طبعا ــ ان د. فيليب بينل Philippe Pinel اقترح حوالي عام ١٨٠٠ تشغيل مرضى العقل ومعاملتهم معاملة انسانية ، لكن احدا لم ينصت اليه . وفيما بعد قام كل من كونولي Conolly في انجلترا وفيجانيك Viszanik في فيينا بتخفيف القيود على المرضى ، وعند بداية القرن العشرين انشأ «سيمون» Simon مؤســـسة ذائعة الصيت للعلاج بالعمل في المانيا . هذا كل ما هنالك .

واعتقد أن هذا هو ما كان يعرفه اطباء الامراض العقلية الآخرون ، اما اذا كانت لديهم معلومات أخرى فمن المؤكد انهم كانوا يحتفظون بها سرا لانفســهم . الا ان رغبتي في تمحيص المسألة قادتني الى التنقيب خلال ذلك الشتاء فيما وقع تحت يدي من كتب ومجلات تتناول الطب العقلي ، ولم اكد انتهي من هذه المهمة حتى اصبت بالدهشة البالغة ، اذ تأكد لديّ ان النهج الذي اسير عليه في الجرانج ــ من علاج منظم بالعمل وترفيه مع قدر معقول من الحرية ، ومعاملة انسانية مع ما تتطلبه من حياة جماعية ونظام جماعي دون اللجوء الى العنف ــ ليس من ابتكاري الخاص كما كنت اعتقد من قبل . بل أن بعض الحكماء كانوا يعرفون كل تلـــك

الامور ويطبقونها من زمن بعيد ، وربما افضل مما نفعل نحن الان فيما لو صدقت كتاباتهم التي خلفوها وراءهم . ومن الثابت انهم كانوا يتلقون ايضا عونا اكثر .

«في عام ١٤٢٥ شهدت مدينة «ساراجوسا» مصحة تستقبل كل انواع المرضى ، وخصوصا المصابين بالامراض العقلية من كل الاقطار وكل الاديان تحت شعار الصحة للجميع وهناك كان المرضى يلقون رعاية حسنة ويعملون . وكانت فكرة مؤسسي المصحة لا تقوم على معالجة الانحرافات العقلية لدى المريض عن طريق العمل الميكانيكي فحسب . بل وعن طريق ذلك السحر وتلك الاثارة التي خلقها حافز فلاحة الارض الطبيعي لدى الانسان ، وذلك حينما اضطر الى ان يجعل الارض مصدر للانتاج وبذلك يشبع حاجاته بثمرات عمله . فمنذ الصباح تستطيع ان ترى المرضى يقومون بشغل البيت (النظافة، حمل الاخشاب والفحم والماء ، والمساعدة في الصيدلية والتمريض) بينما يخرج البعض الآخر الى اشغال اخرى متنوعة . وكان معظمهم ، تحت قيادة ملاحظين اذكياء عطوفين ، يتشكلون في مجموعات تتفرق الى الحقول التابعة للمصحة بروح عالية . وهم غالبا ما يتنافسون فيما بينهم على تقسيم العمل الذي يختلف باختلاف الفصول فكانوا يزرعون القمح والبسلة والفول وغيرها من الخضروات ويقومون بدرس القمح وجمع العنب والزيتون ، فاذا ما حل الليل تجدهم يخلدون الى السكون والنوم الهادىء في مصحتهم الفريدة والسعيدة في ذات الوقت . ولقد أوضحت الخبرة ان هذه هي الطريقة الاكيدة والاعظم فعالية في استعادة المرء لعقله ، كما أوضحت ان الافراد الارستقراطيين الذين يعافون العمل اليدوي وينظرون اليه بمزيج من الترفع والاحتقار ينعزلون بعيدا فيظلون على اضطرابهم العقلي وهزيانهم» .

ان هذا القول الذي نشر عام ١٨١٩ لم يكن ليصدر الا عن فيليب بينل ابو العلاج النفسي الحديث ، وهكذا يمكننا أن نكتشف من خلال ذلك الاستاذ القدير ان السر كان معروفا منذ ما لا يقل عن خمسة قرون في اسبانيا حيث كانت الثقافة والحضارة قد بلغتا القمة . فلم تكن مدينة «ساراجوسا» فريدة في انشاء مثل تلك المصحات ، اذ عرفت كل من فالنسيا وبرشلونة واشبلية وقوليدو وفالادوليد وغرناطة مصحات رائعة مماثلة ، غير ان جميع تلك المصحات آلت الى الزوال فيما تلا ذلك من قرون . فلم تكد خمسة قرون من الزمان تمر حتى أصبحت المصحات العقلية غاية في الازدحام والقذارة وأخذ المرضى ينامون شبه عراة ، الواحد فوق الآخر ، مقيدين بالقيود الحديدية ، او مهملين داخل الزنازين . أما العلاج بالعمل؟ فبدا وكأن احدا لم يسمع به من قبل .

وخلال الثورة الفرنسية أجاب اعضاء الجمعية الوطنية ــ رغم دهشتهم ــ دبينل الى طلبه في السماح له بنزع قيود المجانين . وقام بعمل تجربة على اثني عشر مريضا . كان النجاح حليفه فيها جميعا ، فأتبع ذلك باطلاق سراح ٤٩ مريضة اخرى في عام ١٧٩٨ . ثم قام بنزع السلاسل عن نزلاء بيستر Bicetre وسالبتير Salpetrier (كان الاول عبارة عن سجن منعزل ، وكان الثاني في

الاصل محجرا مهجورا لاستخراج الملح الصخري ، وما زالا يقومان حتى الان قرب باريس كمصحتين للامراض العقلية) فأدخل اسلوبا جديدا وعلاجا نجح بواسطته في ان يسوس اكثر المجانين هياجا . وبذلك دخلنا عصرا جديدا في تاريخ الطب العقلي . ولكن كما يحدث عادة للاكتشافات التي تفتح عصورا جديدة ـ لم تأخذ تعاليمه في الذيوع الا بعد مرور ما لا يقل عن نصف قرن بعد وفاته . والحقيقة انها لم تتبوا مكانتها الحقيقية بعد حتى الان . فما الذي نفعله اليوم ان لم يكن نزع القيود التي تقيد جسد المريض وروحه مسترشدين في ذلك بتعاليم د. بينـــل ويعتبر هذا الكتاب «قفص من ذهب» استمرارا متواضعا لاعمال بينل . نرجو له الا يصبح صوتا ضائعا في البرية .

يقدم هـ. ا. آدم A.H. Adam وصفا ممتازا للوسائل التي سادت في علاج مرضى العقل إبان العصور الوسطى وحتى النصف الاول من القرن التاسع عشر . وليس من شك في أن بعض معلوماته خليقة ببعثها من غياهب النسيان ، غير انه ينبغي علينا أن نوضح ان ما نشير اليه هنا من الحبس والشد الى الخوازيـــق واحراق السحرة وطرد الارواح الشريرة بالرقي والتعاويذ لم تكن انواعا من التعذيب المتعمد التي طاب للعصور الوسطى أن تمارسها بل وسائل طبية مارسها سائر أطباء القرون الوسطى المرموقين تدفعهم في ذلك الاعتبارات الانسانية والاهداف النبيلة التي ترمي لشفاء المرضى . وكان الرأي السائد ان الجلد وسائر العقوبات الجسدية هي وسائل لا غنى عنها في العلاج . غير ان ثمة وسائل اشد خبثا من الضرب بالسياط كانت موضع الممارسة . فتحمس دكتور هورن E. Horn مثلا لمزايـا «الوضع الاجباري» Forced porture وفيه كان المريض يعلق من جذعه بحبل في أعلى السقف مع تثبيت يديه على حائط الزنزانة كما هو معروف في وضع الصلب ويظل على هذا الحال مدة تتراوح ما بين ثماني واثني عشر ساعة . وبطبيعة الحال يرتمي المريض متعبا خائر القوى ميالا النعاس بعد مثل ذلك الملاج فضلا عما يتملكه من خوف زائد أن يعود اليه مرة اخرى فيصير مجرد الاشارة اليه كفيـــلا بالزامه الهدوء . اما الاستاذ الشهير اوتذيث Outhensith فقد اخترع ما يسمى «بالكمام» mouth - gag الذي يدفع في فم المريض فيمنعه من الكـــلام واخترع د. رش Rush كراسي الارغام compulsion chair فكانت الضحايا تشد أليها لفترة تبلغ الشهور احيانا ، وكانت وسيلة الترفيه الوحيدة المتاحة لهم وهم يجلسون صفا فكانت البصق على بعضهم بعضا ، ولكنهم حرموا منها بعـد زجهم في «اكياس الارغام» compulsion sack التي حبذها د. هدرن بحماس بالغ ، اذ انها تجمع بين مزايا الكمام وقميص الكتـــاف strain Jacket وبالمناسبة فان قميص الكتاف اكتشفه احد معاوني بينل ومواطنيه عام ١٧٩٠ وهو كوريـــه Quillèret وليس هاينر Hayner كما يقال احيانا بطريق الخطأ غير أن الحظ لم يعدم هاينر القدرة الفائقة على الاكتشاف هو الآخر ، فلقد اكتشف على سبيل المثال «العجلة المجوفة» Hollow Wheel وفيها يستطيع

المريض ان يقف مطمئنا طالما هو ساكن ، اما اذا بدأ يتململ . فتأخذ في الدوران فيضطر الى القفز داخلها كالسنجاب .

واعلن دكتور هورن ان «السرير الدوار» Revolving Bed ما زال ذا فعالية اكبر فلم يكن اي مريض ليحتمله اكثر من دقيقة واحدة يصبح بعدها مستعدا لعمل اي شيء يطلب منه كي يتجنبه . ويتفق الاثنان هورن وهاينر في تحبيذ العلاج بالماء البارد ، شريطة أن يستخدم بكميات وفيرة وذلك بتعريض المريض لما يقرب من ثلاثمائة داو من الماء البارد تصب على راسه وكان هورن يؤكد شفاء العديد من المرضى بتلك الطريقة فكانت تنجح في تهدئة مرضى الهوس الهائجين واعادةالمصابين بالاضطراب الى رشدهم وإنطاق الاخرس. والاغرب من ذلك نجاحها في جعل المصابين بالكآبة يستعيدون اقبالهم على الحياة . وزيادة على كل ذلك كانت تعتبر وسيلة تهذيب رائعة ، رغم انها تعطي نتائج أفضل اذا ما اندفع الماء البارد الى راس المريض المفيد خلال أنبوبة بدلا من صبه على رأسه بالدلو . ولجأ هاينر الى ادخال مريضه فيما يشبه «التابوت» بحيث لا يبدو منه سوى رأسه ثم يقوم بوضع حوض حول رقبته كي يعيد الماء الى الحوض ويحفظ الحجرة من البلل . وفي هذا الصدد نحب ان نؤكد ــ تجنبا لما يمكن ان ينشأ من سوء فهم ــ أن هاينر كان يبتكر تلك الفظائع بدافع الاعتبارات الانسانية وحدها . فقد حاول تجنب الضرب والتقييد بالسلاسل فكتب يقول : «ملعون من يضرب من الان فصاعدا اي مريض مسكين من هذه الفئة التي تعاني الشقاء وتستحق الشفقة والرأفة والويل كل الويل لكل انسان سواء كان من كبار القوم او من صغارهم الذي يسمح بضرب المجانين» وأظن انه لم يدر بخلده قط أن كلماته هذه ستظل بحاجة اليها بعد مرور قرن من الزمان .

وحين استخدمت الادوية ، كان يفضل اختيار أشدها اثارة للنفور ، وعلى سبيل المثال حمض الطرطير المقييء ويؤدي تناول جرعات كبيرة منه الى تطهير الجسم واعطاء «صدمة» للجهاز العصبي . وكان تناوله باستمرار يعد ترياقا ناجعا للهذاءات لما يسببه من غثيان . وكان حمض الطرطير والزئبق يستخدمان من الظاهر ايضا فتدهن بهما فروة الرأس وتدلك حتى تتشقق . واستخدمت طريقة فعالة لعلاج الكسالى او الخبثاء او شديدي الكآبة أو حكها بنبات القراض ذي الوبر الشائك . وكان من المعتقد ان زرع القراض في الجلد يعتبر علاجا ناجحا لاضطراب التفكير . أما بعض الاطباء فكان يرى ان كي جمجمة المريض وباطن قدمه في وقت واحد بأسياخ محماة من الحديد يعطي نتائج أسرع .

ولقد ظلت مثل تلك الوسائل وما شابهها سائدة في العلاج الى أقل من مائة سنة مضت. بل وما زال بعضها ، بتحويرات حديثة سائدة، حتى اليوم نذكر منها «قميص الكتاف» و«السرير الشبكي» Net Bed و«الرباط الضاغط» الجاف منه والمبتل وتقييد المريض الى السرير ، ناهيك عن الصدمات الكهربية التي

يتعرض لها المريض دون تخدير ، وهي تقف على قدم المساواة مع «العجلة الدوارة » .

غير انه من الغريب حقا انه في ذات الوقت الذي سادت فيه وسائل العصور الوسطى في العلاج ، قامت مؤسسات اخرى لا تستبعد تلك الوسائل فحسب ، بل وتطبق نوعا من المعاملة الانسانية مع اكبر قدر ممكن من الحرية .

وما دام د. بينل قد نجح منذ الثورة الفرنسية في ان ينزع قيود المجانين بل والف كتابا كاملا عن كيفية معاملتهم ، فالمرء ان يتوقع اذن وجود اعظم البيمارستانات تنورا في فرنسا . غير ان ما حدث كان خلاف ذلك . ففي شارنتون التي تقع قرب باريس ظل «حمّام الرعب» Fright Bath قائما حتى نهاية القرن الماضي . وكانت فكرته تقوم على القاء المريض على حين غرة في الماء البارد ويظل فيه حتى يشارف الغرق . وكانت مصحة بيستر الشهيرة Bicêrtre التي قام فيها د. بينل بأعماله البطولية على درجة من السوء لا تقل عن سوء سجن يبلغ من العمر ستة قرون . وفي غمرة ما ساد في نهاية القرن الماضي من اهمال وتخلف كان ظهور بورنفي Bourneville بمثابة بصيص الامل الوحيد .

وكان طبيبا عقليا حاول بصبر مسيحي دؤوب ان يعيد اربعمائة وخمسين معتوها الى حالتهم الانسانية السوية . عن طريق العمل والتعليم . وهو مثال ينبغي على المعالجين بالعمل عندنا أن يتعلموا منه الصبر والمنهج والايمان . الا ان احدا لم يتعلم من ذلك المثال الرائع . ووقف الجميع منه الموقف المعتاد من اصحاب الدعوات . «فليحمل العبء كله وحده ، اخذته الشياطين .»

اما في بلجيكا فكان الوضع اكثر مدعاة للأسى ، فعلى الرغم من ان الحظ اعطى البلجيكيين بينل آخر متمثلا في شخص جيزلان Guislain الذي نجح في تخفيف قيود المرضى الى حد معين في عام ١٨٣٥ . الا ان تاثيره كان محدودا للغاية . فحتى ما بعد منتصف القرن كانت المصحات العقلية ما تزال في قبضة الدوائر الدينية التي كانت قبضتها اقوى من قبضة وزارة الصحة نفسها . كانت الطيور تمرح في الحدائق بينما المرضى يموتون داخل الزنازين والمراحيض . ولكي يبسطوا الامور على انفسهم كان المرضى يقيدون الى كراسيهم . فلم يكن العلاج من مهمة الطبيب الوحيد الذي استخدمته احدى المصحات يسكن على بعد خمسة وعشرين ميلا من المصحة ، فكيف يستطيع رعاية المرضى ؟

ومما يزيد في غرابة الامر أن «العلاج الاسري» لم يكن على تلك الدرجة من التقدم في اي مكان من العالم كما كان في بلجيكا . ففي احدى المدن المجاورة لانتويرب Antwerp والتي تسمى جيل Gheel كانت تضم الفي مجنون الى جانب سكانها الذين لا يتجاوزون اثني عشر الفا . وكانت مؤسسة التمريض القائمة في جيل تبلغ من العمر عدة قرون . ويبدو أن المدينة ككل كانت تعيش من رعاية هؤلاء المصابين بالامراض العقلية . فكانت كل أسرة تستضيف في بيتها اثنان من المرضى حيث تخصص لكل منهما حجرة منفصلة . وكانت الدولة تتكفل بما يحتاج

اليه المرضى من ماكل وملبس كما كانت تتابع ما اذا كان موضع الرعاية ام لا . وكانت الاسرة ترعاهم وتعتني بهم وتنزلهم منزلة ابنائها نظرا لما تدفعه اليها الدولة من مقابل .

اما هولندا فكانت لديها مؤسسة ممتازة في ميرنبيرج Meerenberg حيث كان المرضى يعيشون في اجنحة صغيرة ذات حجرات انيقة جيدة الاثاث تحت رعاية ممرضات متعلمات يحببن مهنتهن . وكان لديهم استراحة رائعة . ومكتبة ضخمة تضم ما يقرب من اربعة آلاف مجلد وحديقة كبيرة بلا اسوار حيث كان المرضى ـ لا الطيور فقط ـ يستطيعون التنزه ، رغم انه لم يكن يبدو عليهم المرض (كما كتب احد شهود العيان) لم تكن تظهر عليهم آثار المرض لانهم كانوا يتمتعون بالحرية ، ويعملون في الورش المجهزة تجهيزا رائعا او في المزارع . كان عددهم يناهز ثلاثة آلاف مريض يعيشون بين ممرضات تلقين دراسة لمدة ثلاث سنوات كاملة في كيفية معاملة مرضى العقل . وبلغت نسبة العاملين منهم ٧١بالمئة في الرجال و٦٢ بالمئة في النساء .

وكان الوضع في السويد شبيها بالوضع في هولندا . فغالبية المرضى يتنزهون بحرية ويعيشون في حجرات مريحة تحت اشراف ممرضات على قدر عال من التدريب ، ويتلقين اجورا سخية . ولكن لم يكن العلاج بالعمل منتشرا بالقدر الكافي ، فلم تتجاوز نسبة المرضى الذين يعملون ٣٦ بالمئة .

وفي انجلترا بدأ جون كونولي ثورة في هذا الميدان تهتدي بتعاليم د. بينل. وكان ذلك في العقود الاولى من القرن الماضي . فلقد قضى على غرف التعذيب Yorture Ghambers وادخل المعاملة الانسانية للمرضى وكان شعاره « لا قيود» . كذلك ادخل الانجليز نظام الباب المفتوح . وكان يعني تحرير المرضى من الابواب الموصدةوالاسوار والقضبان. ويقول احد المهاجرين (هاليداي) Halliday كان هناك ثلاثمائة مريض من مصحة وكفيلد Wokefield يعملون في الورش والمزارع . ويقرر مدير المصحة انه لم تحدث اية حادثة من جراء ترك ادوات العمل مع المرضى العاملين . وكان عمل المرضى يساهم في تمويل المصحة ويساعد على شفائهم بدرجة كبيرة في الوقت نفسه . وفي مصحة لانكستر كان جميع المرضى البالغ عددهم ثلاثمائة وستون مريضا يعملون . الرجال منهم في المزارع اما النساء فيعملون في ورشة خياطة . وكان نفس الوضع قائما في مصحات ستياتفورد Statford وجلوشستر Gloucester . ولقد اكد مدير مصحة ارماغ Armagh انه بعد تجريب شتى الوسائل لم يجد انجح من شغل المرضى بالعمل . وكان جميع المرضى ـ فيما عدا استثناءات محددة ـ يحسون بالامتنان حين تيسر لهم فرصة العمل . على أن اجبار المرضى على العمل كان امرا مستبعدا ولقد وصل هاليداي من استعراضه للموقف عام ١٨٢٨ الى نتيجة هي ان الصلة المنتظمة بالعالم الخارجي وشغل الجسد والعقل من أهم العوامل التي تساعد على نجاح العلاج الطبي .

واذا ما صدقت كلمات شهود العيان فان احوال المجانين لم تكن في اي مكان في العالم افضل منها في اسكتلندا . وهذا هو الانطباع الذي يتركه فينا كتاب لتشورث الرئيسي . فلقد شهد منتصف القرن الماضي تحولا ضخما في مصحة ابرديني Aberdeen التي ظلت تعرض المجانين المقيدين بالسلاسل على الجمهور لقاء جمع النقود حتى القرن الثاني عشر ، اذ اصبحت تضرب المثل الرائع في العلاج البيئي والمهني لمرضاها وفق القواعد السليمة لذلك . وفي عام ١٨٣٧ اعلن مدير المصحة انه من الافضل شغل المرضى بدلا من حبسهم خلف الاسوار وحشرهم داخل «قمصان الكتاف» ، وان جميع المرضى يستطيعون ان يقوموا بأعمال الفلاحة التي تعتبر وسيلة عيش عادية للفقراء كما انها لا تحط من شأن الاثرياء . وبذلك تم وضع المبدأ القائل «لا قيود» موضع التنفيذ ، ولم يكن ثمة ارغام على العمل فقد انشئت مستعمرة زراعية حيث كان أغلبية المرضى يقضون طيلة يومهم في الهواء الطلق وفي مصحة مورننج سيد Morningside كان جميع المرضى من الرجال والنساء يتناولون طعامهم مع بعضهم البعض (مع استعمال الشوك والسكاكين) كانت غرفاتهم المنسقة تحوي مواقد مكشوفة وازهار وطيور الكناري. وكانت المصحة تولي اهتماما كبيرا الترفيه والتشغيل معا . فكان نصف المرضى البالغ عددهم الالف يعملون في الورش والمزارع . وفي جارتلوش Gartloch كانت هناك مصحة مخصصة لفقراء المرضى وحدهم . وكانت مصحة فخمة مقامة وسط حديقة فسيحة دون أسوار ، وكان لكل مريض حجرته الصغيرة المؤثثة . ونادرا كان يهرب منها احد المرضى البالغ عددهم ستمائة مريض . وكانت المصحة تملك صالة واسعة لاغراض الترفيه وإلقاء المحاضرات وسماع الموسيقى . وكان لديهم قطيع من حيوانات المزرعة جعلنا نشتعل غيرة حين قرأنا عنها . وكان نصف المرضى يعمل بصورة منتظمة وكان ربعهم يتجول بحرية كاملة . وكانت المرضات يقمن مع عائلاتهن في بيوت أنيقة داخل المصحة نفسها ، ولذا كان من الطبيعي أن يتفانين في خدمة المرضى . وفي مصحة وديلي Woodilee كذلك كان المرضى يتجولون بحرية كاملة في حديقة فسيحة بلا أسوار . وكان بالمصحة قاعة فخمة لتناول الطعام ، وصالة واسعة تحس معها بالبذخ . أما نوافذ المصحة فكانت بلا قضبان . وكان المرضى يمثلون ويرقصون ويستمعون الى الموسيقى . وفي ظل تلك البيئة البهيجة كان هناك علاج حقيقي بالعمل . لم يكن العمل قاصرا على من كان عملهم مربحا للمصحة ، بل ان القائمين على امر المصحة كانوا يشجعون المرضى من الكسالى على العمل ايضا وذلك لايمانهم بالعمل كوسيلة ناجحة للعلاج . ولم تكن ثمة قيود او أبواب موصدة . وكان المرضى يتلقون عناية فردية . ولم يكن للمصحة غير سور واحد ، هو ذلك السور الذي يمنع ماشية المزرعة من الخروج . ولم يكن ثمة نظير في اي مكان من العالم لمثل هذه المصحة المعدّة لذلك الغرض اعدادا كاملا ، ولتلك الحرية التي يتمتع بها المرضى ، ولذلك

العلاج البيئي المستمر . وحين اقارن كل ذلك بفقرنا وبدائيتنا وجهودنا التي تستثير الرثاء في الجرائح . افضل الا انساق في هذا الحديث المؤلم .

أما في ايرلنده فلم تكن الظروف على مثل تلك الدرجة من التقدم فليس هناك ما يجدر بنا أن نذكره سوى ما قام به د. لالور **Lalor** من جهود «مسيحية» في ذلك الميدان ، الذي نظم عملية تعليم وتشغيل المرضى في مصحة رتشموند **Richmond** خلال القرن التاسع عشر . ونجح في أن يجعل تسعمائة مريض من مرضاه البالغ عددهم الالف يعملون بانتظام وكانت المصحة دائبة النشاط والحركة بحيث لم يكن المرضى يجدون وقتا لديهم يغرقون فيه في اللامبالاة او يستسلمون فيه للهذاءات . واذا ما فكر المرء الى اي هوة انحدرت تلك المصحة الرائعة بعد وفاة لالور **Lalor** ، فانه سرعان ما يتساءل ترى ما قيمة ذلك العمل البطولي اذن ؟ ولكن من يدري ؟ الحقيقة أن المرضى هناك ظلوا يعيشون حياة انسانية وكانوا اكثر تماثلا للشفاء طيلة حياة لالور وهذا شيء تجب الاشادة به ، ام ترانا مسئولون ايضا عن استمرار جهودنا من بعدنا ؟

ليس معنى ذلك بحال أن عملية إلحاق نزلاء المصحة بمختلف الاعمال قد توقفت ، بل على العكس ، تضاعف عدد النزلاء وأصبح لدى المصحة حوالي سبعمائة واثنين واربعين نزيلا يعملون بين جموع النزلاء البالغ الفين ومائتين وخمسين. «يجبرون على العمل تحت وطأة استغلال يفوق ما كان يجري في عمليات تشغيل الفقراء الشهيرة في انجلترا في بداية القرن . وفي مكان «العمل الرحيم» حل نظام الثكنات العسكرية وبدلا من العلاج بالعمل قام الاستغلال والسخرة» .

وكان الموقف في سويسرا شبيها بذلك حيث كانت الاستفادة من العمل أهم من العمل . ولكن نشأ في مصحة القديس جولوني **St. Gallen** نوع خاص من العلاج بالعمل منذ عام ١٨٩٢ وهو «صناعة الصناديق» . ويصف مدير المصحة تلك الصناعة بأنها نشاط متعدد الجوانب يتيح لكافة أنواع ومراحل الجنون فرصة رائعة للعمل . ولقد اكد د. شيلر **Schiller** انه استطاع تشغيل ٨٠ بالمئة من مجموع مرضاه ، وكانت النتيجة رائعة ، فلقد هدأ القلقون ، ودبت الحياة في المتخشبين ، واستعاد المكتئبون الاهتمام بالحياة . «ان حياة من يسمون بالأسوياء تنطوي عادة على النوم والاكل والعمل والترفيه ، وهذه العمليات تتكرر كل يوم ، ونحس معها بمتعة ، فاذا ما نجحنا أن نعطي للمرضى نفس تلك الاعمال المتنوعة وجعلنا ذلك امرا مستساغا فسوف يحبونها ايضا ويصبحون آنذاك اكثر قيادا» لقد كتب د. شيلر هذه الكلمات بعد خبرة طويلة في العلاج بالعمل بلغت حوالي خمسة وثلاثين عاما . واضاف ان السأم هو المصدر الرئيسي لاضطراب المجانين ، فاذا ما تخلصوا منه اصبحوا اكثر رضى ، وهي أولى الخطوات نحو الشفاء .

وظهر في روسيا القيصرية بينل آخر يدعى كروسنوبولسكي **Zavadsky** **Krosnopolsky** الذي ترجم كتاب د. بينل الى الروسية عام ١٨٢٩ واضاف اليه

ملاحظات نقدية تستند الى وجهات النظر الحديثة في التشريح . ومع أن محاكم التفتيش واصطياد السحرة والعلاج بالجلد لم يكن واسع الانتشار في الشرق كما كان في الغرب «المتحضر» ، ورغم أن المبادىء الانسانية في الطب النفسي كانت قد اخذت في الرسوخ في روسيا بفضل كروسنوبولسكي فقد ظل مرضى القرن الاخير يعانون الاهمال الشديد وقرب نهاية ذلك القرن بداوا في الاستغناء عن الزنازين وادخل نظام المنابر . وحظي المرضى بقدر اكبر من الاهتمام بالترفيه عنهم . واصبح إلحاقهم بالاعمال اكثر شيوعا عن ذي قبل. الا ان قصة تشيكوف القصيرة التي تهز المشاعر «العنبر رقم ٦» تعطي صورة صارمة لنوع الرعاية التي كان المرضى يلقونها في ذلك الحين .

وكانت معظم المصحات في المانيا شبيهة بالسجون او على احسن تقدير بالثكنات العسكرية . فعلى الرغم من أن المرضى كانوا يعملون في الورش والمزارع فان روح الثكنات العسكرية الالمانية لم تكن الروح المثلى للعلاج المهني والبيئي . وعلى اي حال فان الرعاية المثالية للمرضى كانت تمارس في مؤسسات قليلة في المانيا هذا اذا ما صدقنا الكتابات . ففي مصحة كوبه Koeppe على سبيل المثال في مدينة الت شيربتز Alt - Scherbitz لم تكن ثمة أسوار او قضبان ، بل كان المرضى يعيشون في بيوت مريحة . وبلغت نسبة العاملين منهم ٩٠ بالمئة من المجموع الكلي . لقد افتتحت المصحة عام ١٨٧٤ ومنذ ذلك التاريخ لم تغلق ابوابها مطلقا ، ورغم ذلك او ربما بسببه فلم يفر منها سوى خمسة مرضى فقط من مجموع المرضى البالغ الف مريض . (تبدو الارقام هنا غير واقعية ومبالغ فيها وهذا ما يلقي الشك على الصورة كلها) .

في عام ١٩٢٧ القى مونكمولر Monkemoller نظرة شاملة على المائة عام التي تمثل تاريخ مصحة هيلدشايم Hildesheim الواقعة بالقرب من هانوفر . كان العلاج بالعمل مستخدما بالمصحة منذ افتتاحها ، فلقد كانت في الاصل ديرا للراهبات . وعند تجديدها عثر على مخلفات من القرن الثالث عشر تبين الى اي حد لم تكن تصلح كدار للاستشفاء . الا ان روح التسامح التي كانت مصحة هيلد شايم تعامل بها نزلاءها تثبت من ناحية اخرى انه في الامكان أن ننجز أشياء رائعة رغم الظروف غير المواتية القائمة فلقد تم اعداد مزرعة على هيئة مستعمرة كبيرة للتغلب على مشكلة الازدحام التي واجهتها المصحة ، وكان النزلاء يعيشون في تلك المستعمرة في بيوت فلاحية صغيرة وكانوا يتمتعون بحرية كاملة ويشرف عليهم عدد قليل من الملاحظين بل وزادت تلك الحرية فيما بعد رسوخا فلقد تم انشاء قسم خاص في عام ١٩٢٥ خال من المشرفين . وكانت قيادة وتنظيم تلك الجماعة التي تتمتع بالحرية في يد احد النزلاء . وفي عام ١٩٢٧ بلغ عدد النزلاء الذين يقيمون في ذلك القسم الخاص دون مشرفين ما يزيد عن مائتين وخمس وخمسين . كما بلغت نسبة النزلاء الذين يعملون ٩٥ بالمئة وكانوا لا يعملون في المزرعة وحدها فحسب ، بل وفي الورش المعدة اعدادا كاملا لذلك . ولم تكن ثمة

قيود غير ان وسائل الترفيه كانت ما تزال «غير كافية» فلم يكن لديهم سوى بيانو وجرامفون وأوركسترا ومكتبة جيدة . وكان النزلاء يذهبون الى المدينة بصفة منتظمة لاستكمال ما لديهم من نقص في المقهى او المسرح او السيرك وما شابه . وهكذا يتضح ان ايا من هذه الاشياء لم يكن من اختراعنا .

كما ان فكرة تشغيل الرجال والنساء جنبا الى جنب لم تكن اضافة جديدة من جانبنا في هذا المجال . فلقد حدث ذلك في جابرسي Gabersee في احد المصحات التي أقيمت هناك منذ ١٨٨٣ . كانت تضم خمسمائة سرير وتطل على جبال الألب الممتدة في بافاريا . ولم يكن ثمة اسوار . وكان النزلاء يقيمون في عنابر . وكان لديهم جميعا ما يشغلهم دائما حتى أولئك الذين لا يستطيعون العمل . ولقد نالت تلك المصحة أقصى ما يمكن ان تناله مصحة عقلية من مجد ، حتى أن احد الزوار الرسميين قال عنها انها ليست مصحة مجانين على الاطلاق ما دام الجميع يعملون ويستطيع اي نزيل أن يغادرها متى شاء .

قبل ميلاد «القفص الذهبي» بمائة عام بالضبط اي في عام ١٨٥٢ تم افتتاح احدى المصحات قرب رجن بيرج Regenberg وهي المصحة التي أفاض هـ. أ. (آدم) H.A. Adam في وصف تاريخها . ففي العام الاول من افتتاحها اكتشف القائمون على امر المصحة أن المرضى الذين ظلوا مقيدين بالسلاسل في البيوت لعدة سنين على افتراض ان حالتهم ميئوس من شفائها قد بدأوا فجأة يمارسون حياة انسانية في ظل جو المؤسسة المتسم بالحرية والحب والعمل . غير انهم لم يفطنوا الى المبدأ القائل بنبذ القيود تماما الا في عام ١٨٧٣ وذلك حين تولى ادارة المؤسسة مدير لم يكتف بالحديث عن ذلك المبدأ بل وشرع فعلا في وضعه موضع التطبيق . الا ان الوضع عاد الى ما كان عليه بعد ستة أعوام بمجيء احد المديرين الجدد ، وأخذ عدد النزلاء الذين يعملون في التناقص السريع . ورغم ذلك استمر العلاج بالعمل قائما بل ومضى في طريق التطور . فلقد تم تشييد بضعة ورش جديدة . غير ان الامور اخذت في التدهور بمجيء مدير جديد آخر عام ١٨٩٣ . فهبطت نسبة العاملين من النزلاء الى ٣٠ بالمئة بينما اخذ الباقون يعانون ظروفا تعيسة في زنازينهم المنعزلة . ولم يكن الاطباء ليجراون على الاقتراب من المرضى الا في حماية المرضين ، ورغم ذلك كان النزلاء غالبا ما يهاجمونهم ويرمونهم بالبراز واصبحت المصحة في حالة دائمة من الازدحام والصياح والعراك مما يعطي المرء احساسا انه في بيمارستانات حقيقية . وأخيرا جاء مدير جديد في عام ١٩١١ غيَّر كل شيء . وتحولت البيمارستانات الى مصحة للعلاج بالعمل الى الابتهاج من جديد . اما اصحاب الحالات العنيفة والمتبلدة فقد اخذوا يعملون في سعادة ، كما لو كانوا يعملون من اجل انفسهم ، وكثيرا ما كان الطبيب يعزف البيانو لمرضاه . وكانت قصة تلك المصحة درسا هاما .

أما في المانيا فلقد عرف الطب النفسي داعية للحرية تمثل في شخص كريستيان فيرديناند هاينر Hayner الذي نادى في عام ١٨١٧ بنبذ القيود

الحديدية والكرابيج والعلاج بالماء لمدة شارفت على نصف قرن كامـــل . وظلت وسائل العصور الوسطى تلك قائمة حتى تمكن كل من ماير وجرسنجر عام ١٨٦٠ من القضاء عليها وهذا ما صنعه فبسانيك المجري الجنسية في برج فيينا للامراض العقلية في نفس الوقت . وأخذت المفاهيم الانسانية تكسب انصارا قرب نهاية القرن ، ومعها ذاعت مفاهيم الحرية والعلاج بالعمل وأخذ كبار الاطباء العقليين من أمثال كرايبلين Kraepalin وجريسنجر Griesinger و هـ. ب. أ. داميرو H.B.A. Damerow آراءهم القائلة بأن العلاج بالعمل الحر ـ واساسا العمل في المزارع يجب أن يكون الطريقة العلاجية الرئيسية . ورغم ذلك ظلت الثكنـــات العسكرية الضخمة مثل ليبوتميزو Lipotmezo تقوم هنا وهناك في كافة أنحاء العالم فالقصور الضخمة ليست سوى بنايات بشعة تملؤها الزنازين التي لا تستطيع توفير الجو المناسب للحرية او العمل او الترفيه . ويقرر ستارلنجر أن العمـــل موجود دائما في المصحات العقلية ولكن العلاج بالعمل شيء آخر . ويقول سنل Snell أن المرضى في احدى المصحات كانوا يعملون في نقل الوقود من مكان الى آخر ثم يعيدونه الى المكان السابق مرة اخرى وهكذا . ومثل هذا العمل لا يجعلنا نتوقع نتائج طيبة . بل على العكس فهو كفيل بتحويل الشخص السوي الى معتوه حقيقي . (هذا العمل يذكرنا بعملية فرز البازلاء في «جرانج») . وفي ذلك الوقت كان العلاج بالعمل ما زال يجد بعض المعارضين على المستوى النظري مثلا د. كوفمان Kauffmann في مصحة هال الذي كان يرى أن انجع وسيلـــة لعلاج الامراض العقلية في ابقاء المريض في سريره خصوصا اذا ما صاحب ذلك تغذية معقولة . الا انه لسوء الحظ لم ينجح في تحديد أنواع الغذاء المناسبـــة للمريض بالفصام . أما مسألة البقاء في السرير فلقد اصبحت شائعة منذ اعلـــن نيسر Neisser أن المريض الهائج يجب ان يلزم سريره حتى يهدأ . وكان لهذا الكلام معنى مفهوما في الفترة التي سبقت ظهور «العلاج الفعال» Active Treatment لكن «نيسر» لم يكن ليدرك أن خلفاءه في الميدان سوف يقيدون التعساء الـــى اسرتهم لمدة أعوام بحجة .

وهكذا ظل العلاج بالعمل موضع النقاش هنا وهناك بل وموضع التطبيـــق والممارسة أحيانا وأدى تطبيقه الى نتائج باهرة في بعض الاماكن وفي اماكن اخرى ساعد فقط على استغلال قوة عمل المرضى . وظل الامر يسير على هذا النسق حتى ظهر «سيمون» فأيقظ أطباء العلاج النفسي من نومهم الثقيل .

يدلنا تراث الطب النفسي ان «سيمون» لم يمتلك يوما ما روحا نضالية على الاطلاق . فلقد اضطر الى الشروع في دفاعه «المسيحي» عن العلاج بالعمل بعد ممارسة له في صمت طيلة عشرين عاما . ففي عام ١٩٢٣ واثناء احدى المؤتمرات بدرت منه ملاحظة عابرة سرعان ما أشعلت حمى الهجوم ضده . فاضطر وقتها الى الصمود عند موقفه دفاعا عن نفسه . وبعد مرور عام واحد ثار الجدل من جديد حول العلاج بالعمل في مؤتمر انزبروك Annsbruck انتهى الى تقرير . ان ما هو

طيب في العلاج بالعمل كان معروفا منذ القدم وأن ما هو جديد فيه سيء . وهكذا تولد الاهتمام بالموضوع وتدفـــق الزوار على جوتنزلـــوه Gutensloh وبذا أخذت وسائل سيمون في العلاج تطرح للنقاش فتبناها البعض وعارضهـا البعض الآخر ، تحمس لها اناس وتحمس ضدها آخرون وهذا ما شجعه على أن يتناول قلمه ويصف ما سماه «بالعلاج الاكثر فعالية» ومم يتكون . على انه لم يتسرع في الامر فلقد اكمل كتابه عام ١٩٢٩ بعد أن تراكمت لديه خبرات حياته كلها في العلاج بالعمل .

كانت السمة الشخصية الاساسية لسيمون تتمثل في التواضع . وكان يرى انه لم يضف شيئا جديدا على الاطلاق ولم يكتشف شيئا بالمرة ، لكنه وضع موضع التطبيق كل ما قاله جملة المفكرين من هيبوقراط Hippokrates حتى يوجين بلويلـــر Bleuler ليس هناك «طريقة سيمونية» اذن ولا نظام خاص بمصحـة جوتنزلـون Gutensloh بل مجرد علاج فعال استطاع سيمون ان يجعله اكثر فعاليـة .

لكن مهما كان تواضعه فانه لا ينفي أن عمله كان ممتازا . لقد حقق انجازات باهرة في هذا الميدان ، تمت كلها على يديه وحده وبروح مسيحية نادرة ومع ذلك نجد أن عدد الذين تابعوا جهوده من بعده كان محدودا ، ولم يكن ذلك يرجع لعيب في شخصه او نهجه في العلاج .

لقد كانت نقطة انطلاقه أن التعطل عن العمل لمدة سنوات كاملة كفيل بـــأن يحيل الشخص السوي الى بليد . «الحياة هي الفاعلية» وعبر الفاعلين يستطيـع المجنون او المصاب بالنقص العقلي أن يصل الى حالة من الصحة العقلية المطلوبة، ومن هنا فلا معنى لحبس ضحايا الامراض العقلية خلف الاسوار والقضبان وبدأ عمله في مصحة ورشتين Warstein عام ١٩٠٥ وكانت تضم في ذلك الوقت حوالي الف مريض ، يعمل منهم حوالي تسعمائة . ويبدو انهم كانوا يعملـــون بصورة طيبة ، فلقد قال احد أطباء العلاج النفسي الذين زاروا المصحة وتجولوا بها ما يزيد عن ساعتين كاملتين انه رأى مصحة حقيقية لا بيمارستانا للامـراض العقليـة .

اما مصحة جوتنزلوه Gutensloh التي تم افتتاحها في عام ١٩٢٠ فلقد تأسست معتمدة على الخبـــرات المكتسبة من مصحـــــة ورشتين Warstein وبدأت عملها مع ثمانمائة مريض .

واعتقد انني في غير حاجة الى تناول تجارب «سيمون» وطرق علاجه بالوصف التفصيلي ، فسوف يبدو كالحديث المعاد . فلقد كانت لديه نفس التجارب ونفس الطرق التي قابلتنا في جرانج . وهنا ارى لزاما عليّ أن اقرر اننا عمليا لم نقم باكتشافات جديدة . واحس بالغبطة انني لم اقرأ كتابات سيمون قبل افتتـــاح القفص الذهبي ـ والا لكان معنى ذلك اننا نقتفي أثره ، ولو انني لا احس اي غضاضة فيما لو قد فعلنا ذلك .

لم يكن «سيمون» يلجأ الى استخدام القوة او العنف او العقاب . وكان يقسم المرضى الى مجموعات ولم يكن ليكل الى الممرضة اكثر من عشرة مرضى لرعايتهم. فكان ثمة مجموعات خاضعة للاشراف تضم المرضى الجدد او الحالات المضطربة كما كانت هناك مجموعات أخرى مستقلة لا يشرف عليها اي ممرضات . ولقد بلغ عدد النزلاء الذين يعملون دون اشراف احد ثلاثين نزيلا . اما جملة العاملين من النزلاء فلقد بلغت ٩٦ بالمئة يعمل نصفهم في مزرعة المصحة ويعمل النصف الآخر منهم في الورش . حقا كان الانتاج هاما ، غير ان الشفاء كان أهم منه . وكان عمل النزيل يتحدد طبقا لما يتطلبه شفاؤه . وبعد انتهاء العمل كان لا بد من التفكير في الراحة والترفيه فقد كانت المصحة تهدف الى خلق حياة صحية بين جدرانها. فلم يكن من المستطاع أن تظل المصحة على ما هي عليه من ادارة حسنة دون ايجاد وسيلة ترفيه منظمة . وكان ينبغي مكافأة المرضى على عملهم . وكان الهدف الاساسي للمصحة هو اطلاق من يشفى من المرضى . رغم ما كان يحدث من اعتراض مدير المصحة على ذلك بقوله انه يريد الاحتفاظ بالمرضى الممتازين . وهذا يوضح ان ادارة المزرعة يجب ان تكون في يد الطبيب المعالج . كما يجب تنويع الاعمال وتوسيع المصحة الى حد معقول .

هذا موجز اعمال سيمون التطبيقية . وفي مؤلَّف ثان قدم سيمون بعض الشروح النظرية فقال «ان المساوىء الثلاث التي تتهدد اي مصحة عقلية هي التعطل ، والظروف البيئية غير الملائمة وتوطين المرضى على الحياة دون تحمل مسؤولية ما» . وهذا هو السبب الذي يجعل من «العلاج الفعال» ضرورة لا غنى عنها . اذ لا بد من ايجاد جو عائلي فمن الثابت ان مثل هذا الجو يؤثر تأثيرا محمودا على أشد الحالات خطرا . ولا بد من تزيين العناصر التي يعيش فيها المرضى . فلم يحدث ان قام احد المرضى بتمزيق متعمد للستائر في عنابر النساء ذات الجدران المزينة بحذق . ولم تخسر المصحة كلها اكثر من ثلاث او اربع زهريات طوال عام كامل . ولعله من الملاحظ ان الرغبة في التدمير لا تتجه الى الديكورات بل الى ادوات الاستعمال بصفة دائمة كالملابس والنوافذ وبياضات الاسرّة . (ويحكي احد مديري عنابر العلاج بالعمل أن المرضى الذين يعملون بالتريكو يحرصون على وضع ابرهم جانبا بعناية متى نشبت المعارك ثم يهاجمون بعضهم البعض بأيديهم) . ولقد قابلنا تجارب مماثلة كلما نشبت المعارك بين العاملين من المرضى . ولقد كتب سيمون يقول ان جوهر العلاج النفسي يكمن في التربية اي في العملية الهادفة نحو تكييف المريض مع متطلبات الحياة فكل علاج يهدف الى تغيير الوسط البيئي فلا بد ان يتغير نوع العلاقة بين المريض والعالم الخارجي المحيط . ومن هنا لا ينبغي على المرء ان يعترف بما يسمى «استحالة العلاج» فالامر كله يعتمد على تعليم هيئة المرضين العاملين . فاذا ما كانت المرضة هادئة عطوفة ومؤدبة فالمريض يتشرب منها هذه الصفات السلوكية هو الآخر وبذلك يختفي تماما جو البيمارستان الخانق . ومن هنا لا يجب علينا ان

نستحث المريض على العمل فحسب به نستحثه كذلك على اللعب ، فالسيكوباتي ليس الا طفل صغير . كما يتوجب على المرض الا يمامل المريض كما يعامل الرئيس مرؤوسه ويجب عليه الا يدفعه الى القيام بأعماله هو نيابة عنه بل يجب عليه ان يعمل معه جنبا الى جنب . ولعله من الضروري أن نحاول جهد ما نستطيع ان نجعل المرضى يحسون بالسعادة وهذا لن يتأتى بالإغراق في تدليلهم . بل بخلق توافق بين ما هو مطلوب وما هو ممكن . وفي هذه الحالة نجد ان قدرا معينا من الحزم يجب ان يتوفر ، فالحب والتفاهم وحدهما لا يكفيان بل ينبغي ان يقوم النظام والترتيب الى جوارهما . كما ان الحرية لا تعني بحال أن يتصرف كل فرد على هواه . ويجب ان نراعي كذلك أن الكرامة الانسانية للمرضى ينبغي أن تصان وتحترم وترسخ .

ولعله من المؤكد أن المريض اذا ما انخرط في نشاط فعال وفي ظل ظروف مناسبة فانه سرعان ما يتحسن في ظرف أسبوعين لا اكثر . فستهدأ جميع الحالات القلقة والعدوانية والعنيفة بالاضافة الى حالات التبرم والانزعاج ، وتأخذ في الاتزان فتبدو طبيعية وهادئة ليس بالنسبة للطبيب او الممرض وحدهما بل وبالنسبة لبعضهم البعض ايضا . ويحسون بالانتعاش الجسماني كذلك . ونادرا ما كنا نتعرف على المريض بعد تحسنه من سجلاته الاولى لدينا .

هذا هو جوهر المسألة . طريقة العلاج «الاكثر فعالية» ونتائجه .

وانني أتفق مع سيمون في كل ما سبق من تفاصيل بل والتفاصيل التي اضطررت الى حذفها هنا . غير ان هذا لا ينبع أن هناك بعض النقاط التي اختلف فيها معه بناء على آرائي وتجاربي الخاصة . كما انني لا أصدق بعض القضايا التي أوردها .

جاء مثلا في سجلاته انه لم تحدث سوى احدى عشر حالة هروب وخمسة معارك واعتداءين خفيفين على المرضين من بين خمسمائة حالة في عنبر المرضى من النساء في مصحة جونزسلو خلال عام . وهذا ما لا يمكن تصديقه فتجربتنا في جرانج تؤكد ان ثمة ثماني حالات هروب من ثمانين او تسعين مريضا خلال العام الواحد ، رغم ان الامور في المصحة لم تكن سيئة بحال . (هذا العدد يشمل حالات الهرب الناجحة وحدها دون الحالات التي استطعنا أن نعيد فيها المرضى الهاربين من القرى المجاورة) ولعله من المتوقع أن نجد اكثر من خمسة معارك في السنة تنشب وسط خمسمائة سيدة سوية فما بالك بالسيدات المصابات بالجنون . كما انني لا اصدق ان المرضين لا يتلقون سوى صفعتين اثنتين طوال العام . ان المرء لا يستطيع ان يتخيل ممرضة افضل من روزي ومع ذلك كانت تتلقى الصفعات والركلات بالعشرات من المرضى فهذه بعض لوازم العمل ولا مفر من تحملها .

ثم هناك موضوع تهدئة المصابين بالقلق . يقول سيمون انه لجأ اخيرا الى عزل المريض في حجرة منفصلة . هذا سليم وكثيرا ما يؤدي الى نتائج طيبة . غير

أن سيمون يؤكد أن فترة العزل المطلوبة لا يجب أن تزيد عن ثلاثين دقيقة وان ثمانية عشر دقيقة ـ في المتوسط ـ كافية لتهدئة اي مريض . وهذا امر مستحيل فلقد فشلت فترة العزل التي بلغت من عشرين الى ثلاثين دقيقة في تهدئة اي من هيلين المؤمنة حين كانت تنتابها نوبات النيمفومانيا (جنون الهياج الجنسي) او جودي ديوك حين تصاب «بشهوة التجوال» او مارجينا العجوز حين يصاب بنوبات الهذيان . كما أن العزل لمدة ١٥ دقيقة لم يجد نفعا مع المصابين بالصرع ونوبات الهستريا . وجنون الاغماء التخشبي ونوبات الذهول .

وربما يكون سيمون على حق اذا ما كان يقصد أن العزل اذا دام ثلاثين دقيقة دون ان يعطي نتيجة ايجابية فلا جدوى من الاستمرار في عزل المريض مدة أطول من ذلك . الا انه لم يقل لنا ذلك . ولكن ما الذي يجب عمله في تلك الحالة ؟ واكتشفت اثناء قراءتي لفصل آخر من المؤلّف انهم كانوا ينهون فترة العزل ولكنهم يستمرون في اغلاق الابواب عاما على المريض . وكانت المصحة هناك تشمل عنبرا مغلقا لمثل هذه الحالات المؤقتة من العنف وبطبيعة الحال هذا ما كنت لأفعله غير انني لم اكن لأحرص على ابقائه طي الكتمان كما كانوا يفعلون .

كما انني لا أصدق انه من الممكن ان نجعل ٩٦ بالمئة من مجموع النزلاء ينخرطون في العمل . وفي اعتقادي أن ذلك لا يتم الا اذا قام سيمون بحصر الذين لا يرغبون في العمل وأرسلهم الى مصحة أخرى ، هنا فقط تصبح نسبة ٩٦ بالمئة تلك قابلة للتصديق . أما اذا كان ذلك لم يحدث فان نسبة ٨٠ بالمئة تبدو طيبة للغاية ، فنحن لم نستطع الوصول اليها في مصحتنا .

بتعبير آخر كان سيمون ميالا للمبالغة ولقد أثّر ذلك تأثيرا سيئا على صحة تقاريره ، وألقى ظلالا من الشك على بقية نتائجه . غير انني ارى شخصيا انها في مجملها صحيحة فتجربتنا تؤكد ذلك .

أما النقطة التي اختلف فيها مع سيمون بصفة مبدئية ، فتتمثل في الفصل التام بين الرجال والنساء . ولقد ألح على هذه القاعدة مرارا انه حقا لم يشيد اسوارا بين هؤلاء لكن تعليماته الصارمة كانت تقضي بوضع كل من يخالف هذه القاعدة في العنبر الموصد الابواب . ويقول سيمون ان المرضى كانوا بصفة عامة يحترمون تلك القاعدة . وكان مرتاحا لذلك الحل من جانبه فكان من رأيه انه يمكننا أن نمنع ظهور الرغبة الجنسية اذا عملنا على عدم التقاء الجنسين . غير انه لم يخبرنا عن الهدف المرغوب من منع ظهور الرغبة الجنسية ، انه كان يفترض ضرورة ذلك . ويبدو ان نجاحه كان ناقصا في هذا الخصوص . فالرغبة الجنسية لم تمت ، ولقد رأيناه يشكو من انتشار الشذوذ الجنسي ، وكانت الوسيلة الوحيدة للقضاء عليه هو مزيد من الاشراف الدقيق والدائم . ولو كنت في مكانه لاقترحت طريقة اخرى بسيطة وفعالة في ذات الوقت .

***

لقد ساعدت سمعة مصحة جوترسلوه مبدأ العلاج بالعمل على الانتشار السريع . ففي خلال عامين اثنين ظهرت خمس وتسعون مقالة في مختلف الدوريات المتخصصة في الطب العقلي . وكان الراي السائد بين معظمها يقول ان سيمون لم يقل شيئا جديدا وان «العلاج بالعمل» كان معترفا به من قبل وكان موضع التطبيق بنجاح كبير في كل مكان (والحقيقة ان استغلال قوة عمل المرضى هو الذي كان منتشرا ، رغم ان طريقة سيمون في العلاج كانت تمارس هنا او هناك) . غير ان هذا الحماس سرعان ما فتر . ثم مات سيمون واخذ ما ينشر عن العلاج بالعمل يقل شيئا فشيئا . فيما عدا بعض العبارات التي تقرظه من حين لآخر . اما في الفصول التي تتناول «العلاج» في الكتب المقررة كنا نجد بعض الكلمات التي تمتدح العلاج بالعمل وتؤكد اهميته كوسيلة ناجحة في العلاج . لكن ما كان قائما في التطبيق لم يكن العلاج بالعمل بل استغلال قوة عمل المرضى لصالح المصحات التي يقيمون فيها . ولم يكن ليسمح بالعمل الا لهؤلاء القادرين عليه ولا يخشى من ناحيتهم وكان مثل ذلك الوضع يحمل أسم «العلاج بالعمل» .

ليس في حوزتي معلومات كافية عن العلاج بالعمل في البلاد الاخرى وكيف يسير قبل الحرب العالمية الثانية وخلالها وبعدها ، فيما عدا هولندا حيث شاهدت في عام ١٩٣٩ احدى المصحات التي تطبق العلاج بالعمل بطريقة ناجحة . ثم عرفت بعد ذلك أن العلاج بالعمل آخذ بالانتشار في سويسرا . أما في فرنسا فلقد انتهى كل ما خلف الدكتور بينل من تراث الى النسيان . ولم يبدأ علاج مرضى الامراض العقلية على اساس سليم هناك الا متأخرا تحت اسم «منهج الثقة في المريض» وهو علاج السيكوباتيين بإيجاد «وسط بيئي» ـ ليس مختلفا ـ بل نوع سليم من الوسط البيئي الذي يمكن المريض من التطور في طريق التحسن . ولقد آلت تركة سيمون في هذا الميدان الى شنيدر Schneiber الذي يستطيع المرء ان يرى خلال كتاباته انه سار على درب رائدة . فلقد فاق سيمون في المبالغة ، اذ نراه يقول أن نسبة الذين فشل معهم في الحاقهم بالعمل لم تتعد ٥ر١ بالمئة . فاذا ما صدق مثل هذا القول يكون معناه على الفور انهم استخدموا في ذلك وسائل قهرية رائعة ، اذ انه من المستحيل أن يصدق أن هناك ٥ر٩٨ بالمئة من مجموع المرضى قد دخلوا في العلاج بالعمل . وبالتالي فان السؤال يفرض نفسه عما اذا كان في امكاننا أن نطلق على مثل ذلك العمل القهري «علاجا» ام لا . ولعل هذا هو السبب الذي دفع شاهد عيان من بودابست الى الامتعاض مما يدور في جونزسلوه فوصف المصحة بأنها مجرد مستعمرة للعمل الاجباري تعتمد على التمزيق العسكري الصارم ، مثلها في ذلك مثل سائر المصحات القائمة في المانيا او في امريكا التي تسيء الى مفهوم «العلاج بالعمل» .

وفي الاتحاد السوفييتي طبّق ماكارينكو علاجا حقيقيا بالعمل فيما يختص بتعليم المشاغبين ولقد تعلمنا منه اكثر مما تعلمنا من اي شخص آخر . كما طبّق بروتوبوبوف العلاج بالعمل في مصحة كييف . وعرضت روبيفا فكرة علاج المصابين

بالصرع عن طريق العمل . وتناول زينفتش في كتاباته مشاكل جراحة المرضى بالعصاب خارج المصحات . كما كتب كوجان عن النشاطات الخاصة بهيئات العلاج بالعمل التابعة لمعهد الدراسات النفسية والعصبية في موسكو . وهذا المعهد يقوم بعمل جليل فالسيكوباتيين او المجانين الناقهين يدخلون مصحات خاصة لمدة تبلغ الثلاث او الاربع شهور وذلك بغية اعادة تعليمهم . وهناك يعتادون على العمل المنتظم بل يستطيع بعض المرضى ان ينتقل الى بيته حيث يعيش ويعمـــل تحت اشراف مؤسسات العلاج بالعمل التي تمدهم بالتوجيه وفرص العمل . وكانت هـــذه التجربة فريدة في علاج «مرضى الامراض العقلية» . ورغم تلك الجهود الجبارة فما زال الاطباء في الاتحاد السوفييتي يرون ان العلاج بالعمـــل ليس منتشرا بالدرجة الكافية ويؤكدون على ضرورة تطويره والنهوض به . كتب جيليارفسكي في عام ١٩٥٠ يقول ان تحليل الموضوعات التي تناولتها معاهد الاتحاد السوفييتي بالدرس تبين أن موضوعات العلاج النفسي ، والتنويم المغناطيسي والعلاج بالعمل والعلاج الطبيعي ، والوقاية من الامراض النفسية لا تطرق اليه وقبل ذلك بعام واحد قدم كل من بانشيكوف ورابوبورت تقريرا عن العلاج العقلي «كما هو مطبق في الاتحاد السوفييتي» فيما يتعلق بالعلاج بالعمل لا نستطيع أن نؤكد انه حقق نجاحا كبيرا هنا فيما عدا بعض المصحات القليلة العدد . وهذا النوع من العلاج لم يأخذ مكانته الخليقة به خصوصا اذا ما عرفنا مدى اهميته للامراض المزمنة. ولعل هذا يبدو شديد الغرابة فوفقا لتعاليم بافلوف (التي هي اساس الطب العقلي) وكذلك وفقا لآراء فريدريك انجلز عن الدور الخلاق للعمل تصبح اهمية العمـــل والعلاج البيئي والنفسي امورا غنية عن البيان .

وماذا عن المجر ؟

لم يسعدنا الحظ بظهور طبيب يوازي في اهميته د. بينل . اللهم الا اذا ما اعتبرنا ميخائيل فيسانيك بينل المجر . فلقد حرر فيسانيك المرضى المساجين في مصحة فيينا ، ثم نظم العلاج بالعمل ووسائل رعاية المجتمع لهم . ولم تتحقق معظم التوصيات التي نشرها عام ١٨٤٥ حتى اليوم . ومنذ ذلك الحين ظل الطب النفسي في المجر متميزا بالتوصيات الانسانية التي لم توضع يوما ما موضـــع التطبيق . لقد عرف معظم الاطباء النفسانيين المجريين ما ينبغي عمله ، غير أن الفرصة لم تتح لهم لكي يضعوا مشروعاتهم الرائعة موضع التنفيذ .

قام فيرينز بينيه بإلقاء عدة محاضرات هنا وهناك حول مزايا الحرية والعمل في المزارع . كما اسس فيرينز شفا مصحة خاصة عام ١٨٥٠ وبعد مرور اربعة عشر عاما كتب يقول : كان علاج المرضى عندي يعتمد على النشاط الذهني الذي اثبت أهميته البالغة في العلاج ، ولم يفشل الا في حالات معدودة . ونادرا ما كنا نلجأ الى استخدام «قميص الكتاف» واذا ما صدق هذا الكلام فان فيرينز شفارزر يكون قد سبق كل معاصريه . وكتب كارولي بوليو في عام ١٨٦٥ يقول ان مصحة ليبوتميزو Lipotmezo التي كان قد تم بناؤها في ذلك الوقت لا

تلائم العصر. ولقد اقترح بناء بيوت صغيرة ريفية للمرضى داخل مستعمرات مهنية يستطيعون فيها مزاولة الاعمال الزراعية لكن هذا الاقتراح لقي الرفض وتم بناء المصحة التي تسع خمسمائة مريض يوزعون داخل سبعين زنزانة . ولقد تضاعف عدد المرضى الان ثلاث مرات داخل المصحة ودون ادنى اتجاه الى الاستفادة من فكرة العلاج بالعمل . وفي عام ١٨٦٦ كتب جوزيف فيربلي يحتج على انشاء مثل تلك المصحات العتيقة قال يجب على المرء أن يعمل على خدمة الانسانية والاقتصاد الوطني بإقامة مستعمرات عمل تضم كافة الاعمال ، غير أن فكرة خدمة الاقتصاد الوطني تلك لم تحظ بالاهمية مثلها في ذلك مثل خدمة الانسانية . وتم بناء مصحة انجا يلفولد رغم اعتراض جميع خبراء العلاج النفسي . على اننا يجب الا ننسى ان نسبة المرضى الذين يعملون في تلك المصحات التي يعتبرها الكثيرون غير ملائمة وصلت ٦٨ بالمئة من مجموع النزلاء رغم ضيق مساحة المزرعة التي يعملون فيها والتي لم تتجاوز ١٥ فدانا في القرن الماضي . غير أن انتشار فكرة العلاج بإلزام المريض السرير ثم اندلاع الحروب العالمية . وفكرة العلاج الفعال «اذ ما يمكن ان تطلق عليه العلاج الهادىء» كل ذلك قضى على فكرة العلاج بالعمل في المهد .

في عام ١٩٠٤ عاد كالمان باندي من الخارج حاملا الاعتقاد القائل بأن بناء عنابر للمرضى الى جوار المزارع والورش أفضل من بناء القصور الفخمة . كما قال بضرورة ارسال المرضى الى مستعمرات قروية حيث يعالجون بالعمل بصورة منظمة ومكثفة في ظل جو اسري . وكتب كتابا عن أوضاع الطب النفسي في الداخل والخارج . غير أن الظروف لم تكن مواتية كي يقوم بتنفيذ مشروعاته . ونظم ر. فابيني اول مستعمرة للعلاج في ظل التمريض الاسري خلال الحرب العالمية الاولى . ثم تأسست مستعمرتان أخريان على نفس النمط في الثلاثينات . وظلت تلك المستعمرات تؤدي واجبها على النحو الاكمل حتى قيام الحرب العالمية الثانية، وما زالت هياكلها باقية حتى اليوم ، حيث تتبع المزارع فيها بعض المصحات العقلية ، غير انها لا تعتمد العمل كوسيلة للعلاج بل كوسيلة لاستغلال قوة عمل المرضى فاذا ما وجدنا بعض الورش الملحقة بالمصحات ، فهذا لا يعني ان تلك المصحات تعتمد العمل كعلاج بل كوسيلة للكسب . ولم يشذ عن ذلك سوى تجربة لازلو توث منذ بضعة أعوام التي استطاعت ان تتجاوز حالة «العمل القهري» الذي يطلقون عليه ـ ظلما ـ العلاج بالعمل .

وقد كانت آخر توجيه في هذا المجال بشأن اقامة مصحات للعلاج بالعمل تلك التي قدمها لابوش أنجيال عام ١٩٥٣ في مؤتمر لأطباء العقل والاعصاب وقد تلقاها الجميع بالحماس الزائد ، لكن شيئا لم يتحقق في الواقع .

الا أن القفص الذهبي كان قد قام بالفعل في جرانج حيث ضم ثمانين سريرا فكان بمثابة الثمرة المتواضعة لمائة وعشر سنين من الصراعات المتصلة .

***

وهناك درس آخر يجب علينا ان نعيه من تاريخ العلاج بالعمل فلقد ظهر أن اعتماد جرانج الغير سليم على مستشفى عام ليست مشكلة جديدة او خاصة بالمجر بل مشكلة تبلغ من العمر ما يزيد عن قرن كامل . فعنبر الامراض العقلية الملحق بأي مستشفى كان يسمى «البيمارستان» في اللغة الدارجة . وهكذا لا نستطيع ان نطلق على «القفص الذهبي» اكثر من بيمارستان .

وتدل شكوى الاطباء النفسانيين المتكررة لدينا على اقتناعهم التام بمساوىء الاعتماد على المستشفيات . ويبدو أن المديرين من امثال بلا كلام فارغ قد وجدوا منذ مئات السنين ليس في بلدنا فحسب بل وفي سائر البلاد الاخرى . ولقد قال د. بينل انه بدون التعاون التام بين الادارة المالية والادارة الفنية ، فان آراء الاطباء النفسانيين لن توضع موضع التنفيذ . ولقد صدر في اسبانيا منذ ١٨٣٦ قانون ينص على فصل المصحات العقلية عن المستشفيات العامة . اما في بلجيكا فلقد تأخر الطب النفسي كثيرا بوضع المصحات في أيدي رجال الدين . ولقد استسلم لنز بعد ثلاثين عاما من الكفاح الذي لم يحرز اي نجاح ورضى بالهزيمة المرة . أما في روسيا فلقد نجح روث في عام ١٨٦٧ في فصل العنبر الذي يديره عن المستشفى العام وفي عام ١٨٨٨ تم اقرار هذا القانون «يجب ان تتأسس المصحات العقلية منفصلة عن المستشفيات والاصلاحيات وأن يترأسها طبيب نفساني مؤهل يخضع له جميع العاملين بالمصحة» ..

ولقد دفع ذلك كالمان باندي أن يكتب في عام ١٩٠٥ «من المحزن بل ومما يضر بقضية العلاج في بلدنا ، أن السلطات لدينا لا تعتقد في امكانية علاج مرضى الامراض العقلية ومن هنا فهي لا ترى ضرورة للاطباء النفسانيين او المصحات العقلية القائمة بذاتها » ولقد كتب مثل هذا الكلام قبل خمسين عاما من تأسيس «القفص الذهبي» ولم يكن ذلك الكلام بالبرهان الوحيد الذي يثير الحزن على أن رغبات الاخصائيين قد ذهبت هباء فقد شل المدير المالي نشاطات د. بينل، وفشل كونولي في الحصول على منصب مدير احدى المصحات ، اما نجاح لالور في مصحة ريتشوند فأعقبه الاهمال والفوضى من بعده وتحطمت آمال لنز Lenz بفعل جمود رجال الدين . وانتهى بورنفيل الى الاستسلام واصبحت مصحة سيمون الرائعة تدار بغير وعي او تفكير وضاعت نصيحة «باندي» في الهواء .

***

لقد شهد العلاج النفسي تغييرا اساسيا في العقود القليلة الماضية . فمنذ وقت ليس بالبعيد كنا نسلم باستحالة نجاح العلاج في هذا الفرع من الامراض وبالتالي ، كان الاطباء يحسون انه طالما لم يكن في وسعهم معاونة المرضى فان افضل ما يستطيعونه هو التفنن في حبسهم . والحقيقة خلاف ذلك . فجميع الوسائل الفظيعة التي عرفها القرن التاسع عشر من دوران في العجلة المجوفة الى

الاغراق بالماء الخ كانت تهدف الى العلاج وتؤمن به . ثم دخل العلاج بالعقاقير الميدان ثم جاء نيسر Neisser بالعلاج بإلزام المريض السرير ثم اعقب ذلك ظهور العلاج النفسي والعلاج المائي وكلها تتجه ناحية العلاج ايمانا منها بعدم استحالته. بل وعلى العكس فقد تميزت تلك الفترة بالتفاؤل العريض والفاعلية الكبيرة . .

وما زالت جملة الاكتشافات المختلفة التي ظهرت فيما بين الحربين تحدث تغييرات حاسمة يطلق عليها الان «العلاج الفعال» Active treatment الذي بدأ تطبيقه على مرضى الشلل العام ولقد هبطت الان نسبة المصابين بالشلل في المصحات العقلية من ثلث النزلاء الى ٥ بالمئة . (وهذا لا ينفي ان المصحات العقلية ما زالت على ازدحامها السابق) . والشلل العام ـ كما هو معروف ـ ينتج عن مرض الزهري ، ولقد خفض اكتشاف السلفارزان Sulvarsan الذي تم على ايدي الطبيب الاشهر ارليش P. Ehrlich ـ عدد مرضى ذلك النوع من الشلل بصورة ملحوظة . وبفضل ذلك الدواء لا نجد لدينا الان حالات خطرة كما كنا نجد في الماضي . ولقد بدا تطبيق العلاج الفعال للشلل العام «هو العلاج بإحداث الحمى لدى المريض الذي ابتكره في فيينا عام ١٩١٧ البروفيسور فاجنر فوبرج Wagner - Faurg واذا ما صدق اعتقاد العامة السائد ان كل انواع الجنون ترجع الى الاصابة بالزهري فان آمال البروفيسور فاجنر ـ وكان مبالغا في التفاؤل ـ تكون قد تحققت بالفعل وأن العلاج بالملاريا يمكن أن يضع حدا للجنون لكن من سوء الحظ أن ذلك العلاج يصلح فقط في حالة الاصابة بالشلل العام وهذا في حد ذاته ليس كسبا صغيرا .

ولقد بدأ الطبيب الكبير ساكل Sakel تطبيق العلاج الفعال ذاك على المرضى المصابين بانفصام الشخصية في فيينا عام ١٩٣٣ بعد اكتشافه للعلاج بصدمة الأنسولين . فهذه الصدمة بما تحدثه من غيبوبة يؤدي تكرارها الى ايقاف الهلوسة والاضطراب والقلق وأوهام الاضطهاد لدى عدد من الحالات على الاقل . وفي عام ١٩٣٥ توصل احد الاطباء في مصحة ليبوتميزو يسمى لاولو ميدونا Meduna الى نتائج مماثلة بإحداث نوبات صرع غير حقيقية تؤدي الى فقدان المريض للوعي لمدة محدودة . واستخدم في ذلك مادتي الكرديازول والميترازول . ولقد اكتشف الاستاذ الايطالي كيرليتي Carletti عام ١٩٣٧ في مجزر للماشية أن نوبة الصرع يمكن إحداثها بواسطة الكهرباء ، ومنذ ذلك الحين اصبحت الصدمة الكهربائية بمثابة العلاج الدائم الذي يستخدم عادة في حالات الاصابة بالفصام . (ولعله من الجدير بالملاحظة ان كل تلك العلاجات تعالج مرضا معينا بآخر ـ بالملاريا او الغيبوبة او بالصرع) .

وتستعمل الان الكثير من العقاقير الطبية كعلاج فعال عند الاصابة بالفصام من بينها «الكلور برومازين» الذي ظللنا نستعمله لمدة سنوات وكان يعطي نتائج أفضل مما كنا نتوقع باستمرار . واخذ يحتل مكان الصدمة الكهربائية التي تعتبر علاجا قاسيا وان كان ناجعا ويعتبر علاج حالات النقص العقلي بحامض الجلوتاميك علاجا

فعالا وكذلك علاج حالات الصرع بعقار دفيني Dipheny hydantoin ـ وهو مضاد قوي للتشنجات ـ واخيرا دخلت الجراحة (جراحة النص الجبهي Leucotomy الميدان لا في حالات من الصرع فحسب بل بعض حالات انفصام لم تنجح معها اية وسيلة من وسائل العلاج السابقة .

ومع مثل وسائل العلاج المتعددة تلك هل يمكننا أن نتساءل هل ما زال «العلاج بالعمل» خليقا بالاستمرار في الوجود ؟

والإجابة الصحيحة على مثل ذلك السؤال هي نعم . فكل وسائل العلاج تلك ـ رغم الاعتراف بنجاحها في علاج الكثير من الحالات ـ ما زالت غير كافية لعلاج كل حالة علاجا نهائيا . لا ننكر ان ثمة عددا قليلا من المرضى الذين لا يحتاجون العلاج بالعمل ويمكن شفاؤهم عن طريق «العلاج الفعال» . غير انه من الثابت ان ثمة حالات أخرى لا يصلح لها العلاج الفعال الا كأساس اولي ثم يأخذ العلاج النفسي والعلاج بالعمل دورهما في اعادة المريض الى الحياة الاجتماعية السوية كما أن هناك حالات معينة لا تستجيب للعلاج الفعال على الاطلاق حتى تبدأ بالعلاج البيئي . وفي نهاية المطاف ثمة حالات لا ينفع معها العلاج الفعال المصحوب بالعلاج البيئي ، ورغم ذلك تحس بالتحسن في «القفص الذهبي» اكثر مما تحسه في مصحة كئيبة منعزلة .

ولقد دفع نجاح «العلاج الفعال» المتزايد الاطباء المعاصرين الى اهمال العلاج بالعمل اكثر مما فعل سابقوهم من الاطباء الذين عاشوا في فترة الاعتقاد بإستحالة علاج مرضى الامراض العقلية ، اما اذا اراد هؤلاء الاطباء المعاصرون أن يحققوا شيئا ذا قيمة في ميدان العلاج فعليهم ان يجعلوا من المرضى شغلهم الشاغل وينخرطوا معهم في الحياة . ومن الملاحظ اليوم أن الاطباء يحسون انهم فرغوا من اداء واجبهم نحو المريض اذا اعطوه الاقراص والحقن والصدمات الكهربائية . ولا يقدرون أن المريض يحتاج كذلك الى الكلمة الطيبة ، والكرامة ، والحرية ، والشغل والترفيه والظروف البيئية المواتمة . ورغم ذلك فلا ننكر ان العلاج الفعال هو الذي مكن الاطباء من تطبيق طريقة العلاج الحر على نطاق واسع اليوم . كما اصبح العلاج بحقن اللارجاكتيل والصدمات الكهربائية تحت وسائل التخدير المعروفة ناجحا في حالات القلق والرغبة في التدمير وجعل طريقة العلاج الحر اكثر ضمانا عن ذي قبل . والعكس صحيح فلقد وفرت الظروف البيئية الطبيعية للمصحات التي تعتمد العلاج بالعمل امكانيات أوسع للعلاج الفعال . وهو الامر الذي كان الجو الخانق المعزول خلف الزنازين لا يسمح به .

وحتى في الحالات التي ينجح العلاج الفعال في شفائها ، يظل عاجزا عن وضع اللمسات الاخيرة . فالاضطراب والرغبة التدميرية والاوهام والهلوسة كل هذه الأعراض تنتهي لكن ذلك ليس بكاف . فالطبيب يرى أن مثل تلك الحالة اصبحت سوية غير أن المجتمع يظل على رفضه لها . فالمجتمع دقيق في حكمه

للغاية . فالشخص الذي قضى مدة ما في احدى المصحات يظل موضع الشك ولا يقبله الناس بسهولة . ولذا نجد المريض الذي تم شفاؤه ووافقت المصحة له على الخروج يقف حائرا على الباب ، متوجسا فاقدا للثقة بالنفس ودون عمل . كما ان المصحة شغلت مكانة منذ مدة طويلة . وربما لا يجد عملا على الاطلاق فالجميع يخشونه . وعادة ما لا يجد مكانا يذهب اليه ويكون اهله غير متحمسين لعودته . وهكذا يجد نفسه خائر القوى . ضعيفا عاجزا مثقلا بالمتاعب ويكون عليه أن يخوض صراعا رهيبا يرهق قوى الجهاز العصبي للانسان السوي . حقا لقد تحسنت حالته او شفيت لكنه ما زال يحمل ندوبا عقلية . انه الان «موصوم» بدخول مصحة الامراض العقلية ومستقبله غير مضمون وعليه ان يشق طريقه وسط مجتمع لا يفهمه .

انه اشبه بسفينة جانحة دون قارب نجاة .

ولقد قام «القفص الذهبي» بدور قارب النجاة الذي ييسر الامور امام ذلك الشخص . وهو ليس عملا سهلا وسيظل كذلك حتى يطرأ على تأهيل المريض اصلاح حاسم يوضع موضع التطبيق .

اعتاد كهنة ابوللو في لويكادرس في الزمن القديم منذ ما يزيد عن الفي عام أن يعالجوا المجنون بقذفه من اعلى صخرة شاهقة في البحر التيراتي **Thyrrhenian** مع ربطه الى طيور عملاقة كي تحمله بهدوء حتى سطح البحر . ولقد كان علاجا بشعا لم يسجلوا لنا بكل اسف شيئا عن مفعوله) . لعله السلف القديم للصدمات الكهربائية (ولعل المرضى كانوا يخافونه كما يخافون العلاج بالكهرباء اليوم) . وما زال هذا التصور صالحا حتى اليوم للطب النفسي فالمصحة التي تعتمد العمل كعلاج تقوم بمثابة الطائر الذي تقي اجنحته القوية المريض من التحطم على قمة الصخرة الشاهقة او الغوص في الاعماق حتى الابد .

الفصل الثاني

الفصام

اذا اقمت بين مائة من مرضى العقل ، فسوف تلاحظ عليهم الكثير من الملاحظات التي تغيب عنك اذا ما كنت بعيدا عنهم . ولقد بدات اعتقد أن مؤلفي المراجع كانوا سيكتبونها بطريقة مختلفة لو انهم عاشروا المرضى . كما اخذت احس بالارتباك كلما فكرت في السنوات التي فقدتها رئيسا للاطباء في ليبوتميزو Lipotmezo فماذا كنت أعرف عن المرضى في ذلك الحين ؟ ما الذي يمكن ان يعرفه احد عن العقل المضطرب اعتمادا على التقارير التي يدونها الممرضون مع بعض الزيارات الخاطفة ؟ والزيارة تعطي صورة مشوهة فهي تدفع الطبيب الى استرجاع ما تعلمه في الكتب ولكن الصورة التي يأخذها لا تشبه المريض الا الى حد ما . وهي بالاحرى تشبه النموذج الذي عرفه خلال الكتب التي قراها . فيصبح تفسير المرض عملا ميكانيكيا ويطغي النمط الشائع على الخصائص . فاعتمادا على معرفته بالنمط الشائع يعرف الطبيب عن المريض اكثر مما فيه فعلا . فهو يعرف تلا ضخما من الاحتمالات ، الا انه ليس من المؤكد انه يعرف المريض نفسه .

في «القفص الذهبي» اخذت في التعود على التفكير الحر فهناك كان مسموحا لكل شخص ــ حتى الطبيب ــ ان يتكلم ، وان يكتب ، وان يرسم ، وان يلعب كيفما شاء . وفي ظل حماية القفص الذهبي وبعيدا عن تأثير تعاليم النظريات المقدسة التي لا يجوز الاعتداء على حرماتها ، استطاع المرء ان يعلن ان جوهر

الفصام يكمن في الحنين الى الحرية .

الحرية بمعنى ان يعيش المرء وفقا لقوانينه الفردية وهنا لا تكون العبودية نقيض الحرية ، بل الانصياع والتكييف الاجباريين . ان قوانين المجتمع تقوم على القوانين الفردية لعدد كبير من الناس . غير ان هذا لا يعني أن قوانين المجتمع تتطابق مع القوانين الفردية لكل هؤلاء الذين يألفونها . فالكل مختلف عن مجموع اجزاءه كما قال ارسطو من زمن بعيد . ان قانون المجتمع ليس مجموع القوانين الفردية بل نتيجة تلك القوانين فالقوانين الفردية لمعظم الناس تختلف عن قوانين المجتمع ، ولكنها لا تختلف عنها الى الحد الذي لا يستطيعون معه أن يمتثلوا لقوانين المجتمع وهؤلاء الذين يمتثلون يسمون الأسوياء .

والامتثال سهل بالنسبة لمعظم الناس ، اما لان فرديتهم تتوافق مع المتطلبات الاجتماعية وإما لانهم لا يملكون فردية على الاطلاق . فكثير من الناس لا يتمتعون بالرغبة في الاستقلال ، في تكوين راي حر ، في اتخاذ نقطة انطلاق خاصة بهم. وهذا ما نعنيه بعدم وجود فردية لديهم أما هؤلاء الذين يملكون فردية متميزة فهم اما ان يدفعونها الى الامتثال للارادة الجماعية للمجتمع ، وإما أن يرفضوا ذلك ، في الحالة الاولى تراهم يمتثلون عن طواعية ، ومن هنا يصبحون احرارا . وفي الحالة الثانية اما ان يمتثلوا تحت ألقسر وإما أن يتمردوا . من هذا التمرد يأتي الثوريون والمجددون والفنانون والعلماء الخلاقون ، وكل هؤلاء الذين يمنحون الانسانية شيئا جديدا . غير أن كل الافراد لا يملكون مواهب خلاقة. ولذا يصبح الشخص الذي لا يملك سوى قدرات متوسطة شخصا غريب الاطوار ، وربما شخصا منعزلا عن الآخرين . وهو ليس مجنونا ، لكنه ليس سويا كذلك بمعنى انه لا يشبه الآخرين . وقد يصبح عصابيا ، في منتصف الطريق بين التكيف والتشبث بقانونه الخاص ، ويحيا حياة تقوم على محاولة غير ناجحة للحل الوسط.

والمصابون بالفصام يختلفون عن ذلك النوع في أنهم لا يحاولون الامتثال فهم القانون بالنسبة لانفسهم ، وهم لا يعيرون قوانين العالم التفاتا وقد يتجاهلونها عن عمد . فماذا يفعل ذلك المريض المصاب بالكتاتونيا حين يقف متصلبا في احد الاركان محملقا امامه ان لم يكن يحتج ؟؟؟ لا ينطق ولا يأكل ، يشد الغطاء على راسه ويرقد متصلبا في سريره ، ويظل على هذا الحال لساعات او لأيام ، لأسابيع وربما لشهور وأحيانا لسنوات . ماذا يفعل ؟ لا شيء الا ان يكون نفسه، انه يغلق نوافذ العالم بكل ما فيه . لا يعترف بالعالم ، ويحتج على الواقع بكل سلوكه ذاك ، واذا تحرك ، فان تحركاته لا تحمل الينا معنى ما وماذا تعني بالنسبة اليه لا ندري . يكشر ، عضلاته تتصلب او تصير لينة كالشمع وبطرق لا نستطيع لها فهما . واذا تكلم لا تعدو كلماته أن تكون همسات غير مسموعة موجهة اليه نفسه . وتجده لا يستجيب لشيء ولا يتوقع شيئا ما من اي شخص ، ويفضل الا يتكلم على الاطلاق وعلى سبيل المثال كان كل من تابيه العجوز وكلير تيس وفيلما ساركوزي من نزلاء «الجرانج» قادرين من الناحية

الجسمية على الكلام ، الا ان أيا منهم لم يجد لديه الرغبة في أن يتفوه بكلمة واحدة لمدة سنوات .

ولعل الامر يبدو غريبا اذا ما أطلقنا على هذا الانعزال السلبي اليائس «حرية» فحالة العزلة تلك لا تدخل السعادة على المريض ولا على العالم المحيط به ، انها فقط الحرية في الا يشارك . وهي لذلك حالة غريبة ، غريبة الى الحد الذي نطلق على المصاب بها مجنونا . غير أن هذا لا يغير شيئا من الحقيقة التي تقول انها نوع من الحرية غير المحدودة في أن يظل الشخص منحصرا في دائرته الخاصة ولا يحاول أن يحتك بالعالم . وهو امر صعب ، الى حد أن القادرين عليه قليلون للغاية حتى من بين المجانين انفسهم . وبمجرد ما يفتحون فمهم فان حريتهم تلك تتقلص بسرعة . الم نفقد حريتنا الاولى حين اكتسبنا اعظم قدرة انسانية ملحوظة، اعني حين تعلمنا الكلام ؟ فالكلمة . ذلك الاصطلاح على ان اصواتا معينة تحمل معان معينة ، استطاعت أن تحررنا من قيود الحياة الحيوانية ، لكنها في ذات الوقت ربطتنا بروابط لا انفصام لها مع المجتمع . فحالة الكتاتونيا التي ترفض الكلام او الاتصال او التعرف على احد ، باختصار تزدري كل أنواع الاتصال الاجتماعي والانساني ، اقل انسانية ولكنها اكثر حرية . فهو بغمغماته غير المترابطة ، ومستدعياته المشوشة ، ومنطقه غير المفهوم ، وعجزه عن الفهم ، وعدم قدرته على الخضوع لاي اغراء يعيش في عالم غريب عن عالمنا ، حيث يسود قانونه الخاص . وهذا هو السبب في انه لا يفهمنا وفي اننا لا نفهمه . غير ان عالمه المنفصل ذاك يتكون مع ذلك من فتات الكلمات والافكار التي يسترجعها عن عالمنا . وتتلخص حرية تلك الحالة في تجاهلنا .

أما مرضى الاوهام الذين يأتي كلامهم مخبولا ولكن يحمل بعض المنطق فهم أكثر انسانية الى حد ما ، ولكنهم أقل حرية والى حد ما ايضا ، فهم يحتفظون بشخصيتهم الخاصة الى ذلك الحد الذي تظل معه معتقداتهم راسخة ، وبحيث لا تؤثر حقائق الواقع عليهم . وانهم واثقون من انفسهم ولا يعيرون آراء العالم المحيط ادنى اهتمام . وهم لا يقبلون التفاهم . وتراهم يقدمون بعض الاعترافات الصغيرة وقد يتنازلون ، الا عن أفكارهم . أما من الناحية العلمية فليس لديهم صلة بالعالم ، وهم لا يهتمون بإقناع الآخرين بأفكارهم فهم يعرفون افكارهم ، وفي هذا الكفاية .

ومثل هؤلاء هم المصابون بالفصام حقيقة . انهم يرفضون العالم كي يتمكنون من العيش بحرية نسبية ، وهذه عملية فاشلة بطبيعة الحال . والامر مختلف مع المصابين بالفصام الاضطهادي . فكلامهم ليس خليطا مشوشا ، بل تراهم يكونون نظرية تبدو معقولة لاول وهلة ، واضحة التحاليل على الحقائق ، وينتظمها بصفة عامة خطأ منطقي اساسي . وتراهم يعيشون على مستوى ديني او ميتافيزيقي او فلسفي او شعري ، ومستواهم الديني ذاك ما هو الا قانون قائم بذاته مثله في ذاك مثل المستوى الميتافيزيقي او الفلسفي او الشعري الذين يعيشون عليه ، واذا

لم تحلق روحهم عاليا فانهم عادة ما يعانون داخل السجن الذي اقاموه لانفسهم ـ مثلهم مثل صانع الأقفال الذي اخذ يطلب مني اليوم بعد اليوم ان أطلق سراحه من السجن الذي يقيم فيه مع الاشعة اللعينة . وهذه ليست بنكتة . فمرضى الفصام يحسون فعلا بتلك القوة السحرية التي تحصرهم في نطاق حريتهم الاولية . والحالات الاقل خطرا تقاوم وتتمرد وتحطم وتقنع وتسيطر ، أما الحالات الخطرة فتفض يدها من كل ذلك . وتراها تحيا في حالة تبلد دائم في الفراغ الذي تحيط نفسها به كقلعة محزنة .

لقد قال بارميندس ان مقياس جميع الاشياء هو الانسان ، لكنه لم يقل اي انسان ؟ أنا أم الآخرون ؟ الاشخاص السويون «الأسوياء» يقبلون الآخر كمقياس، اما المصابون بالفصام فيرفضون ، ويريدون أن يكونوا هم المقياس . والشعراء والشاذون يفهمون هذا جيدا لانهم يحسون نفس الاحساس وانا لا اريد ان اخوض في اسرار العبقرية والجنون هنا ، ولكنه ليس خفيا أن الشعراء والمجانين مرتبطون مع بعضهم البعض بطريقة ما ، فكل من الشاعر والمجنون غير راض وكل منهما يستريح على وسادة عزيزة من عبادة الذات مثل الشاعر كوستولاني **Kosytolanyi** وكل منهما يوقن أننا لا نساوي الا ما نساويه امام انفسنا . وهذا في الواقع ليس عبادة ذات بقدر ما هو اعتراف مطلق بشخصيتهم .

انا مع نفسي
مقياس
كلماتي المنحوتة من الذهب الخالص هي
كلمات السرور
على كل قطعة ذهب تتبدى
صورتي كصورة الملك
وفي الأعالي
ترى نقش الكلمة المشحونة بالزهو :
انـا !

ولقد توصلت الى ذلك ليس من نزلاء جرانج فحسب بل ومن دستويفسكي الذي وضع اصابعه بدقة على جوهر «الفصام» في وقت لم يكن الاطباء فيه قد صنفوا ذلك المرض بعد . يقول المؤلف على لسان رسكولينكوف «ينقسم الناس الى قسمين العاديون وغير العاديين ، القسم الاول يحيا حياته في طاعة ورتابة . اما القسم الثاني فيرى مبررا في تخطي جميع العقبات والخوض في جحيم النار وعباب الماء من اجل ما يحمل من افكار ...» واذا ما تملكت تلك الافكار شخصا ما يأتي الفصام ان راسكوليفكوف يريد أن يكون قانونا في ذاته . وهذه حرية زائفة وشوهاء لانها تقوم على رفض المجتمع . ما هذا النوع الغريب من الحرية التي تعطي لي وحدي دون الآخرين . انها الحرية التي يريدها الدكتاتور والمجنون . فالرغبة الانسانية جدا تصبح لا انسانية . والمصير الذي انتهى اليه راسكولينكوف

مصير مأسوي حقيقي لرجل مصاب بالفصام . هنا تكمن الاستحالة الاساسية نحو تحقيق ذلك النوع من الحرية الخيالية التي يطمحون اليها .

وفي رواية («الأبله» يقول دستويفسكي على لسان هيبوليت وهو يحتضر مثلا نموذجيا على التفكير الفصامي «أنا اكرهك يا جافريل اردليا نوفيتش لسبب وحيد وهو انك تعتبر نموذجا ، تجسيدا ، تشخيصا وجوهرا للعادية الانانية الحقيرة الغادرة الوقحة . انت تمثل العادية محفوظة حفظا . انت العادية الأوليمبية التي لا يأتيها الشك . انت روتين الروتين . لقد قدر عليك الا يخطر على فؤادك فكرة جديدة . هل يوجد ما هو أبغض الى المصاب بالفصام من روتين الروتين ؟

وفي ايفان في «الاخوة كرمازوف» نقابل الفصام واضحا أمام أعيننا . وفي القصيدة التي كتبها عن «المفتش العام» يوضح بجلاء ما يجعل الشخص الذي يوصف بأنه روتين الروتين واحدا من القطيع يقول «انك تعد الناس بنوع من الحرية لا يستطيعون ببساطتهم له فهما ، بل يخشونه كل الخشية لانه ما من شيء كان مرهقا للناس والمجتمع الانساني اكثر من الحرية» ويستطرد : لم يتحمل الانسان عذابا أكبر من بقائه حرا لا يجد من يحني الرأس ويركع أمامه . خلال مثل هذا المنظار يرى المصابون بالانفصام الرجل العادي ، المتوسط الذي لا يستطيع ان يتمرد وتتلخص رغبته في أن يصير كالآخرين ، على نقيض الخياليين الذين يعيشون على التمرد ضد التماثل ، والرفض المطلق للالتزامات ، وعدم القدرة على الإذعان والسعي الى الحرية كما يتخيلونها حتى يدخلون في زمرة المجانين .

***

اذا عشت بين مرضى العقل فسوف تستنتج انهم يختلفون كلية عما تصفهم الكتب المدرسية . أنا لا اتجاهل ، بل اعتقد أن ما تتعلمه منها موجود هو الآخر في الواقع وأن تطور المرضى يتفق مع وصف تلك الكتب . غير ان النظرية تأخذ في التحجر بينما تتابع الحياة تغيرها . وعلى سبيل المثال من المعروف ان الهستيريا لم تعد تطابق الوصف الذي اعطاه لها شاركوت M. Charcot في القرن الماضي . من ذا الذي يصادف نوبة هستيرية كبرى Grand mal اليوم ؟ قد تحدث من وقت لآخر لكنها تظل نادرة كقوس القزح . يقول الطب العقلي : لقد تغيرت عبقرية المرضى !. لكن مرض الفصام تغير هو الآخر وكذلك جنون الاضطهاد والصرع . وليس هناك الان ما يسمى بالصرع السياسي الذي تحدث عنه لوبروزو كما تغيرت صفات الصرع لتصبح التشرد والسخط . ونادرا ما يقابل المرء الان ضمن حالات الفصام ما يسمى «بالشخصية المنفصمة» التي وصفها بليبر Bleuber بإبداع فائق ولقد اصبح الفصام في الحقيقة morbus totius Substautiae او المرض ذو الالف وجه والجوهر الشامل الذي ـ

ولنعترف بالحقيقة ، لا نكاد نستوضح طريقنا خلاله . ومن ذا الذي يقابل حالات Paraphrenia اليوم . وحتى جنون الاضطهاد الغير زائف اصبح نادرا . كذلك فان حالات ذهان الهوس الاكتئاب اصبحت في ندرة الفيل الابيض . كيف زفوا تلك الحالات الى أذهاننا في الجامعة !

على أن ثمة وصفا قصيرا يرجع تاريخه الى ما قبل وصف كل من بليلر وكرابلين ، وهو وصف يطابق التطور الذي حدث في حالات الفصام اليوم . جاء ذلك الوصف على لسان بولونيوس حين قال واصفا حالة الجنون المؤثر فيه عند هاملت :

فقد نفر ..
ثم خرّ حزينا
ثم صام عن الطعام
ثم قام يترقب
وانتابه الضعف .. ثم الخفة ثم الانهيار .

وكأن ثمة مئات من النمل تطن داخل جمجمته دون انقطاع . فالخلايا تتخمر وتتحرك وتتمدد وتتقلص اما ما نلمحه من كل ذلك فهو الاتهامات الباطلة، والشكوك التي لا اساس لها والافكار المشوشة التي تتبع بعضها الآخر دون ترابط . ثم «يلقي الشاب بنظرته الى الفراغ ويأخذ في مخاطبة الهواء» . ويبدأ في الهلوسة. انه لم يعد يحيا في عالمنا ، انه لا يناضل ضدنا بل ضد تلك القوى المنيعة التي خلقها بنفسه في عقله . ومن هنا تصبح عبوديته عبودية حقة لانه هو الذي خلق قيوده بنفسه . ومتى دخل الانسان فيمثل هذه المبارزة فسوف يخسر لا محالة. فتراه يحيا كالميت لا يعرف شيئا . لا يرغب ولا يريد أن يرغب ، لا يسأل ولا يجيب ، ويلفه فراغ كبير وينتظر في تبلد كامل الحكم النهائي الذي سيحرره من القيود التي فرضها على نفسه .

وفي نفس الوقت يستمر المرضى في مهاجمة الخلايا . وبعد اختفاء قوة ـ الارادة والعاطفة ، تبدأ القوى العقلية في التدهور . وحين يبدأ المريض في العودة الى نفسه بعد حالة الجمود الشبيهة بالحلم التي استمرت عدة سنوات يجد انه لم يعد نفسه ، بل مجرد غلاف محترق . ولم يعد يتمرد أو يحتج كما لم يعد خائفا او غاضبا لقد احترقت ذكرى الصراع كلية ، وهو يتحمل الحياة في تبلد ويعبر عن امتنانه المتواضع لان الشمس ما زالت تسطع .

* * *

لقد كان القفص الذهبي في جرانج قبل كل شيء مستقرا لهذه النفوس المحترقة ، «المصابون» او غير القابلين للشفاء الذين لا ينتمون الى اي مكان آخر . لقد شتتهم لسنوات بل لعشرات السنوات حوائط الزنزانة المعتمة

وقضبانها ، وقمصان الكتاف ، واواني الطعام وأصـــوات السجانين النابحة . وكذلك الكسل ، والوقوف في الممرات الجرداء ، وخشخشة المفاتيح ، دائمـــا وابدا نفس العدم الرتيب ، ودمر انعدام التلون ما بقي من محتوى ضئيل في خلايا عقولهم . لا ، انها لم تدمر كلية ، اذ انهم عندما نقلوا الى القفص الذهبي نظـر المرضى حولهم في ذهول وبداوا في استنشـاق الهواء النقي . لقد كان الهـواء النقي شيئا غير معتاد بدرجة ما ، الا انه ذكرهم بشيء يوجد لديهم منه ذكرى حية لا تكاد تبين . واخذوا يتحركون في وجل ، يتحسسـون جاروفا ، يلمسون كرة قدم ، يحملقون في جرامافون . وفي الحديقة طرفت عيونهم امام ضـوء الشمس ، واخذوا نوعا بعدم وجود قضبان او مفاتيح او st. gack . ولـــم ينبسوا بنت شفة ، ولم يستجيبوا بحماس لانهم فقدوا الاعتياد على مثل تلـك الاستجابات . وضربوا بالفاس في الارض على استحياء ، فذكرياتهم غامضة . ولم يكن «المقم العاطفي» يسمح لهم بالبهجة . ولكن ما ان يحتويهم ايقاع الحياة. ما ان يصبح العمل والتسلية تدريجيا طريقتهم في الحياة حتى يصبحوا اعضاء في المجتمع الجديد ، ويغزو قلوبهم ببطء شعور جديد وهو : انهم يحسون بأنهم في بيوتهم . وكانت حياتهم الجديدة مليئة بالصداقة والحب ، والمشاجـــرات والمزاح . واصبح العمل لذة والتسلية منهجا . ولسنوات طويلة لم يكن لديهم ما يتطلعون اليه ، فقد كان كل شيء على ما هو عليه دائما . اما الان فلديهــــم برنامج ــ عمل تسلية ، مغامرة ، أمسية ادبية ، أمسية راقصة ، سينما يوم الاحد ، بائع الأيس كريم يوم الاربعاء ، الحمّام يوم السبت ، مباراة كـــرة الطاولة ، لعب الورق ــ او ربما الجلوس في الهواء الطلق فحسب ومشاهـــدة الطيور او ملاعبة القط ، وأن يتحدث الناس اليهم في لطف ، وأن يقراوا اذا شاءوا ، او يسيرون في الحديقة مع نفس محطمة اخرى ، قليلـــــة الحديث . صامتون اغلب الوقت ، وأن يشاهدوا العرض المسرحي الذي يقدمه زملاؤهـــم الاقل اضطرابا حتى دون فهم معناه ، وأن يذهبوا الى النوم متعبين بعد حمّـام المســاء لان هناك عملا ينتظرهم في الغد ، عمل يجب انجازه ــ لماذا ؟ الله وحده يعرف ولكن يجب انجازه لانه بدونه ستكون الحياة فارغة ، وبعدئذ يجب جمع المحصول ، واذا تركناه فسيذهب هباء ــ وسيذهب عملنا هباء وكذلك حياتنـــا وبيتنا . . . من ذا الذي يدري ماذا يحدث في تلك النفوس العقيمة ؟ لا بد انه شيء كهذا في اعتقادي . لم يكونوا يتحدثون عنه ، ولكننا كنا نلاحظ انهـــــم يحسون بالراحة . هل شفوا ؟ لا ، لا اظن ذلك . ولكنهم تحسنوا وهذا انـــا متأكد منه وهو كل ما كنت اتوقعه .

***

كتبت كتابا في الطب العقلي للممرضات . وكان هناك شيء يدعو الى الغرابة

في ذلك ، اذا ما وضعنا في الاعتبار تحفظا بشأن الكتب المدرسية . فالكتاب المدرسي يكتب عادة في المكتب . وهو يتناول بالضرورة الأنماط الشائعة وليس النماذج الفردية . ترى هل يمكنني تجنب هذا الخطأ او سأنزلق أنا ايضا لأعرض قضايا الطب العقلي التي اصبحت عقيدة جامدة .

بالطبع لم انجح تماما . ولكني حاولت في اكثر من موضع أن ازح جانبا من الحياة الواقعية للحالات الفردية . ولقد استطعت ذلك لانني لم أكن أكتب بتكليف ، فقد كنت أكتب لمزاجي الخاص ولمرضاتي .

ورغم ذلك لم يكن العمل سهلا بالمرة . فان ينقل المرء هذه الاشياء الى اناس بسطاء غير متعلمين وان يجعلهم يكتشفوا المعنى الحقيقي خلف الكلمات وأن لا يكتفوا بذلك بل ويستوعبوه ويتعلموه بسهولة نسبية ـ لم يكن ذلك أمرا سهلا على الاطلاق . ولم اكن اظن أن كتابا صغيرا كهذا سيجعلني ابذل كل هذا العرق .

وكان هناك مرضان من اصعب الامراض عليهم من ناحية الاستيعاب وهما الفصام والهستيريا . وكان هذا امرا طبيعيا ، لكون هذين المرضين اعقد فصول الطب العقلي . الى جانب أن مداهما لا حدود له بحيث يكاد يوجد فيهما كل الأعراض .

وفي النهاية القيت جانبا بكل الاوصاف المعروفة في الكتب وحاولت منهجا جديدا . فقدمت المرض . مثل بيضة كولومبوس ـ كما يتكشف أمام اعيننا . وعندئذ حدث امر غريب . لم تفهم الممرضات الفصام فحسب بل فهمته أنا ايضا . فهمت في النهاية ، اكتشفت شيئا كان حتى ذلك الوقت ينقص وصف الفصام ـ وهو الاستمرار Continuity ذلك الجذع الذي تنبثق آلاف الفروع والاوراق من الأعراض .

ويجب ان نلفت النظر الى ان اذهان المراهقة هو اصعب قضايا الطب العقلي. ولا أتصور للحظة انني حللت المشكلة . فقد قال كريبلين عن الفصام كل ما يمكن قوله كما رتبها بلويلر في نظام . وكان بلويلر من الحصافة ليقول أن الفصام هو سلة المهملات التي يلقي فيها الاطباء بكل ما لا يستطيعون تشخيصه . وكان لدينا في جرانج عدد قليل من المرضى وصموا بالفصام من عشرات السنين ـ لان مرضهم ببساطة لم يكن يندرج تحت اي تشخيص آخر . وكان في الفصام ـ كما يظن ـ متسع لكل شيء . ورغم انني لم اكن اظن ذلك ، فلم أكن اعرف بديلا افضل . وبالتدريج تم الوصول الى مرحلة تم الاعتراف فيها بفئتين من الفصام : النموذجي typical وغير النموذجي atypical .

ولم يكن هذا امرا يدعو الى العجب . فالثرثرة التي لا تنتهي فصام ، وكذلك الصمت المطلق . وزيادة الحساسية فصام ، وكذلك اللامبالاة القاسية . والعناد الارادي فصام وكذلك التراخي السلبي . والتفلسف الرمزي فصام وكذلك البلادة الخالصة . والشك او اللامبالاة يمكن أن يكونا فصاما وكذلك الامر بالنسبة للنظافة الوسواسية القصرية او الصد المفرط او الهرجلة او جنون العظمة او الشعور

بالنقص . وبعض الفصاميين لديهم هلاوس وهذاءات بينما لا تحدث لغيرهم من الفصاميين قط . فيظن احدهم انه يذهب شعاعا ، بينما يخترع الآخر اختراعات مستحيلة ، ويتحول ثالث الى العنف دون اي سبب ، ويخاف الرابع دون اي سبب كذلك . ويتجول البعض لا يقر لهم قرار بينما يتجمد الآخرون في أماكنهم كأنهم مومياوات . ويكتب واحد منهم أشعارا شاذة او يرسم صورا غريبة بينما ينسى آخر جدول الضرب . وتظهر لدى احدهم الانحرافات الجنسية بينما تختفي الجنسية عند الآخر تماما . ويمتلىء احدهم بأطماح غير واقعية بينما يستجيب آخر استجابة سلبية لكل شيء . وبينما يرغب واحد منهم في اصلاح المجتمع ، يرفض آخر المجتمع بكامله بل يرفض حتى الاعتراف بعائلته .

وبعبارة واحدة ، يوجد كل شيء ونقيضه في الفصام . ومع ذلك فلا يزال يوجد فيه طابعه المميز الذي يؤكد وحدته التصنيفية ويجعل التشخيص سهلا رغم الكثير من الاعراض المتناقضة . ولا يمكن حتى الان فحص تشخيصات المرض العقلي داخل انابيب الاختبار او تحت الميكروسكوب ومن الملاحظ أن الاطباء الذين يؤسسون تشخيصهم على نتائج الفحص العملي وحده لا يتمتعون باحترام كبير . فبالاضافة الى معرفة المريض والأعراض الذاتية يحتاج الامر الى حاسة خاصة للتشخيص تشمل المهارة والخبرة . وقد أدخل بلويلر طبيب الامراض العقلية السويسري المنهج الى «هيصة» الفصام . فوصف عملية الاعراض بشكلها البسيط ثم تنوعاتها الثلاثة ـ الهيبفرنيا والبارانويا والكتاتونيا . وكانت الأعراض العملية هي اضطرابات التفكير واضطرابات الارادة والانفعال ، وما سبق أن وصفته بأنه «يصبح الانسان قانون نفسه» وهو الذاتية **autish** ـ ويبدأ النمط الهيبفريني في عمر مبكر وبعد احتراق الانفعالات سرعان ما ينتهي الى التبلد التام . وأما النمط البارانوي فيتميز بهذاءات الاضطهاد او العظمة أما النمط الكتاتوني فيتميز بالكتاتونيا الجسمانية والذهنية الكاملة .

وكل هذا سليم وصادق . ولقد تعلمناه كذلك لمدة نصف قرن وعلمناه كما هو، كان المرض كذلك ايضا . وكان الشيء الوحيد الناقص هو العمود الفقري للامر كله . وهو طبيعة العملية ككل . فكانت الانماط الاربعة تبدو منعزلة تماما كما لو كان كل واحد منها لا علاقة له بالآخر . ومع ذلك فقد كانوا متصلين . أن يكون «الانسان قانون نفسه» اي الذاتية **autism** هي السمة الاساسية المميزة للفصام . حجب الواقع ، والتحرق من اجل أسلوب للحياة فريد في حياته واستقلاله ، وعدم فهم العالم ، والانعزال الذي لا يمكن الاقتراب منه ، والانطواء، والعزلة هذه هي المميزات الاساسية للمرض المسمى بالفصام . والذاتية هي الـ **gonus proximus** ، هي الاطار الذي يحتوي كافة الانماط المتعارضة للفصام . وهم ليسوا في الحقيقة متعارضين ولكن مراحل متقدمة او متأخرة لنفس المجرى الذاتي .

ولقد حاولت تعريف ستة من مراحل متتابعة للعملية الفصامية .

١ ــ يبدأ المرض عادة بأعراض مشابهة للنيورا ستينا (الاعياء النفسي) ، ولذلك يمكننا ان نطلق على المرحلة الاولى هذه المرحلة النيوراستينية **Nerastheniform** والنيوراستينيا هي الاعصاب وبعبارة أدق هي الخمود الجسماني والعقلي. فالشاب الذي كانت لديه عقلية سليمة وقدرة على العمل حتى تلك اللحظة تميد الارض تحت اقدامه ويصبح مترددا شديد الاحساس بنفسه **self concious** ، تقلقه مشاكل ميتافيزيقية بدلاً من الالتفات الى عمله . وتعذبه مخاوف لا اساس لها ويتخذ عادات قهرية . تزداد شكاواه الجسمانية . فهو متعب ولديه صداع ومتاعب هضمية ، وهو عديم النوم ويحس دائما بالدوار ويضعف بصره وتشتد ضربات قلبه وهو يبالغ في كافة هذه الاعراض مثله مثل متوهم المرض . ويصبح قليل الحيلة بدرجة متزايدة تمثل نفسه بالقلق ويوقف عمله ودراسته . ويدير ظهره لأسرته واصدقائه وينطوي على نفسه ولا يهتم بالعالم وتزداد حساسية وقابلية للاستثارة والكآبة .

وغالبا ما تفوت ملاحظة هذه المرحلة على الطبيب . فان المريض لا يلجأ دائما الى الطبيب ، وحتى اذا فعل ذلك فان شبح الفصام المشؤوم لا يمكن ادراكه الان ويأمل الطبيب ، مثل بقية أفراد العائلة ، أن تكون المسألة ضعفا مؤقتا في الاعصاب يمكن شفاؤه بتغيير الجو وتناول بعض المهدئات .

٢ ــ ويثبت عدم جدوى العلاج ، ويتفاقم المرض . ويتخذ حديث المريض شكلا مفككا لا رابط بين أجزائه ــ ويدّعي ان الجميع قد انقلبوا ضده ، وانهم يحاولون ايذاءه واضطهاده وقتله ودس السم له . كما يكشف حديثه عن مبالغة في تقييمه لنفسه .

وهذه هي المرحلة البارانوية من الفصام بما يصاحبها من هذاءات العظمة والاضطهاد . وتتميز بالاتهامات ، اذ تمتلىء نفس المريض التي تفاقمت حساسيتها بالشك والعداوة .

٣ ــ ثم يبدأ التركيب الفصامي الكلي في الاتضاح بجلاء . فيتعرض تفكير المريض وكلامه الى المزيد من الاضطراب . ولا يعود في الامكان فهم المضمون الصحيح لاتهامات المريض افتتانه بنفسه . وتتحول الهذاءات الى شذرات عديمة المعنى ، فالمريض يتكلم دون روية او تعقل ، ودون تسلسل منطقي . وهو غالبا لا يهتم بالمعنى بقدر اهتمامه بإيقاع الكلمات ، فنجده يكرر تركيبات من الكلمات عديمة المعنى ، ويأتي بأقوال رمزية ، ويعزو الى كلماته وكلمات الآخرين دلالات سرية . وهو يرى الرؤى ويسمع أشياء أحيانا ــ هلاوس «الاشماع» في الاغلب الاعم .

في هذه المرحلة من انحلال الشخصية يصبح اضطراب التفكير كاملا (مرحلة البله **Amentiform Stage**) . ان كلام الفصامي الهجاسي عبارة عن جنون مطبق ، وان كان لا يفتقد التسلسل ، اما في مرحلة البله فان التسلسل ينعدم، او يصبح ملتبسا ، من الصعوبة اقتفاء آثاره .

٤ ـ ان المريض الذي ظل حتى الان متفرع الوجوه يغدو اشد كآبة وأكثر غما. فيزيد عزوف المريض عن الكلام ، بل والاتصال . انه لا يهتم بأسرته او بالاحداث الخارجية ، ولا يعبر عن اية مشاعر ، ويرغب عن اي شيء ، ويفشل حتى في التعرف على اسرته : ولا يبدي الفرح او الحزن، كما لا يبدي الحب او الكراهية. ويتلو ذلك اعتقال الانفعالات ـ الرفض العنيد للعالم ، الذي يبدو للمشاهد الخارجي في شكل كآبة . ويعيش المريض حياة داخلية ، فيصرف عقليا عن العالم . لا يريد شيئا مشتركا بينه وبين العالم ، ولا يهتم بأي شيء . انه بارد جامد ، لا يسفر عما يدور في عقله . غاية ما هناك يتمسك ببعض الصيغ المتعارف عليها ، يكررها في خشونة وبلا مشاعر .

ويطلق على هذه المرحلة الرابعة من مراحل المرض ، مرحلة اللامبالاة ، واهم خصائصها أن المريض يغدو «قانونا في حد ذاته» .

٥ ـ ويعقب ذلك تحول غريب . يشعر المريض كانه في حاجة الى اقامة حاجز مزيف بين ذاته وبين العالم ، فيغدو سلوكه ضربا من اللوازم الشخصية قوامها الطقوس الجامدة والحركات البطيئة او السكون وتعبيرات الوجه . واللغو المتواتر او الصمت المطبق . انه يقف في احد الاركان ويظل يهتز الى الامام ، ويومىء برأسه ، ويخطو خطوات موقعة ويفرك يديه او يقف في انتباه شديد بوجه خلو من التعبير ، او يرقد في سريره بلا حراك لا يحتج ولو بكلمة على ما يحدث له . ويطلق على هذه الحالة اسم **الكتاتونيا** Catatonia ، وهي في جوهرها ضرب من الجمود العقلي والفيزيقي واللازمات الشخصية manneism .

٦ ـ ثم يحدث تدهور عقلي خطير . فحين ينتهي الجمود الكتاتوني الى الارتخاء ، ويصبح في وسعنا الحديث مع المريض من جديد ، نجد انه فقد معظم معلوماته المكتسبة ، وقل تماسكه العقلي ، واختلت ذاكرته ، وتشتت انتباهه. بعبارة اخرى يتحول تدريجيا ليغدو معتوها demented .

ومع العته ، يصبح المريض اشد كآبة . فتتلاشى الاعراض المتنوعة وتذوب غرابة الاطوار ، وتسيطر اللامبالاة الباردة على عقل المريض المعتوه .

***

نتيجة الانهباط المرضي Neuratsh enifahm Inertia الحساسية الزائدة الهجاسية Paranoid hypersensitivity والشعور بالقهر ، التشتت الأبله Amenti form confusion اللامبالاة الاجترارية antistic indifference ، ثم العته الكامل في النهاية تلك هي خطوات مرض الفصام . ولا أزعم ان هذه المراحل الستة يمكن مشاهدتها في كل حالة . فكل المرضى لا يمرون بالضرورة بكل هذه المراحل . ان الفروق الكبيرة بين الافراد الفصاميين ـ وهي فروق هائلة تتأتى من أن احدهم يصل الى عتبة المرحلة الاولى فحسب ، فيسفر عن اعراض

شبيهة بالانهباط المرضي (احيانا لعدة سنوات كأمير الحزن مثلا) بينما يصل آخر الى مرحلة الهجاس ، او البله ، او اللامبالاة ، وربما الى حالة الجمود الكتاتوني او العته الكامل . والمريض لا يبلغ الحالة الاخيرة .. «حالة العته» مارا بالضرورة بكل المراحل الاخرى ، وانما في اي مرحلة فهناك معتوهون منهبطون مرضيا ، وممتوهون هجاسيون ، وحالات من المعتوهين البلهاء وهكذا .

السؤال هو هل يمر كل مريض فعلا بهذا التسلسل العام ، ام يتخطى مرحلة او اكثر .

لا أعتقد بوجود ابتماد جوهري عن هذا التسلسل برغم انه ليس هناك ثمة شك في ظهور بعض سمات مراحل سابقة في المراحل المتقدمة فمثلا تتضح في ثنايا الحديث المضطرب للمريض في مرحلة البله بقايا الاتهامات الهجاسية ، او نلاحظ آثار مرحلة «المريض قانون في حد ذاته» في فترة الجمود الكتاتوني .

ويبدو من المحتمل ان يبدأ الفصام عامة بأعراض الانهباط المرضي ، ثم تتلوها الاعراض الهجاسية ، وهكذا ، وانما تختلف حدة المراحل المختلفة اختلافا بينا . واحيانا لا يسترعي انظار الطبيب الانهباط المرضي فحسب ، وانما مرحلة الهجاس ايضا ، او ربما يصبح في مقدوره تبينها فيما بعد خلال الوقائع العابرة او الذكريات . ومن ناحية اخرى فكلما كان الاستعداد الشخصي الذي يسبب الانهباط المرضي او (وهذا اكثر حدوثا) مرحلة الهجاس قويا نسبيا ، كلما قل اتضاح أعراض المراحل التالية كلية او لم تسفر عن نفسها اطلاقا . وتحدد خواص الجهاز العصبي للفرد اي مرحلة من هذه المراحل العديدة هي التي ستحكم الكائن .

ولقد يخلق هذا التحديد لنسق المراحل الستة انطباعا بانها مراحل متميزة تماما . ولكن هذا ليس صحيحا . ويجب ان نؤكد **استمرارية العملية** . فهي مراحل متداخلة ، بينما تذبل اعراض الانهباط المرضي ، فتزداد أعراض الهجاس تأكدا ، عندئذ لا تعود تظهر الا آثار من أعراض الانهباط المرضي ، ويبدأ البله في الظهور . ومع ذبول اعراض الهجاس ، يزداد اتضاح التفكير الاجتراري **autism** حتى يبلغ ذروته في الكتاتونيا حتى تختفي كل هذه الاعراض بظهور العته التدريجي .

ما هي العلاقة بين نظرية المراحل الستة وتصنيف بلويلر ؟ ان بلويلر يفرق بين الفصام البسيط ، وبين انواعه الهجاسية والكتاتونية والهيبفرينية . ويتماثل الفصام البسيط مع المرحلة الثالثة والرابعة ، أما النمط الهجاسي فيتماثل مع المرحلة الثانية ، والكتاتوني مع الخامسة . ويبدو أن النمط الهيبفريني عبارة عن نوع سريع من الفصام يعبر المراحل ركضا دون توقف عند المراحل ليصل الى العته الكامل في سن يكون للاسف مبكرا . وغالبا ما يتم تشخيص مرحلة البله باعتبارها سيكوباتية فصامية او عصاب قهري **Neurvos compulsion** نظرا لانه اذا تحول المريض الى حالة قاصرة **Defective** في مرحلة الانهباط المرضي ، لما

استطعنا الحديث عن الجنون الا بصعوبة .

فماذا عن الشخصية المنفصمة الذي استمد الفصام اسمه منها ، والتي يعتبرها بلويلر نواة المرض ؟ ماذا عن الثنائية ، والشخصية المزدوجة ذات الوصف المألوف لنا جميعا في المراجع ؟

اذا نحى المرء الحالات الكلاسيكية التي تتضمنها المراجع جانبا واستقى من الحياة الحقيقية فانه مضطر ان يقرر ان الشخصية المنفصمة قد عفى عليها الزمن ، انها قد توجد أحيانا (حالة لويس لافتر في الجرانج مثلا) بيد ان هذا امر شديد الندرة ويدعو للدهشة . لقد لاقت الشخصية المنفصمة مصير النوبة الكبرى Grand Mal في «الهستيريا» التي ذكرها شاركوه ، فنحن نتعلمها ونعلمها . ولكن لا نلتقي بها الا نادرا .

ويعتبر الفصام مرضا عضويا ، مرضا لا يزال مصدره مجهولا لنا يصيب خلايا الدماغ . لماذا يندلع بسرعة احيانا وفي أحيان أخرى يأخذ مجراه ببطء ، تنطمس الفروق بين مراحله احيانا ، ويتحرك احيانا بسرعة ووفق مراحل محددة بوضوح، كل هذه اسئلة لا تزال تعوزها الاجابة ، لماذا يشفى تلقائيا أحيانا ، ويقاوم انجع انواع العلاج في احيان أخرى ، لماذا يتواتر حدوثه في بعض العائلات ، بينما ينفجر في مكان آخر من الجنون الوراثي . لا يزال الفصام مرضا غامضا ، وسلسلة الأحاجي لا نعرف عنه الا اقل القليل ، على الرغم من اكتشاف عملية المراحل الستة . واعتقد احيانا أن فروضنا الحالية قد تكون خاطئة في مجموعها، واننا نجهل جوهر المرض .

ولقد يكون مناسبا تدعيم هذه النظرية بالحقائق ، على الرغم من ان عملية المراحل الستة ليست نظرية بقدر ما هي مجرد تهاويم ناسك في (الجرانج) ، تعتمد على ملاحظاتي عن المرض . وبتعبير اكثر دقة ، لقد تعلمت النظرية من المرضى انفسهم . فلنعرض أمثلة قليلة عن هذه المراحل الستة .

يسهل وصف المرحلة الاولى اذا تذكرنا أمير الحزن ، فهو حالة متبلورة جلية من ذهان الانهباط المرضي . فحين يظل امير الحزن واقفا الى جوار سريره عدة ايام يقاوم ما تسلط عليه ويقي نفسه من الامراض المزعومة ، وحين يرتعب من مجرد اقتراح بالقيام بعمل ويشعر بالتعب من التفكير في ذلك ، وحين يكوم الاحزان فوق الاحزان في قصائده ، وهو مقتنع بعجزه عن العيش ، معلنا انه سيرقد على العشب في احد الايام ليموت ـ كان في كل ذلك يعاني من الانهباط المرضي بصورة مضخمة لا تجعلنا نشعر بالارتياح اذا ما شخصناها بأنها مجرد «ضعف في الاعصاب» فهناك ما هو اكثر من ذلك الامر الذي يؤكده «تفلص الشيطان» وإيذاءه لنفسه وهلاوسه العرضية . كان يحاول الاحتفاظ بهلاوسه سرا ، وحتى حين يعترف بها ، كان يعلم جيدا انها مجرد هلاوس ، ولم يخلط قط بين الواقع وعالم الخيال . فكان يطلق عليها اسم «الفيبوبة الشاعرية» مقتفيا اثر بقية الشعراء العظام كفرلين وبو وهوفمان الذين خبروها . وكان ثمة ايضا اضطراب

هجاس خفيف ولكنه ملحوظ في تقديره لذاته ، كحديثه عن الرواية التي يكتبها، او حين يشير الى نفسه بكل تواضع باعتباره شاعرا عظيما ، على الرغم من أن الشيء الوحيد غير المألوف في هذا التقدير المبالغ فيه للذات هو أن شاعرنا يعبر عنه بصوت عال بينما يحتفظ زملاؤه بذلك في أنفسهم .

ظللت لا استطيع تشخيص حالة شاعرنا ، حتى اكتشفت نمط المراحل الستة . فلقد كان مرضه أكبر من ان يكون انهباطا مرضيا ، وأقل من ان يكون فصاما . لم يكن يعاني من الانفصام او التداعي الخلطي او اضطراب الكلام او الحساسية الزائدة او تبلد العواطف بالصورة المألوفة ، وبعبارة اخرى كان خلوا من الاعراض الرئيسية . ورغم هذا فقد كان فصاميا . في المرحلة الاولى من الفصام ، ولكنها استحالت الى حالة قاصرة defective اعتبارا من هذه المرحلة الاولى .

بدا هذا غير مألوف ، فالعملية لا تتوقف بعامة عند هذه المرحلة. لكن فيوسعي تذكر حالات مشابهة . ويبدو أن هناك ثمة ارتباطا بين صناعة الشعر وبين هذا الضرب من المرحلة . واذكر في هذا الصدد حالتَي شاعرين آخرين . اولاهما الفتاة الشابة التي كانت حالتها تسبق امير الحزن بمرحلة والتي كانت أشعارها بمثابة أمثلة تقليدية للتفكير الفصامي . كانت هي التي علمتني ان المصحة المغلقة بمثابة قوت الجمال ، وان الجمال يموت اذا لم تروه الدموع ودفقة الحب . ومنها استعرت اسم «القفص المموه» . اما الشاعر الآخر فقد تعلم عني . فلقد تصادف لسوء الحظ أن قرأ في واحد من كتبي عن الوراثة والصبغيات ، الامر الذي جعله يعتقد ان جده ــ وليس هو ــ هو المسئول عن مرضه العقلي . فكتب في ذلك قصيدتين :

تعلمت في المساء في احدى القرى
في حجرة صغيرة ، مع التنهدات
ان جدي هو السيد
سلفي السكير ، لا انا
اعرف الآن ان جدي
يضطهدني ، رغم انه مات
ويحدق فيّ بعينين زجاجيتين
ويرقص على قمة راسي .
ذات يوم سأغادر غرفتي عند الفجر
وقد عزمت امري
وسأرتقي التل في تحد
حيث أوجه اللطمة لجدي
ولكن ربما لا يهم

اذا لم يوجد تل ـ فلست أطلب سوى غرفة
فسيحة غير مفروشة ، استطيع فيها
ان أخرج من ذاتي ، في قتامة المساء
يجب ان اشكر الله لهذه المعرفة
التي ازعم انها نصف الشفاء
وان أعرف ان كل ما اعانيه
يلقي باللائمة فيه على سلفي .
ان اعرف انه حين **الوحش المفترس**
ذو الصرخة الطويلة الحادة المنبعثة
يجعلني انطلق في وهدة الليل
فانه جدي وليس انا .
والآن سأقول ما اعرفه انا بمفردي
اذا هاجمني مرة اخرى معولا
فلن استطيع ان اصارع من هو انا
لذلك فأنا أكتب اشعاري على الماء ..

في وسع المرء أن يفهم بعض ما يسميه العلماء بالانفصام او الثنائية ، **فحين** «تنفصم» الروح ، ينطلق الشخص الآخر ، المرعب من الاعماق ، الآخر الـــذي ليس أنا ولكنه أنا .. ان الشيء المخيف هنا أن الشاعر لا يعرف حقا أيهما هـو الذات الحقيقية .

واضحة وضوح النهار وعباءة الليل السوداء
هي حالتي ـ فصبفياتي تتهددني بالفناء .
لا ـ ذاتي تعذبني بالليل والنهار
ولا استطيع دفع المعاناة ما دامت قدري .
ثمة ذات ثانية في داخلي
تقتل ذاتي الحقيقية ، وهي في الواقع
قد قتلتها تقريبا ، وما افظع أن أشهد ذلك
انني احبس انفاس واشهد صيحة المنتصر .
تحتدم المعركة بيني وبين لا ـ ذاتي
واحدة من الاثنين يجب ان تمحى ، يا للمحاولة !
فالصراع سيدمر روحي
ولذا أفكر في الموت كثيرا .
وحين تستسلم احدى الذاتين أخيرا
فمن المؤكد **أنني** سأكون قدمت
وحتى ينتهي قلق تحطم الاعصاب
أريد أن أعرف جواب السؤال ـ من انا ؟

ان المرء هنا يساوره الاحساس بانه لا توجد ذاتين فحسب وانما ثلاثة ، الثالثة هي تلك التي يرعبها مراقبة ما اذا كانت الذات او الذات الثانية هي التي سوف تنتصر . لم افكر في شيء كهذا من قبل . فالفصامي لا يعذبه الصراع المحكوم عليه بالفشل بين شخصيتين فحسب ، وانما يزيد فيتعذب من جراء عدم استطاعته معرفة اي الشخصيتين هي الحقيقية . لقد تقبل الاثنين ، لكن الشك يسلمه لليأس .

كان مؤلف القصائد يناهز الاربعين . ابن رسام شهير ، وكان من المقدر ان يكون رساما موهوبا لو لم تتصارع ذاته مع الذات المغايرة في داخله . وهكذا ظل مضيعا في العالم ، محملا بالشكوك والقلق ، عاجزا عن التوافق ، يشرع في انشاء قصيدة او لوحة . كان احد اولئك الذين خبروا الانفصام وثنائية الروح بجلاء .

أذكر مدرّسة بيانو ظلت مثبتة على مرحلة الانهباط المرضي من مراحل الفصام. كان اخراجها من سريرها امرا اشد صعوبة منه بالنسبة لأمير الحزن . وكان عجزها عن الحياة شديدا لدرجة انها كانت تهمل شقتها لأيام دون تدفئة ودون أن تأكل نظرا لافتقادها الى القوة الدافعة لتعنى بضرورتها الاساسية .

بيد ان هؤلاء المرضى المثبتين على مرحلة الانهباط المرضي لا ينهضون دليلا في الواقع على نسق المراحل الستة . وانما يأتي الدليل من أولئك الذين كان الانهباط المرضي لديهم مجرد نقطة البداية . وعلى الرغم من ان قلة منهم وصلت الى مصحة العلاج بالعمل ، الا ان (الجرانج) كان يضم بعض حالات منهم .

فهناك مثلا أيوجين ميكانو ، الذي يبلغ من العمر الرابعة والثلاثين . اتم المدرسة ، وعمل ميكانيكيا ، وتنقل بين عدة مصانع . كان انطوائيا لا يهتم بالصداقة ، مفضلا العمل او القراءة . ومنذ عشر سنوات مضت غدا اكثر اكتئابا، وعاجزا عن التركيز ، فأهمل عمله ، ودهمه شعور بالخوف فأصبح نومه مضطربا، يفكر في الانتحار ، ويزيد فيشرع فيه مرة . أودع بمصحة عقلية . كان يتكلم بذكاء ، وان كان شديد الانطواء والاكتئاب . يشغله مصيره المحزن كما يقول طيلة الوقت ، ويعتقد انه مريض لدرجة تقعده عن العمل او تكوين أسرة . كان خلوا من الهلاوس والهذاءات . وكان يظل مستلقيا في فراشه طيلة اليوم ، لا يكلم احدا، خجولا ومتشككا . كان يشعر بوطأة الحياة ، يفتقد الاهتمام او الحماس لاي شيء . يشعر بالتعب ويعذب ذاته ـ بعبارة اخرى كان متشبعا بأعراض الانهباط المرضي .

كان هذا هو الموقف منذ خمس سنوات خلت حين بدأ العلاج الفعال . ونتيجة للعلاج ، تحسن مزاجه بعض الشيء ، فرغب في العمل ، واظهر بعض الاهتمام بالعالم ، ولكنه لم يتغير تغيرا اساسيا . اقبل وشرع في العمل ، ولكنه امتنع بعد اسابيع قلائل وظل لا يصنع شيئا لمدة اربعة اعوام . وزادت حدة اعراض توهم المرض لديه بصورة غير مفهومة ، وضعف بصره الى درجة انه لم يعد في

وسعه سوى قراءة الحروف الكبيرة . وتخدلت قدماه من الجلوس ، فكف ايضا عن القراءة ، (كان في الواقع يعاني من قصر النظر البسيط ، ولكنه قادرا على القراءة جيدا ، ولم يكن ثمة مرض في قدميه) . وزاد قلقه من المرض تضخما ، كان يضمن وصفه للأعراض نظرات موحية وإشارات ذات «ايحاءات» غريبة ، فهو لا يمكن علاجه الا في السفارة السويسرية على حد قوله . وكان يذكر أنه تـرك العمل لأن رئيسه قال عنه ظلما «ليس في وسعي العمل مع مثل هذا الرجل» . وكان ذلك غير صحيح ، فالرئيس لم يقل شيئا كهذا ، ولكنه ظل على اعتقاده بانه فصل من العمل .

كان هذا هو تاريخ حياته حتى وصل الى (الجرانج) .

كان ذكاؤه وذاكرته لا يخطئان . وقدم إجابات صحيحة على ما قدم له من اسئلة ، وكان هادئا ، متحفظا مفرط الادب . انه لن يعمل ، كيف تسول لكم انفسكم شيئا كهذا؟ ولكن حين دفع اليه ببعض العمل في ورشة الميكانيكا ، تقبله واداه جيدا . كان يستريح اكثر مما يعمل ، ولكن على الرغم من بطئه ، فقد ادى عمله . ولكنه كان يجلس احيانا لساعات او ايام مكتفيا بالتحديق «والاستراحة» . وفي المساء كان يقف ، شأن امير الحزن ، الى جوار سريره ويستغرق فـي السرحان . «أحب ساعات الليل» هكذا كان يقول على استحياء حين يطلب منه ان يأوي الى فراشه . وطلب من امه بعض المراجع بالانجليزية والاسبانية ، وانتحى جانبا بعيدا عن اي شخص آخر وعكف عليهم ، ولم يعرف ما اذا كان يدرس فعلا . ولمدة قصيرة خطب سيدة ، كان خجولا ومتحفظا ، بل ويعاني في محضرها ، كان يراقصها ويخرج معها للنزهة ، وهذا امر له دلالته نظرا لانه ظل لمدة عشر سنوات بلا علاقات نسائية . كان الان يرغب في الزواج ، ولكن سرعان ما فقد الشجاعة وامتنع عن الاهتمام بأي شيء . وظل قادرا على تقديم إجابات ذكية على الاسئلة، وان أصبح اشد غموضا عن ذي قبل . كان يرتسم على وجهه ثمة ابتسامة توحي بالغموض . ولم يكن يأبه للعلاج بالصدمات تحت تأثير المخدر ، وان كانت حالته تتحسن مؤقتا نتيجة له . وذكر ذات مرة بصورة اقرب للعدوانية اننا لا نملك حق علاجه بالمجر نظرا لانه مواطن اجنبي ، ثم كتب رسالة خطية للسفارة السويسرية، يشير فيها الى بعض الاخطاء التي اقترفها في نهاية الحرب ، والتي يرغب فـي التكفير عنها الان بأن يهب جسده لبعض أوجه التجارب الطبية . وظل بعد ذلك في انتظار الاجابة وهو يرقب المحيطين به متشككا ، ومسفرا عن سمات هجاسية متزايدة . اصبح متشككا وغير قابل للتعامل ، بينما تجمدت البسمة الصينيـة على وجهه .

بدا كأن مرحلة الانهباط المرضي قد اكتملت ، وبدت علامات الشك الهجاسي واضطراب مرحلة البله في الظهور . هذا خطاب للسفارة السويسرية خلو مـن اخطاء النحو والكتابة .

«يا صاحب السعادة ! في السابع والعشرين من مارس ١٩٥٠ زرت السفارة

للمرة الاولى لاعبر عن احتجاجي على الاعتداء الاجرامي على شخص ، وأطلب حماية السفارة ازاء تكرار مثل هذا الاعتداء المحتمل .

وانني أعرف الان ان وجودي هناك وذلك الاعتداء الوقح القاسي من جانب اشخاص غير مسئولين يقيمون في المجر موجه ضد سعادتك وضدي علما بأنني في ذلك الوقت كنت عاجزا عن الوقوف على قدمي ، ولو للفترة القصيرة التي قضيتها هناك ، وكانت قلة من الزوار غير المسئولين في حجرة الانتظار يضحكون امـــام عينيّ المحمومتين .

يا صاحب السعادة ، اعرف ان الامة المجرية ليست هي المسئولة فحسب عن هذه الواقعة ، ولكنني اشعر بمسئوليتي الشخصية . وكتعويض عن ذلك أقـدم شخصي بلا مقابل للطب السويسري ، ليختبر في دواء او اكثر .

في انتظار ردكم ، دمتم لخادمكم المتواضع ...»

وطلب في خطاب آخر من السفير السويدي ان يرسل له «دعوة سويدية للعلاج» قائلا انه تقبل في عام ١٩٤٦ بعض الملابس من احـــدى جمعيات الاحسان الاجنبية ، ومنذ ذلك الحين وهو يتردد على المستشفى فريسة للمرض ، ولكن ربما يمكن علاجه بالخارج ، واعلن انه تخلى عن جنسيته المجرية ، ولكن لم تقبله اي دولة اجنبية . «يا صاحب السعادة ، انني استغيث بك ، فربما لا زلت قابلا للشفاء . . »

كان المريض الوحيد الذي يحادثه ايوجين ميكانيك هو جوليوس فيز الذي كان يعاني من فصام الانهباط المرضي ، والبالغ من العمر اربعة وثلاثون عاما ايضا . كان يعمل ميكانيكيا للادوات الطبية وكان ذا خبرة عظيمة تفوق خبرة ايوجين . وكان مرضه بدوره قد بدأ مع بداية الاربعينات في شكل قلق وعدم استقـــرار متزايدين . كان يعاني من الخدل ، في حالة كامنوم اشبه بمن يسير في حلم . كان يتحاشى الناس ويرفض العمل يعيش على العقاقير ولا يكف عن الشكوى من امراض متوهمة . وتنقل من مصحة الى اخرى . وتزايد الليبيدو لديه في البداية ثم انعدم تماما .

وحتى عام ١٩٥٠ ظل يعمل جيدا بصورة ما ، ثم ظهرت عليه اعراض حوازية هجاسية غريبة . فكانت تروي عنه في المصنع قصص مرعبة وتسعى الشرطـــة لاعتقاله ، ولا يقدمون له المواد اللازمة للعمل .. الخ . وتنقل في العمل بين اربعة اماكن على التوالي وتركها جميعا . وحين اودع احدى المصحات العقلية عام١٩٥٣ كان قد غدا سلبيا وعاجزا عن العمل منذ وقت طويل . كان سلوكه مترددا وشاكا وقلقا . ويشعر بالمرض ، وثمة شيء يطن في رأسه ، ويصرخ في أذنه . وظن انه من المحتمل أن السم قد دس له في طعامه ، وان كيانه قد اضير نتيجـــة اشعاع قوي التردد ، «راس يشدها شيء كهروفيزيقي» ... بعض الناس يهمهم تدمير صحتي» . ورفض الافصاح عن ذلك . كان تائها ، قلقـــا ، مضطربـــا ، وعدوانيا أحيانا ، خجولا ومتحفظا أغلب الاحيان . كانت متاعبه يصعب ترجمتها

الى كلمات ، فهو يشعر بانحراف الصحة ، وبأن الجو المحيط معاديا له ، ويعاني المخاوف ، فالناس يحدقون فيه بطريقة غريبة ، ويتوقعون منه شيئا ، ولكنه لا يستطيع تبينه . كان متعبا ، متعبا ، دائما متعبا .

وحين اودع (الجرانج) ذكر كل ذلك بالضبط وبتفصيل كبير . كان يستطيع التعبير عن نفسه بوضوح ، وكانت ذاكرته جيدة (على الرغم من انه ذكر أن «ذاكرتي منعدمة») . وكان ذكاؤه لا يخطىء .

كان مرضه واضحا ـ بداية انهباط مرضي مع مصاحبات هجاسية . ثم اختفى ذلك ، وان ظل الانهباط المرضي باقيا ، مع رغبة في العزلة الاجترارية غدت مسيطرة . نجحنا لبعض الوقت في دفعه الى العمل ، فتوفر في جد ومهارة ، بمصاحبة ايوجين ميكانيك ، على عمل عربة يد صغيرة ذات اربعة عجلات في ورشة الميكانيكا . وحين انتهيا من عملهما الخلاق ولم نستطع تكليفهما بمهمة اخرى لعدم توفر الخامات ، غرق كليهما في خمول الانهباط المرضي .

كان هذا المثال اول ما بصرنا بأن العلاج الشافي يتأتى بالعمل الخلاق .

وتعتبر المرحلة الهجاسية اكثر وضوحا . فهي تتميز بأفكار التلميح Ideas of reference ، اي التفسير الذاتي لكل شيء ، والشك والاتهامات والهذاءات . انها تتسلل بعامة من الاعماق في بطء ، ثم تنتشر في العقل الشعوري واللاشعوري . وفيما بعد تختفي السمات الهجاسية ، وتتبقى آثارها فحسب ، في المرضى الذين يتوقف فصامهم عند المرحلة الهجاسية .

كان لدى الميكانيكيان آثار من الأعراض الهجاسية ، وان غلبت السمة الانهباطية المرضية على مرضهم . ولكن الموقف يكون معكوسا بالنسبة لبعض مرضانا ، فيصبح الانهباط بمثابة خلفية للهجاس ، كما هو الحال بالنسبة لصديقي الذي كانت «تسلط عليه الاشعة من خلال جهاز» والذي سبق أن وصفت حالته بالتفصيل . كان ذكاؤه على ما يرام ، ولا يضطرب تفكيره في كل المناحي الاخرى، لكنه يظل متشبثا بعناد بهذاء الاضطهاد ، فغذاؤه يتم افساده ، ويبقى هو فريسة الاشعاع من خلال جهاز . وحالة اليكس الاسكافي من الحالات المشابهة . كان في وسعه أن يتحدث بذكاء في اي شيء ، وكان يصنع نعالا ممتازة للاحذية . ولكنه لاحظ ان عملاء **خطيبته** يطاردونه في كل مكان ، حتى دورة المياه . فلم يكن يجسر على الاكل ، لان **خطيبته** سممت طعامه ، وهذا يبدو جليا من وجود هذه الفطائر التي سبق ان اعدتها له خطيبته ذات مرة . وكانت قيادات الحزب ايضا تضعه تحت المراقبة . وكانت المصحة التي أقام فيها من قبل مثابة للجاسوسية الدولية . وكان اخو زوجته يرسل اشارات سرية ، وثمة مادة كيماوية وضعت في ساعة حانوت الحلاقة لاختباره . وكان يسب اعضاء المجلس البلدي ، فهم نازيون يسعون لدماره نظرا لانه كان شيوعيا منذ حداثته . الناس يتجسسون عليه من الناحية السياسية ، وله أعداء في الحزب ، يقدمون المساعدة لمن لا يستحقونها ويضطهدونه هو .

وشكا مريض آخر بالهجاس من أن امرأة من الجيران ظلت تتعقبه منذ طفولته (على الرغم من انه قابلها منذ عامين مضيا فقط) ، فقد دفعت بفتاة شابة «لتغوص في عمق في عقله» بغية اثبات انه منحرف جنسيا . وقد حاولت في احدى المناسبات أن تؤثر عليه عن طريق غلام صغير ، وعن طريق اخيه في مرة اخرى ، وكانت النتيجة انه بلغ حالة من «الاختناق» . ان هذه الجارة «تدس أنفها في حياته» بسبب المجوهرات ـ لقد كان من المقدر ان يرث المجوهرات عن جدته فيما لو ولد فتاة ، وهذا هو السبب في ان الجارة تطارده بحبها . ولكن كيف يتقبل حبها على حين يعلم تماما انها قتلت طفلة في الثالثة من عمرها ، بل وقتلت خادمتها ، وكذلك أباها وامها ، «ثمة دم مسيحي في هذا ، كما تعرف» هكذا كان يقول في غموض . واعترف في لحظة اكثر صفاء انه يعرف الجارة المرعبة بمجرد النظر فلم يسبق أن تبادلا كلمة . بيد أن هذا لم يزعزع اعتقاده بأن المرأة تتعقبه حتى الى هنا في (الجرانج) ولذلك فقد طلب مني في ادب ان أعيده الى بودابست ، حيث يصبح في وسعه الدفاع عن نفسه بصورة افضل . ولقد رأيته فيما بعد في ليبوتميزو يقف كالمشدوه ، وقد شمخ براسه في الهواء ، وضم فمه ، كما كان يبدو في الجرانج ، وأسر اليّ بالحقيقة التي تدعو الى الاشفاق ان جارته لا زالت تدس انفها في مصيره .

نحن عاجزون بأزاء هؤلاء المرضى ، لقد اغلقوا على انفسهم قفصا ، لا تنفع معه الكلمات .

ما الذي يمكن صنعه مثلا مع ذلك المعدّن الذي لا يجانب سلوكه الصواب ، والذي يتحدث في منطق سليم وبذكاء فائق في اي موضوع ، ولكنه لا يستطيع أن ينتزع من رأسه فكرة انه موضوع «لاختبارات اشعاعات التفكير» المسلطة عليه ؟ وأن الناس «تتسمع» افكاره . وانه يلاحظ ان الجميع يهزأون به ، فهذه مريضة مثلا تؤكد في يوم الجمعة أننا في يوم الخميس . متعمدة أن تسخر منه ، فالجميع يعتقدون انه لا يعرف في الايام . كان متشبعا بمثل هذه التفاسير التي تحور كل ايماءة خارجية فتنسبها الى ذاته .

وهناك قلة من طلبة الجامعة سقطوا صرعى أعراض الانهباط المرضي ، ولم يكن الجزم باندلاع الفصام لديهم ممكنا الا عقب ظهور اعراض الهجاس . كان بعض البسطاء يعتقدون ان صعوبة الدراسات الجامعية قد اتلفت اجهزة هؤلاء التلاميذ العصبية . ولكن الاشد احتمالا ان فصام المراهقة يندلع فيهم بين سن الثامنة عشر والعشرين حتى اذا لم يتوفروا على دراساتهم .

كان جس ليبينكاي مثلا ، قد شرع في دراسة القانون ، وفي البداية كان كل شيء على ما يرام . ولسوء الحظ استجوبته الشرطة عدة مرات في موضوع لا يخصه . فاذا تردده واضطرابه يزدادان ، ويقطع دراسته . ثم يظهر عليه هذاء اضطهاد هجاس مؤداه ان الترام يتوقف حين يركبه نظرا لانه مراقب ومنوم مغناطيسيا وكان يغادر القطار ويسير عشرة اميال قاصدا منزله لانه يشعر بأنه

مراقب في القطار . وكان في المنزل قلقا مضطربا ، خمولا ، كثـير المطالب ، وعدوانيا احيانا . فرفض الدراسة او العمل ، مكتفيا بالتسكع في المنزل وقد دهمه القلق . كان يقف الساعات الطوال لا يصنع شيئا . فاذا اطل من النافذة ورأى الناس ، فهم يراقبونه . واذا قدمت له أمه سيجارة ، فذلك لكي تسممه. واذا لم تعطه السيجارة ، فذلك لتمعن في اذلاله ، واودع المصحات مرات عدة ، وعولج بالانسولين وصدمات الكهرباء فتحسنت حالته بشكل ما .

وحين جاء الى (الجرانج) ، كان عرضه الباثولوجي (المرضي) الوحيد هو خوفه المبالغ فيه من الشرطة . وكان يعمل بجد ، ولا غبار على سلوكه ، على الرغم من انه كان يغدو عدوانيا بغتة . كان يبدو متشككا ، خجولا . ومترددا بشكل عام . وكان يعاني من مخاوف توهم المرض ، ولكن ذلك كله تحسن في حوالي شهرين فأعيد الى منزله .

وظل الشهور الستة التالية على ما يرام . فاشتغل عاملا في البداية ثـم موظفا . ثم ترك وظيفته دون سبب واضح ، وامتنع عن مخاطبة اي مخلوق ، ثم اصبح عنيفا مع امه لانها «تقوم بعمل اشارات تدل عليه من النافذة» . فأعيد ايداعه ثانية . وارسله والده الى (الجرانج) . وتعين علينا مقاومة هذاء هجاس جديد . كان يتخيل ان الأطباق في (الجرانج) أكبر منها في اي مكان آخر ، فاذا تناول طعامه في هذه الاطباق ، حسبه الناس مجنونا ، بالرغم من انه على ما يرام. وهو لن يزاول العمل ، لان ذلك سيبرهن ايضا على انه مثل الآخرين ، مجنون .

ولقد قطع لس بوجنار ايضا دراساته الجامعية . اذ اعلن في احد الايام عن رسوبه في احد الامتحانات وان ذلك لا يبعث على القلق لانه لا يرغب في دراسته اطلاقا . واخذ في التسكع ، وإبداء تنمره ، وهو يدخن وينام بصورة سيئة . ثم أعلن فيما بعد انه ينوم تنويما مغناطيسيا ، وأن هذا هو سبب رسوبه فـي الامتحان . واشعره ذلك بالخذل واعجزه عن التركيز او التفكير ، وشعر بالاكتئاب. ثم افصح فيما بعد عن ان امه ليست هي امه الحقيقية . وساورته ذكريات غريبة، **ورؤى مسبقة** ، فكان يعتقد ان كل من يراهم ـ قد سبق له رؤيتهم في مكان ما. وساورته احساسات مرضية خلطية متوهمة : فأذنيه قد تهدلتـا ، واتسعت عيناه ، وانزلق جلد ذقنه ، وضمرت لثته . وتحدث بغموض عن الهلاوس . ومن وقت الى آخر كان يغدو قلقا وعدوانيا تماما . وحدت بعض جلسات العـلاج الكهربائي من قلقه ، وان حل محله ضرب من البلادة اللامبالية .

وفي بداية وصوله الينا ، روى كيف هوجم في الجامعة ، وارسل بعدئذ الى احدى المصحات العقلية ، التي يتحول الناس فيها الى «دمى طائرة» . «لا يوجد ثمة اساس قانوني او أخلاقي لهذا» ، هكذا قال . وأضاف ان كيانه تبدل كلية في المصحة ، حيث «سرقت دقات قلبه» على حد قوله . وذكر بعض المشاكل المتعلقة «بالراديو» ، ومن الجلي انه ايضا كان ضحية «الاشعاع» شأن العديد من زملائه المرضى . ورفض العمل واختفت اعراض الهجاس البسيطة ، فبدات علائم

التبلد الكامل وعدم تكامل الشخصية الكلي في الظهور .

وتعتبر حالة هيلين انكز ، الرسامة ، اكثر ثراء . لقد عملت معنا ككاتبة على الآلة ورسامة بالاضافة الى كونها بستانية نشطة زهاء ثمانية عشر شهرا ، ثم عادت للمنزل ، لتعنى بشئون والدها . ومنذ ذلك الحين ، ظل كل شيء على ما يرام. كانت ابنة لوالدين منفصلين بالطلاق ــ وكلاهما غريب الاطوار ــ فسهلت جيناتها وبيئتها امر اختلالها (بينما ظل اخوها ، في نفس ظروف الوراثة والبيئة ، سويا). بغتة هجرت هيلين دراستها في الاكاديمية . واشتغلت سائقة على جرار ، ثم هجرت ذلك ايضا ، وشرعت ترسم من جديد ، لم تكن تحادث احدا من زملائها ، وضربت أمها ثم تشاجرت مع محصل الترام والركاب ورجل الشرطة . ولهذا اودعت احدى المصحات العقلية ، ثم حولت الينا ، بعد العلاج الكهربائي المتكرر.

ولم تأبه خلال الثمانية عشر شهرا التعرف على أسماء بقية الفتيات في حجرتها . وحينما يتصادف وتتنازل وتتحدث مع بقية المرضى ، كانت تسميهم «هذا الشخص» . كانت عاملة لا تكل . تكتب كالبرق، دون ادنى فكرة عما تكتبه. تعمل في الحديقة بمنتهى الحماس او تساعد في عمليات النظافة . كان ذلك مدعاة للغرابة : فالفتاة المتعجرفة لا تحجم عن اشد الاعمال قذارة . كانت صورها لا تنبيء بوهبة خاصة ، وان كانت صور لطيفة للاشجار المزدهرة والممرات التي يكسوها الجليد .

وكان محتوى هذاؤها الهجاس تصورها ان الناس «يتبعونها» . كانت تتهم اشد الرجال انشغالا عنها انهم يحملقون فيها بوقاحة ، ويحتكون بها ، ويشرعون في مغازلتها ، ويفكون ازرار سراويلهم امامها ، ويغمزون لها ، والنتيجة غير المتوقعة ، تهاجم هيلين الرجال الخالين الذهن تماما فتصفعهم او تركلهم .

لم يكن لدينا خلال عامين ونصف سوى ثلاثة من المرضى «المنيفين» اي المرضى الذين يهاجمون الآخرين دون سبب واضح ــ اللهم الا هذاءاتهم . كان ثمة من يتعاركون ويتشاجرون ، ولكن فرق بين المشاجرات و«الهجمات» . فالهجوم يعني ان تستدير هيلين بغتة وتصفع الرجل الواقف خلفها على وجهه لانه «احتك بها بطريقة وقحة» فاذا تصادف ان شرع احد المرضى في الهلوسة قبالتها ، كانت تأخذ جانب نفسها مغضبة وترد عليه اذ كانت تعتبر سخافاته عديمة الجدوى موجهة اليها . وكان احد الشبان يعاني من «لازمة عصبية» وكان يظل يهز راسه بشدة . فاعتبرت هيلين ذلك موجها لها ايضا وهاجمت «الفلاح القذر» . لم يحدث ان اعترفت انها بدات مشاجرة ، انها تتصرف التصرف الملائم فحسب ، «وتدافع عن حقوقها كسيدة» .

ولا يفوتنا أن نذكر فرانك الجرّاح هنا ، على الرغم من ان حالته ليست نمطية على الاطلاق . لقد فشلت نتائج العلاج بالعمل معه للاسف بسبب غلاظة حس هيئة المستشفى .

ولكنني لم أتمكن من تفهم المرض الذي عانى منه ، وما كان يعذب هذا الشاب

المحدود الحظ الا بعد ان غادرنا بعام . ولقد تفهمته عن طريق خطاب شغلت سطوره القليلة المكتوبة بحروف ضخمة اربعة صفحات تعكس عن مرضه اكثر مما يعكسه تحليل نفس بالغ الطول .

حين جاءنا من احد المصحات العقلية ، حدثنا عن حياته المريرة في انفعال مكتوم ولكن بشكل ذكي ومفهوم . كان والده ، العامل ، سكيرا سيء السلوك يعاني من هذاء الاضطهاد ، وامه سهلة الاستثارة ، وكان احد أجداده والعديد من ذريته من المجانين . ولم يعنَ الوالدين بالطفل الصغير الحساس . «اكتشفت وانا لا ازال غرا انني مدعو للقيام بما هو فوق طاقتي ، دون ان يمد لي احد يد المساعدة . وكان راغبا في الدراسة ، فلم يساعده والده على ذلك . فمارس اعمالا معقدة. وكانت طبيعته الانثويةتتحاشى كل ما هو عنيف وسوقي او ذكوري، حتى بالنسبة للجنس . وجرب مباشرة النساء ، وان كان الحب العنيف «مروعا» . وفضّل في احد المراحل مصاحبة نفس الجنس ، فحكم عليه بالسجن اربعة اشهر ، كانت ذكريات السجن مروعة . ثم اشتغل في مستشفى للجراحة، فوجد اخيرا مبعثا للرضى ، لقد عثر على مكانه في الحياة كان يريد في الحقيقة ان يصبح طبيبا ، ولكن كان عليه ان يتخلى عن الفكرة . وأصبح في وسعه ، كمساعد للجرّاح ، ان يرتدي معطفا ابيض ويعمل بين الاطباء والمرضى ، وان يحافظ على نظافة ولمعان الآلات ، ويسمى الامراض بأسمائها اللاتينية ، وأن يشارك الاطباء الحرب من اجل الصحة ، واحب مهنته .

وبينما كان سعيدا يتصور انه وجد مكانه في الحياة ، نسي ان يغلق الاوتوكلاف autoclave ، فاحترق ، وحكم عليه بدفع مبلغ اثني عشر الفا من الفورينات ، وفصل من عمله .

ويعوزنا وقت بالغ الطول لنروي كيف حاول اعالة نفسه وتسديد الدين، وكيف عجز في النهاية . فأودع في مصحة عقلية عقب فترة من الحزن وانهيار عصبي ومحاولة انتحار . وبعد ان عولج لفترة ، تم تحويله الى (الجرانج) .

كانت ملامحه اثيرية انثوية ، وايماءاته مدروسة ، وكلامه مؤثرا . كان حساسا قريب البكاء . وكان فاقد الامل في كل الناس. ، ولم يكن يرجو شيئا من الحياة . وعلى الرغم من انثويته فقد شرع فورا في العلاج بالعمل ، وادى عملا ذكوريا بإتقان ، كان يعزق كمن به مس ، من الصباح الباكر حتى الليل المتأخر ، مفضلا الوحدة . ولم ارحببهذا العمل المبالغ فيه (على عكس البستاني)، كان ينبغي ان اهبطه ، لكنني فشلت . كان يعزق على سبيل «التسرية» وكان يقرأ في الامسيات . فضّل في البداية رواية أكسل مونت Axel Munth «تاريخ سان ميشيل» ، ثم جعل يتشرب سونتات شكسبير . كنا نستغرق في حديث طويل من وقت الى آخر في مثل هذه المناسبات كان يتحدث دائما عن العودة الى الجراحة . كان تعليمه بسيطا ، وكان شغوفا بالتعبيرات اللاتينية التي اعتاد استخدامها في غير موضعها ، بيد ان معلوماته الصحية كانت غزيرة بصورة تبعث

على الدهشة .

لم أعتد استجداء المعروف من هيئة المستشفى ، ولكنني سألت الجراح ان يدع فرانك يعمل دون اجر . وكنا محظوظين ، اذ كانت المستشفى بحاجة الى مساعد جراح ، فقضى فرانك فترة اختبار اولا ، ثم دفعوا له اجرا منتظما . كان فرحا كطفل يلعب على الرمال .

وسرعان ما اذاعت عن مستشفى الجراحة اشياء مثيرة للاهتمام . وتأكد الجميع ان فرانك الجراح يعمل جيدا . وشرع الموظفون الكسالى بالمستشفى في التشمير عن سواعدهم ، حتى يطمسوا الفرق بين عمل فرانك وعملهم وكان ذلك مدعاة لسرور الجراح المسئول بالطبع ، ولكنه غدا أقل سرورا حين بدأ فرانك الجراح يحطم الآلات بسرعة غير مألوفة . كانت تسقط منه واحدة اثر اخرى محطما الادوات الثمينة ، حتى استطاع الجراح اخيرا وبصعوبة أن يمنعه من لمس اي شيء (ولكنك بعد لا يمكنك ان تعمل جيدا في مستشفى الجراحة دون لمس الادوات) . كان القلق يستولي على الجميع حين يلمس فرانك شيئا ثمينا ، الامر الذي يزيد حساسية فرانك ، فيسقط ويكسر شيئا ثانية .

وكان على مستشفى الجراحة ان تدفع ثمن النظافة غاليا . ولكن اي انواع النظافة ، كان فرانك يدعك قمة وأسفل الدواليب ، ويستمر بالليل ليقوم بالنظافة ويزيل الاوساخ المتراكمة عن الزوايا والاركان المستورة . ووجد الآخرون في ذلك مدعاة للغرابة ، ولكن حسنا ــ فهو مجنون من الجرانج . ولكنهم ظلوا يخشونه ويتحاشونه ظنا انه ربما تنتابه النوبة ويبدأ في الهياج . ولكنه لم يهتج ، وانما اكتفى بالتنظيف في وجد ، وفي اوقات فراغه كان يقرأ «هملت» وسونتات شكسبير . عندئذ تشجع زملائي فجابهوه ببعض التلميحات الهازئة . كانت مجرد دعابة ، اشياء صغيرة ، لا يبتغي احد ايذاءه فعلا ، فهم يحبونه . ولكن من يعرف ؟ لقد وجدوا فرصا عديدة للايقاع به . وفي نفس الوقت استقل فرانك واتخذ لنفسه مسكنا في شقة امراة ثرية جدا وقعت في غرامه . وشرع زملاؤه يحسبون الايام ــ بدافع الغيرة او السخرية ــ الباقية على الزواج . ولكنهم فشلوا في اعتمادهم على غرائز فرانك ، كان راغبا عن الفتاة ــ فبدات النكات الملفوفة ، ثم النكات التي ليست ملفوفة تماما (فالعاملون في الجراحة أميل للهدوء غالبا) . هل تبينوا اين غارت طعناتهم ؟ لقد كان رئيسه المباشر ، الطبيب المساعد رجلا عصبيا بدوره ، كان مصابا بالتهتهة . ولقد سره أن يجد الان روحا اشد اضطرابا عنه ، شخصا يستطيع ان يتهته امامه بصوت عال . «ننحن للسنا ففي الججرانج كما تعرف . هذه ليست ممصحة عععقلية !»

وجاءني فرانك بشكاواه . كان يتظاهر بتجاهل الامر كله ، ولكن كان في وسع المرء أن يتبين ان الطعنات كانت في الصميم . آلمته الطعنات التي كان يوجهها له الطبيب المساعد بخاصة . فلعن هذا الطبيب المساعد المصاب بالتهتهة الذي كان ينفس عن جنون عظمته magalomania على حساب فرانك .

كيف اضع الامور في نصابها ؟ حاولت تنبيه الطبيب المسئول في لباقة الى وضع كل شخص عند حده ، ولكنه لم يلحظ شيئا . ولم يكن هذا غريبا ، نظرا لان كمية المعاكسات لم تكن تزيد عن المعدل ، وفي وسع الشخص السوي الا يأبه بها ، وربما كان المعاكسون انفسهم غافلون عما يصنعونه . هل كان يجب عليّ أن احذر الطبيب المساعد الا «يعوض» نقصه الشخصي بالتحكم في فرانك ؟ كان ذلك عبثا . وجدتني اطلب من فرانك ان يتذرع بالصبر . من السهل التبشير بالانسانية في (الجرانج) ولكن من الصعب ان تضعها في التطبيق حين يتعلق الامر بدعابات زملائك وإهانات الطبيب المساعد الخلو من اللباقة . وبدأ فرانك يشعر تدريجيا ان الجميع يبغون تذكيره من اين اتى . كذلك كان يرغب عن التوجه الى المنزل اذ كان يخشى اهتمامات صاحبته ، وهكذا كان يظل في المستشفى طيلة الليل يزاول التنظيف .

وجعل الطبيب المسئول يرقب ذلك في قلق قبل ان يقول في اسلوب اخوي :

ـ «عزيزي فرانك . اليست فكرة طيبة أن تزور الجرانج وتتكلم قليلا مع المدير ؟ »

هز فرانك رأسه ، مغادرا الغرفة وبعد خمسة دقائق عاد يحمل خطابا على الآلة الكاتبة ضمنه استقالته .

ما الذي اصابه ؟ لا شيء ، لكنها كانت القشة التي قصمت ظهر البعير ، حتى الطبيب المسئول طفق الان يذكره بماضيه في المصحة . في ذلك الكفاية . وودعوه آسفين ولكن في ارتياح . سوف تصبح المستشفى أقل نظافة ولن يعود ثمة مساعد جراح بهذا الاصرار ، ولكن بدا الامر اشبه بالتخلص من احد النزلاء (الجرانج) الهادئين .

وتحول فرانك الجراح فأصبح معدّنا . كان يرغب في شق اغوار الارض لكي يصبح في مقدوره ، بعد ان انسل من هنا ، أن يمحو آثار «الوشاية» من الحياة «التي تبعث على الشك» والتي طرحها خلفه . قد يكون ذلك صعبا ، ولكنه اذا صمد لمدة عام ، فلن يعرف أحد شيئا عن ماضيه قط .

لعل ذلك ما كان يفكر فيه حين ابتلعه المنجم تماما .

ولقد ابتلعه حقا . فلمدة ستة شهور لم نعد نسمع عنه . ثم وصلتنا رسالة قصيرة حافلة بالزخارف ، موجهة الى «الوالد العزيز !» .

«أخشى الا اصمد اكثر من ذلك ! ايها الوالد ! تذكرني ، ولا تنساني ! سوف أصف كل شيء في المرة القادمة . تذكرني !»

وجاءت رسالته التالية بالبريد المسجل ، التي وصلت موصى عليها ، اشد قصرا . كانت عسيرة القراءة ، تتسم بالاضطراب ، مليئة بالاسهم والخطوط المزدوجة في صفحات اربع .

«الوالد العزيز ! انا آسف ! اغفر لي . لكنني لا استطيع بعد ذلك صمودا . حكمة **يا بيضاء العناية ، من اجلك وحدك عشت** ! غدا ، ربما يكون **متاخرا جدا**

ولكن .. ولكن .. الوالد العزيز ، لا تنساني !!! ربما حين تتسلم هذه الرسالة اكون في **عداد الموتى** . لا تنسانـــي ، فانا ابنك ، أنا ابنـــك ، هل فهمت ؟ لا تنساني ! »

لم تكن «بيضاء العناية» بعض القوى الغامضة او حكما على القيم الاخلاقية وانما كانت ببساطة مستشفى الجراحة ،والبياض الطبي الذي كان يستهويه **من الاعماق** (**الاعماق** بالمعنى ـ التعديني والطبي العقلي ـ للكلمة) .

ان النص المدون هنا بعناية ليس مبعثا للانزعاج كالنص الاصلي . ولكنه كان كافيا ليؤكد لي أن العملية قد استفحلت . لم يعد ذلك الرجل المرتب المدقـــق النظيف ، قارىء السوناتات الذي يكظم ثورته حين يشعـر بالإهانة ـ انهـــا الاستغاثة الاخيرة من عقل مضطرب .

طلبت منه في الرد مغادرة المنجم والعودة .

لكنه لم يعد . بل أرسل رسالة أخرى ، كراسة مليئة بالكتابة . لم تكن في اضطراب الرسائل السابقة وان لم تقل عنها دليلا على المرض . كشفت أن مرحلة الهجاس التي لم تكن تسفر من قبل الا عن آثارها فحسب ، قد اكتمل تطورها .

في بداية ذهابه الى المنجم ، كان كل شيء على ما يرام ، لم يتعرف عليـــه احد . لكن خلال الاسابيع القليلة الاولى التقى بأحد المعارف القدامى ممن يحتمل معرفتهم بموضوع الاوتوكلاف المكسور ، وهكذا «دارت العجالة» . اثنين آخرين من المعارف ثم شخص مجهول يحمل وجها يبعث على الارتياب ـ أجل ، لقد تعرف عليه في السجن ـ تكاثروا عليه ، «وبدات عملية الابتزاز» في شكل قروض يطالبه بها عديد من الناس ، ولا يجرؤ على الرفض . وعلى الرغم من أن هؤلاء المعارف لم يذكروا حرفا عن السجن او الاوتوكلاف او المصحة ، فقد كان واضحا انهم امسكوا ليؤمنوا استمرار عملية الابتزاز .. ثم ظهرت أعراض توهم المرض ، فرقد بعض الوقت في المستشفى بسببها . وما كان ذلك مجديا الا في تغذية المزيد مـــن الاتهامات الهجاسية نحو الاطباء الذين اعتبروا أمراضه جميعا مجرد توهم مرضي. واصبح اشد عصبية ، وشرع في شرب الخمر وتناول جرعات كبيرة من العقاقير، محاولا الانتحار ، ما دام لا يحبه احد ، ولا تسوى حياته شيئا . استمر فـــي تناول العقاقير ، لا لينتحر طبقا لاقواله وانما كمنوم (من المحتمل بالطبع انه تخيل كل هذا ، اذ كيف امكنه الحصول على هذا القدر الكبير من السم) . اخيرا نقلوه الى المستشفى بسبب كل ما تجرعه من عقاقير . لقد غاب عن وعيه . واصيب بتسمم معدي ، فاستجوبته الشرطة ، وكف الان عن الرغبة في تسميم نفسه . كان ذلك حين ارسل الخطابات المضطربة ، ولكنه تغير تماما منذ ذلك الحين . ظل يرفض دعوتي نظرا لانه مرتبط حاليا بأحد انواع العلاج بالعمل ، فلقد أعفوه من التعدين ، وعهدوا اليه بقسم الاسعاف بالمنجم . جعله هذا يستعيد **فرحة الحياة** والثقة بالنفس فورا . في «بياض العناية» وسط كل هذا السواد ، مرة أخرى بدا يشعر انه طبيب . صحيح انه محاط برجال «يعرفون» أو «يشكون» في بعض ما

يتعلق به ويدلون بتعليقات معقدة ، ولكنه لا يأبه بهم .

ثمة اناس يفسدون حياتهم بأيديهم ، ومدمرون لذواتهم ، وكان فرانك الجراح احد هؤلاء . لم ينقذه «بياض العناية» ، ففصل اخيرا من المنجم ، واعيد قسرا ليعيش في (الجرانج) من جديد . وظل مدة يعمل جيدا ، وقد بدا مستبشرا راضيا ، لم يكن قد اكتشف متعقبا له بعد .

ومن الضروري اثناء مناقشة « المرحلة الهجاسية » استعراض مختلف انواع الهجاس . ان كل الحالات في « المرحلة الهجاسية » حالات شبيهة بالهجاس Paranoid وليست حالات هجاسية . فالهجاس الحقيقي مختلف . فبينما تتعدد السمات الهجاسية ، يندر الهجاس نفسه ، اي ذهان هذاءات الاضطهاد ـ العظمة . ويعتبر العرض الاساسي في الهجاس هو ذلك النمط المحكم الذي لا يهتز من الهذاءات . ومن بين المرضى الذين سبق وصفهم ، لا يقترب من هذا الضرب من المرض سوى الرجل ذو الجهاز المشع، فهو لم يكن مضطربا، لا يوجد ثمة تدهور عقلي، ولا اخطاء في الحواس ـ تتلبسه فحسب فكرة وقوعه في اسر جهاز الاشعاع .

ان العثور على الهجاس الحقيقي اكثر منه في المراجع عنه في المصحات . ويمكن مشاهدة احد هؤلاء المرضى الحقيقيين بالهجاس في ليبوتميزو ، نبي بلحية طويلة وفيما عدا ذلك فكل شيء على ما يرام اللهم الا اصراره على ذلك النمط المنطقي البناء من الهذاء . المقدمة المنطقية فحسب هي الخطأ الوحيد : الاعتقاد بأن الله قد اختاره ليكون نبيا .

ولدينا نحن ايضا مريضة بالهجاس : القديسة اجنيس . لقد ظلت تعمل خادمة حتى اختارها الله . ولم تكن تعرف لماذا حظيت بهذا الشرف العظيم . لقد اقترب السلام العالمي ، سيدبّر الرب ترتيباته عن طريقها . الرب يقضي احكامه. يعاقب الشرير ويجزي الطيب .

ولو صح هذا ، لوجب على الرب ان يعاقب اجنس بكل تأكيد ، لانها ، على الرغم من كل صلواتها ، كانت ذات روح شريرة . كان في مقدورها أن تجعجع بموعظة الحب في اي وقت ، ولكنها لم تكن تحب احدا . وكان مفهوما انها لا تعمل وتتوقع أن نكون في انتظارها ، فهي قبل كل شيء قديسة . بيد ان التحفظ البارد الذي كانت تعامل به بقية المرضى كان ينهض دليلا على الشك في انها تتمتع بروح قديسة . فيما عدا ذلك كانت سوية تماما . كانت تتكلم بذكاء في جمل مرتبة ، وظائفها العقلية على ما يرام ، ادراكها سريع وصاف ، ولديها قدرة ناقدة. كان الشيء الوحيد الذي لا تتنازل عن الاقتناع به هو شخصيتها المقدسة .

كانت مريضة بالهجاس ، بالهوس الديني .

ولكونها كذلك ، كانت تقضي اليوم كله في التأمل والصلاة . كانت تحتفظ بقلة من كتب الصلوات المزقة ، التي يتناسب محتواها مع شخصيتها الذهانية تماما . وكانت ترتدي عباءة حريرية سوداء ، مطرز عليها ثلاثة خطوط صفراء تنهض علامة على أنها من المختارين . وكان لديها شخص يعتقد فيها بإيمان ، فيركع

امامها لساعات وهو يصلي لها .

وكان هذا العابد مدرسا فيما مضى . ونظرا لانه سرعان ما سيعود للتدريس ثانية (كما يتصور) فقد ادخل ملاحظات هامة على كتبه . كانت الملاحظات والرسوم تترى خلف بعضها في تشتت مضطرب . ثمة علامات رمزية وخرائط ، وزهور تنبت من حيوانات وآلات معقدة تندفع صوبهم . وثمة احصائيات غريبة مثـــل تقدير مجموع اطوال انهار اوربا .

وكان المدرس ايضا ينفق الساعات في الصلاة (لم يكن يعمل بالطبع) ، وحالما اكتشف قديسة حقيقية بالقرب منه ، عكف على الركوع تحت قدمي اجنيس .

وهكذا نالت اجنيس ما لم ينله سوى قلة من القديسين : التقدير اثنـــاء الحيـــاة .

كان بعض المرضى لا يشكون الهجاس الفعلي ولم يكونـــوا فصاميين وانمـــا سيكوباتيين هجاسيين كمارتين كيمست مثلا ،ودهم الجنون آخرين وهم على عتبة الشيخوخة كالعم زيتر او اولد تيننت .

كان العم زيتر يحمل اعتقادا هذائيا مؤداه ان زوجته تخونه مع ابنه . ولقد عرفت زوجته ، كانت سيدة عجوز رقيقة لطيفة لا تكترث لزوجها حتى عندما كان يدعوها بالحيوانة النجسة وما الى ذلك من الفاظ السباب .

ولا ازعم انه كان في مقدور العم زيتر ان يفصح عن هذاءه . فجمرات الشك النارية الحمراء لم تظهر تماما ، ومع هذا فقد دبَّرنا ترتيب الامور ، بحيث غدا سعيدا يعزف الموسيقى الراقصة للمرضى كل مساء . بل انه بدأ يتحـــدث مع زوجته بلغة مهذبة ، حتى امكن اعادته الى منزله وفق نظام الافراج الشرطـــي Parol . وكانت المحاولة موفقة ، وشكرتنا زوجة العم زيتر بحرارة اذ اتيح لها أن تعيش معه ثلاثة شهور في سلام وادع . ثم اصيب العم زيتر بنوبة مات على اثرها . وبالتالي لم نعرف ابدا كم استمر اثر العلاج في الجرانج لديه . وفقدنا موسيقارنا الذي كان يساوي ثروة .

ولقد وجد مارتين الكيماوي مأواه لدينا . لقد كانت هذه الكتلة من الشحم المتدثرة في الفراء القديم بمثابة اتهام هجاس في شكل انسان . كان يحفظ قانون عقد العمل على ظهر قلب ، ويشم رائحة انتهاك القانون في اي خلل او خطـــأ بسيط . والحياة تغص بالاخطاء التي لا يستطيع اي مخلوق تلافيها حتى ولو كان مارتين كيمست . لذلك كان دائم الغضب مصدوما . تناسى مهنته ، وكان من الواجب ان يكون مدعيا عاما لا كيمائيا . عندئذ كان في وسعه ان يعيش لعاطفته ويستخدم قوى القانون كاملة في مواجهة جميع الاخطاء . ولربما كان قاسيا ولكنه سيكون عادلا .

اما الان فهو يكتفي بالتسكع في (الجرانج) ، تكاد تخنقه قذارته لم أر فـــي حياتي رجلا في مثل قذارته . لم يكن كل شيء في حجرته على درجة من القذارة

لا توصف فحسب ، بل كان يخلف العفن والنفايات اينما حل . كان مثقفا ذكيا ، ومطلقا ، وذو خبرة بالموسيقى ـ لكن المرء يخشى أن يضع بين يديه كتابا او خطابا، فسوف تنهض القذارة والاهمال دليلا على انه لمسه. وكان يجب أن يذهب للتسوق ويصنع ذلك بمهارة ، ولكن كانت تبدو حقيبته كأنما دحرجت على قراب الطريق ، تختلط الزبدة والسكر داخلها بأحد الكتب .

من المؤكد انه لم يخلق ليكون صيدليا كيماويا .

كان لدينا هجاس آخر لديه الميل للتقاضي ، هو اولد تيننت . كان في الخامسة والخمسين من عمره . من اسرة تشتغل بتجارة الماشية كونت ثروتها في الحرب العالمية الاولى . وكان اولد تيننت يحب الحديث عما قامت به أسرته من احتيال ، وكيف كانت تغش بذكاء كل من يقع في طريقها .

كانوا مستأجري مزرعة تبلغ عدة آلاف من الافدنة ، مارسوا فيها غشهم ، فحصل ابناء الاسرة على شهاداتهم من مدرسة عليا تحوطها ظلال من سوء السمعة ؛ ولقد حصل اولد تيننت على شهادته بهذه الطريقة ، ثم حصل على درجة في الزراعة من المانيا ، على الرغم من انه لم يتعلم قط الحديث بالالمانية . ومع هذا فقد كان يفهم في الزراعة ، كان يعرف الكثير عن الانتاج والغش . عقب الحرب العالمية الاولى أصبح شيوعيا في البداية ثم ضابطا في الجيش الابيض (لم يكن جنديا فقط ولكنه اصبح ضابطا على الفور) . ثم شرع يمارس أعماله غير المشروعة. عقب الحرب العالمية الثانية عاد فالتحق بالحزب الشيوعي ، ونظم محلا تعاونيا ثم افتتح حانوتا لبيع الخمر ومارس اعمالا خاصة . وكانت هذه فترة صعبة لانه لم يكن يحصل على ارباح الا بالغش . فجهر بأن الحزب يضم عناصر رجعية أساسا ، وكان ذلك حين بدأ نشاطه كمخبر سري . بدأ يهتم بالسياسة ، فوصل الى نتيجة مؤداها ان المجر لا تضم سوى شيوعيّين حقيقيين هما : رئيس الوزراء راكوزي وهو شخصيا . بيد ان الحزب كانت له وجهة نظر مغايرة ، ففصلوه . كان هذا على حد زعمه ، من عمل اعداءه (مبتدأ : من أقرب أقاربه : ابنه ، وابن انسبائه واخوة زوجته الذين كانوا جميعا اعضاء في الحزب ويعملون بالسوق السوداء في نفس الوقت) . ولقد اعتقد من ناحية أخرى ان الحزب لم يفصله الا لاسباب تكتيكية ، فهم يعلمون انه بهذه الطريقة يصبح قادرا على العمل الاكثر فعالية . وسجن لاشهر قلائل بسبب الاتجار في السوق السوداء . ولم يأبه لذلك كثيرا ، فقد ظل داخل السجن يتصرف كمهيج ثوري وكان يشعر بالسعادة .

واقتنع ان الحزب بوجهه ، وان راكوزي شخصيا يضع عينه عليه ويقدر جهده . وان موعد عيد الميلاد قد تغير الى اليوم الثاني من مايو ليوافق الاحتفال بعيد ميلاده . كانت لديه العديد من الهذاءات المشابهة ، مثل المبتكرات الزراعية «ذات الاهمية القومية» التي يوالي ارسالها للجرائد ، وسرعان ما توضع في التطبيق ، وعلى الرغم من اغفال اسمه ، فان الجميع يعرفون انه خلفها . وعقب عام ١٩٥٢ تنقل من مهنة الى اخرى ، مبلغا عن الناس في كل مكان ، محاولا

اقتناص الرجميين ومرسلا البرقيات الى راكوزي . كان مكروها في كل مكـان ولكنه مرهوب الجانب ايضا ، وكان الناس يسعون للتخلص منه . وزاد ذلك من اضطرابه العصبي ، فأودع اخيرا في ليبوتميزو وحدث هذا ، بالطبع ، وفق تدبير سري من الحزب . واستطاع في داخل المصحة العقلية ان يلتقط اشارات سرية اكدت ان الحزب لم ينسه . كما كان له اثر مهدىء بالنسبة للمرضى الآخرين ، وقد شفي بمساعدته مئات من المرضى . كما اودع عنبر المجانين الخطرين ، ليقوم بعلاجهم ايضا . في نفس الوقت الذي توصل فيه الى وسيلة مبتكرة ، من شأنها اذا وضعت في التطبيق ، أن تزيد من غلة المحاصيل ستة عشر ضعفا . ولكنـه يحتفظ بالاختراع سرا الان . فلم يخبر احدا بشأنه سوى بعض المرضين الذين تظاهروا بتصديقه وتنبؤا على الفور انه سوف يغدو رجلا عظيما .

وحالما أطلق سراحه من المستشفى العقلي ، توجه الى وزارة الزراعة ، ثم الى قيادة الحزب، والبوليس السياسي، وسارع بالتبليغ عن جميع الناس. ثم عاد الى منزله، وتنقل بين المهن الموسمية ليبلغ عن الجميع من جديد. ثمة اخطاء في كل مكان، ولذلك لم يكن يجد صعوبة كبرى . نادرا ما كانت تقاريره لا تستند الى أساس ، ولكنها كانت تتسم بالمبالغة الشديدة . وحتى لا نغمطه حقه نقول انه كان يعري ويبلغ عن الناس دون النظر الى الحزب الذي ينتمون اليه . كان يتخذ اصدقـاءه من اثرياء الفلاحين ، والكهنة والتجار ، فيكسب ثقتهم ثم يبلغ عنهم . ولكنـه كشف ، بنفس الحماس ، سكرتارية الحزب التنفيذية ، ومدير مشروع الدولة . وكان يشكو من البوليس السياسي احيانا الى الشرطة العادية والعكس بالعكس .

حين يستمع المرء الى كل هذه الاعراض مكثفة على هذا النحو يظن ان اولد تينت يحمل راسا مضطربا ، بيد ان هؤلاء الذين التقوا به لم يشكو في شيء يحمل مظنة افتراض ان عقله ليس على ما يرام . كان سيدا وقورا حسن الملامح داكن البشرة . له شعر حريري متموج . يخفي شاربه الكث البني بمهارة ملامح وجهه الشرقية ، اقرب الى اعيان الارياف منه الى تاجر المواشي (حلق فيما بعد لسوء الحظ شاربه بعد ان تبين ان الناس يخلطون بينه وبين ستالين) . كان يتحـدث بذكاء ، وسلوكه ممتاز ، مهذب ، وله عين نسر تلحظ اي خطأ فورا فلا تبلغ عنه المختصين ، وانما البوليس السياسي دونما ابطاء . كان صدوقا ومرحا ، ويبدو كسيد عجوز متفتح ، عمليا جدا ومنظما ممتازا . لم يكن يتجنب العمل بل يسعد بتأدية أبسط الاعمال البدنية . وكانت فرصة ممتازة لمزاولة القيادة . كان يقود الجماعة اوتوماتيكيا اينما حل ، وكان الجميع مجبرون على الشعور بسلطانه . واعتقد ان الجرانج هو المكان الوحيد الذي لم يبلغ فيه عن احد . لا لانه لم يصادف أخطاء لدينا ـ فلا شك انه وجدها . الا انه تبين اننا لسنا مسئولين على هذا القصور ، وانما المستشفى وقوى اخرى غامضة . واعفانا في تقاريره نظرا لانـه اعتقد ان الحزب هو الذي وجّهه الى هذا المكان ، وان من واجبي ان ارسـل تقاريره ، فليسامحني الله ، فلم ارسل اية تقارير ، لقد تبينت ان السلطـات

لديها من تقارير اولد تينت ما يزيد حاجتها .

كانت الشهور الخمسة التي قضاها في (الجرانج) بمثابة فترة مثمرة . احترم المرضى اولد تنتت عموما وتمتع بنفوذ هائل . ويرجع ذلك جزئيا الى خبرته في الزراعة ، وفي جزء آخر الى سلوكه الممتاز ومهارته التنظيمية الفائقة، واخيرا وليس آخرا الى الساعة التي كان يقضيها معي يوميا بحجة العلاج النفسي. كان المرضى ينصتون اليه ، كما أحب المرضى متفهما الاغراض وأسباب العلاج بالعمل بطريقة تفضل العديد من الخبراء الخارجين ، وكان من رأيه تنظيم مزرعة للدولة من «تعاون المرضى المعاقين» (ووافقناه على ذلك) فاقترح بالتالي تحويل (الجرانج) الى «تعاونية انتاجية» تتسمى باسم ماتياس راكوزي وان نشرع في قطع الاخشاب من الغابة المجاورة . ونختص انفسنا بنصف هذا الخشب ، ونبني بثمنه قرية اولا ثم مدينة ، ونربي ارانب الأنجوراه ودودة القز ثم ننشيء في النهاية مصنعا للحرير . كانت كل مشروعاته على هذا النحو . ولم يكن ما يقوله لغو فارغ ، ولكنه كان مستحيل عمليا . «لماذا هو مستحيل عمليا» . كان يسأل في سذاجة . لسنا في حاجة الى تمويل . ان بناء مدينة راكوزي لن يتكلف شيئا عمليا . اما فيما يتعلق بالارباح ، فلنترك تدبير ذلك له ولابتكاراته .

ان الجانب الذي يستوجب الغرابة في كل هذا انه كان على اتصال وثيق بشتى المسئولين ، في المكاتب والوزارات ، وكان يجب عليه ان يدرك بالتالي من واقع خبرته ان هناك أمورا أقل بساطة من بناء مدينة لم يسهل تنفيذها ــ ومع هذا ظل يؤمن ويخطط بغزارة . ولكنه سرعان ما تخلى عن المستحيل مقابل شيء مثيل في استحالته .

لقد قرر الزواج ، كان يريد زواج ارماسلندر ، وهي مريضة تصغره بعشرين عاما .ووقفت الاسرتان ضد الزواج ان العريس كبير جدا ، والعروس صغيرة جدا ، وعارضت ايضا بدوري. ولكن كان كل ذلك عبثا . ظل أولد تينت يخدع نفسه ويخدع ارما عدة شهور بوعد ضرورة اتمام هذا الزواج . وبذل محاولات محمومة مع حمو المستقبل ، ومع ابنه هو وكذلك مع نسيبه (وكان أكبر من العروس المنتقاة) ، وحصل لنفسه على وظيفة ، واخرى لخطيبته (او على الاصح حصلت انا على وظائف لكليهما) ، وبدأ البحث عن شقة . كان يزورنا كل أسبوعين من مقر وظيفته ، دون ان يعبأ بالتكلفة والمتاعب . وحين اصبح كل شيء معدا، تولى العروس الجزع وغيرت رأيها ــ او ربما ظهر في أفق (الجرانج) شاب وسيم، وعلى عكس ما هو متوقع قالت لا .... وكان مما يدعو للدهشة كيف تقبل اولد تينت الموقف الجديد بسرعة .

ولكن قبل ذلك حدث الكثير . لقد حاول مرارا ان يزيد انتاجنا بأفكاره الجديدة . كان يرى مثلا ان التربة تحت الثلج المتجمد لا تحصل على الهواء ، فلا تستطيع الحبوب النماء ، وبالتالي يجب ثقب الثلج المتجمد في بعض الاماكن. وأراد ان ينشر اختراعه في كل المزارع في سائر المدينة ، يجب ان يحاط عامة

الناس بذلك . ولم نجرب ذلك في الجرانج لعدم وجود اية ثلوج ذلك الشتاء ، وان وجدت فلم تكن تتجمد . واستهدف احد ابتكاراته الاخرى فحص درجة الحرارة في مخزن البطاطس بانتظام ، والتأكد عن طريق فتح وغلق النوافذ من الاحتفاظ بدرجة الحرارة المطلوبة . ٢ــ٨ سنتيجراد دائما ، حتى لا ينبت البطاطس او يتجمد . ولم نضع هذا الاختراع في التطبيق ، لسبب بسيط فلم نكن نملك مقياسا للحرارة .

ثم غادرنا الى منزله ، ليعقد الصلح مع ابنته وزوجها ومع ازواج اخواته وحموه . كان مختصما مع نصف البلدة . اما سبب الشجار فتبليغه عنهم بتهمة الاتجار في السوق السوداء او الآراء الرجعية . ولقد نجح في فصل قلة منهم من الحزب . وهو لم يصنع ذلك بدافع الحقد بل لاسباب تربوية ، ومع هذا فقد استاءت الاسرة من ذلك بصورة ما . ولمعرفتنا بغيرة اولد تينتت على الحق ، فان تقاريره يمكن ان يكون لها اساس طيب من الصحة . ومما يؤكد ذلك ان افراد الاسرة المعنيين شرعوا في عقد الصلح معه واحدا وراء الآخر . بيد ان جو حفلة الفداء العاطفي التي اولوها له جميعا ، لم تثنه عن ابلاغ عن عمليات السوق السوداء الخاصة بزوج ابنته وزوج أخته للبوليس السياسي في اليوم التالي .

لقد كان اولد تينتت من أولئك الهجاسيين النادرين الذين يعلمون انهم مرضى . كان يعلم ان اعصابه ليست على ما يرام تماما . لذلك افاده الوقت الذي امضاه في (الجرانج) . لقد قلت حساسيته المفرطة ، واستعاد ثقته بنفسه ، ولم يعد يشعر بضرورة الهرع الى البوليس السياسي عند وقوع كل خطأ ، اكتفى بأن يصنع ذلك في المرة العاشرة . كذلك تخلى عن فكرة الرجوع الى المكان الذي ابلغ عن كل شخص فيه ، وبالتالي فالجميع يعادونه . وتقبل نصيحتي (توجيهات الحزب كما كان يعتقد) بالذهاب الى احدى مزارع الدولة .

ولم يكن ارسال أولد تينتت الى احدى مزارع الدولة بالقرار السهل . كنت اعلم من جهة انه سيكون ذا نفع للمزرعة . فهو متحمس وذكي وامين وماهر في الزراعة . وستكون انتقاداته مفيدة . ولكنني كنت أعلم من جهة أخرى ان من المستحيل تبديل طبيعته الهجاسية . كان من المؤكد انه سيعثر على خطأ في وظيفته الجديدة ، فيتحكم في نفسه بعض الوقت ، ولكنه سرعان ما يشرع في التبليغ ثانية .

وكان هذا ما حدث . سرعان ما اكتشفوا ان عمله يفوق عمل بقية المرضى بكثير فاعتبروه مستخدما يعتمد عليه . ولكنهم سرعان ما أسفوا لذلك . لقد لاحظ أولد تنتت كل الاخطاء . فاحتفظ بها اولا لنفسه ، ثم اسر بها للمدير ، ثم اعلنها في احد اجتماعات العمل ، ثم ارسل تقارير مكتوبة لوزير الزراعة وبقية المسئولين . وكانت النتيجة ان فصله المدير بسبب العصيان . لكن لم يكن من السهل التخلص من أولد تنتت . لقد سعى حتى كشفوا انه كان على صواب فسحبوا قرار الفصل . عندئذ طالب المزرعة بمبلغ ١٫٨٠٠ فورنت كتعويض . وهو يكتب الان

تقارير جديدة من اخطاء جديدة في وظيفته الجديدة .

وكان اليكسي البنّاء احد مرضانا المصابين بالهجاس . كان عاملا مجدا علّم نفسه بنفسه . فرغم افتقاره الى التعليم الرسمي وكونه عامل بناء بسيط فقد تعلم الكثير عن البناء ــ بأسلوب متفرد . كان قد بلغ مرحلة من «المعرفة المشوشة» . كان يبهر رجل الشارع بحرفيته الدقيقة ، ولكن كان في وسع الخبراء فحسب ان يسخروا من تصميماته المستحيلة . لقد قضى سنوات في تصميم مبان شعبية جديدة من نوعها لمنزله ، ذات تصميم شبه كلاسيكي بالغ الغرابة ، تضم اعمدة وتجاويف وعقود وقباب في تكرار بليد ، بحيث لو تم له بناء المدينة الجديدة عام ١٩٨٤ كما كان يقدر ، لغط الناس في النوم وهم يجتازون شوارعها . لم يكن قد ابتنى شيئا في الواقع اللهم الا حظيرة للدواجن في (الجرانج) ، تخلو من العناصر شبه الكلاسيكية لسوء الحظ وكانت كراساته المتضخمة لا تغص بالتصميمات الهندسية فحسب ، بل أفكاره في الفلسفة وعلم النفس ايضا . لم يكن قد قرأ شيئا تقريبا . تكفيه صفحات قلائل من كتاب كي يهاجمه ويعلن انه يعرف كل شيء بطريقة افضل من المؤلف ــ بغض النظر عن اي فرع معني من فروع المعرفة . فهو شاعر وعالم في الاجتماع ورسام ومعني بجغرافية الاجناس وكاتب وفيلسوف ، ويزيد على ذلك جميعا فيعد نفسه ليصبح المهندس العظيم للعصر الحديث .

وكانت هذه السمات من جنون العظمة تختلط لدى اليكس البنّاء بشعور خطير بالدونية ، تعلم نصف شخصيته انه خلو من الموهبة في اي شيء ، بل حتى لو توفر قدر منها ، تنقصه المثابرة ، بالاضافة الى عجزه عن الاقتناع يقعده عن الموافقة او التعاون مع اي مخلوق . ولما كان يعرف هذا ، فقد استسلم لنوع من السخط المرير ، ولعب دور العبقري الذي اسيء فهمه ، وعكف على تدابير مريعة للانتقام من العالم الذي يرفض الاعتراف بعظمته . كانت خطاباته تغص بعلامات التعجب عاكسة النمو المعادي للمجتمع لهذه الموهبة المبتسرة .

شيئان جعلا هذا الصراع الداخلي مأساويا ــ افتقاده القدرة الذاتية الناقدة وذكاؤه الذي «في غير موضعه» . من دلائل افتقاده الى الضبط الذاتي انه زار المجلس البلدي لاحدى القرى غير المعروفة لديه فعرض بناء كنيسة على الطراز الروماني ومركز اجتماعي على الطراز الكلاسيكي للقرية . كما عرض ان يضع خبرته تحت تصرف القرية في اي شيء من التصوير الفوتوغرافي الى الزراعة (لم يسبق له في حياته ان التقط صورة ، ولم يكن يعرف اوليات الزراعة) ولم يطلب في مقابل ذلك سوى حجرة صغيرة وفورنت واحد شهريا من كل مواطن في القرية وهذا عرض متواضع بالتأكيد ! ذكاؤه السليم يجزم ان مثل هذا العرض سخافة، بيد انه خلال هذاءاته الهجاسية لا يستطيع مقاومة الدفعة القهرية لتقديم هذا العرض .

ولدينا ايضا مؤلفة مصابة بالهجاس وان كانت اكثر اصالة . كانت قد نشرت

بضعة روايات ، ولديها الان مخطوطات عدد من الروايات الجديدة والمسرحيات تدهش كيف حافظت على ذكائها ، رغم اضطراب الذكريات الذي يسببه العلاج الكهربائي الذي استمر عدة سنوات (كانت قد نسيت حتى عناوين رواياتها التسعة عشر) ، والسذاجة غير المحدودة التي تتصور بها علاقتها بالمجتمع . فأثناء وجودها في الجرانج مثلا وقعت في حب احد المرضين الذكور ، وكأمر طبيعي طالبت بالانتقال لتبقى معه وتعيش واياه في زواج غير شرعي . واعتبرت رفضنا أسلوبا فاشيا ، وهربت من حجرتها اثناء الليل ، قافزة من شرفة الدور الاول الى الطابق الارضي ، حيث تسللت الى حجرة الممرض الذكر بأقدام موجعة واستلقت عارية في سريره . ولكن الحظ عاكسها . اذ اكتشفت هربها قبل عودة الممرض الذكر وأدركت فورا اين أفتش عنها . وكانت تنتفض غضبا حين اعدتها الى حجرتها ، واعتبرت ذلك انتهاكا للحقوق الانسانية ولم تتردد في مقارنتنا بحراس معسكرات الاعتقال .

لعل اكثر جوانب هذا المشهد أهمية ان المراة التي مسها الحب كانت فعلا على صواب . لقد عقناها عن ممارسة حق انساني اولي . فالهجاسيون دائما على صواب الى حد ما . وتتميز العقلية الهجاسية بأنها تبني بصورة غير ناقدة نسقا كاملا من الهذاءات التي تتضخم لتصبح موضوعا مستقلا ، حول نواة دقيقة من الحقيقة الموضوعية . وهذه صورة من صور التفكير الاجتراري autism من التحول الى قانون في حد ذاته .

***

عود الى تتابع المراحل الستة ، لنتحدث عن المرحلة الثالثة او مرحلة البله Amentiform .

وكلمة A. mentia تعني غياب العقل ، عن اللاتينية mens, mentis التي تعني العقل او الذهن . ولا تطلق كلمة البله على الغياب الكامل للعقل . فالضعف العقلي الخلقي Congenital افتقاد للعقل ايضا ولكنه يسمى بالعته والبله والهوك تبعا لدرجته ويشملهم جميعا اسم oligophreny الذي يعني **العقل الصغير** . وتعتبر حالة التبلد الفائق في العقل التي تعتري المشلولين والصرعيين والمصابين بتدهور الشيخوخة بالاضافة الى من وصلوا الى المرحلة النهائية من الفصام تعتبر ايضا «غيابا للعقل» ـ ولكن هذه تسمى بالعته لا البله.

ويدل البله على حالة يصبح حديث المريض من اللغو بحيث يبدو كأنه «فقد عقله» ، ولا يرجع اضطراب الحديث الى التدهور العقلي ، وانما هو مجرد اضطراب .

وثمة العديد من المرضى البلهاء في الجرانج ، ولقد ذكرت قلة منهم مثل أولجا جوسيب وماري كاموميل التي كان في وسعها ان تفجر سيلا من الكلمات . لكن

احدا لا يقارن بجوزيف جاردسمان ، وإليكم مثالا من فيضان كلماته المضطربة :

«لقد ولدت مرتين . حينما تدهورت الامة المجرية ، كان علم الطب لا يزال في طفولته . ثمة جزء من المجريين استقروا في اليابان ، بينما انتقل الجزء الآخر الى تركيا ، وهؤلاء هم البوسنيون . أما مولدي السابق فكان في مونتنجرو . وكان المفتشون الاسبانيون مجريون من الترتسنفال ، وذهبت الى وسط اوربا كمؤلف موسيقي ومطرب اجتماعي ، انا العب فقط كمازف ثالث للكمان في اوركسترا المفتشين الاسبان لمدينة زيجد لانني طردت بسبب الدوار في رأسي».

اما بالنسبة لميلاده الاول يكفي ان الاسقف جلاتفيلدر اصطاد الخنازير البرية والثعابين من شارع كوسس لاجوس . وقد شارك والده السابق في عملية الصيد. ولقد كان الاسقف جلاتفيلدر «سعيدا جدا» بأن البنادق يجب ان تفحص ، وأطلق والداه البندقية ، فاخترقت الطلقة جمجمة المريض . كان لا يزال حيا ، وهكذا دفنه والداه أسفا مع كمانه .

اما مولده الثاني فحدث على هذا النحو :

«كانت أمي طفلة دخلت في سجل جمهورية اليابان الشعبية ، كانت تجمع البطاطس في الحقول ، وكان لينين هناك وقال تكون او لا تكون ، اذهبي لمنزلك والزمي سريرك . وحدث ان ذهبت الى المنزل وهناك ولدتني . وحين بلغت شهري الثامن عشر ، اخذوني الى فيينا ، حيث مقر قائد الفيلق العالمي جاتزر كنزي ، عالم الكون العظيم ومدير عام الجامعة العالمية للعلوم الطبيعية قال ما دام الامر كذلك بالنسبة للطفل ، كون والده أسبانياً وأمه يابانية ، فالقوا به في خضم الحياة حتى يتعود ذلك قليلا» .

ولقد القي به في خضم الحياة قليلا ، فعلا . من ذلك ، انه أمضى ثمانية اعوام في السجن لانه حاول نسف احد القطارات . وكان وقتها قد جن بالتأكيد، لانه اراد نسف القطار كجزء من واجبه باعتباره حارس التاج . وكان التاج قد فقد ، وهو يعرف مكانه ولكنه لن يكشف عن ذلك حتى لي انا .

«لقد فقد التاج لان مفتشي الموسيقى الاسبان وشعب المجر العليا يمضون في كل اتجاه ، وهكذا ظهرت سلوفاكيا الى الوجود ، وسيكون مصيرها بلا شك ان تضم لبولندا . لقد تخلف التاج عن الحريق العالمي ، ويجب ان نتذكر اول ساعة رملية حين تركوا طيور النورس وحيدة على الرمال المتحركة .

«وتنقل التاج في اماكن شتى . فأخذوه الى تركيا ، ليعرضوه هناك ، ثم الى انجلترا ، وحاولوا اخيرا اخذه الى اليابان ، وعندئذ اختفى .»

في هذه الفترة اصبح صديقنا قسا . لقد تخرج من الجامعة قبل دخوله المدرسة الابتدائية ، وقال الناس يجب على الطفل ان يبحث عن التاج . «واصطنع القساوسة ثقبا عبر وسط اوربا ، وهكذا جاء الفيضان ، فهو ليس غضب الله اذن ولكنه نتيجة الصراع الديني الداخلي . لقد اطلق الاسقف جلاتفيلدر النار على ايلونا تسيرني وماتت ، ولهذا كان من الضروري ان نضع شيئا حسب قرارات

المحفل الدولي .»

وأسر اليّ في اليوم التالي بصورة بالغة السرية انه مركيز ، وقد دوّن اسمه في السجل باعتباره «ماركيز جمهورية السوفييت الشعبية التقدمي» . واتضح في اليوم الثالث انني ماركيز ايضا ، وعليّ أن اجتاز الامتحان امام محفل الفلسفة الدولي ، ولكن لا داعي للخوف ، لانه سوف يساعدني ــ فهو استاذي . وفي نفس الوقت كان يعمل بداب في مزرعة الخضروات ، وان كان ينتحي بي جانبا يوميا لحديث صغير متزن عن المحفل او عن السيد المدعو سمترتسكي التي تستحق حالته الدراسة .

واختفي في احدى عطلات نهاية الاسبوع . وسرعان ما أرسل لنا خطابا يطالب فيه بمهماته التي تركها خلفه ، وعلمنا انه عاد الى قريته بالقرب من تسيجد وانه يعمل عاملا باليومية .

***

ويتكشف جوهر الفصام في مرحلة تزايد اللامبالاة ــ والتفكير الاجتراري الكامل ــ اذا أمكن ان يتكشف «شيء في هذه الحالة من الغربة . ويكون المريض الان من انعزاله عن العالم نسقا كاملا . كان في البداية لا يستطيع ان يعثر على موضعه ، ثم يشعر فيما بعد انه مضطهَد ، ثم تظهر الافكار التي تعزله عن الآخرين وقد اختلطت كلها ، اما الان فتبدأ تتبلور في نسق . وفي نفس الوقت يزيد المريض من إحكام الخناق على نفسه ، فيعزل نفسه عن العالم نتيجة للعجز المتبادل بينهما عن الفهم .

ويطلق على هذه الحالة عامة اسم التبلد الانفعالي او الانطفاء ، وفي اعتقادي ان هذا خطأ . انه ليس انطفاء او تبلدا بقدر ما هو انسحاب الى داخل القوقعة .

ويغلق الفصامي الابواب ــ عيناه وفمه وقلبه .

فاذا استطاع المرء أن يتلصص من خلف هذا الباب المغلق ، يجد ان التفكير الاجتراري يكف عن ان يكون مجرد عبوس او عداء او تركز حول الذات egotism او انطواء او اي شيء شبيه بهذا . وهذا ليس كشفا جديدا ، ولكن قد يعتقد الباحث غير المدقق ان التفكير الاجتراري مجرد انطواء. ان بلويلر الذي يعتبر بمثابة اعظم حجة في هذا الموضوع وجد ان التفكير الاجتراري يتخلص من قواعد المنطق والواقع وتحكمه الحاجات الانفعالية . وليس هذا من خواص الفصام فحسب ، ولكنه يتوفر ايضا في الاحلام ، والاساطير ، والخرافات ، واحلام اليقظة ، والشعر .

ويعتبر التفكير الاجتراري بمثابة تفكير في تحقيق الرغبات Wishfull thinking لا يضع الواقع ولا المنطق في الاعتبار ، ويتجاهل قوانين الطبيعة وقوانين الانسان. ان التفكير الاجتراري لا يضع في الاعتبار سوى قانون الفرد .

ويمكن تقصي كل مرحلة على حدة وبمنتهى الوضوح في حالة ستيفن لاكوفي. كان قد أصيب بمرحلة الانهباط المرضي في الجامعة . وظل في دراسته شاكيا متذمرا حتى دهمه الشك الهجاس والمبالغة في تقدير الذات ، فهو مخلص العالم، يتآمر عليه الناس . وطفق يتحدث عن مؤامرات وتنظيمات سرية ، والداه ليسا والداه الحقيقيين وانما التقطوه من مكان ما ويحتفظون به الان اسيرا ، ولكن .. ثم غدا تفكيره أشد اضطرابا فشوّه كتبه بعديد من الرسومات الغريبة والشعارات، واختلطت معلوماته في الطبيعة والفلك بغرائب الخيال ، فطلع مثلا بنظرية مضطربة عن «البحر الموزع» فالبحر يجعل الاراضي تتآكل ، وتوزع القوى الطبيعية البحار، والضباب فوق سطح البحر نتاج احتراق المعادن ، والغاز الطبيعي السائل ، الذي يخرج من البحر ، ويسبب هذا التوزع الاولي توزع طبقات الارض ... وكان هذا كله يختلط بسلسلة من التعليقات البذيئة ، والرسوم المرعبة ، والكلمات الموزونة غير المنسقة ، والتداعيات من نوع «المجرية كتابة قديمة ، كتابة مومياء ، مومياء سوف تحضر ، ماما سوف تحضر ، ام سوف تحضر ...»

كان يتكلم نادرا ، ولا يشارك في العمل او اللهو ، ويكتفي بالسير وكتابة بنات افكاره الغريبة في كراسته . كان مقبلا عن العالم الواقعي ، يعيش في عالم من صنعه أفضل من العالم الواقعي رغم اضطرابه ، لانه يقدره ، ولا يضطهده ، ولا يوقعه في الاسر .

الاسر والحرية ـ انه الموضوع الرئيسي ، والاهتمام الاساسي لمثل هذه الحالات . وهذه رسالة شاب يجتر افكاره ، عكف على ذاته ، عقب عودته مختلا من احد معسكرات الاسرى ، وظل نزيلا على المصحات منذ ذلك الحين .

«كان ذلك من زهاء تسعة أعوام ونصف حين وقعت في الاسر . لم استطع تحمله ، وان كنت بريئا تماما . لقد جعل روحي شقية فرحلت عن موطني الاصلي ، عن البيئة التي الفتها ... ولقد وعد الطبيب المسئول ان يحررني ، واذا به يضعني بدلا من ذلك في الجرانج . وانا لا اعرف ما الذي يمكن ان يصنعونه لصالحي ، ان لديّ الاهتمام ، لم أفقده . وقد يكون من الافضل أن اسيطر بعض الشيء على اهتمامي الخاص . ليس صحيحا انني آخر رجل على سطح الارض . من الافضل لي ان أعود الى منزلي وأحاول ان اعيش في حرية . على المرء ان يتعلم كيف يعيش ، وانا اعرف ذلك . فلتدق اعناق طلاب الحروب . من حقي أن اعيش منذ ١٩٤٥ كنت في معسكر الاسرى ، ومنذ ٤٧ وأنا نزيل في مصحة عقلية ، وتلقيت عددا لا حصر له من العلاجات ، العلاجات الكهربائية المزعومة ، التي لا أتحمل مجرد التفكير فيها ، ناهيك عن تلقيها . صدقني ، اذا لم تفرج عني فانني افضل الانتحار على المعاناة ظلما . ان المرضى الآخرين يشعرون بذلك ايضا ، ولعل هذا هو سبب افراطهم في اغاظتي . ان مقاربة الانتحار ، الذي يعتبر تنفيذه أشد صعوبة من التفكير فيه ، ليس عملا جيدا بالنسبة لي . ولن أسمح للمجانين ان يدفعوني للموت ، لقد كنت اعتز بقيمة حياتي جدا قبل ان

اصبح من أسرى الحرب ، والآن ايضا أفعل نفس الشيء . وكل ما يمكنني ان اصنعه ، فانني اصنعه لنفسي ، بيد اني اطلب منك ايضا ، ان تأتي وتخلصني من هذا الجحيم ، فأنا رغم كل شيء لم افقد راسي . ولا تحكم عليّ بأساليبك العتيقة في التفكير اذ يجب ان تعلم ان الشخص العاقل لا يمكن ان يتواجد في مقبرة فمن المعروف ان الانسان ليس حيوانا يمكنه تحمل اي انواع المشاق في هدوء . لذلك أكتب طلبي هذا لتخلصني من هذه المشقة ، وسائر انواع المشاق الاخرى . ليس في وسعي ان انتظر مكتوف الذراعين حتى اتحطم . يجب ان تعلم انها ليست غلطتي ان كنت هنا ، من المشين انهم أحضروني الى هنا ولم يرسلوني الى المنزل . انه عارهم الذي يثير الاشفاق على هذه البلاد ، لانه يؤدي الى فقدان الطيب والنبيل . والديّ الاعزاء ، أختم رسالتي متمنيا لكما ولكل الاصدقاء عيد ميلاد سعيد .»

ولسوء الحظ ، كان من المستحيل تحريره ، كان هو الذي احتفظ بنفسه اسيرا ، كان يهاجم المرضى النائمين في براءة ويشرع في ضربهم لانه تخيل انهم يغيظونه . فاذا كان زملاؤه النيام يغيظونه ، فكم بالحري سوف يغيظه عالم الناس الاسوياء الايقاظ .

ولقد كنا اسعد حظا مع بطرس العاشر الذي ابتدأ فصامه وهو بعد صبيا في المدرسة الثانوية ، بنفس الطريقة المألوفة ، أعراض الانهباط المرضي . لم يعد في وسعه اجتياز الامتحان النهائي ، بالرغم من ان اهتماماته الثقافية لم تنضب للحظة . كان يحمل كتابا في قواعد اللغة الانجليزية او مرجعا للجيولوجيا في يده حتى في أشد حالات اضطرابه وسرعان ما تنحى هجاسه للانطوائية الاجترارية والقلق الغامض المجرد وبرغم العلاج المتعمق ، بدأت أعراض الجمود الكتاتوني في الظهور . فكان يقف براس منحنية وابتسامة جامدة مستقبلا الحائط ، او راقدا دون حراك على سريره ، لا يجيب على الاسئلة الا بصعوبة . وفي احيان أخرى جعل يقول اشياء مستحيلة ، متخذا سمتا غريبا وإيماءات تبعث على الضحك . ومن وقت لآخر يغدو عدوانيا مع بقية المرضى والممرضين .

جاءنا على هذه الحالة . كان منطويا ، خجولا ، جامدا ، تستغرقه افكاره الاجترارية . وغدت هذاءاته اكثر اتضاحا ، فكان يدعو بعض المرضى وزراء معتقدا في نفسه انه ستالين تارة والقيصر بطرس العاشر تارة اخرى . فاذا وقف في الردهة ، فلكي يرتجل خطابا سياسيا حماسيا ، ولكن حين يقربه احد ، كان ينتحي جانبا . ونادرا ما يمكن حثه على العمل ناهيك عن اللعب .

ولرب يعتبر المرء ان من يعاني هذا الضرب من الفصام لمدة ثمانية اعوام ، ويقضي متنقلا من مصحة الى أخرى ، متعاطيا علاجا متكررا من الانسولين وصدمات الكهرباء ، تكون تجربة علاجه مرة أخرى مضيعة للوقت . لكن الامر لم يكن كذلك . كان بطرس شديد الخشية من العلاج بالصدمات الكهربائية ، لدرجة انه كان يظل ممتلئا بالشك ومرتجفا حتى بعد حقنه بالايفبيان ، فيرفع راسه وينظر

حوله في رعب ليرى متى تبدأ الخدعة لكن الخدعة لم تكن تبدأ ، الا حين يسقط بطرس في النوم اخيرا (كان يحتاج الى ضعف الجرعة المعتادة من الافيبان ـ كانت مخاوفه تقاوم حتى العقاقير) وتلقى العلاج وحدثت المعجزة . فخلال ثلاثة اسابيع تحسنت حالته تماما . وتحول القيصر بطرس العاشر الى طالب هادىء يستذكر للامتحان باجتهاد . لم يكن ذلك بالتأكيد نتيجة للعشر صدمات الكهربائية (لقد تلقى قبل ذلك ما يزيد عن المائة) وانما للجو المصاحب في الجرانج ، وما فيه من حرية ، وعناية ، وعطف ، كنا نختصه به اثناء سيره نحو الشفاء يوما بعد يوم . فكتب لأسرته رسالة حسنة الترتيب وذكية ، جعلت والداه يستقلان القطار في اليوم التالي ، لقد اراد مشاهدة ما حدث ، اذ لم يسبق طيلة ثمانية اعوام أن كان على هذا القدر من صفاء الذهن . ثم القى محاضرة كاملة في الندوة الادبية عن الملك لويس الاكبر . واعيد الى منزله ، وتوفر منذ ذلك الحين على دراسته في المدرسة والاستعداد للامتحان النهائي . وكتب والداه انه أصبح على شيء من الخجل ، والحساسية ، والقلق ، ولكنه خلو من اي آثار للجنون . هل يستمر هذا ؟ ام انها مجرد مرحلة ؟ الزمن وحده هو الكفيل بالاجابة عن هذا السؤال .

ولم نحقق مثل هذا النجاح الدرامي مع جون (يحكى أن) ، وان بلغنا معه مرحلة العودة الى منزله في اجازة لمدة اسبوعين . فسافر زهاء ثلثمائة ميل. لكنه لم يستطع البقاء هناك ، نظرا لانه لم يتوفر لوالديه أساسا القدر من التعاطف الذي توفر لوالدي بطرس العاشر . ولقد أسعدنا رجوعه ، اذ كان من أحسن بستانيينا .

ظهرت بدايات مرضه في سن الثانية والعشرين ، حين كان يدرس القانون. واتسم مرضه ، بالاضافة الى أعراض الانهباط المرضي والهذاء بالشذوذ الجنسي المتباين . (وهو ما حدث لبطرس العاشر ايضا وكذا بقية الفصاميين من افراط جنس وانحرافات في البداية ، ثم ما يبدو اختفاء كامل للدافع الجنسي فيما بعد) . حين جاءنا في سن الثانية والعشرين ، لم يكن ثمة أثر لاي شيء من هذا. كان عرضه الوحيد الملحوظ ، بالاضافة الى الانطوائية الاجترارية ، هو ما يمكن ان يسمى «الحركة الاوتوماتيكية» طبقا للاوامر . لم يكن يصنع اي شيء تلقائيا ، ولكنه يؤدي اي شيء ميكانيكيا ، كالآلة حين يؤمر . واعتدنا ، حين تحسنت حالته بعض الشيء ، أن نستخدم الامر في اجتذابه الى وسائل الترفيه ، فكنا نأمره بلعب الشطرنج ، والرقص ، والغناء ، والمشاركة في الندوة الادبية ، بل والابتسام والمرح . وكان ينفذ جميع الاوامر بحماس ، بما فيها الامر بأن يبتسم ويغدو مرحا . ولم يعد في حاجة الى أوامر فيما بعد . لقد ظل عاجزا عن التحرك التلقائي ، وان لم تعد استجاباته الانفعالية تفرض عليه . ومع هذا ، فقد ظل التعبير المرتسم على وجهه جامدا كالقناع .

وقد يتوقع المرء خواء عاطفيا خلف مثل هذا القناع الجامد . ولكن القناع كان خادعا . لقد اكتشفت مرارا ان المريض الذي يتخذ وصفا كتاتونيا ايضا ،

يرقب كل شيء ويستجيب له انفعاليا . ان عقله يحكمه الاصرار على ان يكون «قانونا في حد ذاته» . وهذا ما يحدث فعلا ، وان كان لا يشير اليه على الاطلاق. وتستخدم أساليب غاية في البراعة لتجعله يفصح عن ذلك ، وعندئذ يتكشف أمامنا هذا النمط من نسق التفكير .

لقد طالبنا جون (يحكي ان) أن يدون افكاره كتابة . وبرغم اتضاح النسق ، بأقسامه وأقسامه الفرعية ، فلم يكن من السهل اكتشاف جوهره ، اللهم الا ان جون (يحكي أن) يشغله مرضه بالفصام . «طبقا لما سمعته في الجرانج سيكون لي مساء ، اي ان مصيري لن يتغير ، حتى أصل الى التدهور النهائي عقليا وجسديا، وحتى اذا لم تصل حالتي الى هذا السوء ، فلن أعود صالحا لابسط الاعمال . كان هذا ما أكتبه . اما «المساء» فربما قصد به «التحرر» ونهاية الاسر . هل اصل الى هذا المساء بذهن عاقل ام مريضا بالفصام ؟ ما الذي يؤدي الى انفصام الشخصية ؟ هل هو العلاج بالصدمات ام الجنون ام الخبرة المريعة التي مرت بي مؤخرا ؟» ــ كانت الخبرة المريعة التي ذكرها هي حقنة مخدر الافيبان التي اخذها جون (يحكي أن) دون ان يختلج له جفن ــ شأن اي أوامر اخرى ــ ثم ادركنا الان فقط اي اثر مريع تركته فيه هذه الحالة من التخدير . اي شخصية تأتي سوف يتم التضحية بها على مذبح هذه الوسائل ــ هل هي الشخصية الاولى القديمة ، وكذا مستوى معنوياتي المرتفع (اي الشخصية العاقلة السابقة) ام الثانية (اي المريضة) ؟ ألا يمكن ان يوجد ثمة انفصام تتكون عنه شخصية جديدة نتاج لاتحاد الشخصيتين ؟ وابلغ المساء وانا معافى ... اي بذاكرة كاملة ووعي سليم». الامر المهم في هذا التفسير هو الوعي في حالة الفصام . هل يشعر فعلا بانفصام الشخصية ام انه يسمع عنها فحسب ؟ ربما شعر بالثنائية الناتجة عن ديناميات انفعالاته المقموعة ، والاوامر التي ينفذها اوتوماتيكيا وتعوق كل شيء . وأرسلناه الى منزله ، ولكنه عاد بعد ان قرر انه ما دام ليس في وسعه ان يعيش حياة مستقلة ، فمن الافضل ان يقيم في الجرانج لا المنزل الذي تتعطل فيه ارادته ، ويحاول بكل قواه ان يتذرع بالصبر . ان تفهم الهوة المروعة التي تفصل الفصامي عن مجتمعه السوي من الصعوبة بمكان . لقد حدث الانفصام فعلا ، اي فكرة الوعي بالانفصام ، في حالة جون (يحكي أن) . ولم يفصح فيما بعد عن دلائل أبعد لتطلعاته الجنسية الشاذة التي أفزعت أسرته في بدايات مرضه ، ولكن يحتمل أن هذه الغريزة قد شكلت احدى شخصياته ، وكان هذا هو السبب الذي ادى لجنونه ، الرغبة في أن تخرج هذه الشخصية الكامنة الى النور .

انت لا تعرف الا غريزة واحدة ــ فحذار ،
ان تلقى الاخرى على الاطلاق !
ثمة روحان في صدري ،
واحداهما سوف تطلق الاخرى .

ان هذا التحذير الذي يقدمه فاوست ينطبق بالفعل على جون (يحكي ان) وعلى

كل الفصاميين الذين يبدو انه تصطرع في داخلهم شخصيتان . ويعتبر لويس لافتر مثلا تقليديا على الانفصام ، وان بدا حالة شاذة . لم نعرف شيئا عن حياته السابقة ـ ذاته السابقة . وكان هذا غريب ، نظرا للصداقة الدافئة بين لويس وبيني . كان من رجال الجندرمة وفقا لبيانات سجله الطبي . ولكن كان من المستحيل تصور لويس مرتديا خوذة . كان أقرب ما يشبه الى باعة المحلات . كان محبا مفرطا للاستطلاع . تستهويه الاشياء ، وخاصة أنواع المواد ، كثيرا ، وكان خبيرا في النسيج والاحذية ويهتم اهتماما فائقا بمشتروات المرضين ويرغب في معرفة اثمان كل ما ابتاعوه بالضبط . وكان ملما تماما بأنحاء المجر ، وربما كان بائعا متجولا . وكان يخاطب الممرضات بأسمائهن الاولى ، كأنهن أخوات . كان يتدخل في كل شيء ويسأل كل انواع الاسئلة ، ولكنه فجأة يغوص في عالم غامض ، فيهلوس بصوت مرتفع ، مخاطبا نفسه جهرا ويضحك . ولكن اذا حدثناه، فرد وجهه الشبيه بوجه ميفيستوفيليس بغتة في سرعة البرق والقى بتعليق مداور : «هل من جديد ؟ هل نلعب دورا ؟» .

وكان لويس يتحاشى اي نوع من العمل ، يلعب تنس الطاولة جيدا ، ولاعب شطرنج مغرم ولكنه ضعيف . وكان مسئولا ايضا عن التليفون . وكان هذا حلا مثاليا ، اذ يبدو انه يعمل بينما لا يصنع شيئا في الواقع . بالاضافة الى انه يشبع فضوله الفظيع ، بينما خلال التليفون يعرف كل شيء . كان يحوم حول التليفون طيلة اليوم ، وحين يدق ، يختطف السماعة ويتولى «العناية» بالموضوع وكان يتولى العناية بموضوعات شتى ـ ولكنه كان بعد ذلك فصاميا . وحين كان من الضروري أن يمسك بالسماعة وينتظر ، وكان ينسى نفسه ويهلوس في البوق ، فيغمغم بكلمات بلهاء ويضحك . ولكنه في اللحظة المناسبة يغلق أزرار عقله المجنون متحولا الى الآخر السوي ويؤدي عمله بكفاءة . وكان يشبع رغبته الخفية في المرح عن طريق التليفون ـ فكان يفسد ترتيب مواعيد المعالج المهني على سبيل المثال. ثم يضع السماعة ، وان هي الا دقيقة فاذا هو يذرع الردهة مهلوسا .

ما الذي كان يتحدث به الى نفسه في مثل هذه المناسبات . لقد حاولنا آلاف المرات أن نتسمع عليه ولكننا لم ننجح ، برغم انه كان يهلوس حتى اثناء لعب الشطرنج ـ بين حركتين ـ او البينج بونج بين ضربتين . كان يغمغم من بين اسنانه المطبقة . «احضرها هنا . لعنة الله هذه الفتاة الفجرية القذرة ، لا استطيع احضارها هنا» . ظلت هذه هي الجملة الوحيدة المفهومة التي استطعت التقاطها خلال عامين . اما الباقي فكان مجرد غمغمات غير واضحة وضحكات شيطانية . ولكن اذا سألناه «ولكن يا عزيزي لويس ، ما الذي لا تستطيع احضاره الى هنا من تلك الفتاة الفجرية التي انت دائب الحديث عنها» كان يبتسم في خجل وينتقل الى موضوع آخر . كان من المستحيل ان تحصل منه على شيء . كنت العب معه مباريات الشطرنج المفروضة عليّ يوميا (كان يهزم عادة) ولكنه كان يكسب في مباريات تنس الطاولة . كان يسدد الضربات التي يستحيل صدها وهو يهلوس

لكنني لم أستطع الاقتراب منه . كان لا يزال يحبنا . ويعيش وسطنا كعضو محبوب في الاسرة يتجشم المشاق من اجل متاعب كل من فيها ـ لثانية واحدة ، قبل ان يغرق ثانية في العالم الآخر .

اذا صح ان هناك انفصاما فهذا هو بالتاكيد ، انفصام في الوعي ، وفي الشخصية ، وصراع بين **الأنا والأنا المغايرة** ، وهو ما وصفه الشاعر يانوس اراني بصورة أفضل من بلويلر .

هل اصبحت شبحا يزور مملكته
انا ارقب في ضعف ، وصبر وهدوء ،
واسأل في دهش : اما زلت نفسي ؟
ام احتل ذلك الآخر مكاني ؟

لقد كان لويس الضاحك شبحا يزور مملكته . ومن الغريب ان كانت احدى شخصياته ذكية ومرتبة ومنطقية بينما تعيش الاخرى في عالم من الرؤى الغريبة (كان لدينا تقرير وحيد عن مبلغ غرابة هذه الرؤى . فقد ذكرت احدى المرضات انها شاهدت لويس ذات مرة يتمشى في الحديقة ، حين توقف ، وانفجر في ضحكة شيطانية ، وفتح ذراعيه وقال «يا له من عدد مهول من الجثث .. ها ها ها .. يا له من عدد مهول من الجثث. . .» وبدا كأنه يرى السكان المذبوحين في احد معسكرات الموت) . كانت ذاته المنظمة الذكية التي لا تسفر عن ابسط علائم التدهور العقلي عازفة عن كشف اي شيء عن **أناه** او **الأنا** المغاير . لم يسعنا معرفة ما اذا كان له والدان او اخوة او اخوات او زوجة او اي اصدقاء . لم يحدث ان تلقى رسائل او طرودا . ويحدث هذا لباقي الفصاميين ايضا ، فأثناء تبلدهم يرفضون الماضي ، واقرب الاقربين . بيد ان لويس لم يكن متبلدا على الاطلاق بل على العكس كان ذو قلب دافىء ، ومخلوق عطوف ، يشارك الجميع متاعبهم ، يعانق المرضين ويقبلهم ، كان مهذبا ومفيدا لبقية المرضى ـ اي ضرب من التبلد الانفعالي هذا ؟ وبغتة تختفي الطيبة من وجهه ، وتحل محلها تقطيبة ميكانيكية ، وتسرح عيناه الى بعيد ، ويضحك كالضبع ، يضحك ويضحك . لو لم تكن ضحكة على مثل هذا القدر من المرارة ، لاعتقدت انه يضحك منا ، من العالم بأسره .

***

حين يصبح التفكير الاجتراري اشد خطورة ويتحول الى كتاتونيا ، تغدو الصورة اكثر عقما . فالتفكير الاجتراري بعد يعني فلسفة غريبة معينة ، بينما الكتاتونيا مجرد جمود دفاعي ، ومقاومة عنيدة وتعبيرات تبعث على الاستغراب . ان تكرر كلمة او ايماءة الى حد الاملال ، ان تظل تهتز او تصر على الخلفة او تكف عن الحراك تماما ـ فهذه هي الكتاتونيا .

لم تفه كلارا تيزي بكلمة لحقبة كاملة ، اللهم الا مرة تحت ضوء القمر حين

اهتاجت عواطفها . انها تعمل الان في مزرعة الدولة كالآلة الصماء ، ولكنها لا تتكلم هناك ايضا . وظلت ايرما ساروتزي بكماء منذ مراهقتها ولكنها ايضا رفضت العمل . ويظل اولد تابيه مستغرقا في الصمت لشهور ويكتفي باستخدام لغة الاشارة ، وبغتة يشرع في الكلام وكأن شيئا لم يكن . وكان يعمل بهذه الطريقة ايضا . كان يعمل احيانا منذ الصباح الباكر حتى ساعة متأخرة من المساء ، ويقبع احيانا اخرى في بقعة واحدة لاسابيع . واعتاد بيلا بودوفيا الرقص بطريقة غريبة في مساحة مربعة طيلة العام . كان يسير حول المربع ، مؤديا نفس العدد من الخطوات دائما ، ويتوقف في اماكن معينة ، رافعا ذراعيه الى راسه وهو يومي كأنه يمشط عارضيه ، بينما يقفز في خطوات راقصة . وكان يكرر هذا آلاف المرات ، وربما عشرات الآلاف من المرات . ولم تكن لدينا فكرة عما يرمز اليه هذا الطقس . ويسير ستيف آبلز جيئة وذهابا بخطوات عسكرية وهو يعد في صوت اجش «واحد اثنين ثلاثة اربعة ــ للأمام» . ويلقي تعليمات عن كيفية الدوران ، ثم يبدأ كل شيء من جديد . او يتفوه ببعض المقاطع بطريقة كهنوتية . «ويلقي تعليمات يأكل الانسان ، يصبح الانسان جائعا . من يمتلك الكثير من المال فهو رجل غني . من يريد أن يقص شعره ، لن يتبقى له الا شعر قصير . واحد اثنين ثلاثة اربعة ــ للأمام» . كان يغرق في العمل احيانا ، او يظل في سريره ولا يتفوه بكلمة ، ويتجمد جسده كأنه قد من خشب . كان في وسعه أن يهمل في العراء كأنه قطعة من الخشب . (ذات مرة ، وبينما هو على هذه الحالة الكتاتونية، شرعت الممرضة إما في ملاطفته حتى تحرك واستيقظ ومضى صوب الاستراحة وشرع في الرقص مع إما . ان تجعل مريضا كتاتونياً يرقص ــ فهذا شيء لا يمكن السماح به الا في الجرانج) . وكان بول براون يتسمر في بقعة واحدة لا يلوي على شيء ، مداوما على هز راسه . ويجلس جوني جويبكس القرفصاء ، ويتضاءل في نفسه الى اقصى حد ممكن . ويثني راسه على صدره ، ويجد متنفسا لحنقه بتوسيخ سراويله من وقت الى آخر . (لكن شرعت روزي في حثه على غناء الاغاني الشعبية بصوته الدافيء المقبول) ويدير شارلي سبلمنت راسه جانبا في وداعة ويردد كلمته الخالدة «لا» .

لم يكن هذا الانطواء الجامد ، وهذا الانكسار والرفض الشرس ، وهذا الاحتجاج الصارم على كل شيء يعني الاحتراق وخواء الروح . لقد بكت كلير تيزي بدموع حقيقية حين ودعناها في مزرعة الدولة . وشرع شارلي سبلمنت فجأة في الكلام ، عقب هروبه من امه ، حين استحثته الشرطة «بصفعتين» . وظل ارنست دوبل على جموده الكتاتوني ثلاثة شهور لا يتحرك حتى وصل الى منزله . ولم يوسخ جوني جويكس بنطلونه في القرية المجاورة ، وانما شرح لهم بتعقل من اين جاء ، والى اين يريد ان يرحل ، بل وزيف كذبة متقنة . ولم يكن ستيف آبل يلمس الطعام اثناء وجود الممرضة في الحجرة وحالما يصبح بمفرده ، يسمح له عرضه الكتاتوني بالجلوس والتهام غذائه . وكان بيتر بوروفيتش يرقد في سريره

بعينين زجاجيتين ، لا يجيب على اية اسئلة ويبدو في الحال من العجز كما لو كان لا يستطيع الكلام . وبغتة ينهض ، ويمضي الى مكتب البريد بالقرية المجاورة ويطلب بودابست ـ ويجد ما يكفي من الفقل ليطلب «سجلها على الحساب» ـ ويخبر والديه باستفاضة انه على ما يرام ويريد الذهاب الى المنزل في الاجازة . ثم يعود الى سريره ويستلقي فيه بنفس التخشب والوهن السابق . واختفى جو بولجر بغتة بعد ان امسك عن تخشبه الكتاتوني الذي استمر لشهور ، وفتش جميع المرضين الاماكن المحيطة حتى منتصف الليل ، بينما كان مختبئا في حظيرة الخنازير وهو يضحك على المطاردة المثيرة ، ويفر بعيدا حين يقترب الباحثون عنه.

في اعماق الكتاتوني ثمة سخرية ملحوظة وكراهية وخداع . وربما انتقام ايضا . وهو نوع غريب من الانتقام لأن قسوته تضر الكتاتونيين انفسهم ، لكنهم يزاولون متعتهم كاملة مهما ارتفع الثمن ، اي رفضهم العنيد للمجتمع .

وهم يعانون في نفس الوقت .

الامر كله اشبه بتخشب الخنافس حين يدهمها الخطر المفاجيء من حيوان اكبر ـ كالانسان مثلا ـ يحاول لمسهم . ويسمى هذا الفعل خطأ «تصنع الموت» ، ليس في نية الخنفساء تصنع الموت . لقد فارق احد مشاهير اطباء العقول الالمان، كرتشمر ، تخشب وشلل الهستيريا «بتصنع الموت» . بيد ان وجه الشبه اكثر اقترابا بالنسبة للكتاتوني .

وتختلف الكتاتونيا رغم ذلك ، فليس في وسع الخنفساء التي تتخشب ان تسفر عن ملامح ساخرة تواجه بها العالم ، ولكن الكتاتوني يصنع ذلك على التحديد احيانا .

انهم يحققون بصمتهم ، وجمودهم ، وحركاتهم الغريبة او خلفتهم العنيدة والى أقصى مدى «الحرية» الفصامية ، التي جوهرها ان تتحرر من المشاركة .

وتعقب ذلك عملية العته dementia البطيئة . لا يزال ما يحدث في الدماغ اثناء سير الفصام غامضا حتى الان . ويعتقد البعض انه مرض عضوي بالجهاز العصبي يؤدي الى الأعراض العقلية ، بينما يزعم آخرون ان ما يؤدي للمرض سبب عقلي ، وان انحطاط الجهاز العصبي مجرد نتيجة . وكلا الفرضين محتمل. وتزودنا خبرتنا المتواضعة في الجرانج بأمثلة كافية لتدعيم وجهتي النظر ، ولن احاول الانحياز الى جانب (على الاقل لان من المحتمل ان تكون وجهتي النظر صحيحتين) ولكن الذي لا شك فيه انه حين يصل المرض الى مرحلة العته ، يحدث ثمة اختلال في خلايا اللحاء Cerebral cortes ويختلف تبلد الفصاميين المتوهين في هذه المرحلة قليلا عن نظيره لدى المشلولين والصرعيين ومدمني الكحول والمرضى بعته الشيخوخة . اذ تتعطل تدريجيا خلايا الذكاء في الدماغ في كل هذه الحالات.

لم اذكر سوى القليل عن المرضى بالعته ، بالرغم من انهم يكوّنون ١٤ بالمئة من المرضى في الجرانج ـ اثنين واربعون معتوها متعبين افنتهم النار . نادرا ما يتكلمون ، لا لانهم مستغرقون في اجترارهم الكئيب ، بل لان ليس لديهم مما

يقولون . لا شيء يستهويهم . كفوا عن المعاناة ، وهم فوق الخير والشر . لا زال بعضهم يهلوس ويردد هذاءات معينة ، ولكن لم يعد لذلك اية أهمية . كان عدد كبير منهم يصر على حضور الندوة الادبية ويشارك في اللهو آخر النهار . تختلط ثرثرتهم الغبية بضحكات الآخرين ، ولكنهم لا يفهمون بالتأكيد كل ما يدور . يؤدي معظمهم عمله في هدوء ، ويذهب الى السرير بعد العشاء ، وينام حتى الصباح . وربما يشعرون بالرضاء على طريقتهم الخاصة . من المؤكد انهم لا يبدون علائم عدم الرضا ، وهم بدون مطالب ولا يتشاجرون . موجودات خلو من القلق والمشاكل . يأكلون ما يقدم لهم ، ويؤدون عملهم بأفضل ما في وسعهم . لم يعودوا «خطرين» ، لم يعد من الضروري في الواقع الابقاء عليهم في مصحات المجانين ـ ولكن اين يمكن وضعهم ؟

لم يكن في وسعي ان اكتشف الفصام لدى العديد منهم ، لو لم اتخذ من تاريخهم المرضي شاهدا على انفعالاتهم وهلاوسهم وهذاءاتهم الماضية . من يصدق ان ماري سوالو العجوز مريضة فصامية ؟ انها تمضي النهار بطوله تنظف وتغسل وترتق الجوارب في هدوء رصين . كانت بسيطة ، لم نسمعها تتفوه قط بكلمة مضطربة او عدوانية . ولقد كان من المستحيل فيما مضى التعامل مع مسز سميث ، اذ كانت تهلوس بشدة ، ولكنها اصبحت الان أشد من يقشر البطاطس حماسا في المطبخ ، ولا يبدو عليها ثمة اثر للمرض ، بيد انها فقدت ذاكرتها ، وضاقت دائرة اهتماماتها ، ونضب ذكاؤها . وكان فرانك كاوفمان يشتغل في ورشة النجارة ، يصنع أيدي ممتازة للفؤوس ، فهذا ما تبقى من مهارته كصانع سابق للعربات .

لم ينطفئوا ويتبلدوا جميعا الى هذا الحد ، ولكنها على العموم مسألة وقت فحسب . الامر الذي يؤكد بصورة ما ان هذا الضرب من العته يعني السلام بعد المزيد من العناء .

مطلوب فقط ان يتوفر لهم جميعا مأوى كالجرانج ، والا فأين يمكن ان يسعدوا بالسلام «الذي يستحقونه» في ظل ظروف اكثر انسانية نسبيا !

ولقد كانت مجموعة الهيبفرينين اشد مدعاة للحزن . انهم يتوزعون على شتى مراحل الفصام ، وتنتهي مأساتهم الى أعمق ضروب التبلد . ولعل ما يدعو الى الاسى انه لا يصيب بعامة الا الشبان الموهوبين دائما . اولئك الذين كانوا من التلاميذ اللامعين في المدرسة ، موضع فخر أسرهم ، والذين كان مدرسوهم يحاولون اللحاق بمواهبهم المحلقة التي تبشر بأكثر الآمال اندفاعا ـ بغتة يهتزون، ويفقدون الثقة ، وتتضخم حياتهم الانفعالية . ثم ينتابهم الشك ، ثم فترة الشعور بالمهانة ، ثم البلبلة ، والعكوف العنيد على الذات والاغتراب عن الحياة وبداية الهيبفيرنيا المبكرة . بغتة تجد الاسرة ان الشاب الذي كانوا يفخرون بما يردده من أشعار ، لا يستطيع ان يتذكر جدول الضرب الا بالكاد .

هناك مثلا جوليوس رود نوي الذي يبلغ من العمر الان عشرون عاما والذي

لا زالت امه تحتفظ بكراساته المدرسية لتدلل على مبلغ نجابته في المدرسة . ظل مرغوبا من الجميع ، حتى بدا يتصرف بصورة شاذة في سن السادسة عشر . اصبح وقحا غريب الاطوار يردد الهذاءات ، وشرع يتحدث عن ضرورة اقتراف اشياء غريبة ، حين وصلنا ، كان قد بلغ آخر خطى مرحلة البله ، فكان يردد كل انواع الغلو ، ويتمشى جيئة وذهابا . ويقلب وجهه بصورة كتاتونية . لم يعد له من ذكائه القديم الا شذاه .

ولقد كان باجز في العشرين من عمره ايضا . كان صبيا من الفلاحين امضى في المدرسة خمس سنوات فحسب ، ثم عكف على الدراسة بالمنزل حتى يتسنى له اجتياز امتحان الشهادة الاولية . وعقب ذلك مباشرة كان يجب ايداعه المستشفى . ان احدا لا يعرف كيف ولا ماذا حدث له . انه الان يحدق أمامه ويكز على أسنانه دون سبب .

وكان ليزلي سناي يريد ان يصبح قسيسا ، لكنه ترك المدرسة بسبب رؤاه الدينية وهذاءاته قبل أن يحصل على الشهادة . وتلت ذلك مرحلة انتقاد الذات . وسرعان ما خفت حدة تعصبه الديني ، وأصبح انطوائيا ، يتكلم في اضطراب ويردد نظريات غير مفهومة عن الذرات البشرية والرباط الميتافيزيقي بين الدين والوجود المادي . وغدا اكثر جمودا وغباء ، وتجمدت على وجهه بسمة بلهاء ، بينما يساقط فمه اللعاب . ثم صار يقف او يرقد في وضع كتاتوني ، ولا يجيب على الاسئلة . وحين جاء الى الجرانج ، كان في الخامسة والعشرين من عمره ، معتوه تماما ، لا يستطيع الكلام او الاكل الا بصعوبة . كان يلتهم الاقذار التي يلتقطها من أكوام السباخ . كان يوما من المهتمين بالمسائل اللاهوتية ويتكلم ثلاثة لغات ، وليس في وسعه الان أن يتلو الصلاة الربانية .

ويعتبر الهيبيفرينيون اكثر فصول الطب العقلي مدعاة للعطف . من المستحيل اعادتهم الى كائنات اجتماعية ، أقل العزاء انهم في عتههم دائمي ولا يعانون .

***

سواء كنت مصيبا او جانبت الصواب بالنسبة لنسق المراحل الستة ، فالذي لا شك فيه ان الفصاميون كما وصفت . ان النسق لا يهم ، ذلك ان المرض نتاج الطبيعة ، ونحن الذين نقدم النسق . وربما لا تهم التصنيفات او العبوات التي نضع فيها الامور . وان كنت أوصي بعبوتي الخاصة . اذ اعتقد ان هذا التصنيف سهل وصحيح . انه يفسر كيف لا يتعارض الشيء ونقيضه في نفس المرض ــ الحساسية واللامبالاة ، الثرثرة والخرس ، التفلسف والتبلد الكامل ، بيد ان هناك ثمة حالات تفلت من تصنيفي ومن تصنيف بلويلر كذلك ، كان بيتربورفيتش احداها ، وكذلك فرانك (المتهم ذاته) وروزي الخياطة وقلة آخرين . واننا لنتساءل هل هي حالات «غير نمطية» ، ام انهم أدرجوا تحت قائمة الفصام لاننا لا زلنا نصنف في الكلام ولم نجد بعد مكانا لهم .

الفصل الثالث

الصرع

يُعتبر الصرع امرا بالغ الصعوبة . ومن المعروف جيدا ان هناك ثمة من عانوا الصرع من بين المواهب المبدعة ، كالفنانين ، والرسامين ، والقادة العظام ، بيد ان معظم المصابين بالصرع من نزلاء الجرائج كانوا متدهورين عقليا . وتوضح احصائيات الجريمة كم يكثر المصابين بالصرع من القتلة واللصوص (بل وتزيد بين أقاربهم) . ومن جهة أخرى هناك الكثيرون في عائلات الكهنة والراهبات . وتتضح الشفقة المفرطة والقسوة في نفوس المصابين بالصرع بصورة متطرفة .

من اين نبعث هذه الثنائية ؟ انها تركة قابيل وهابيل لو شئنا الصورة الادبية . ففي النفس البشرية يوجد الطيب والخبيث ، الملاك والشيطان ، الفضيلة والرجس . ويبدو ان هذه الثنائية تصطرع في جانب من ادمغتنا . ويمكن افتراض انه في قلب «مركز الفضيلة» هذا ثمة جزء من الدماغ ينتج عن اثارته فقدان الوعي والكئابة القهرية . والا ما هو السبيل الى تفسير وجود ظاهرتين على هذا القدر من الاختلاف البين ، هما الشخصية الصرعية والنوبة الصرعية يسيران معا جنبا الى جنب ؟

لم يكن المرضى بالصرع في الجرائج من الشعراء او القواد ، وانما كانوا من ضعاف العقول . ويسبب الصرع في حد ذاته العته ، ولم يفقد مرضانا الصرعيين

قواهم العقلية بعد ولكنهم كانوا من ضعاف العقول ذوي القـــدرة الضئيلة على التطور . وكان تاريخهم المرضي يتضمن عوامل ثلاثة : الضعف العقلي ، نوبـات دورية مصحوبة بفقدان الوعي ، شخصية صرعية شاذة .

وتزودنا حالة بيتر مارتير بفكرة ما عن طبيعة شخصية المصاب بالصرع . لقد كان هذا المحتال الكسول الشاب الدائب التذمر ، يغلف شروره بالعطف ولا يبذل جهدا على الاطلاق للتحكم في مزاجه . كان بمثابة حالة نمطية للشخصية الصرعية اذا جاز لنا ان نتحدث عن الانماط . لقد كان هناك بيتر مارتير واحد فحسب حتى ولو كان نمطيا . ولقد كان الآخرون نمطيون ايضا ، ولكنهم كانوا مختلفين في نواح شتى .

كان هناك رادار ، الفلاح ، مثلا . كان يشبه أولد تيننت في تخرجه مـــن احدى المدارس الزراعية وكونه فوق الخمسين . وحين وصلت زوجتي وانا الى الجرانج ، ألقى خطاب الترحيب بالنيابة عن بقية المرضى . ورغم انه لم يكـــن يعرفنا ، فقد ظل يتحدث عن مآثرنا بطريقة أشبه بالتأبين في الجنازات . لقد كان رادارا ديماغوجيا . وهذا ليس تشخيصا ، ولكنها سمة شخصيته الرئيسية . وكان مغنيا عاطفيا ، على الرغم انه يتكلم بصعوبة ، ويتعثر غالبا (الصرعيـــون واقاربهم يتعثرون غالبا في الكلام) وحين أرسلناه فيما بعد الى مزرعة الدولة ، عاد فألقى خطبة تثير الدموع باسم المجموعة التي ستغادرنا . في مثل هـــذه المناسبات كان يغدو معسولا ومنافقا ومداهنا . بيد انه لم يكن يحب العمل على الاطلاق ، وانما أولع بدلا من ذلك بتثبيط الهمم وزرع السخط بين الناس . وكان يثير كل يوم غالبا معركة وهمية لم يعد احد يأخذها مأخذ الجد ـ بما في ذلك هو شخصيا ، بيد انه غدا شديد التعود عليها فكان يثيرها حتى وهو يعلم انه لن يربح شيئا من ورائها .

ولقد أودع المصحات منذ شبابه . ويدل تاريخه المرضي على انه بدا يشعر بالدوار والضعف في سن الثانية عشر . ولم يسبق أن شاهده احد مصابا بنوبة صرعية نمطية . ومع هذا فقد اودع المصحة بعد ان شخصت حالته «ذهـــان صرعي» . وأدين عام ١٩٤٠ في المحكمة بتهمة الحريق العمد . ولم تكتشف قط حقيقة ما حدث ولقد أوضح بصورة مضطربة ان اجتماعا سياسيا قد حدث في قريته ، وانه كان مطاردا لانه شيوعي ، فاضطر للاختباء ، ثم اشعل النار فـــي مخزن للدريس وأبلغ الشرطة انه مصاب بجنون الحرق العمد Pyromaniac ولما كان هناك ثمة علاقة بين جنون الحريق والصرع ، فقد ابتلع الاطباء اعترافه المزيف وأودعوه المصحة بدلا من السجن .

الخير فيما وقع ، بيد ان مطاردة الشيوعيين توقفت في ذلك الوقت ، وكان في وسع صديقنا أن يكف عن تمارضه ـ ويعود الى الحياة الطبيعية ويفدي بلده المحبوب بنفســه ـ هذه الرغبة التي طالما أفصح عنها باكيا مرتجفا . لكنه لم يعد. كانت حياة البطالة في المصحة مناسبة لشخصيته . ولم يكن في المصحة من هو

اشد منه اصرارا على التبطل (اللهم الا السيد فيدلر (صانع لا شيء) ، نائب المدير وان كان يتقاضى نظير ذلك مرتبا على الاقل) ، وكان يعرف جيدا انه لا يستطيع الحياة في اي مكان آخر على التبطل وإثارة المتاعب . لذلك واظب على نوبات الدوار بحماس ، وداب على الشكوى من امراض متوهمة ، يسبح بحمد الادارة احيانا يرفعها الى السماء حينا ، ويمرغها في احيان اخرى في الوحل. وكان يقوم بسرقة مدخرات بقية المرضى ، بينما لا ينقطع حديثه عن الامانة .

واقترح في لحظة من لحظات الشعور بالاباء ان نوحد جهدينا انا وهو للقضاء على الصرع . لا صرعه هو ولكن الصرع بعامة . ولم يكن اسلوب العلاج الذي اقترحه لهذا الغرض شيئا آخر الا الجنس لقد أجرى تجارب علمية تأكد منها ان الحياة الجنسية المنتظمة تشفي الصرع . وتراجع عن الاعتراف بأنه مارس هذه التجربة في نفسه (على الرغم من ان شريكته أولجا جوسيب الثرثارة لم تبق سرا انهما استخدما مرارا هذا العلاج الممتاز) . واشار الى احد اصدقائه وكان يتعرض لعديد من النوبات من قبل ، ولكنه منذ انهى مهمته مع فتاة مصابة بالصرع ، لم يتعرض كليهما للمزيد من النوبات . ولسوء الحظ ، كان موضوع التجربة قد اعاده الطبيب العجوز الى مستشفى المقاطعة لانه كان عدوانيا لا يمكن احتماله ، وهكذا اعيقت التجربة ، ولكن رادار أقسم انه اكتشف العلاج المؤكد للصرع ، وعرض ان يتقاسم معي دخل هذا الاسلوب ، وأن علينا ان نعلنه في صحيفة علمية، ونتشارك الدخل الذي سيدره .

وأنني متأكد تماما من ان طريقة رادار لن تنجح مع كل المرضى بالصرع وان كنت لم ادهش لانها نجحت معه ومع صديقه ، ذلك ان كليهما كان مصابا بالصرع الهستيري . واعتقد كذلك ان الجنس يقلل النوبات عند من يمارسونه بالرغم من ان ايرما سلندر المتعددة الخطّاب كانت أقل هستيرية من الرجال السابق ذكرهم ويسمى الضرب المصابة به من الصرع بالصرع «الخالص» انا اميل الى الاعتقاد بأنه حتى الصرع الخالص ـ اي الصرع الخلقي الذي يبدو مستقلا عن الظروف الخارجية ـ يتأثر الى حد كبير بأسلوب الحياة ، ويبدو من المحتمل ان قمع الغريزة الجنسية قد يسبب النوبات في الصرع الخالص ايضا . ومع هذا لم اكن مستعدا لافتتاح مصحة بالاشتراك مع رادار او علاجه الجديد في مجلة علمية . فمهما كانت الاهمية العظمى لاكتشافه ، فلم يكن يدرك الا قليلا انه يلعب بالنار امامه ناحيتي ، فبوسعه ان يزاول تجربته العلمية في الخفاء ...

وهكذا فعل ، ولكنه لم يستسلم . واكدت شريكته ، أولجا جوسيب المضطربة تماما ، انها أنجبت منه ستة واربعين طفلا ، الامر الذي يستدعي اقامة مصحة أطفال من أجلهما . ولكن لحسن الحظ ان أولجا العجوز لم تعد يمكنها الانجاب ، وهكذا لم تكن للتجربة اية مخاطر . ولكنني أعترف انه عقب هذا «العلاج الجنسي» لم تعد حالة رادار العقلية اكثر هدوءا فحسب، وانما حالة أولجا الفصامية العجوز التي كانت واحدة من اكثر مرضانا اضطرابا وقصورا . كانت

شديدة القصور لدرجة يمكن ان توصف في فترات اندفاعها انها عدوانية ، وان كان الطب العقلي يعترض على هذا . كان فم أولجا المجوز يزبد ، وتجحظ عيناها حين تلعن العالم في هذه اللحظات لا يجديها شيء حتى «العلاج الجنسي» .

ولما لم يستطع رادار ان يعالج نفسه تماما بعلاجه الخاص ، فقد جربت علاجي انا ، العلاج بالعمل . ولكنه لم يكن اكثر نجاحا . لم يكن من السهل جعل رادار يعمل . لقد ولد متبطلا . ومع هذا ، نجحت في النهاية عن طريق الحوافز ، والتشجيع ، والوعود ، والتهديدات والملق وصعق المرضى والمرضون جميعا ، رادار يعمل ، شيء لا يصدق . وقرر ، وهو يذكرنا بشهادته الزراعية ، ان في وسعه أن يحيل حديقة المؤسسة الى جنة عدن الحقيقية اذا اخذنا بمشورته . واخذناه بكلمته : برهن على ذلك . ولم نتحصل على جنة عدن ، بيد ان الثرثار الكسول ظل يعمل بكفاية لاشهر قلائل ، بل وارسلناه الى مزرعة الدولة مع اول دفعة . ومضى في حماس . سوف يبرهن عما يمكن ان تصنعه المعرفة المتخصصة والعمل ، وسوف يعود مدير المزرعة من جديد . وتلقيت منه رسالة طنانة شاكرة.

«عزيزي الدكتور المسئول ، عذرا على اقلاقك بهذه السطور ، لكنني لا استطيع أن أنسى . انني معافى واشعر على ما يرام ! لكن ما يؤلمني ان العش الذي كان قلبك الطيب يرعاني فيه بمزيد الحب والعناية ، والذي كان صاحبه يسمى ...» (هل يمكن ان انكر ان قلبي الطيب لم يشعر ابدا بأي عاطفة تجاه هذا المريض على وجه الخصوص ، بالرغم من انني حاولت اخفاء هذه الحقيقة) «لا استطيع أن انسى انه انت الذي اعاد اليّ كرامتي البشرية . وجعلت في امكاني ان اعود عاملا شريفا في المجتمع وإبنا مخلصا اوطني !»

وهكذا على امتداد اربعة صفحات .

ثم لم نعد نسمع عنه المزيد . والتقيت به بعد عام في عنبر مرضى العقول في ليبوتميزو . كان بالغ الرثاثة والقذارة كعادته ، ووعد في طنطنة ان يحيل الجرائج الى جنة ، فيما لو استطاع العودة اليه ...

***

لقد تم تصنيف هذا الزراعي المتبطل ، الذي انجب من اولجا ستة واربعون طفلا ، وكان اشد قذارة من مارتين كيمست ، باعتباره مصابا بالصرع بالرغم من ان احدا قط لم يشاهده مصابا بنوبة صرع حقيقية . ومع هذا كان ثمة في شخصيته ما يسمى «بالشخصية الصرعية» . الكسل المنافق ، والكلام المعسول ، والوعود المتسمة بامتداح الذات ، ونوبات سوء الخلق ، والتذمر المتمرد ، والانسحاق ، والشعور بالاشفاق على الذات ، والشح بالجهد ، والدسائس الفاسدة والتظاهر بحب الخير ـ هذه سمات الشخصية الصرعية ، ويمكن ان

نضيف الغباء والتبلد الذهني . واحيانا الدوار او فقدان الوعي او حالات التشوش Clouded ولقد توفر ذلك جميعا في رادار . بيد ان رص هذه السمات الى بعضها ، ليست هي ذاته تماما . ان شخصيته الخاصة ، وقدره الخاص ، هو بذاته مفتقد في هذا الوصف . ما الذي يدور في راسه حينما يغدو قديسا او منافقا ـ او سيء الخلق ؟ ولماذا اختار هذه الحياة القذرة المملة في المصحة ، هذا التبلد والكدر ، على حين انه قادر حقا على العمل وفي وسعه ان يعيش حياة مختلفة تماما ؟

وهناك ايضا شامبي ، غلام في التاسعة من عمره . كان الغباء مرتسما على وجهه . وكان يصاب بنوبات من الصرع الخالص وخاصة عندما يشرب . وكان يبدو من وقت الى آخر كأنه يسير في حالة من الرخاوة غير واع بنفسه تماما . وحين كان الاشقياء يحكمون الجرانج ، كان يسايرهم ويشارك في كل اعمالهم الشريرة . ولكن كان من الممكن تهدئته بسهولة بالتهديد او بكلمتين طيبتين . ومن السهل استهوائه للخير كما للشر وكان صرعه من نوع شديد التباين عن رادار . وكان من الصعب ان يضحي شخصا ذكيا ، وان كان في وسع العلاج ان يوجه شخصيته الصرعية الى الاتجاه السليم .

او لنأخذ بيلا فيليب راعي الخنازير . كان في السادسة والعشرين من عمره ولكنه بادي الطفولة لدرجة تجعله يبدو في السادسة عشر . ونظرا لضعف عقله كان مشغوفا بالمشاركة في اي ضرب من ضروب الشغب ، لكن لم يكن في وسع الفتوات أن يدعونه بمارس اي شر . وكانت تكفيه بضعة كلمات ليمارس أشد الاعمال قذارة كمن به مس ، وتملأ اقل اهانة قلبه بالمرارة حتى الاعماق . وحين يحدث هذا كان يضرب كطفل مغيظ .

وذات مرة ، عقب وصولنا الى الجرانج بشهر ، نشبت في المطعم معركة ضارية ، وحين استطلعت الامر ، أبصرت ثلاثة اشخاص يلقون بأنفسهم فوق بيلا فيليب البادي الهياج ، والذي كان مصرا على ركل الباب بعنف قبل ان يجبروه على الرقود ارضا . واستطعت بصعوبة ان انتزع هامستر وصانع الاحذية الفجري من فوق راعي الخنازير المعن في العويل ، واثناء «تأدية واجبهم كممرضين» جلس احدهم فوق صدره ، وآخر فوق رأسه ، بينما ألقى احد المرضى بنفسه فوق قدمي بيلا من قبيل مساعدتهم .

وحينما خلصته ، أخبرني ، باكيا ، عما أصابه من هون ـ لقد حصل زميله على نصيب اكبر من اللحم ، بالرغم من انه اشتغل اقل منه ...

وكانت هذه فرصة طيبة لألقن المرضات محاضرة في «تهدئة المجانين المهتاجين» ، ما دامت وسائلنا مختلفة في الاساس . انهم يسخرون الان من وسائلهم السابقة . وتعلموا اخيرا الا يبرروا الامر بعجزهم عن تمالك انفسهم من فرط الغضب .

وانتابت بيلا فيليب نوبات منتظمة من الصرع من وقت الى آخر . كان

يسقط فاقد الوعي ، وتنتابه التشنجات ، فيضرب نفسه ، ويخرج الزبد من فمه . ثم يرقد فيما بعد على سريره في حالة من الغيبوبة نصف نهار بأكمله ، فلا يسمع او يرى ، مكتفيا بالبكاء والصياح قائلا : «أماه ! اين انت يا أماه» .

لم نعرف اين امه ، او ما اذا كان له أم حقا . لقد سبق ان كاتب الطبيب العجوز كل الجهات . الشرطة ، ومختلف مجالس المدن ، فكان يتلقى دائما الرد بأن الشخص موضوع البحث غير معروف لديهم . لكن الصبي لم يكف البحث عن امه . بل اراد ان يذهب مع اول جماعة تم ارسالها الى مزرعة ، ليكتسب مالا ، ويغدو حرا ، وعندئذ يمضي ليجد امه .

حين جاء موعد الوداع . قضى خمسة عشر دقيقة متعلقا برقبة رئيسة الممرضات باكيا ، ثم طرق باب حجرتي ، والقى بنفسه على كتفي باكيا ولعابه يغمرني . وشعرنا بالاسف من اجله واخبرناه انه ليس مجبرا على الرحيل . لكن بيلا ما كان ليبقى . مضى دامعا باكيا كطفل يفتش عن امه .

قبل انقضاء شهرين ، أعيد من مزرعة الدولة الى ليبوتميزو باعتباره من الحالات «الميئوس منها» و«العدوانية» .

***

هل هذا هو الصرع ؟ اجل ، ولكن هكذا ايضا كان نقيضه .

لم يكن لدى بيتر وولف العجوز البالغ من العمر اربعة واربعين عاما مثلا ، اي اثر للشفقة او الطفولة او العاطفية . كان سيء الخلق ، جافا يصعب الاقتراب منه . نادرا ما يتحدث مع المرضى الآخرين ، ويفضل العمل بمفرده . ويعود اكتئابه بصورة جزئية الى انه اصيب بأول نوبات الصرع في سن كبيرة . فلم يتأثر عقله ، بل كان على وعي بمرضه ، الامر الذي عذبه . واستمر الاكتئاب حتى بعد ان قلت عدد النوبات بفضل العلاج ، بل واختفت فيما بعد تماما . كان من الصعب ايجاد تفسير معقول لحالته المزاجية .

وعلى عكس معظم مرضى الصرع الآخرين ، لم يكن بيتر وولف طيبا مع اي مخلوق . لم يكن يحب احدا او يبالي بمخلوق . لم يكن يضايقه سوى ولع ماري ويلدر الجميلة المرحة به . لكنه لم يعبأ بها . كان يسرق الاغصان من الجيران فيصنع منها سلالا ، ثم يبيعها الى الجيران ثانية . وحين تضجروا من سرقاته وحاولوا ابعاده ، انتابه الغضب ، وكان هو الذي أجلاهم في النهاية ، وان لم يحسن ذلك من طباعه . فحاول الانتحار مرات عديدة وكاد ان ينجح تقريبا .

وشفي بعد ثمانية عشر شهرا وتم تخريجه . شفي من الصرع ولكن كآبته استمرت . لم يكن من اولئك الذين وجدوا الجرانج بمثابة مأوى لهم . لقد رفض المجتمع المصنوع ، والقفص المموه ، ومضى الى منزله ظنا منه انه واجد المأوى في بيئته الحقيقية . بيد ان هذا لم يحدث . ولا ريب ان بيته الحقيقي

اعتبره غريبا ، اكثر من واقع الامر في الجرانج . وخشيت أن ينتحر .

(لم ينتحر . لكنني قابلته بعد ستة اشهر في مصحة عقلية اخرى . لم يتعرف عليّ ، وتعرفت فيه بصعوبة على هذا الرجل الذي كان بادي الذكاء . كان ممتلئا عن آخره بجرعات البربيترات ، يقف متخشبا في مكان واحد . لم يستطع تذكر الجرانج ، واكتفى بالشكوى في لغة بذيئة . هذا هو الاثر المفيد «للعلاج المسكن» الذي «يهديء من قلق المرضى ....») .

ولم يتشابه لوكاس العجوز مع وولف أو الآخرين . لم يكن صغير العقل او جافا ، لا منافقا ولا طيبا ولا شريرا . مجرد فلاح عجوز يعمل في الحقول بمهارة واخلاص . تستوي لديه في ذلك كل الحقول . كان لوكاس العجوز عاشقا لأمنا الارض ، كالفلاح بطل احدى الروايات . فاذا دعته الارض ، فلا شيء يصوق جسده الذي انهكه العمل . داهمه التبلد في بطء ولكن بخطى حثيثة ، ففارقه ذكاؤه وذاكرته ، وأن احتفظ ذهنه بكل ما يتعلق بالزراعة وكأنه كان يدرك ضرورة الاقتصاد في ذكائه الذي لم يعد يصلح للكثير ، فآثر الا يفكر في شيء سوى الارض . لم يكن يتحدث مع المرضى الآخرين ، وفي غير حاجة الى اللهو . فاذا تفوه بشيء ، فهو مفعم بالارادة الطيبة ، والشفقة ، خلو من شائبة النفاق «الصرعي» . كان من مرضى الصرع القلائل الذين يسفرون عن تواضع حقيقي. كان مخلوقا راضيا وسط الساخطين الى الابد .

وكان اليكس بيتروت ، وهو مريض آخر بالصرع ، يضفي على النزل جوا من الجلبة لعدة ايام حين تدهمه نوبة من الصرع في اثر اخرى . أصيب ذات مرة بسلسلة من سبعة عشر نوبة . كان يسقط بعنف شديد يجعل الحفاظ عليه مهمة صعبة بالنسبة لثلاثة رجال . ولحسن الحظ كان بقية المرضى متفهمين ومتعاطفين معه ، وكان يقف على حراسة سريره لساعات رجل قوي البنية وان كان فصاميا مختلا تماما ويعاون المرضون في تهدئته حين تعاوده النوبة .

ولرب معتقد أن مثل هذه النوبات المتتالية التي تبهظ المرضين الرجال من شأنها ان تهد كيانه . ولكن ابدا . فحالما يستعيد اليكس نفسه ، كان يهبط من سريره ، ويتناول طعامه بشهية مفتوحة ، ثم يتجه صوب الحديقة ويعمل بجد شديد كأنه لم يتعرض لنوبة قط . او كان يشرع في الرقص دون ان يشعر بالتعب .

لكنه لم يكن يعمل الا اذا واتته الرغبة . فاذا ركب في رأسه ان هذا هو موعد الانصراف ، فلا رجعة عن ذلك . «في وسعي ان أعمل بالمنزل» هكذا كان يقول في عناد . ولم يكن من المفيد مناقشته لانه يفقد أعصابه بسهولة ، وعندئذ لا يضع اعتبارا لاي شيء . كان يهاجم كالديك المقاتل .

ودبّرنا أن نضع حدا لنوباته ، حتى يصبح في وسعنا أن نحقق رغبته وندعه يعود لمنزله . ولا ريب انه سينخرط في بضعة مشاجرات في قريته ، لكن هذا يحدث «للأسوياء» ايضا . والواقع ان لجو الجرانج الفضل في وقف النوبات .

فسرعان ما تخلص المرضى الذين كانت تنتابهم النوبات يوميا في الغالب قبل وصولهم ، من نوباتهم مع العلاج الخفيف او بدون علاج على الاطلاق . وذكر والدا امراة مريضة بالصرع ، وضعيفة العقل ، ان سيدة عجوزا افزعت المريضة وهي في الرابعة من عمرها بمكنسة ، ومنذ ذلك الحين تصاب بالاغماء يوميا في الغالب . وبدا أن مكنسة العجوز السحرية ليست بذات اثر في الجرانج . كانوا في المنزل يبهظون المريضة بالعقاقير ، اما هنا فانها تتعاطى حبتين عديمتي الضرر يوميا ويكفي «الجو» ليخلصها من النوبات . اما ضعفها العقلي فلا يمكن علاجه بالطبع .

ثم كان هناك فيري صانعة الدانتيلا . كانت ابنة اسرة من المثقفين التحقت بالمدرسة وتعلمت ضربا فريدا من فن صناعة المخرمات . لم تكن غبية قط ولكنها محدودة جدا ، ذلك انها كانت مرحة فعلا ، وماهرة ، وان انحصرت افكارها في مساحة محدودة جدا . ووفقا لاحصائيات اخيها . كانت تصاب بالنوبة عشرون مرة في الشهر ، ناهيك عن حالات الرخاوة التي كانت تستمر بضعة ثواني ، تضرب أثنائها بيديها بلا معنى ، وتزوغ عينيها ، ولكن دون تشنجات . ولم تكن تشعر بحالات الفيبوبة هذه ، ولكنها كانت تكتشف فيما بعد انها فقدت ابرة الكروشيه او اخطأت في شغل الابرة . ويجعلها هذا تشك في انها مريضة .

كان يصعب احتمال فيري المسكينة . كانت فتاة عجوز نقاقة تدين العالم في استهزاء على سخافاته ، وتختص بالسخط اخيها المهندس . او «السيد الفني» كما كانت تسميه تهكما . كانت تدعوه في خطاباتها «الاخ المبجل» وتشعر بالمرارة لمحاولته التخلص منها . ولكن كل من يعرف أخلاق فيري التي لا تحتمل لا تنتابه الدهشة لان السيد الفني حاول التملص من قبضتها .

كانت تكره الممرضات ، وتسمي ممرض النوبتجية الليلية «الذكر الفحل» ، والممرضات «الجلفات ذوات الجلاليب الزرقاء» وان لم تجانب بذلك الحقيقة . وكان ينتابها السخط حين يرقص الآخرون . فهناك دائما احدى المحاضرات الطبية او العلمية المبسطة في الراديو في نفس موعد الموسيقى الراقصة ، وهي تفضل بلا شك الاستماع اليها ، لم تكن تعبأ قط بحقوق الاغلبية ، وهكذا ، فحين تخسر المركة ، كانت تنفجر بالغضب . وطالبنا الاخ «الفني» بتزويد أخته براديو حتى تتمكن من سماع ما شاءت من البرامج . وبدا كأن هذا هو غاية ما تتمناه . وحين تكون وحيدة في غرفتها ، كانت تدير الراديو احيانا ، فاذا دخل اي شخص آخر اغلقته ، فهي غير مهيئة لتقديم التسلية المجانية .

وفوق كل هذا كانت شديدة التدين .

لم تحدث العشرين نوبة الموعودة . وفي البداية لم تحدث حتى حالات الرخاوة . ولكنها عانت فيما بعد من اختلال الشعور من وقت لآخر . ولا يستطيع المرء أن يتقصى السبب بعامة . ربما لم يعجبها خطاب اخيها الفني الاخير او ربما لا يجد احدا الوقت لتشاغب معه . ولكن حينما كنت اجد الوقت المتوفر لالاعب

فيري الضامة، فلا حاجة بها للعقاقير . هكذا كانت تقول فيري نفسها . وهي على صواب . وحين كانت رئيسة المرضات تنزل بها الى شقتنا ، ويجلسان سويا يشتغلان الإبرة لمدة ساعة او ساعتين فقد كان هذا يعادل اسبوعا من العلاج . ولكن حين كنا في اجازة لمدة اسبوعين ، أصيبت فيري بالنوبات ثلاث مرات يوميا. وحين عدنا اختفت النوبات .

واوضح ذلك أن لعب الضامة واجب لا يقل اهمية بالنسبة للطبيب من الشطرنج او البينج بونج . فهذه جميعا وسائل علاجية جادة ، مهما أضجرت الطبيب . ويجب ان نوجه بعض التفكير الى اسباب حدوث النوبات الصرعية . صحيح ان نوبات لوكاس العجوز وفننسنت العجوز كانت تمر كالبرق في السماء الصافية . وقد يكون هذا ايضا واقع الامر بالنسبة لبيلا فيليب، وشامبي، وجون صانع السلال ، وستيف كوبلر المتلعثم . ولكن كانت لا تنتاب النوبات الاغلبية المكونة من اربعة عشر مريضا بالصرع الا حين يوجد المثير . (ومن الممكن ان ينطبق ذلك على الآخرين ايضا ، ولكننا لم نكن نعرف المثير) دستويفسكي ايضا ، كانت تداهمه النوبات دائما عقب خسارته في الروليت . ولكن ماذا يستطيع المرء ان يقول عن صرع ايمري فورستر ؟ كان مستعدا لارتكاب اي شر ، ولاجتناب العمل ؛ ولم يكن هذا الوغد يتصنع النوبات ، استنادا الى سجله الطبي القديم الذي يؤكد اصابته بنوبات صرعية «نمطية» ، ولكن كان ما ينتابه في الجرائج أبعد ما يكون عن النوبة الحقيقية . ما الذي كان يصنعه ؟ كان يتبطل عن العمل ، ويجلس في احد الاركان وقد بدا عليه الاستياء يشكو آلاما في قلبه ، ويحرص الآخرين على اثارة المتاعب (شأن صديق قلبه رادار) ، ويهرب الى القرية ويعود مخمورا ، فيطلق بذاءاته ، وبغتة يقبض على صدره ويفتح فمه ، ويترنح ، ملقيا بنفسه في مهارة على الارض ويشرع في الضرب بذراعيه . كانت هذه هي نوبته «الصرعية» . ووعد فيما بعد بتواضع ان يتحسن ، فاشتغل قليلا بضعة ايام ، ثم عاد الى سابق عهده من جديد . كان شديد الوله ، يكاد يذوب حبا ، ويكتب خطابات غرامية ، ويعد بالزواج ، ويرسل صورا مقدسة . وليس هناك ما يدعو للدهشة اذا قلت انه صديق رادار الذي كان موضوعا لتجربة «العلاج الجنسي» . كان يغدو اكثر هدوءا واسهل احتمالا بالتأكيد حين يجد شريكا في الحب . بل في مثل هذه المناسبات يصبح عطوفا احيانا . ولم يكن في وسع احد بأن يتحسن بمثل هذه الثقة كما كان يفعل . بيد انه كان متبطلا لا فائدة ترجى منه ، يجد ذريعته في نوباته الصرعية ، كانت نوباته هي المهرب الاخير من العمل .

نمطية ام غير نمطية . . . من المؤكد ان نوبته ليست نمطية ، ولكن اتجاهه الكلي المنافق الفاسد المتبطل كان كذلك . ولكن على نمط ماذا ؟ ليس على نمط الصرع بالتأكيد ، والا فبماذا نسمي لوكاس العجوز او فننسنت العجوز وفيري وجون صانع السلال والآخرين في هذه الحالة ؟ ولكن يبدو ان كلمة الصرع تطلق ايضا

على مجموعة صغيرة من ضعاف العقول بدرجة او باخرى ممن يولدون متبطلين ومعادين للمجتمع . واكدت خبرة الجرانج انه حتى في وسع هؤلاء ان يصبحوا عمالا مجدين اذا بدات عملية اعادة التعليم لديهم مبكرة بما فيه الكفاية ـ وان لم يصدق هذا على كل الحالات . لقد كف باتيولا ، ضعيف العقل الشاب ، عن نوباته وسوء خلقه عقب بعض التهريج المبدئي واشتغل بصورة ملحوظة لفترة وبذلنا جهدا عظيما كي ننأى بليزلي بانيوز عن تأثير ايمري فورستر الضار ، فعاد اخيرا الى منزله وقد استحال الى عامل مجدٍ . لكن هذا بشكل عام كان جهدا مشكورا ويبعث على القنوط ، نظرا لتزايد عدد حالات الفشل عن حالات النجاح بين هؤلاء المرضى بالصرع من الفتوات او المتبطلين ، حتى او نجحنا في تحقيق بعض التحسن المؤقت معهم في الجرانج . تم تحويل سبعة من المرضى بالصرع الى مزرعة الدولة تحت الاختبار ، وفشلوا جميعا . مع اننا لم نرسل اسواهم بل اولئك الذين عملوا معنا، الواقع ان التعامل مع المرضى بالصرع اكثر مشقة من التعامل مع الفصاميين.

لم يكن هناك خطأ حقيقي في بعضهم باستثناء انهم متبطلين عتيدين . لم يصب ستيف ذو السنة الواحدة الا بخمسة نوبات على مدار عامين ، ولكن لا العلاج الجنسي ولا العلاج بالعمل استطاعا كفه عن التبطل . ولم يكن اروين جولد شتين يشكو من شيء سوى رغبته عن العمل . كان من الصعب مسايرته فهو كثير المطالب ، متعجرف ، وفي نفس الوقت متملق ومنافق . ويا لكمية الشكاوي والامراض التي يستطيع ان يفكر فيها ! كيف يمكنه العمل بمثل هذه البنية ...؟ وحين كان يضيق بقية المرضى بوقاحته ، يجد ملاذه في احدى النوبات . ولكن حتى المرضات الحديثات غير المجربات كن لا يصدقن قط ان تشنجاته الصرعية حقيقية . وهرب اخيرا من الجرانج لانه سأم استمرار حثه على العمل ، ولعله يحكي الان في مصحة انجيا لفولد قصصا ما انزل بها من سلطان عن قسوتها .. ايوجين دافت ، مرعب جميع المستشفيات بالمدينة ، جبل في شكل رجل ، يجيد خمسة حرف ويرفض مزاولة اي منهم . الرجل الذي لا يصنع شيئا سوى الادعاء والشكوى انه متفوق في كل شيء ، ويستطيع أن يبدع أشياء رائعة ، وسوف يثبت ذلك لنا لو لم .. لو لم يكن على هذا القدر من الضعف الذي يمكنه بالكاد من الوقوف على قدميه . ما اسرع ما يحتاج الى حقنة ، فهو يشعر بالمرض . العلاج بالعمل في مؤسسة ؟ يا لها من فكرة أن يحضروه الى هنا. هو الذي تبين للاستاذ س كبير الاطباء في ص ، وللاستاذ ع أن مرضه العضوي لا يمكنه من العمل . هو لم يعمل بالتأكيد ـ ولن يعمل . بعد يومين غادرنا ساخطا . اما جون سمول القصير النظر فكان شخصية اكثر غرابة .

ويبدو ان الصرع لا يعوق مثل هذا النوع من العمل . اما الان فيكتفي بالتفاخر بنفسه ، ويسب جميع المخلوقات ، وكل الاشياء ويثير المتاعب . وتنتابه ايضا الرؤى الدينية ، اذ يتراءى له الرب يسوع شخصيا في كل مجده . من الواضح انه يدعي كل هذا ليعتذر بالطبع عن تبطله ، فرغم كل شيء لا يتوقع المرء عملا

يدويا تافها من شخص تطهرت نفسه عن طريق الرب القوي في الجسد .

وتؤكد حالة مارجريت التترية اي خليط من الخير والشر عليه البشر . أصيبت هذه الفتاة التعسة بالالتهاب السحائي في سن الخامسة ، فخلفها مريضة بالصرع والضعف العقلي . كانت تتملق كل انسان كقطعة تتمسح . وأن هي الا دقيقة حتى تسفر عن كراهيتها وتحطم كل ما تقع يدها عليه . كانت تلقي الاغطية من النافذة ، وتفرغ امعاءها في الممر ، وتتكلم في قحة . ربما كانت مغضبة لانها تدرك حالتها المحزنة ، وتريد ان تصب جام غضبها على هذا الظلم .

ولكن لماذا يتصرف ديسيدر واندرر على هذا النحو ، او ما هو أسوأ ؟ كان مراهقا في السابعة عشر من عمره ، لم يصب بالالتهاب السحائي ، ولم يكن متأخرا عقليا على نحو يضع بين يديه سببا وجيها للسخط على العالم . يأس والداه من سرقاته المتكررة ومجادلاته . كان يتحدى الصبية الاقوى منه ثم يحتمي في جبن خلف نوباته الصغيرة المصطنعة المثيرة للاشفاق . فكان يخبط ويلهث ويلقي بنفسه . لم يكن تصنع فعلي ، بل هروب هستيري عن طريق المرض . لكن هذا الاتجاه من المعارضة وعدم الرضى ، من كثرة المطالب والعجرفة يميز المريض بالصرع .

اما شارلي درل الذي يشبه الخنزير ، فكان يلتهم في شغف كل انواع المواد المعدنية ـ من ملاعق ودبابيس ومسامير وأدوات صغيرة . ابتلع مثقابا في الجرانج . ولكن قبل ذلك ، تمكن من ان يشيع في المنزل حالة من الرعب بمسلكه الوحشي . كان أشبه بطفل عملاق ، وكانت اندفاعاته العدوانية بمثابة صورة مزعجة ، لأولئك الذين لا يعرفون عقليته الطفلة . وكان شارلي درل يلثغ ، ولا تفهم كلامه الا بصعوبة ، ويتلجلج ويخلط حديثه بكلمات لا وجود لها . لم تنتابه في الجرانج اي تشنجات صرعية وانما العديد من نوبات الغضب . كان مهتاجا دائما ابدا . يتكلم ويتملق ويتزلف ويتشاجر ويصرخ ويحطم النوافذ ويهاجم الناس ، ثم يتراجع بصورة طفلية ويعد بأن يصبح طيبا . وان هي الا دقائق حتى تتردد في الحديقة صرخات الحرب التي يطلقها من جديد . كان في الامكان ترويضه واستبقاءه في حالة من الهدوء النسبي فيما لو اهتم به المرء على نحو مستمر ، لكن نظرا لاستحالة تزويده بممرضة خاصة طيلة الوقت ، فكانت مشاكله تترى واحدة تلو الاخرى .

في اليوم الثالث من اقامته بالجرانج ، اقترب مني وقد ارتسمت على وجهه نظرة فزع .

«من فضلك يا دكتور اجر لي عملية» وانتزع قميصه كاشفا عن معدته .

«عملية ؟ لماذا ؟»

«لقد ابتلعت مثقابا ...»

هرعت الى الورشة ، فوجدت العم هوف ، معلم المعلمين ، يصرخ بأعلى ما في وسعه :

«كومة البراز ، هذا القذر ، تسلل الى هنا في هدوء ، وحين استدرت ، ابتلع احسن مثاقيبي . دعوه يدخل هنا مرة اخرى ، وسوف يرى ما سيحدث له . اجدر به ان يبتلع شوكة مدنسة ... او يلتحق بالسيرك ويغدو بالعا للسيوف ! »

كيف استطاع شارلي ابتلاع مثقاب طوله اربعة بوصات ، هو وحده يعلم . اما الان فقد بدا مذعورا ، وفي غاية البراءة كمن لا يستطيع ابتلاع مجرد دبوس.

ازدريته وحولت له ظهري :

«ما دمت قد ابتلعته ، اتمنى لك حظا طيبا» .

واوصيت الآخرين الا يعيروا ابتلاعه المثقاب اهمية حتى لا يزيدوا من شعوره الخفي بالانتصار ، كان يرجو ان يجعل من نفسه محطا للاهتمام .

ارسلناه رغم هذا الى المستشفى ليفحص بالاشعة. اذا صح انه ابتلع المثقاب حقا ، فهذا امر لا يدعو الى السخرية . وظهر المثقاب في أمعائه بوضوح بالاضافة الى دبوسين ابتلعهما في المستشفى لان الفحوص الطبية « اثارت اعصابه» . ولقد أثار بدوره أعصاب القائمين على المستشفى لدرجة جعلت الجراح يعلن : مثقاب او لا مثقاب فلن يحتمل شارلي في عنبره دقيقة اخرى . لم اندهش، ولكنني بالاحرى فزعت حين طلبت عربة اسعاف لترسله الى عنبر مرضى العقول في مستشفى المقاطعة حيث تتوفر الاشعة والجراحة ، فاذا بالمدير (لا . هذا كلام فارغ) يخطرني انه لا توجد ميزانية مخصصة لنقل المرضى . وما دمنا مكننا شارلي من ابتلاع المثقاب فيجب ان نرقب وننتظر ما سوف يحدث لنا . ولكن ماذا لو ثقبت معدته ؟ حسنا يا الهي ، الامر كله يدعو للجنون ...

لم يكن امامنا سوى ان نستعيد شارلي بالمثقاب والدبوسين في معدته . وظللنا يومين نراقب جميعا حركة أمعائه في اضطراب . لقد كان القدر طيبا مع الجرانج . ففي اليوم الثالث ظهر المثقاب عن **طريقه الطبيعي** . واعدناه الى العم هوف الذي كان لا يزال غاضبا . وهذا اولد ويندي ايضا ، لا شيء منقوص من العهدة الان . ولم نكترث كثيرا للدبوسين ـ فهما ليسا واردان في كشف (العهدة) . ولكننا نلنا كفايتنا من شارلي وشهيته الغريبة فوضعناه في قطار واعدناه الى ليوتميزو . وهناك اضاف بضعة مسامير ويد ملعقة الى الدبابيس ، فأرسلوه من ثم الى مستشفى جانوس حيث الجراحة ميسرة .

وحين اعيد الى ليبوتميزو قابلته هناك . طالب بالسماح له بالعودة الى الجرانج (يبدو انه ذواقة بالنسبة للمثاقيب ...) ولكنني كنت كالحجر الصلد .

***

لا يقاوم بعض مرضى الصرع العمل على هذا النحو المحدد . فكثيرا ما كانت النوبات غير المتصنعة تعوق جون صانع السلال ، مثلا ، ولكنه كان رجلا مثابرا

حقا ، ويعتبر بمثابة العمود الفقري لورشة صناعة السلال او شارلي صانع الاحذية ، وشريك المرضة ايما المفضل في الرقص . افلحنا في وقف نوباته المتكررة ، واعدناه الى منزله بعد ان تحسن ، لكن لم يستطع والداه احتماله اكثر من أسبوع . وتسببا بسهولة في اصابته بنوبة جديدة ، وأعاداه الى ليبوتميزو. وطالب عدة شهور بالعودة الى الجرانج . وأشعره اعادة ايداعه (الجرانج) بالسعادة .

وكان أنتوني الزنديق يريد ان يصبح راهبا واختير أخا من الدرجة الثالثة ، لكنه لم يستطع الاستمرار في الرهبنة بسبب نوباته المتكررة . وكان هذا الرجل الضخم جم التقوى ، فهو يعلق حول رقبته ايقونة مقدسة ، ويضع دواؤه على الصليب اولا ولا يتناوله الا بعد ذلك ، كي يجعله اكثر فائدة ، ويغمغم بالصلوات طيلة الوقت . وفي شبابه ، درس فلاحة البساتين ، ويعتبر الان ذو فائدة عظمى لمزرعتنا . وكانت اخته راهبة .

ولقد جاءت ايرما سلندر المتعددة الخطّاب ايضا من عائلة قساوسة وراهبات، رغم انها لم تكن تعيش في حياة القداسة الشديدة (وكذلك أسرتها فيما أعتقد ، ايضا ...) . كانت شخصية مرموقة ، وعروس أولد تينناتت ، وكانت هي التي اجرى معها ايمري تجارب العلاج الجنسي . وكانت الوحيدة من مرضانا التي اجريت لها عملية اجهاض على مر السنوات الثلاثة لمؤسستنا .

لم يكن قد انقضى على وجودنا بالجرانج سوى اشهر قلائل ، حين أجريت هذه العملية الدقيقة . وحين عادت ايرما من عنبر الولادة ، بدت اكثر نحافة عن ذي قبل ، لقد أنهكتها العملية . وانهكتني انا ايضا ، كنت ادرك كم سيثرثر زملائي المخلصين ويخوضون في هذا الاجهاض . كما ترون ـ كل هذا بسبب هذه الحرية الزائدة . ما الذي سوف يحدث فيما لو تهدد منهجنا المتحرر عملية اجهاض شهريا ؟

بصراحة ، لم نفعل شيئا لتحاشي الامر . خضعت لحكم القدر ـ ونكاية في المنافقين ، شاء القدر الا تقع اية حوادث سعيدة أخرى في الاعوام التالية . فاذا وقعت حادثة او اثنين بعد هذه الفترة القانونية (ولماذا لا تقع ؟) فلن نأبه للامر طويلا .

لقد عادت ايرما اذن أشد نحافة عن ذي قبل . كانت تدرك ان الجميع يعرفون عارها ، وحتى وان لم يفصحوا عن ذلك . (مجتمع المرضى يشبه في هذا مجتمع الاسوياء من الناس ، يتقبلون الحب ولكن يحتقرون نتائجه) وصعب مراسها في البداية . فكانت تتمشى جيئة وذهابا وقد ارتسم الغم على وجهها ولا تزاول عملا وتتشاجر ثلاث مرات يوميا بصوت مرتفع يمكن سماعه في كافة أرجاء المنزل . وتكرر ضروبا من السلوك الهستيري . وفكرنا مليا كيف نهدئها ولكن قبل أن نكتشف الوسيلة ، عادت الى وداعتها من تلقاء نفسها . وخلال فترة النقاهة ، لم تزاول العمل وانما جعلت تقضي اليوم بأكمله في حجرة النوبتجية مقصية تحت

أقدام السيدة الاولى . كانت ترتق ، او تحيك او لا تصنع شيئا . فاذا خرجت السيدة الاولى لشأن من الشئون ، انتظرتها ايرما في ولاء . غدت بمثابة مرسال، وهدا طبعها الحاد الميال للشجار ، وردد المنزل ضحكاتها . كان لديها نوع غريب من الكتمان ، فكانت تخفي مشاعرها دائما ، ولم تكن تنادي السيدة الاولى بماما شأن الاخريات ، بل بالأم . ولم يتبدل حالها حين وقعت ثانية في الحب بعد ستة اشهر . ولقد لاحظنا ذلكحين ذهبت طواعية الى الحديقة وعملت فيها دون كلل، كي تبقى على مقربة من ميكي القزم . (بدت الفتاة الطويلة النحيفة ، والصبي الناقص النمو غاية في الغرابة جنبا الى جنب) . وثابرت فيما بعد على الجلوس في الورشة امام ماكينة الخياطة ، الامر الذي كشف عن تحول مشاعرها نحو الخياط السكير . كانت تغير محل عملها كل ستة شهور ، ولكن والحق يقال لم تكن تبحث عن صديق جديد الا بعد ان يغادر القديم المؤسسة .

وجعلها حبها الاخير محط الاهتمام من جديد . لم يكن ثمة خطأ في ذوق اولد تينت حين اختار هذه الشابة الصغيرة نسبيا ذات الملامح الطيبة عروسا له. لقد كان قوام ايرما المنتصب ، وقدها الجميل ، وشعرها الطويل المضمون في شينيون ، وعيناها الزرقاوان وملابسها التي تنم عن ذوق ، يشفعون لاهمالها نظافتها الامر الذي عجزنا عن اصلاحه . ويبدو أن الرجال لا يأبهون لذلك .

كانت قصة حب تكتنفها المصاعب . كان والد ايرما حارسا متقاعدا في السكة الحديد ربى اولاده الاثني عشر على التعاليم الصارمة للدين الكاثوليكي . وكما هو معهود في الاسرة الصرعية . كان ثمة قساوسة وراهبات من بين الاثني عشر ابنا . وكان من المستحيل الان بالنسبة لايرما نفسها ان تضم اسرة الاكليروس المتعصبة هذه يهوديا بين ظهرانيها . ولكنها من ناحية اخرى ، احترمت الزراعي الفخور الثرثار ، لان السيد المهذب سيد مهذب لا في الجحيم فحسب بل وفي المصحة ايضا . وهو ايضا اول رجل على سطح الارض يطلب يد ايرما . وهذا امر يختلف من كافة نواحيه عن مجرد الحب . وسرعان ما ادركت ايرما انه سواء كان يهوديا ام لا فلن تجد ما هو افضل نظيرا . صحيح ان أولد تينت كان مسنا بالنسبة لها ولكن في وسعها أن تتغاضى عن سنة مقابل «الحياة الحقيقية» التي يعدها بها .

لم اكن راضيا تماما عن فكرة الزواج ، لكن من الذي يقف في وجه «الشباب» . حسنا ، المستقبل كفيل بأن يقرر ما اذا كنا سنرقص في زمان تينت .

في تلك الاثناء ، حصل أولد تينت على وظيفة في مزرعة الدولة . وجعل يزور عروسه بوازع من الضمير الحي ، ويخططان للمستقبل . لكنهما وقعا في خطأ فاحش . لقد كانا صريحين . (وهذا سبب تعثر أولد تينت في الحياة..) . وأخبرا والدي ايرما بالانباء الطيبة ، وعندئذ حدث ما يدعو للعجب . ارسل لي الوالد العجوز الذي يناهز من العمر ستة وسبعون عاما خطابا خاصا ، كما ارسلت لي الأم خطابا منفصلا ، ثم ظهر الوالد شخصيا ، متوكأ على عصى مستندا

الى احدى بناته ، يتلوها اختين ـ راهبتين . لقد حضرت هذه الزفة باكملها تطالبني بوقف الزواج . لم ار قط ما هو اكثر عذوبة واكثر تركيزا من الحقد الذي نفثته هذه الجماعة المتدينة . لم يعد لهم سوى هدف واحد ـ اغراق قريبتهم المريضة في الماء ، او اعدامها ، او ايداعها احدى المصحات العقلية مدى الحياة . وكل هذا من قبيل **الفن للفن** ، اذ ان استمرار ايداع ايرما بإحدى المصحات العقلية لن يعود عليهم بأي فائدة . ولكن نظرا لانها جلبت العار على العائلة المقدسة بمرضها بالصرع ، فلتبق في السجن الى المنتهى .

وتسابقت الاسرة تروي قصة الرعب . لقد خربت ايرما والدها العجوز ، ايرما مزقت ملابس أخواتها ، ايرما تحطم كل شيء ، ولا تعمل ، وتصاب بنوبات الصرع طيلة الوقت ... من المحتمل ان هذا كان صحيحا في احد الاوقات ، فالسجلات الطبية وكذا تصرفات ايرما لا يدعان مجالا للشك في انها لم تكن دائما على مثل هذه الحال الطيبة . ولذلك لم تنتابني الدهشة ، وانا ارقب العائلة المقدسة يكاد يخنقها الغضب والحقد . وعلموا ، والمقت يتبدى عليهم ان ايرما لم تعد تصاب مؤخرا الا بنوبة واحدة كل ثلاثة شهور ، قلت فيما بعد ، فأصبحت لا تحدث الا حين يقع ما يؤثر على توازنها العقلي ، وانها ولذلك لا تتعاطى ادوية الا فيما ندر . (لم أجرؤ على اخبار الراهبات بموضوع العلاج الجنسي) كيف يخطر على بال احد الزواج من اختهم المريضة لا يمكن ان يكون شخصا شريفا بالتأكيد ، انه يريد استغلال الفتاة المسكينة فحسب . يستغلها بالتزوج منها ، كيف ؟ هكذا سألتهم فغمغمت العائلة المقدسة ومرمرت . لا بد انه منحرف ... السنا نعلم انه يهودي ....

ولم تغفل العائلة المقدسة التأكيد ، بكلمات معسولة ، على انني مسئول بالطبع عن كل شيء .. اذا كنت اشعر ان الفتاة بمثابة عبء ، فهم مستعدون لايداعها مؤسسة أخرى ، خلف ابواب مستشفى المقاطعة المغلقة فالامر بالنسبة لهم سواء. لكنه لم يكن سواء بالنسبة لايرما او بالنسبة لي . أخبرتهم ان ايرما قد شفيت ، وانها تعمل بجد ، وانها ليست خطرة ، او مجنونة ـ بل في وسعها ان تعود الى منزلها آمنة . لا ، لا صرخت العائلة المقدسة مرتعبة . الا هذا ! اما الى مستشفى المقاطعة او الى قاع الجحيم ، اما المنزل فلا . حسنا ، لماذا لا تسمحون اذن للزراعي الماهر بإصطحابها الى منزله ؟ كلا ، والف كلا ! وسط هذا الكورال العائلي الساخط ، كانت ايرما هي الوحيدة التي تصرفت في اتزان .

حتى ذلك الوقت كنت اعارض الزواج ، لكن اغضبتني خسة هذه الاسرة ، فلندعهما يتزوجان . فلقد حصل اولد تيننت على وظيفة ، وسوف احصل لايرما على الاخرى ، وعندئذ في وسع هذين الشخصين البالغين الحرين ان يتزوجا . من الذي يستطيع ان يعترض ؟

ولكن لم اشبع شوقي الى الانتقام . فبعد ان وفرت الوظيفة لإيرما وبقي عليها ان تغادرنا ، قالت لا دون سابق توقع . هل اقنعتها الاسرة ؟ لقد تعللت بهم ،

ولكن كان هذا مجرد تعلة . الواقع انها خشيت من ملاقاة العالم . انها سعيدة هنا، وتشعر بالامان ، خشيت الزواج ، والعمل المسئول ، ومتاعب تدبير المنزل ـ وما لا تدريه الا السماء .. فقالت انها لن ترحل . وكتبت خطابا الى أولد تيننت انهت علاقتهما . وتنفست الصعداء وبقيت سعيدة في الجرانج .

***

هذا الصرع ، وهذا ما عليه مرضاه .

انه ضرب غريب من المرض ، لقد ظل هذا **المرض المقدس** يثير الرهبة والفزع منذ بداية الزمن . والناس يطلقون عليه مرض القلب ، رغم ان لا علاقة له بالقلب ـ اللهم الا ان بعض مرضى الصرع يضعون أيديهم على قلوبهم بصورة قهرية قبل الاغماء . ويحب مرضى الصرع الزعم بأنهم يعانون «فحسب» من مرض القلب، فهذا اقل ايلاما من الاعتراف بأن عقولهم ليست على ما يرام . ويشكو الصرعيون الهستيريون دائما من ضيق الصدر .

ثمة طبيب عقلي ايطالي من القرن الماضي ، أعاق تطور الطب العقلي بعدد من النظريات ذات الوقع ، اذاعت شهرته عالميا ، الّف كتابا عن العلاقة بين العبقرية، والجنون والجريمة . ليس من الصعب أن نخمن الاسم . سيزار لمبروزو Cesar Lambroso . لقد خلط العالم بالخيال ، واسبغ على افكاره العلمية نوعا من الخيال الثري الى درجة حجبت ما تتضمنه من حقيقة ضئيلة . فاكد في كتابه «الرجال العباقرة» ان جميع الرجال العظام قد عانوا من احد انواع الجنون. حسنا ، لا شك ان اغلب العباقرة والموهوبين لديهم من السمات الغريبة ما يسهل بقليل من «النوايا الطيبة» اثبات جنونهم ، وتفردهم ، وعدم انسانيتهم . وهناك ايضا قلة من كبار الموهوبين اصيبوا فعلا بالجنون فلو اغفل لمبروزو احدهم ، فقد اكد ويلهيام لانج ـ ايخبادام Wilham - Eichbaum مؤخرا جنونهم . ولقد ارضى العلماء الاكثر تواضعا انفسهم حين قالوا ان مشكلة العبقرية لا زالت تستعصي على الحل شأن مشكلة الجنون ، ولن تصبح المشكلة اشد بساطة اذا تحول العباقرة الى مجانين .

لكن لمبروزو احصى حشدا من عظماء الرجال المصابين بالصرع الى درجة شككت في الامر كله . وصرع دستويفسكي حقيقة معروفة ، وسجل التاريخ شيئا عن نوبات يوليوس قيصر ايضا ، وان لم يسجل الكثير . ولكن لا يوجد دليل على الاطلاق على صرع نابوليون المزعوم . الا ان لمبروزو لم يبخل على اسماء : شارل الخامس ، والقيصر بطرس الاكبر ، وريشيليو ، وبترارك ، وموليير ، وفلوبير ، وموسيبه ، والفيري ، وباسكال ، وهاندال ، وباجانيني ، ان هؤلاء هم اكثر الاسماء الملحوظة في قائمة مرضاه بالصرع . ويل لمن اصابهم الاغماء مرة واحدة في حياتهم ، او انتابتهم التقلصات او مجرد النسيان ، فهذا كاف لضمهم للقائمة . اما عديمي الانسانية فيصعب حصرهم .

وفي احد كتبه الاخرى أكد لمبروزو ان الذين يتهددون المجتمع ، كالمغتالين السياسيين والمتآمرين ، مرضى ايضا بالصرع . رغم انه عمم فروضه من حالات بالغة الضآلة ، الا انه ابتكر اسما جديدا ـ فأطلق على تدمير المجتمع اسم «الصرع السياسي» وبنى منطقه على قضية مؤداها .

الفوضويون مدمرون للمجتمع .
المدمرون للمجتمع مرضى بالصرع السياسي
اذن كل الفوضويين مرضى بالصرع .

وبالغا ما بلغ زيف هذا الاستبدال ، فهو يحمل في قلبه ذرة من الحقيقة . وعلى الرغم من ان لمبروزو كان عالما سطحيا ، وان لم يكن مدلسا . لا تصمد كل معطياته التاريخية امام الفحص المتعمق ، ولكن يتبقى مع هذا ان هناك قدر كاف من الموهوبين والمجرمين بين مرضى الصرع (والعكس بالعكس ، عدد كاف من المرضى بالصرع بين العباقرة والمجرمين) مما يدل على وجود علاقة ما . ولم يكن لمبروزو هو الوحيد الذي لاحظ ذلك . اذ لم يستطع علماء النفس المختصين بدراسة المجرمين ان يكونوا بمنجاة عن الميل الى تأكيد وجود عدد من مرضى الصرع بين المجرمين ، بل والمزيد من شبه الصرعيين ـ اي اولئك الذين لا يعانون من نوبات فعلية يفقدون فيها وعيهم ، لكن أسرهم تضم مرضى بالصرع ، ولديهم خلق صرعي ، فهم زنادقة شريرون ، ومدمرون متهورون ، ومحطمون منافقون للمجتمع ، ومتبطلون طفيليون ، وساخطون على الدوام ، والغريب في الامر ان اسرهم تضم في الغالب قساوسة او راهبات . وغالبا ما يكون احد أفراد العائلة ممن يخافون الله ، متعصبا ومتدينا ، كأنما قصد ان يكفر امام الله عما يرتكبه الآخرون في حق الانسانية . فاذا طبق المرء هذا البحث على القديسين والانبياء، لوصل الى نفس النتيجة ، فإما يجد القديس قد عاش فيما سبق حياة لا تتسم بالقداسة ، وإما يوجد بين أقاربه الآخرين مجرمين او مرضى بالصرع .

ان هذه الثنائية التي تعتبر سمة مميزة للافراد شبه المصروعين او للعائلات شبه الصرعية ، هي الصراع القديم بين الخير والشر ، بين هيرموزو واهريمان ، هي معاناة الروح بين الخير والشر ، تركة قابيل وهابيل .

ولا يبدو ان الخير والشر سمات مقصورة على مرضى الصرع . فالبشر جميعا طيبون واشرار بالطبع ، والناس جميعا ذوي طباع . ولكن التناقض هو المشكلة الرئيسية لحياة مرضى الصرع الانفعالية .

هناك اذن بعض الحقيقة فيما قاله لمبروزو ، حينما لم يقصر الصرع على النوبات ، واعتبر الشخص الذي لم يصب بالنوبة مريضا بالصرع ، طالما يحكم شخصيته وعقليته هذا الصراع بين الخير والشر . الصرع مرض يصيب الشخصية الكلية (شأن الفصام) . ويتخذ الاسوياء موقفا من قابيل وهابيل ، فيقبلون قابيل او هابيل ، او يتقبلوا في الاغلب بضعة من كل منهما . وهذا ما لا يستطيع المريض بالصرع أن يفعله ، انه يحاول ان يكون هابيل كلية ، وحين يفشل هذا ، يتحول الى النقيض ويحاول أن يغدو قابيل كلية ، ولا ينجح في هذا ايضا ،

بالطبع . ومن هنا يتبدى السخط الابدي ، والصراع ، والتديـــن القهري ، والقداسة الشديدة . وتأخذ هذه الثنائية شكل الحل الودي الناضج بطريقة او باخرى بين الاسوياء على حين يعجز المريض بالصرع عن تحقيـــق هذا التوازن . ويجبره سخطه على سجن نفسه في قفص . ويحتج أحيانا على كون (القفص) مموه بالذهب ، فليس في وسع الذهب ان يتلألأ بما فيه الكفاية أمامه .

اما لماذا تصاحبه التشنجات وفقدان الوعي ، فهذا سر لن يحل الا حين يصل علم النفس البيولوجي الى مرحلة أشد تقدما . ولكن ليس من الصعوبة بمكان أن ندرك أن التشنج الذي يصرع المريض بالصرع أرضا يزيد من احساسه بالمرارة . ومن حقده ويزيد من عجزه الذي يدعو الى الاشفاق او من سعيه الذي لا يقاوم الى الانتقام ، او كلاهما معا .

الفصل الرابع

الهستيريا والنيوراستينيا والعصاب

لعله كان من الواجب أن تتسمى الهستيريا باسم بروتس Proteus ، بطل الميثولوجيا القديمة الذي كان في وسعه ان يبدل ملامحه حسب ارادته . ولقد تبدلت نظريات الهستيريا صورا شتى شأن أعراض المرضى الهستيريين انفسهم . وتباينت اسبابها وطبيعتها باختلاف المؤلفين الذين كتبوا عنها . بل مرارا ما يفشل الاطباء في اعتبارها مرضا بقدر ما هي «مجرد هستيريا» . وتسميتها «مجرد هستيريا» دليل استخفاف ينطوي على انها ليست امرا خطيرا ، يستحق الخوض فيه .

ورغم هذا ، فالهستيريا امر خطير لا يجب الفض من شأنه .

وراء الخلفية العلمية لهذا الاتجاه المستخف ، حقيقة مؤداها ان الفحوص الميكروسكوبية على ادمغة المرضى الهستيريين لم تكشف حتى الان عن اي تغير باثولوجي . هل يعني هذا ان الاعراض الهستيرية تحدث في وجود جهاز عصبي سليم ؟ من الافضل للمرء ان يتصور أن الهستيريا ليست نتاج تغيرات وظيفية في خلايا الدماغ ، او بعبارة اخرى لا يصاحبها اي تدهور في نمو او ضمور الخلايا ، اي لا يوجد تلف فيزيقي ، لكن تغدو ثمة عملية الهدم والبناء ــ العملية الكيمائية ــ في الخلية باثولوجية . وهذا يفسر سرعة ظهور الاعراض ، واختفائها العرض الكامل وتباينها الهائل .

ويعزو البعض المرض الى اخطاء التربية ، والى الآثار الضارة لخبرات

الطفولة ، والى التأثيرات البيئية غير المستحبة . ويتلمس الآخرون السبب في افتقاد الاشباع الجنسي ، نظرا لوجود الاضطرابات الجنسية لدى غالبية المرضى بالهستيريا . ويفسر الكثيرون الهستيريا ــ مقتفين اثر كوهنستم Kohnstamm وفرويد S. Freud ــ باعتبارها «هروب الى المرض» من قسوة الحياة ، على حين يرى آخرون ان الشيء الحاسم هو غلبة الدفعات الانفعالية الاشد بدائية على الجانب الارادي والفكري الاكثر تطورا . ووفقا لهذا الرأي ، تصبح الهستيريا «استجابة بدائية» بالمعنى الذي استخدم فيه الكلمة لوبون G. Le bon وكرتشمر E. Kretachmer . ويرى شنيدر K. Schneider ان الدافع الى التفوق هو الذي يسبب الهستيريا . بينما يزعم ياسبرز K. Jaspers انها الرغبة في اظهار ما هو اكثر من الموجود ، او الرغبة في إبهار الآخرين وفقا لما يراه زوندي Lipot rzondi ووفقا لآراء بافلوف Pavlov في فيزيولوجيا الاعصاب، تسيطر المراكز فوق اللحائية على اللحاء ، ولما كانت هذه المراكز العصبية فوق اللحائية هي التي تضم العناصر الانفعالية «الاكثر بدائية» فانها تعيق وظائف اللحاء العقلية .

ونظرا لوجود هذا العدد الكبير من وجهات النظر المتباينة (وهذه عينة فحسب من ركام النظريات) يشعر المرء بأنه مدعو للتمسك بوجهة نظره الخاصة في هذا المرض الذي يبعث على الجدل . وسوف تكون الكلمة الاخيرة لعلم فيزيولوجيا الاعصاب ، حين يتم اكتشاف العلاقة بين وظائف الجهاز العصبي وبين اعراض الهستيريا . وحتى ذلك الحين علينا ان نقنع بوصف ما نراه .

واننا نرى ان المرضى بالهستيريا بلا استثناء غريبو الاطوار لا يستطيعون الملاءمة بين انفسهم وبين المتطلبات السوية للحياة ، فينتحون جانبا ، **ويهربون** او **يتمردون** . وصحيح ان هروبهم او تمردهم ليس من عمل العقل، وليس فعلا اراديا واعيا ، ولكنه بمثابة نوبة تصدر عن اللاشعور ، او عن المراكز الغريزية القهرية الانفعالية فوق اللحائية ، بلغة الفيزيولوجيا .

***

ولنحلل ، مثلا ، حالة دينيس القافز في البئر .

فهذا الشاب البالغ من العمر ثمانية عشر عاما احضرته امه ، ونصحتنا ان نكون قساة معه . وخلق لدينا هذا الاتجاه الوالدي غير المألوف اهتماما متزايدا بخلفية الحالة . اوضحت الأم القاسية في حزن مأسوي ، انها لم تدخر وسعا مع هذا الصبي ، ولكنه لم يكن صالحا لسوء الحظ ، فدأب على ترك العمل ، وبيع ملابسه واستخدام ثمنها في طلاء المدينة باللون الاحمر . واكدت ان ابنها لن يشفى ، ولكنها أعربت عن انه اذا استخدمنا يدا حديدية لدفعه على العمل ، فربما فكر طويلا قبل ان يسبب لامه مثل هذه الاحزان من جديد .

وبعد هذا وجدت الام المحبة بضعة كلمات لتقولها عن زوجها الذي انفصلت عنه بالطلاق منذ زمن بعيد . فرسمت صورة مؤثرة لامرأة وحيدة تعيش لابنائها فحسب ، ثم ودعت ابنها الذي لا يساوي شيئا وداعا باردا ، ومضت دون أن ترسل له مجرد بطاقة بريدية لعدة شهور .

وفحصت الابن الفظ باهتمام . فوجدنا ما اعتدنا على تبينه من قبل ، بدلا من الوحش الذي وصفوه لنا ، وجدتني امام أمير ساحر . كان له وجه فتاة شاحبة، وشعر ملائكي اشقر ، وعينان زرقاوتان حالمتان ، وقوام نحيف ، وصوت ناعم ، واخلاق طيبة . ولكن بعد ان تقابلت مع جو ستمب ، وجو تاف ، وبيتر مارتير، ومن اليهم من الصبية الخجولين ذوي الشعور الناعمة ، اصبحت محصنا جيدا ضد مثل هذه الجاذبية الخادعة ، ففحصت الغلام في قسوة ، لاكشف عن «الفعل الذي يزأر عاليا ويرعد في أعماقه» .

واتضح من سجله المرضي ان اسرته تضم شخصا مجنونا ، وان والده كان سيكوباتيا غريب الاطوار . (لم يذكر السجل شيئا عن امه ، ولكن حديثا قصيرا معها كان كافيا ليؤكد لي انه ورث شذوذه بلا ريب عن كلا الوالدين) . اما الصبي فقد رباه والده ، وهو محام معروف بالمدينة ، اعتاد ان يخدع زوجته على مرأى من ولديه . وحين انفصلا ، عاش مع راقصة اكبر سنا من نفس مدينتهما ، وتزوجها فيما بعد . واستخدم سوط الحصان في تربية اولاده . فظل الصبيان لا يحادثان والدهما الا لماما ، وينالان مما في جيوبه ومن سوطه . وكان مريضنا قد بلغ السابعة عشر من عمره حين سئم هذه المعاملة ، فترك المدرسة العليا ، واصطحب أخاه الى بودابست . ومنذ ذلك الحين لم يلتقيا بوالدهما . وعقب بضعة اسابيع من رحيله ، ليعيش مع أمه ، شرع يعاني من القلق ، ويقول اشياء غريبة ، ويخشى الشرطة السريين ، وحاول شنق نفسه . وعندئذ أودعوه مصحة ليبوتميزو للمرة الاولى .

وفي المستشفى ، استمر قلقه لاسابيع . فكان يرى رؤى مزعجة ، ويسمع صوت أمه ، واعتقد انه يراها في المصحة ، وشعر بالذنب على ما سبق ان رواه من أكاذيب حقيقية او متخيلة . ثم ذكر اتهامات خطيرة ، فالناس يزعمون انه اقام صلات جنسية مع امه ، ولكن هذا غير صحيح .

عولج بالانسولين ، فتوقف القلق بعد ستة اسابيع ، وصفت واعيته . واصبح منذ ذلك الحين طفل العنبر المدلل . ورجع ذلك في الاساس الى ولعه بالشطرنج. كان لاعبا ممتازا ، يتفوق على من عداه . شعر انه اصبح على ما يرام ، لكن استمر العلاج بالانسولين (اذ يجب ان يسود النظام ، فاذا تقرر للمريض خمسين «نوبة اغماء» فيجب ان يتمها جميعا ، حتى اذا حدث وشفي قبل ذلك ...) فجعل يطيل من مدة العلاج عن طريق التظاهر بالاغماء في فترات بعد الظهر ، الامر الذي زاد من عدد صدمات الانسولين المقررة . واخيرا صرحوا له بالخروج . عندئذ ــ لا يعلم سبب ذلك الا الله ــ اتصل بالمستشفى تليفونيا ، زاعما انه من

ضباط الشرطة . وروى قصة مضطربة . ان الشاب الذي غادر المستشفى منذ بضعة ايام عضو في هيئة اجنبية للمخابرات وشارك في الحرب الاهلية الاسبانية، وقد قتل بالأمس جنديا اثناء مشاجرة ، ثم القاه في الدانوب ، وقفـز وراءه وغرق ... وأعادته هذه القصة الخرقاء ثانية الى ليبوتميزو . وهناك ظهر بضماد كبير على راسه لم يسمح لاحد بانتزاعه ، وتبين فيما بعد عدم وجود جرح تحته.

وبعد تسعة ايام صرحوا له بالخروج . فقضى ثمانية عشر شهرا يعيش في المنزل ويعمل بأحد المصانع . وجعل ينفق كل وقت فراغه على الشطرنج ، الذي استغرق فيما بعد الوقت الواجب ان يقضيه في العمل فشرع في التغيب عـن عمله . ليلعب الشطرنج ، ويذهب الى الحفلات في الامسيات ، ويمارس بعض عمليات النصب الضئيلة وتخلى اخيرا عن وظيفته ليجد المزيد من الوقت لاشباع رغبته . ولم يعد يسدد ديونه ، ورهون ملابسه ، وقروضه ، وغدت ليالـي الشراب جانبا منتظما من حياته ، حتى اعادته امه الى ليبوتميزو . لكن نظـرا لانعدام أعراض اي مرض لديه ، فقد صرحوا له بالخروج بعد اسبوع . وكـان ذلك حين حصلت امه على اذن بإيداعه بالجرانج ، حيث ينبغي له ان «يستقر» .

جلس الان الغلام الوديع الناعم الشعر ذي التسعة عشر ربيعا أمامي ، لا تزال عيناه مليئة بالدمع لانه ترك امه ، وقد بدا كل شيء منه على ما يرام . ما الذي في وسعي أن أصنعه به ؟ هل يجب ان اكون قاسيا ؟ لماذا ؟ وكيف ؟ استمعت الى قصته . روى كل شيء لي بصراحة . فلم ينكر حتى عمليات النصب وتعاطي الخمر . كان يقدر أمه ، استطعت ان أتبين ذلك من طريقة كلامه .

لا داعي للقسوة . ولقد اعترف فيما بعد انه عقد العزم على الامتناع عـن العمل هنا ، مهما فعليا . ولكننا لم نفعل شيئا . فشعر بالخجل ، وشرع يعمل بمحض رغبته في الاسبوع الثاني . «الآخرون جميعا يعملون» . هكذا كتب الى امه «فشعرت ان التبطل يبعث على القلق . .» لم يثر اي مشكلة على الاطلاق . كان هادءا ، مطيعا ، مهذبا . يلعب الشطرنج بمهارة فائقة حقا . مهارة فائقة لدرجة اننا أتحنا له بعد اشهر قليلة الاشتراك في دوري الشطرنج . ففاز فيه بسهولة. واستطاع أن ينشيء بعض العلاقات الطيبة هناك ، فوعدوه بوظيفة اذا خرج من المستشفى . وسرعان ما فعلنا على الرغم من ان أمه رفضت ان تعطيه موافقتهـا ولم تعتن حتى بمجرد الرد على خطابات ابنها . كان علينا اذن ان نخرجه بدون موافقة . وودعنا الصبي وداعا حارا ، وغادرنا تملؤه الآمال .

وسرعان ما أرسل لنا تقريرا في خطاب مطول . كل شيء على ما يرام ، لقد وفق الى وظيفة طيبة ، وشقة رائعة ومجموعة لطيفة من الاصدقاء وكان يزورنا احيانا ، في ملابس تشبيه للتعبير عن امتنانه بالشفاء ، وبدا عليه الحزن وهـو يروي كيف استقبلت امه اخبار شفائه في برود . ولم ترد على رسائله الا نادرا، بل وجرت عليه المتاعب . كانت قد زعمت انها سددت عنه دينا قديما ، ولكنه فوجيء لدهشته بالانذارات تتوالى عليه تتهمه بالاحتيال . سرعان ما استطـاع

تسديد الدين ، واستقرت الامور .

لاحظنا بعد فترة انه لا يزورنا من اجل خاطرنا وانما لاجل عيون احدى ممرضاتنا الفاتنة، وسرعان ما طلب الزواج منها . فابدى والدي الفتاة موافقتهما، وبدأ الجميع يترقبون الزفاف . وتأهبنا للاحتفال بالنجاح الاعظم للعلاج في الجرائح .

ولكننا تسرعنا البهجة .

انتظرنا الصبي يوم الخطوبة عبثا . لقد هرب من خطيبته . وبعد بضعة ايام تلقينا اشارة من قسم الامراض العقلية بمستشفى المقاطعة تفيد انه يعالج هناك. وكان هذا ما حدث . على غير توقع ذهب الى بودابست ، ليرى امه ، وحينما عاد، كان في قمة ثورته . ودون ان ينبس بحرف ، قفز في احد الآبار . وسقط في هاوية الشر ، لكن تم انتشاله ، وحملوه في سيارة اسعاف الى قسم الامراض العقلية. حزنت عليه صاحبة المنزل ـ هذا الغلام الطيب ـ كانوا يحبونه في المصنع جدا ...

اردت تقصي ما حدث ، فمضيت في اثره الى المستشفى .

استقبلني في حالة مشعثة . بدا كممثل مبتدىء يحاول ان يؤدي دور رجل مجنون . فأخذ يقفز الى اعلى واسفل ، وجعل يكرر دون توقف وقد جحظت عيناه «يستوي الامر بالنسبة لي ... سوف اموت ... سوف أموت . في السادس من سبتمبر سأكون قد مت ...» قال ذلك تسعين مرة . وان اجابني ايضا بضعة اجابات تنم عن ذكاء . علمت ، لدهشتي ، بأمر كان يداريه عني . يبدو انه في نفس الوقت الذي طلب فيه يد الممرضة كان له «جو» ، فتاة صغيرة جميلة ، كان يبثها الغزل ايضا . وكانت المرأتان على طرفي نقيض . فالممرضة فتاة قروية شريفة بسيطة ذات شخصية قوية تكبره قليلا ، وتعتبر بمثابة بديل لأمه ، والاخرى فتاة غرة من مدينة صغيرة يستطيع ان يشرب ويقضي معها وقتا طيبا ، وتعتبر بمثابة عشيقة مثالية . وجاء يوم الخطوبة ، فلم يستطع ان يحسم امره . أدرك ان الممرضة هي الاختيار الافضل ، لكن حواسه وطبيعته المغامرة دفعته نحو الاخرى . فاقترض مبلغا كبيرا من النقود ، انفقه على الفتاة ، ثم استقل القطار ليزور امه يسألها النصيحة . حسنا ، لقد ذهب الى المكان المناسب . لا نعلم ما قالته له امه ، ولكن في وسعنا ان نتصور . واكدت رسالة تالية صدق ما تصورناه . لقد وقفت في وجه فكرة الزواج برمتها . الامر الذي اشاع فيه الاضطراب ، فجعل يتسكع في المنزل ، ثم زار احدى قريباته باكورة احد الايام وكانت قد وضعت لتوها طفلا ، وهناك ، وفي محضر الزوج الذي اعترته الدهشة «أقر» ان الطفل طفله ، ومن الجائز ، على حد قوله ، انه ليس ابنه وانما ابن اخيه ... ويستطيع المرء ان يتخيل كيف روع الزوج . في لحظات صفاءه اعترت صديقنا القافز في البئر الدهشة لقيامه بمثل هذه الفعلة ، فلم يكن هو او اخيه على صلة قط بهذه الأم الشابة .

وعاد بعد ذلك الى المنزل ليقفز في البئر كي «ينقذ» احدهم شرف الاسرة ويحمل الوزر كله ، وعلى اية حال فانه سيموت في السادس من سبتمبر .

وانكشفت بعض عمليات الاحتيال الضئيلة . فهو لم يسدد بعد النقود التي سبق له اقتراضها ، وكانت الملابس والاحذية التي يحضر بها لا تخصه ، واشترك في مشاجرة علنية في احدى المناسبات .

وعالجوه بصدمات الكهرباء المركزة لمدة شهرين في مستشفى المقاطعة وحين اعدناه الى الجرانج ، اخذ يتصرف بصورة لائقة ولم يعد يتذكر الامور التي رواها من قبل . وتملكنا العجب لما سوف يترتب على هذه الوقائع المحيرة .

اخذ الصبي يتصرف على نحو سوي بضعة ايام . ثم نصب السيرك من جديد ، مصحوبا هذه المرة بحالة نسيان واضحة . كان ينسى كل ما لا يوافقه . وبدا كمن لا يتذكر انه قفز في البئر ، او ذهب الى بودابست ، أو قدم وعودا بالزواج ، او فسخ خطوبته ، او اقترض وانفق النقود ، في نفس الوقت الذي كان يتذكر فيه تماما أمور متعلقة بعمله . لم ينتج نسيانه اذن عن العلاج بالصدمات وانما عن حالة من «الرخاوة» الهستيرية تغيب في الذهول كل ما يبعث على الضيق .

وأنا لست من الكلفين بعلم نفس الاعماق ، ولكن اذا كان في وسع «عقدة أوديب» ان تفسر اي شيء في اي مكان ، فهذا مكانها . لقد كان دنيس القافز في البئر يحب أمه بلا شك . كان يعاني ، بلغة علم النفس ، من الارتباط الباثولوجي بأمه ، وكان عاجزا عن «الانفصال» عنها يؤكد ذلك هذا التقدير الذي كان يتحدث به عن هذه الام غير المحبة ، وهذه الكلمات التي رددها في مرحلة سابقة من اضطرابه ، اذ كان يقول انه «أحب امه بطريقة من الجرم ان تحب بها أم» ، الامر الذي يعاقب مقترفوه في الدرك الاسفل من جحيم دانتي (يثور التساؤل ما اذا كانت أقسام أمراض العقول في بعض المستشفيات لا تستوي مع هذا الدرك المريع من الجحيم) .

ولا أعلم ما الذي ادى بصديقنا الى التثبيت على أمه — هل هي الخبرات التي عاشها مع الوالد العبوس ام شيء آخر . ولقد أدرك هذا الجذب بوضوح . وحين انتوى الزواج من الممرضة الجادة الناضجة التي تكبره بخمسة أعوام ، كان يحاول الانفصال . لكن المحاولة لم تنجح ، نظرا لان الام النائية كانت اقوى ، وحال ذهوله الهستيري دون اتخاذ اي قرار . وكان هذا ما يريد .

لم يكن ثمة ما يدعوه لكي يقفز في البئر ، بسبب ارتباطه القوي بالأم . لقد كان يعاني من صدمة انفعالية حادة ، ومن «اضطراب في العمليات العصبية العليا» . اي هذه العملية التي تسيطر فيها المراكز العصبية فوق اللحائية البدائية على اللحاء (من وظائف اللحاء السيطرة على القوة الشريرة ، والعواطف والانفعالات الخاصة بالمراكز فوق اللحائية ، بالعقل والارادة) . ففي حالة صديقنا القافز في البئر ذبلت وظائف اللحاء العقلية ، فوجد مهربا «جنونيا» (لا يوجد تعبير اكثر من

هذا قدرة على الشرح) ـ في قاع البئر اولا ثم في قاع النسيان الكامل حيث ترتع الانفعالات والعواطف في حرية ـ حتى يشفي اللحاء ويعيد فرض نظامه تدريجيا. وهذا ما بدأ يحدث منذ كبت صديقنا بارتياح «سلوكه الفج» (القفز في البئر) في اللاشعور . وكان لديه مبررا قويا يفعل هذا لان عقله كان سيظل يخجل من مثل هذا الفعل الى الابد . أما ان عقله لم ينغمس في الامر كلية وانما تخلى فحسب عن الاسبقية للقوى الانفعالية الطفلية والانثوية فانه يتضح من ان صديقنا ظل حتى في أقصى حالة اضطرابه وشذوذه لاعبا ممتازا للشطرنج ، وهـو عمل تصعب مزاولته بالعواطف وحدها (كان يكسب معظم المباريات وهومغمض العينين ـ الامر الذي يتطلب ذاكرة غير عادية) .

على كل حال ، تحسنت حالة القافز في البئر بشكل مضطـرد ، فصفت واعيته ، وان ظل البئر وكل ما يرتبط به في أعماق عقله اللاشعوري . وقطـع علاقته بعشيقته ، وعاد للممرضة المخلصة وعمل بلا كلل في وظيفته . ولكن قبل ان تأتي النهاية السعيدة عاد الى حالة الذهول مرة اخرى حين أوشك على ان يستغنوا عنه ، ولكنه تغلب عليها عن طريق الاصابة بنوبة هستيرية . وعولج في ليبوتميزو ، وكان ثمن علاجه بالصدمات الكهربائية ان اعتبروه فصاميا ، الامـر الذي اعفاه من الخدمة العسكرية . ورغم هذا الماضي الخطر ، فقد تسلق القافز في البئر حتى خرج من بئر الهستيريا وتزوج بالممرضة رغم احتجاجات أمـه (الزيجات لا تنطبع في اللحاء ...) وسرعان ما أنجب (القافز في البئر) الطفل . وسوف تعيش الاسرة في سعادة متواضعة حتى تثير الحياة بعض المصاعب الاخرى التي سيكون من السهل التهرب منها بمساعدة حالات الرخاوة الهستيرية .

وحالة مارجريت ميوت المومس الشابة الرقيقة لا تقل أهمية .

فبينما عجزنا عن شفائها تماما ، من مرضها الاساسي على الاقل ، بالمعاملة الطيبة ، الا اننا حللنا مشكلة أثارت دهشة مشاهير أطباء المدينة . ويرجع الفضل في الدهشة التي لم تثر مشاهير الاطباء فحسب ، بل ومارجريت ميوت أيضا الى السيدة الاولى .

لم تأتنا مرجريت من قسم الامراض العقلية وانما من حفرة على طريـق جانبي . التقطها احد رجال الشرطة من ضواحي المدينة «فاقدة الوعي» ، وأقلتها سيارة الاسعاف الى قسم الامراض الباطنية بالمستشفى . واثناء ذلك استردت وعيها ولكنها لم تتكلم . جعل الاطباء المقيمون يتطلعون اليها ، يتفكرون، ويحتارون فيما ينبغي ان يصنعوا . بدت متفهمة لاسئلتهم اذ كانت تهز راسها ، ولكنها لم تفه بحرف . وطلبت بلغة الاشارة ورقا وقلما ، وبسرعة كتبت اسمها (اسما مزيفا كما تبين فيما بعد) ثم ما يلي : «انا خرساء منذ ولادتي ، ولكنني استطيع أن اسمع جيدا ، لقد كنا تسعة اخوة واخوات ، ولد واربعة اخوة عميانا وخمسة بنـات خرس .» ومات الاخوة والاخوات جميعا وبقيت هي على قيد الحياة . مات والداها اللذين لم ترهما قط . لم تتلق تعليما مدرسيا . فشلت شتى المحاولات لشفائها

من خرسها . واستغرق تعليمها الكتابة خمس سنوات . اقامت في مؤسسة للصم والبكم لمدة عام . كانت في طريقها لزيارة بعض المعارف ، لكنها مرضت في القطار، ولا تعرف كيف وصلت الى المستشفى .

كتبت كل هذا بقدر ملحوظ من الذكاء ، ودون توقف ، مع بعض الاخطاء الاملائية . غمغم الاطباء المقيمون وتمتموا ، وفحصوها ، وقاسوا افعالها المنعكسة، وشموا انفاسها ولكنهم لم يعثروا على ما ينير لهم الطريق . هل هي مشلولة الى جانب بكمها ؟ لقد صرحت الفتاة انها لا تستطيع النهوض من الفراش .

واخيرا ارسل الاطباء المقيمين في استدعائي . توجد «حالة عقلية» هل تلقي عليها نظرة . انها مريضة بالحالة الصرعية Status epilepticus . هكذا ذكر الطبيب المقيم مدللا على جهله ، فأسرعت من فوري ، لان الحالة الصرعية ليس هزلا ، ويمكن ان يموت البعض بسببه . ولحسن الحظ لم يكن ثمة حالة سبات او حالة شلل . ابصرت عصفورة رمادية صغيرة على السرير ذات عينين مرتعبتين ، شعرها مقصوص بطول بوصتين . فاختبرت افعالها المنعكسة بدوري ، وسلطت الضوء في حدقتيها . لا شيء . وعرضوا عليّ ما كتبته عن الاخوات الخمسة المصابات بالخرس وعن الاخوة الاربعة العميان . مجموعة غير مألوفة من الاخوة والاخوات ، وبمثل هذه الاخطاء الاملائية الشائعة ؟ تستطيع ان تسمع كل شيء ولا تستطيع ان تنطق بحرف ــ كان هذا غريبا . ثمة في حنية مرفقيها جروح بنية كانما جرحت نفسها بشفرة حلاقة .

«دعونا نفحص مشيتها . انهضي من فضلك .»

«انها لا تستطيع المشي ...»

ولكن تبين انها تستطيع . نهضت من الفراش وترنحت متداعية حتى الباب .

ومن فوري وصلت الى تشخيص الحالة . لقد تم العثور عليها في حفرة فاقدة الوعي ... لا تستطيع المشي رغم سلامة جهازها العصبي ... ثم تتمكن من السير على هذه الصورة الغريبة من الترنح ... الخطاب الغريب عن الاخوة العميان والاخوات الخرس... بل ما هو اغرب ــ بكماء في مقدورها ان تسمع... آثار محاولات الانتحار على الذراعين ... لا يمكن لهذا جميعا الا ان يكون هستيريا .

وابتسم الطبيب المقيم بعدم اقتناع .

«حسنا ربما ... نحن معشر الاطباء المقيمين ليست لدينا خبرة كبيرة بهذه الامور ... ومع هذا فاننا لم نشاهد هستيريا على هذا النحو ... ثم ماذا عن البكم ؟» هكذا سألني كانه يفحمني .

«أعتقد انه يتناسق مع هذا النمط الكلي .»

«أتعني انها ليست بكماء حقا ؟»

«تماما .»

لم يخف الطبيب المقيم ريبته .

«حسنا ، دعنا نقوم بتجربة» هكذا قلت في تصميم «سوف اصطحبها الى الجرانج .»

ولقي العرض قبولا على اية حال . وتنفس الاطباء المقيمين الصعداء لتخلصهم من هذه الحالة الغريبة . وجاءت سيارة الاسعاف واقلت الفتاة .

كانت بادية الارتباك في اليوم الاول ، ولكنها غدت بعد ذلك كقطة تبحث عمن يربت عليها . تكومت الى جانب السيدة الاولى لا تصنع شيئا طيلة الوقت الا ان تهر . كانت جياشة بالحب وتتضور في طلبه . ولكنها ظلت صامتة كالقبر . لم تكن تتفوه بمجرد السعال .

ثلاثة ايام كاملة ..

وفي اليوم الرابع قالت لها السيدة الاولى :

«حسنا يا عزيزتي مرجريت ، في وسعك ان تنهي هذه الملهاة . اننا نعرف جيدا ان في مقدورك ان تتكلمي اذا اردت . فلماذا لا تفعلي ؟ الا تحبيننا ؟»

«على العكس» ، هكذا أجابت البكماء «انني احبك يا ماما .»

وكان هذا نهاية خرسها . ومنذ ذلك الحين تكلمت الى حد الثرثرة .

دق جرس التليفون بعد الظهر . المستشفى تستفسر عن حالة البكماء .

«دقيقة من فضلك ، سأرسلها لكم على التليفون .»

«البكماء ؟»

وحدث ذهول عظيم . وحضر (لا . هذا كلام فارغ) شخصيا بذاته على التليفون. بدا على البكماء بعض الخجل قبل ان تعلن انها المتحدثة .

سألها (لا . هذا كلام فارغ) مستفسرا : «لماذا تتكلمين الان ؟»

«حسنا ، كما تعرف ... لقد كانوا جميعا في منتهى اللطف معي ... فرأيت الا اضايقهم ...»

لم يدهشنا كثيرا انها تكلمت الان بقدر ما تساءلنا لماذا لم تتكلم قبلها . لقد ادلت ببيانات متناقضة . ولكنها تبينت انه من المستحيل خداع السيدة الاولى التي تمرست على الفحص المستحق الذي يوقع الاضطراب بالمخادعين الاكثر خبرة من مرجريت . تضرج وجه مرجريت بالحمرة اخيرا وضحكت قائلة :

«كان من الاجدر ان تكوني قاضيا للتحقيقات يا ماما .. حسنا ، انصتي ، وسأحكي لك .»

وبدأت تروي الحقيقة فعلا ــ التي تثبتنا من صدقها فيما بعد .

ولدت في قرية صغيرة نائية منذ اربعة وعشرين عاما . وكان والداها غاية في الفقر ، اذ لم يكن لهما سوى فداني ارض . كان والدها عاملا متقاعدا في السكك الحديدية ، على حين ماتت أمها منذ وقت بعيد . وكان لها اربعة اخوة واخوات. ليس فيهم اعمى او ابكم . ومنذ عشر سنوات تزوج والدها مرة اخرى ، ليجد من يرعى شئون الاولاد ، وضربتها زوجة ابيها بضمة (علق)، وكانت محقة في ذلك، لم تجد مرجريت ما تتقول به على زوجة ابيها .

واكملت الصف السابع في المدرسة ثم عزفت عن المدرسة . وبدات تساعد في المنزل او تتسكع في الحقول . وفقدت بكارتها في سن الخامسة عشر وبعد عام واحد شرعت تزاول حياة الانحراف : فكانت تخرج مع الشبان ، وتغشى الحانات ، وتدخن ، وتنفق الليل بطوله بالخارج . لم تكن تتظاهر او متأبية ، ترضى مضاجعة اي رجل نظير حفنة نقود ، وحملت ستة مرات . في مثل هذه الاحوال كانت تخلص نفسها بأن تدفع داخل بطنها بإبرة تريكو ، ثم تذهب الى الطبيب وهي تنزف ، فيستكمل اجهاضها في حينه . لم تعرف ابدا من هو والد الطفل ، اذ كانت تضاجع رجلا آخر كل يوم .

وسرعان ما شاعت سمعتها في قريتها . وحاول والداها ان يغيرا من سلوكها بالكلام اولا ، ثم بالضرب ، وعندما فشلا في ذلك ، طرداها . ولم تعبأ ، وانما مضت تتجول في الاماكن المجاورة ، متنقلة من حانة الى أخرى . لم تكن بحاجة الى منزل مستقر ... وذات مرة وبينما كانت حاملا مرة اخرى سافرت الى بودابست واختفت بين الاشجار المقابلة لمستشفى جانوس ، حيث جرحت بطنها . وعثروا بها هناك تنزف ، فاقتادوها الى الداخل ، واستكملوا الاجهاض ثم أخرجوها . وبدأت تمارس حياة البغاء في بودابست . كانت تعطي نفسها لاربعة او خمسة رجال في بعض الليالي نظير فورنتا او اثنين . وقبضت الشرطة عليها ، فالتقت في الحجز بنسوة اخريات على شاكلتها كانوا اكثر خبرة ، فانضمت لهن بعد الافراج عنها .

وفي الصيف السابق على حضورها الينا سافرت الى احدى مدن التعدين، لتزور اخيها الاصغر الذي كان يعمل هناك صبيا . ولكنها لم تجده . وكانت قد سأمت وتعبت من الحياة التي تحياها ، فتجرعت بعض النبيذ المخلوط بالكحول . واكلت بضمة لفافات تبغ ، ودخنت علبة بأكملها ثم استمرت تشرب . وجلست في الصباح الباكر ، وقد اخذها الذهول والاعياء ، على الارض أمام احدى المستشفيات . فعثر عليها المعدنون فاقتادوها الى الداخل . وشفيت بعد ان أجري لها غسيل للمعدة . ثم قررت الا تنطق بحرف . فاتخذت لها اسما مستعارا ، وابتكرت قصة الاخوات الخرس والاخوة العميان وبقية القصة بأكملها . وكانت تكتبها كلها على النحو الذي فعلته عندنا . وتزيد ، فكانت ترتمي على الفراش ، وتجعل جسدها يتخشب ثلاث او اربع مرات يوميا ، وتفرك يديها ، وتلقي بنفسها من على السرير . ولكي ترفع من حرارة الموقف . كانت تجمع اللعاب في فمها ، وتعض شفتيها حتى تدميهما ثم تتظاهر بأنها تتقيأ لعابا مدمما . وخافها المرضى الآخرون واستشارت الاطباء . فأوثقوها ، ولكنها استمرت في نوباتها حتى ازرقت وحين حاولوا علاجها ، رفست الطبيب في بطنه . وفي نفس الوقت كانت تسمع وتفهم ما يدور حولها ، اذ كانت على وعي كامل . كانت كل فعالها مزيفة . وحافظت على بكمها لدرجة انها كانت تذهب الى دورة المياه ، حين تريد السعال.

واخيرا ساقوها الى قسم الامراض العقلية . ولم يستطيعوا علاجها هناك

ايضا ـ فرفست الابرة من يد الطبيب . وحضر احد الاطباء من الميادة العقلية في بودابست ، حيث قام بفحصها واصطحبها معه الى بودابست في سيارة الاسعاف . وظلت على هذا الحال هناك كذلك . فأجريت عليها الفحوص . لم تفدها المقاومة والركل . فأخذوا عينة من النخاع الشوكي وعمل اشعات بعد حقنة الهواء في المخ وعديد من الفحوص الاخرى واجروا رسما للمخ ، وثقبوا جمجمتها مرتين لاجراء جراحة مخية . (اجل ثقبت جمجمتها مرتين . امكن تبين آثار الثقب . حدث ذلك حين حلق شعرها ، وكان لا يزال قصيرا) كما فحصوا حلقها كذلك ليتبينوا ما اذا كان ثمة اصابة في الاحبال الصوتية . وكان هذا من الفحوص التي يصعب تحملها . ولكنها تحملته . بل وتحملت قياس حساسية الحواس Onsesthesia . ونوموها ذات مرة على أن تتكلم ، لكنها لم تفعل .

واصبحت حالة مشهورة في العيادة . وفحصها عديد من الاساتذة وكان في وسعها أن تعدد أسماءهم . بل وعرضوها في الجامعة بانتظام باعتبارها حالة «الخرساء التي تسمع» . ونصح بعض الاطباء باجراء عملية في الحلق ، وشك آخرون في وجود ورم بالمخ .

كانت كل كلمة من هذا صحيحة . وتحت يدي سجلها الطبي الذي لم يستهويني لما فيه من اخطاء ، ولكن لانه كان مليئا بأعراضها العضوية وكل انواع اضطرابات الافعال المنعكسة والحواس ، كالغثيان وكلها ذات اسباب نفسية ، واسفر فحص الجمجمة بالاشعة عن وجود «ضلع» dislocation يحتمل ان يكون اساسه وجود ورم بالمخ . لقد كانت جميع هذه الاختبارات والفحوص بمثابة الدليل على تيقظ ضمير هؤلاء الاخصائيين العظام ـ ولكن الم يكن في وسع القليل من الشفقة الانسانية ان تؤدي الى تشخيص اكثر دقة ؟

بعد أن تم ثقب جمجمتها مرتين دون ان تنطق بحرف ، وبعد ان ثبت بطلان احتمال وجود تورم بالمخ ، حولت الى مؤسسة الصم والبكم . (ثمة دليل على ان مدير المؤسسة كان يعاملها على اساس انها بكماء قادرة على السمع) . وسرعان ما سئمت كل هذا ، لم ترحب بالبقاء بين أناس اشد منها بكما ، فهربت وعادت الى منزلها . وشرعت في الكلام وهي في القطار . وحين لم تجد والديها بالمنزل ، مضت الى احد اقربائها واستأنفت حياتها المنحرفة من حيث تركتها . ولكنها سئمت من ذلك ايضا . فاستقلت القطار وارتحلت بلا مقصد . وحين حل الظلام غادرت القطار ، وسارت في ضواحي المدينة بالقرب من الجرانج ، ورقدت في الحفرة على جانب الطريق .

اغرب ما في هذه القصة ان المرء كان في وسعه ان يتوقع اي شيء من هذه العصفورة الرمادية الصغيرة الا الانحراف والدعارة . كانت قليلة النمو من الناحية الفيزيقية ، وتخلو من الجاذبية الجنسية على الاطلاق ، كانت اقرب الى الدمامة منها الى الجمال . ولقد امضت ثلاثة شهور في الجرانج ، راقبنا اثناءها ما اذا

كانت مهتمة بالرجال . فلم تكن كذلك . وكذلك لم يهتم بها احدا ، ما دامت لا ترغب مخلوق . وعقدت صداقة مع صبي صغير في نحو السادسة عشر ، ولكنها كانت صداقة اخوية ، لا تزيد . ولم يخطر ببال احد انها امراة . كانت عابثة شقية اميل للطفولة . وذكرت من نفسها ان الرجال لا يبعثون لها على الرضى . ان هذه البغي الصغيرة الرقيقة التي باعت جسدها لكل عابر سبيل منذ سن السادسة عشر لم تعرف مباهج الحب .

واعتقد اننا غيرنا منها كلية . بدت مقبلة على العمل ، ومتلهفة ، وطموحة ، وعاطفية ، ومحبوبة . لماذا لا تجد طريقها الى الحياة السوية ؟

وكان هذا ما حدث ولكن بطريقة مخالفة .

طلبت الرحيل لزيارة والديها . نظرا لانها غادرتهما وهي فتاة منحرفة فقد ارادت ان تعود كحمل بريء . سوف تقضي أسبوعا ثم تعود ، فهي تحب اقامتها هنا ولا يمكنها مجرد العيش بدوننا .

كتبت لوالدها ، فرد مرحبا بها . وسمحنا لها بالمضي . وبعد يومين ، وصلنا خطاب من المنزل يفيد انها وصلت واستقبلت أحسن استقبال .

ثم لا شيء . مضى اسبوع ولم تعد . ومر اسبوع ثان ، ولا اخبار بعد . اسقطنا اسمها ، ولكننا لم نفهم ما حدث . وبعد اسابيع قلائل اصطحبت احد المرضى الى احدى المزارع ، فاذا بي لا التقي الا بمرجريت . اقتربت مني في ارتباك والقت بنفسها حول عنقي .

«كيف جئت الى هنا ؟»

تلجلجت وهي تروي قصة ملفقة . لقد توجهت الى بودابست مع أمها ، فمرضت ودخلت المستشفى ، وتوسلت عبثا ان يعيدوها الى الجرانج .

ولكنني عرفت منها الحقيقة فيما بعد . لقد سافرت فعلا الى بودابست (بدون أمها) وزاولت احد تصرفاتها الهستيرية في الترام ، كأن تكون حاولت الانتحار ، فاقتيدت الى المستشفى ومنها الى ليبوتميزو . وشعرت بالالفة مرة أخرى فبدات تتصنع الأعراض حتى استدعوا لها (كونسلتو) من الاطباء . ومرة اخرى بدأت احتمالات كل ضروب التشخيص (ما عدا «البكم مع توفر السمع» هذه المرة) . فاعتقد بعض الاطباء بوجود مرض عضوي ، وارتأى طبيبان انها هستيرية، فأرسلوها الى احدى المزارع تحت الملاحظة .

وتوسلت اليّ أن آخذها معي ، فأمهلتها ثلاثة اسابيع تبقاهم في المزرعة تحت الاختبار . اذا سارت على ما يرام ، فسوف اعيدها . ويبدو ان الاسابيع الثلاثة كانت طويلة عليها جدا ، فهربت ، وسرعان ما بعثت برسالة من قسم الامراض الباطنية بمستشفى آخر تخطرني انها سوف تنتحر ، وتطلب ان نتذكرها بالاعتزاز .

ولم تنتحر بالطبع . ولكنها عادت بعد عام على التحديد . وخلال هذه الفترة مضت تتنقل بين خمسة عشر مصحة عقلية . لقد أدمنت هذا الاسلوب في الحياة

بما فيه من انتحارات مزعومة وفقدان للوعي ونوبات «صرع» ، ساحبة الاطباء من انوفهم عدة اشهر وهي تسخر بهم في سرها . وحين تسأم الامر كله ، كانت تهرب ، وتستقل القطار وتشرع في اعادة الكرة من جديد في مدينة أخرى . يا لتشكيلة التشخيص التي جمعتها . ارسلت وراء سجلاتها الطبية من كل مكان ، كانت قراءتها متعة ما بعدها متعة .

واعادتها سيارة الاسعاف الينا مرة اخرى من مستشفى المدينة . وكان التشخيص هذه المرة ، من قبيل التنويع ، حالة تسمم Tatanic . احتملها رجال الاسعاف بعناية حتى لا يثيروا نوبة جديدة من التقلص الناشيء عن التسمم. ونادت السيدة الاولى على الموكب قائلة «قومي يا مرجريت ، كفي عن المخادعة !» فقفزت المريضة «المريضة بالتسمم» والقت بنفسها على صدر ماما الامر الذي جعل فك رجل الاسعاف يسقط من الدهشة .

وعملت بالجرانج في حماس وروح طيبة اشهر قلائل ، ثم عاودت الهروب . وكتبت لنا من مستشفى نائية ، في هذه المرة شكوا في وجود ورم بالمخ .

دعوني اعترف . كنا نتذكرها باعتزاز . لقد كانت بفيا صغيرة رقيقة . ولم اعتقد قط انها سوف تنتحر ، فظللنا في انتظار عودتها .

وحتى ذلك الحين دعونا نناقش فسخة ثانية منها هي الزي ويني . اذا كانت مرجريت قطة صغيرة حلوة فان الزي كانت شريرة ملحوظة . ورغم تشابه سمات من الهستيرية وانعدام المعايير الخلقية في كليهما ، الا ان ما كانت تزاوله مرجريت في رقة (حتى الكذب) كانت تفعله الزي بصورة تعافها النفس . كانت شاعرة وكناسة في شوارع واحدة من المدن الصناعية الجديدة ، حتى تم طردها . ورفضت ان تأخذ عبرة من ذلك فاستمرت تمتدح المدينة الجديدة بقصائد طنانة ، وتصب سيلا من اشعارها على احد محرري بعض المجلات الادبية ، بالرغم من ان الاخير سبق واعلن رايه في شاعرية ويني عدة مرات . ولم يكن شيء من ذلك ليهم لو لم تأت ببعض الفعال الهستيرية التي تعافها النفس من وقت الى آخر . كان من المستحيل احتمالها ، فهي مليئة بالخيلاء ، ثرثارة ومزدرية للآخرين .

واطلقنا عليها اسم ويني (اي المصهلة) لانها كانت تصهل كالمهرة حين تكون معتدلة المزاج . وسرعان ما تتنهد بعد ذلك بشكل مأسوي وتسب ، مستخدمة أشد الكلمات فحشا . وكانت تزعم الاقدام على الانتحار احيانا لتستدر العطف .

لكن روح الجرانج صنعت المعجزة مع ويني . فتخلت عن خصالها التي تعافها النفس واحدة تلو الاخرى ، ولم تعد محتملة فحسب بل ومحبوبة ايضا . احيانا كانت تطفو احدى الذكرياتغير السارة من ماضيها الهستيري فكانت تحاول قمعها، وهذا امر يستحق الاحترام حقا . لقد امكن تعديل جوهر ويني البعيد الغور ، الامر الذي يصعب تحقيقه فعلا لدى الهستيريين . وبدأنا نأمل في انها ستقلع عن حياتها الطفيلية تماما ، فسمحنا لها ببعض الاستثناءات . وزودناها بعلاج خاص، واهتممنا بها شخصيا ، فبدأت تعمل وتتصرف بطريقة تدعو للرضاء . كانت

كتابتها تخلو من الاخطاء ، فأسندنا اليها تعليم ضعاف العقول . في هذه المناسبات كانت ترتفع معنوياتها . كانت تغدو اكثر سعادة حين نسند اليها مهمة في الحلقة الادبية ، او نختصها بدور هام في احدى المسرحيات . وهكذا فكلما زدنا المسئوليات الملقاة على عاتقها كلما اجتذبنا ثقتها ، وكلما زدنا من مودتنا نحوها ــ على الرغم من مقاومتنا الداخلية ــ كلما زادت حالتها تحسنا .

وطالعتنا ذات يوم بوجه مكتئب وأعلنت انها بصدد الادلاء باعتراف مروع ، توقعت امرا تافها نتيجة تدخلها في شئون الآخرين ، الا ان اعترافها هذه المرة كان خطيرا بما فيه الكفاية : ان اخاها مودع بالسجن لقضاء اثني عشر عاما لارتكابه جريمة قتل . شككت انها تسمى وراء ذلك لجذب الانتباه ، ولكن رد ادارة السجن اكدت لي صدق «ادعائها» . وظلت يومين تتمشى وقد بدا عليها الاكتئاب ، ثم تناست قلقها ، وعادت تصهل بمثل مرحها السابق .

كانت في الثامنة والعشرين من عمرها ولم يواتها الطمث قط . وسبق علاجها بالهرمونات ، من اقراص وحقن وعملية كحت وزرع الغدد ، وكل ذلك عبثا . لم تتعاط عندنا شيئا من ذلك . لكن يجب ألا نغفل الاثر الهام للعلاج البيئي، فبعد ستة اشهر في الجرانج ، جاءها الطمث .

اما أشهر مآثرها فحين تتبعنا الى جبال بروتسوني . كنا في اجازة . وبينما نضرب دون اي توقع في احد المرات المستورة في الغابة ، اذا بنا نلتقي بها فجأة. لا ريب ان غريزتها هي التي اقتادتها ، اذ كان العثور على كوخنا الخفي من الصعوبة بمكان . وشرعت فورا في الغسيل ، وعاشت معنا سعيدة في الغابة طيلة أسبوع.

وأخيرا أفسد الحب بلا امل علينا علاجها ، أثار القوى الهستيرية الكامنة في اعماق نفس ويني من جديد . انتصرت العاطفة على العقل ، وعاودت الاعراض الهستيرية الظهور واحدة تلو اخرى .

***

لا يكاد يوجد مرض لا تنطبق أعراضه على الهستيريا . من الطفح الجلدي حتى تشنجات الصرع ، من نوبات البرد حتى آلام المخاض ، ومن الشلل الى العمى ، اذ تتسع الهستيريا لاي شيء . وهناك ظرفين يجعلان التشخيص امرا من الصعوبة بمكان . أولهما ان المرضى الهستيريين يدعون دائما او على الاقل يبالغون في أعراضهم ، لدرجة تستثير غضب الطبيب ، فيتهمهم بالغش ويأمرهم بأن يمارسوا الاعيبهم مع شخص آخر غيره . ومع ان هذا موقف خاطيء ، لان الهستيريا وراء كل هذه الاعراض المزعومة . يوجد ثمة غش قهري لا شعوري ، خداع حقيقي للذات ، يكمن وراء خداع الآخرين وتنشأ الصعوبة الاخرى من السبب النقيض ــ اذ تنبني أعراض الهستيريا غالبا على امراض عضوية . بعبارة أخرى . فالذين يشكون عادة من «نوبات قلبية» هستيرية تكون قلوبهم فعلا على غير ما يرام ،

والذين يعانون «النوبات الصرعية» يكون بناءهم صرعيا في الاساس . فالمريض ذو المعدة المرهفة ، تتسبب الهستيريا في اصابته بسوء الهضم والقـيء واذا كانت مفاصله ضعيفة شكا من «النقرس» . فالهستيريا تتلمس أضعف الثغرات في بناء الكائن . واقلها مقاومة . وتهاجمه .

ويهظ الطبيب راسه ليكتشف الهستيريا ما بين النقيضين . المرض المزعوم والمرض العضوي .

وقصة مارجريت البكماء التي سردتها اكثر الامثلة تدليلا على ذلك . فليس من شك ان الفتاة كانت تتظاهر وتقود أفضل الاخصائيين في المدينة من انوفهم بأعراضها المزيفة والمتعمدة . ولكنها تظاهرت بشكل بالغ الاتقان لدرجة جعلتنا نوافق على انها «تخادع» فحسب . لقد اسفرت عن أعراض نيورولوجية بالغة الخطر لدرجة شككت الاخصائيين في وجود ورم بالمخ . وكانت الهستيريا هي التشخيص السليم فيما بين النقيضين : المخادعة وورم المخ . كانت تتوخى بصورة شبه شعورية وشبه لاشعورية الهرب من الدعارة ، والشعور بالراحة النسبية دون عمل منتظم . وبصورة طفيلية ، بعيدا عن مواصفات المجتمع . ويعتبر هذا هروبا وتمردا ، او يعتبر بعبارة اخرى هستيريا .

لقد جاءتنا مارجريت البكماء باعتبارها حالة صرع . وتعتبر النوبات شبه الصرعية من اكثر اعراض الهستيريا توترا . ويصعب احيانا تمييزها .

وكان بيلا لوكيمست نصف مريض بالصرع ونصف هستيري . كان مليحا ، موثوق التراكيب ، ذو شهية مفتوحة وقدرة طيبة على المرح . وكان يعمل بجد في ورشة الآلات . وكان يغشى عليه من وقت لآخر ، ويغدو مذهولا ، وتدهمه تشنجات صرعية ثم يتجول بعد ذلك في حالة من الرخاوة . ويظل يرقد في سريره خاملا مكتئبا عدة ايام . تشابهت نوباته مع الصرع الحقيقي ولكنها لم تكن حقيقية . كان فيها ثمة شيء مزيف ، واحتيالي. وأيام كان في بودابست لم يكن مقتصدا في نوباته كما هو الحال في الجرانج حيث تصيبه نوبة واحدة في الشهر ، اما هناك فكان يغشى عليه عدة مرات يوميا في الشارع او يسقط من الترام . وبذلك نجح في الحصول على المعافاة العسكرية . ولم يكن ذلك يخلو من صحة ، اذ كان سقيما من الناحية العقلية يفضل اسلوب الحياة الطفيلية . فعاش هنا وهناك على نفقة الدولة محاولا استثارة العطف عليه .

ولقد كانت هذه المجموعة من مرضى الصرع الهستيريين تعاني ايضا من الضعف العقلي بصورة او بأخرى . وتميزت مجموعة اخرى بانحرافات جنسية شتى الى جانب الطفيلية والضعف العقلي ، بالاضافة الى النوبات شبه الصرعية. وتم ايداع قلة منهم بالجرانج ، ولكنني رأيت المزيد منهم في قسم الامراض العقلية في هارشجي ، وهي مؤسسة معروفة مخصصة للهستيريا الجنسية .

ويجب ان ابدا شرح هذه الحالات التوضيحية بحالة الفيرا (عروس المساء) التي خبرت اسلوبها غير المألوف في الحياة في هارشجي . وبعد ستة اعوام

اشرفت على تعديله في الجرانج .

درست الفيرا (عروس المساء) لتصبح ممثلة ، ولكنها اصبحت كاتبة على الآلة . فلقد غشي عليها ذات مرة على المسرح فلم تجرؤ بعد ذلك قط على القيام بدور . وفيما بعد تزايدت اغماءتها بصورة مضطردة . وعذبها شعور بالخدر ، ومخاوف غير معقولة الى جانب الصداع . وشكوا في العيادة في اصابتها بالصرع. وذكرت للاطباء انها تخشى الحياة الزوجية ، وربما يسبب لها هذا الخوف نوبات الاغماء . وفسرت مخاوفها ، مرجعة اياها الى انها زاولت العادة السرية بإفراط منذ سن مبكرة وانها تشعر بالذنب نتيجة لذلك . وفقدت الوعي بعد هذا الاعتراف وظلت تصرخ عدة ايام مطالبة بمن يمارس معها الفعل الجنسي . وتم اشباع رغبتها . لكن اللذة لم تدم طويلا . فبعد ايام قلائل سئمت المريضة هذه المينة من الحياة الزوجية وحاولت طرد العريس . لكن ذلك جاء متاخرا ، وكان يجب اتمام الزواج . واثبت العريس انه ليس عاملا علاجيا يبعث على الرضى . كان رجلا منحرفا شديد الافراط جنسيا جعل يطالب زوجته عدة مرات يوميا بأن تؤدي واجباتها الزوجية بشتى انواع الطرق . ومما رواه لي الزوج بنفسه ومن وصف المريضة وامها ، تبينت انه يبهظها الطلب .

ومرت الاعوام ، وغدت النوبات الصرعية اكثر تواترا . وحين حولت المريضة الحلوة الى عنبري كانت قد بلغت ما هو اكثر من السأم لا من زوجها فحسب ، ولكن من الاطباء ، والمستشفيات ، ومن الدجالين كذلك ، الذين ترددت عليهم عدة أعوام . كانت تطلب النصيحة من كل مخلوق وتنفذها ، لدرجة جعلتها تفقد كل عاداتها تدريجيا . اوصاها احد الناصحين بعدم التدخين ، وآخر بعدم التردد على دور اللهو ، وثالث بعدم الاكل نهائيا ورابع بالامتناع عن العمل ، وخامس بتجنب المجتمع ، ولكن نوبات الاغماء لم تتوقف ولم تعد تفكر في شيء سوى مرضها . وصاحبتها أمها في كل مكان ، لم تكن تجرؤ على مجرد الخروج بمفردها.

واصطحبتها الأمايضا الى الجرانج. ورددت لنا التفاصيلالتي تثير الاهتمام، من ذلك مثلا ان الجميع كانوا يعيشون في حجرة ، الوالد والوالدة، والابنة، وزوجها. لذلك لم يكن مما يدعو للدهشة ان تكون الام ملمة الماما كاملا بحياة ابنتها الجنسية، وكانت المراة تنام عادة في سرير امها لتهرب من زوجها الذي تحبه ، والذي كان معرضا عنها. واخبرتنا الام المتوفرة على الملاحظة ان نوبات الاغماء التي كانت تمتور ابنتها تتشابه بصورة غريبة مع الفعل الجنسي ، وسرعان ما اكتشفنا صحة تشخيص الأم . وامكن تلافي النوبة بصورة تدعو للدهش . فذات مرة ، وفي بداية احدى النوبات ، صاح احدهم من على الباب يستدعي الفيرا على التليفون ، فزوجها يطلبها ، فتوقفت النوبة بغتة ، وهرعت الفيرا الى التليفون .

وذكرت الام ان ابنتها مارست العادة السرية منذ كانت في شهرها الثامن عشر. وحاولوا منعها في البداية وعاقبوها على ذلك ، لكنهم خشوا فيما بعد ان يتسببوا في ضررها ، فتركوها تستمر في ذلك . وكان هذا ما فعلته في اصرار،

حتى بعد ان تزوجت ، كما اخبرنا زوجها ، الذي تعرفت عليه ايضا . كان شخصا كريها ، قاسيا وعنيفا ، وكان من السهل تصديق شكاوي زوجته ، وحتى هو لم ينكرها . وذكر لي انه برغم انه لم يدخر وسعا في تأدية واجباته الزوجية ، الا ان زوجته لم تكن ترضى قط ، واكثر من ذلك ، كانت تزاول العادة السرية ، عقب المباشرة الجنسية .

حاولنا اقناع الزوج بألا يكون انانيا لحوحا ، والزوجة بأن تتقبل منه الاشباع ولا توفره بذاتها .

وكان العلاج ناجحا . وتعلم الزوج أسرار الزواج السعيد ، وقلت النوبات تدريجيا . وسعدت الفيرا بزوجها ، وعادت تأكل ، وتدخن ، وتعمل ، وتستمتع. وشعرت انها شفيت . ولم أقل عنها تفاؤلا . اما فيما يتعلق بالزوج ،فقد كنت متأكدا انه لن يستطيع ضبط نفسه طويلا . ورغم انني قمت باقناع الوالدين بمبارحة الحجرة كل ليلة لبضعة ساعات كي توضع لاستخدام الزوجين الشابين الخاص وطلبت من الام الا تأخذ الابنة الى سريرها ، فقد بدا هذا الحل لا يبعث على الرضى .

ولم تعتورني الدهشة حين تسلمت رسالة من الفيرا بعد ست سنوات . لقد احسست أنها على ما يرام لبضعة شهور عقب العلاج ، ولم تعاودها النوبات ، ولكن حين بدا زوجها «يطالب بالمزيد والمزيد من الامور المستحيلة» عاودتها النوبات . الامر الذي ضايق الزوج ، فكف عن مطالبه . وانفصلا اخيرا . وارتحل الزوج ، ولكن لم تتوقف وطاته ، كما لم تتوقف النوبات وعادت الفيرا تتنقل من طبيب الى طبيب ، وتتردد على المنومين والدجالين ، واعتبروها مريضة وعولجت بعقاقير الصرع ، وكل ذلك دون طائل ، ولم تعد تعرف ما الذي ينبغي ان تصنع .

ولا انا ايضا . فلا يمكن لمشكلة الهستيريا ان تحل الا اذا غيَّر المريض حياته كلها ، وبيئته تغييرا كاملا وشاملا . لكن الناس لا ينفصلون عن بيئاتهم . لقد انجزنا مع الفيرا نصف المهمة ، حين افلحنا في وقف نوباتها ، وكان من الافضل ان تنفصل عن زوجها الفظ وتجد الزوج المناسب . ولكن من لديه القوة لتحقيق ذلك ؟

سبق وتسبب مناخ الجرانج في عدة مفاجئات . ربما تساعد البيئة الجديدة الفيرا ايضا ؟ كتبت اليها أستدعيها وسوف نتكفل بالباقي .

وصلت بالسيارة ، بصحبة امها ـ بالطبع ـ التي لم تنفصل عنها منذ اعوام . حين هبطت من السيارة كان منظرها يثير الاشفاق . هزلت ، واصبح وزنها سبعة ستونات على الرغم من انها طويلة وذات عظام عريضة . جعلت تلقي نظرات زائغة (اصيبت بالنوبة في الطريق) وتلعثمت ولم تجرؤ على مبارحة أمها لحظة . كانت في الثلاثين الا قليلا ، امرأة مطلقة ، كانت تعمل منذ سنوات قلائل موظفة في احد المكاتب ، ولكنها تبدو الان كمراهقة خجول . اخبرتني امها انه تم اعتبارها مريضة مستعصية ، ومنحت معاشا قدره خمسمائة وسبعون فورنتا .

وانها تتعاطى العقاقير الخاصة (فينيتيون Phenytain وباربيترات **barbituarates** الادوية المتادة للصرع) ومع هذا تصاب بنوبة او اثنين يوميا ، ومن ستة الى ثمانية في اسوا الفترات . ونادرا ما يمر يوم دون نوبة على الاقل . وخلال السنوات الثلاث الماضية مرت بها فترة مقدارها ثلاثة اسابيع لم تعتريها اية نوبات .

اعترف انني شعرت بالخوف عندما رايت حالة الفيرا ، وقرات سجلها الطبي، واستمعت الى تفسيرات امها الموضوعية . ما الذي يمكن ان نصنعه مع مثل هذه المعتلة فيزيقيا وعقليا ؟

خلت الايام الخمسة الاولى من النوبات . كان الطقس سيئا حقا ، لدرجة جعلت اشد المرضى عزيمة لا يؤدون اي عمل جاد . ومضت فيرا تتسكع دون ان تلوي على شيء . تكلمت قليلا ، وظلت تكرر خمسة عشرة مرة يوميا بصوتها المتلعثم بطريقة مصنوعة كيف ناشدت أمها ان تعثر عليّ كأنني هدية عيد الميلاد ، وكيف تمكنوا اخيرا من العثور عليّ . وانهم في ليبوتميزو لم يخبروهم اين أقيم ، فاقتفت امها اثري حتى جبال بروتوني ، واخيرا وصلت الفيرا الى الجرانج ، لتعبر لي الان عن مبلغ السعادة التي ستكون عليها أمها وابيها واخيها وعمتها وابنة اخيها وابنتها في العماد . اذا عالجني «الاستاذ العزيز» . ولم تكن تقول شيئا خلاف ذلك . يبدو ان الفيرا غدت بلهاء .

في اليوم الخامس اصيبت بأول نوباتها ، حدث ذلك بعد ان صفا الجو وارسلناها لانتقاء الحشائش مع الآخرين .

لقد كرهت تنقية الحشائش ، على الرغم من انها لم تذكر لنا ذلك ، فشكت من صداع نصفي يقاوم اي انواع المسكنات . وبغتة هوت وجعلت ترفس بقدميها وتضرب على غير هدي ، ثم تترنح في غيبوبة .

ثم جاء اوان جمع السبانخ . الذي لم يستهو الفيرا في شيء . كانت تكره تناوله او جمعه . كانت سحنتها تنقلب حين تقرب حقل السبانخ او طبق السبانخ، فتسقط على الارض او تنزلق تحت المائدة . ولم تكن تحب اخذ الدوش البارد في الصباح كذلك . في هذه المناسبات كانت تخبط راسها في بلاط الحمّام الصلب .

ويجب ان أذكر انها لم تكن تحافظ على نفسها اثناء نوباتها . وهناك ثمة اعتقاد خاطىء مؤداه ان النوبات لا تعتور المرضى الهستيريين قط حين يكونون بمفردهم وانهم لا يؤذون انفسهم ابدا . ولكن ما اكثر ما قفزت الفيرا من فراشها لتسقط على راسها ، حتى وهي بمفردها في حجرتها وكان يتعين علينا اخراجها من تحت السرير التالي وهي مقطوعة الحاجبين .

وبينما كانت تترنح ذات مرة في حقل السبانخ ، قالت للسيدة الاولى «الامر شديد الغرابة ، يا أماه .. يبدو كأن صوتا يردد على مسامعي باستمرار . ليس هذا ضروريا ... ليس هذا ضروريا ..»

حسنا ، ادركت السيدة الاولى ان الفيرا عازفة عن جمع السبانخ ، وان الصوت أخبرها لهذا بعدم ضرورة الامر . وذكرت الفيرا فيما بعد ان العمل الشاق في الشمس المشرقة لا يفيدها ، وانه ليس من الضروري تعذيبها بمثل هذه الوسائل . كان الاشمئزاز يرتسم على وجهها ، وبدت مكتئبة وهي تتحول بنظرات محملة بالشكوى . وكلمت أمها تليفونيا تخبرها ان المكان على ما يرام وان كان المنزل افضل بلا شك . كان البشر يعتريها في المساء ، ويعتدل مزاجها بصورة ملحوظة بعد انتهاء ساعات العمل ، وتقبلت ملاطفات رجل يكبرها سنا فجعلت تسير الى جواره وقد تشابكت ذراعيهما . وكانا يرقصان ويتبادلان الغزل — في مثل هذه المناسبات لم تكن تصاب بالنوبة .

وسرعان ما هزمتنا . من يواتيه قلبه ليدفع بها الى حقل السبانخ ما دامت تفقد وعيها كل عشر دقائق ؟ كانت المرضات يتركنها تنام في الخميلة ، عندئذ لا تعتريها النوبات .

واحصينا فيما بين خمسة عشر الى عشرين نوبة يوميا ، حتى تعبنا من العد.

واحصيت ذات مرة تسعة نوبات متتالية ، حدثت جميعا بين ذراعيّ . كان الامر المثير للاهتمام انها كانت تفقد الوعي تماما خلال النوبات . وكان في وسع المرء ان يتبين من وجهها ان النوبة سوف تواتيها .. اذ كانت تعتريها نظرة مرتبكة ثم تنقلب سحنتها ، وترفع ذراعيها ، وتتنفس بصعوبة ، وتدفع بقدميها ، وتنزلق لتسقط على الارض ، تحت المائدة او السرير ، او تكتفي بالرقاد على الارض رافعة ساقيها . وتتقلص عضلاتها وتتصلب — ثم ينتهي كل شيء ، تنهض في ذهول وتحملق حولها وقد ارتسم على وجهها تعبير كئيب . لم يكن هذا تصنعا بالتأكيد ، او مشهد لاثارة العطف او غشا — ولكنه لم يكن كذلك وبالتأكيد نوبة نمطية من الصرع .

وفي بداية الامر كانت وجباتها بمثابة تعذيب اضافي . كانت تستغرق تسعين دقيقة في تناول طعامها . ولكن سرعان ما تغلبنا على ذلك ، فأقبلت على الاطعمة الدسمة بفضل الانسولين . سرعان ما غدت ذات شهية ممتازة ، فكانت تأكل نصيبا مضاعفا من كل الاصناف ، وتشرب اللبن الذي نحضره لها من مزرعة مجاورة وتتسلم طرد اغذية من المنزل كل اسبوع ، كانت تأكله عن آخره . وكان هذا بداية شفائها ، فحين زاد وزنها ، اصبحت نوباتها اقل توترا . وتحسن الجو ، ولم يتبق ثمة سبانخ ، فدبرنا امر الحاقها بعمل افضل — واعتادت الفيرا ببطء على العمل فغدت تمارسه طواعية وبدون نوبات وكانت امها ايضا تكتب لها لتشجعها . وتضافرنا جميعا على تشجيعها والتأكيد على تحسنها حتى بدات تسير في اتجاه التحسن فعلا .

ثم انتفى ذلك جميعا مع حلول موعد عطلتنا الصيفية .

خشيت أن تحدث المتاعب مع الفيرا اثناء غيابنا . كانت متعلقة بي كما لو كانت لديّ قوة سحرية ، فتوقعت ان تتدهور حالتها . لكنني لم اعتقد قط انها

ستصير على هذا النحو من السوء . داهمتها النوبة عشرون ، ثلاثون ، أربعون مرة في اليوم ، ولم تكن تفيق من حالة الرخاوة ، واثناء فقدانها الوعي ، مزقت كتابا سميكا من كتب القصص مزقا صغيرة . ورفضت العمل رفضا مطلقا «انني مريضة ولست عاملة» . وكانت تصيح في الممرضات بشكل عدواني ، فبدأوا يكرهونها ، وكان في وسعهم ان يتبينوا تشابه نوباتها ونوبات الصرع الحقيقية . فاذا صاح فيها الطبيب العجوز خلال النوبة «كفي عن ذلك يا الفيرا» كانت تدور بباصريها في ذهول وتتوقف فعلا . وحين كانت الممرضات يصحن فيها غاضبات «كفاك هستيرية يا الفيرا ، فقد سئمنا من ذلك» كانت تتوقف لتعود من جديد في خلال خمس دقائق . اما في لحظات صفائها ، فقد كانت ترقص ، وتغني ، وتقبل من تلتقي به من الرجال كيفما اتفق . في مثل هذه الاوقات كانت تعترف انها «بحاجة الى رجل» . ورفضت الادوية ، والقت زجاجة اللبن على الارض ، وداست على نصيبها من الخبز والجبن ، وغمرت نفسها بالاقذار ، ومزقت ملابسها وبللت نفسها . وفي صبيحة احد الايام هرعت وهي عارية تماما الى حجرة المعالج المهني وعرضت عليه عرضا صريحا . وعندما رفض شرعت تقبل المرض النوبتجي العجوز وتبث فيه الذعر بما أبدته من رغبات .

وارسل المعالج المهني خطابا قانطا الى بروتسوني يسألنا النصيحة . لقد قلبت الفيرا الهدوء والصفاء في الجرانج كله رأسا على عقب .

ولحسن الحظ ، كانت عطلتنا على وشك الانتهاء . فشرعنا في العودة . وادركت الفيرا تماما اننا سنصل في ظرف يومين ، وكأنما بفعل ساحر توقفت التشنجات والاضطراب . ولم تعد تذكر ما قامت به . وأصبحت في وداعة الحمل . وحين وصلنا ألقت بنفسها على اعناقنا كالطفل .

واعقب ذلك شهران بلا نوبات . منعنا الادوية ، وظل الحال كما هو . ومرت فترة الطمث الشهري دون نوبات ، بالرغم من ان هذه من الفترات الحرجة . وزاد وزنها ، واستمتعت بالمشاركة في الالعاب ، واشتغلت بجد ولم تعد تتلعثم ــ لا داعي للانكار ، اعتقدنا انها شفيت ، خاصة انها كانت تحصل على «العلاج الجنسي» . كان شريكها يكبرها قليلا ، وكان سيكوباتيا من مدمني الكحول أودع الجرانج لاصابته بحالة من الاكتئاب . وقع في حب الفيرا ، فاعتدل مزاجه . واستعاض عن الشرب بالسير معها وقد تشابك ذراعيهما .

ولم تصل هذه العلاقة بين الرجل المجرب والمرأة المطلقة الى مرحلة الحب الناضج بسهولة . كانت الفيرا تتصنع الحياء والتكتم ، يثير فيها زوجها السابق ذكريات مؤلمة عن الجنس . ولكن العاشقان التقيا في النهاية ، وأدركت الفيرا ان الامر شديد الاختلاف عما خبرته مع زوجها . كانا قد شرعا في التفكير في الزواج، وكان البشر قد غمرنا جميعا ، حين وقع أمر مثير للدهشة . فجأة شرعت النوبات تعتري الفيرا ، نوبات اكثر عنفا عن ذي قبل . فأغمي عليها من عشرين الى ثلاثين مرة على مدى اسبوع كامل ، مقاومة اقوى المهدئات والحقن ، والصدمات

الكهربائية ، ثم توقفت النوبات ، ولكن اعترتها **غيبوبة** استمرت اسبوعا .

وتعني الغيبوبة ان اللاشعور انفلت من رقابة الشعور وبدأ يمارس حياته الخاصة . وهي مرحلة تتسم بالهلاوس والقلق النفسحركي Psychomotoric وظلت الفيرا تقفز وتتكلم سبعة ايام دون لحظة راحة . وتحشرج صوتها فلم يعقها هذا عن الكلام . وضاقت بالملابس ، فكانت تهرول وسط الرجال عارية ، وتلقي بنفسها عليهم وتجذبهم نحوها . وكانت تبلل نفسها كل ساعتين . وانتفى احساسها بالخجل ، تماما ، فكانت تجري في الاستراحة ، وتباعد ما بين ساقيها وتتبول . او تبرم بطانيتها برما محكما ، وتضعها بين فخذيها وتظل تمارس العادة السرية عدة ساعات ، وفي نفس الوقت تتكلم ، وتغني وتصيح بلا توقف – وأحيانا بالشعر .

وحدقت اولا في الفضاء بنظرة عديمة المعنى ، وكررت آلاف المرات «من اجل السلام والصلاح – كل وراء الآخر» . ثم تتطلع فيما حولها وتعلن في دهشة انها قد قامت ثانية «يا لله ، ويا للغرابة ، لقد قمت من بين الاموات .. وكذلك والدي العزيزين ايضا .. يا لكميات الازهار .. هذا لا يوجد هنا ، أليس كذلك ؟... انه في العالم الآخر ، والآن كل شيء يبدأ من جديد .. لقد بعثت من القبر ، أليس كذلك ؟... ولكن كيف وصلت الى هنا ما دمت قد مت ؟.. لا ريب انني قمت من جديد ... سوف تعالجني يا دكتور .. لقد قمت من القبر ...» وشرعت في الهلوسة فيما بعد ، وسمعت اصوات والديها وتحدثت معهما ومع زوجها كذلك ، فيما قبل كانت تتحدث عنه بوضوح ، فتعلن رفضها الدائم له ، ولدهشتنا أصبح ما تردده الان على النحو التالي :

«اليكس ، عزيزي أليس ، تعالى ! تعالى ، ماذا تنتظر ؟ تعالي وارقد الى جانبي ! اين انت ؟ انني اسمع صوتك يا اليكس . لا ريب انه يخلع ملابسه الان . لقد شفيتني . انا زوجتك ، وسأكون لك وحدك . انك زوجي أليس كذلك . تعالى ، تعالى يا اليكس ، سأصنع ما يرضيك ، ولكن احترس من ان تسبب اية متاعب . تعالى هنا ، تعالى الان ، اين‌انت ، انني اسمع صوتك ، سوف اكون لك يوميا . انني سأطير . تعالى ، انني أحبك انت ، انت وحدك ، تعالى الي لانني اكاد أطير . اليكس ، اليكس يا عزيزي اليكس ، تعالى ، تعالى الي بسرعة ، سأكون لك ، يا عزيزي اليكس تعالى هنا الي ... قبلني ، قبلني . سوف اصنع كل ما يرضيك . زوجي ، زوجي ، عزيزي اليكس . لن اعود اليها من جديد ، لن اتمزق الى اشلاء مرة اخرى . لقد قمت من القبر . كل انسان يصنع ذلك . ماذا تقول ؟ ألم تصنع ذلك ؟ لقد خرجت من القبر ، لقد قمت . هناك استاذ رائع جعلني أقوم . لا زالت السيدات يتكلمن . دعوا سعادتها تتكلم . لقد فعلت ذلك ايضا . كل انسان يصنع ذلك . تعال ..»

كان في وسع اي انسان ترجمة هذا الكشف اللاشعوري الصريح ، وكان تدوينه من السهولة بمكان لانها ظلت تردده دون انقطاع لمدة ثلاثة ايام . وغدت بعد

ذلك أشد عدوانية . وتخلت عن فكرتها الطيبة عني ، وطفقت تسبنا جميعا بألفاظ مقذعة ، وتبصق ، وتدفع المرضات وترفسني . وزادت هلاوسها ، وسمعت اصوات مختلف اعضاء أسرتها ، وكانت ترى شابا ناعم الشعر . ثم اخذت تكرر عبارات غير متماسكة آلاف المرات ، من ذلك مثلا «يا إلهي ، سأفرز ما لا يكون ! يا الهي ، سأفرز ما لا يكون ! يا الهي سأفرز ما لا يكون !...» او «لقد مت ، بالطبع ، ودفنت . أماه ، سأفرز ما لا يكون .»

لم يعد ثمة أثر للحياء السابق و«الرقة» . وحين كانت المرضة تستدعيها الى التواليت ، لتتحاشى تبولها على الارض كانت تصيح في وقاحة «انا لست مجنونة ، سأرفسك في معدتك !» وترفسها فعلا وصفعت المعالج المهني وحطمت النوافذ ، وتفوهت بالشتائم المقذعة . «اذن فأنتم تريدون اخضاعي ؟ اذن انتم تبتغون طردي ؟»

وبعد أسبوع من الغيبوبة بالضبط استفاقت الى نفسها . ولم يعد ثمة أثر للاضطراب او الهلوسة . **ولم تتذكر شيئا على الاطلاق** . «لقد اخبرني المرضى بكمية السخافات التي تفوهت بها .. انني مت وما أشبه ... وكيف تصرفت بصورة مروعة ... اوه ، لشد ما أشعر بالخجل» . ولا ريب في انها كانت ستشعر بالخجل ، فيما لو كانت مسئولة عن لا شعورها ـ وهذا امر متروك للمناقشة .

ثم قضت شهرا خلو من النوبات ، في سلام وهدوء . وزارها والدها ، فقدمت لهما خطيبها وقد تضرجت خجلا ، وسألت وتلقت موافقتهما الابوية . واثناء فترة طمثها ، اعترتها بضعة نوبات خفيفة اوقفناها عن طريق الحقن . وتحررت من نوباتها لمدة اربعة شهور أخر ، وذهبت الى منزلها لتمضية اجازة . وغدا الجميع سعداء ، لقد تحول الهيكل العظمي المنهك الى مخلوق نشط ومستقل جيد التغذية .

ثم دب سوء التفاهم بينها وبين خطيبها الذي «لم يستطع مجاراتها» . وادى ذلك فورا الى حدوث النوبات ، وبعد بضعة ايام عاودتها الغيبوبة . عاودها اضطرابها بصورة بالغة السوء كما في المرة الاولى وان جلست هذه المرة مستغرقة في نفسها في حالة من الرخاوة تردد فيضا من اللغو . واعترتها بعد ذلك بستة أسابيع فترةاخرى من الرخاوة (لم تعرف ما الذيأثارها) كانت قد عادت لخطيبها، ولكنهما كانا يتقابلان لماما) وأدركنا عندئذ امكانية علاج الغيبوبة بحقن اللارجيكتيل **Largactil** . ثم اصبحت تعتريها نوبة واحدة في الشهر ، في المتوسط ، وكذلك حالة الرخاوة التي تسبق الغيبوبة ، ولكن حقن اللارجيكتيل كانت تعيدها على ما يرام خلال ايام قلائل . وساد التفاهم الكامل بينها وبين خطيبها . ولم تعد تذكر زوجها السابق ، حتى في حالة الاضطراب ، وانما كانت تتساءل متى تستطيع الزواج من خطيبها ، ومتى يكون لهما سكنهما الخاص .

وكان هناك ثمة خلفية جنسية وراء هذا التفاهم الكامل . لقد لاءمت الغيرا

بين مطالبها وقد رات **خطيبها** . فاستطاعا ان يجدا الاشباع لدى بعضهما البعض مقدما كل منهما للآخر أفضل ما عنده . وكان هذا يعني الكثير . فمعظم حالات الهستيريا تتسم بافتقاد الاشباع الجنسي ـ وعدم التناسب الفيزيقي والعقلي بين الرجل والمراة ، وتفاوت الاحتياجات .

وحين اصبحت الفيرا على ما يرام ، زاد وزنها ستونان . ومن الغريب انه في الشهر الاول تضخمت بطن الفيرا في الشكل والحجم فبدت كأنها حامل في الشهر السادس . فحولناها الى اخصائي في امراض النساء لان الجميع ظنوا انها حاملا ـ على الرغم من انها لم تكن كذلك . ولم تنشأ مظاهر الحمل نتيجة زيادة وزنها فحسب ، وانما للغازات التي تجمعت في بطنها . كان التفسير السيكولوجي لهذا الامر ان الفيرا تريد ان تصبح حاملا ، فأمدها تكوينها الجسمي المناسب بهذا «الحمل الهستيري» . وعندما تبينت الفيرا على نحو شعوري ولا شعوري انها ليست حاملا ، هبطت بطنها ، على الرغم من انها استمرت تزيد في الوزن . وغدت الفيرا حسنة القوام .

كان هذا آخر أعراض الفيرا الهستيرية . وتخلت فيما بعد عن الرغبة في الحمل ، كما تخلت عن زوجها السابق ، وعن العادة السرية واصبحت كاتبة ممتازة على الآلة تحلم كيف ستؤثث وتدبّر شئون منزلها . ويمكن القول مرت عبر مدرسة الشذوذ الجنسي المرير حتى تعلمت ببالغ الصعوبة كيف تعيش حياة جنسية سوية ، وهي لم تتعلم ذلك فحسب ، بل لاءمت نفسها لذلك فيزيقياً وسيكولوجيا . وعندئذ توقفت اعراضها الهستيرية .

ولكن ماذا بخصوص الصرع ؟

لم تشف من الصرع . ظلت تعتريها نوبة الصرع بين الفينة والفينة ، عدة مرات شهريا ، اثناء فترة الطمث غالبا . في هذه المناسبات كنا نعالجها لنمنع ازدياد النوبات . وأوضح ازدياد ضغط القلب ان هذه النوبات ذات منشأ عضوي. وكانت حقن اللارجيكتيل تتكفل بحالات الرخاوة والاضطراب .

ولكن بقي شيء واحد لم تنفع معه الحياة الزوجية ولا حقن اللارجيكتيل وكان ذلك تناقص قواها العقلية . لقد غدت الفيرا على جانب من الغباء ، ضاق افقها ، وغدت قدراتها الناقدة شبه طفلية . ولحسن الحظ لم تفقد قدرتها على الكتابة على الآلة او الهجاء رغم حالة العته الخفيف ، فقامت بنسخ صفحات كتاب «القفص المموه» باعتبارها كاتبة ممتازة على الآلة .

وشرعت تعد العدة لزواج قريب .

ويجب اضافة بضعة سطور عن زوج المستقبل . سبق ان ذكرت انه كان يعاني من السيكوباتية وإدمان الخمر الى جانب الاكتئاب الاستجابي . ولكنه لم يتعاط الخمر لدينا سوى مرة واحدة خلال سنتين ، كما لم تعتريه حالة الاكتئاب سوى مرة واحدة خلال ثلاث سنوات . فلقد تسبب الشجار مع الفيرا في عودته للشرب هذه المرة ، اما الاكتئاب فقد تسبب عن جرح عقلي أصابه به احد المرضى الآخرين.

كان يعمل بنّاء ونجارا . ولم يعد مريضا بعد ، وانما أصبح موظفا في المؤسسة . كان عاملا ماهرا يعول عليه . وبدأ يعد العدة بدوره لحياته الجديدة، ولزواجه . ودبّرا امر السكن والاثاث في الجرانج ، سوف يستأنفان حياتهما هنا ، فنحن بحاجة الى بناء والى كاتبة على الآلة . وكانت الفيرا محتاجة الى العلاج من وقت الى آخر ، وكان كليهما بحاجة الى بيئة تبسط عليهما الحماية .

دعونا نتوقف هنا .

هذه ثاني الزيجات التي تمت في مؤسستنا . كانت الاولى زيجة دنيس القافز في البئر وممرضتنا . وكان دنيس القافز في البئر حالة هستيرية ، وكذلك كانت حالة الفيرا (عروس المساء) وخطيبها المريض بالاكتئاب. لقد أفلحنا في علاج ثلاث حالات هستيرية ، عن طريق تعديل ظروف الحياة تعديلا أساسيا وأعطيناهم هدفا لحياتهم ، وعملا وبيئة ملائمتين ، وساعدناهم على تنظيم حياتهم الجنسية ، وانهينا ارتباطاتهم الباثولوجية بالأم ، والزوج الاول ، والزوجة الاولى. وساعدناهم في اختيار شريك للحياة وعاوناهم على التغلب على مصاعب الحياة .

توجد ثمة أمور أخرى ضرورية لتحقيق الشفاء المناسب والمستمر – وربما الدائم بالاضافة الى العلاج الطبي . اجل ، ولكن متى ، وأين ، ومع كم من الحالات يستطيع المرء النجاح في تعديل قدر المريض على هذا النحو الجذري ؟

* * *

لقد سردت قصة الفيرا (عرس المساء) بهذا القدر من التطويل لانها كانت من الحالات البالغة النمطية . وهي تعتبر نمطية لان افتقاد الاشباع الجنسي يختبىء عادة خلف اعراض الهستيريا ، ولأن الازواج في معظم الاحيان لا يعبأون الا بأنفسهم دون النظر الى زوجاتهم . ومما يدعو الى الدهشة ان الفعل البسيط الذي تستطيع الحيوانات ممارسته بصورة طبيعية وبدون سابق تعلم يمكن ان يصبح مصدرا لعديد من المشاكل في عالم البشر . ولو لم تمحصني التجربة ، لما استطعت ان ادرك كم يبلغ عدد الرجال الذين يجب تبصيرهم بأن تحقيق اللذة ليس وقفا عليهم فحسب .

وهناك مريضة اخرى ، كانت تعاني من جنون الشبق Nymphomania ولم تكن تسفر عن اي أعراض صرعية ، وانما كانت تشكو من حكة شديدة لم تستطع جميع وسائل علاج الامراض الجلدية وقفها جاءتنا جولي (المرضعة) وهي تبلغ من العمر اربعين عاما . كانت ظروف عائلتها اشبه بما تضمه احدى روايات دستويفسكي . كان والدها اسكافيا وامها امرأة غريبة الاطوار أصابتها حرفة الادب ، تزوجت ولها ابنة من زوج غير شرعي ، ثم انجبت فيما بعد خمسة اطفال. ولم يكن الزواج موفقا لاسباب كثيرة من بينها ان الزوج داب على مغازلة ابنته بالتبني (تزوجها فيما بعد ، وانجبا خمسة أطفال آخرين) . «وجنت» الام نتيجة

لذلك ، على نحو لم اتبينه ، وان كانت منيتها وافتها بإحدى المصحات العقلية . ولا يصعب تصور اي ضرب من الطفولة ذلك الذي خبرته مريضتنا في مثل هذه البيئة . كانت في نحو السادسة او الثامنة حين شرع والدها يؤجرها لمعارفه ، لاشباع ميولهم الجنسية المنحرفة مع الفتاة .

وولدت طفلها الاول في سن الثامنة عشر ، ثم أنجبت طفلين آخرين لا تعرف من يكون والدهما . ثم ولدت ايضا ثلاثة توائم ، ماتوا فورا لحسن الحظ . وكبر اولادها الان ، وأصبح أكبرهم في الثانية عشر . ولم تكن تحفل بهم على الاطلاق .

وحينما كانت ترضع طفلها الاول عملت مرضعة لدى اسرة ارستقراطي رفيع الشأن ظل يبسط حمايته عليها لمدة طويلة . في تلك الاثناء ظلت تأمل في تحقيق اطماعها المريضة في الزواج من احد ذوي المراكز . ولكنها فشلت . كانوا يكتشفون حياتها الداعرة وأكاذيبها المرضية ان آجلا أو عاجلا ، فينبذونها . وزاد ترديها في الهاوية . لم تكن تزاول البغاء لاسباب اقتصادية في الغالب ، بقدر ما هو لاشباع حاجاتها الجنسية . وعلى الرغم من ان لها جم غفير من العشاق ، وانها لم تترك وسيلة منحرفة للاتصال الا وجربتها ، الا انها لم تلتق باللذة المنشودة . لقد كانت هذه المرأة الشبقة التي تبلغ من العمر اربعين عاما تزاول العادة السرية في المصحة العقلية بلا حياء .

وبالاضافة الى ذلك ، كانت تكذب وتغش بقدر ما تسمح لها شخصيتها الهستيرية . حتى جلدها كان يكذب . فيصاب بالحساسية التي تستعصي على كافة أنواع المراهم وكل حقن طبيب الامراض الجلدية .

ولم تقاوم العلاج النفسي . فأمكن خلال اسابيع قلائل ان نضع نهاية لطفحها الجلدي . بيد ان هذا كان علاجا سطحيا يتناول المظهر . ولم يكن من السهل الوصول الى جذور الشر — الى شخصيتها الهستيرية المريضة بجنون الشبق المليئة بالمخاتلة .

يوجد بعامة ثمة خطأ ما في قيم المرض بالهستيريا الاخلاقية . لا يقتصر على الجنس فحسب . ويبدو هذا مفهوما ، نظرا لان خداع العالم هو جوهر مرضهم ، وكذا محاولة الظهور بشكل مبالغ فيه وعلى نحو مغاير — وهذا امر لا يمكن الحصول اليه بطريقة أخلاقية . ويكون هدف الخداع بعامة ضربا من ضروب الطفيلية . وهذا نوع بسيط نسبيا من التطفل حين يستهدفون من ورائه مجرد التطفل على المجتمع . انه أسلوب الهستيريا البدائية . وهو ما يمكن مشاهدته داخل الجرائم لدى مرجريت البكماء ، والزي ويني ، وجودي ديوك . فهن لم يصرن بغيات بسبب شبقهن الزائد وانما لميولهن الطفيلية وافتقادهن الى المعايير الخلقية . كما كن ضعيفات العقل بصورة تزيد او تقل ، لا تخلو اجتماعيتهم من هذه الجوانب الخطرة التي تتوفر لدى المحتالين الهستيريين غير المجانين .

هناك مارتا ستوت على سبيل المثال . لقد كان هذا البرج من الشحم التي تعاني من البدانة المفرطة نتيجة اختلال هرموني تحملق في العالم في وداعة عجل .

كانت تشكو من أعراض نوريستانية ، ولم يشك احد عدة اسابيع انها تشكو من متاعب اكثر خطورة . ولكن كشفتها سرقة ارتكبتها على نحو أخرق . وحين تتبعنا الخيط ، اكتشفنا انها كانت تسحبنا من انوفنا عدة اسابيع باكاذيبها المرضية . كانت اكاذيبها في معظمها تبدو بريئة وبلا هدف ، كانت تكذب لمجرد اللذة . ولم تكن تكذب فحسب بل كانت تتصرف ازاء ما ابتكرته مخيلتها وكأنه حقيقة واقعة . فلقد زعمت مثلا انها أعز اصدقاء ثنائي من الممثلين ، تقضي اغلب اوقاتها معهما ، وتبتاع الهدايا لاطفالهما والادوية لجدتهما ... الخ . وكانت تتصل بشقتها الخاصة في الاوقات التي تعلم ان احدى صديقاتها موجودة هناك ، وتزعم انها الممثلة وتتحدث حديثا مطولا عن نفسها وعن صداقتهما الرائعة . ولم تكن كلمة واحدة من ذلك صحيحة . فلا الثنائي يعرفها ، وليس لهما طفل او جدة مريضة . لماذا تبتكر هذا ؟ لمجرد التمثيل والضحك خفية . (صنع دنيس القافز في البئر شيئا مشابها حين اتصل بليبو تميزو تليفونيا وروى قصصا مرعبة عن نفسه) وكانت تحاول اقناع معارفها انها عازفة بيانو ممتازة ، وانها بصدد القيام بجولة موسيقية في ربوع سويسرا بدلا من آني فيشر، وتؤكد انها التقتبوزير الثقافة... الخ وكانت الحقيقة تكتشف في خلال خمس دقائق ، فلقد كانت اكاذيبها مكشوفة جدا . ورغم هذا لم تقلع عنها . كان في مقدورها ان تروي أشد القصص استحالة في بساطة لا تصدق وباقتناع . وكانت تستفيد أحيانا وعلى نحو طفيف من اكاذيبها ، فتقترض ديونا صغيرة او تتلقى هدية ، ولكن هذا لم يكن مهما بالنسبة لها ، فالمهم هو المرح واللعب ، والاثارة . وكذلك التطفل بالطبع ، فعلى الرغم من عقلها الصافي لم يكن في وسعها مزاولة اي عمل .

وتعتبر حالة بيرل (كبيرة العينين) ـ الرسامة الموهوبة ـ من الحالات الاكثر خطورة ـ لا من الوجهة الباثولوجية بل من الوجهة الاجتماعية . كانت وغدة ولصة منذ طفولتها المبكرة . وسبق ايداعها مدرسة اصلاحية حيث تعلمت أصول الحرفة على نحو افضل (وليس المهنة الشريفة) . كان لديها طفلا وهي في الثامنة عشر من عمرها ، وشرعت منذ ذلك الحين في حياة الدعارة . وعلى الرغم من هذا كانت لديها خططا رائعة ومخيلة واسعة . فشرعت في كتابة رواية ، مدللة عن موهبتها . ولكنها لم تستطع اشباع حنينها الى الحياة الصاخبة في ظل العوز التي تحياها . فاحترفت الدعارة . فكانت تختفي من المنزل من وقت الى آخر لتتجول في المدينة او بالخارج . وقضت ثمانية اشهر في السجن بتهمة الاختلاس . وتعرفت على المورفين على يد احد اصدقائها الاثرياء ، ولكنها اقلعت عنه فيما بعد. وتم اعتقالها بعد الحرب ، ولكنها هربت ، وتعرفت على اثنين من الديبلوماسيين، وسافرت معهما الى فيينا دون هدف او خطة محددة . وهناك تزوجت . وكان زوجها ايضا يشبه احدى شخصيات دستويفسكي صورة مجسمة للطيبة والصبر، كأنه نسخة من اليوشا Alyosha او الامير ميشكين Mishkin . لم ار رجلا اكثر منه تفهما ، وصفحا ، وصبرا . كان حرفيا بسيطا حولت المرأة حياته الى

جحيم اذا كان في وسع المرء ان يحيل حياة القديس الجحيم . كانت تسرقه ، وتخدعه وتعذبه بنوبات من الثورة ، وتهجره ، وتعود اليه بعد عشرة ايام . وكان عليه في بعض الاحيان ان يبحث عنها في قسم الشرطة . وكان الزوج الوديع يغفر لها كل شيء ويتوفر على تمريضها حين تمرض . فلقد كانت تعتري بيرل نوبات «صرعية» كذلك . وفقدت وعيها ذات مرة لمدة ثلاثة ايام ، لم تستطع بعدها مبارحة الفراش لمدة اسبوع ولم تستطع الرؤية وحين جاءتنا كانت مصابة بشلل هستيري ، بالاضافة الى الصداع ، والقيء وسرعة الاستثارة ، ونوبات الاغماء ، ومحاولة الانتحار . وكانت تحب زوجها وتحترمه بشدة وتدرك مبلغ ما تسببه له من اسى . وكانت تشعر بالخجل وتريد تعديل سلوكها ، ولكنها كانت تشعر بالعجز عن ذلك . كانت تطفح بالندم والرغبة في التوبة ــ لكنها كانت في نفس الوقت صعبة القياد ، عدوانية ومزيفة . كانت تبيع ادوات زوجها الثمينة لقاء بضعة تفاهات . ثم تنكر كل شيء فيما بعد ، وتروي اكاذيب مختلفة ، وتندم على ما فعلت ثم تعاود كل شيء من جديد .

«هذا هو مرضي الحقيقي» هكذا كتبت في اعترافاتها . «وضميري ، وذنبي . لا استطيع ان اضع شيئا دون ان اثير الحزن او المرارة . هل انا جديرة بالاهتمام وروحي على هذا النحو من الاضطراب ؟ من الافضل أن أضع نهاية مفاجئة لهذا الكوم من الاقذار الذي أدعوه «نفسي». يا لمبلغ ما بداخلي من القذارة والخطيئة . وليست لديّ الشجاعة للتخلص من ذلك . يجب ان اختفي من على سطح الارض ، حتى يمكن لزوجي ان يحصل على قدر من السعادة في الحياة» .

وإليكم ما قاله زوج المريضة :

«اصيب جدها لأمها بالجنون في سن متقدمة واضحى شريدا . وكان ابن عم والدتها مجنونا .

«وفي تقديري انها ليست مجنونة ، وليست سوية كذلك . انها لا تتحمل المسئولية تماما . وتتخلى بمنتهى الطيش عن ممتلكات الاسرة لتساعد الغرباء . وتثور بسهولة ، وتطلق القول جزافا ، اقل مما تنفذه . وذات مرة سافرت دون توقع الى فيينا بلا جواز سفر او حقائب ، وقضت هناك عشرة ايام ، دون ان تعني بأخبارنا . لديها مخيلة واسعة ، وتعقد الصداقات بسهولة ، غريرة ، تزج بنفسها في اعمال مشبوهة ثم تتهم الجميع انهم يقفون ضدها . انها مندفعة لا تأبه للخطر. تكذب ، وتتمسك بالانكار حتى النهاية وتتمسك بعناد بقصصها الملتوية . وحين تغضب يغمي عليها وتعتريها التشنجات ولكنها لا تؤذي نفسها . ذات مرة عجز الطبيب عن افاقتها لمدة ثلاثة ايام . وانعدمت استجاباتها ، والقت بنفسها فاقدة الوعي . وهي لا تدلل طفلها او تضربه بدون سبب . (الطفل يشبهها على نحو كبير) . وهي نهمة للجنس ومن المحتمل انها تهتم برجال آخرين ، على الرغم من انني لم أضبطها تخدعني سوى مرة واحدة ... وهي عدوانية اهانت احدى النسوة أمها ــ فأوسعت المراة ضربا الى درجة رقدت معها اسبوعين في

المستشفى . وتعرض لها احد الرجال في الشارع ، فضربته ضربا مبرحا افقده سنتين ، وجذبت رجلا آخر من شعره حتى انتزعته . واحيانا تأخذ محاولات انتحارها صورة جادة ، انتشلوها ذات مرة من الدانوب . وانتزعت منها بندقية مرة اخرى . ارادت يوما ان تطلق النار على طفلها كذلك .»

واستطاعت في المستشفى ان «تنهض على قدميها» بالمعنى الحقيقي للكلمة . وعادت الى منزلها معتدلة المزاج ، وهي تمد بتعديل سلوكها . واشتد شغفها باحدى المرضات ، فزارتها في شقتها . وبعد بضعة شهور سرقتها . كانت اشبه بجروشنكا او ناتاشا ايفانوفنا ، فعادت بعد السرقة الى الامير ميشكين ، وغفر لها بالطبع .

وبدا العلاج بالصبر الذي بدأ به زوجها يؤتي ثماره ، فبعد ما يزيد عن حقبة رايت بيرل (كبيرة العينين) مستقرة وادعة . فقدت حيويتها وجمالها وان لم تفقد غرابتها ، اقلعت عن احتيالها وتلاشت اغراضها الهستيرية واحدة تلو الاخرى . وانني على يقين من ان شفائها يرجع الى صبر زوجها غير المحدود . وربما يرجع كذلك الى امر آخر ـ ذكاؤها . لقد فتح العلاج النفسي المبكر بصيرتها ، وادركت انها لن تجني شيئا من مغامراتها ، ولكنها ستجني الكثير من زوجها . وغدت ربة بيت ممتازة وزوجة مخلصة اصبح في مقدورها ان تشيع البهجة في حياتهما على نحو مغاير . ادركت ان مثل هذا الزوج يعتبر هبة يجب ان تشفي من اجل خاطرها .

***

اما دون ديسيت فقد تفوق احتيالها بمراحل ، فخدعت قضاة المدينة والاطباء العقليين منذ حداثتها . كانت من أسرة من الاعيان . مات احد اعمامها مريضا بالشلل ، وكان ابنه رساما غريب الاطوار . وكانت عديلة والدها مسرفة بشكل هستيري ، بينما كانت واحدة من أخواته معتوهة وعصابية ، والاخرى مسرفة ماتت مريضة بالهوس ، وكان ابنها عصابيا . هذا موجز مختصر لهذه العائلة الهستيرية ، وفي وسع المرء أن يتخيل على اي نحو تغدو الحياة بين هذه الشخصيات . وكان والد دون مغامر وامها امرأة انانية باردة ، يائسة تكره ابنتها. ولم يكن ذلك دون سبب . فمنذ مراهقتها ودون تشتهر بكذبها ، وتسرق من امها ؛ فسرقت ساعتها مثلا واقامت بثمنها حفلة لاحدى صديقاتها . وفي سن الثالثة عشر انخلع فكها بغتة ، فظلت مفتوحة الفم . واستدعي الطبيب ليعيد فكها الى مكانه . ثم أصبح يستدعي مرارا وتكرارا لان الخلع تكرر بصورة بالغة الاضطراد. وكان ذلك يحدثدائما كلما شعرت دون انها أهينت. وفي بعض الاحيان لم يمكن اعادة الفك الى مكانه الا تحت التخدير . وتم اصطحاب دون الى المستشفى ، حيث فحصها الجراحون واطباء العقول دون جدوى . وبدات

الاسرة تعتاد على هذا الخلع تدريجيا .

وفي سن السادسة عشر تزوجت محتالا سكيرا . وعارضت الاسرة الزواج ولكنها ازدرتهم . وخدعها الزوج، وقامر بأموالها . وظل يصنع ذلك عشر سنوات، لم تظل خلالهما دون على اخلاصها للزوج المخاتل فحسب بل زودتـه بالمال ايضا طيلة الوقت . فحالما يكتب الزوج رسالة اليها عن ديونـــه في القمار (كان يكتب الرسائل لانهما كانا يفترقان عادة) تبيع دون آلتها الكاتبة او ترهن ملابسها دون تردد ، او تسرق او تخدع الناس ، لتتمكن من ارسال النقود الى زوجها ، الذي لم يشكرها قط على ذلك .

ولقد كانت دون ويست فائقة الجمال ، تترك انطباعا طيبا ، وكانت واثقـــة بنفسها . واذا تطلع المرء في عينيها الزرقاوتين البريئتين لم يستطع ان يتخيل بالقطع ان في وسعها ان تخلع ضبتها بمحض ارادتها وكانت تهوي بعمق في هوة الافلاس . ولم تساعدها اسرتها . فحاولت التكسب عن طريق الكتابة على الآلة والحياكة ، وحصلت على اعمال بسيطة لا تستحق الذكر ، ولكنها سرعان مـــا فقدتهم ، وفحصت احدى المصحات العقلية . وهكذا وصلت الى عنبري فـــي المستشفى بمثابة مصحة حقيقية بالنسبة لها ، تستطيع في داخلها ان تستريح من مضايقات الحياة .

وفي البداية كانت بالغة اللطف ، شرحت مأساة حياتها في تعاون وبساطة متناهيين . لم نلحظ طبيعتها المحبة للوقيعة الا بعد اسبوعين . غدت كثيرة المطالب والشكوى . فاذا شعرت بالظلم ، ثارت واقسمت ان تنتقم ـ وسرعان ما ينخلع فكها . لم نكن على علم بعادتها الغريبة هذه فاستدعينا الطبيب المنوب وقد استولى علينا الرعب . وشعر الجميع بالاسف لدون المسكينة ولم يمكن اعادة الخلع الى ما كان عليه الا تحت التخدير بكلوريد الاثيل ، الامر الذي زاد من سمعتها . وفـــي اليوم التالي تكرر الخلع خمس مرات . والامر الذي يدعو للغرابة ، ان ذلك لم يكن يحدث الا وانا خارج المبنى . وكان في العنبر ثمة طبيب شاب يبدو انه حاز اعجاب دون . فكانوا يهرعون اليه عند حدوث الخلع . وذات مرة كانت دون تستحـــم عارية تحت الصنبور ، حين شرعت بغتة في الصراخ تستدعي الطبيب ولكنه لـــم يأت ... فلقد اصدرت امرا باستدعاء الطبيب المنوب بدلا منه . وكانت النتيجة انه عندما انخلع فك دون «اثناء نومها» وحضر السيد العجـــوز بدلا من الطبيب الشاب اعادت دون فكها الى مكانه بدون تخدير .

واستطعنا بالعلاج النفسي ، ان نتخلص من هذا الخلع الاحمق خلال بضعة اسابيع . لكننا لم نستطع القضاء على «طبيعة دون المدمرة» لقد كانت المراة العاجزة تبذل ما في وسعها لتفسد الامور على نفسها . لقد كان العرض الهستيري الذي اختارته من النوع المؤلم (لا يخطرن ببال احد ان الفك المخلوع من الامور المحببة ، حتى ولو تم على نحو هستيري) . لم تكن تتمتع باي قيم اخلاقية ثابتة ، وانما بنت حياتها على الاكاذيب والادعاءات . وكانت تدرك جيدا اي اساس واه تستند اليه،

واقسمت ان تبدله في المستقبل ولكن تعهداتها لسوء الحظ ، لم تكن لتؤخذ على محمل الجد . وعبثا شرحنا لها عوامل الماضي التي تسببت في وضعها الراهن (العناصر الوراثية والبيئة الاسرية السيئة ، والاب الذي افسدها والام الحقود) لكن هذا لم يصلح من امر مستقبلها . وسيظل العلاج النفسي وسيلة محدودة ما لم تتغير ظروفها كذلك . فالشخصيات التي «يعاد انفتاحها على الخارج» لا يمكن ان تلقى في المياه العميقة بسهولة حتى وان تعلمت بعض السباحة ، انهم بحاجة الى طوق النجاة ، ومع هذا يجب ان يرقبهم المرء عندئذ وفي يده حبل النجاة ، والا غرقوا بالتأكيد .

وتحسنت دون تحسنا ملحوظا في المستشفى ، واقلعت عن عادة الخلع وغادرتنا في حالة طيبة . وفي نفس الوقت طلقت من زوجها وتبحث الان عن زواج جديد ووظيفة طيبة . كانت جميلة مليئة بالآمال ، ولكن قبل ان ترحل مباشرة ، اختفى معطفها الشتوي . ودبت استثارة عظمى ، وبحث الجميع عنه بطريقة محمومة ، من الذي استطاع سرقته ، ولم يتم العثور على السارق ، ربما لانها هي التي فعلت ذلك ، احساسا منها انها مدينة للعنبر بهذا «الانتقام» . ومن الجائز انها هرّبت معطفها الى خارج المستشفى في اليوم السابق ، وربما باعته او رهنته ، من يدري ؟ ثم قلبت المنزل راسا على عقب وبحثت عن السارق على هذا النحو من الحماس الكثير . ولكن فكها لم ينخلع ، وكنت فخورا بذلك .

وتعتبر دون ديسيت من الحالات الخاصة ، لا لانها اختارت هذا العرض غير المألوف فحسب ، ولكن لانها ، بالمقارنة بحالات الهستيريا في المعدل ، كانت مدمرة لذاتها . ونحن لا نأخذ محاولات الانتحار التي يقوم بها المرضى الهستيريون على محمل الجد عادة ، ولكنني لم اكن لأدهش اذا نجحت واحدة من محاولات دون المتكررة .

وبعد شهر من رحيلها ، قابلتها في الشارع عرضا . لم يتحقق شيء من الوظيفة الموعودة او من الزواج . لقد اغراها **خطيبها** على ان تقضي ليلة معه ، فوافقت واصيبت بالسيلان (على حد قولها) وتم الغاء الزواج .

وبعد عام سمعت بإلقاء القبض عليها . ومضت الى السجن جميلة ومرحة كعهدها . وشرحت لبقية السجينات انها سجنت من قبيل «الخطأ» وسيتم الافراج عنها في اليوم التالي . ولكن هذا لم يحدث . لماذا لست **أدري** . ولكنني، وحتى اكون صريحا ، شعرت بالاسف من اجلها .

***

وهناك ايضا أولئك الذين يعانون من القلق ، والخوف من الاماكن المتسعة Agora Phobia ، والقهر ، وثمة المصابين بتوهم المرض وحالات النورستانيا الهستيرية . وهؤلاء يعتريهم أحيانا عرض رئيسي غريب واحد ينبني عليه المرض

المعقد كلية ، وعرضهم الاساسي الشائع هذا هو **العجز عن تحمل الحياة** . انهم شديدو الضعف ازاء صراع البقاء هذا هو اساس الامر كله . اما ان يصحب هذا غالبا مشكلة جنسية فامر مفهوم ، وان لم يدع الى الظن بأن اضطراباتهم الجنسية هي التي تسبب العجز عن التحمل . الاقرب الى الاحتمال ان الهستيريا والنورستانيا من امراض الهرمونات والجهاز العصبي ، وبالتالي يغدو من الطبيعي ان تختلط الاعراض الجنسية بالاعراض الفيزيقية والعقلية .

واراني استعيد قصة مسز ايوجين الغريبة التي لم يتسم سلوكها بأي اعراض هستيرية واضحة . وكانت بالغة التواضع في الحديث عن الاشياء الكثيرة التي تشكو منها ــ كنا نستخرج شكاواها منها كأنما بكلابة . وتضمنت اعراضها: الشعور بالضغط على الراس ، وطنين في الأذنين ، والدوار ، والاحساس بدوامة في الدماغ ، والرؤية المهزوزة والنقاط امام العينين كمن ينظر من خلال زجاج شبه شفاف ، وآلام روماتزمية في كل المفاصل والعضلات ، وتقلصات في الاوعية الدموية ، واختلاجات في الجسم كله ، وبقع زرقاء على الجلد ، وتقلصات معدية وإسهال ، ورغبة مستمرة في التبول ، وازدياد ضربات القلب ، وآلام قلبية ، وارق ، وكوابيس ، وشعور بالتمزق، وشعور تام بالانهاك عند الاستيقاظ في الصباح ، وشعور بالتوتر ، وشعور باقتراب الموت ، واكتئاب ، ورغبة في الانتحار ، وحساسية زائدة ، وخوف من العدوى والميكروبات ، ونظافة قهرية ، وفقدان الطموح ، وإحساس مستمر بالمرض ، واحساس بالدونية ، وارتعاش ، وكسل وخوف من الاصابة بالعمى او بالشلل . والى جانب هذه المشاعر الذاتية توجد ثمة أعراض موضوعية ــ فقد كانت تعاني التهاب في المثانة ظل يقاوم جميع ضروب العلاج لمدة عشر سنوات .

وخلال البحث عن خلفية هذا العرض الموضوعي غير المألوف ، علمنا ان والديها عاشا منفصلين بسبب طبيعة امها المتقلبة . ولقد كانت لا تزال طفلة غريرة حين لاحظت ان امها على علاقة برجال آخرين تسمح لهم بمرافقتها . وكانت تشارك أمها الغرفة التي تستقبل فيها الأم هؤلاء الرجال الغرباء ، وكانت الابنة شاهدة على حياة امها الجنسية العاصفة وكانت تغار من الرجال . وكانت تقدر أمها المندفعة الهستيرية الكسولة الوقحة . وان لم يعمها هذا التقدير عن الحقائق. وخلقت حياة الأم الجنسية الخجل المحير في نفسها ، لدرجة انها ، وحين بلغت الثامنة عشر ، وتزوجت برجل في الثالثة والثلاثين من العمر ، عارضت بعنف اي مواقعة جنسية . وتقبلت فيما بعد فكرة الاتصال الجنسي ، ولكنها لم تستشعر اية لذة منها . وبعد ثمانية عشر شهرا من الزواج انفصلت عن زوجها ، واعترفت فيما بعد ان سبب الطلاق يرجع الى «سلوكها الذي لا يحتمل» . وانتقم منها زوجها في آخر لحظة ، فنقل اليها السيلان وكان هذا سببا في التهاب مثانتها المستعصي .

وسرعان ما تزوجت مرة اخرى . وكان زوجها الثاني رجلا رقيقا ، لكن

الحياة الزوجية لم تكن على ما يرام معه كذلك وذلك يرجع اساسا الى أمراضها. ولم يقدم لها الجنس اية متعة ، وانما على العكس ، كـان يسبب لها الالـم والخوف . وحاولت ابعاد زوجها عنها حتى لا يزداد الالتهاب سوءا . وكان الزوج مهيأ لتقبل هذا الوضع، اذ كان ذلك النمط من الرجال الشغوفين بعملهم ومهنتهم. وان جعله ذلك عنينا .

واخبرتني كيف اعترتها الدهشة حين شفي التهاب المثانة مؤقتا عندمـا احبت احد الاشخاص كان حبا افلاطونيا متكتما ، وحين انتهى ، عاودتها آلام المثانـة .

وأثناء العلاج بدات تدرك انها تقف شخصيا وراء عدم شفاء التهاب المثانـة لتؤمن لنفسها ضد الاتصال الجنسي الذي جعلته حياة أمها الجنسية بمثابة رعب يمثل أمامها . ولقد شفي التهاب المثانة تدريجيا فيما بعد ، كما اختفت الاعراض الاخرى كذلك ، حين عادت الى حياتها الزوجية المألوفة مع زوجها مرة اخرى . وحين غادرت المستشفى في حالة طيبة ، اعترفت ان مخاوفها لم يكن لها اساس من الصحة ، وانها لجأت الى المرض هربا من مصاعب الحياة (وبصراحة لقـد فضلت المرض على ان أقلب حياتي راسا على عقب) وتحاشيا لامر طبيعي من امور الحيـاة .

اما مسز ارنست دريمر فقد فاقت المراة المذكورة آنفا ، ان لم يكن فـي الحشمة ، ففي التفاهة ، لانه لم يخطر لي ببال انها تعاني اي مشكلة جنسية على الاطلاق . كانت في الثامنة والثلاثين من عمرها ولكنها بدت اكبر من عمرها بعشر سنوات على الاقل . كانت امراة ذابلة في منتصف العمر ، يرتسم على وجههـا تعبير من المرارة والقلق ، ويبدو الضجر والسخط كأنهما جزء من شخصيتها. ولم تكن تتمتع بأية جاذبية جنسية .

وكان عليّ فيما بعد أن اتخلى عن انطباعاتي الاولى . وكل الاحكام المتسرعة التي توصلت اليها . اذ اكتشفت انها ليست عجوزا تضيق بالحياة او تبرم منها.

وتضمنت شكاواها الصداع المستمر ـ قرب الرقبة على التحديد ـ والارق، والشعور بالتعب ، والانتفاخ البسيط في المثانة ، والحموضة ، وآلام المبايض ، والشعور الصادم، كانت حسودة، شديدة الحساسية، تتحاشى الاختلاط، فقدت عشرين رطلا من وزنها ، لا تهتم بأي شيء ... الخ . ومن خلال هذا الطوفان مـن الشكاوي اهتممت بعرض ذكرته مصادفة : انها لا تستشعر اللذة الجنسية .

واتفق هذا جميعا مع الصورة المألوفة للنورستانيا .

لم اجد الا نادرا مريضا يتعاون مع طبيبه في عزم على الشفاء كهذه المراة . فنحن نعالج معظم المرضى ضد ارادتهم المقاومة ، خاصة حين يطلب منهم التصريح عن رغباتهم الجنسية القبيحة . ولكن المسز دريمر كانت تختلف . في البداية اسهبت في الشكوى ، وافاضت في الحديث عن شهامتها ، وكيف يستفيد منها الآخرون ، ولكنها سرعان ما استهواها العلاج ، وحاولت ان تتقصى اصل اعراضها

بشغف حقيقي . وجعلت تسرد احلامها ، لتدفع بالعلاج . واستغرق علاجهـا شهرين ، وخلال هذين الشهرين صغرت عشرة اعوام .. اي بمعدل عام فـي الاسبوع ، وهذا امر بالغ الابهار .

كان والدها سيكوباتيا هجاسيا ، وأمها مريضة بالهستيريا ، تشكو الصداع النصفي ، حفل زواجهما بالمشاجرات والمنازعات ـ علـى مشهد من الاطفال ـ بالاضافة الى امور اخرى كانت تحدث امام اعينهم . كانت في التاسعة من عمرها حين اكتشفت ما يدور في فراش والديها في المساء . ومنذ ذلك الحين جعلت ترقبهما على نحو محموم ، وتتساءل لماذا يمارسان الحب ليلا ، على حين يتعاملان بفظاظة اثناء النهار .

وسرعان ما توفيت أمها . وتزوجت اخواتها واحدة بعد اخـرى ، وتزوج والدها ، كذلك ، وظلت هي عانسا . وتزوجت اختها الصغرى بأسرع منهـا (وضايقها هذا ايضا) وانجبت أطفالها قبلها . ولم يوفق اخوها في زواجـه ، اذ هربت زوجته مع احد السقاة . وتزوج اخاها الاصغر امرأة تكبره بثلاثـة عشر عاما . خانها مع كل من التقى بهن ثم هجرها في النهاية . ولقد احزنها كل هذا، ولكن كان أسوأ ما في الامر جميعا هو زوجة والدها الشريرة .

وفي سن العشرين ارتبطت برجل . كان بمثابة حبها الاول الكبير . ولكنه تركها بعد اربعة اعوام . فظلت مقيمة على حبه . ولا تجد المتعة في الجنس الا اذا حركت ذكرى حبيبها القديم .

كانت قد بلغت الثلاثين من العمر حين وجدت انها لا تستطيع تحمل معاملة زوجة ابيها الفظة ، فانتقلت الى بودابست وعملت بائعة في حانوت . كانت فـي حالة عقلية سيئة ، تخشى على نفسها من الانحراف . وفي تلك الاثنـاء التقت بزوجها المقبل وكان يكبرها بسبعة عشر عاما . كانت ساعتها على استعداد للزواج من الشيطان نفسـه . ولكن كان عليهما ان ينتظرا ثمانية أعوام اخرى قبل ان يتمكن من الطلاق من زوجته الاولى .

وعند هذه النقطة الحرجة نمت مسز دريمر عن ذكاء باهر حين فسرت الامر لي بأنها كانت تبحث ووجدت الاب في زوجها الكبير ، وأن هذا يفسر سبب فشل حياتهما الجنسية ، وذلك بسبب مشاعر الذنب اولا ، وثانيا بسبب الرغبة في الانتقام . واعترفت بمسئوليتها عن افساد اتصالهما الجنسي وعدم تمكين زوجها من اية متعة ما استطاعت الى ذلك سبيلا . ولكي تخلق مانعا حقيقيا ، تركت ابنة زوجها البالغة تشاركهما الحجرة مثلما حدث لها مع والديها من قبل .

ثم انتقلنا الى الاحلام . اعترفت وهي متضرجة خجلا انها حلمت مؤخـرا احلاما غريبة ، تشوبها الرموز الجنسية المستترة احيانا والمكشوفة في معظـم الاحيان . من ذلك مثلا حلمت انها تتشاجر مع زوجها ولكنها تحاول مصالحته عن طريق عرض ثديها المتورم عليه ، ويرضى الزوج ، وتنتظر ان يباشرهـا

جنسيا ـ ولكن دون جدوى . وكانت بعض احلامها مكشوفة على نحو لا يسمح بنشره .

وسمحنا لها بالخروج تحت المراقبة ، وصالحناها مع زوجها ، واخذ الاثنان يأملان في ان تشفى سريعا . بدت اقل من عمرها بخمس سنوات واختفت نصف اعراضها . وتتابعت أحلام جديدة ذات محتوى جنسي مكشوف فحلمت مثلا انها تزاول الحب مع حبيبها الاول في الطريق . وزارت زوجها وقد عمها المرح (في الحقيقة وليس في الحلم) وسرت بالنتائج أيما سرور . وذكرت فيما بعد بحماس ان امراضها الفيزيقية ترتبت عن افتقادها الى التدليل وكانت بمثابة هروب من مشاكلها . واختفت اعراضها الواحد تلو الآخر . وأثناء زيارتها الثانية للمنزل انخرطت في حديث طويل مع زوجها ، وقرر ان يصبح حبيبها بدلا من والدها ، وعاشا بعد ذلك في سعادة .

وهناك ثمة عدد كبير من النسوة المرضى بالهستيريا النورستانية . يغصن بالشكوى من توهم المرض ، ويبتكرن من الامراض ما يبعث على الذهول . وهن يخفين في البداية انهن يعانين من مشاكل في حياتهن الجنسية ، ويتصرفن كما لو ان الجنس لا وجود له ، ويعبرن عن ازدرائهن لهؤلاء النسوة المنحرفات اللواتي يفكرن في مثل هذه الامور القبيحة ـ ولكن سرعان ما ينهرن ويعترفن . وغالبا ما يعترفن لانفسهن اولا لان عملية الكف تكون قوية لدرجة تجعلهن يحتفظن بعذابهن سرا حتى على انفسهن . وحين ينفتح الباب ، تعتريهن الدهشة ـ ماذا ، هل انا على هذا النحو ؟.

كانت مود ستار مريضة بتوهم المرض في الخامسة والعشرين من عمرها تشكو بالاضافة الى عدد لا نهائي من الاعراض الفيزيقية ، من الخوف من الجنون وامتلاء جسدها بالقمل . وكانت تجد نفسها مقهورة على الاغتسال طيلة الوقت . وكانت تصاب بالاكتئاب من وقت الى آخر دون سبب معين . وتحاشت الاحتكاك الفيزيقي بالرجال خوفا من «خطر» العدوى . وكانت تخشى كذلك ان يظن أقاربها الذين يعيشون بالخارج انها تعيش حياة «داعرة» فيمنعون عنها مساعدتهم المالية ، ويتركونها للجوع والمسغبة . وفضلت ان تصارع هذا الحشد من الشكاوي الفيزيقية ريثما تستطيع العثور على صديق على ما يرام يؤمن لها مستقبلها .

سماع هذا النوع من القصص يضطر المرء الى تكوين فكرة أخرى عن النقاء الخلقي لبعض العذارى .

ولقد وصلت مسز لويس لام الى العنبر محمولة على محفة ، وظلت عاجزة عن الوقوف على قدميها عدة اسابيع . لم تكن تبدو هستيرية . كانت كائنا بدائيا ، ترتدي ملابس بسيطة ، ذات جسد غير متناسق وخلو من الجاذبية الجنسية او الزينة . وربما يعتقد المرء ان ابنة لنجار ، وزوجة لميكانيكي ، لا تتوفر لها رفاهية المرضى بالهستيريا . ولكن كان مما يدعو الى الدهشة ان اسرتها لم تكن على هذا القدر من البراءة الذي يتوقع ان تكون عليه اسرة نجار . فأحد اعمامها يمتلك ناديا

ليليا في امريكا . وكان ابن عم امها أفاقا تزوج من اخت مريضتنا الصغرى واصطحبها الى القاهرة ، حيث زاول حياة منحرفة ، ثم ترك زوجته وسافر الى امريكا . واغرمت والدة المريضة شغفا بالخيول . وكانت قاسية على اطفالها وكانت تضربهم احيانا حتى يشارفوا على الموت .

كل هذا يسهل على انها حين نضجت وبلغت العشرين من عمرها تزوجت دون حب من ميكانيكي «رشحوه» لها ، ، وبدات الاعراض الهستيرية تتوالى . توهم المرض اولا ، ثم نوبات الاغماء ، فسرعة الاستثارة ، والاندفاع ، ونوبات الغضب، كما كانت تضرب ابنتها كذلك حتى تشارف على الموت دون سبب (لمجرد كما اعتادت امها ان تصنع معها) . واخيرا اصيبت بشلل هستيري astasia - abasia واودعت المصحة .

لم أجرؤ على سؤال هذه المراة ذات المظهر المحترم عن حياتها الجنسية الا بصعوبة . وحين فعلت ، رفضت مجرد الفكرة ، وساءها ان أشك في اية متاعب على هذا النحو . ومع هذا فقد شغلها الامر ، نظرا للقصص العديدة التي سمعتها من زميلاتها في الحجرة . على اي نحو آخر يجب ان تزجي النسوة الوقت في المصحة ؟ كن يتحدثن عن ادق أسرارهن الخاصة . ويعتبر مثل هذا «الاعتراف المكشوف» بمثابة عامل مساعد للعلاج النفسي ، فالرغبة في الاستعراض تطلق الكف من عقاله على نحو افضل من الاسئلة التي يوجهها الطبيب . وهكذا حدث ان شرعت مسز لام في النهاية تتحدث تلقائيا عن حياتها الجنسية . فأخبرتني اولا عن مشاعر الذنب التي اعترتها حين زفت في باديء الامر الى الميكانيكي وهي تحب سرا شخصا آخر سواه . ثم اعترفت انها لم تحقق اية متعة جنسية حقيقية على مدى اربعة عشر عاما من حياتها الزوجية . ومع هذا وهي تقر الان بذلك ــ فالرغبة تكاد تقتلها . وان منعها الخجل ــ مصارحة زوجها . وكان يعنفها بدوره على برودها . واعتبرت ذلك ــ كما **لو انها اصيبت** بالشلل ــ بمثابة عقاب إلهي على زواجها دون حب .

وتحدثنا مليا ، حتى استطاعت مسز لام الوقوف على قدميها . مضت تتعثر في البداية ، ثم اصبح في وسعها ان تخطو خطوات ، ثم اصبحت مؤخرا تسير في الحديقة لمسافات طويلة ، وأخيرا مضت معافاة الى منزلها . لم تخبرني بالكثير عن حياتها الجنسية ، وان كنت أعتقد انها حصلت على بعض النصائح الطيبة من زميلاتها في الحجرة قبل رحيلها ، وكانت معنوياتها مرتفعة .

أما حالة ايرنا (الصياحة) فقد فاقتهم جميعا . ويرجع اسمها الى عادتها القهرية في الصياح دون سبب مفهوم . كان يحدث ان تضيق من حلم وتشرع في الصراخ حتى يتجمد الدم في عروق الجميع ، وكانت تستيقظ وتبث الفزع في العنبر جميعا . فاذا واتتها الرغبة في الصراخ اثناء النهار فقد كانت اكثر حنكة، اذ كانت تمضي صوب الغابة وتتخذ بقعة مقصية وتصرخ ما شاء لها الصراخ .

كانت امرأة متعلمة ذكية رغبت ان تصبح كاتبة في مبدأ الامر ثم طبيبة فيما

بعد . ولكنها في النهاية اصبحت موظفة بالبريد . وقدمت وصفا مطولا لأسرتها الكبيرة التي ضمت ادعياء هجاسيين وانماطا من ذوي الحساسية المرهفة ، وبعض الهستيريين غريبي الاطوار ، والبلطجية ، وقلة من المرضى بانحرافات جنسية غير شائعة . وهناك ثمة امرأة مسترجلة (ذات اعضاء جنسية ذكرية ، وتتزي بزي الرجال) وسيكوباتي يعاني من الجنسية المثلية . وجدة كبيرة شديدة الشبق ، وعوانس مسنات ، ومتحذلقون متخنثون ، وطفيليون . واستطاعت ان تعدد بالاضافة الى ذلك قلة شرعت في الانتحار ، وعديد من السيكوباتيين والمجانين ، وعدد لا يحصى من العصابيين ، وحالات الهستيريا ، والضعف العقلي . ولكن كان هناك ايضا قلة من المثقفين ثقافة رفيعة تضمهم الاسرة . أطباء ومهندسين، وقساوسة ، وأسقفا .

ازاء خلفية أسرية كهذه ، لا تصبح اعراض ايرنا (الصياحة) . من غرابة اطوار ، ونزوع الى الانتحار ، وانحرافات جنسية ، ومخاوف من كافة انواع المرض مثارا للدهشة . كانت هشة التكوين الفيزيقي ، تعتريها كافة الامراض من الالتهاب الرئوي الى الالتهاب السحائي ، وكان قلبها مصابا . ومنذ سن الخامسة عشرة وهي تحاول الانتحار مرة تلو الاخرى ، بالسم ، والشنق والقفز من النافذة . كانت شديدة التوتر ، قابلة للاستثارة تعذبها المخاوف ، تضرب أطفالها دون سبب ، وكانت تتوقف احيانا عن الاستمرار فيما تزاوله ، اذ كانت بالغة العصبية بالنسبة للعمل او التركيز ، لا تستطيع تأدية اعمال المنزل . اما اظهر اعراضها فكان هذا الصراخ .

وكان تاريخ حياتها بالغ الدلالة . حين كانت في الشهر التاسع من عمرها . انتحرت امها . فربتها جدتها وافسدتها . وبسبب نضجها العقلي المبكر ، أطلق عليها الاطفال في مثل سنها اسم (الحصيفة) Half Witt وزاولت اللعب الجنسي مع غلام في مثل سنها ولما تبلغ العاشرة . واحبت بعد ذلك غلاما يكبرها، وعلى الرغم من ان هذا الحب المراهق كان عفا نقيا . فقد أتهمها زملاء الدراسة بشتى الاتهامات ونبذوها . وتناهى الى مسامع والدها بعض اخبارها فاستجوبها. فكان ان اخبرته عن مغامرتها المبكرة دون ادنى شعور بالذنب ، فبلغ الحنق بالوالد مبلغا جعله يضربها ولا يكلمها لمدة ثلاثة شهور .

وابتدرها الطمث في سن الثالثةعشرة وتزوج والدها في نفس الفترة . فكرهت زوجة ابيها ، وشرعت تتصرف على نحو غريب الاطوار . ففقدت السيطرة على نفسها ، وشرعت تمارس ضروبا من الافعال الهستيرية ، وتلقي بنفسها على الارض . فأودعت احدى مدارس البنات الداخلية . واثناء حزنها ووحدتها قفزت من نافذة الطابق الثاني وكسرت قدمها .

وخبرت تجربة جنسية اخرى في سن الخامسة عشر ، كانت هذه المرة مع قس كاثوليكي ، أقنعها ان تزاول معه علاقة جنسية بعد ان اقنعها ان الجنس هو نبع الحياة .. وهي حجة تبدو غير مألوفة ان تصدر عن قس ورغم انها دامت

عامين ، فقد بقيت لها عذريتها سالمة .

وهجرت القس . فدهمها الخوف الا تحظى بإعجاب احد ، وسعت بشتى الطرق لتحصل على من يشاطرها الجنس . فكان ان سافــرت الى بودابست واغرت رجلا في القطار اصطحبها الى احد الفنادق حيث أطفأ ظمأها دون ان تفقد بكارتها . واخيرا وبعد بحث طويل وجدت شخصا خلصها من عذريتها .

وفي سن الثالثة والعشرين تزوجت مهندسا . واعجب زوجها بطموحهــا الادبي . فعاشا حياة زوجية بادية الغرابة ، لقد اغرم كل منهما بالآخر ولكنهما كانا يتشاجران طيلة الوقت ، ويضربها زوجها . ولكن اغرب ما في الامر انهما تبادلا الادوار . فتقبل الزوج دور المراة ، نوع من صورة الام على حين قامت هــي بدور الاب القاسي . كانت تكره العمل المنزلي ، ولم تستخدم الابرة طيلة عشر سنوات . وعزت ذلك الى ان زوجها ضربها ذات مرة منذ عشرة أعوام ضربا مبرحا عندما شرعت تخيط بعض الاشياء ، لدرجة انها وقعت على الارض ، واصيب ذراعها الايمن بالخدر . ومنذ ذلك الحين تصاب بالخدر كلما امسكت بالابرة في يدهــا .

وفي بداية زواجهما لم يرزقا باطفال ، وقد آلمها ذلك كثيرا جدا ، وعزت ذلك الى انها ظلت غير مكتفية جنسيا . وكان هذا مما يدعو للدهشة اذ كان في وسع القس ان يرضيها دون اتصال جنسي فعلي ــ على حين لا تجد الاشباع مع زوجها المفرط جنسيا . كانت تستمتع «بمقدمات الفعل الجنسي» فحسب ربما لان القس قد عودها على ذلك .

وسواء لهذا السبب او لسبب آخر ، فقد زادت غرابة اطوارها . «ان لديها خططا حافلة» هكذا ذكر زوجها واستطرد قائلا «لكنها لا تستطيع مزاولة عملهــا اليومي ، فهي تصرخ دون سبب ، وتضرب الاطفال ضربا مروعا ، وتقذف بالاطباق على الارض ثم تحطم القطع المتناثرة كل على حدة . لديها شخصيتين ، ذكر وانثى. ويبدأ الصراع حين ينحي الذكر جانبا .

هكذا كانت رؤية الزوج للأمور . اما المراة فقد اعتقدت انها تعاني من عقــد «مازوخية» (لم اكن انا الذي اطلقت الاسم او اقترحته ، بل جاء اعترافها تلقائيا.) ويجب ان اضيف ان الزوج لم يكن يضربها ضربا «هينا» بل كان يركلها ويضربها في وحشية (كما كان يفعل والدهاجين اكتشف «فجورها») وحاول خنقها . وكانت هي التي تستثيره لذلك . لم تكن تستمتع بالضرب بقدر استمتاعهــا بالإذلال والخنوع ، ثم بمحاولة مصالحتها فيما بعد والتي كانت تنتهي بالاتصال الجنسي. بيد ان الضرب كان يثيرها كذلك ويمدها باللذة . وهي تذكر انها كانت تضرب في طفولتها مرارا ، لانها اعتادت ان تبلل فراشها حتى في سن الثالثة عشرة .

وبعد فترة العقم الاولى ، جاء الاولاد ، فأنجبت سبعة اطفال على نحو سريع. وربما يتصور المرء ان اما لسبعة اطفال سوف تصبح ناضجة وتتخلى عن غرابــة اطوارها ــ ولكن لا . كانت ترعى اولادها طالما هم في سن الطفولة ، ثم تزداد

معاملتها لهم فظاظة . كان من الواضح انها ليست مازوخية فحسب ، وانما سادية ايضا ، كانت تستغرقها حالة من الذهول حين تضرب اولادها . ولكن كل مناسبة من هذه المناسبات كانت بمثابة استثارة لتغري زوجها بضربها . ثم ياتي الخنوع والوفاق الشهوي .

ولا اعرف صراحة ، كيف استطاع العلاج النفسي الذي استمر لمدة شهرين ان يساعد هذه الحالة الخطيرة . ولكن الحقيقة تقول ان ايرنا (الصخابة) كانت قد هدأت حين غادرتنا . لم يستطع احد ان يخاطبها بكلمة أثناء علاجها ، وبالتالي فقد كانت هي نفسها التي فكرت في طريقة تدفعها نحو التحسن . واوضحت لنفسها الكثير من الامور المضطربة . ولم اجرؤ على الامل في تحسن مستمر . ولذلك فقد اصبت بالدهشة حين علمت بعد عام انها لا تزال على ما يرام وانها تحيا حياة نشطة تخلو من النوبات الهستيرية . وكان من المستحيل الجزم عما اذا كان هذا التحسن سوف يستمر لانها سرعان ما دخلت المستشفى في حالة فيزيقية ضعيفة وماتت بعدها ببضعة ايام بمرض القلب . ولقد تحدثنا طويلا قبل موتها . فأخبرتني انها تغيرت كلية عقب العلاج النفسي وانها وثقت علاقة ممتازة بزوجها وأطفالها واشتغلت بجد . وانعدمت نوباتها ولكن عاودتها حالتها العصبية على نحو أسوأ حين شملها المرض الفيزيقي كلية ، وان لم تصل الى درجة الحدة السابقة .

***

ليس في وسع أولئك الذين يسبقون كلمة «هستيريا» بكلمة «مجرد» ان يفهموا على الاطلاق الحالات الشبيهة بحالة ايرنا (الصياحة) . فهي ليست «مجرد» هستيريا بل هي مرض لا يقل خطورة عن اي نوع من الجنون. وهناك بالطبع شيء كهذا اسمه «مجرد» هستيريا يؤتي مرضاها من التصرفات ما يشبه سلوك المهرج «الصخاب» ... ولكن دنيس القافز في البئر والزيويني وجودي ديوك قد اثبتوا في الجرانج ان الهستيريا مشكلة طبية حقيقية Crux medi corm . وهي ايضا مشكلة أسرية Crus Cojugis ، مشكلة صراع الشريكين في الحياة الزوجية، كما صورنا فيالحالات المعروفة. اذكر زوجةاحد البيطريين فاقت ايرنا (الصياحة) في نوبات غضبها . لم يكن شيء في شقتها يظل في مكانه عقب هذه النوبات المرعبة . وأصيبت مغنية سابقة للاوبرا «بحمى عصبية» مستمرة بالمعنى الدستويفسكي للكلمة . تشبهها في ذلك عازفة موهوبة على البيانو ، لم تفسد الانحرافات الجنسية والاكتئاب الناشئين عن الهستيريا عليها مهنتها فحسب بل وحياتها كلها . وعاشت زوجة صرعية هستيرية لفنان موهوب في حالة من الرخاوة لمدة خمس وعشرين عاما حتى اصيبت تدريجيا بالعته . لا يستطيع المرء ان يقول «مجرد» ازاء هذه الحالات .

ورغم شيوع الاضطراب الجنسي لدى مرضى الهستيريا ، فلا زلت على اعتقادي بأن لا اساس للاعتقاد القديم الذي استمر الفي عام والذي يعتبر الهستيريا مرض الجنسية المضطربة . كلا ، فالهستيريا مرض الدوافع الحيوية ، اذا جاز لي التعبير عن نفس بصورة بسيطة . وتوجد الاضطرابات الجنسية الواضحة من بين اعراضه دائما ، ولكنها ليست الاعراض الرئيسية . وتكفي الاشارة الى حالات الهستيريا داخل الجرانج ـ كالزي ويني ، ومارجريت البكماء ، وجودي ديوك ، وماري ويلدر ، ودنيس القافز في البئر ، الذين اثبتوا جميعا ان حالات خطيرة من الهستيريا قد تظهر دون اية اضطرابات جنسية . وثمة اعتقاد خاطىء آخر شائع يستحق التفنيد . اذ يقال غالبا ان اضطرابات الحياة الجنسية الهستيرية وقف على اليهود ذوي الشهوية الزائدة وهذا ليس صحيحا . لدرجة ان جميع الحالات التي عرضتها هنا ليس من بينها يهودي .

وقد تدمر **النورستانيا** كذلك حياة ضحيتها . لقد امضت احدى معلمات الكمان عدة شهور في قسمي في حالة من القصور الذاتي المطلق . واستطاعت ان تتماسك بصورة ما ، وكان في وسعي ان أتتبع مصيرها لعدة سنوات ، فبدت كشخص يشارف الغرق وصلت المياه الى فمه فهو يضرب في ضعف ولكنه لا يغرق بمعجزة . وكانت على حالتها هذه ترغب في الغرق . «لشد ما يؤلمني انهم يريدون علاجي هنا . أريد ان اموت ، وكلما كان ذلك بسرعة فهو افضل ، حتى لا استمر في المعاناة لا اريد اي حقن . اتمنى لو ان تقفز على مسز (م) وتخنقني، لن أدفع عن نفسي . لماذا يجب ان يعيش شخص مثلي ؟» ونجحنا في انتشالها من هذه الوهدة السحيقة ، لكن ظروفها ظلت لدرجة ارتأيت انا نفسي انه من الافضل لها ان تموت . لم يكن لها احد سوى اخت لها ثلاثة اطفال ، كانت مأساة في حد ذاتها واخ مجنون . (كان اخوها يعالج بالجرانج وكان مريضا بالفصام الهجاسي) ولم يكن لها مأوى او وظيفة . وكانت تتقاضى معاشا ضئيلا مضحكا . وتخلى عنها تلاميذها واحدا وراء الآخر اذ لم تكن تواتيها القوة على الاستيقاظ في الصباح لتتردد عليهم ، وحين تفعل كانت تصل متأخرة عن موعدها زهاء ثلاث او اربع ساعات . وكانت بالغة التدين ، ولكنها كانت تقع دائما في غرام قس الاعتراف . لم يكن غراما مراهقا بل عاطفة مستعرة تستمر اعواما ، يصاحبها بالطبع احساس عميق بالذنب . وكانت ترغب في تناول الاسرار المقدسة يوميا ، ولكن كيف يمكنها هذا وهي لا تستطيع التخلي عن حبها بصدق ؟.

من اجل ذلك استطاعت الوقوف على قدميها ، ووجدت مأوى تعيش فيه على صورة ما . كانت تتجمد من البرودة في الشتاء لانها لا تجد القوة على النهوض واشعال النار . ونادرا ما تأكل لانها لا تجد القوة على التسوق والطهي ـ ولكنها عاشت رغم ذلك ، ووجدت تلاميذا وعاشت على شفا الغرق .

وليست النورستانيا وقفا على النساء . صحيح ان النساء في طليعة المرضى بالهستيريا ، ولكن هناك المزيد من المرضى بالنورستانيا بين الرجال الذين يذهبون

بدوا ، حين يحاولون مباشرة مهام اكبر مما يطيقون . وهذا ما حدث ، على سبيل المثال ، لاحد مرضاي البالغ من العمر سبعة وعشرون عاما ، كان يعمل نجارا ولكنه اشتغل موظفا اثناء النهار وطالبا جامعيا في المساء . فارهقه العمل غير المألوف ، وشعر بالغرابة في موقعه الجديد ، فضاع بصورة تدعو للرثاء . كان ذكيا ماهرا ، لكن عقدته الدونية أبلته قبل الاوان . وثمة موظف آخر في السابعة والعشرين من عمره ايضا بدأ العمل في مهمة علمية واعدة . وحين بلغ منصبا عاليا ، أرهق نفسه بالعمل حتى فقد الارض من تحت اقدامه تدريجيا ، وبدأ يشعر بالقلق ، ويبكي ، وغدا مترددا جياش النفس ، لا يستطيع ان يعطي تعليمات واضحة حتى لابسط السعاة ، ناهيك من اصدار قرار في امر من الامور الهامة. وكمن يضرب في الفراغ ، شعر انه لا ينتمي الى شيء ، ولا يستطيع ان يجد مستقره او يجد صوته او نفسه . حدث له هذا على الرغم من انه شهد له بالكفاءة الممتازة ، وأحبه الجميع واحترموه ، ولم تستثن من ذلك حياته الزوجية. وكل هذا بلا طائل ، لقد فقد ثقته في نفسه ، وهوى في غمرة الاكتئاب ، وعجز عن العمل .

كانت هذه جميعا من الحالات الروتينية ، التي يسهل علاجها . فتحت عنوان «الانهيار العصبي» او «سوء التوافق» توجد اغلب المهام المجزية بالنسبة لطبيب العقول . فما عليه الا ان يستخرج جوهر الامر الى بؤرة الشعور . ويخطط لاهداف جديدة . ويرسم الحدود ويعطي الارشادات ، ويقوي الثقة الضعيفة بالنفس ، ويخفض من التقدير المبالغ فيه للآخرين ـ بعبارة اخرى يعيد بناء التوازن . وهذا ليس امرا بالغ الصعوبة . فالزمن والمريض كذلك يساعدانه .

اما النورستانيا التي تشمل الشخصية الكلية ، كما في حالة مدرّسة البيانو ، فأمرها بالغ الصعوبة ويذكرني هذا بقصة نك (المهندس) . كان رجلا ذا قدرة عقلية فذة ، احتفظ بوظيفته الهامة برغم عجزه الذي كان يستمر احيانا لشهور ، واستطاع اكتساب تقدير الآخرين بمعرفته المتخصصة وظل عند تقديرهم على الرغم من مرضه الخطير بالنورستانيا ـ لقد ظل هذا الرجل يتردد على الاطباء بانتظام منذ طفولته بسبب الارهاق والاكتئاب . ولم يكن يشكو من شيء سوى الضعف البالغ . كان يشعر بأنه أضعف من ان يناضل ، سواء من اجل عمل عسير او كسب ود امرأة او مجرد الاهتمام بشئون الحياة اليومية . كان رجلا يفكر على نحو مادي ، والواقع انه كان من المهتمين بالمال بصورة كبيرة . ولم يسبق له ان وقع في الحب . تزوج مرتين ، وبعد تفكير واع في كلا المرتين ، كان في حاجة الى من يرعى شئونه . لم تكن حياته الجنسية تشوبها متاعب من نوع خاص ، فهو لا يزيد عن كونه مختلف بعض الشيء في هذا الامر شأن غيره من بقية امور حياته . وعاش قانعا بعجزه متقبلا حقيقة كونه اقل طاقة عن الناس الاصحاء ، وعليه بالتالي ان يستغرق في اعماق السبات حتى يستطيع ان يعود للعمل فيما بعد . ولم يكن يأبه اذا ما خانته المرأة التي يقتنيها . كانت هناك ثمة علاقة بين

التاريخ الاسري وبين اتجاه نك (المهندس) كما يبدو من الفساد الشائع بين اقاربه. كان جده الاكبر قد مات منتحرا ، وكانت احدى بنات الاخير مصابة بضرب خطير من توهم المرض ، وكان احد احفاده عصابيا غريب الاطوار ، مات منتحرا كذلك. وماتت أم المريض في احدى المصحات التي تم ايداعها فيها بسبب «عصاب مزمن»، على حين اصيبت احدى أخواته بالعصاب وماتت بالالتهاب السحائي ، وماتت اخرى في سن صغيرة بعد ان ظلت مريضة لاعوام . وكان احد اخوته يشكو من اضطراب عصبي عضوي خطير .

ولا ينشأ نقص الدوافع الحيوية ، وفقدان النشاط ، عن النورستانيا فحسب بل عن **العصاب** ايضا . ما هو الفرق بين هذين المرضين ؟ تعني النورستانيا الضعف الاساسي ، ونقص القوة الفيزيقية والعقلية في الشخصية الكلية ، والعجز عن الصراع ، والاعراض الحقيقية والمتصورة التي قد تشتمل بشكل عام على الاعراض العصابية ذات المضمون الذي يعبر عن الوهن (الأثيينيا Asthenia) وهي قد تكون ميلا فطريا وأسلوبا مستمرا في الحياة ، كما كان الحال بالنسبة لمدرّسة البيانو والمهندس . وقد تكون عرضا مؤقتا للاجهاد في العمل ، كما يتضح من حالات النجار والموظف الباكي كالطفل . او قد تكون مقدمات للفصام ، او الشلل الخفيف، او الذهان الناشئين عن التسمم اما العصاب فهو **دفاع مرضي ضد مخاوف غير معقولة** .

وتعني المخاوف غير المعقولة او غير المتسقة ان يخاف المريض دون سبب حقيقي . فهو يخاف من الامراض والعدوى ، والميكروبات ، والاماكن المفتوحة او المغلقة ، والزحام او الوحدة ، والارتفاع او العمق ، والقطط او الكلاب ، وريش الطيور او ملمس اي شيء له شعر ـ يستحيل تعديد جميع ما يمكن ان يخافه العصابي . والخوف او الرعب الذي يكون له موضوعا وليس له سبب يسمى المخافة Phophia ، مثل مخافة الميكروبات Bacillophobia او مخافة الاماكن المغلقة claustraphobia ما الى ذلك . ويوجد ثمة نوع آخر من الخوف العصابي ليس له موضوع على الاطلاق ، ويطلق عليه اسم الحصر Anxiéty وسواء كان لهذه المخاوف موضوع او لم يكن ، فانها جميعا بلا سبب . ويصبح الخوف غير المعقول مأساويا نظرا لان حالة من يصيبه العقلية تكون على ما يرام . ان قدراته الناقدة سليمة ، ويعرف جيدا مبلغ سخف مخاوفه ، ومع هذا لا يستطيع نبذها . ان محاولة اثناء المريض العصابي عن قلقه بالنسبة للمخافة اشبه في عدم جدواها اثناء الهجاس عن وساوسه ـ وذلك على الرغم من اعتراف العصابي بعدم معقولية عرضه .

ويعتبر توهم المرض Hypochondria بمثابة نوع خاص من الخوف ، انه الخوف من امراض متوهمة .

وقد يستخدم العصابي وسائل شاذة ، يدرأ بها مخاوفه ، فقد يجبر نفسه على مزاولة افعال طقسية معينة مثلا ، كان يلبس ويغتسل بطريقة طقسية ، او

يعد الكلمات التي يقرأها . او يضع خطوطا بالقلم الاحمر تحت الاسماء ، او يرجع الى الباب عدة مرات ليتأكد مما اذا كان قد اغلقه حقا ، او يكرر كلمات بعينها ، او يفمغم بصلاة سحرية او يزاول طقوسا معقدة قبل ان ياوي الى الفراش . ويطلق على هذا السلوك اسم السلوك القهري **Compulsion** ولنتذكر الافعال القهرية التي كان يمارسها امير الحزن . وهو وسيلة دفاعية ليست ناضجة تماما . اذ انها لا تدرأ الخوف بل على العكس تربي مخاوف جديدة . فالمريض يخاف الان ان يكون قد نسي ممارسة فعله القهري ، فلا يستطيع ان يفلت من الكوارث التي ستترتب عن ذلك .

ولا يزال علماء النفس يختلفون عما اذا كانت **عقدة الدونية** المصحوبة بالخوف سببا أم نتيجة . فالواقع ان العصابيين جميعا لديهم هذا العرض ، الذي يأخذ احيانا شكل التعويض الزائد **Over - compensation** مما في حالة الجبان الذي يستحيل شجاعا بسبب الخوف .

وتكتنف حياتهم الجنسية بعض المتاعب بشكل عام كذلك ، ليس على نحو ما يعتري حالات الهستيريا ، ولكن بصورة غير مباشرة ، فالشخص الذي يخشى العدوى او الميكروبات او ملامسة الناس ، او الشخص الذي تعذبه بعض مشاعر الذنب الغامضة او الذي يجد نفسه مجبرا على مزاولة بعض الطقوس المعقدة التي تنغص عليه كل لحظة من حياته ، لا نتوقع منه حياة جنسية متزنة الا بصعوبة . ويخشى معظم المصابين الجنس بسبب عقدة الدونية لديهم . فاذا تغلبوا على ترددهم ، احاطوا الجنس بعديد من الطقوس المعقدة التي لا تحقق لهم ولا لشركائهم اية متعة من الفعل الجنسي . وكثيرا ما يترددون على الاطباء بشكاوى محورها الجنس (العنة اساسا) ثم يتبين ان العنة ليست سوى حلقة في سلسلة من الاعراض العصابية .

ويحتدم جدل كثير حول اصل العصاب . والذي لا شك فيه انه مسالة استعداد فطري ومسألة بيئة . وبشكل عام تعزي اهمية قصوى الى الاخطاء الوالدية في الطفولة المبكرة ، و«الاهانات» التي تحدث في الحياة الأسرية ، والتي تكون الاسرة غالبا على غير وعي بها . ان المبالغة في التدليل او القسوة ، والنبذ، وتفضيل اخ او اخت آخر ، والشجار بين الوالدين او التلصص على حياتهما الجنسية ــ تشكل مثل هذه الامور عادة «الصدمة» النفسية التي يتم الكشف عنها فيما بعد . ويجب ان يوضع في الاعتبار ، رغم كل شيء ، ان مثل هذه الخبرات توجد في حياة كل انسان فنحن جميعا كنا اما الطفل الوحيد او الاكبر او الاوسط او الاصغر ــ هذه كلها من مسببات الصدمة ــ لكننا لن نصبح جميعا عصابيين .

ولنبدأ امثلتنا بحالة اروين (اكرة الباب) . لقد دمر المسلك القهري مستقبل هذا الشاب اللطيف الذكي تماما . كانت تعذبه فكرة قهرية مؤداها انه لم يغلق الباب . كان يعلم انه قد اغلقه ، ولكن لم يكن لذلك من جدوى . وكان قد تردد عليّ عدة اشهر للعلاج ، فلم أكتشف لديه اية صدمة انفعالية طفلية ــ ولم اشفه

ايضا . كنت أقوم بتوصيله حتى الباب بعد الجلسة العلاجية وأغلق الباب وراءه بنفسي نظرا لان ذلك يجعل انصرافه اكثر سهولة . ومع هذا ، فقد كان يعود في بعض الاحيان بعد ساعة ، ويظل يتسكع «على غير هدي» في الطريق امام المنزل ، ثم ، حين لا يجد احدا بالقرب منه ، يقفز الى البوابة ويأخذ في هز اكرة الباب المغلق . وكان سكان المنزل على معرفة بالامر فكانوا يتلصصون عليه من خلف الستائر وهو يهز اكرة الباب على غير طائل . ماذا يريد ؟ ـ هكذا كانوا يسألونني من قبيل الحيرة او التفكه . ما الذي كان يريده ؟ ـ آه لو استطعت ان اعرف ! كان يريد ان يتأكد من انه اغلق البوابة حقا ـ ولماذا ؟ ولماذا لم يصدق مع انه تأكد من ذلك ؟ كان يعود احيانا من الترام بعد ساعة ، بغتة نسمع صوت الباب ، انه يقف هناك يهز البوابة .

وكان يشكو من مسلك قهري آخر ، كان أسواها جميعا . فلقد تزايدت مشاكله في العمل . كان يفحص الملف سبعين مرة ، ليتأكد من ان كل شيء على ما يرام فعلا . او يمسك احدى الاوراق يتفحصها بنظره القصير وهو يهزها بطريقة غريبة ، هازاً راسه ، كمن يقنع نفسه مرات ومرات ان كل شيء يسير على النظام المقرر . وذات مرة وقع على احدى الأوراق الرسمية ثم اسقطها بعد تردد طويل في صندوق الخطابات (وكان هذا يبهظه تماما لانه بمجرد ان يلقي الخطاب في صندوق الخطابات ، فلن يستطيع استعادته ثانية) ويبدو انه كان متسرعا فلقد كان عليه ان يعاود الفحص مرة اخرى ، ليتأكد مما اذا كان قد مهرها فعلا بتوقيعه. ولكن فلنوضح الامر : انه لم يشك في الامر لحظة ، ومع هذا كان يريد ان يقنع نفسه مرة اخرى . ولكن قضي الامر ، لقد غيبها صندوق الخطابات في جوفه. وتفكر في الامر بضعة ايام حاول ان ينسى الكارثة . ولكن عبثا . فاستسلم اخيرا للمسلك القهري الذي كان اقوى منه . مضى الى الوزارة التي ارسلت الوثيقة اليها . استقبلوه ، وسألوه عما يريد ، وحاولوا اقناعه ان الامر ليس بذي بال حتى اذا لم يوقع عليها . ولكن لم تجد المناقشة . اخيرا اضطروا للبحث ليروا ما صار عن امر الوثيقة ثم اخبروه انهم قاموا بتصديرها . وشكرهم على المعلومات ومضى يتنقل من مكتب الى آخر . وتعجب الناس مما يريد ، وتضاحكوا عليه او تضايقوا منه . ونجح اخيرا في العثور على الوثيقة في احد المكاتب . وكان توقيعه عليها بالطبع ولم يثر ذلك دهشته . وانما شكرهم ووقف في مكانه ، ممسكا بها في يده ، فاحصا اياها بنظره القصير ، وهو يهزها مرات عديدة . وسعل ، وغمغم وتمتم في ارتباك ، ولكنه ظل يحدق في الوثيقة . وأخيرا أعادها وشكرهم ثانية ، واعتذر آلاف المرات ثم مضى . ولكنه توقف عند الباب .

«معذرة .. مجرد ثانية واحدة ... هل تسمحون بإطلاعي عليها مجرد ثانية واحدة ... »

ووقف من جديد ، والورقة في يده ، يحدق فيها كانما يتمنى لو استطاع التقاط صورة فوتوغرافية للخطاب بعينيه ليكون اشد تأكدا من تأكده .

هذا هو المسلك القهري .

وغدا خلق الثياب لانه لم يكن يتحمل التخلي عن ملابسه القديمة ولا يستطيع التعود على الجديدة . وكانت حلاقة الشعر كل ثلاثة شهور ازمة مروعة بالنسبة له ، اذ كان عليه ان يراقب الا يقص الحلاق ما يقل او يزيد عن المطلوب . وكان يعرف حلاقا لم يعد يدهشه ان يعود اليه ثلاث مرات ، بعد يوم ، ليطلب منه ان يقص له مليمترين لا تزيد او تنقص ، في هذه الجهة . كان مثقفا ، يتحدث عدة لغات ويرتبط بعديد من الاصدقاء . ولكنه فقد الان القدرة علـى اللمس ، لا يمسك مجرد الكتاب في يده الا بصعوبة . احتل المسلك القهري عليه حياته . وكان يذهب احيانا الـى جبانة قديمة ويقرا شواهد قبور الموتـى المجهولين . وكان يشعر بالراحة في مملكة الموتى .

وبعد ثمانية أعوام من العلاج غير المجدي اعيد الى الجرانج . لم يكن قد تغير، لا زال يهز اكرة الباب كما كان يفعل منذ حقبة مضت . جربنا عدة أدوية ، الى جانب العلاج بالعمل ، والعلاج النفسي ــ ولا حاجة للقول بأن في ذلك كـان عبثا . لم يعد عليه الامر بنتيجة واحدة . لقد رد خطاب سبق ان تلقاه منذ عشر سنوات من أخته التي تقيم بالخارج .

ولم نكن اكثر توفيقا مع جون (لاعب كرة القدم) كذلك ، كان رجلا مفتـول العضلات لا يستطيع احد على الاطلاق ان يأخذه بشبهة المرض العقلي .

كان يشكو من العنة ، ولكن سرعان ما تبين ان لديه من الشكاوي ما هو اكثر خطورة من ذلك . كان رياضيا محترفا ، ولذلك كان اكثر ما يزعجه وهو على ما هو عليه من عنة ، ان يبدو بمظهر الدون جوان ، حتى لا يضطر الى الاعتراف بعاره أمام زملائه الرياضيين ... ونادرا ما رايت من هو أدعى منه الى الاشفاق. كان يبدو في صورة المعافى ، بعضلاته الضخمة ، وان كان يجهش بالبكاء كدمية مريضة . واكتشف بقعا ملونة على جلده فأراني اياها متوهما انه أصيب بالتقيح، وأن جسده سيتعفن كله وانه يشعر براسه ينساب وبنخاعه الشوكي ينصهر ... وربما يعدي الاسرة كلها ... انه لا يستحق ان يعيش حياته ، فلحظاتها كلها عناء، سوف ينتحر ، لولا انه يرتعب خشية من الموت .

وسط هذا الطوفان من توهم المرض ، كانت العنة هي الشيء الحقيقـي الوحيـد .

واتذكر من بين مرضى الخواف سيدة مسنة على جانب من الذكاء والشفقة لم تجرؤ على الخروج الى الشارع بمفردها طيلة اثني عشر عاما . اصيبت ابنتها بالحمى القرمزية حين اعتراها الخوف من الطريق ، واودعت مستشفى الامراض المعدية . وكانت السيدة تزورها يوميا ، خشية ان تموت الطفلـة . وشفيت الفتاة ، وان ظل الخوف على ما هو عليه. وحين حدث ذلك كانت الأم قد اصبحت ارملة ، اذ قتل زوجها في حادث سيارة قبل ذلك بثمانية اعوام .

وفي ظل تاريخ حياة كهذا لم يكن من الغريب ان تخشى الخروج الـى

الشارع . فلقد كانت تعلم من خبرتها ان الموت يترصدها هناك . وحين كانت تجبر على الخروج بمفردها ، كانت تشعر بقلبها يكاد يقفز من حلقها . واعترفت صراحة انها تعاني من توهم المرض منذ خمسة وعشرين عاما . كان ذلك قبل زواجها بوقت طويل حين شرعت تخشى الموت بلا سبب .

وكانت هناك ثمة امراة اخرى يعتورها خوف مرضي من التراب والقذارة والغبار ، بالاضافة الى خوف غير معقول من الكلاب . فحاولت ان تؤمن نفسها بالاغتسال القهري ، دون جدوى ، بالطبع . كانت تبدو شديدة النظافة والتطهر دائما . وقبل ان ألتقي بها بعامين ، كانت قد انتقلت لتقيم في منزل كان صاحبه مصابا بمرض جلدي . وكانت تعلم انه مرض غير معدٍ ومع ذلك لم تكن تتمالك نفسها عن النظافة والتطهر بإصرار . كانت تدعك وتغسل وتمسح وتزيل الغبار اليوم بطوله . ولا تهدأ للحظة . وخشيت الناس بعامة ، وكذلك الضجيج والسجائر ، ثم الحياة الزوجية ايضا فيما بعد ، لدرجة انها لم تدع زوجها يقربها لمدة عام . وقصدت عرافا شهيرا يشتغل بالتنويم المغناطيسي ابتز منها كمية كبيرة من النقود قبل ان يوصي باجراء عملية جراحية في الدماغ . ولم تتوان المرأة ، فلقد كانت تشعر انها لا تستحق الحياة وسط هذه المخاوف المريعة والشكاوي . والغريب في الامر انها عثرت على طبيب وافق على اجراء العملية (استئصال الفص الجبهي) ولكنهما لحسن الحظ لم يتفقا على أتعاب العملية . وكان ذلك حين جاءت الينا .

وسخر القسم بأكمله من هذه المراة المنكودة . فلقد كانت تمضي في تنظيف عنبر المستشفى من الصباح حتى المساء ، وتنفض ملاءة سريرها ، وتهرب من دخان السجائر ، وتجاهد لتحمي سريرها من الميكروبات .

وامكن علاج هذه المرأة بسهولة بالصدمات الكهربائية . لقد صنعت نفس الصدمات الكهربائية التي نستخدمها مع الفصاميين الاعاجيب مع هذه المراة . اذ كفت عن التنظيف المحموم عقب الصدمة الاولى ، وبعد الصدمة الثانية بدات تتطلع الى زيارة زوجها ، الذي كانت تخشاه من قبل ، وبعد الثالثة اصبح كل شيء على ما يرام . وتظاهرت أنني سألقي في وجهها بمحتويات نافضة السجائر ـ فلم يقلقها ذلك على الاطلاق .

ولسوء الحظ ، لم ينجح هذا العلاج السهل مع الجميع . بل على العكس ، لم يكن له تأثيرا على معظم المصابين بالمسلك القهري والمخافات والحصر . وانما أفلح في زيادة الخوف المرضي السابق من الموت فحسب . ويعتبر العصاب الذي لا تصاحبه اعراض محددة يمكن علاجها بمثابة عبء ثقيل يستمر مدى الحياة .

ولقد التقيت بالعصابية ذات المسلك القهري المنكودة روزي بيريفد عندما كانت في الثالثة والثلاثين من عمرها ، وكانت تعاني من المسلك القهري منذ حقبتين . كانت مفرطة البدانة في طفولتها ، اذ كانت مغرمة جدا بالحلوى . كان الناس ينتقدون بدانتها فشرعت في انقاص وزنها واستحال الغذاء المنقوص الى امتناع

منتظم عن الطعام ، فظلت عدة سنوات لا تأكل الا بالقدر الذي يبقي عليهــا الحياة . غدت جلدا على عظم . وعرضها والداها الثريان على اساتذة ، وارسلوها الى مصحة ، وكل ذلك عبثا . وظلت تعالج ستة اعوام على يد محلل نفسي . فعوفيت من الامتناع عن الطعام ، وان لم تشف من مسلكها القهري كانت تقرأ وتدرس فيما سبق بشغف ـ ولكنها لم تعد تستطيع القراءة الان اذ كان مسلكها القهري يضطرها الى اعادة قراءة بعض الاجزاء ثلاث مرات خشية ان تتعــرض اسرتها لمصير مروع . وكانت تعاني كذلك من الاغتسال القهري المألوف ، فكانت تغتسل على نحو طقوس ، وتنظف وتثبت الاشياء بصورة قهرية . وفي وقت من الاوقات اصبحت متدينة بصورة مبالغ فيها . فكانت تتمتم بصلوات معينة لا تفتقد في قيمتها من الناحية العقلية ، وان لم تستطع ان تمتنع عنها . ولم يحدث ابدا أن استشعرت اية رغبة جنسية وكانت لا تهتم بالرجال ولم يكن لديها صديقات كذلك ، وهكذا عزلت نفسها تدريجيا عن العالم الخارجي . وكانت تخشى الناس، وخاصة الموظفين . وبالرغم من انها لم تكن في فترة حداد على احد ، فقد اقتصرت على لبس السواد ـ ربما تعبيرا عن حزنها على مصيرها المرير . وكانت مدققة بصورة تفوق المألوف ، لم تكذب قط ولا تستطيع حتى مجاراة المجاملات الاجتماعية المألوفة . كانت شديدة الحساسية ، شكاكة ، قلقة تنحي على نفسها باللائمة . ونظرا لعزلتها ووداعتها على هذا النحو غير المحدود ، فقد كانت تدرك تماما انها ستغدو عدوانية جدا فيما لو اطلقت العنان لانفعالاتها . وفسرت طقوسها القهرية، زاعمة انها سوف تتسبب في وفاة والدها لو أهملت اي واحد منها ـ على الرغم من انها تدرك جيدا ان هذا مجرد لغو فارغ .

وادى العلاج الى بعض التحسن عقب بضعة شهور . استمر مسلكها القهري، ولكنها استردت بعض قواها الحيوية . واصرت على افعالها القهرية تماما كما يدق شخص لا يؤمن بالخرافات على الخشب بعد ان يذكر امرا يدعــو للتفاؤل ... وامتنعت عن ارتداء السواد ، وتهيأت للخروج ، بل حتى للرقص ، واخذت تفكر في الزواج . وعاودتها لذة العمل ، وجعلت تؤدي وظيفتها على ما يرام . وظلت مصرة على مسلكها القهري الذي شبت على التعود عليه لمدة حقبتين ، شــأن الشخص الذي لم يعد مؤمنا ولكنه مستمر في الصلاة ، ليظل في جانب الامان . وجعلت تتحدث عن مسلكها القهري «المفضل» في مرح وبشيء من الخجل ولكنها لم تتخل عنهم لانهم يمدونها بالثقة في النفس . كانوا بمثابة سند لها في عجزها وشللها النفسي . فمهما ارتفعت معنويات المصاب بالشلل ، فانه يظل لا يطوح بمكازيه بعيدا ، اليس كذلك ؟

وبعد سنوات التقيت بروزي بيرفيد مرة اخرى . لم تعد في ثياب الحداد، وتعيش حياة مستقلة ، وتعمل بجد وعلى نحو طيب ولديها اصدقــاء . كانت تشعر بالسعادة . وان كانت لا تزال تحت تأثير افعالها القهرية «المفضلة» التــي تزاولها سرا ، كانت تسالمهم ، او بتعبير اكثر دقة ، استسلمت لهم . وكــان هذا بمثابة حل وسط مكنها من ان تعيش حياة محتملة . الا ان الخطاب الذي

كتبته روزي اثناء العلاج سيظل شاهدا محزنا يوضح كيف يستطيع السلوك القهري ان يعذب ضحيته في قسوة .

«... استيقظت في الصباح على صوت احدهم يدخل الحمام . عليّ الان ان انتظر ثلاثين دقيقة حتى استطيع الدخول ، كي أزاول الطقس الصباحي الذي لا استطيع قبله ان اشرع في عمل شيء . تقلبت في فراشي . انفتح الباب ـ عاد احدهم لدخول الحمام . جعلت أتمشى في الحجرة ، وأنا على وشك الانفجار ، وفتحت النافذة اذ شعرت بانعدام الهواء ... شرعت في البكاء اثناء تناول الافطار ، ولكن سرعان ما توقفت اذ تبينت انه من السخرية ان أبكي اثناء الاكل. على اية حال فالبكاء في الصباح ليس امرا مستحبا ، ولكن الامر يختلف في المساء ، حين لا يزعجك احد . يجب ان اقرأ ، واستذكر ، ولكنني لا استطيع ذلك . يا لاحتدام الافكار والانفعالات ! سوف أجن . أم تراني جننت فعلا ؟ تستحيل الحياة على هذا النحو . انها حياة تخلو من المعنى مليئة بالمهانة . كيف يستطيع المرء أن يستمر في الحديث عن الكرامة البشرية ؟ وحيدا وسط البشر ، ينزف من آلاف الجروح الداخلية ، وسط عذابات الافعال القهرية والمخاوف التي لا تنتهي . لم اكره قط شخصا بهذه الضراوة كما اكره الان نفسي ... لقد ظللت أعيش على هذا النحو طيلة عشرين عاما . كنت في نحو الثانية عشر او الثالثةعشر حين ابتدأ الامر ، ومنذ ذلك الحين توقفت عن النمو . وظللت طفلة منذ ذلك الحين . فالافعال القهرية تستغرقني . وقعت فريسة للرعب ، واعتقدت في البداية ان بي مس من الشيطان . فبكيت ، وصليت ، وشعرت باليأس ، وحاولت ان اقاومها ، ثم حاولت الاستسلام لها . لكنها لم تخنقني او تعيق ارادتي . وابتعدت عن الإله الذي طلبت منه العون عبثا ، ثم تحولت اليه ثانية خوفا من ان تصاب أسرتي بمكروه . لم اخش على نفسي . وكثيرا ما ساورني الشعوور بأنه يقضي وقته في السخرية بصراعي العاجز . فلديّ فكرة ضئيلة عنه ، وان كنت حريصة على الا أخدع نفسي . وحين كانت المخاطر تتخطانا ، كنت أهرع لشكره واسأله المغفرة المستمرة . لكن الافعال القهرية لم تتراجع ، سواء استعنت بالرب او بالانسان او بالمحلل النفسي . ولم أعد أخشاها فيما بعد مهما ظهرت في العديد من الاشكال الجديدة والمتباينة . وادركت انها لن تخاف بل سيتملكها الغضب . ولذلك جعلتها تتملكني جميعا . ورعيتها جميعا ، واصبح لديّ الان ما أفضله منها . وهي تجشمني بالطبع كمية من العمل ، وتسبب لي التعب والمعاناة . ولكن هل في مقدوري ان اتوفر على مهمة اكثر اهمية من ان اكون في خدمتها .... فلأدع الافعال القهرية تعيش ـ ويجب ان اعترف انها تحيا على ما يرام وعلى نحو أفضل من يوم الى يوم . انها تمتص دمي وتسمن وتنضج عليه. وتأكل قلبي ودماغي وتبني منهما عضلاتها . انني اتركها تتكاثر وتشتد عودا ، حتى أصبح من السهل عليها الان ان تحتويني . وأنا لا اشفق حتى على نفسي لانني

احتقر نفسي كثيرا على ضعفي وجبني . هذا ما استحقه ! لقد قضي الامر .

***

لقد اضفت حالات الهستيريا ، والنورستانيا والعصاب التي استمديتها من المصحات الى قصة الجرانج لا لاستكمل صورة الاضطرابات العقلية فحسب ولكن لانني توصلت الى نتيجة مؤداها اننا نستطيع عن طريق العلاج بالعمل والعلاج البيئي ان نحقق نتائج افضل . ولكي نكون اكثر دقة فان هذه الحالات الصعبة بحق تعوزها بيئة صناعية ولكنها ليست غير طبيعية ، شأن ما يعوز المجانين . فان جوهر امراضهم هو الصراع الاجتماعي . سوء التوافق . ويمكن ان «نستكشف» شيئا من اعراضهم ان الظروف الاسرية للمرضى الآخرين تجعل من المستحيل عليهم ان يتركوا بيئتهم الحقيقية لاي مدة كانت ليتعلموا الحياة مع الناس في «مجتمع مصنوع» جيد التنظيم . ولكن يبقى ان هذا هو الحل الصحيح لمعظمهم . ان مارجريت البكماء والزي الصياحة ، والفيرا عرس المساء ، ودنيس القافز في البئر ، بل وحتى ايروين اكرة الباب عاودتهم الحياة جميعا ووجدوا انفسهم في هذه البيئة مثل بيلا لوكسميث ، وجودي ديوك ، وايمري فورستر الذين خلصوا انفسهم تماما من نوباتهم الصرعية ، ومثل ما نجحنا في دفع الآخرين الى العمل المنتج والتخلص من مخاوف امراضهم المتوهمة وأفعالهم القهرية ، كان في وسعنا ان نخلص مسز نامساك من صرعها ، وجولي المرضعة من طفحها الجلدي ، ومارتا ستوت وبيرل كبيرة العينين ودون ديسيت من تأففهم ، ومسز دريمر ، ومسز لام من اعراضهم الفيزيقية . وربما كان في وسعنا ان نستحث مدرّسة الكمان على العمل بروح معنوية عالية وربما ساعدنا تك المهندس أو حتى روزي بيريفد . وفي اعتقادي انه يجبان يتسع العلاج بالعمل ليشمل مرضى «المصحات» أولئك كذلك.

ولكن هذا لا يتأتى بالطبع ، بمجرد وضعهم في الجرانج . فما الذي تستطيع ان تصنعه مدرّسة الكمان هناك ؟ وما هو العمل الذي نستطيع ان نقدمه لطالب الجامعة ، والموظف العام ، والمهندس والمدرس في مدرسة عالية ؟ كيف نستطيع اشباع حاجاتهم الذهنية ؟ ان علاج المثقفين بالعمل لا يزال مشكلة تتطلب حلا . ونحن نعلم ان هذا هو السبب الذي جشمنا من أجله مارتين كيمست وجس ليبينكاي وغيرهما من المرضى المثقفين العديد من المتاعب وتوكد حالات الهستيريا والنورستانيا والعصاب على نحو اكثر جلاء ضرورة ان تحل هذه المشاكل بنفس روح الجرانج ـ لا في الاحراش ولكن في مكان ما بقرب العاصمة وبمعدات تلائم على نحو افضل الحاجات الثقافية المرتفعة . وقد يبدو هذا غريبا ، لكننا اعتدنا ان نقول يجب انشاء **مدينة للسيكوباتيين** تضم الناس الموهوبين الذين تعوقهم سيكوباتيتهم عن الحياة في عالم الاصحاء ـ حيث تمكن لهم فرص العمل والحياة، في ظل ظروف وعلاج يتناسبان وغرابة اطوارهم .

الفصل الخامس

مدمنو الكحول والمشاكسون والمحتالون

سبق لي ان ذكرت الوضع القانوني الغريب ـ وغير المقبول تماما ـ الذي تجد في ظله مجموعة كبيرة من السكيرين ، والمتشردين ، والشخصيات المنحرفة والمشبوهة مأوىلها في المصحات العقلية . ويتلخص العذر والتفسير الطبيين لهذا الوضع غير المستحب في ان هذه الحالات المناهضة للمجتمع حالات سيكوباتية في معظمها ، ولها الحق الدقيق في العلاج الطبي من حيث هي كذلك . وهو حق دقيق فعلا ، لان هذه الحالات تدخل في الحقيقة ضمن نطاق شئون الشرطة . والواقع انه لو بلغت العلوم الطبية حدا يمكنها من شفاء السيكوباتيين بعامة ، والسيكوباتيين المنحرفين عن المعايير الخلقية بشكل خاص ، لحاربنا من اجل ايداع السكيرين ، والمتبطلين ، والمحتالين ، وفتيات الشوارع وسيداته ، والنشالين ولاعبي الورق في مستشفيات مزودة بافضل الاجهزة بدلا من السجون ومعسكرات الاشغال الشاقة . حيث يستطيعون الحياة داخل مصحات علاجية تزينها النباتات الدائمة الخضرة ، وحيث تحدث الاعاجيب بفضل سحر الطب ، وحيث نثبت ان اللصوص في مقدورهم ان يصبحوا من أفضل رجال الشرطة ، والازواج الخائنين من أفضل الازواج والآباء ، ونحيل المتسكعات في الشوارع الى رئيسات جمعيات حماية الاخلاق، ومدمني المورفين الى صيادلة أمناء ، والمتعطلين السكيرين الى اعضاء ممتازين في نادي الموظفين . ولكن حتى تبلغ العلوم الطبية هذه المرحلة ، فسنظل نعارض الدوافع العملية التي تجبرنا ، لعدم وجود حل

افضل ، على قبول المرضى باخلاقهم بين المحطمين عقليا .

ولا يضيف الى الامر شيئا اننا نتعامل هنا ايضا مع أناس **تحطمت سفنهم** ، وكانوا ضحايا لفساد اخلاقهم . لقد تحطمت سفنهم ، هذا صحيح ، ولكنهم يجادلون في ان المجتمع هو الذي حطم سفنهم . وهذا ليس صحيحا . فمهما بالغوا في اتهامهم للمجتمع ، يتبقى انهم كانوا المسئولين بانفسهم عن انهيارهم . وهم يستترون في ظل الصحة العقلية لانها تخليهم من المسئولية . وربما يوجد الامل في شفاء الحالات النادرة التي يمكن تغيير مجرى حياتها ، من بين مجموعة اخرى من السيكوباتيين . اما السيكوباتي «المنحرف اخلاقيا» فلا يمكن علاجه ، لانه أعدى اعداء نفسه ، ومدمر لذاته . عبثا نبني لهم البيئة المثالية ، فهم يدمرون عمدا ما ابتنيناه لهم . ويسرعون الى دمارهم ، بصورة واعية غالبا .

ولقد اطلعتنا تجربتنا في الجرانج على العديد من الامثلة المؤسفة لهذا التدمير العمدي للذات .

لقد علقنا آمالا كبارا على (ليس هالماجي) ، الذي لم يكن على وجه الارض ثمة مدمن للكحول اكثر منه جاذبية . كان وجهه العريض مبتسما دائما . ورغم كرشه العريض الذي يسبقه كان يرقص بلا كلل مع نزيلات القفص المموه . لا يخصص واحدة . بل يراقص اشد العجائز بشاعة بنفس الحماس الذي يراقص به شابة حسناء . كان في مقدوره ان يخلق الجو في دقائق كابرع الموجهين الاجتماعيين . اذ كان يجمع حوله من عشرة الى خمسة عشر شخصا ويجعلهم يرقصون (التساروأس) حتى يصيبهم الدوار ويمتلىء المنزل بالضحك . ويقضي المشاهدون وقتا على نحو لا يقل مرحا عن الراقصين . كان (ليس) لا يعتريه التعب . يتواجد في كل مكان في نفس اللحظة ولا ينسى احدا ، وكان منظما بارعا لا يسمح ابدا بإطفاء جو المرح ولو لثانية واحدة . كان يغني ويلعب على احدى آلات النفخ بينما يتصبب العرق من رقبته الغليظة ، وتنعقد الضحكات على وجهه المستدير — كان من المستحيل انقضاء الوقت على غير ما يرام حين يكون موجودا . وحين زارتنا الصحفية كات كليفر سحرها (ليس) ، فجعلها ترقص ، وتقول فيما بعد انها رقصت لاول مرة في حياتها ولكن « من المستحيل مقاومة (ليس) » .

وكان من المستحيل مقاومته فعلا . كان مقتدرا في العمل او شغل أوقات المرضى على نحو ما في اللهو . وكان في وسعنا أن نخلد جميعا الى الراحة مطمئنين حين يناط له العمل ، فقد كان يراقب كل شيء ويهتم على الفور بكل شيء . وكان يكتب لوحات خطية تحمل عبارات مناسبة للمرضى لا تقل جودة عن تلك الموجودة في مداخل العديد من المصحات .

جاءنا من احدى المؤسسات في الشمال ، لا كممرض وانما كحالة ادمان على الكحول ميئوس منها . وكان في الاصل مدرسا . قضى بضعة سنوات في الاتحاد السوفييتي كأسير حرب ، وحين عاد الى وطنه، لم يسمحوا له بالاستمرار في التدريس لعدم صلاحيته سياسيا . فعمل معدّنا . وتزوج . وانجبت زوجته

طفلا ، ثم طلقها (الزواج ، الطلاق ــ قصة مكررة بالنسبة لمدمني الكحول . ويكاد لا يوجد مدمن كحول لا ينحي على زوجته باللائمة بسبب ما هو فيه من رذيلة) .

وكسب مبالغ طائلة فبالغ وبالغ في الشراب وانغمس الى جانب ذلك في عدد متزايد من الفضائح ، وصادفته المتاعب مع الشرطة . اذ لم يكن في وسعه ان يضبط لسانه ، بعد ان يحتسي بضعة كئوس . ونصحه احد زملاء الشراب ان يحصل على **شهادة مرضية** . شهادة تثبت انه يعالج في مؤسسة عقلية ، اذا اراد لنفسه ان يفلت من العقاب . ودله على طريقة غاية في البساطة . عليه ان يزعم انه يرى فئرانا ترتدي قبعات حمراء اينما يمم وجهه .

ونفذ (ليس) امر . فبعد مشاجرته التالية أسر لرجل الشرطة ان شيئا لم يكن ليحدث على غير ما يرام ، لو لم تشرع هذه الفئران ذات القبعات الحمراء في الرقص حوله . نفر رجل الشرطة مذعورا يطلب سيارة الاسعاف . وبعد خمس عشرة دقيقة وصل (ليس) الى قسم الامراض العقلية .

وهناك عاود الحديث عن الفئران ذات القبعات الحمراء كذلك فعالجوه علاجا بسيطا واعطوه شهادة مرضية . وأصبح منذ ذلك الحين ضيفا مقيما على الشرطة، لكن رجال الشرطة كانوا يتحاشونه . فهو مجنون ... أحاطته هالة سحرية استمتع بها كثيرا . فتزايدت عربدته ، وامضى المزيد والمزيد من ايامه في قسم الامراض العقلية ، يتعاطى الشراب ويتشاجر . لقد قلب رئيسة الممرضات «راسا على عقب» كما ذكر ضاحكا ، ولم يكن ذلك دون سبب .

بعد هذه التمهيدات جاءنا مع برعمين آخرين . كانا مدمنين عربيدين مثله، وسأختصهما بالحديث فيما بعد . وعلمت من الخطاب الذي وصل بصحبتهم انه تم ارسالهم الى الجرانج كحل اخير . فاذا لم نفلح في إسلاس قيادهم فلا جدوى بعد الان .

وأحرزنا قدرا معينا من النجاح مع (ليس هالماجي) خلال خمس دقائق ــ ورغم هذا كان كل ذلك عبثا . لقد جاء ، ورأى وهزم . وصل ، وتطلع فيما حوله ، ورأى كل شيء ، واعجب بكل شيء ، وابتسم ابتسامة عريضة ، ولم يعد للحديث عن الفئران ذات القبعات الحمراء وانغمس في حياة القفص المموه النشطة . لقد كسبنا ، وكسبناه .

وعيناه ممرضا في نهاية الاشهر الثلاثة . فقد ظل يؤدي دور الممرض اثناء العلاج بالعمل ، اما الان فقد اصبح ممرضا بالفعل . وسر الجميع لذلك وبلغ من شدة الفرح مبلغا دفعه لان يسكر . ولم نهتم لذلك ، شعرت انه ليس من حقنا أن نطالب مدمني الكحول بالامتناع عن الشراب على حين نسمح لغير المدمنين بالشرب. لم تكن المشكلة مجرد الشرب ، ولكن ما اذا كان يفقد اتزانه وشرفه ، واحساسه بالمسئولية ، وقدرته على التمييز .

ولم يفقد ليس هالماجي شيئا ، بعد ، ولهذا فقد احتفظ بوظيفته وباحترامنا له . واستطيع ان اقرر اننا لم نتحصل ولن نتحصل على ممرض افضل منه .

فنظرا لخبرته القيمة بالمصحات العقلية ، كان في وسعه ان يتفهم أسلوبنا . وكان في مقدوره ان يحكي للآخرين عن الضرب ، وقميص المجانين ، والصدمات الكهربية التي كانت تستخدم كعقاب ، وكذا عن السرقات والرشاوي التي يتقاضاها المرضون . لقد كان يوضح محاضراتي بأمثلة مصورة من خبرته الخاصة .

كان لديه عيب واحد . كان يستمتع بالدسائس والاكاذيب . ومع هذا فقد كان يزاولها بطريقة جذابة لا يضيق بها ضحاياه . وكان يؤديها من قبيل الفن للفن ، ويذكر جميع من عملوا معه بالسوء – لكن من وراء ظهورهم فحسب . وافسد سمعة روزي بخاصة واعتبرها خصما له ، بعد ان احبطت روزي محاولاته . وتعتبر هذه من القصص الشائعة بين مدمني الكحول لدينا . في اليوم الاول يطلعوننا على مأساة حياتهم العظمى . الزوجة الشريرة . ويقولون في اليوم التالي انهم لن يتطلعوا ثانية الى اية امراة . ويعرضون الزواج – على روزي عادة – في اليوم الثالث ، ويقسمون ان يبدؤا حياة جديدة من الان فصاعدا . ويشرعون في كراهية روزي التي ازدرت بهم في اليوم الرابع . وفي اليوم الخامس يقسمون لامراة اخرى على الحب الابدي ويسكر في نهاية الاسبوع ، ويبدأون كل شيء من جديد في الاسبوع التالي .

انتاب الهدوء ليس هالماجي بضعة شهور ، حتى حضر حفل قران فعاد بعد فترة من العربدة دامت ثلاثة ايام ، لم يترتب عليها أمور بالغة الخطورة . كل ما في الامر انه انفق على الشراب ستمائة فورنت استدانها وسوف يسددها من اجره في ظرف شهر . كانت وسائله في استثارة العطف تتسم بالقدرة على جعل الغرباء يقرضونه مائة او مائتي فورنتا على الفور .

ولم تبدأ المتاعب الا بعد ان وضعنا فيه قدرا بالغا من الثقة جعلنا نسمح له بمصاحبة احد المرضى الى بودابست . عاد بعد موعده مخمورا ومدينا بالف وثمنمائة فورنت ، بعد ان جال في طول البلاد وعرضها بحثا عن قروض . وركز اساسا على زيارة أقارب المرضى ، واستغل اسمي في مطالبتهم بمبالغ تتراوح ما بين مائة الى مائة وخمسين فورنتا . واعطاه أقارب المرضى الخائفين ، خشية ان يبتزها من اولادهم . وكانت هذه خدعة قذرة ، جعلتني اكاد أصعق . واعترف ليس بكل شيء نادما . ولم يفه بكلمة في الدفاع عن نفسه . وتوسل الينا ان نقبله والا نعطيه من النقود الا ثمن السجائر لمدة ثلاثة شهور ، وان نسدد ديونه بالباقي من أجره .

ونفذنا وفق ما طلب . ولكن ليس لم يعد نفس الشخص . فأيام كان لا يزال مريضا كان يجد من الطبيعي ان يعمل من اجل الكفاف ، ولكن اصبح من الصعوبة بمكان الان ان يتقبل خلو جيوبه من النقود عدة اشهر . وحين تخلو جيوب سكير ساخط – تزيد المشاكل عنها حين تمتلىء اذ عندما تتوفر النقود ، يكتفي بصرفها، اما حين لا تتوفر فانه يستولي على بعضها وينزلق بسرعة نحو الهاوية . غدا الان مديونا للجميع ، وتحصل على النقود بوسائل مشبوهة ، وباع نفسه لمختلف

السكيرين داخل المؤسسة وخارجها ، على نحو متعمد . ووجد من ذكائه ما جعله يردد :

«انني اعرف انني اندفع نحو دماري . لكنني لا اجد الطمأنينة . لن يوجد ثمة مكان اصلح لي في العالم اكثر من هنا ، انا اعلم ذلك . واعلم انني سيلقى بي للكلاب . وان حياتي لا تساوي مجرد لعنة . انني كومة اقذار . لا تأخذنكم بي الشفقة . »

ومع هذا فقد اخذتني الشفقة ، وبأنفسنا كذلك . كلمته عشر مرات ، مئات المرات ، دون جدوى . كان يوافقني على ما اقول ، ولكنه اعتزم الرحيل . واستبقاه حب جديد هنيهة قصيرة ، ولكن حين وقع الانفجار (ينتهي حب مدمني الكحول عادة بانفجار) افترقنا اصدقاء .

لم يكن الوداع الاخير . اذ عاد بعد اسبوعين في حالة كاملة من الضياع . وسألني ان أوافق على ايداعه كمريض . اعتراه الفتور ، والتبطل وانغمس طيلة الوقت في الشراب ، وبدا عليه الانسحاق ــ ثم اختفى بغتة . وتقضت ثلاثة ايام حين أرسل اليّ بطاقة بريدية من جواتز ، بالنمسا . لقد عبر الحدود . وظل يغمرني فترة ببطاقات التحية ، ثم لم نسمع عنه شيئا . وبعد مدة من الزمن كتب اليّ من مصحة عقلية سويدية . وهناك لم يكن يعمل ممرضا بالطبع .

وتتشابه في ذلك تماما حالة اليكس زالفاري . لقد كان مدرسا فأصبح ممرضا بعد فترة من المرض وكان يؤدي عمله بصورة ممتازة ، وغادر البلاد في النهاية كذلك .

لم يكن سمينا ، بل نحيلا ضامرا ، أميل للاستثارة والعصبية . وبدلا من رؤية الفئران ذات القبعات الحمراء ، كان يتصنع «حالات الرخاوة» حتى حصل على «شهادته المرضية» ، وجال في انحاء البلاد ، يحتال على الناس ، ويعد النسوة بالزواج ليبتز نقودهن ، ثم يسترد ذاكرته بغتة . وكانت الشهادة المرضية تؤكد اصابته بالبوريامانيا Pariamania ، وهذا امر مختلف ، ويجعله بمنجاة من عواقب ما يزاوله من تدليس . كانت له ذاكرة ممتازة . وكان يزاول تشرده في حالة من الرخاوة ، يتذكر اثناءها تماما اسماء وعناوين معارفه الذين لم يرهم منذ عشر سنوات ، ويعرف كيف يكسب قلوب ونقود ضحاياه بأكاذيبه الملتوية . فقد كان في مقدوره أن يلفق قصة عن كيف فقد تذكرة سفره ، او كيف خدعته زوجته ، على نحو يقطع نياط القلوب يجعل الذين قدت قلوبهم من الحجر فحسب هم الذين يرفضون له مطلبا . وحاول ابتزاز نقود اهالي المرضى كذلك . وان هي الا اسابيع قلائل حتى تصلني رسالة تطالبني ببضعة مئات من الفورينات اقترضها المرض بإسمي ...

ويكاد يكون اساس تشرده السيكوباتي وإدمانه على الكحول نمطيا . فبعد طفولة متعثرة اشتغل مدرسا بالارياف ، وهناك التقى بامرأة ، اصطحبته الى حجرته في اول مرة يلتقي بها وتجردت من ملابسها . واصبحت هذه المرأة زوجته

وسبب انهياره . لقد خدعته ، وتشاجرا يوميا . وانجبا ثلاثة أطفال ، ولكن تزايدت شكوكه ، وعصبيته ، فأغرق احزانه فيما بعد بالخمر ، وهجر اسرته ، وطفق يتصعلك ، ويدّعي محاولة الانتحار ويشرب بكل ما يكسبه . وفي سن الثلاثين عولج tapering - off ثم عاد الى زوجته ، وقضيا فترة الصلح على نحو من العربدة ، لكن استمرت علاقتهما الودية لاسابيع معدودة . ثم اكتشف ان المراة لا زالت تخونه ، فهجرها ، وتم طلاقهما . واصبحت شكواه الرئيسية ان زوجته تمنع عنه اولادها الثلاثة ـ وان لم يكن يأبه بهم في الواقع على الاطلاق . (من المألوف ان ينجب مدمنو الكحول اولادا ثم لا يهتمون بهم ـ باستثناء جوليوس المنجد ، وان كنت سأتحدث عن ذلك فيما بعد) وباع ممتلكاته اثناء فترة تشرده ، واقترض نقودا . وبعد علاج ثان tapering - off عاد لمزاولة التدريس . وسار كل شيء على ما يرام عدة شهور . ثم انتابه الحنين الى اولاده (او هذا ما زعمه على الاقل) . فعاد الى المنزل ، وهناك لم تسمح مطلقته بالزيارة ، واخبره احد الاولاد من خلف الباب المغلق ان «ماما لن تفتح البـاب لانها في الفراش مـع رجل ...» . وفي غمرة أحزانه حاول الانتحار فاقتيد الى قسم الامراض العقلية. والتقى في حديقة المستشفى بامراة ساذجة غبية ، تزوجها من فوره دون موجب على الاطلاق . «كنت ابحث عن أم لاولادي» هكذا قال بصورة منطقية . وكـان لزوجته القبيحة الغبية اما كذلك ، وسرعان ما طردتاه . واعقب ذلك فترة من التشرد ، فكان يجد نفسه ذات مرة في شمال البلاد ، ثم في الجنوب ، ثـم اكتشف من تذكرة القطار التي في جيبه انه اتجه الى اقاصي الغرب ـ على حـد زعمه . وفسر تشرده برغبته الشديدة في العثور على شخص يتبنى اولاده ... واستقر به الترحال في ليبوتميزو . حيث عولج بالعقاقير طيلة ثلاثة شهور . فعاد لمزاولة التدريس . وعلمنا من سجلات الشرطة فيما بعد بأمر انحرافاته وبكل ما اقترضه من نقود . وعاد يهيم على وجهه ، قاصدا زوجته الثانية التي لـم يرها منذ اكثر من عام هذه المرة . وجدها حاملا ، فشعر بالمرارة على نحو ما ، واغرق احزانه في الشراب وحالة الوعي الرخو ، حتى استقر في عنبر للامراض العقلية ، فطالب بتحويله الى الجرانج .

هذا مجمل مختصر للحياة المضطربة التي عاشها ، والتي يبدو ان اساسها القول الشائع : **فتش عن المرأة** . وظل اليكس عندنا على نفس النحـو كذلك . فاراد الزواج من فوره بروزي ، ثم بإحدى السكرتيرات في مزرعة الدولة المجاورة ثم من احدى الخادمات ، ابتز منها الف فورنت . ثم انطلق بعدئذ من جديد ، يهيم على وجهه في ذهول ، حتى عاد بدين جديد مقداره الف وأربعمائة فورنتا . لا زال بالمجر ثمة محتالين ..

كان ممرضا بارعا ، خبيرا ، واسع الحيلة ، ومحلا للثقة . زين العنبر في حماس ، وامتلأت الجدران بفضله بالصور والرسوم الشعبية . كان بالطفل الكبير اشبه . مليء بالطموح والافكار البراقة . وكان سهل الاستهواء ، يفتقد قـوة

الارادة ، ويسهل توجيهه للخير وللشر .
وفيما بعد ، خلال فترة من فترات رحيله المحمومة ، شعر ان العالم مفتوح أمامه ، وأن في وسعه أن يبدأ حياة جديدة ، وان الامور اصبحت على نحو رائع ـ فاختفى ذات صباح وعبر الحدود النمسوية .
ولا بد انه اكتشف بمنتهى السرعة ان الامور لن تسير على هذا النحو من الروعة ، ما دام قد اصطحب معه شخصيته السيكوباتية . ربما استطاع ان يسبح بمهارة في المياه المضطربة باديء الامر ، ولكن ماذا يصنع بعد ذلك ؟ لقد كان أعدى اعداء نفسه ، بغض النظر عن الموقع الذي يقف فيه من الحدود .
اسفنا من اجله . كان يساوي لدينا وزنه ذهبا . وفقدنا به ممرضا آخر من افضل ممرضينا الرجال .
تكاد قصص حياة الآخرين لا تستحق الذكر ، اذ يسير مدمنو الكحول على نمط واحد .
لقد جاء جون البناء وفرانك الخباز مع ليس هالماجي من الطرف الآخر من البلاد . واصبح جون البنّاء زوج المستقبل لالفيرا (عرس المساء) التي سبق لي الحديث عنها في الفصل السابق . وكان وجه الخلاف انه لم يكن يسيء الى زوجته وانما كان يستعطفها . وبدلا من الفئران ذات القبعات الحمراء كان يدّعي حيلة أخرى ـ الاكتئاب . استطاع ان يستغرق في ذلك الى درجة لا يتحدث خلالها لعدة ايام ، وانما يكتفي بالبكاء وهو يلوح بيديه في حزن ويرقد مواجها الحائط. ولكنه ربما كان يشعل سيجارة خلسة ، فينسى عندئذ ان يتظاهر بالحزن . لم يكن تظاهرا بالضبط ، ولكنه برهن على انه سلوك مقصود ، بأن كان يعلن على الملأ قبل أن تنتابه نوبات الاكتئاب ، انه بصدد الرقاد في سريره ثلاثة ايام لن ينطق خلالها بحرف ... وفيما عدا ذلك كان عاملا ممتازا ابتنى لنا مظلات وحظائر للخنازير ومداخن وكوخ جذاب للبواب . لم يسكر خلال عامين الا مرة واحدة . واعتاد ان يشرب باتزان كأسين او ثلاثة كئوس اسبوعيا ، فلم نكترث لهذا . بل على النقيض ، أصبح موضع ثقتنا ، فالمدمن الذي يستطيع التوقف بعد كأس او اثنين يعتبر من الحالات التي تبشر بالخير عن أولئك الذين يختارون بين احد النقيضين . الامتناع الكامل او السكر الى درجة العربدة .
لا يكفي الامتناع النسبي لمدة عامين في حياة سيكوباتي مدمن للكحول لاعلان شفائه الكامل . ولقد نجحنا في أن تستقر حالة جون البنّاء ، ولكن ربما يرجع هذا اساسا الى الفيرا (عرس المساء) او الى اننا اتحنا لهذا الرجل ، الذي تخلى من قبل عن كل شيء ، بما في ذلك نفسه ، عروسا وهدفا في الحياة . لقد سبق وانطفأت في داخله شعلة الشباب التي كانت متوهجة لدى المدرسين . وقنع بالسعادة التي أتاحتها له شخصية الفيرا (عرس المساء) الغبية المصابة بالصرع ، والوظيفة الصغيرة التي شغلها لدينا . وطالما ظل على قناعته ، فلن يعود أعدى أعداء نفسه ، ولن تتكرر رذائله التي كانت بمثابة تعويض عن بعض الامور التي لم

يعد في حاجة الى التعويض عنها .

هكذا وجد فرانك الخباز كذلك عروسا لدينا . كان في الخمسين من عمره، احب امرأة ضعيفة العقل تناهز السادسة والثلاثين من عمرها وسعد كل منهما بالآخر . واقلعت الفتاة عن اسلوبها المتقلب في الحياة وغدت زوجة مخلصة مثابرة . واحترمت زوجها بطريقتها البلهاء وتقبلت الحياة الجيدة التنظيم التي يحيونها . وتخلى الزوج من جانبه عن زواجه السابق المنكود ، واكتشف ان الارتباط الجديد يلائم على نحو افضل طبيعته المستبدة . كان قد هجر زوجته الاولى واولاده بسبب زواج ابنته من شرطي شيوعي . وكان لا يتحمل الشيوعيين لانه رجعي قح ، ولا يتحمل رجال الشرطة لانه مدمن عتيق على الكحول . ومن سخرية القدر ــ ومن الامور التي تؤكد ان هذه مجرد تعلات كذلك ــ ان اخا زوجته الجديدة كان ضابطا بالشرطة عاد لتوه من موسكو بعد عام من الدراسة .

بعد فترة نسبية من الامتناع استمرت ستة شهور وبعد عمل شاق ، خرج الزوجان الى العالم ليجربا حظيهما . فعادا الينا مخمورين بعد ثمانية أشهر أخرى . سرعان ما اعدنا الامور الى نصابها . لكن بدأ الزوج يسفر عن حدة طباعه ، واتهاماته وطغيانه . وأعيد اطلاق سراحهما ولكنهما هذه المرة لم يذهبا بعيدا! . امضيا الاسابيع يحتسيان الخمر في حانة احدى القرى . ولم يجدا السعادة التي كانا ينشدان اذ كان عجز الزوج المرضي وقسوته لا يحتملان الا بصعوبة حتى داخل المؤسسة . والمجتمع يتطلب قدرا ازيد من التوافق .

ولقد أكد رحيل الزوجين المفاجىء ان الامور لا يمكن ان تستمر على ما يرام بالنسبة لمدمني الكحول السيكوباتيين . فالى جانب اقامتهما في القفص المموه ابتنينا لهما كوخا كأكواخ الاساطير له جدران ناصعة البياض ، وباب وأطر خضراء للنوافذ ، مؤثث بالأسرّة ، والاصونة ، والموقد . ابتناه جون البنّاء ، وضع اثاثه ليس كوفمن ، وأعد روز هيبس الموقد وقام آل ستمبلر بأشغال الكهرباء. ووضعنا فرانك الخباز في هذا المنزل الصغير . وأصبحا بوابين .

وحسدتهما المؤسسة بأكملها ، مرضاها وممرضيها . ترى هل كان هناك من هو احق منهما بالحسد ؟ لقد كان في استطاعتهما أن يعيشا في منزلهما الصغير كيمامتين . ويستطيعان العمل في الحديقة الصغيرة المحيطة بمنزلهما . ويحصلان على كل ما يحتاجان اليه من الدولة ــ طعام كامل ومنزل خاص ، ومبلغ للزوج ، وفي مقدورهما كسب مبالغ اضافية من وقت الى آخر . ووظيفة البواب محترمة يعتبر شاغلها اهل للثقة واعتقد المرء ان اسرة الخباز ستقيم هناك حتى نهاية العالم . ولكن لا . بدأ فرانك الخباز يتشاجر مع روز هيبس وهو مدمن كحول سيكوباتي كذلك عندما جرؤ على أن يقدم له النصح بخصوص الموقد . ثم تشاجر ثانية مع ستيف دريفر ، وهو مدمن على الكحول كذلك ــ لسبب لا اتذكره . كما تشاجر ايضا مع شخص آخر ثم احتسى نصف زجاجة من الروم . ومعرضين عن كافة ما تلقياه من نصائح طبية ، غادرانا مغضبين ، بين بكاء الزوجة المرير . وهما

يشربان الان في الحانة وتكتنفهما الديون ، ولا زال الكوخ الاسطوري معدا لاستقبال المحتال التالي .

***

هناك مثل مجري يقول ان الكلاب لا تصاب بالجنون حين تعاملها الحياة على نحو طيب . وانا لا اعرف في الكلاب ولكن هذا القول ينطبق بالتأكيد على مدمني الكحول . فطالما تكتنفهم المتاعب ، فهم ودعاء متواضعين ، مليئين بالندم والعزيمة الطيبة . ولكن حين ينجلي الموقف ويحصلون على عمل ، تستطيع ان تشم رائحة انفاسهم على بعد عدة خطوات .

ولنأخذ روز هيبس مثلا . لا حاجة للقول ان زواجه الاول كان فاشلا وانه شرع في الشرب ، وتمادى اكثر وأكثر ، حتى حصل على الطلاق . وتزوج بواحدة من فتيات الشوارع فيما بعد ، ثم هجرها واستمر في التصعلك وفي سن الثانية والخمسين استقر به المقام في الجرانج . كان ميكانيكيا بارعا . ظل عدة شهور لا يتحدث عن الشراب وكان مثابرا يعول عليه لدرجة اننا عيناه ميكانيكيا للمؤسسة. فكانت النتيجة انه لم يستطع أن يبتاع لنفسه قميصا واحدا من أجره البالغ الف ومائتي فورنتا في الشهر . وغرق في الكحول والديون عقب أسبوعين من تعيينه. وكان ذا طبيعة شرسة ، ميال للشجار ، لقلاقة فضولية ، فضايق الجميع وكانت تضايقه اية تفاهات . وكان يحتاج الى علاج نفسي عدة مرات أسبوعيا حتى يتخلص من نوباته الانفعالية . وكان على المرء ان يقوم بتهدئته هو ومن حوله . وتضايق بقية موظفي المؤسسة لانني لم القِ به الى الشيطان ، وكانوا ، بصراحة ، محقين في ذلك . وحطم سيارة المؤسسة ، وهو تحت تأثير النوبة . فلم نستطع تجاهل الامر ، وقمنا بالخصم من مرتبه . وكان هذا معناه انه سينفق على الشراب مبلغا يقل مائتين وخمسين فورنتا شهريا . ولكنه لم يتقبل الامر . فقدم انذارا وبدا يستبق نحو دماره ــ واعتقد انه يفعل ذلك دفاعا عن «شرفه» . لقد كان في وسعه أن يجد مكانه في «مدينة السكوباتيين» حيث يمكن احتماله ، فالاسوياء من الناس لم يحتملوه ؛ وهم على صواب ، وكان التسامح ظلما بالنسبة للموظفين الاسوياء .

وكان ستيف دريفر من سكان احدى المصحات العقلية في بودابست ، وقدم للمحاكمة اربعون مرة على الاقل . كان يعمل سائقا على سيارة لنقل الفحم ، وينفق ما يكسبه على الشراب . وكانت له وقائع مع الشرطة ، وظل لسنوات لا ينقضي اسبوع الا ويتم القاء القبض عليه ونقله في سيارة الاسعاف وابدى استعداده للعمل في الجرانج ، بهدوء ومثابرة ، حتى عيناه سائقا وعاد منذ ذلك الحين فصاعدا الى الشرب . وفي النهاية طالبنا هو شخصيا بأن نعيده مريضا مرة اخرى لانه لا يستطيع تحمل المسئولية او مقاومة ما في جيبه من نقود .

واجدني دون حاجة لسرد القصة الكاملة لجوزيف كوك ، نظرا لانها شديدة الشبه بسابقاتها . كانت النهاية هي التي اختلفت فحسب . لم يلق في الجرانج قطرة واحدة من الخمر ــ حتى اليوم الذي وظفناه فيه . كان يطبخ بمهارة ، فأصبح طباخا . وزاد ابتهاجه لدرجة السكر . وبعد اسابيع قلائل عاد للسكر ثانية ، ولكنه كان سكرانا لدرجة انه شرع في الهياج وحاول ان يطعن كل من امامه بسكين ضخم . ثم هدأ وباشر مطبخ الجرانج زهاء عام ، مؤديا عمله بصورة حسنة . وكان يشرب نادرا وقليلا . أما ما يضاف لهذا التحسن فصلحه مع زوجته التي عينّاها مساعدة بالمطبخ . فانتقلت الى الجرانج مع ابنتها الصغيرة النشيطة ، وعاشوا سعداء ــ حتى شرعا في الشجار من جديد ...

وساعدت استعادة الهدوء العائلي جوليوس المنجد ، كذلك . او ربما يجب ان اقر انني لا اعرف ما الذي ساعده تماما . عرفته منذ ستةأعوام ، في ليبوتميزو، اثناء كنت مشرفا على قسم التخفيض المدرج tapering - off . واعتقدت ان جوليوس المنجد قد شفي نهائيا . كان منجدا ماهرا ظل يمتلك حانوته الخاص حتى بدده وهجر أسرته . كان يشرب غالبا نصف جالون من الخمر القوية يوميا. ولم اكن اعرف لماذا ، ولكن منذ تاريخ حديثنا الاول لم يعد يلمس الخمر بتاتا وانخرط في العمل من الصباح الباكر حتى ساعة متأخرة من المساء . دفن نفسه في العمل . وعاد الى منزله بعد ستة شهور . وخلق ورشة جديدة من العدم ورد زوجته وابنته . وبدا كانه فخور بأسرته وعمله ، ولم يشرب قطرة . وعبر عن امتنانه بأن قام بأعمال التنجيد بشقتنا . ولم يكن لدينا أثاثا كثيرا لحسن الحظ ، والا عرضنا هذا العمل المجاني للخراب . فلقد اقتصر جوليوس على استخدام الخامات الممتازة فحسب ولم يسمح لنا أن نوفر سوستة واحدة او أوقية فحسب من شعر الخيل .

وظل يزورني لسنوات فيما بعد او يرسل الي بطاقات التهنئة . ولم يشرب. وذكر لي انه كلما قدم له اصدقاؤه النبيذ ، طالعه «وجهي الكريم» فلا يستطيع تذوق نقطة منه .

ولكن بعد فترة امتناع دامت خمس سنوات ، علمت وانا في الجرانج ان المنجد كان يشرب . يبدو ان «وجهي الكريم» قد فقد تأثيره . كتبت اليه أطلب ان يتخلى عن كل شيء ويحضر فورا . وجاء في منتصف الليل بعد يومين مترنحا من السكر . لقد وصله خطابي بعد الظهر فاستقل القطار السريع وسكر في عربة الاكل . ويجب ان اعالجه الان .

ولم يشرب المزيد . لم يترك كنبة او مقعدا في الجرانج الا وأصلحه . وضع مائتي مرتبة جديدة ثم هرع الى منزله لان الموسم قد بدأ ، وأسرته وزبائنه في انتظاره .

ربما لن يشرب لمدة خمسة اعوام اخر .

كانت هذه حالة تم شفاؤها . ويمكن اعتبار حالة ليس كوفن في عداد

الحالات التي تم شفاؤها كذلك . لقد عمل في ورشة النجارة لدينا زهاء عام ، وخلال هذه الفترة لم يسكر سوى مرة واحدة ـ ويجب ان نقول في معــرض الدفاع عنه انه سافر في ذلك اليوم ثلاثين ميلا في عربة ، خلال اكوام الثلوج . وكان مستعدا للقيام بأي عمل . كان يشتغل بصناعة توابيت الموتى ، ونظرا لاننا لم نكن بحاجة الى هذه المهنة ، فقد اتجه الى النجارة . واعتبرناه المدمن الوحيد الذي لم يكن سيكوباتيا بل مجرد سكير . كان يشرب زجاجة كبيرة من الخمــر القوية في اليوم . ولكنه لم يكن سيكوباتيا ، ولم يكن أسوأ عدو لنفسه ، ولهذا فقد اعتقدت ان العلاج بالامتناع على مدى عام كامل سوف يساعده نهائيا . ولكن من يدري ؟ لن يستطيع المرء ان يتأكد الا بعد عشرة اعوام .

وكان لدينا نجار آخر كذلك ، هو جوليوس المكتئب ، الذي علقنا عليه آمالا كبارا ، ولكننا بؤنا بالفشل المرير . لم يجئنـــا باعتباره مدمنا وانما بمـــرض «الاكتئاب الاستجابي» ، ثم اكتشفنا فيما بعد انه سكير أصيل . ولقد سبق ان ذكرت «النجار المكتئب» الذي لم يكتف بأن يجعل ورشتنا تزدهر فحسب ، بـل حلقتنا الادبية كذلك .

كان شخصية حقيقية من شخصيات العالم الـسفلي ـ فهـــو من المشتغلين بالسوق السوداء وإدارة المواخير ، ومدمن سابق على المورفين ، ومن المحتمل انه كان مقامرا وأفاقا كذلك . لم أر قط رجلا اكثر تزييفا وعنفا . ولكنه اصبــح لدينا بمثابة الشرف والمثابرة ذاتها ، لعدة شهور . وكان علينا ان نقدم له الشكر على عديد من الاصونة ، والدكك والرفوف . ولكنه علمنا ان النمر لا يتخلى عن جلده الارقط حتى في الجرانج .

لقد كان الجرانج تحت تصرفه فعلا . ائثنا له حجرة منفصلة مجاورة لورشة النجارة ونفذنا له كل طلباته . كنا نعرف ، كما يعرف هو كذلك ، انه لا يستطيع مسايرة العالم . ولكن في أستطاعته ان يعمل هنا على سجيته ، فوضعنا ورشة النجارة المجهزة جيدا تحت تصرفه . فكان يعمل للمؤسسة في الصباح ، ويعمل بعد الظهر في الطلبات الخارجية .

وتسبب الحب في انهياره . لم يقع جوليوس المكتئب في حب روزي (على الرغم من انه مر بها مرورا عابرا) وانما أحب ممرضة كبيرة ، بادلته حبا حارا عصبيا . وأرادت الطلاق من زوجها (وكان مدمنا للكحول كذلك) وأخذت تمهــد للزفاف الجديد كأنها مراهقة .

وخشيت من النتائج . فلقد كانت الممرضة تعيش حلمها الوردي متعامية عن النفس المظلمة التي وقع عليها اختيارها . وعبثا استخدمت قواي في الاقناع لاثنائها عن هذا الحب . ولم ينقذنا من الكارثة سوى عجز النجار عن اخفاء شراسته وخداعه طويلا . اعترته ثقة شديدة وشرع في الشرب والكذب . وضج المنزل من تصرفاته ، وخاف الجميع قوته البدنية الهائلة . كان عدوانيـــا سيء السمعة . ففش الجميع ، وسبب لنا الارتباك بأعماله المشبوهة ، وكان كذابا من الطـــراز

الاول لعب دور البريء بمهارة جعلت الممرضة المتدلهة لا تعرف هل تصدقني ام تصدقه . واخيرا وبعد حيرة طويلة ، عادت الممرضة لصوابها واستفاقت لنفسها. ونقلنا النجار السكير الى احد العنابر ولم نسمح له بالعودة الى حجرته الصغيرة المجاورة للورشة . فاعتراه الغضب وغادرنا وهو مغيظ . وبعد ستة شهور كتب الينا من السجن .

لقد كان فشلا ذريعا ، وكنا سعداء اذ لم يكلفنا سوى اقل الاضرار .

وظل سبنسر العجوز يباشر ورشة الاحذية في الجرانج طيلة اعوام ثلاثة ، جاءنا في سن الرابعة والاربعين ، وان بدا في الستين . كان الرجل حطاما يدعو الى الاشفاق . يكاد يكون خاليا من الاسنان ، تكسو وجهه عديد من التجاعيد ، وترتعش يداه ، ويتضح اضطرابه تماما . كان يعاني من شلل كاذب ناتج من الادمان وغدا كليلا على نحو متزايد . وكان من الصعب ان تصدق انه تزوج منذ عشر سنوات ؛ على الرغم من ان ذلك لم يكن يدعو الى الغرابة ، اذ كان وقتها في الرابعة والثلاثين من عمره . وارادت زوجته ان تطلقه بعد اشهر قلائل من الزواج لانها اكتشفت ان زوجها يشرب ويراهن على الخيول . وكان سبنسر يضرب زوجته وأولاده بالحزام ، ويحطم الاثاث ، او بعبارة اخرى ، يتصرف شأن مدمن الكحول المزمن المألوف . وكان يقاد أحيانا الى المصحة العقلية وهو فاقد الوعي بتأثير الشراب . ويقال انه كان في مناسبات اخرى يراود اصغر بناته على نفسها وهو سكران .

والغريب للغاية ؛ ان هذا الرجل ظل على نحو من الهدوء لدينا كأن على راسه الطير . كان يعمل في الورشة اليوم بطوله ، ويلبس في المساء كأي صانع عتيد ويشرب كأسا من النبيذ لم يكن يخرجه عن طوره قط . وكان يكسب مبالغ طيبة في الجوار ، فكان في مقدوره ان يشرب المزيد . ورحل الى منزله ذات مرة في اجازة . وبعد بضعة ايام وصلت من زوجته رسالة خاصة ، لقد سكر سبنسر في المنزل سكرا وحشيا ، وحطم الاشياء ، وثار وأبقي على الاسرة في حالة من الرعب. أما الاسوأ من ذلك ، فقد قام بالاستيلاء على معطفه الشتوي الذي ظلت تحافظ عليه مدة طويلة ورهنه بالتأكيد مقابل الشراب .

وحين انتهت الاجازة ، عاد سبنسر . وصل في معطفه الشتوي الانيق ، وقبعة جديدة فوق راسه ، في حالة من الوعي الكامل . باع معطفه يا لها من فكرة ! أجل ، لقد شرب بضعة كئوس من النبيذ مع الاصدقاء في المنزل ، وسكر كذلك ، لا داعي للانكار ـ ولكن هل كان ذلك سيئا على هذا النحو ؟ انه لم يؤذ احدا . لقد بالغت زوجته قليلا بالطبع ، ودائما ما تفعل .

حسنا ، كيف يستطيع المرء ان يكتشف الحقيقة ؟ ثمة علاقة غامضة بين السكر والمجتمع . لماذا كان سبنسر شديد الوداعة بيننا على حين كان وحشا في المنزل ؟ ولماذا كان وحشا في المنزل بينما كان شديد الوداعة بيننا ؟ هل كان وحشا حقا ؟ تبقى الحقيقة انه عاد في معطفه الشتوي ..

وعينًا سبنسر صانعا للاحذية بالمؤسسة . كان يشرب بانتظام ولكن نادرا ما يسكر . ولم يتسبب لنا في اية مشاكل .

وكان كوتسورفي العجوز ، الميكانيكي ، مواطنا محترما من مواطني الجرانج شأن سبنسر . كان زميل الطبيب المساعد المخلص في لعب الشطرنج . تعلّم مهنته في جراتز . وكان يفهم في اصلاح الساعات وكذا الآلات الكاتبة وكان يزاول جميع انواع اشغال الخراطة والميكانيكا . ولكن ليس على نحو طيب تماما، نظرا لان الشراب وتصلب انسجة الدماغ قد أوهنه قليلا وجعل يداه ترتجفان .

وكان قد مضى عليه عام لم يتناول فيه قطرة من الخمر ، حين طلب الافراج عنه . كان قد حصل على وظيفة في محطة للجرارات . وبعد شهور قلائل عاد سقيما مهزولا . وسمحنا له بالاستراحة ثلاثة اسابيع . فوقف على قدميه وعاد للعب الشطرنج ومزاولته أعماله الصغيرة ثم أفلح في العثور على وظيفة افضل . اصبح ميكانيكيا في مؤسسة خيرية . واذا استطاع ان يشعر بانها بمثابة مأواه حقا ، فلن يعود قط الى الشراب .

ولقد سبق ان رويت بالتفصيل قصة احد مشاهير مدمني الكحول لدينا ، الشاعر الذي كانت تنبعث منه رائحة الثوم . واحب ان أضيف هنا ان الرذيلة المهلكة تمكنت منه بعد ان أحرز نجاحا ماديا وادبيا وغدا شاعرا مرموقا ومواطنا ناجحا .

كان هناك ثمة اتهام غريب في احدى رسائله المتجنية . «لا توجد مكتبة . وانما تقرضني الخادمة احيانا بعض صفحات الجرائد بدافع الشفقة ...» لم يكن لدى هذه الخادمة اية صفحات جرائد ، ولم يكن في وسعه ان يتلقى منها كتبا من اي نوع ، ولكنه كان يتلقى منها النبيذ اذ كانت الخادمة مدمنة على الكحول كذلك .

كان اسمها مسز ليبزناي ، عاشت في المصحات العقلية احقابا كمريضة فصامية . ولكنها لم تكن فصامية ولم يسبق لها ان كانت سيكوباتية سكيرة ، غريبة الاطوار لا يمكن مضاهاتها بأحد . ولم تنجح في الحياة فاتخذت من المصحة العقلية مأوى لها . وكانت تعرف جيدا كيف تبتز بعض المزايا الصغيرة على حساب المرضى الحقيقيين .

وفعلت ذلك في الجرانج باديء الامر . والى جانب كونها لصة ، كانت تمارس الوقيعة ، وثرثارة وسكيرة . ومع هذا كانت تبدو كفاءتها واضحة ، في اي عمل يسند اليها ، كالخياطة ، والغسيل ، والخدمة ، وأعمال الحدائق ، كانت تؤدي عملها بامتياز .

وكانت مسز ليبزناي زعيمة الثرثارين التي تتدخل في كل شيء . وكان الجميع يخشونها ، وتحيق المصائب بأولئك الذين يقعون ضحايا سلاطة لسانها . وكانت تسرق من المرضى ، حتى تظل في يدها نقودا تنفقها على الشراب . وافلحنا في فضحها . وحاولت عبثا التدخل في أمور السيدة الاولى التي لم تكن تصغي الى

نميمتها واكتشفت سرقاتها .

وقد يظن المرء ان تدخلنا الصارم قد استثار المقاومة العنيفة من جانبها . ولكن لا . لقد عادت الى صوابها ، واصبحت مسز ليبزناي خير معين لنا . وحين كنا نسند اليها مباشرة التنظيف ، كانت تبرهن على اي نحو طيب تستطيع قياد المرضى الذين تشرف عليهم . كانت افضل بكثير من المراة المسئولة عن التنظيف التي استأجرناها من القرية ، والتي كانت تعتقد ان قيادة العمل تعني ان تقول للمرضى ما يصنعون ثم ترقد بقية النهار . لم تكن مسز ليبزناي تكتفي بالرقاد . لقد اصبحت عاملة ممتازة ، بعد ان ظلت طفيلية زهاء حقبتين .

وكانت اولى المريضات بالادمان التي تم تأهيلها على هذا النحو . وظلت تعمل جيدا لمدة سنوات ثلاث . واستمرت في الثرثرة وان لم تعد الى اختراع الافتراءات ، واكتفت بالابقاء على لسانها يضرب فحسب . وكانت تسلم الجزء الاعظم من مرتبها الشهري ليوضع في الادخار ، حتى لا تنفقه على الشراب . وذهبنا معها مرتين الى المدينة في جولة الشراء ، وانفقت في كل مرة ثلاثة آلاف فورنتا على الملابس الجديدة .

وكانت تذهب الى القرية المجاورة لتشرب هناك مرة في الاسبوع . وكانت تعود وقد غشي منها البصر لا تدري ماذا تقول .

ولكن الامر لم يكن بذي بال . لم تكن تضر احدا . وتبدا عملها في موعده . وبفضلها كان كل شيء في الجرانج يبرق من فرط النظافة . وبفضل الجرانج كانت تشع من فرط السعادة .

كان يوجد ثمة حوالي عشرين مريضا من مدمني الكحول حاولنا علاجهم في الجرانج ، من بينهم ثلاثة ممرضين ادمنوا الشراب . ويبدو ان هناك وظائف تفضل الشرب — او ربما يفضلها الشاربون . وهي تتضمن المرضين الرجال او خدم المصحات العقلية ، وهذا احد الاسباب التي تجعلني ازعم ان النساء افضل كممرضات . فهم نادرا ما يكونون سكيرات . لقد شاهدت مصحات كان جميع من فيها من المرضين دائما في حالة من الذهول المستمر بتأثير الكحول . وتستطيع ان تتصور بأي قدر من العناية يؤدون مهام وظائفهم ، وبأي قدر من الانسانية يعاملون اولئك الذين عهد بهم رعايتهم ، وكيف يصلحون خاصة لمزاولة علاج مع الآخرين .

ليس كل من يشرب يعتبر مدمنا على الكحول او سيكوباتيا بالطبع . ففي الجرانج ، كان البستاني ، وهامستر ، و ويندي واحد الطباخين يشربون بكميات ، بيد ان هذا كان بمثابة نوع من الشرب «الاجتماعي» فحسب . ماذا يستطيعون ان يصنعوا غير ذلك في الجرانج ، ما داموا لا تستهويهم الكتابة ، او القراءة او سماع الموسيقى ؟ انهم يتجمعون ، ويسلقون الغائبين من خلف ظهورهم بألسنتهم ، ويشربون . ولم يكن هذا امرا محليا ، او شاذا ، بل هو امر مألوف، لسوء الحظ ، تماما .

ومدمني الكحول في الغالب حرفيين مهرة . لم اتحقق من ذلك في الجرانج فحسب وانما في المصحة العقلية في ليبو تميزو كذلك حيث كان يقوم بمعظم اعمال الاصلاحات الروتينية مدمني الكحول من الميكانيكيين والكهربائيين ، والنقاشين ، والبنائين المهرة ـ الذين يستأنفون الشرب بعدئذ رغم انف العلاج المقيىء واقراص الانتابيوس . وبعد بضعة شهور من العلاج «الناضج» ، يعادون ثانية الى قسم التخفيض المدرج في احدى المستشفيات الاخرى . ويدورون في حلقة مفرغة .

وحين اتذكر ايام الفشل في ليبوتميزو ، اراني يجب ان اقرر انه برغم كل الاخفاق ، لا يزال اسلوب الجرانج اكثر نجاحا . لم يتحول السكيرون الى معادين للكحول ، ولكنهم وبرغم عودتهم للشرب ـ من آن الى آخر اصبحوا **مؤهلين للحياة** ـ على الاقل في هذه البيئة التي تحميهم . من سبعة عشر حالة خطيرة من حالات سيكوباتية ادمان الكحول الميئوس منها ، نجحنا في حمل سبعة على العمل بانتظام والشرب القليل او المنعدم لمدة تزيد عن عام . وسقط خمسة مدمنين آخرين بانتظام في حمأة الشراب ، فكنا نقف الى جوارهم في هذه الظروف ونساعدهم على التغلب على ازماتهم بالكلمة الطيبة ، او القسوة او اقراص الانتابيوس ليعودوا بعد ذلك يعملون على نحو طيب . وكان هناك خمسة من المرضى فحسب فشلنا معهم تماما ـ اثنين من الترزية ، وساقي، ونجار وشاعر.

وهذا يؤكد مرة اخرى ان السيكوباتيين المدمنين على الكحول لا يمكن شفاؤهم بالعلاج فحسب ، ولكن يجب أن يتغير **قدرهم** . فيجب خلق ظروف للحياة من اجلهم ، تجعل العلاج غير ضروري. وهذا امر صعب لاننا نتعامل هنا مع سيكوباتيين تأثرت قدراتهم الناقدة ولديهم دافع منحرف لافساد الامور على انفسهم . ويعتبر الشرب بمثابة عرض واحد فحسب ـ وهو ليس اكثر الاعراض اهمية ـ من أعراض سيكوباتيتهم المدمرة لذواتهم ، وهذا هو السبب في ان الانتابيوس والآبومورفين لا يفيدان معهم . ولا يجدي معهم المنطق والعقل ، والفهم كذلك ، نظرا لان نقيضهم الباثولوجية مضادة للعقل . يجب ان نخلق من اجلهم خليطا غريبا من المعقول وغير المعقول ، يستهدف اشعارهم بالمسئولية ، مع التغاضي مؤقتا عن تحملهم المسئولية ، وفرض النظام مع السماح ببعض التراضي ، واستبدال العشوائية بالنسق المنظم ، وتقديم الفرص العريضة لارضاء كل الاحتياجات وتمكينهم من ان يعيشوا الحياة الجماعية على نحو فردي . وأغلب الاحتمال ، ان هذا لن يتحقق ، اذا امكن تحقيقه ، الا في «مدينة السيكوباتيين» . وبينما يحب المدمنون الاندماج في مجالس القصف والشراب ، نراهم يكرهون ويحتقرون بعضهم بعضا على نحو قوي حين يتعلق الامر بالعلاقات الاجتماعية السوية . انهم عاجزون عن التوافق لا بسبب سكرهم وانما نظرا لعدم قدرتهم على معايشة الآخرين . ويتشكل بين المجانين عادة ضرب من الروح الجماعية ، بيد ان مدمني الكحول لا يتحملون هذه الروح الجماعية . انهم يكرهون غيرهم من السكيرين من اعماق

قلوبهم ، ويستطيعون ان يصفوا بألفاظ لا تصلح للنشر على اي نحو من السوء هؤلاء الاشخاص الآخرين . فلديهم حس اخلاقي ناضج بإزاء جميع من عداهم ، ولا يعرفون الرحمة ، ولا يبدون الرقة والفهم الا مع انفسهم فحسب . ويسمون مزاولتهم للشرب «بالفترة المؤسفة التي لا تستحق الذكر ، لانها آخر محاولات الافراط ، ومن بعدها يعدون الان وعدا حقيقيا ونهائيا بعدم العودة الى ذلك نهائيا ... ويؤكدون في نفس الوقت ان خلاعة زملائهم في الشراب غير اخلاقية على نحو مشين ويؤكدون لي ان وعود هؤلاء السكيرين الاوغاد لا تساوي شيئا ، وانهم سيعودون للشرب في ظرف اسبوع . انهم يعيشون جنبا الى جنب في عزلة ، يدسون ويفترون على بعضهم بعضا . بل هم على استعداد لايقاع الضرر بأنفسهم ليصيبوا الآخرين بالضرر كذلك .

انني أوصي بشدة بانشاء «مدينة السيكوباتيين» حيث يستطيع هؤلاء الناس أن يجدوا شكلا من الحياة التي تناسبهم ، وان كنت لا أعبأ بأن اكون عمدة لهذه المدينة .

***

ويفوق متعاطو المورفين مدمني الكحول في الكذب وانعدام الاخلاق وبرغم ان انعدام أخلاقهم يكون على نحو اخطر ، نجدهم يحتفظون بمظهرهم لمدة اطول . وتكون شخصية السيكوباتي السكير عادة دنيئة ومندفعة ، وقذرة غالبا . اما متعاطي المورفين فهو ، على العكس ، لطيف ، وجذاب غالبا ، ومتحضر حتى في شراسته . وينبع الفرق في اعتقادي ، من ان مدمن الكحول أقرب الى شبه الصرعي من ناحية الخلق ، بينما توجد لدى متعاطي الافيون سمات هستيرية .

من بين مدمني المورفين في القفص المموه كانت احداهما تعمل ممرضة اعتادت ان تثير ضجة ملحوظة بمسلكها الهستيري ، ولكن تم تهدئتها . ثم علمت فيما بعد انها سقطت في هوة الادمان .

وكانت الاخرى شخصية ادعى لاثارة الاهتمام ، كانت نصابة حقيقية . شرعت تمارس النصب في سن الثامنة عشر ، واصبحت الان في الخامسة والثلاثين وقد بدأ يتقدم بها العمر . واستطاعت في افضل اوقاتها ان تؤدي أعمالا مدهشة ، فكثيرا ما كانت تتظاهر بأنها طبيبة او مهندسة . اما الطف حيلها فكانت حين قامت «بتأميم» الصيدليات . حدث ذلك حين كانت الصيدليات لا تزال ملكية خاصة ، وان حدث قدر ملحوظ من التأميمات . فاعتادت ماجدا مورفينست ان تدخل الصيدليات واحدة بعد أخرى ، وتتظاهر انها موظفة رسمية (وكان لها من المظهر المعتد ما يغني عن تقديم ما يثبت شخصيتها) . وتلقي الاوامر في عزم ثم تطلب مفاتيح دولاب السموم من الصيدلي المصعوق وتأخذ المورفين وتنصرف. ولا زالت ليبوتميزو تتحدث عن احد حيلها . لقد مضت الى هناك من اجل

العلاج . ولكنها تظاهرت بأنها طبيبة ، وظلت تقوم بالاشراف على سجلات المرضى الطبية عدة شهور .

وقضت في السجن مدة طويلة وادينت ، بتهمة التجسس . وكانت تتمتع بعقلية حادة ، تحلق عاليا ، لتسقط فيما بعد . وبرغم أفكارها الذكية ، لم تكن محتالة موهوبة (المحتالون الموهوبون لا يودعون المصحات العقلية) . وانتابها التعب والوهن ، وحنت للحياة الهادئة . وحاولت اثناء اقامتها في الجرانج الزواج من سيكوباتيين مكتئبين . اغرت احدهما بأن اصبحت عشيقته ، واغرت الآخر بأن لم تصبح عشيقته ، لكن احدا منهما لم يتزوجها . وكانت تقلب ، بفضل دسائسها ، موظفي المؤسسة بعضهم على بعض ، ثم تنفض يدها من الموضوع وكانها اتت عملا مجيدا . وادعت في القرية المجاورة انها مهندسة ، وتظاهرت انها مريضة بالقولون ، لتحصل على حقنة مورفين وتسرق معطفا من وبر الجمل . كان الاسلوب الجذاب الفاتن الذي تزاول به ماجدا مورفينست احتيالها جديرا بالملاحظة . وكان من حيلها المتكررة الناضجة غالبا أن تعترف بأخطائها باكية ، وتقر نادمة انها ستبدأ حياة جديدة ، وان حياة العبث قد انقضت ، ومن الان فصاعدا لن تقول الا الحقيقة . ثم تستمر في الكذب بعدئذ بالطبع . ولكن يجب ان أعترف انها كسبت قلوبنا بشفقتها ، وتمنينا معها (او ضدها) ان تبدأ حياة جديدة حقا . ولكن أثبتت الاحداث التالية ان هذا الامل عبثا . وحتى ذلك الحين امتعت نزلاء القفص المموه ساعات عدة نظرا لانها كانت ممثلة ممتازة .

وتشبه حالة ماجدا مورفينست حالة دون ديسيت ، وبيرل كبيرة العينين ، وبقية المحتالين الهستيريين من عدة جوانب . ولا يؤدي تعاطي المخدرات الى الاحتيال ، فهذا احد اعراض سيكوباتيتها فحسب ، وان لم يكن أخطرها . اذ لم تكن ماجدا من اولئك الذين يستمتعون بالمخدر حقا . كانت ترى فيه ملاذا . وخلت لدينا من كافة الاعراض . ولم تسفر عن علائم الرغبة في المورفين . ومع هذا ، فبمجرد ان رحلت كان اول من وقع في أحابيلها طبيب مجهول ، حصلت منه على جرعة لماذا ؟ هل اشتاقت الى تأثير المخدر بهذه السرعة ؟ من الاصوب انها ارادت ان تتأكد انه اذا تم القاء القبض عليها اثناء احتيالها ، فلن يتم ارسالها الى السجن بتهمة الاحتيال او السرقة وانما الى مصحة عقلية باعتبارها مدمنة مخدرات . ووجدت جوديث سويندلر ، وهي احدى مريضاتنا ، في الجنسية المثلية ملاذا لها ، تماما كما وجدت ماجدا في المورفين . وتعتبر الجنسية المثلية في الذكور ، طبقا لقوانيننا البادية الغرابة ، جريمة يعاقب عليها ، اما بين النساء فتعتبر مرضا يستحق العلاج . ولم تكن جوديث سوينيدلر تعرف ذلك حين أغرتها — ولما تزل في سن المراهقة — امراة لواطية ومنذ ذلك الحين وحتى سن الثامنة والعشرين لم تبد اهتماما بالرجال وان تقلبت بين صديقاتها مرارا . كانت تفضل الفتيات الاكبر سنا اللواتي في مقدورهن ان يلعبن دور الام ، والاخت ، والزوج والعشيق .

لم تكن تدعوها الحاجة للبحث عن بديل لامها ، فلديها أم حقيقية عطوفة ، طيبة القلب ، ومتفهمة صنعت كل ما هو ممكن ، لعلاج ابنتها . لم تترك طبيبا عقليا في بودابست لم تأخذ اليه جوديث ، ولكن دون جدوى . ولم يكن تصادمها المستمر مع المجتمع يعود كثيرا الى جنسيتها المثلية بقدر ما هو راجع الى اكاذيبها المرضية . وسبق فصلها من مختلف المدارس والوظائف . وحوكمت في المحكمة اكثر من مرة ، وان نجحت دائما في ان تودع المصحة العقلية بدلا من السجن (من الصعب علي الفهم لماذا عولجت في هذا القدر الكبير من المصحات من الفصام . لقد اضعف العلاج الطويل بالصدمات الكهربائية ذاكرتها ، ولم يؤثر في جنسيتها المثلية او احتيالها الا قليلا . وعلى العكس زاد من عدم تحملها للمسئولية ، اذ جعلت تنحي باللوم على العلاج بالصدمات لتتذكر ما كانت ترغب في تذكره فحسب) ونادرا ما رأيت حالة ادعى منها الى اليأس . ان تفكير الفصاميين الاجتراري ليس حاجزا أصعب في التغلب عليه من جرار الاكاذيب التي كانت جوديث تتحصن خلفه . كانت امرأة عديمة الجدوى ، عاطلة وثرثارة ، تدّعي المعرفة بكل شيء على نحو افضل من اي شخص آخر . وكانت تحب وتكره بانفعال وتستطيع الانتقال من انفعال الى آخر في ثوان . وحين وصلت الى الجرانج ، وقعت من فورها في حب المرضة جولي التي كان يمكن ان تصبح امها . وسرعان ما تحول حبها المصدوم الى حقد ساخن وغيرة . وبدا ان العلاج النفسي المطول قد خلصها من شغفها بالنساء ، فأحبت ذات مرة رجلا يكبرها . على الرغم من ان الرجل لم يبادلها حبها على الاطلاق وحاول اجتنابها ، فقد تخيلت دائما انها رات «براهين» على مبادلته حبها . فالرجل يحدجها بنظرات «معينة» ، ويغمز او يقول «حسنا» بنبرة صوت غريبة ... ولم تجعل من حبها سرا بل جعلت تتكلم عنه بصراحة ، وعرضت نفسها على الرجل على نحو مكشوف . وظلت تتصرف بصورة مهذبة اشهر قلائل ، واستحالت ذات عزيمة وعاملة مجدة وبدا كأنها اوقفت الكذب . ولم تبد شغفا بالنساء . وأخيرا حصلت على وظيفة وتركت الجرانج تحدوها آمال كبار .

وتركت وظيفتها بعد يومين (وان لم تعد المقدم او ملابس العمل) ومضت صوب بودابست حيث استأنفت حياتها القديمة . فأفرغت دولاب والديها من الملابس وباعتها . وعملت في مهنة عرضا ثم لم تستقر . لا يعلم احد ما اذا كانت مستمرة في مغامراتها الجنسية المثلية ، وان استقرت على صداقة متصلة مع رجل ، تبين فيما بعد انه خنثي .

وأبصرها بستانينا مرة في معسكر صيفي . كانت محاطة بحشد كبير من الناس ، كانوا على وشك تسليمها للشرطة ، كانت قد قامت بسرقة .

وبعد غياب دام ثمانية عشر شهرا ، عادت فجاة نظرا لانها قدمت الى المحكمة بتهمة الاحتيال . كانت تأمل في حكم مخفف اذا ذهبت الى المحاكمة من مصحة عقلية . وقضت ثلاثة اشهر ثانية في الجرانج . وادت هذه الشهور الثلاثة الى

حب عاطفي آخر ، كان ناجحا . اعترفت جوديث بذلك حين فقدت بكارتها ، ولكن شريكها لم يكن متاكدا تماما . على اية حال ، مضت اللواطية السابقة تحدث الجميع عن مبلغ السعادة السماوية التي يوفرها جو مدمن الكحول . وسررت بهذا لانني تمنيت ان تنهي هذه العلاقة الغرامية جنسيتها المثلية . وكنت اقل سرورا لرؤية جوديث وقد غدت اصعب مراسا على نحو متزايد . اصبحت وقحة كثيرة المطالب ، تكذب ، وتلقي الاوامر على الممرضين ، واهملت هندامها وغدت ميالة للشجار . ولحسن الحظ سرعان ما سئمت شريكها ، فسافرت الى بودابست واستأنفت احتيالها هناك . ربما تكون قد شفيت من جنسيتها المثلية، وتبحث عن رجال يصلحن للزواج . لكنها لم تصبح اكثر حكمة او اشد امانة . (قابلتها عدة مرات بعد ذلك ، لقد شفيت من جنسيتها المثلية ، لكن بقيت السيكوباتية) .

***

في البدء احتفظ **الفتوات** بالجرانج والاماكن المجاورة في حالة من الرعب . ثم عادوا فيما بعد منفردين وقد تخلصوا مما يبعث على الرعب منهم ، حتى اصبحنا كلفين ببعضهم . لكننا لم نستطع ان نقدم الا القليل بالنسبة للخطأ الموجود في شخصيتهم على نحو ما فعلنا مع مدمني الكحول او الافاقين الهستيريين .

وكان من المعتاد فيما مضى ان يوضع كل هؤلاء الناس تحت فئة «النقص الاخلاقي» . ومهما كان العرض ، فثمة يوجد نوع من النقص الاخلاقي تحت السطح ، مصحوب غالبا بضعف عقلي خفيف .

وتوجد من بين ضعاف العقول فئة تصنف باعتبارها ضعف عقلي كاذب . وهم جهلة ولكنهم ليسوا أغبياء ، يرجع افتقارهم الى التعليم لظروف خارجة عنهم . قد يضم تاريخ حياتهم اليتم في ملجأ ، او التشرد بلا مأوى ، مشاكل الحرب او الوالدين الدائبي الشجار ، لم يتلقوا تعليما مدرسيا واصبحوا مجرمين صغار خبثاء . انهم لم يصبحوا فتوات بعد ولكنهم فتوات مبتدؤن . وقد امكن تحويل هؤلاء الذين لم ينضجوا بعد ويصبحوا فتوات حقيقيين الى رجال شرفاء في الجرانج ، لقد كانوا بحاجة فحسب الى مأوى ، والى من يحدثهم بلغة انسانية ، حتى يصبحوا ودعاء .

كان هؤلاء التعساء هم المفضلون لدى الممرضة إيما . لقد تسلمت من وقت ليس ببعيد رسالة من احدهم ، انه يسير في وظيفته على ما يرام ، وهو يؤدي الان الخدمة العسكرية ، ويشعر بالسعادة ويرغب في زيارتها في عيد الميلاد .

وكان ستيف تليجرام هو المفضل لدى السيدة الاولى التي لم تكن تبعثر حبها ، ولا يذكره والداه الا بالكلمة الطيبة .

ولم نصادف متاعب كثيرة من الفتوات الحقيقيين كذلك ، ولكن النتائج كانت

تدعو للرثاء وحين اعيد ابداعهم ، بدا كل منهم كأمير ساحر . كان جو ستمب اللطف والاجتهاد مجسمين . لا اثر لنوبات الغضب التي ابقت الدكتور العجوز في حالة من الرعب ذات مرة . ما الذي غيّره على هذا النحو ؟ لا أستطيع ان أدري . وعلى حين كان يشعر بأننا نحبه ، كان منتبها للنظام كذلك . وحين أرسلناه للعمل في احدى مزارع الدولة ، ظل يعمل على خير ما يرام بضعة شهور . ثم غدا عاملا ممتازا بأحد المناجم وسرعان ما عاود الشرب . وهو يعمل الان ثانية في احدى مزارع الدولة ، ولن يتسبب في اية مشاكل بعض الوقت .

كان هؤلاء الفتيان جميعا ضعافا قابلين للاستهواء . وبسبب ضعفهم ترددا في مسالك معوجة وكان يجب اخذهم بالحزم المتدفق ، فيكفون عن اثارة المتاعب.

وظل ميكي القزم محبوب العنبر زهاء خمسة شهور . كان جنيا صغيرا مرحا، وعاملا ممتازا ، ولاعب بنج بونج لا يبارى ، يتقافز على نحو يبعث على الغرابــة بساقيه القصيرتين مسترجعا الكرة من تحت المائدة . وسرعان ما ألقي القبض عليه ، بعد ان غادرنا ، بتهمة تزوير مستندات . وكان جوتاف هــو الذي دفعه لذلك ، ولكن جو هرب في الوقت المناسب .

وكان جو تاف نمطا للحدث المنحرف . كان والداه يكرهان بعضهما حينمــا ولد ، وسرعان ما تم طلاقهما ووضعاه في احدى المؤسســات . وفي سن العاشرة هرب الى بودابست وتسكع في الشوارع . فالتقطه لص محترف مرسه على فن السرقة . فاللصوص المدربين يستعينون بالاطفال عادة في المراقبة او دخـــول الفتحات الضيقة ، ولقد اصبحت هذه هي مهنة جوتاف وتعلم حرفة النشل وكان يفخر بأنه خبير في النشل . وسرق ذات مرة ساعة يد مخبر معروف . وكان يحتفظ بأربعة نقوش موشومة على ذراعه ، يستطيع عن طريقها ان يفتح اي قفل ذو ارقام سرية . وتعلم تزوير الاختام والوثائق (رغم جهله بالكتابة) وكان يعرف كل وسائل الاختفاء ، والنشل ، وكل سور ، وقاض ومحقق ومصحة عقلية .

واعتاد جو تاف الحياة على النشل ، والسرقة ودخول المنازل . وكان أسلوبه المعتاد ان يقف امام احد المقاهي التي يؤمها المصابين بالجنسية المثلية ، ويعقـــد تعارفا مع احدهم ، ثم يستدرجه الى الضواحي ، ويترك نفســه للعناق ثم بغتة يضرب «المنحرف» على رأســه ، ليفقد وعيه ويمكن سرقته في هدوء . وكانت هذه عملية مأمونة لان الشريك المصاب بالجنسية المثلية لا يجرؤ على الخوض فـــي الموضوع حتى اذا استطاع .

وقبض عليه بما فيه الكفاية . وأودع مدرسة اصلاحية ، وزنزانة ، وسجن، ومعسكر اعتقال ، وحجز الشرطة ، ولكن غالبا في المصحات العقلية لانه كان يمثل دائما دور ضعيف العقل المصاب بالصرع وهو دور لم يكن سهلا بالضرورة . فقد كان عليه في المرة الاخيرة ان يقنع ثلاثة اطباء بأنه مصروع وضعيف العقل . ويتطلب ذلك حرصا فائقا على الا ينسى الاكاذيب التي سبق ذكرها . ولحسن حظه ، كانت لديه ذاكرة ممتازة . اما اعظم انجازاته فكانت حين وضع الطبيب العقلي امامــه

فورنتين وستون فليارا ليعدها . فالتقط فورنتا ، وحدق فيه بتعبير يتسم بالغباء ، ثم أعاده وأعلن انه لم يسبق له رؤية شيء كهذا . وخشي ان يسخر حتى الحارس من مثل هذا الاجراء الوقح ، ولكنه استطاع ان يدخلها عليهم . وصدقه الطبيب واعطاه شهادة بذلك . (ما كنت لاصدق حرفا اذا لم تكن ثمة وثائق رسمية تثبته) .

وكانت هذه هي الطريقة التي أودع بفضلها في ليبوتميزو للمرة الخامسة . وكان التشخيص يتراوح بين الصرع او النوبات الهستيرية او الضعف العقلي .

لم يكن الامر الذي يدعو الى الدهشة أن جو تاف كان صبيا لطيفا مجتهدا، او انه لم يصب بالصرع (حتى المرضات المبتدئات في الجرانج كن يدركن انه يتظاهر) بل لانه أحب العمل . لقد احبه وتعلم كيف يحبه ، وكان يسعد بإداء اي نوع من العمل الاضافي . وكان يسر خاصة اذا استطاع ان يقود ويوجه . وان أصبح هناك ثمة محصول كاف من اغصان الصفصاف في الجرانج خلال سنوات قلائل ، فان ذلك يعود في الاساس الى جو تاف الذي قام بحفر آلاف في التربة الصلبة غير عابىء بالكالو الذي غطى راحته . فاذا اختفى مريض ، كان جو تاف لا ينثني عن تغطية القرى المحيطة ، بحثا عنه ، حتى في المساء . وامكن ائتمانه على النقود ، والدراجة ، وأي شيء . كان هناك شيء واحد لا يمكن ان يتوقع منه ــ المثابرة . كان يعمل بسرعة وبصورة طيبة ، اما اذا اعتراه الضجر ، فانه يتبدد في الهواء . واختفى من الجرانج مرات عدة ولكن لم يحدث ذلك قط دون انذار . وفي المرة الاخيرة عرفت منه انه كان في السجن .

طالما يعامل المرء هؤلاء الصبية بالحزم ، فانهم لا يسببون اية مشاكل ، ولكن حالما يبتعدون بضعة اميال قليلة ، حتى ينفلت زمامهم . انهم فعلا بحاجة الى حياة جماعية حازمة ، على نظام ماكارنكو ، واستعراضات (انهم يحبون ذلك) ومهام جديدة طيلة الوقت ــ فربما حوّلهم هذا الى مواطنين نافعين . اما في حالتهم الراهنة ، فانهم يسقطون على جانب الطريق واحدا وراء الآخر . لقد تم شنق واحد من اسوأ الفتوات الذين اقاموا في الجرانج ، وميكي القزم وجوتاف في السجن ، ويتب ذو الفم المشروم القي القبض عليه لكسره احدى الخزائن . وإدعى الجنون ثم كتب من مصحة انجيا لفوله انه يرغب في العودة الى الجرانج ، ولكننا قطعنا الامل منه ولم نكن نريد كذلك ليس هيب الذي تميز باعتباره أول رجل على وجه الارض أصفعه رغم صحته الممتازة .

فلقد اخبرني المرضون ان ليس هيب يتسلى بإجبار فرانك جوكر الضعيف العقل تماما على الركوع والصلاة على حين يصفعه ليس هيب على وجهه . وبعد فترة قصيرة قرع ليس هيب على بابي ، ودفع فرانك جوكر الى الداخل وقال :

«انهم يقولون انني أضايق هذا الغلام ... والآن قل له . هل لمستك بإصبع واحد؟ تكلم !»

وتمتم فرانك قائلا «لا» .

نهضت ، واخرجت فرانك من الحجرة وصفعت ليس هيب على وجهه .

ولم اناقش ما اذا كان هذا يتفق مع مبادئي ، او مهنتي كطبيب ومربي ، او مع «روح الجرانج» ؛ لم افكر في الامر من ناحية النظرية على الاطلاق ، ولكنني ضربته ببساطة . ليست قاسية بما فيه الكفاية ، وانا آسف اذ اقرر هذا ، اذ ليست لديّ خبرة في ضرب الناس .

كنت انا الذي تأثرت للامر منا نحن الاثنين . لقد تلقى ليس هيب عديدا من الصفعات خلال حياته لدرجة انه لم تبد عليه حتى علائم الدهشة . ومن المحتمل انه كان سيصاب بالدهش اذا لم يصفع .

ولسوء الحظ ، لم يكن لهذا العلاج اية نتائج مشجعة . اذكر انه حين ضرب ماكارنكو احد تلاميذه الوقحين ، خلق فيه ضربا من التغيير ، جعل الغلام فجأة يصبح معهد جوركي . لكن صفعتي لم تحدث مثل هذا الاثر . لقد هز ليس هيبس كتفيه ، وغادر الحجرة ، وظل وقحا على حاله .

وفيما بعد صفعت شخصا آخر . ولم تكن نتيجة ثورة غضب بل كانت صفعة ابوية لأوقف ايرما سلندر المتعددة الخطاب عن الصراخ الهستيري وانتجت اثرا . لقد كفت ايرما عن الصراخ ودخلت فيما بعد الى حجرتي لتسألني :

«قل لي يا ابي ، لماذا ضربتني ؟»

وقلت لها السبب ، ففهمت ، واصبح كل شيء على ما يرام .

ومع ذلك ، فانني افضل الا اتبنى الصفع كأسلوب .

لقد حققنا نتائج أفضل بالتأكيد مع الفتوات عن طريق المعاملة الطيبة عما اذا كنا وقحين وهذا هو الامر الطبيعي . لقد تعودوا على الوقاحة ، اما المعاملة الانسانية فانها تدهشهم وتجردهم من سلاحهم .

الفصل السادس

وجهة نظر الجرانج في الجنون

لنتحدث قليلا عن البلبلة او ما يبدو كالبلبلة التي يراها بعض الملاحظين العابرين في موضوع الطب العقلي . فثمة انطباع ان علاج العقول قطاع شديد التخلف من قطاعات علم الطب. فبينما تسير افرع الطب الاخرى على علاج تشخيصي واثيولوجي منهجي منذ زمن طويل ، لم يتفق الطب العقلي بعد على مشكلة التصنيف . ولا يتفق مشاهير اطباء العقول على تعريف المفهومات الاساسية . وثمة مدارس فكرية متعارضة لا يرغب كبار المشايعين لها في سماع شيء من وجهات نظر بعضهم بعضا . وربما يبدو الموقف في الطب العقلي مشوشا بالنسبة للملاحظ الخارجي ، وربما لا يدري كيف يحكم على المدارس المتعارضة التي تناقض او على احسن الاحوال تتجاهل بعضها بعضا .

واقع الامر ان هذه ليست بلبلة بقدر ما هي علامة صحة ، وربما صحة جيدة متكاملة . الا ان ما يجعلها تبعث على شيء من الازعاج **هو الافتقار الى اساس عام .**

ومن الصعب ايجاد مثل هذا الاساس العام . فبينما ترسي مجموعة من الباحثين ابحاثها على معطيات هستولوجية فحسب ، وتراقب اخرى التغيرات الوظيفية ، وترى ثالثة في الجينات حلا لكل المشاكل ولا تضع رابعة في الاعتبار سوى العوامل البيئية ، وتركز خامسة على الآثار البيئية في الطفولة فحسب ،

وتخضع سادسة كل شيء للاسباب الاجتماعية ، وتعزي سابعة الامراض العقلية الى الجروح النفسية ، وثامنة الى الجنس ، وتاسعة لاساليب التعلم الخاطئة ، وعاشرة الى الاجهاد او الغرائز او الهرمونات ... وفي وسع المرء بعد ان يطيل هذه القائمة .

ولكن هل يمكن تصور وجهة نظر موحدة على الاطلاق ، يستطيع المرء على اساسها تعريف مختلف الامراض العقلية بدقة ، ويصلهم في نسق ـ يسهل لنا تصنيفيا ان نميز السيكوباتية عن الذهان او الجنون والعصاب عن كليهما ـ دون ان نستبعد اثر اي من العوامل المذكورة دون ان يصبح الامر مجرد تكثيف تلفيقي؟

اعتقد ان هذا ممكن . فهناك جانب واحد يبدو انه يقدم اساسا للحكم القاطع على مختلف الامراض ، ولا يتناقض مع اي من العوامل المذكورة هذا الجانب هو **علاقة المريض بالمجتمع** .

ولا اعني «بالمجتمع» مجرد المعنى الاجتماعي للكلمة بل المجتمع في سياق العلم الطبيعي . وهو بهذا يضم النظام الاجتماعي الذي وضعه الانسان بالاضافة الى نظام الطبيعة ، اي الوجود ككل بقوانينه الطبيعية والاجتماعية . ولعله يكون من الاصوب الحديث عن علاقة «المرضى» بالعالم بدلا من علاقة «المرضى» بالمجتمع ـ ونعني بالعالم ، العالم المنظم لا مجرد «عالم» هلامي .

وكما ان الكلمات « اخلاقي » و « غير اخلاقي » و « مذنب » و « موهوب » و «جميل» لا يمكن فهم معناها الا في علاقتها بالمجتمع ، يصدق الشيء نفسه كذلك على كلمة «مريض» . فاذا كان لدى جميع الناس ثلاثة ملايين خلية دم ، لما اعتبر الامر أنيميا ، واذا كان لدى جميع الناس مائتي مليجرام من السكر في الديسيلتر الواحد من الدم ، لما اعتبر الامر مرضا بالسكر . واذا استطاع كل انسان ان يرى اشياء ليس لها وجود ، فلن يكون هناك ثمة هلاوس . واذا اقتنع كل شخص ان الشيطان يعربد داخله ، او ان جميع المخلوقات الانسانية تضطهده، فسوف يعتبر ذلك بمثابة خطأ وليس هذيانا مرضيا . لقد ظل بلايين الاشخاص يعتقدون عدة آلاف من السنين ان الارض مركز الكون ، وان الشمس تدور حول الارض ـ خطأ وليس هذيانا . وثمة العديد من المعتقدات الدينية والخرافية التي تناظر اشد الهذاءات خلطا . وربما يأتي يوم يعتبر فيه الشخص الذي يعتقد في الحياة الاخرى ، وفي الجنة والجحيم ، وفي الملائكة والشيطان بمثابة شخص غير سوي . ومع هذا فلا زال ملايين البشر في يومنا هذا يؤمنون بذلك ولا يعتبرون مجانين وانما متدينين . بل حتى من يؤمن بالارواح والاشباح في يومنا هذا لا يزال يعتبر سويا على نحو او آخر برغم سخف معتقده .

لا يمكن فهم ما يجعل الشخص المجنون مجنونا اذن الا في علاقته بالمجتمع. فهناك ثمة تنظيم اجتماعي حقيقي على نحو يزيد او ينقص تتقبله أغلبية الناس العقلاء كحقيقة واقعة . وربما يرى الشخص المستنير الحمق في عدد من وجهات النظر الخاطئة ، وربما يكون اشد ذكاء عن سائر الناس ، ولكنه لا يصبح اكثر

سوءا . ان جوهر الذهان ان **الشخص** المجنون يتخطى المجتمع الحقيقي ، ويخلق مجتمعا وهميا وكذلك طبيعة وهمية لنفسه ، ذات قوانين ذاتية ، وإحساسات غريبة ، ومنطاق مفلوت . انه لا يعير قوانين الطبيعة والمجتمع التفاتا ، كما لو كانت غير ذات شأن عنده . ويتجاهل اساليب التفكير السوية المتعارف عليها وكذا قوانين المنطق التي تسودنا . انه يخلف الحقيقة وراءه الى عالم من خلقه الخاص، يعيش فيه وحيدا في نفس الوقت الذي لا يستطيع ان يفهم لماذا لا يتفهم الآخرون عالمه .

وعلى نحو اساسي ، وان لم يكن بشكل واع ،يعتبر المجنون جميع الناس مجانين حين يفشلون في رؤية ما يبدو أمامه في منتهى الوضوح .

كتب توماس مان في «دكتور فاوست» يقول : «يعلم الجميع ان المجنون لا يخشى تخيلاته وانما يستمتع بها ..» وهذا يعني ان **المجنون يشعر بالالفة في عالم جنونه** ، على الرغم من انه يعاني منه . هذا هو المجنون اذن . انه النغمة الطبيعية التي يتحدث بها جوزيف (الحارس) عن حيلته السابقة ، او سلف كوند فنج فرانك عن موته الاول او هيلين (المؤمنة) عما قاله لها يسوع المسيح حين كانت تقوم بالتنظيف او أولجا جوسيب عن الاطفال المرضى بالتيفوس في قريتها ، والطريقة التي «تبينت» بها ماري كاموميل في عظام الكلاب طفل زوج أختها المقتول او تأكد أيمري زيتر من ان زوجته قد خانته مع ابنه ، او اعتقاد جوزيف بربريتور بأن المستشفى تؤول اليه ، بالبنادق الستة والثلاثين ، او على النحو الذي امسك به كوتزا العجوز بالطبيب في يمناه وزوجته في يسراه ، وكما كان فرانسيس جامون يعاني من ان الدم المتعفن في فخذه ، وتقفز جنيات آندرو سافوكيتور حوله في حذائه ، وكما اخترع الماجور سفينة طائرة للسلام العالمي ، وشعر تاتي العجوز بانه تحت تأثير الاشعاع ، ولم يصدق ايرنست دوبل ان زوجته قد طلقته ، وآمن بيتر العاشر انه ستالين ، ووهب ايوجين ميكانيك جسده للسفارة السويسرية ، واليقين الذي علم عنه جوليوس رددنوي ان الجنود الامريكيين يعسكرون في الجوان ، وأدرك جس ليبينكاي ان الصحون عندنا أصغر عنها في اي مكان آخر ، بينما تأكد اليكس الاسكافي ان دمه قد تم استبداله ، وتأكدت القديسة آجنيس انها اختيرت من قبل الرب ، وصلى المدرس لها جاثيا على ركبتيه ... **كل هذا** جنون ، عندما يتخطى المريض المجتمع الحقيقي ويخلق لنفسه عالما ، وقوانين ومنطقا وهميا . ويبني عالمه الوهمي من قصاصات ونتف الحقيقة . من الجلي انه لا يفهمنا ــ ومن الطبيعي كذلك الا نفهمه .

ويتضح هذا الوجود فيما وراء القانون بجلاء في الفصام ــ خيرة انواع الجنون . وثمة في مهنتنا مصطلح نادر الاستخدام يعبر عن هذه الحالة بوضوح هو التغريب Dereism . وتعني هذه الكلمة الغريبة الاغتراب عن ال Res .. اي الشيء . فالفصامي يصبح خارج «امورنا» . ونادرا ما يلاحظ التغريب في المرحلة الاولى ، مرحلة الانهباط المرضي ، فهو ليس جنونا بعد ، ولكنما مجرد

تمهيد له . ولكن يصبح الانفصال ، والتعارض ملحوظا بوضوح في مرحلة الهجاس ، وكلما زاد التفكير الاجتراري تميزا ، كلما تشكلت النظرة المستقلة للطبيعة ، بمنطقها الغريب وفلسفتها . ويستتبع الخواء الانفعالي «الجنون» ذو «النسق» الذي يتزايد فهمه صعوبة . ويعتبر الجمود الكتاتوني بمثابة معارضة ساخرة عنيدة للمجتمع ، ربما تزيد الى درجة السبات والبكم ، ورفض الطعام. واخيرا ، حين تصل مرحلة البلادة الهادئة ، العته ، يبدأ المريض عندئذ فحسب في عقد السلام مع المجتمع ببطء ، وبالقدر الذي يسمح عقله الغبي .

ويتقبل الفصامي حقيقة كونه يعيش في عالم منفصل ، ومن هنا تنبع عدم مبالاته . وهو ، على عكس الهجاس : الذي يفتقد هذا التقبل . انه يبني نسقا هذائيا وهميا ويجاهد طيلة حياته كي يجعل الناس الاسوياء «المجانين» يفهمونه . ولما كان لا ينجح في ذلك ، فانه يشعر بالمزيد من الشعور الصادم ، الامر الذي يتلاءم مع نسقه ويزيد من حدة ميله لعزو كل الامور الى شخصه . فبالنسبة اليه لا يوجد شيء في المجتمع سوى نسق هذاءاته . انه يتحاشى كافة الاشياء التي لا تدخل في اطاره .

اما اليأس المرير لدى المريض بالسواد فأمره يختلف . انه يصبح ايضا مغتربا عن العالم الواقعي . فلا يستطيع تقبل ذلك ، ولكنه لا يصارع كذلك من اجل عالمه الخاص . ولذلك يظل يشكو ، مكررا اتهاماته المرضية للمجتمع ، الذي لا يستطيع العودة اليه ، ولنفسه ، التي لا يستطيع ان يغفر لها انها أوصلته الى هذه العزلة .

***

اما **السيكوباتية** فأمرها مختلف .

ان الشخص المجنون لا يعرف او لا يتعرف على العالم الواقعي . أما السيكوباتي فانه يعرفه ويتعرف عليه وان كان يعجز عن التلاؤم معه . **ان السيكوباتية بمثابة ثورة على الواقع او هروب منه .**

ويجب ان ندرك ان الشخص المجنون لا يعرف ما هو الواقع ، على حين يعرفه السيكوباتي لكنه ينبذه . نظرا لانه اما راغب في شيء آخر ، او محب للواقع لكنه لا يستطيع مجاراته .

وهذه حالة أشد ايلاما ، من جوانب عدة ، عن الجنون . واذا كنا نتفق مع توماس مان على ان المجنون يستمتع ، الا انه لا يسعنا ان نقول الشيء نفسه عن السيكوباتي . ان الاسم في حد ذاته يدل على انه يعاني من العذاب العقلي .

وهناك مجموعة من السيكوباتيين لا يمكن ادراجهم في تصنيف المرضى والاصدق ، ان هناك ثمة مجموعات ثلاث على هذا النحو . ينضوي تحت الاولى أولئك الذين يتقبلون العالم كما هو لكنهم عاجزون عن المشاركة الكلية في الصراع

من اجل الحياة او عن ملاحظة قوانينه ملاحظة حقة . فهم عاجزون عن الصمود لمطالب المجتمع . وهؤلاء هم الهروبيون ، الذين ينتحون جانبا ، وتنشرخ حياتهم جزأين - ونعني بهم السيكاثينيين الضعاف . اما اعضاء المجموعة الثانية فهم اقوى قليلا ، انهم يدركون انهم غير معدين لنمط الحياة المألوف ، ولكنهم يدركون كذلك انه ليس في مقدورهم الحياة وفقا لقوانينهم الخاصة كلية . ولذلك يتخذون حلا وسطا : يصبحون غريبي الاطوار وفرديين ، يتحاشون الناس ويتسمون بالعناد ، ولكنهم يعرفون الحدود التي لا ينبغي لهم تخطيها . اما الثالثة فمجموعة نشطة كذلك ، اذ تضم أولئك الذين يرفضون الاستسلام العالم كما هو بل يحاولون تشكيله عنوة وعن طريق القوة وفقا لمطالبهم الخاصة او تصورهم الخاص . او أولئك الذين يريدون ببساطة ان يتحكموا فيه . وهؤلاء هم **الطغاة** ، والظلمة ، والفتوات ، والذين يعينون من انفسهم مصلحين ، والمعاندين المقهورين ، ودائبي الشجار ، ومحترفي التقاضي ، والمخربون . وجوهر هذه الانماط الثلاثة هو انهم لا يستطيعون - ولا يريدون على نحو جزئي - ان يتوافقوا مع الواقع .

ومن هنا تبدأ اولى الخطوات الى عالم المرضى الحقيقيين .فحين يستحيل سوء التوافق الى قصور عقلي ، لا تصبح السيكوباتية مجرد مشكلة اجتماعية بل تتحول الى مشكلة باثولوجية ، الى مرض يجب ان يعالج . وهناك سيكوباتيون يظلون يعانون من القصور الذاتي طيلة حياتهم (مثل نك المهندس او انتوني التقي) وان كان اغلبهم يعيشون حياتهم على الحافة الرفيعة لعدم القدرة ، يرقدون في أسرة المستشفيات فترات طويلة ، ثم يشرعون في التعثر ، وهم لا زالوا على نحو هش ، في العالم الخارجي (معظم رواد مصحات «الامراض المصبية» من هـذا النـوع) .

ولكي يستطيعوا شق طريقهم على نحو اكثر سهولة في خضم السيكوباتية ، ابتكر أطباء العقول كلمة «شبه» التي تعني ان المريض لا يعاني من المرض بل من شيء شبيه به . فالسيكوباتية شبه الهجاسية مثلا ليست هجاسا ولكنها شيء شبيه به ، ينبني على ثنائية قوامها التقييم المبالغ فيهللذات والشك. والسيكوباتية شبه الفصامية غير الفصام وان شابه المريض نظيره الفصامي . ويختلف السيكوباتيون عن الفصاميين في علاقتهم بالمجتمع . فالهجاسيين والفصاميين قد أسقطوا من المجتمع ، لكن السيكوباتيين شبه الهجاسيين وشبه الفصاميين يتعلقون خارجه فحسب .

وهناك ثلاثة امراض لا يزال تصنيفها في الطب العقلي محاطا ببلبلة عظمى . تلك هي **الهستيريا والنورستانيا والصرع** . فأحيانا ندخلهم تحت عنوان الامراض العقلية ، واحيانا تحت الامراض العصبية . وتقول احدى النظريات ان الهستيريا جزء من العصاب ، وتزعم اخرى ان العصاب عرض هستيري . ولا يعتبر البعض ان الهستيريا مرض على الاطلاق وانما هي مجرد «نمط من الاستجابة» او «استجابة

بدائية» ، ومرحلة ادنى من التطور . ويمكن وضع الهستيريا والنورستانيا تحت العنوان العام للامراض «الوظيفية» نظرا لعدم ارتباطهما باي تغير عضوي يطرأ على الدماغ ، ولكن ماذا عن الصرع الذي يتشابه مع الهستيريا من عدة جوانب ، ولكنه يتضمن تغيرا عضويا في الجهاز العصبي ؟ وتنشأ الصعوبة من ان الصرع يكون احيانا فطريا واحيانا مكتسبا . بل انه حتى النورستانيا ، برغم طبيعتها «البنائية» تتخلى احيانا عن حذرها كي تظهر دون توقع لدى البالغين ، كأنما هي نتيجة اجهاد عقلي عصبي (توتر عصبي) .

وفي اعتقادي انه اذا صورنا هذه الامراض في علاقاتها بالمجتمع لوجدنا انها تنتمي بلا شك الى السيكوباتية . اذ ان محكات السيكوباتية تصدق عليها جميعا فهي تمرد على الواقع ، في صورة ايجابية او سلبية او الهستيريا ثورة ايجابية ، والنورستانيا هروب سلبي ، ويتضمن الصرع كلا من التمرد الايجابي والطفيلية السلبية .

وربما كان من الأوجب ان تطلق على هذه الحالة اسم الخصومة بدلا من الثورة . فالمريض بالهستيريا كثير المطالب قليل الطاعة ، ناقص النضج ومعرض عن تقبل الحقائق ، كالطفل الصغير الذي يخبط برجليه دون رادع . وهو احتجاج مجنون وعنيد ، نوبة غضب ، «عاصفة من الحركة» المستمدة ، وطوفان . من الهبّات الانفعالية المنطلقة . وتتم استجابات المرضى الهستيريين الذين لا تثيرهم التوافه على نحو من الاعلاء ، انها تتضمن كل ما هو غريب في الهستيريا ، ولكن بصورة مختلفة . فيغمي على المريض او يصاب بالشلل او «بنوبة قلبية» او يخلع فكه او تعتريه نوبات مثل المصابين بالصرع . ويكون المرض بمثابة احتجاج وخصومة وعجز عن التوافق ، والتعاون او رفض للصعاب ، وطوفان من الانفعالات التي تتغلب وتخنق الذكاء ــ مؤقتا على الاقل . ويكون الاطار البيولوجي لهذه العملية على النحو التالي . تتغلب المراكز العصبية البدائية تحت اللحائية مؤقتا على وظائف اللحاء الناضجة الراشدة ، العاقلة ، المنطقية . وليس امام الوظائف الانفعالية البيولوجية الاشد قدما (الحيوانية او القبل انسانية تماما) ، ذات الرغبة المنطلقة ، والارادة غير المنطقية سوى سلاحين في مواجهة صعوبات الحياة الانسانية : التمرد والهروب . ويكون هذا الميكانزم تحت اللحائي معاديا للمجتمع ، فهو متمرد ، عنيف ، يرفض النظام ، وهذا ما يجعل الحالة الهستيرية تثور او يعتريها الاكتئاب . وهذا يفسر لماذا يكون المرضى بالهستيريا جد مختلفين حين لا تعتريهم النوبة . كانت الزي (الصياحة) تكتب الشعر وتقرأ «فاوست» ــ ثم تسب العالم في لغة بالغة البذاءة وتتمرغ على الارض كخنزير . وغمرتنا جودي ديوك جميعا بحبها ، واشتغلت بجد ، دون اي مقابل . ثم هربت من المستشفى ووهبت نفسها لاول شخص التقت به مقابل كأس من النبيذ . وكانت الفيرا (عرس المساء) الخجل والحياء متجسدين ــ ولكنها كانت تطالب اثناء النوبة بليلة زفاف وتحاكي حركات الجماع وهي غائبة عن الوعي . وكانت بيرل كبيرة العينين

وديعة ومتواضعة كراهبة ، ولكنها كانت تتصملك كفجرية اثناء النوبة . وكانت ايرنا الصارخة متعلمة وطموحة ، وكانت مدرّسة متحمسة لاهل قريتها البسطاء، ولكن حين تعتريها النوبة ، تصرخ ، وتضرب الارض بقدميها ، وتلقي بنفسها على الارض ، وتحطم الاواني وتتشاجر مع زوجها .

ومن الطريف ان نلاحظ كيف يتم تفسير هذه الثنائية من الوجهة الفسيولوجية والبيولوجية والسيكولوجية . فيتمسك علماء الفسيولوجيا بأن الاجزاء تحت اللحائية الاكثر بدائية تهزم ميكانزمات اللحاء الاكثر تطورا . ويرى علماء البيولوجيا ان الغرائز تتغلب على العقل . ويقول علماء النفس ان اللاشعور يسيطر على الشعور . وتشير العبارات الثلاثة الى نفس الظاهرة ـ فهناك وراء المعقول والشعوري ، واللحائي ، يوجد ثمة دافع قديم حيواني ، غير معقول تتسبب الهستيريا عن اندلاعه .

وربما يعتبر الشكل الآخر من الهستيريا بمثابة هروب ، اذا قارنّاه بالخصومة الايجابية للمجموعة المتمردة . هذا هو السقوط في هاوية الاكتئاب الغائم ، و«الهروب الى المرض» ، الذي يسبب أمراضا فيزيقية شتى ، من الطفح الجلدي حتى الشلل . ودائما ما اعترتنا الدهشة للطريقة الملائمة التي تسنى بها لدنيس القافز في البئر او الزي الصياحة ان يتناسيا ببساطة كل ّما لا يحسن تذكره . ولكن اظهرت هذه الحالات بجلاء مبلغ ما تتضمنه هذه السلبية الواضحة من عدوانية . فعلى سبيل المثال ظل دنيس القافز في البئر في حالة من الذهول حتى زال خطر التجنيد ، وابقت جولي المرضعة على طفحها الجلدي ، ومسز لويبرلام على عجزها عن النهوض والسير ، ومسز ايوجين كوي على التهاب مثانتها ، وتعاطوا علاجات متخصصة لعدة شهور او ربما عدة سنوات ، وبفضل مرضهم فحسب خفف المجتمع المشفق عليهم من مطالبه وقدم لهم شتى التنازلات .

ولست استطيع مسايرة الرأي العام ـ الرأي الطبي بخاصة ـ الذي يعتقد ان الاستجابات الهستيرية تستهدف تحقيق غرض معين . ولا يجب ترجمة هذا الهدف باعتباره هدفا مباشرا بالمعنى الدقيق للكلمة . لقد كان الهدف في حالة دنيس القافز في البئر واضحا وقريبا نسبيا ، ومع هذا ظل سبب اضطراره للهرب من الخطوبة بالقفز في البئر غامضا . لكن الاعراض الخطيرة لدى ارنا الصارخة او دون ديسيت افتقرت تماما الى اي هدف واضح ، ناهيك عن الغيرا عرس المساء التي استسلمت لصرع كاذب مستمر وعاشت بمعزل عن العمل او الحياة المرحة . لماذا ؟ لتحصل على زوج ثم تنبذه ؟ لقد كان في مقدورها ان تتحصل عليه وان تتخلص منه كذلك بأقل التكلفة . وابلت مسز ايوجين كوي نفسها بالتهاب المثانة الذي استمرت تعانيه لمدة عشرة أعوام بالاضافة الى عديد من الشكايات الاخرى لأن زوجها كان اكثر اهتماما بعمله عن اهتمامه بها . أليست الجريمة والعقاب غير متناسبين هنا قليلا ؟ ولقد كان من الممكن احيانا اكتشاف الغرض المباشر وراء التصرفات المرعبة لارنا الصارخة ، وان لم يفسر ذلك

شخصيتها السيكوباتية الكلية .

بل على النقيض . لقد كانت الشخصية السيكوباتية هي التي فسرت الغرض على نحو او آخر . وتعتبر السيكوباتية الهستيرية بمثابة ضعف في الجهاز العصبي ، تتحرر فيه أشد اجزاء العقل بدائية من آسار «الكف اللحائي» ، وتغدو عاجزة عن الاستجابات المتساوية مع الاهداف والاسباب ، بل تعذب ضحيتها بإستجابات متطرفة كالتمرد او الخصومة او الهروبية المشوشة .

ويكون الموقف متشابها في حالة الطموح والاستعراضية . ففي بعض حالات الهستيريا تتضح بجلاء الحاجة الى المشاركة ، او الاستعراض بأي ثمن . ولقد ملت فترة الى تفسير الهستيريا باعتبارها زيادة في غريزة الاستعراض . الا ان هذا التفسير يبدو شديد الآلية وشديد التبسيط حقيقة يصبح من الاهمية بمكان للمريض في اغلب حالات الهستيريا ان يكون مركزا للانتباه ، ومحطا للانظار ، وأن يبدو اكثر او مختلفا عن حقيقته (وهذا هو المصدر ـ جزئيا على الاقل ـ لقدرتهم الخيالية على ابتكار الاكاذيب) ولكن لا يوجد بين المرضى الذين وصفت حالاتهم هنا، ابتداء من مارجريت البكماء حتى ايرنا الصارخة ، من يمكن تفسير شخصيته بهذا العامل الوحيد . واذا تقبلنا هذا التفسير المبسط لكان حكمنا متأثرا بالبريق المزيف لنساء «المجتمع» الهستيريات .

ولا يعني هذا خلو الهستيريا من التمثيل . فهو متوفر في معظم الحالات . ولكنه يعتبر بمثابة سمة مميزة لا تفسيرا للمرض .

ويجب ان نذكر شيئا عن العرض «شبه العضوي» ، عن هذين النقيضين المعروفين في العلوم الطبية باسم **العضوي والوظيفي** . ويطلق على الاعراض الوظيفية اسم الاعراض النفسية المنشأ كذلك ، وهذا يعني انها أعراض لا تصاحبها تغيرات عضوية وان أسبابها نفسية . وهكذا تعتبر الهستيريا اضطرابا «وظيفيا» او «نفسي المنشأ» ، حتى اذا صاحبتها اعراض «شبه عضوية» ـ كالشلل او العمى ، او الربو او الطفح الهستيري ـ فهذه لا تعتبر أمراضا عضوية حقيقية ولكنها تصنف في فئة «الامراض المتخيلة» .

بيد ان التعريف ليس صحيحا تماما . فلا يمكن أقامة مثل هذا التمييز القاطع بين العضوي والوظيفي بالنسبة لاعراض الجهاز العصبي . فقد تكون الاعراض العضوية الخطيرة ذاتاصل نفسي المنشأ ومع هذا تتطلب تدخلا جراحيا. بل قد تكون مهلكة . ويكفي ان نذكر أمراض القلب النفسية المنشأ ، واضطرابات الدورة الدموية ، والتوتر الزائد ، وانفجار الشرايين ، وقرحة المعدة والإثني عشر، « والاضطرابات المعدية المصبية » ، والنزيف المعدي ، وأمراض القولون . والالتهابات الجلدية المختلفة او «الربو العصبي» ، وبعض اضطرابات الحيض . ومن الخطأ القاتل محاولة الفصل بين الجوانب النفسية المنشأ والجوانب العضوية لهذه الامراض . فالمرض النفسي المنشأ يكون عضويا في نفس الوقت ، تصاحبه تغيرات تشريحية محددة . ومن ناحية أخرى يمكن احداث اثر فعال بالنسبة

للاعراض العضوية غير النفسية المنشأ ، كالتهتكات التشريحية الخطرة ، عن طريق علم النفس . ان الشفاء بما يشبه المعجزة لقروح المعدة الخطرة ، وامراض القلب ، والحموضة والنزيف المعدي المزمن في ظروف سيكلوجية مغايرة ــ اثناء الحرب أو خلال الخدمة العسكرية مثلا من الامور المعروفة تماما . ومن الامور المعروفة كذلك ظهور اضطرابات الحيض المتزايدة أو حالات زيادة افراز الثيروبد اثناء الحرب أو في السجن . ان النوبات القلبية أو انفجار الشرايين الذي تسببه الصدمات العقلية من الامور الشائعة في الادب ، كما تؤدي اسباب مشابهة الى الصرع «الحقيقي» كحالة (دستويفسكي !) . ولقد شاهدنا حالات «ربو عصبي» ذات أسباب سيكلوجية ظلت لعدة سنوات تسفر عن أقسى أعراض«الربو الرئوي» الموضوعية والمعملية . وفي وسع الذين لا يؤمنون بالمجزات أن يفسروا معجزات الشفاء التي تتم على يد الاولياء والقديسين على نحو لا يخرج عن كونها نتيجة تأثير النفس على الكائن .

ولا يعتبر تقسيم فئات الجنون الى عضوية وغير عضوية اكثر حظا من سابقه. فالفصام ، مثلا ، يعتبر من الامراض العضوية لانه يؤدي في مرحلة من مراحله المتقدمة الى اصابات في خلايا الدماغ . وان لم يمكن حتى الآن تقصي مثل هذه الآثار في حالة الهستيريا . لكن من يستطيع أن يخبرنا بمن جاء أولا ، الدجاجة ام البيضة ؟ هل تؤدي الاصابة في خلية الدماغ الى حدوث الاعراض العقلية ، أم هل تدمر الاعراض العقلية الخلايا ؟ ومن المعلوم للجميع أن اصابات الخلايا تحدث تغيرا في الوظيفة ، ولكن الا يؤدي التغير في الوظيفة كذلك الى استجابة في الخلية ؟ الذي لا شك فيه ، أن الفصام يعتبر مرضا وظيفيا في مراحله الاولى ، تضطرب فيه فحسب وظيفة الخلايا لا تكوينها المورفولوجي ، وهو أمر يؤكده الشفاء الكامل الذي لا يصبح ممكنا فيما لو سبق تدمير خلايا الدماغ . لقد شفي فيكتور وايتر تماما ، على سبيل المثال ، بعد فترة اسابيع ثلاثة ظل خلالها يهلوس، ويصارع هذاءاته، ويسر الى نفسه بامور غامضة ويكتب خطابات مضطربة لراكوزي بينما كان الطبيب يسجل تداعياته الطليقة المختلطة بالاختزال ، كشاهد نمطي على اضطرابه . هل من المتصور ان يتمكن الجهاز العصبي الذي يجدد خلاياه المدمرة بمنتهى البطء أن يجددها خلال ثلاثة اسابيع ؟ هذا أمر بعيد الاحتمال . ولكن لو ان فيكتور واتر قد انزلق للفصام مرات قليلة أخرى لظهرت الاصابات في الخلايا ولغدا الشفاء الكامل مستحيلا .

هل يجب اعتبار الهذاءات والهلاوس بمثابة اعراض عضوية ام وظيفية ؟ أعتقد انها لا عضوية ، كما هو الحال بالنسبة للشلل او النوبات ، ووظيفية في نفس الوقت نظرا لان وظائف الكائن أساسا هي التي تصاب بالمرض. والكائن وحده دينامية من جسد وعقل لا يمكن تجزئته الى عضوي ووظيفي . فلا يوجد جسم حي بدون عقل، وبدون الجسد لا يوجد العقل. فهذان الاثنان ليسا سوى واحد .

***

ومن الجلي تماما ان **النورستانيا** كذلك تنتمي الى عائلة السيكوباتية لا الى العصاب . فجوهر النورستانيا هو الهرب من الواقع . ولا تتضح العلاقة الوثيقة بين المرض والظروف الاجتماعية على نحو بين مما توجد هنا ، فالنورستانيا عبارة عن ضعف في الجهاز العصبي في صدامه مع مطالب المجتمع المتعددة الجوانب .

والمريض بالنورستانيا لا يثور ، او يعارض ، او يشق طريقه الخاص ، وليست لديه الرغبة في الظهور على نحو متزايد او مختلف . انه ينهار ببساطة ويعرض عن الصراع ، كمدرسة الكمان التي كانت تحب القساوسة .

ويسفر الجهاز العصبي عن استجابتين غريبتين يكونان الخلفية الفسيولوجية للنورستانيا . التوتر المتزايد والانهاك المتزايد . وتتميز (مجموعة اعراض القلق) بالاستجابات المتزايدة ، وشدة حساسية الحواس والجلد ، والاحساس بالاحباط، وزيادة وظيفة الجهاز العصبي السمبتاوي ، والاستجابات الانفعالية العنيفة والمندفعة ، والعدوانية المتراكمة ، والقابلية الشديدة للايحاء وان كانت قصيرة ، والاستثارة والنوم الخفيف ، والاستيقاظ السريع وما اشبه . وتتضمن «مجموعة اعراض الانهاك» التعب ، والاحساس المستمر بالانهاك، والتعب السريع ، والكميات البطيئة وغير الكافية من العافية ، والافتقار الى المداومة ، والنعاس ـ المصحوب غالبا بالنوم المضطرب والاحساس الذاتي بأن الشخص لم يأخذ كفايته من النوم الذي يزيد من الشعور بالتعب والشعور بعدم الكفاية ، والطفيلية ، المزاج المكتئب، وافتقاد العزيمة الى العمل ، وعدم القدرة على الاصغاء ، وثغرات الذاكرة ، وعدم القدرة على التعلم ، ومشاعر الدونية ، والخوف والقلق ، والكف العصابي ، الحساسية المتوهمة للامراض ، وتقلب المزاج . ولما كانت القدرات العقلية لا تقل، بل على العكس ، تتزايد عادة ، في اللحظات التي يحرر المريض نفسه من قيود عجزه ، نجد المريض يضع لنفسه خططا متحمسة وطموحة ، ولكن سرعان ما تنتهي هذه اللحظات الصحية النسبية . ويصاحب المرض على الدوام شعور بعدم الكفاءة ازاء اعباء المجتمع ، تحرك في نفس المريض انفعالات مختلطة من الغضب ، والغيرة ، واليأس والحسد ، وهذا ما يؤدي ببعض مرضى النورستانيا الى اناس يوزعون اتهامات الهجاسية .

***

ويقسم الطب العقلي الصرع الى نمطين . فطري ومكتسب . وهو تقسيم غير صحيح او مفيد ، بل هو بالاحرى مضلل ومشوش . ولا جدوى كذلك من الجدل حول الى اي مدى يكون الصرع عضويا والى اي مدى يكون وظيفيا . ولعله من المفيد ، من ناحية أخرى ، ان نقرر في النهاية ان الصرع ليس ذهانا وليس «مرضا عصبيا» بل هو ضرب من السيكوباتية وان نوضح ان السمة الجوهرية في الصرع ليست الاصابة بالنوبة بل بناء الشخصية .

ولهذا كان بيتر مارتير ـ الذي يجسد السيكوباتية الصرعية ـ متقلبا ، وعدوانيا ومتدينا على نحو منافق ، وفي نفس الوقت صعب الارضاء ، وطفيلي كثير الشكوى . ولا بد أن ينضوي تحت هذه المجموعة حتى لو لم تعتوره النوبات، شأنه شأن انتوني المتظاهر بالتقوى او بيلا لوكيمست الطفيلي الواضح . وتعتبر النوبة في حد ذاتها بمثابة خفض لعتبة التوتر العصبي . ويثور سؤال لماذا تكون عتبة التوتر العصبي لدى السيكوباتيين الطفيليين ذوي الانفعالات المرائية فحسب اقل دائما من المعدل . والاجابة على هذا السؤال ليست معروفة ، ولكننا الفنا هذا الصراع الغريب بين قابيل وهابيل ، بين الحب والكراهية الذي يؤدي الى السخط والتمرد في العلاقات الاجتماعية (والعدوان والجريمة) من ناحية والى الهرب (الطفيلية والشكاوي المتوهمة من المرض) من ناحية أخرى .

قال كاتيولس :

انني احب واكره . ربما تعجب لماذا ؟ انا لا اعرف ، فأنا اشعر هكذا ، وانا اتعذب لحزني على ما افعله .

هذه هي السيكوباتية الصرعية . وتكون مشوبة بعديد من السمات الهستيرية، والنورستانية والهجاسية نظرا لانها تنتمي الى العائلة السيكوباتية الكبيرة .

والعصاب أمر جد مختلف . فهو ليس ذهانا ولا سيكوباتية ، بالرغم من انه يكون مظهرا لكليهما . وقد يطلق عليه اسم «الاضطراب العصبي» اذا لم يسبب الخلط بينه وبين الامراض العصبية المضوية لبسا كبيرا .

ويعتبر العصاب بمثابة حلية دفاعية خاطئة ازاء مخاوف غير معقولة .

وحين نضع الزاوية الاجتماعية في الاعتبار نجد أنه بينما لا يدرك الشخص المجنون حقيقة العالم ، ويدركها السيكوباتي ولكنه لا يستطيع التعامل معها ويخاف بالتالي من الحياة ، نجد أن العصابي يدرك الواقع ولا يخشاه ـ ولكنه يخشى أشياء غير واقعية .

والخوف في حد ذاته ليس عصابا . ولكن حين يصطنع المريض وسيلة دفاعية غير واقعية ازاء خوف وهمي ، ويتم تثبيت ذلك لديه ، فيصبح كالاسطوانة المشروخة التي تكرر نفس المقطع من اللحن مرات ومرات ، على نقيض رغبته ، **فهذا هو العصاب .**

وتعتبر أشكال الخوف العصابي المعروفة هي **الحصر والمخاوف** . وتتضمن الاخيرة **توهم المرض** ، اي الخوف من المرض والميل الى تخيل المرض . والحصر بعامة خوف يفتقد موضوعا ، حالة من القلق لا يحاول المريض اثناءها مجرد أن يجد بعض الدوافع لخوفه . ومن ناحية اخرى ، يبتكر ويعتقد المريض بالمخافة أو توهم المرض في كافة المزاعم الخرقاء التي تثير مخاوفه ولكنه لا يفسرها على الاطلاق .

وهناك اساليب دفاعية متعددة ازاء الخوف ، «كالتعويض الزائد» عن عقدة الدونية مثلا ، وكالاجتناب ، حين يرفض المريض التعرف على امور معينة . ولكن يعتبر **المسلك القهري** افضل دفاع عصابي . ونستطيع أن نتلمس ذلك في حالات اروين (أكرة الباب) أو روزي بيريند ، كما استطعنا ملاحظته الى ما لا نهاية لدى امير الحزن ، انه ذلك الشعور الملح بضرورة ان تكرر على نحو لا نهائي ، فعلا يبدو سخفه الكامل واضحا حتى للمريض نفسه . وتعتبر الطقوس التي يتم مزاولتها بعناية فائقة بمثابة محاولة لحل وسط مع المخاوف الوهمية وان كانت محكومة بالفشل منذ البداية .

كم يبلغ عظم الدور الذي تلعبه الخبرات المرعبة في الطفولة في ظهور العصاب ، وما هو الدور الذي تلعبه الهرمونات ، والغرائز ، والمجتمع والوضع الاقتصادي للفرد ، والشعور واللاشعور ، هذا ما يزال ينتظر أن يتضح . ويبدو أن ثمة ضعف مرضي يصيب جانبا معينا من الجهاز العصبي ، هو الذي يؤدي الى الغلبة المنكرة لعمليات الكف . وهذا يوضح أن تطبيق التعارض بين ما هو عضوي وما هو وظيفي لا يجد مبرره كذلك في موضوع العصاب . لا يمكن الحديث عن «العضوي» مقابل «العقلي» بل ان التفرقة الباتة التي يتم اصطناعها بين البيئة وبين وحدة الجسد ـ الروح لا تجد ما يبررها .

ويكاد من الصعب أن نحصي نوعا آخر من الاعصبية غير ما ذكرنا . وليس ثمة ما يدعو للحديث على نحو منفصل عن العصاب الجنسي «نظرا لتضمن معظم الاعصبة على اضطرابات جنسية ، ربما لانه لا يوجد شيء أفضل من الجنس في اثارة الصراع العصابي . ويدور «العصابي الجنسي» ، شأن أي عصابي آخر ، في متاهة الحصر ، والخواف ، وتوهم المرض ، والمسلك القهري . ويعتبر العنة ، والبرود الجنسي ، والقذف المبكر ، وبقية الاضطرابات الجنسية بمثابة مترتبات او أعراض للميكانزم العصابي (باستثناء الجنسية المثلية الهورمونية المنشأ) ـ ونترك للمناقشة ما اذا كان التفريق بين «أعصبة الاعضاء» و «الاعصبة الخاملة» أمر له ما يبرره . وتفسر وحدة الجسم والنفس لماذا لا تتسم الاعصبة بالاعراض العقلية فحسب وانما بالاعراض الجسمية كذلك . ولا يدع العرق ، والشحوب ، والاسهال ، والاحساسات الهضمية غير المقبولة ، ودقات القلب ، مبررا للحديث عن الاعصبة الخاملة وهو أمر يصدق كذلك على بلل الفراش ، واللوازم العصبية ، والارتجاف . فمن المؤكد أن للخوف العصابي مظاهره الفيزيقية والعقلية ـ او هما مظهران لشيء واحد . ولقد اصبح مفهوم «العصاب الصدمي» من المفهومات التي عفى عليها الزمن ، ولا نستطيع الحديث الان الا عن «العصاب الاستجابي» على اكثر تقدير ، وذلك حين تنشأ استجابة باثولوجية تحت تأثير أحد المواقف غير المألوفة والمرعبة (الحرب او الحوادث) دون أن يتم تثبيتها على نحو نهائي وقطعي ، اذ انه بعد انحسار الموقف ، يستمر العرض بعض الوقت ثم يتغلب الكائن عليه بيد ان هذا يعتبر اقرب الى قطاع الهستيريا منه الى العصاب .

ختام

مضى عامان تقريبا منذ كتبت الكلمة الاخيرة في نهاية الجزء الثاني من «القفص الذهبي» . ومنذ ذلك الحين انسابت مياه كثيرة تحت الجسر . اصبحنا مؤسسة مستقلة ، وتخلصنا من المستشفى ومن المدير (لا . هذا كلام فارغ) . وانتقلنا من الشقة الرطبة الى قلعة في نوتنجهام . وبدلا من الثمانين مريضا ينتفع الآن من القفص المموه مائة وثمانون مريضا تحت رعاية أربعة اطباء ومعالجين مهنيين . بل أصبح لدينا سيارة وان لم تكن على ما يرام تماما .

كيف حدث كل هذا ؟ ان السجل في مفكرتي .

يونيو ١٩٥٥

عدنا من عطلة صيف هادئة في بروتسوني . واستقبلنا الجرانج بهدوءه المعهود .

كانت المفاجأة الوحيدة أن ايرما سلندر المتعددة الخطاب قد اعتراها الاضطراب ولو كانت ايرما فصامية وليست مريضة بالصرع ، أو لو سبق تعرفها لمثل هذا الامر ، لما اثار ذلك الدهشة ولكنه حدث الان فعلا ومعرفة لماذا وكيف حدث ذلك في هذا الوقت بالذات لا تخلو من اهمية .

وللحقيقة ، ظلت ايرما لا تستحق لبعض الوقت لقب «المتعددة الخطاب» فمنذ رحل اولد تينتت ــ وكان هذا منذ عام تقريبا ــ غدت ايرما وحيدة تماما . ولم تكن هذه غلطتها وحدها ، ولكنها على نحو ما فقدت جاذبيتها الجنسية تماما ، بالرغم من أنها كانت جميلة . كانت ممشوقة ، وكانت مشيتها المتثنية جذابة ومثيرة في نفس الوقت . ولم يأبه الرجال قط كم هي قذرة موحلة تحت ثوبها المحبوك جيدا ، ولم يكن هذا هو السبب في أنهم أهملوها الآن . كما لم يكن بسبب نوباتها كذلك ، اذ لم تعتريها نوبة قط منذ تسعة شهور .

وعندما عدنا ، وجدناها مختلة تماما . كانت تستلقي تائهة وقد بدا عليها الغباء او تعدو وسط الآخرين كما لو انها لم تعرفهم من قبل . وحدقت فينا ، كذلك ، وبدت كأنها لم تتعرف علينا . ورفضت الاكل أو العمل ولم تكن تتكلم ، استقبلت الحائط بابتسامة بلهاء ارتسمت على وجهها ونامت . وحين طلبنا منها النهوض ، نزلت من السرير ، وشرعت تغير ملابسها ، وظلت تحدق أمامها ، ثم عادت فنزعت ثيابها ثانية وعادت الى فراشها .

ما الذي حدث لهذه الفتاة ؟ عرفنا بالامر تدريجيا .

عقب رحيلنا ، شعرت بالحنين لوالديها . فطلبت اجازة وحصلت عليها . وعادت الى منزلها بمفردها . وصعقت العائلة المقدسة . ما الذي تريده منهم ؟ أن ثلاثة سنوات فترة طويلة ، ولقد امضت ايرما ثلاثة أعوام بيننا . وقضت قبل ذلك عددا من السنين في مستشفى المقاطعة ، والآن ها هي ذي بغتة ـ ماذا يمكن ان يعني هذا ؟

وعلى رأس كل هذا ، فانها بدت على ما يرام . لم تعتريها النوبات لمدة تسعة شهور ، ولم يتبق الكثير من انفعالاتها العنيفة السابقة أو عدوانيتها . لم يعد هناك ما يخيف من ايرما التي كانت تبحث فيما مضى ، باستثناء أنها كانت يجب أن تبقى في المنزل ، مسببة لاسرتها العار والخسارة المالية .

وأدركت الاخوات الزنديقات الخطر فورا ، فشرعن ينكأن أشد الجروح ايلاما : ما نوع هذه العملية التي اجرتها ايرما منذ ثلاثة سنوات ؟ كانوا يعرفون جيدا أنها عملية اجهاض وكانت ايرما تعرف ، كذلك ، ولكنها لم تخض في الامر قط من قبيل التحفظ العنيد . ولا معهم كذلك ، وربما حتى ولا مع نفسها . لقد اعتبرته عارا ، كعادة القرويات حين يصبحن «نسوة ساقطات» ، الامر الذي يجعلهن منبوذات من أسرهن او قريتهن . لقد كانت لدى ايرما نفس الفكرة عن العفة كبقية أسرتها . فطالما ظل الفعل سرا ، فليس ثمة ما يشين ، لكن يحل الخزي بأولئك الذين «انكشف» عارهم ، لم يكن الفعل في حد ذاته ولكن اكتشافه هو الذي يعتبر جريمة .

ولقد «انكشف» عار ايرما منذ ثلاثة اعوام ونصف ، فأجرى طبيب الولادة لها العملية ، ولم نعد نذكر الامر ثانية قط . صدقت . لقد صدقت هي نفسها تقريبا ما كنا نزعمه للاخرين من ان ذلك الذي تم استئصاله كان ضربا من الورم . لكن الاسرة لم تقنع بتفسير يقتصر على مثل هذه العبارات العامة والمراوغة . وعجزت ايرما عن الذب كلية . اكتفت بأن غمغمت وتمتمت ، لكن أخواتها التقيات طالبنها على نحو بالغ الاثارة «بالحقيقة» . لقد أردن أن يسمعن بآذانهن شخصيا ، ومن فم ايرما نفسها أن العار الكبير قد حل بها ، وان العملية لم تكن تقل أو تزيد عن كونها الرعب مجسدا ، الرعب ، والعار ، والجحيم الذي يعتبر مجرد تسميته خطيئة . طالب الراهبات باعتراف كامل ، حتى يستطعن أن يشعرن بالتفوق . ولكن بدلا من أن تدلي ايرما باعتراف نادم ، اعترتها نوبة صرعية .

حدث ذلك كله في اليوم الاول لذهابها الى المنزل .

حين روت لنا ايرما ، في حالة من شبه الغيبوبة ، عن احزانها ، ذكرت أن اخواتها ضربنها كذلك . وأردن أن يرين الجرح في بطنها وان تروي عليهن كل شيء ، وكل تفصيل ، ولكنها ابقت على الصمت المحير . عندئذ هاجمتها الاخوات المقدسات وشرعن يضربنها . فاعترتها النوبة . وحين صفى عقل ايرما ، فيما بعد، انكرت بشدة أنهم لمسوها حتى بأصبع واحد . «لقد استفسروا فقط » هكذا قالت مترددة «أردن أن يعرفن كل ما في الامر». على كل حال ، لقد حدثت النوبة في الليلة الاولى ، ولم تتوقف ، نوبة تعقب الاخرى . وفي اليوم التالي فقدت الوعي ، وفي اليوم الثالث أحضرتها سيارة الاسعاف ، وهي لا تزال فاقدة الوعي، من الباب للباب .

يا للعائلات المقدسة ، ويا للاخوات ، والاخوة ، والآباء ، والامهات ! ويا للاقارب الطيبون الذين يخضعون لرابطة الدم ! ويا للشفقة المقدسة ، والعدل النبيل ، والتسامح المسيحي ! لقد شفيت ايرما ، ومرت الفترة الصغيرة دون أثر في ظرف اسبوع . دون أثر ؟ من يدري . ما الذي أعرف كما يقول مونتانيي . شيء واحد أكيد ، لقد خلفت في نفسي أثرا . لقد تقضى وقت طويل منذ ذلك الحين ، دون نوبات صرعية ، ودون حالات الرخاوة العقلية ، ودون فقدان الوعي. هل كان بمحض الصدفة ان أصيبت بالنوبة في ذلك الوقت ؟ يا للمرض المقدس ، يا للمرض الحقيقي والعضوي ، والتشريح والهستولوجيا وردود الافعال وعلم الطب الدقيق ! يا لتقسيم الصرع الى صنوف حقيقية ونفسية المنشأ ! ماذا اعرف، ماذا نعرف ؟ اننا نعرف على وجه اليقين ان الاخوات المقدسات قد اثرن لدى ايرما المريضة بالصرع الحقيقي نوبة استمرت اسبوعا واحدا .

وأن هذا لم يحدث من قبيل الصدفة بالتأكيد .

وذات مرة اصطحبنا فيري المطرزة معنا في عطلتنا . سافرت معنا الى بودابست ، حيث قابلها «أخوها الفني» على المحطة . وقضت خمسة أيام بالمنزل مع أسرتها . وعاملوها على نحو طيب ، وكانوا لبقين عطوفين ، فأخذوها الى المعرض وأرضوها بشتى الوسائل . لكنهم لم يستطيعوا اخفاء طفلهم الذي كان يبلغ من العمر شهورا قلائل ، والتي غارت منه فيري . وغارت من زوجة أخيها كذلك ، لانها كانت صحيحة وسليمة لا تعتورها اية نوبات ، لقد اغتصبت زوجة أخيها مكانتها لدى «الاخ الفني» . كانت تدرك في لحظات صفوها جيدا ان هذا حمق ، وانها لا تستطيع أن تنازع حقوق الزوجة ، لكن في اعماق نفسها كانت الانفعالات القابلية لمرض الصرع وليس المنطق هي التي تسود .

وعادت الى الجرانج في حالة من الرخاوة . وظلت بعد ذلك اسبوعا كاملا وهي مكتئبة تحلم أحلام اليقظة ولا تتعرف علينا او تدري حتى أين تكون .

وخلال عطلة أخرى من عطلاتنا ، أصيب جون صانع السلال بالاضطراب وجلس هذا المريض بالصرع الوديع المتواضع لدى النافذة لمدة أيام ثلاثة ، وقد

تدلت قدميه من خلال القضبان ، متفوها بألفاظ نابية تجل عن الوصف حتى ابح صوته . ثم صفى ذهنه بعد ذلك ، ولم يعد يتذكر شيئا من الامر .

وكان ذلك ايضا اثناء احدى رحلاتنا ، حين اصيبت الصرعية الهستيرية الفيرا (عرس المساء) بأول نوبات هذيانها . ولقد ذكرت ذلك من قبل ، فاكتفى هنا بالاشارة اليه . كانت الفيرا (عرس المساء) تصاب بالاضطراب في كل مرة تغادر فيها القفص المموه ، ولم يكن ينقذها من الهذيان سوى الملاج باللارجيكتيل في مواعيد منتظمة . وكان يحدث نفس الشيء لفالنتين جنرال ، وهي فتاة مصابة بصرع حقيقي. وبرغم حقن اللارجيكتيل ظلت تهلوس خمسة ايام عندما عدنا. وعلى اساس من الخبرة السابقة اوقفت العلاج بالعقاقير وتوقعت أن حالتها سوف تتحسن خلال يومين . وكنت مصيبا .

وعلى ذكر هذه الهذيانات الغريبة اروي قصة مارجيتا العجوز وقفزه في البئر . لم يكن مارجيتا العجوز مصابا بصرع حقيقي ، ولكنه كان من مشوهي الحرب العالمية الاولى ، أصيب بشظايا لا زالت في رأسه . اعتادت نوبات غضبه المفلوتة ، شأنها شأن رقصة الوحش ، أن تنتهي بفقدان الوعي واصيب ببضعة نوبات صرعية منتظمة كذلك ، وغدت قدراته العقلية أكثر انحصارا . وكنت أشك في أنه اعتاد أثناء شبابه أن ينعش تلافيف دماغه بالفودكا والروم .

كان عليه ان يجري عملية جراحية لاصابته بفتق ، فنقلناه الى المستشفى . ولم تحدث ثمة مضاعفات . ولكن بعد ساعتين ، وحين كان العنبر غاصا بالزوار، شرع مارجيتا العجوز يهرف على نحو خلطي، فصرخ وصلى ثم قفز بغتة من سريره، وفي قميصه وسرواله الداخل فقط ، وبالجرح الجديد في بطنه ــ هرول خارجا من العنبر ، نازلا السلالم ، عابرا الحديقة حتى خرج من البوابة . وجرى خلال شوارع المدينة المتربة ومن خلفه مساعد الجراح المدهوش والبوابون حتى تخير صدفة بوابة أحد الحدائق فجرى صوب البئر الواقع في وسط الفناء . وجذبه مساعد الجراح والبواب من كعبه على حين كانت رأسه قد غطست في البئر .

انتشلوه ، ووضعوه في سيارة الاسعاف واعادوه الى الجرانج .

وصل في حالة من الهذيان المطلق . كان كلامه مختلطا ، ورأى رؤي مرعبة ، وجعل يصلي في خليط من الروسية والمجرية وتوسل ، باكيا ، في طلب الرحمة، مناشدا ايانا أن ندعه يرجع الى البئر .

حاولنا تهدئته بالكلمات والحقن . وتركت تاتي يجلس الى جواره ، ليراقبه .

ولكنني شعرت بعدم الارتياح ، وبعد ساعة ذهبت الى العنبر لالقي نظرة . فقابلت تاتي في الممر .

«أين مارجيتا العجوز ؟» سألته ، وأنا ممتليء بالهواجس .

«لقد اصطحبته الى دورة المياه» .

«أو لا يزال هناك ؟» .

«أتمنى ذلك ...» .

دخلنا فوجدنا دورة المياه خالية . وحاول تاتي ان يشرح أنه ذهب الى حجرته الخاصة لثوان معدودات ...

وساد قلق عام . وجرى الممرضون في كافة الاتجاهات ، بحثا عنه . الى الآبـــار !

كان المبنى يضم خمسة آبار . وفي قاع واحد منها عثرنا على مارجيتا العجوز جالسا في الماء ، متعلقا ببعض الاحجار البارزة على عمق ثلاثين قدما .

ودلينا الدلو ، فامسك به مارجيتا العجوز ، وأدار العجلة أربعة اشخاص . وتم انتشاله . لم يصب بشيء ، لقد نسي نعليه في البئر فحسب ....

وأعقب القفز في البئر فترة من الهذيان الشديد الهياج استمر ثلاثة أيـام . وتم تقييد مارجيتا العجوز في سريره بالملاءات ، اذ كان من الصعوبة أن تمنعه ثمة من القفز ثانية في البئر (كان ذلك قبل ان نحصل على اللارجيكتيل . وكانت هذه هي الحالة الوحيدة ، خلال أربعة أعوام من العمل في الجرانج ، التي «قيد» فيها مريـض) .

ولا حاجة للقول ، ان الجرح التام على ما يرام . فلا استطاع الحمام القـذر ولا المجهود العضلي الذي استمر ثلاثة أيام ولا تمزق الرباط من علـى بطنـه أن يلحقوا به أذى على اي نحو ما .

يوليـو ١٩٥٥

استبدلنا معالجنا المهني .

لقد توصل بيتر ، الشاب المتحمس الذي ظل يناقشنا مدة عامين ليبتـدع اسلوبا جديدا ، الى انه اذا اراد أن يحقق نتائج في صالح الطب العقلي ، فلا بد من الالتحاق بكلية الطب . لقد شعر أنه لن يمتلك السلطة لتحقيق أي شيء وهو مجرد معالج مهني .

ويجب أن اعترف أن هناك صدقا في بعض ما قال . فالاطبـاء يعتبـرون المعالجين المهنيين دخلاء دائما ، ومهنة الطب تطل عليهم من عليائها . واعتقـد أن هذا خطأ ، لكن آرائي لن تغير الحقائق . «يجب أن يكون المعالج المهني طبيبا ، اذا أراد أن يمتلك السلطة» ، تبدو هذه العبارة الغريبة ذات وقع . حاولت اقنـاع بيتر أن يحارب لاعطاء السلطة للمعالجين المهنين بدلا من الحصول على درجة في الطب ، ولكنه فضل أن يمضي ستة سنوات في الجامعة ويحصل على شهـادة اخرى . كان قد سبق له الحصول على درجة في علم النفس .

وتمنيت مخلصا أن يستطيع بفضل شهاداته العديدة ان يحقق عملا كبيرا .

ولا شك أن حياة المدينة كان لها تأثيرها عليه بعد عامين من حيـاة الاقاليم الراكدة في الجرانـج .

وجاءت جولي لتحل مكانه ، حديثة التخرج ذات حماس لا يحد .

وشعرت الممرضة ايما ، وكانت من أكبر انصار الرجال، بالاسف حين سمعت بنبأ التغيير . وعلى حد قولها «فالرجل هو الرجل» ـ الذي يعني ان عمل الانثى

لا يعادل قط عمل الرجل . ولكن كان عليها ان تعترف سريعا بأن جولي لم تكن هذه الصفقة الخاسرة . وانا شخصيا افضل المرضات الانـاث ، وأعطى الرجـال والنسـاء فرصا متساوية للعمل كمعالجين مهنيين ، وأفضل الاطبـاء الذكـور . ويعتبر العلاج المهني مهنة نصف طبية ونصف تمريضية ، ولذلك فانهـا تناسب الرجال والنساء على حد سواء ، وان مارسوها على نحو فارق .

لقد كان بيتر ، على سبيل المثال أقرب الى المنظم منه الى المنفذ ، كان يوجه افضل مما يزاول العمل . كان مليئا بالافكار ، التي يمكـن وضـع بعضهـا في التطبيق ، ولكن كقاعدة لم يكن هو الذي يضعها في التطبيق . لقد جعله التفكير في المشروعات الكبيرة ، يكاد لا يجد الوقت للتفاصيل . كان ينظم المرضى ليقومـوا بتمثيل الروايات ولكن لم يكن له صبر على البروفات . بل كان يشجع الممثلين على الارتجال (وكان لهذا محاسنه كذلك) ولم يكن يهتم بفحص حياة المرضى الداخلية ولكنه كان يقف الى جانبهم عمليا كلما اقتضت الضرورة . وآمن دائما بوجهة نظره ان المعالج المهني يجب أن يوجه العمل واللهو ولا يضيع في التفاصيل .

وكانت جولي جد مختلفة . لقد ذابت تماما في المرضى . واعتبرت مشاكلهم مشاكلها ، وشاركتهم في توترهم أو قلقهم ، ودافعت عن حقوقهم الحقيقيـة او الوهمية . وانمت معهم روابط انفعالية . كان بيتر محترما من قبل المرضى ، لكن جولي كانت محبوبة . وكان بيتر يتمتع بسلطة أكبر ، ولكن كان لديهم ثقة أكبر في جولي ، لقد كان بيتر يوجه ، وجولي تتعاون . تعاونت مع الاطباء والممرضـات والمرضى . ولم تضف ابتكارات ذات دلالة ، ولم تكن لها نظريات مسبقة ، وكانت ذات خصـال يمكن استثمارها على ما يرام في هذه المهنة ، ومع هذا كانت بالغـة الفضول . وحين تكون المعالجة المهنية فضولية فانها تهتم بمصير المرضى . وتحب الاستماع الى مشاكلهم ، وتدفع حتى قليلي الكلام للحديث ، وتخلـق الثقـة في العلاج . أكبر ما يمكن أن نقدمه للمريض أحيانا هو انتباهنا ـ أن نسمع له ونهتم بمـا يقـول .

ولم يكن هذا هو السبب الوحيد الذي جعل جولي تساوي وزنها ذهبـا في الجرانج . لقد كسبت قلوبنا برضاها . معظم الناس لا يبدون راضين قط عمـا لديهم ، ويتطلعون الى شيء آخر ، الى المزيد ، ولا يستطيعون الاستمتاع باللحظة التي يحيونها . وكانت جولي تتطلع الى شيء آخر والى المزيد كذلك ، ولكن ليس في التو واللحظة . انها الآن هنا ، وحسـنا أنها استطاعت أن توجد ها هنا وتؤدي ما كانت تصنعه . لقد كانت من فتيـات العاصمـة ، عـرفت جميـع الناس في بودابست ، وقرأت كل شيء ، وترددت على كل حفل موسيقي ، وتواجدت دائما في ثلاثة أمكنة في وقت واحد ، على حين تخاطب بالتليفون تسعة أمكنة اخرى ـ وأصبحت هذه الفتاة أكثر من جزء في الجرانج كأنما ولدت هناك . كانت تشعـر بأنها في منزلها ، وكانت سعيدة وتقبلت باخلاص حظها السعيد بوجودها بيننا . ومن وقت الى آخر كانت تذهب الى بودابست لمدة يومين أو ثلاثة ، ولكنها كانت

تنتظر العودة بفارغ الصبر .
كتب لازلو في نيميث في «ثورة الكيف» ان الناس يجب ان يتوفر لهم الشعور بالفخر في عملهم . فمعظم الناس لا يحترمون ما يفعلون . انهم جميعا يطمعون في شيء آخر ، ومكان آخر - حتى ولو كان على غير ما يرام ، الامر الاساسي الا يكون متشابها . ونحن نعرف ان مقياس السخط الانساني بلا حدود . ويمكن لهذا السخط أن يكون مفيدا حين ينعش الطموح . ولكن هل من الممكن ان يكون المرء راضيا وطموحا في نفس الوقت ؟ لقد جربنا ذلك في الجرانج ونجحنا . ربما كان هذا من الدروس الصعبة التعلم ، اذ كانت جولي هي التلميذة الوحيدة التي بدت كأنها تبنته أم ترى انها ولدت على هذا النحو .

اغسطس ١٩٥٥

وجاء صيف هادىء استمتعنا بـه .

لكن شيئا تغير ، لا في الجرانج وانما في العالم الخارجي . بدانا نكتشف أننا اصبحنا مشاهير . بدا الجرانج أثناء الصيف والخريف كأنه معرض الازياء . واقتفى الزوار المشاهير آثار بعضهم بعضا . وتم تجهيز حجرة ثانية للضيوف . وتضمن الزوار طلبة ، ومعالجين مهنيين وأطباء واساتذة .

واضاف نشر واحدة من محاضراتي الطويلة عن الجرانج في «مجلة الطب العقلي» الى هذه الشهرة . وبدات المهنة تحاط علما بروح الجرانج ، وبدات تؤثر في أطباء العقول . ولم يقتصر ذلك على صغارهم فحسب . ولدهشتنا البالغة : لم تقاوم السلطات كذلك . ولا ريب أن طبيعتي الهجاسية سرت من الشكوى من أن «احدا لا يفهمني» ومن ان «أطباء العقول المحافظين يتآمرون علينا» - ولكن يجب أن أعترف أن الجميع فهموا ولم يتآمر علينا أحد . واصبح يشار الى الجرانج بالاحترام والحسد . ولقد كان ضربا طيبا من الحسد ، اذ كان يعني أن الآخرين يرغبون في محاكاة ما نصنعه . بقيت هناك مشكلة واحدة فحسب . لقد تشبثوا بعناد في الاعتقاد بأن أسلوب الجرانج لا يمكن الا أن يزاوله رسول ذو لحية طويلة، ولم يكن هناك احد على استعداد لاطالة لحيته . وعبثا حاولت ان اشرح أن كل ما هو مطلوب هو مجرد الروح الانسانية ، وأن اللحية ليست مطلوبة - فلقد اصروا .

ثم حدث في الخريف امران كان لهما تأثيرهما الجذري على الجرانج . كان اولهما أن بول مادل ضاق بوظيفته في الوزارة (او ضاقت الوزارة به ...؟) فتخلى عن منصبه الى اليكس بودر . وكان ثانيهما استكمال قلعة نوتجهام ، اخ المستقبل للجرانج ، وثاني مؤسسات العلاج بالعمل في البلاد .

وكان استبدال بول مادل بأليكس بودر يعني انتقال مزاولة الطب العقلي من يدي شاعر حالم الى يدي جراح ذي عقلية عسكرية . ولم نكن نعرف بعد ما اذا كان هذا بمثابة تغيير نحو الافضل . كان من المؤكد ان اليكس بودر رجل افعال ، على حين كان بول مادل رجل الوعود . لو استطاع اليكس بودر ان يحقق الامور التي استطاع بول مادل أن يعد بها فحسب ....

وبدا بودر بأن استقل سيارة وزار جميع المؤسسات العقلية في البلاد وحين وصل الى الجرانج كان اليأس قد اعتراه من جراء ما رآه من امور تبعث على الرعب . وبدا كان المهمة قد اخذت عليه كل مأخذ . ولكن وجهه أشرق هنا ، وانتابه الحماس ـ اجل ، هذا ما يجب ان يكون ، انه أمر غاية في البساطة ... كان قد اصطحب معه أحد مشاهير الاساتذة ، الذين اشتهروا بالريبة . ولكن المرتاب تعاطف كذلك . «اجل ، هذا هو المطلوب» هكذا قال في نعومة ، ولكن بعينين ملتمعتين ثم تحول نحوي بنظرة لائمة .

«ومع هذا ، فقد اخطأت خطأ كبيرا ...» .

«؟»

«كان من الواجب أن تدعو رجال الصحافة والسينما للزيارة» .

حسنا ، اذن فهذا كل ما ينقصنا .

ولم يقنع اليكس بودر بمجرد قضاء النهار والمساء في الجرانج ، فوضعني في سيارتهم واصطحباني معهما الى نوتنجهام .

كانت قلعة جميلة تكلف اصلاحها اكثر من مليوني فورنتا . يعتبر مسكن الجرانج الى جواره لا شيء . كان يوجد ثمة غرف رائعة ، واستراحة ضخمة ، وشرفة عظيمة ، وحديقة مهملة ، واسطبلات حديثة وجراج ، ومغسل ومطبخ . بل يوجد ثمة بدلة لرئيس الاطباء . لكن حجرات الموظفين كانت رطبة كما هو الحال في الجرانج .

وحين عدنا من رحلتنا هذا المساء ، قال اليكس بودر .

«يجب أن تأخذ نوتنجهام» .

وثنى الاستاذ المرتاب بعده مؤكدا ، وتركتهما يتغزلان في . كأنني فتاة خجول بصراحة ، استهوتني فكرة الذهاب الى نوتنجهام ، واعجبني التملق ، واجتذبني الاستقلال ، وأخيرا وليس آخرا ، استهوتني البدلة الجميلة . لكنني لم اعترف بذلك لنفسي ، واصررت على أنني ارغب أن اظل في الجرانج حيث اشعر بالسعادة . لم اكن قد رايت (لا ـ هذا كلام فارغ) نحو ثمانية عشر شهرا ، كل شيء على ما يرام ، ومريح ، وبسيط ـ لماذا يجب أن أرحل ؟ كنا قانعين بالمرتب وبالعمل وبمعظم هيئة المؤسسة ، وبالخلاء الجميل ـ وبعبارة اخرى كان كل شيء غاية في الروعة .

وانتاب اليكس بودر الغضب .

«اللعنة ، انك تبدو كأنك الرجل الوحيد القانع في هذه المهنة .. لقد جلت في انحاء البلاد عدة شهور ، فكان كل ما سمعته هو الشكاوي» .

ومع هذا ، فحين احضروا لي البدلة التي لم يكن لها نظير ثانية وبدأوا يعزفون بمهارة على نغمة مزايا الاستقلال ، والفرصة العظمى للازدهار ، والمسئولية الوطنية .. الخ ، الخ ، بدات اتردد .

عبثا الدرس الذي تعلمته من وعود بول مادل ، بدات أصدق الآن وعود

اليكس بودر .

«ومع هذا ، فالامر مستحيل» . هكذا قلت على نحو اكثر لينا ثم أردفت . «لا استطيع مغادرة الجرانج فورا ، اليس كذلك ؟ وبدون سيارة يبدو من المستحيل الاشراف على المنزل والقلعة . اليس هذا صحيحا ؟» .

وصدقا على هذا ووعداني فورا بأنهما سيخصصا سيارة للمؤسسة .

«حسنا . اذا حصلت على سيارة ، فسوف أتولى الامر . اما اذا لم احصل عليها ، فلن أفعل» .

كان اليكس بودر لا يزال غرا جديدا على الوزارة . فاعتقد ان هذا شرط بسيط .

«حسن . سوف تحصل على السيارة» .

وافترقنا كأصدقاء . واعتقدت أن هذه نهاية صداقتنا لانه لن يحصل لي على سيارة قط بأية حال من الاحوال .

سبتمبر ١٩٥٥

اخطات هذه المرة .

ففي نفس الاسبوع طلب اليكس بودر والاستاذ المرتاب من المجلس العلمي ادراج العلاج بالعمل في جدول أعماله ، وتحدثا مع شتى المديرين الصغار والكبار في الوزارة . كانت النتيجة انني استدعيت الى بودابست على عجل وأوليت بتقرير استغرق ساعتين عن الوضع المؤسف للطب العقلي وكيف يمكن ان يشق له العلاج بالعمل طريقا . ثم امرت الوزارة فورا الطبيب المسئول في مستشفى المقاطعة بوضع قلعة نوتنجهام تحت تصرفي دون ابطاء والحاق الجرانج بونتجهام . وأعطيت السيارة .

كانت السيارة من النوع الفورد القديم ، في نحو الثلاثين من عمرها على الاقل . وتحاملت على الوصول من بودابست على عجلاتها الخاصة . وفي الجرانج تم تفكيكها واعلن أنها تساوي ستة في المائة من قيمتها الاصلية . كم ستستغرق الستة في المائة حتى تعود سيارة كاملة من جديد ؟ وأي نوع من السيارات ؟ ولكن سنعرف المزيد من ذلك فيما بعد . الرجل هو الرجل ، هكذا قالت المرضة ايما . السيارة هي السيارة وهكذا فكرت في سذاجة . ليست هناك فرصة للتراجع ، اننا في طريقنا من الجرانج الى نوتنجهام .

ديسمبر ١٩٥٥

لم يرحب المكتب الطبي للمقاطعة بفكرة تحويل قلعة نوتنجهام الى مصحة عقلية ، لكن لم يكن في وسعه ان يصنع شيئا . وفي ديسمبر عينني وامر بافتتاح المؤسسة .

كان من السهل ان تعطى أمرا . لكننا وجدنا أن الاصلاحات لم تنته ، وان التدفئة المركزية لا تعمل ، وكذا الكهرباء ، ولم نجد ثمة موظفين او اية معدات الا بصعوبة . لقد توفرت بعض المعدات ، لكن المقاطعة اعارتهما الى مؤسسة أخرى .

وبدات المراسلات . كتبت المقاطعة الى الوزارة لتدبير الاعتمـــاد . وأجابت الوزارة بالرفض ، فلقد سبق تدبير الاعتماد من قبل ، والآن كان دور المقاطعة . المقاطعة لا يوجد بها الاعتماد الكافي . تأسف الوزارة ، ولكنها ليس لديها الاعتماد كذلك . واختصما حول هذا الموضوع بعض الوقت ، على حين اخذ المرضى فــي ورشة النجارة بالجرانج يعملون جهدهم، فصنعوا من الاعمدة الخشبية الناتجة عن المبنى المهدوم أسرة ، وموائد ، ودكك واصونة ملابس . كان من الواضح ان المال والاثاث لن يتوفروا من جراء هذا الاختصام . كل ما وصلنا منهم جهاز للاختزال . ولو لم تقم ورش الجرانج بالانتاج ، لما وجد المرضى شيئا يجلسون عليه او اليه .

ولم تكن مشكلة الموظفين اقل سهولة . احتجنا الى طبيبين (احدهم فـــي الجرانج ليحل محلي) ومعالج مهني للجرانج لاننا كنا سنصطحب جولي نونتجهام ، ووكيل ، وكاتب حسابات ، وموظفين للامدادات وممرضات .

واستأجر اليكس بودر والاستاذ المرتاب الاطباء ـ شابين من بودابست جـاء الدكتور هوتر الى نوتنجهام والدكتور جوفيال الى الجرانج .

وكان من السهل الحصول على ممرضات . أخذنا معنا روزي (وبقيت ايما في الجرانج ، وأخذت مكان السيدة الاولى) وسيتم تدعيم روزي ببعض الشابات مـن القرية ، فلم يكن قد افسدن بعد ، اذ لم يسبق لهم رؤية مصحة عقلية ، وسوف يتعلمون منا الاسلوب. وضمت نوتنجهام الان سبعة ممرضات . واسندت للممرض الوحيد النوبة الليلية . وعملت الفتيات السبع واثبتن ان القوة البدنية ليســت مطلوبة في التمريض العقلي .

وتم تجنيد أغلب الحرفيين من المرضى في الجرانج . فعينت روز هيبـــس ميكانيكيا لنا ، وسبنسر اسكافيا ، وجون البناء بناءا ونجارا ، وجوزيف كـــوك طباخا وستيف دريفر خادما . وهكذا وظفنا خمسة من السيكوباتيين مدمنـــي الكحول . وبقي ان ننتظر مبلغ ما سوف يحققونه من نجاح .

لم يكن هناك مريض مناسب ليعمل وكيلا . كنا بحاجة الى شخص يفهم هذه الوظيفة ويحافظ على مصالح المؤسسة . لكن احدا لم يشأ العمل وكيلا أو رئيسا للحسابات . وأخيرا تقدم جون البقال ، من أصحاب الحوانيت يطلب ، وكان حتى هذه اللحظة يدير حانوتا ويريد الآن التخلص سريعا من المحل ، لاسباب خاصة .

لم اكن شديد التفاءل بقدراته ، لكن لم يكن أمامي الخيار . ونظرا لان أحدا لم يتقدم لوظيفة رئيس الحسابات ، فقد استعنت بفيدلر (الذي لا يصنع شيئا) من الجرانج لعدم وجود من هو أصلح منه ، وكل امل أن يحفزه الاجــر المضاعـــف والتكريم كي يزاول بعض العمل .

لماذا كان العثور على موظفين من الصعوبة بمكان ؟ لان القرية الصغيرة كانت تبعد عن الطريق العام بمسافة أكبر من الجرانج . كان الجرانج يبعد عن الطريــق الرئيسي بمقدار ميلين ، أما أقرب محطة سكة حديدية الى نوتنجهام فكانت عــلى مبعدة خمسة أميال ، ولا يمكن الوصول الى خط السكة الحديدية الرئيسي الا بعد

تبديل القطارات عدة مرات .

كنا على الحدود تماما . وفي الايام الصافية كنا نستطيع رؤية الثلوج تغطي قمة جبل راكس الذي يعتبر النقطة المتقدمة لاوربا الغربية .

يناير ـ ابريل ١٩٥٦ .

وصل الى نوتنجهام فريق طليعي من خمسة عشر شخصا في ديسمبر للتنظيف والتركيب والتأثيث . وغادرنا المستشفى في ذلك الوقت . بعد ثلاثة أعوام من التعايش المؤلم تحت الهدنة العظمى . وخلال هذه السنوات الثلاثة بأكملها لم نتلق من الملابس والمواد والاحذية والاربطة وابر الحقن تحت الجلد كما تلقينا في هذه الشهور الاخيرة . بل لقد استأذنا المدير (لا ـ هذا كلام فارغ) في الرحيل على نحو مهذب . وتحاشينا كل الموضوعات المحرجة ، وتبادلنا الثناء الفارغ والامنيات الطيبة وافترقنا في سلام .

وفي يناير عام ١٩٥٦ وضعنا أثاثنا في سيارة نقل ، وحملنا ثلاثون مريضا في سيارات الاسعاف ، وقصدنا نوتنجهام ، منهين مرحلة لا من حياتنا فحسب ولكن من تاريخ الطب العقلي المجري كذلك . اذ لم يعد هناك شك في أن الجرانج قد أثر في جميع أطباء العقول وعديد من الاطباء الآخرين كذلك ، بالاضافة الى التعليم الجامعي، ووزارة الصحة وتدريب المعالجين المهنيين والممرضين . ولا أزعم اننا أحدثنا تغييرا جذريا . أبعد ما يكون عن هذا . كل ما نستطيع أن نزعمه اننا أيقظنا ضمير المهتمين وهذا ليس بالعمل الذي يستهان به .

كيف كنت أشعر حين غادرت الجرانج ؟ بالالم ... صحيح ، كنا في طريقنا الى قلعة جميلة ، والى تجهيزات أفضل ، والى الاستقلال (اذا اعتبرنا الاستقلال أن يصبح المسئول الصحي للمقاطعة رئيسنا بدلا من الدكتور «لا هذا كلام فارغ»)، وصحيح ، اخذنا معنا مرضانا المفضلين ، وظل الجرانج لنا كذلك ـ لكن الرحيل يؤلم . ترى هل ننجح مرة أخرى في صنع ما سبق لنا أن صنعناه من قبل ؟ الن يتدهور الجرانج اذا ادرناه من على مبعدة ثلاثين ميلا ؟ هل نستطيع تصديق وعود الوزارة وخطة التنمية والمشروعات العظيمة ؟ كنت خائفا ، وكنت متشائما .

ولكن لا وقت للحزن ـ فالامور تتطلب التدبير ، والعمل يجب أن يبدأ .

وقامت الطلائع بترتيب بضع حجرات قلائل ، وركبت المعدات الكهربائية والتدفئة . كان المتنزه بحرا من الوحل . ولم يكن لدينا مغسل بعد ، وكانت سيارتنا في ورشة التصليح .

ولو لم تسمح لنا مصحة الامراض الصدرية المجاورة باستخدام مغسلها ، وسيارتها وخبرتها في التنظيم ، لما استطعنا حراكا . كانت أقرب مدينة على مبعدة عشرون ميلا ، ومجلس المقاطعة على بعد ثلاثين ميلا ، وكان علينا أن نحصل على الطعام والملابس وعديد من الاشياء الاخرى من هناك . وكان فبراير شديد البرودة ، فانكمشنا مخدري الاطراف في القلعة الجرداء .

بدأت الشمس تسطع في مارس. وبغتة تبدل كل شيء . اندفع بعض المرضى

خارجا ، ليحيلوا بحر الاوحال الى حديقة . وصنعنا الاسرة الضرورية والملاءات وزدنا عدد المرضى الى ثمانين . كان للقلعة متنزه كبيرة ، ولكن لم توجد ثمة ارض تصلح للزراعة . وعبثا حاولت استئجار الارض ـ لم استطع الحصول على ياردة مربعة في هذه القرية الغنية ، وهكذا اعرضنا عن ان تكون لنا حديقة خضرواتنا الخاصة ، اكتفينا بحديقة رمزية في ركن من المتنزه . ومع هذا فقد كان هناك ما يكفي من اعمال الزراعة التي يمكن تأديتها هناك . وابتنى البناؤن كوخا جميلا للبواب عند المدخل ، اذ كان من المستحيل هدم السور كما سبق أن فعلنا في الجرانج . وظلت البوابة مغلقة ليلا ونهارا ، لا للابقاء على المرضى ، ولكن للابقاء على القرويين بعيدا ، بعد أن بدؤوا يزعجون المرضى . ذات يوم استرعت الصرخات انتباهي . وجدت جون الفصامي محطم الاحواض جالسا فوق فلاح شاب سكران. وفسر جون الامر في رزانة . «لقد جاء هذا السكير هنا واخذ يتشاجر . لا داعي للقلق : فلن أؤذيه ، سوف اطرحه أرضا فحسب ...»

ومنذ ذلك الحين أبقينا البوابة مغلقة .

لم تعد المزرعة هنا هي أهم اقسام العلاج بالعمل وانما الصناعات اليدوية . جلست النسوة لدى النوافذ الشمالية في الممر الفسيح يشتغلن مفارش جميلة للمائدة وستائر ذات رسوم شعبية ، بمهارة متزايدة ، تحت اشراف المدربة . وبدا السخط على الوكيل البقال لهذا الاتلاف في القماش والخيط ، لكن المرضى لم يقيموا وزنا له وزينوا حجراتهم . كما وضعنا نولين كذلك . وقامت امرأة فصامية مختلة تماما كانت تعتقد أنها دوقة اسبانية وحائزة على جائزة نوبل بخياطة ملابس ممتازة للمرضى ، بينما تهلوس بشدة . كذلك بدأ العمل في ورشة تجليد الكتب. وزار أهل القرى المجاورة ستوديو التصوير عندنا مرارا وتكرارا ، وكان لويس المتعدد المهن قد انشأه اثناء احدى زياراته لنا . وامكن الاستمتاع كل ليلة بالرقص والالعاب والحلقة الادبية والغناء وتنس الطاولة والعزف على الاكورديون وسماع الراديو في الاستراحة التي كانت من الضخامة بحيث كانت قاعة «للفرسان» . وكان الدكتور جوفيال والمعالج المهني يحضران للزيارة من الجرانج مرة في الاسبوع. وكانت هذه فرصتنا لمناقشة شتى الموضوعات العلمية حول فنجان من القهوة .

مايو ١٩٥٦

في شهر مايو اصبح لدينا حصانان وتليفون ، كما اعدت السيارة كذلك . أعدت ! لقد تم اصلاح المحرك ، ودهان الهيكل بلون رمادي قذر وكساء المقاعد بأحد انواع البلاستك مقابل خمسة واربعون الف فورنتا في تعاونية ميكانيكا السيارات. ما الذي تكلف بحق السماء خمسة واربعون الف فورنتا ، وما الذي استغرق خمسة شهور ؟ فبعد يومين من وصولها أعيدت السيارة للتصليح ، ولا زالت الاصلاحات مستمرة . تحطم كل شيء ، ورشح كل شيء . كان الامر اشبه بالتنين ذي الرؤوس السبعة . في كل مرة تقطع فيها احد الرؤوس ، ينبت مكانه

راسان . اذا اصلحنا عطبا ، ظهر معه عطبان . اشترينا اطارات جديدة ، واكس جديد ، ورادياتير جديد ، وجهاز جديد لتعشيق التروس ، وسوست جديدة ، وروافع جديدة ، وعلبة تروس جديدة ، وبطارية جديدة ، انفقنا ثلاثين الف فورنتا اخرى على السيارة ، فغدت اسوأ حالا مما كانت عليه من قبل . عـادت للتوقف ثانية ، وفككت اجزاؤها . فاذا تصادف وسارت ، كانت تصدر ضجيجا كأنهـا جـرار .

لا باس ، ذهبنا بها الى الجرانج بضعة مرات قلائل .

كاان انطباعي الاول مذهلا . ما الذي حدث للجرانج ؟ حياني المرضى القدامى فرحين ، لكن اين المرضات ؟ واين العمل ؟ كان المـرضى يتسكعـون ، ومعظم الحديقة اهملت . اين البستاني ؟ والمعالج المهني ؟ ورئيس الاطباء .

كانت الساعة الماشرة صباحا . وجدنا الطبيب العجوز في العيـادة مـع المرضات المنوبين . لا يزال الطبيب العجوز يحتفظ بروحه المرحة . قال مفسرا :

«صدق أو لا تصدق ، لقد تحول الجرانج الى عيادة . هذا صحيح ! هنـاك من اربعة الى خمسة جلسات كهربية يوميا ، ومن ثمانية الى عشرة جلسـات للعلاج باللارجيكتيل والمرضات مشغولات جدا عن مراقبة المرضى لانهن اما يباشرن العلاج او يراقبن الذين في الاسرة» .

«في الاسرة ؟» .

«اجل غير مسموح لمن يتماطوا اللارجيكتيل ان يغادروا أسرتـهم . اوامـر الدكتور جوفيال» .

«والبستاني ؟»

«ذهب الى المدينة لينسق حديقة المستشفى . لا يوجد ثمة ما يصنعه هنا . فالمرضى القدامى يعرفون ما ينبغي بدونه ، اما الجدد فهم لا يعملون . ولكن لدينا قلة من النجارين والنقاشين والبنائين الممتازين» .

كانت الورش تؤدي عملا طيبا . ودهن النقاش جميع الابـواب والممـرات بالابيض الناصع . أمرت البناء بنزع قضبان النوافذ فورا . لقد ضايقتني هـذه القضبان طيلة ثلاثة أعـوام .

لو انه لم يكن العديد من المرضى في الفراش ! لم أكن اميل الى ابقاء الناس في الفراش ، حتى خلال العلاج باللارجيكتيل . اننا أيضا نفضل هـذا العقـار الجديد الممتاز ، ونستخدمه ولكن ذلك لا يتم الا في المساء ، حتى لا يعـوق أثـره المثبط الناس عن العمل . وعلى نقيض ما يشاع ، نستطيع ان نقرر بعد ثلاثة آلاف حقنة اللارجيكتيل وتسعة آلاف قرص اننا لم نلمس أية آثار ضارة لاستخـدام اللارجيكتيل مع عدم الابقاء على المرضى في السرير . بل اننا على العكس ، حصلنا على نتائج طيبة جدا . فمن بين خمسة واربعون مريضا يتعاطون جرعات قوية من اللارجيكتيل رقد واحد فقط في السرير لانـه كان مصابـا بضعف في القلـب . واستفاد مريضان او ثلاثة من المرضى الكسالى من الاعياء الذي يسببه اللارجيكتيل

ورقدوا في الاسرة خفية . ولكن بعد يومين من الانهاك عمل اغلبهم وشاركوا في النشاط الترفيهي . وطلب الحلاق العجوز ستيف من الممرضة أن تقدم له الجرعة اليومية بعد العشاء حتى يستطيع تحمل العمل على هذا النحو بطريقة افضل ، فلديه عمل كثير . وكان يساعد البناء ، ويبيض الجدران ثم يقوم بعد ذلك بالحلاقة لجميع المرضى الذكور .

ويعتبر ستيف العجوز نصر اللارجيكتيل المضاف الى العلاج بالعمل . حين جاءنا ، كان مضطربا وعدوانيا لدرجة جعلت حتى ممرضاتنا المدربات يخشينه ويطالبن باعادته . ولكنني لم أعده . بل اعطيناه علاجا باللارجيكتيل ، ولم يكن هذا بالامر السهل ، لانه كان يعترض بشدة على أي نوع من العلاج ، ويتفوه بالبذاءات، ويهلوس باستمرار . وحين لا يسب كان يضحك لنفسه . كان ينتزع الاشياء ، ويبصق ، ويضايق الجميع ، ويرسم رسومات غريبة ، ويشوح في الهواء ويتكلم مع نفسه . واستمر هذا سبعة أعوام . وبعد علاج طويل باللارجيكتيل ، اصبح من اكثر المرضى نظاما واخلاصا في العمل في نوتنجهام . وكان يذهب الى القرية، ويرعى شئونه الخاصة بكفاءة . وارسلناه الى منزله تحت المراقبة لمدة اسبوعين، فوجد زوجته مع رجل آخر ، ولكنه لم يكترث حتى من ذلك . فصفى منزله ، وجلب معه معدات الحلاقة ويفكر الآن في أن يستأجر لنفسه حجرة صغيرة في القرية ويفتتح محلا للحلاقة هنا . لم تكن فكرة سيئة . وكان يشرع كل شهرين في القهقهة والتحديق في الفضاء ـ ولكن العلاج باللارجيكتيل لمدة ثلاثة أيام كان كفيلا باعادته الى صوابه .

ويعتبر اللارجيكتيل عقار مدهش حقا ، وان لم يكن غريبا ، بالطبع . انه يعني عصرا جديدا في الطب العقلي . وحتى هؤلاء الذين لم يكن يشفيهم كان يهدئهم على نحو افضل من أي شيء سابق عليه . فحين يكون اللارجيكتيل والعناية الطبية متاحين فلا مزيد من الهياج . كان للاثنين فعل السحر . وحين توفر لنا اللارجيكتيل اصبح من السهولة بمكان تنمية روح الجرانج . واصبح من الجلي أن تتحول جميع المؤسسات الى العلاج بالعمل لانه بفضل اللارجيكتيل لم يعد من الضروري الخوف من المريض ، ولا مبرر للخوف من العنف المفلوت أو النشاط النفسي الزائد القلق . ففي النهاية اصبح عدد الذين لم يسلس قيادهم ضئيلا لدرجة لا تجعل العلاج يضعهم في الاعتبار بقدر ما يضع أولئك الذين يمكن شفاؤهم .

ومع هذا لم يستغل ذلك الآن هناك . تطلعت حولي مبهوتا . ما الذي حدث ؟ واجاب الطبيب العجوز في استسلام : «ادارة جديدة ، مبادىء جديدة ... اننا الآن نعالج المرضى . اخشى الا تكفي الميزانية لكل هذه العقاقير...» .

يونيو ١٩٥٦

أصبح كل شخص يدس للآخر في الجرانج . كيف وصلوا الى هذا في غضون اشهر معدودات ، ظل ذلك غامضا . تزعم كل من المعالج المهني والوكيل زمرة .

واصبح البستاني شديد الانشغال بالدسائس والعمل في منتزه المدينة . وانتقلت معظم المرضات الى نوتنجهام .وزاد عدد المرضين الرجال الاقوياء ــ ولم يكن هذا بالامر الطيب بالنسبة لروح الجرانج . وانطحن الطبيب العجوز بين الفرق المتعارضة . وفقدت المرضة ايما الارض من تحت قدميها ، لقد كانت ممتازة كممرضة ، ولكنها فشلت كرئيسة وعجزت عن مزاولة السلطة .

وانصلح حال السيارة قليلا ، فأصلح ذلك من روح الجرانج . كنت اذهب الى هناك مرة في الاسبوع او كل اسبوعين ، لاهدىء الانفعالات وادعم سلطة الطبيب وايما. وترك النجارون والبناؤن المتازون المكان (بعضهم مشفيا ، والبعض مدمنا) ولكنني استطعت ان احملهم في النهاية على انتزاع القضبان من على النوافذ، معبرين عن روح الجرانج على الاقل بهذا الاجراء الرمزي . ولكن من السهل انتزاع القضبان من المباني عنها من العقول . وبدا من الامور الاكثر سهولة أن تخفف من قيود العقول المريضة عن قيود العقول الصحيحة . ولعل أكثر ما يدعو الى الدهشة تبني العاملين في نوتنجهام لروح الجرانج باستعداد أكبر ، بالرغم من انهم لم يكونوا قديسين . لقد وجدت العديد من الدسائس هناك ، كذلك . فهناك أولا العدد الكبير من السيكوباتيين مدمني الكحول الذين رقوا الى ميكانيكيين، وسائقين، وممرضين ، وبنائين . كانوا جميعا ذوي طبائع متآمرة حقودة متنافسة . لكن الجو المسالم هذا على نحو ما من دسائسهم ، ولم يأخذهم احد مأخذ الجد ــ حتى هم انفسهم . وتسبب الوكيل السليم في مزيد من المتاعب . لم يفهم اي شيء مما يدور في نوتنجهام . وكان يرقب في شغف متى يرتكب أحد المدمنين خطأ حتى يستطيع ان يقول لي في دهاء مرائي اي ضرر اصاب به مرضاي الاقتصاد القومي.

هذا الوكيل التابع لنا . حلمت ذات مرة بامكانيات التطور التي يمكن تحقيقها اذا كانت لي مؤسستي الخاصة ووكيلي الخاص ، ولقد حصلت الآن على وكيل خاص ، اعترف أن وكيل المستشفى السابق كان أفضل منه .

ومع هذا ، كان الجو العام في نوتنجهام طيبا . ورجع هذا في الاساس الى فريق الممرضات الممتاز . لقد رعت الشابات السبع المرضى ، تحت اشراف الرئيسة . كان بعضهن ماهرات ، وبعضهن غير ماهرات ، ولكنهن جميعا تشبعن بروح الجرانج . وكانت روزي هي التي تقود النغم . كانت اكبرهن تبدو بسنواتها الاثنين والعشرين كممرضة خبيرة . كانت قد نجحت في امتحانها في ذلك الوقت، وكذلك فعلت جودي ، ولم يكن هذا هو سبب امتيازهن . لقد عشن لمرضاهن ولمؤسستهن . لقد كانت هاتين الشابتين روزي وجودي ، بمثابة برهان قاطع على ضرورة ألا تكون ممرضات العقول مجرد عاملات مأجورات، بل يجب أن يكن اخوات بالمعنى المثالي للكلمة . ربما يكون من صفط القول الزعم بأن اي فتاة من سن الثامنة عشر الى العشرين تناسبها هذه المهنة ، ولكن من المؤكد أن ثلاثة او اربعة ممرضات ماهرات يمكنهن أن يخلقن جوا يجعل من الوحشية امرا مستحيلا وغير مفهوم . ما الذي جعل هؤلاء الفتيات يتوفر لهن القدرة على التعامل مع العدوانيين

الاشد اضطرابا بمثل هذه السهولة ؟ انها شفقتهن ومرحهن ، ومحضرهن اللطيف ثم حماسهن في الاساس . لم يحدث قط انهن لم يتطوعن لمد يد المساعدة حين يتطلب الامر ذلك لان نوبتهن قد انتهت ، دون أن يشكين بل الاصح أنهن كن يتنافسن مع بعضهن البعض على تحمل الاجساد الثقيلة النائمة أو اعطاء الحقن ، جاعلين عملنا اكثر سهولة بتعليقاتهن المدربة . وادهشني الحماس الذي كن يزلن به الاظافر المهملة ، كان المرضى الذين يقاومون قص أظافرهم اثناء الصحو يتم قصها لهم وهم نيام . وربما كان يبدو غريبا الحكم من مثل هذه البسائط . ولكنني أستطيع أن أقرر أن افضل المرضين هم الذين يلاحظون ـ مثل هذه الفرص ويفيدون منها . والذين لا يخشون أن يأخذوا دشا باردا في الصباح والمساء. ولا يمكن أن يعهد بنظافة المرضى الى ممرضين لا يهتمون بنظافة انفسهم. كان هؤلاء الفتيات نظيفات الجسم والروح ، ولذلك كن ممرضات طيبات .

واضفت الرئيسة شيئا جديدا على اسلوبنا في العلاج بالعمل . لم تكن السيدة الاولى هي الرئيسة هنا وانما أختها . كانت ممرضة ذات خبرة ، لكن هذا كان أول عهدها بمرضى العقول . كان الشيء الجديد هو العمل اليدوي الذي مارسه المرضى تحت توجيهها . والى جانب ذلك ، كان هناك ابتكار في الاسلوب. ذلك هو الدقة . فنظرا لانها تمتلك حسا جماليا غريزيا ، لم تكن تتحمل العمل ضبط عشواء . فأمضت ليالي وراء ليال تنسخ الرسوم الشعبية من المراجع ، وتكبرها وتصنع منها بترونات (نماذج) . ولم يكن من الغريب بعد مثل هذا المجهود ان تسمح بأن تفسد المواد والتصميمات . كنا نعتقد جميعا أنه يكفي المعالج المهني ان يزاول المرضى العمل المنوط به تنفيذه . وقد أدركنا ان العمل المنتج فحسب هو الذي له قيمة علاجية ، ولكن جاءت هذه الرئيسة وعلمتنا أنه يمكن أن نتوقع من المرضى عملا فنيا دقيقا ماهرا . لم يكن يهمها ان تأمر المريض بفك الشغل السيء للمرة السابعة وتشرح مرات ومرات كيف ينبغي أن يتم . واحتج المرضى في البداية ، ثم اكتشفوا بانفسهم على اي نحو اكثر جمالا يمكنهم ان يعملوا ، وتعودا الشغل . ولم يستاؤا من الرئيسة بسبب «عدوانيتها»، فلقد كانت ذات سلطان كبير حتى على المرضى المضطربين بحيث لم يكونوا يجرؤون على مواجهتها بالعمل غير المتقن .

وهكذا ، أصبح من بين سبعة واربعين مريضة ، احدى عشر يمارسن عملا يدويا على نحو فني ممتاز ، ناهيك عن قلة ذات موهبة متوسطة ، او الخياطات واللواتي يقمن بأعمال الترقيع . وانا لا اتحدث الآن عن الاهمية المادية لكل هذا (فلم نكن نستفيد منه) ولا في دوره في جعل المؤسسة اكثر جمالا (كنا نستفيد من ذلك على أوسع نطاق) ولكن عن دلالته بالنسبة للعلاج بالعمل . فمن بين الاحدى عشر كان ثمة مريضتين بالصرع ، وحالتين خطيرتين من حالات السيكوباتية ، وكان سبعة من الفصاميات المضطربات تماما ، التي بعد احقاب من البقاء متعطلات وجدن أخيرا وسيلة للعيش مناسبة ومفيدة ، بل وأكثر من ذلك ، تعيد اليهن كرامتهن

الانسـانية . كان الدرس المنهجي المستفاد ، انه يمكن عن طريق الدقـة والحـزم الاخوي الحصول على عمل ممتاز من بعض المرضى الذيـن في أقصى حـالات الاضطراب العقلي .

ان العمل في مثل هذه المؤسسـة يمكن ان يكون له شأن، طالما باشره المسئولين كائنا بقوة داخلية تحفزهم ، شاعرين انه مجال اهتمامهم الشخصي الخاص ، كمـا فعلت الرئيسـة ، وطالما كان لديهم مسـاعدين متحمسـين مثل روزي وجودي .

انني ادوّن هذا في مذكرتي حتى اظل اتذكر دائما انه مهما كانت اضافاتـي لروح الجرانج ، فلم يكن في مقدوري ان استمر بدون السيدة الاولى ، والرئيسـة وهاتين الشابتين . .

سبتمبر ١٩٥٦ .

كان التاسع من سبتمبر ، العيد السنوي الرابع لوصولنا الى الجرانج .

لقد اضحت رحلة اليومين في سيارة النقل والمساء الذي قضيناه بلا سقف يحمينا ذكرى شاحبة . هكذا كان وصولنا المؤلم عندما لم نجد أية استعدادات .

ولقد نسينا تقريبا على اي نحو من العبوس انتزع الطبيب العجوز المسامير من حائط الحمام ، ونتذكر بالكاد المرض الاسكافي وزميله ، وجوليوس جريم بسكينه وبقية المرضى المحدقين فينا . ما الذي تبقى منهم في الجرانج ، وما الذي اصبح عليه الآخـرون ؟

لدى كراسة سميكة سجلت فيها اسماء وسمات المرضى الشخصية . وفي وسعي ان اقرا مصير اربعمائة صديق وأنا أتصفحها .

ذكريات .. المستر بازوكي الذي اخطأت وحسبت انه البستاني في اليـوم الاول ، عبثا غادر الصديق المسكين الجرانج مشفيا واشتغل بجد في مهنة حاذقة لمدة عام . كان يعيش الان في احد الملاجيء ، مشلولا لقد اصيب بصدمة . ورجع جوليوس جريم الى منزله ، ولم يعد يهدد أمه بسكين المطبخ . وعاد جو بروبريتيور الى منزله كذلك . مع بنادقه الستة والثلاثون . ولا يزال القديس جون المرتعش ها هنا ، يعمل صامتا في الحديقة ، كخادم . واحتفل سبنسر المجـوز بالعيـد السنوي الرابع لوصوله الى الجرانج . لقد جرب حظه في العالم مرتين ، ولكنـه انتهى الى نتيجة مؤداها انه لن يشعر بثبات الارض من تحته الا في ورشة اصلاح الاحذية بالجرانج . وسرعان ما تقضي عام منذ تم تعيينه اسكافيا للمؤسسـة وتمتع بحرية القفص المموه . واقلع العم مايك عن عادة تسبيح الرب بلعنة طويلـة عقب الغذاء واقامة القداس الالهي فوق كومة من السباخ ، لكنه لا يزال يطعم الخنازير في مثابرة . ولقد تسلمنا من فورنا برقية تحية من ستيف (تلغراف) ، كان يعمل ساعيا للبرق في بودابست منذ ما يزيد عن عامين وكان قد بدا يفكر في الزواج . وزارنا اليكس بارنوت بدافع الولاء ، آتيا من مزرعة الدولة حيث يعمل ، بالرغم من انه لا يزال عاجزا عن جمع ثلاثة الى اثنين . ولا زال فرانك كونت ، في مزرعـة اخرى من مزارع الدولة ، كان يخاطب المرضى باعتباره « السيـد الوكيل رئيس

الحسابات» ، ولا يزال يطالب بحقه في عشرين بنجوس يوميا بأثر رجعي منذ خمسة وعشرون عاما . وكان ماثيو صوت الثور يخيف الآن العاملين في مزرعة اخرى بخواره .

مضيت اتصفح الكتاب .

هيلين انكز ، الفنانة الشابة الوهوبة ، لقد عادت الى منزلها منذ عامين، ترعى شئون منزل والدها وتلقيت منها رسالة مؤخرا ، انها على ما يرام . لا زالت لوحاتها زينة الاستراحة في الجرانج . وكف جوتاف عن مسألة الحياة ، كان الآن مودعا بالزنزانة ، ففي هذه المرة لم ينجح في حملهم على تحويله الى مستشفى الامراض العقلية . وكانت مسز ليبزناي لا تزال مشغولة بأعمالها المنزلية الصغيرة كأجيرة في المنازل . وكانت تعود سكرانة قليلا حين تعكف في حجرتها ، لكن عملها لا غبار عليه . وخطب دينين القافز في البئر المرضة ايلا وتزوجها دون أن يقفز الى البئر مرة اخرى . وقد اتما انجاب طفلهما الاول . وعاد اويس المتعدد المهن الى موطنه ببعض الاكتئاب ، كان يفضل الحياة هنا . فكان يعود من وقت الى آخر ينشد الهدوء . وفي المرة الاخيرة قام بالدعاية لاستوديو التصوير الفوتوغرافي في نوتنجهام ، والقى على المرضى سلسلة من المحاضرات الموضحة بالفانوس السحري . وبدأ العم ريبورتر يتقبل فكرة عدم نشر كتابه عن الجنون الان ، وقضى الشتاء في مؤسسة أفضل تدفئة ، ولكننا تلقينا رسالة منه في الربيع تعلن ان «الجوال سوف يعود» . وطردنا مارتين كيمست الذي كان يفيض بالمشروعات العظمى والقذر كعادته . واستطاع ان يصمد ازاء الحياة بعض الوقت ، لكنه عاد وقرر انه من الافضل ان يخلد الى الراحة في مصحة عقلية وكان من المدهش بما فيه الكفاية ، أن يعمل بيتر مارتير على ما يرام في احدى مزارع الدولة لمدة طويلة، ولقد تسلمه والده فيما بعد ، ليستأنف دراساته الموسيقية ، ولم اسمع شيئا عنه بعد ذلك . لم اكن أثق في شفائه . ولا زال والدي القيصر بطرس العاشر يكتبان الينا ، وكذا والدي بول كينسكي (زار نابول مرتين) ، وتم تحويل روزي ما شيت، والقديسة اليزابيث ، من ناحية أخرى الى مؤسسة مغلقة ، وعبثا كان عملهم الجاد عندنا . ولا يزال امير الحزن يقاوم الميكروبات بنفس الحماس السابق ، ويكتب في نفس الوقت بعض القصائد عرضا ، مثل :

عبد عجوز أنا ، لأحزاني وتنهدي ،
خادم الحزن المفضل ،
مكتئب دائما يطعنه الالم
في هذا العالم التعس الباعث على الاسف
روحي المريضة تبحث دائما عن قرين
عن روح أخرى تهيم في هذا العالم
العبوس البارد ، المجهول ، لها نفس المصير
انني كسحابة المساء

أشعر كأنني ابكي ، عاجزا عن المقاومة
شحاذ حطمته ساعات الماضي المحزنة
اتيت من الايام الميتة ، المغطاة بالتراب جميعا
قد اعيش اياما اخر ، او قد تكون هذه هي النهاية !..
انني اقف في الليل الازرق المخضر
كيتيم عاجز ينشد الضوء

عمن من الاصدقاء اتحدث ؟ لقد ظلت ايرما سلندر المتعددة الخطّاب بدون خطيب منذ رحيل أولد تيننت . وتعودت تدريجيا على هذه الحال ، ولم تعتريها نوبة صرع طيلة ستة اشهر . (علما بأنها ـ والكلام موجه للمستر رادار ـ لم تتلق علاجا جنسيا) . واصبح كوتسورني العجوز ميكانيكيا وبطلا للشطرنج في احد المؤسسات الخيرية . واخذ والدا جورج تيتشر ابنهما الى المنزل ولكنه ضرب والده بعد اسابيع قلائل ، واعيد مرة اخرى الى مؤسسة مغلقة . ومن ناحية اخرى يعيش ستيف هستوريان في منزله منذ عام ، وقد استعاد صحته كاملة ، وربما لم يصب بأية انتكاسات . واصبح تاتي العجوز اكثر هدوءا ، ولكنه من وقت الى آخر لا يزال يكرر شكاواه من أولئك الذين سجنوه . واصر احد المسجلين من المدينة على مقابلة ستيف آبل شخصيا ليسلمه ورقة طلاق زوجته فأخذ ستيف آبل الذي كان مختلا تماما ، الوثيقة ولم يصنع بها شيئا مجنونا ، كأن يضعها على رأسه ، وانما قراها جميعا ، بصوت مرتفع وملحن ، بما في ذلك أرقام السجل، ثم أعلن لدهشتنا الفائقة ، بصوت عادي انه فهم محتوياتها . كان امرا يدعو للاسف ، فلقد ذكر ان زوجته رغبت الان في طلاقه وهو مريض ، بعد ان كانا يحبان بعضهما حبا شديدا . ثم عاد يتحدث ثانية بصوت مغاير : «لعلها تريد ان تتزوج ثانية ؟ هذا امر لا يهمني ونستطيع الطلاق ، وفي وسعي ان اتزوج ثانية كذلك . وعلى كل حال ، لقد خلق الناس ليعيشوا ازواجا ، كالحيوانات اليس كذلك؟» وضحك بطريقة اشبهبضحكات مجنون في احدى الميلودرامات الرخيصة.

وكان لدينا مريض آخر وصلته ورقة الطلاق ، ذلك هو فيكتور وايتر . جاءنا مريضا بالهلاوس تعذبه الوساوس . أحضره مرافق «حذر» من بودابست مقيدا. وشفي من جنونه امام اعيننا كما لو كان انفلونزا . ولكن عندما سلمته برقية زوجته التي تخبره فيها بعزمها على طلاقه وعدم السماح له بدخول الشقة ثانية ، اغبر وجهه فيكتور . ولم يصدق الامر في البداية . ولكن بعد محادثة تليفونية ، صدق الامر وعلى مدى يومين عاد يهلوس هلوسة رجل مجنون . ولا ريب ان شيء مشابه سبق ان حدث لجون محطم الاحواض التي اقنعته زوجته بكتابة محتويات الشقة الضئيلة التي اقتناها بعمله الشاق باسم ابنته . ثم خدعته ، وطلقت منه واخذت الفتاة والممتلكات . واعيد جون محطم الاحواض ثانية الى احدى المصحات العقلية، واحيانا ، في المساء ولاسباب لا يعرفها هو نفسه ـ كان يحطم كل شيء يقع تحت يده الى قطع صغيرة ، كمجنون . واهتم عندنا بأحد أحواض الغسيل وسخان

انتزعه من الحائط . ثم انتابه الهدوء ، فصنع السلال وغرس الزهور ،

كنت اتصفح كتابا يضم اربعمائة مصير ، من النجاحات والفشل . ولا يمكن ان يوجه لنا اللوم بالتأكيد لاننا لم نستطع ان نجعل الاربعمائة مريـض يتماثلون للشفاء . ولا كان هذا ما تعاقدت عليه . ومع هذا فلقد قدمنا لهم وقدمنا لانفسنا شيئا ـ العمل والمتعة ، والبيت الصدوق ، والكلمة الحانية ، والاسرة الطيبة ، والقفص المموه ـ شيئا يشبه الحرية ، والسلام ، والهدوء من بعيد ، «مصحة» للحكماء ، والشعراء والرسامين كما كتب آدي .

كان هناك سجلا للزوار كذلك . تضمن كلمات من اقارب المرضى ومن الزوار اعضاء المهنة .

وارادت شابتان عطوفتان كن في زيارة اختهما ، وهي شابة ثالثة ، أن يقدمن لي بقشيشا اقتطعوه من مصاريف المدرس التي جمعوها ، كما اردن اعطاء بقشيش للممرضات وجميع الناس كذلك ، نظرا لانه على ضوء خبرتهما السابقة كان ذلك امرا ضروريا ... وذكرا انهما اعتادا ان تصلهما رسائل من الممرضات في المصحات العقلية الاخرى ، يكتبن فيها ان كارولين بحاجة الى هذا أو ذاك ، ومن ذلك انهن طلبوا مظلة مرتين ـوالسماء وحدها تعلم ما الذي حدث للمظلة التي طلبتهـا كارولين ، ولماذا طلبتها ، وهي لا تخرج من المصحة . اما الان فانها كانت تخرج وزاد وزنها ، واصبحت هي التي تأكل محتويات الطرود التي تتلقاها . واعتذرت لي الأختان والدموع في اعينهما ، وارادتا تقبيل يدي ، وخاطبتني بلقب صاحب السعادة ، وكتبتا في سجل الزوار بعاطفية العصور الغابرة :

«لو كنا شعراء ، لكتبنا قصيدة ، ولو كنا مثالين لنقشنا على الحجر كيف يعني بالمرضى وبأي ضرب من الحب الكريم يعاملون هنا ...»

وترددت أخت ليزلي حامل الجبال طويلا قبل ان تجرؤ على زيارة اخيها ، وعندئذ كتبت :

«حين سأعود مرة اخرى ، سأشعر انني اعود الى منزلي» .

وكتب طبيب عقلي يشرف على احد اقسام العقول في بودابست :

«لقد جئت الى الجرانج متوقعا ان ارى معجزة ، وعادة ما يخيب امل المرء في مثل هذه المناسبات ، ولقد خاب املي حقا . فبـدلا من «المعجزة» وجـدت «الحقيقة» ... ان هذا هو اكبر ما استطاع ان يحصل عليه المجنون من المجتمع منذ العصور القديمة ـ المجتمع الخاص» .

وكتبت زوجة احد اطباء العقول بعد ان شاهدت الكثير :

«هذا هو حيث وربما بدرجة اكبر كذلك كيف أحب ان اعيش» .

وكتبت احدى المشتغلات بعلم النفس :

«منذ زرت المكان وانا أعجب اليس في الامكان مساعدة الاصحاء ...»

وهكذا ، تعليق وراء آخر . امهات وازواج واخوة وأخوات ، وأطباء ومعالجين مهنيين ، وعلماء نفس ، واصدقاء وزوار ، مجهولون . اسلوب طيب ، وأسلوب رديء ، هجاء صحيح وجمل خاطئة مبتذلة ، انسياب متدفـق او استبصار

فردي ــ ولكنها تؤدي جميعا نفس الرسالة .

اكتوبر ١٩٥٦

غدت الحياة رصينة هادئة مسالمة . لم نعد نرسل المرضى المتماثلين للشفاء الى منازلهم او الى مزارع الدولة ، فلقد تعلمنا ان مكانهم هنا ، وان علاجهم لن يصح الا هنا . وجعل هذا من المصحة مؤسسة ابوية . كل شخص عضو في الاسرة ، عطوفين على بعضهم بعضا ، غفورين لضعف بعضهم بعضا ، لم نعد نرغب في تأكيد اي شيء او محاضرة اي مخلوق ، نريد ان نعيش مع المرضى في سلام وحرية فحسب . وفهم المرضى هذا ، وكذلك المرضات . تسبب السيكوباتيين الذين تم تعيينهم في مختلف الوظائف في بعض المشاكل ــ لكن رحبنا بهذا التنويع . كان الامر أشبه بتجربة صغيرة نحو انشاء «مدينة السيكوباتيين» ولكننا خرجنا بخبرةغريبة مؤداها ان«التعيين» لا يفيد السيكوباتيين بالضرورة . ومن ناحية أخرى كان يوجد ثمة سيكوباتيين مستترين بين الموظفين ، أناس لم يأتونا مرضى ــ ولكنهم يسببون من المشكلات اكثر مما يفعل السيكوباتيون «المتمدون» . لا يعتبر السواء او المرض محطا لصلاحية الموظف ، وانما على المؤسسة الانسانية ان تجد او تربي موظفين انسانيين . وهذا لم يكن سهلا على الدوام .

كذلك كان من الواجب بالطبع تدريب المرضى على ان يكونوا انسانيين ، وهذا ليس بالامر السهل كذلك . ولكنه ليس شديد الصعوبة ايضا . ذات صيف تم ارسال مريض الى الجرانج بسبب وقاحته وعدم تعاونه . فلم نصنع شيئا لنغير منه . كان يكفيه ان يتنفس الهواء في الجرانج بضعة اسابيع قليلة ، حتى تغير . لم يسمع منه احد كلمة وقحة لعدة شهور. وأصبح شغوفا راضيا ، شاكرا السلام ، والرصانة والجمال الذي يحيط به .

وكان هذا نفس ما حدث للآخرين . توجد المشاجرات في اي مجتمع وكذلك وجدت لدينا ، لكن كان المرضى عادة يلزمون المتشاجرين أماكنهم . ونشأ ضرب غريب من الاعتزاز بالمؤسسة . لقد اعتزوا بأنهم استطاعوا ان يتواجدوا هنا ودافعوا عن روح المكان .

واقبل مرضانا بخاصة على برامج التسلية في فترة بعد الظهر واصبح للحلقة الادبية جذورا . وكان هناك عرض او محاضرة للمرضى كل ثلاثاء وخميس وسبت، وكانت السينما في ايام الآحاد . وكنت اقدم المحاضرة بنفسي ايام السبت . وتجمع تسعون في المائة من المرضى لهذا الغرض ، وكان الناس يأتون من القرية كذلك . تحدثت عن كلاسيكيات الادب العالمي . ومع بعض المساعدة البسيطة وضعت خمسة مسرحيات ذات فصل واحد تستغرق تسعون دقيقة . ونجحنا نجاحا ملحوظا مع «سيرانو» و«هاملت» و«تراجيديا الانسان» .

«انني اعرف اسمك» هكذا قال احد المشاهدين لي في اليوم التالي على العرض ، ثم استطرد قائلا : «انك العم هاملت ! فلديك قلعة على شاطىء البحر»

قلمة حقيقية ، أليس كذلك» .

واستمر بعد ذلك يدعوني العم هاملت ويدعو السيدة الاولى العمة هاملت . وتقبلت اللقب الجديد بسرور ، بالرغم من انني ، لسوء الحظ ، لم تكن لديّ قلمة جميلة على شاطىء البحر ، لكن شخصية وفلسفة هاملت كانا قريبين الى قلبي . («يعاني نبل العقل من قذائف وسهام الحظ المكدود ..») وما اكثر المرات التي ساءلت نفسي فيها سؤال هاملت المألوف !

اصبحت الامور محتملة الان . وبدا كان سوء الحظ قد ابتعد عن طريقي . كان هناك دائما بالطبع ما فيه الكفاية من المتاعب ، مع الوكيل البقال وسيارتنا التي تحطمت نهائيا ، لكن كان هناك ثمة تحسن كذلك ، وامل في التطور . ووعدنا المجلس البلدي بالارض . وربما يصبح في امكاننا انشاء مزرعة دولة خاصة بناء مستعمرة للمرضى تقوم على الاكتفاء الذاتي . وكان هناك حديث عن قلعة اخرى مجاورة تضم لمؤسستنا ، وتزود بسبعين سريرا آخرين . ومنذ حصل الطبيب العجوز على درجة علمية في الطب العقلي في سن الثانية والسبعين ، اتسعت سلطته في الجرانج . واعيد حفظ النظام ، وغدت روح الجرانج اكثر قوة . وكان يتم بناء مصحة جديدة جميلة في ايجر ، بشمال المجر ، لتنمي من روح الجرانج على نحو اكبر ، على حين تم انشاء اول مستعمرة على نطاق واسع للعلاج المهني في بوميز .

بدا كل شيء على وشك ان يتطور . وانتصر اسلوب الحرية والعمل الهادىء وبدأ ينتشر .

لكن الاحداث اخذت مجرى غير متوقع ، تدخل التاريخ ، ولم يتحمل القفص المموه اضطرابات عام ١٩٥٦ .



فهرست